تربية القلب

في حديث الرسول محمد ﷺ

دراسة تحليلية تربوية

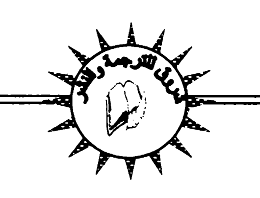
الجزء الثالث

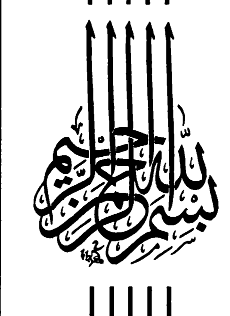
الأستاذ الدكتور
عثمان عبد المعز رسلان

تربية القلب

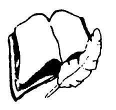
في حديث الرسول محمد ﷺ

دراسة تحليلية تربوية





مؤسسة
شروق للترجمة والنشر



بطاقة الكتاب

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م

اسم الكتـــاب : تربية القلب في حديث الرسول محمد ﷺ

(دراسة تحليلية تربوية)

اسم المؤلف : د/ عثمان عبد المعز رسلان

موضوع الكتاب : رقائق وتزكية

الناشـــــر : مؤسسة شروق للترجمة والنشر

عدد الصفحـات : ٦٢٨

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

عـدد المـلازم : ٣٩,٢٥

رقـم الإيـداع : ١٥٤٦ / ٢٠١٢م

المنصورة – أمام مستشفى الطوارئ
ت : ٢٢٥٢٨٦٠ / ٠٥٠
shrook.mst@gmail.com

تربية القلب

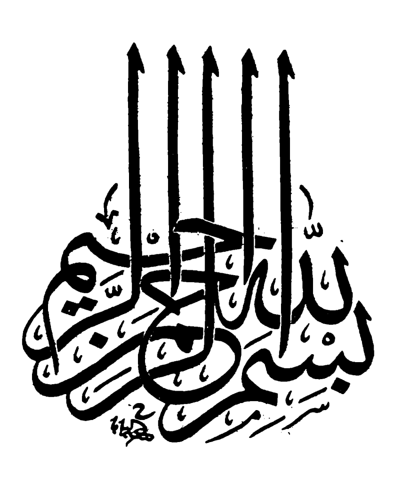
في حديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

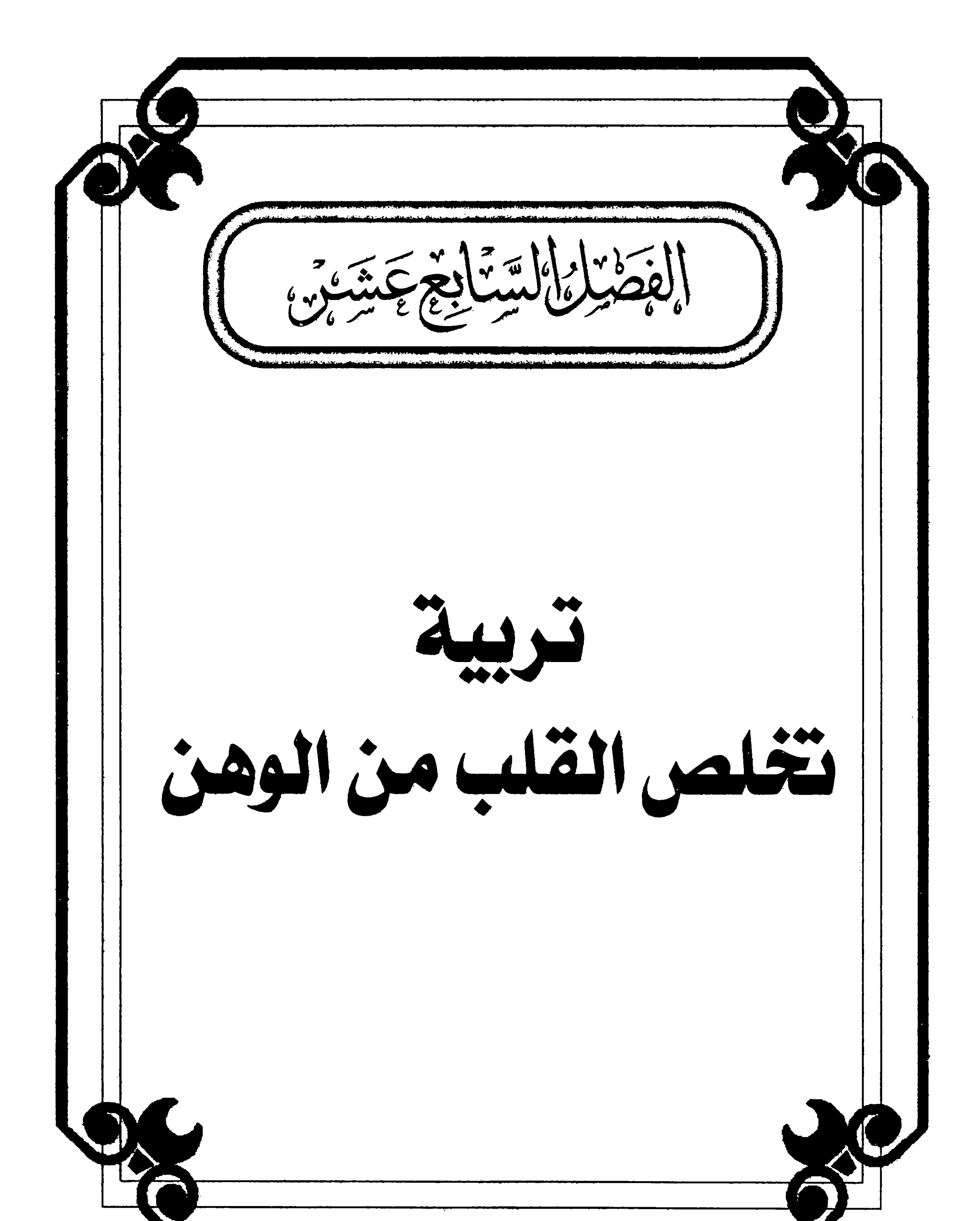
دراسة تحليلية تربوية

الأستاذ الدكتور
عثمان عبد المعز رسلان

الجزء الثالث

مؤسسة شروق
للترجمة والنشر





الفصل السابع عشر

تربية تخلص القلب من الوهن

تربية تخلص القلب من الوهن

أولا: نص الحديث النبوي:

أ- أخرج الإمام أحمد عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها**»، قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ **قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الْوَهَن**» قلنا: وما الوهن؟ قال: «**حب الحياة، وكراهية الموت**»[١].

ورواه أبو نعيم في الحلية: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها**»، قالوا: من قلة بنا يومئذ؟ قال: «**أنتم ذلك اليوم كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن**» قالوا: وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[٢].

ب- وأخرج أبو داود عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[٣].

---

(١) المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٢٩٦، ص ٢٩٥ - قال محققه: إسناده صحيح، وقال الألباني: صحيح، قلت: رواية أحمد فيها اختلاف لفظي محدود مما أورده الألباني في صحيح الجامع (على.. بدلا من إلى..) انظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط ٣، رقم ٨١٨٣، ص ١٣٥٩ وفي الصحيحة تحت رقم ٩٥٦.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١، ص ١٨٢.

(٣) أبو داود: سننه، ج ٤، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم ٤٢٩٧، ص ٩٣.

وفي الرواية التي ذكرها الألباني في صحيح الجامع: «**يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت**» ونسبه لأحمد وأبي داود(٤). وأورده البغوي، وصححه الألباني، في مشكاة المصابيح، مثل رواية أبي داود.

جـ- وأخرج الطبراني في الكبير عن ثوبان قال: قال النبي ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم**» فذكر الحديث(٥).

د- وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لثوبان: «**كيف أنت يا ثوبان، إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه؟**» قال ثوبان: بأبي وأمي، يا رسول الله، أمن قلة بنا؟ قال: «**لا، أنتم يومئذ كثير، ولكن يلقى في قلوبكم الوهن**»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال**»(٦).

قلت: والمعتمد في هذا الفصل رواية أحمد وأبي داود والطبراني عن ثوبان، ونص الألباني في صحيح الجامع ومشكاة المصابيح.

ثانيا: شرحان لهذا الحديث:

لأهمية هذا الحديث، الذي هو علم من أعلام النبوة، وتقرير لسنة من سنن

---

(٤) صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط ٣، رقم ٨١٨٣، ص ١٣٥٩.

(٥) هكذا أورده، ولم يكمله، قال حمدي عبد المجيد السلفي؛ محقق المعجم الكبير: ورواه أحمد.. وابن أبي الدنيا في العقوبات (٦٢/ ١) ومحمد بن مخلد البزار في حديث السماك (١٨٢ – ١٨٣) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٢) من هذا الطريق عن مبارك بن فضالة، وقد صرح مبارك في بعض الطرق بالتحديث، فرفعت خشية التدليس، ورواه أبو داود، والروياني في مسنده (٢٥/ ١٣٤/ ٢) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٨/ ٩٧/ ٢) من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني أبو عبد السلام عن ثوبان قال: قال رسول الله، فذكره، وأبو عبد السلام، وإن كان مجهولا، فإن الاعتماد على الإسناد الأول، وهذه متابعة له، انظر: الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢، رقم ١٤٥٢، ص ١٠٢، ١٠٣. قلت: فالحديث صحيح بمجموع طريقيه.

(٦) قال محققه: إسناده حسن، لولا جهالة حال حبيب بن عبد الله، وهو من التابعين، المسند، ج ٨، رقم ٨٦٩٨، ص ٣٩٦.

الاجتماع الإنساني، وخطورة القضية التي يطرحها، فإنني أنقل شرحين لعلمين من أعلام الصحوة والحركة الإسلامية المعاصرة، هما الشيخ حسن البنا، والعلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني؛ فلنتأمل:

أ- قال الشيخ حسن البنا – رحمه الله – تحت عنوان: داؤنا: «حب الدنيا وكراهية الموت» بعد أن أورد الحديث، وشرح مفرداته(٧):

«الشرح: هو حديث من أعلام النبوة، ومن سنن الاجتماع، وقواعد بناء الأمم في نهضاتها، وكبواتها، وتناحرها، وتنازعها، وفناء بعضها في بعض، حتى يبقى الأنسب، وما أكثر أعلام النبوة! وما أكثر ما يرشدنا الرسول ﷺ وهو أعظم المصلحين شأنا، وأعرفهم بالله وسنته في خلقه، إلى مصادر العظمة، ليحثنا على الاستمساك بها، وإلى أسباب الفناء لينفرنا منها، ولكن المسلمين بعدوا عن هذا المعين الذي لا ينضب، والورد الذي لم يتكدر، وخاضوا في وَشَلٍ (ماء قليل غير متصل) من الآراء، والنظرات، فوقعوا في فشل النتائج والثمرات.

قضية هذا الحديث: أن النبي ﷺ يقول لأصحابه: سيأتي وقت من الأوقات، يستضعفكم غيركم من الأمم، فيدعو بعضها بعضا إلى التهامكم، والقضاء على دولتكم، ويرتفع بذلك النداء فيما بينهم، ويكون القضاء عليكم أمنيتهم، التي فيها يفكرون، ولها يعملون.

فقال أحد الأصحاب الكرام، الذي ما كان يخطر لهم ذلك ببال، لأنهم بالإيمان يعتزون، وبنصر الله يؤيدون: هل نكون حينئذ عددا قليلا، يا رسول

---

(٧) نشر هذا الشرح في سبتمبر ١٩٣٤، على ثلاث حلقات، وعمر الشيخ ٢٨ سنة، والغرب الأوربي يحتل ديار المسلمين، واليوم (١٨ إبريل ٢٠٠٣م) عاد الاحتلال الأمريكي البريطاني الكافر لديارنا في أفغانستان، والعراق، مع فلسطين.. والحرب شديدة على دين الله، والمؤمنين بالإسلام، فلنتأمل الشروح لهذا الحديث، انظر هذا الشرح كاملا في: حسن البنا: نظرات في السنة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ١٦٥ – ١٨٠.

الله؟ وإلا فما الذي يدعو هذه الأمم إلى استضعافنا، والتهجم على عزتنا، والطمع في دولتنا؟ (...) كأنه ﷺ ظن أن الأمم تضعف وتقوى بكثرة العدد، ووفرة الأفراد، فكشف له رسول الله ﷺ عن سر القوة، وأبان له مصدر العظمة، وعرفه أن الأمم لا تقاس بكثرة أفرادها، ولا بعدد رجالها، فقال له: «**لا، بل أنتم يومئذ كثير**»:

كثير في العدد، كثير في الأشخاص، كثير في الأفراد، ولكنكم ضعاف الهمم، خامدو العزائم، ميتو النفوس، خفاف الأحلام والقلوب، غثاء طفيلي، يطفو على وجه الدنيا، لا يرد عاديا، ولا يمنع ظالما، ولا يحمي حقيقة، كذلك الغثاء الذي يطفو على وجه الماء حين السيل.

ولقد أردف المصطفى ﷺ هذا البيان عن أخلاق الأمة، حين الضعف، ببيان نتائجه ومستلزماته في حياة الأمة العامة، وذلك أن الأمة، إذا وصلت نفسيتها إلى هذا الحد من الخور؛ نزع الله من قلوب أعدائها هيبتها، وخلت صدورهم من رهبتها والخوف منها؛ فاجترؤوا عليها، وامتدت ألسنتهم وأيديهم بالسوء إليها، وقذف الله في قلوبهم الوهن، فأحبوا الحياة واطمأنوا بها، وركنوا إلى الدنيا، وفرحوا بزهرتها، وكرهوا الموت والتضحية في سبيل الحق: فأدى بهم ذلك: إلى الفناء في غيرهم، واكتساح دولتهم، أو يبدل الله بهم قوما: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

تلك هي قضية الحديث الشريف، وأنت فيه أمام عبر ثلاث؛ كل منها تسترعي النظر، وتقف بالفكر:

أما أولاها: فصدق هذا الحديث، وانطباقه، تمام الانطباق - على حال الأمم الإسلامية؛ كيف طمع فيها أعداؤها، واجترأ عليها خصومها، وتداعوا

إلى التهامها، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وكيف نزع الله من قلوب أعدائها المهابة منها، وقذف في قلوبها حب الدنيا، وكراهية الموت، وهم عدد كثير، كعديد الطَّيْس؛ (الكثير من كل شيء، الخلق الكثير النسل نحو النمل والذباب والهوام).

ولا أدري ماذا يكون جواب هذه الأمم الكثيرة (...) إذا وقفت أمام ربها ووقف معها أهل بدر، الذين لم يجاوز عددهم ثلاثمائة رجل ونيفًا، فقال لهم ربهم: هؤلاء بضع مئات نصروا الإسلام وأيدوه، وأنتم ملايين من البشر؛ خذلتموه، وأضعفتموه، كيف يكون جوابهم حينذاك؟

اللهم ألهمنا حجتنا، ووفقنا إلى عمل صالح، يصلح عذرا بين يديك، ومنجاة من تبعة الغفلة والتقصير.

إن أعداء الإسلام تداعوا عليه؛ كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها[٨]، وما أروع هذا التشبيه وأدقه! من حيث اهتمام المتداعين بالنداء، ومن حيث الإشارة إلى ما في نفوسهم من سعار الجوع، ونهم الشهوة، وسرعة الالتهام.

لقد تداعى التتر على الأمة، فسال بهم سيلهم، ونالوا منها، وبلغوا من ذلك ما أرادوا أن يبلغوا، حتى قوضوا الدولة العباسية، وعفوا آثار المجد الإسلامي الباذخ في عصرها.

ولقد تداعى من بعدهم الصليبيون من أمم أوربا (...) ودوى بينهم بوق الجشع في الاستيلاء على الشرق، فكانت تلك الحملات التسع التي لاقى الشرقيون ما لاقوه.

ولقد هيأ الله للإسلام- في هاتيك العصور- من رد كيد المعتدين، وخضد (كسر) شوكة الظالمين، وأبقى دماء المسلمين، ولقد كانت في الأمة الإسلامية

---

(٨) الأكلة: جمع آكل، وهو الجوعان الذي يأكل بنهم، تتداعى الأمم: يدعو بعضها بعضا.

بقية من روح، وحمية، ونخوة إيمان، وقومية، كانت عدتهم عند النوائب، وسلاحهم عند الطوارئ.

وفي هذه العصور الحديثة تداعت أمم أوربا على الشرق: تهدم بنيانه، وتصدع أركانه، ووضعت المسألة الشرقية(٩) حلما لذيذا حلوا يراه كل غربي في اليقظة، ..وتعمل أوربا لتحقيقه، عمل المحب المستهام، وتسعى في كسح دولة الإسلام القائمة، حتى يتم لها ما تريد ببلاد الإسلام، وتستعين في ذلك – وهو الأنكى والأدهى والأمر – **بهدم تعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام، وتحتل النفوس والأفكار قبل أن تحتل البلاد والديار، حتى إذا تم لها ما تريد لم تجد نفسا قوية تطالب بحقها، ولم تلق روحا مؤمنة تستمد قوتها من إيمانها**(١٠).

خطة مرسومة، وطريقة معلومة، لم ينفعنا علمنا بها، ولم يزعنا (يكفنا ويمنعنا) ألمنا منها عن غشيانها، بل كنا كالفراش يعلم أنها النار، ثم يقربها وتلذعه، فلا يجانبها حتى يحرق بحرها، ويفني بشررها.

كذلك كان موقف أوربا من الأمم الشرقية (المسلمة) وموقف الأمم الشرقية من الأمم الغربية، حتى وصلوا من اهتضام (ظلم وغصب وقهر، وبلع) حقوق المسلمين إلى ما ترى من خزي وعار.

فمن للإسلام في ساعته يرد عنه الكيد، ويرد له المجد، ويحمي بيضته، ويذود عن عرينه؟

هناك كانت بقية من أبطال المسلمين، ردوا عادية التتاريين، وهناك كان صلاح الدين دفع كيد الصليبيين.

---

(٩) هذا هو التعبير الذي كان يطلق على احتلال أوربا لبلاد المسلمين، في تلك المرحلة.

(١٠) يشير الشيخ البنا، رحمه الله، إلى عمليات التغريب، والتربية التغريبية الدنيوية التي مورست على أبناء المسلمين.

فمن رجل اليوم؟

ومن بطل الساعة؟

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا.

تلك عبرة تسيل الدمع، وتذيب القلب، وتأخذ من النفس، وما كان الألم ليرد حقا، وما كان الظن ليغني عن الحق شيئا.

أما العبرة الثانية في الحديث:

فانظر كيف أن المصطفى ﷺ يصارح أمته بأن القلة والكثرة لا معول عليهما في قوة الشعوب وضعفها؛ فكم من أمة كثيرة العدد، كثيرة الأفراد، ولكنها ضعيفة مستعبدة، لا تدفع ضيما ولا ترد كيدا.

وكم من أمة قليلة العدد، ضيقة الرقعة، ولكنها عزيزة الجانب، مرهوبة الصولة، محفوظة الكرامة.

فالذين يعتمدون على الأرقام الحسابية في نهضات الشعوب، مخطئون كل الخطأ، وذلك أمر يؤيده القرآن الكريم، كما ينطق به الحديث الصحيح، كما يؤيده التاريخ الصادق.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقصة طالوت وجالوت عبرة للمعتبرين: فقد كان طالوت في قلة من العدد، وبخاصة بعد أن تخلف عنه معظم جيشه، بعد الابتلاء بالنهر، وكان في ضعف من العدد، بعكس خصمه جالوت، الذي كان في عدد عديد(...) وَجَحْفَلٍ لَجَبٍ (جيش عرمرم كثير) يحجب الشمس، ويسد الأفق، وكان من أمرهم ما قاله الله – تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم

بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٥٠ – ٢٥١].

وهما موقفان من أروع المواقف في القرآن الكريم، لو فهمهما المسلمون، وتأملوا ما فيهما من روائع حكم الله وسننه في خلقه؛ لعلموا تمام العلم أن الكثرة والقلة ليستا شيئا مذكورا في حساب الخصومة بين الشعوب، والنهضات في الأمم.

موقف المسلمين في بدر، وقد كان أعداؤهم ثلاثة أمثالهم، وفوق ذلك، ثم كتب الله لهم النصر، وامتن عليهم بذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وموقفهم في حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦](...).

ورووا أن خالدا في أحدى وقائعه سمع رجلا(...) يقول: ما أكثر العدد وما أقلنا! فغضب، وقال: ويحك، إنما يكثر الرجال ويقلون بالإيمان والصبر.

أفرأيت صدق هذه الفراسة، وتقدير الرجال للرجال.

ولولا أن الأمر كذلك لما رأيت ثلاثين مليونا في جاوه، وغيرهم كثير (يقصد المسلمين في إندونيسيا وما جاورها، وكان هذا عددهم ذلك الوقت، وهم الآن أكبر تجمع للمسلمين في العالم) يسترقهم سبعة ملايين من الهولنديين، ولما رأيت خمسين مليونا من الإنجليز يحكمون ربع المسكونة(...).

هذه عبرة تدعو المسلمين إلى إصلاح نفوسهم، وتقوية رجولتهم، وما أجمل أن يشبه المصطفى ﷺ تلك الأمة الكثيرة العدد، الضعيفة القلوب، الخاوية الأفئدة بأنها غثاء كغثاء السيل، تلعب به الأمواج، وتعصف به الرياح،

ويلـين لكـل غـامز، ويجـري في كـل تيـار؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

أما العبرة الثالثة في الحديث الشريف:

فهي حقيقة رائعة، تسترعي النظـر، وتـستهوي الفكـر، وتـستوجب مـن رؤسـاء الـشعوب وقـواد الجماعـات، ودعـاة المبـادئ أن يقـدروها قـدرها، ويجعلوها محور خططهم، ودعامة جهادهم، تلكم العبرة هي:

بيان أعظم الأخلاق تأثيرا في حياة الأمم والشعوب، فقد أشار النبـي ﷺ إلى هذا الخلق إشارة واضحة جلية، بعد أن بين أن كثرة العدد لا تغني فتيلا.

وبيان ذلك: أن الأخلاق الفاضلة، وإن اشتركت في حسن الأثـر، وإنتـاج الخير، إلا أن منها ما يعود أثره وخيره على الفرد نفسه، وتلـك هـي الفـضائل الشخصية، كالزهادة، والورع – مثلا – ومنها ما يعود على المجموع، وينهض بالأمة، وتلك هي الفضائل الاجتماعية، وأظهـر أثرهـا: «التـضحية في سـبيل الجماعة».

وإذا نما هذا الخلق في أمة من الأمم، أو جماعة من الجماعات؛ كان انتصارها وفوزها محققا.

وإنما يساعد على نمو هذا الخلق في الـنفس: أن تستـصغر هـذه الأعـراض الفانية، وتتلذذ بما في التضحية من حلاوة وجمال.

والناس في هذا الخلق صنفان: صنف يتناساه، ويحقر من قيمته ويقول: إذا مت ظمأن فلا نـزل القطـر، ويـرى أن مـن حقـه أن يـستغل هـذا المجمـوع، ويـسخر مـن اسـتطاع مـنهم في سـبيل مـصلحته الذاتيـة، أولئـك الأنـانيون النفعيون؛ أهل الأثرة والشح؛ وأولئك هم سوس الأمم الـذي يهـدم بنيانهـا، ويفسد كيانها، ويجعل نهضتها عقيما لا تلد، قاحلة لا تنبت خيرا، ولا تدر برا.

وصنف قدر هذا الخلق، وآمن به، فهو يشقى ليسعد الناس، ويألم ليتحمل عنهم آلامهم، ويتعب ليرتاحوا، ويسهر ليناموا، وينفق ليجلب لهم الثروة والرخاء، ولسان حاله يقول:

فلا هَطَلَتْ عَليَّ ولا بأرضي　　سحائب ليس تنتظم البلاد

أولئك هم أهل الإيثار، والفضل، والسخاء، والبذل، الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وأولئك، وإن كانوا قلة في الأمة، ندرة في الشعوب، وغرة في جبين الزمن، إلا أنهم دعائم النهضات، ومعاقل المبادئ السليمة، وأنصار الحقائق، وشموس هداية الكون.

وما زال التاريخ يحدثنا أن هؤلاء هم الذين تحيا بهم الأمم، وتنهض بفضل تضحياتهم الشعوب والدول، **وإن أمة اليابان الحالية، ليس هناك مَنْ سِرٍّ في عظمتها وارتقائها إلا نمو هذا الخلق، واستكماله في أبنائها** (ثم ساق الشيخ موقفين في التضحية من أجل الوطن الياباني، ثم قال:) ولئن كنت تقرأ هذه الصفحات المجيدة في تاريخ الياباني الحديث، فتهتز لها نفسك، ويمتلئ قلبك إعجابا بهذه النفوس، وتقديرا لها، فإنك واجد أمثال هذه الصفحات كثيرا في كتاب المجد الإسلامي في تاريخ الصدر الأول، وإن موقف نسيبة بنت كعب، حين وقفت بين يدي رسول الله ﷺ وقد أخذت تناضل وتجالد، لا تبالي بجراحها القاتلة، ودمائها السائلة، وتستنهض ابنها، وقد آلمته ضربة من خصم جبار عنيد، فتضمد جراحه، وتقول: قم فجالد القوم، ونافح (جاهد، ورد الكيد) عن دينك ونبيك، هذه إحدى الصفحات التي سطرت بحروف من نور تاريخ الإسلام المجيد(...) وإن موقف سمرة بن جندب ورافع بن

خديج، هذين الفتيين اللذين تسابقا بين يدي رسول الله ﷺ - على حداثة السن، وغضارة العود إلى ميدان الجهاد- صفحة أخرى من هذا الكتاب المجيد(...).

هو خلق واحد، وسنة الله لا تجد لها تبديلا، لا تنهض الأمة إلا على هام الضحايا، ولا ترقى إلا بجهود المجاهدين، الذين يحمون الحقيقة بالنفس والمال.

فإذا ألفت الأمة الشهوات، وركنت إلى اللذائذ، وأحبت الدنيا، واطمأنت إليها؛ فقل: على مجدها وعزتها العفاء، وفي قصص الأندلس عبرة لأولي الألباب.

وبعد، فهل رأيت، أيها القارئ الكريم، كيف أجمل المصطفى ﷺ هذه المعاني الجليلة، والمرامي النبيلة، والغايات السامية، والحقيقة الغالية، في كلمتين اثنتين:

فقال قائل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: **«حب الدنيا وكراهية الموت»**.

ولا غرو؛ فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم.

فهل يعتبر المسلمون فيصححوا نفوسهم، ويستكملوا رجولتهم، ويفيقوا من سكرة الشهوات، ويتجهوا إلى ميدان العمل؟

اللهم حقق.

ب- تعقيب على شرح الشيخ حسن البنا - رحمه الله:

إن هذا الشرح الدقيق، المرتبط بنص الحديث، ومراميه، والواعي بالتاريخ، وبالواقع، وبنهج التغيير وشروطه النفسية، يبلور سبع حقائق مهمة، هي:

١- انطباق مضمون الحديث على واقع المسلمين في المرحلة التاريخية

الراهنة، فالحديث علم من أعلام النبوة.

٢- حاجة الإسلام والأمة المسلمة - اليوم - إلى رجال وأبطال مثل قطز وصلاح الدين، ونسيبة، وخالد.

٣- القلة أو الكثرة، بذاتها، ليست هي معيار الضعف، أو القوة، والذلة أو العزة، والتخلف أو النهضة، في الأمة، وإنما المعيار هو: الإيمان والصبر، وأخلاق الرجولة والتضحية..أي: أن شروط النهوض والتغيير هي شروط عقدية ونفسية، وخلقية أولًا.

٤- إن علة حالة الغثائية والوهن التي أصابت الأمة المسلمة هي:

- احتلال الغرب للنفوس والأفكار، وتغريبها، وتفريغها من الإيمان بالإسلام، والقوة النابعة منه، والدخول في الخطة التربوية التغريبية التي هدفت لذلك، وهي نار تحرقنا.

- تربية أخلاق النفعية والأنانية، والدنيوية في أبناء المسلمين.

٥- إن أساس إنقاذ المسلمين من هذه الحالة هو: إصلاح النفوس وتغييرها؛ أي: تربيتهم إيمانيًا، وخلقيًا.

٦- إن أعظم الأخلاق تأثيرا في هذه الحالة هو التضحية في سبيل الله، وتربية روح الجهاد، والاستشهاد، والمنافحة عن دين الله، وعن الأمة، مما يوجب ضرورة تنمية هذه الأخلاق في المسلمين ليقدروها، ويكملوها، لتكوين مجاهدين يحمون الدين والأمة، ويفيقون من حالة الغثائية، ويتجهون إلى ميدان العمل، بحيث تكون أسمى أمنية للمسلم هي (الموت في سبيل الله).

وقد كرر الشيخ البنا هذا الأصل لينميه في المسلمين، وأكتفي بآخر فقرة من رسالة الجهاد، يقول: «إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب لها الله الحياة العزيزة في الدنيا، والنعيم الخالد في الآخرة، وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا أنفسكم لعمل

عظيم، واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة، واعلموا أن الموت لابد منه، وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموها في سبيل الله؛ كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة، وما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، وتدبروا جيدًا قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فاعملوا للموتة الكريمة؛ تظفروا بالسعادة الكاملة.

رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد في سبيله»(١١).

فتربية المسلمين على إحسان صناعة الموت، وحب الاستشهاد في سبيل الله، هو الطريق للعزة والكرامة، وثواب الله، وصناعة الحياة.

٧- بدون هذه التربية واكتساب هذه القيم، يركن الناس إلى الدنيا، ويحبونها ويكرهون الموت، فيحدث ما حدث.

«**تداعي الأمم علينا كتداعي الأكلة إلى قصعتها..**».

هذا هو شرح البنا، أما شرح المرحوم الألباني فهو:

جـ- قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني- رحمه الله - وقد سئل: «س: ما هو المعنى المقصود بقول الرسول ﷺ: «**وليقذفن في قلوبكم الوهن**»، قالوا: ما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»:

«معنى ذلك: أن المسلمين **أجساد خاوية** على عروشها، فارغة، هذا الحديث يدل على أنها فارغة من التربية الصالحة؛ لأنه يقول: «**وليقذفن في قلوبكم الوهن، حب الدنيا وكراهية الموت**» وإن أظهر ما يظهر على المسلمين اليوم هو تكالبهم على الدنيا، وحرصهم عليها، بحيث لا يحرصون على شيء من دينهم أو عقيدتهم، كما يحرص أحدنا على دنياه؛ على الاستكثار منها، وعلى زخرفها، ونحو ذلك، فكان من آثاره؛ من نتيجة ذلك؛ عدلا من الله، أن جعل

---

(١١) حسن البنا: رسالة الجهاد، في مجموعة: الله في العقيدة الإسلامية، دار الشهاب، القاهرة، ص ٨٣.

كثرتنا كغثاء السيل، هـذا مـرض يـشير إليـه الرسـول ﷺ في هـذا الحـديث، والغاية منه: ليس إلقاء التواكل في قلوب المـسلمين، هكـذا أخـبر، كـما أخـبر بكثير من أشراط الساعة، وهو لا يقصد من ذلك إلا تنبيهنا: أنكم إن صرتـم هكذا؛ جزيتم هكذا، وهذا واقعنا اليوم، فالعلاج، إذن، هو أن نـربي أنفـسنا، وأن نطهرها من أن تدخل الـدنيا في قلوبنـا، ونـتمكن منهـا، فحينئـذ يـصبح شأننا: شأن الأمم الكافرة، الذين لا يهمهم من حياتهم العاجلة إلا الدنيا.

وهناك مرض أشار إليه الرسول ﷺ في حديث آخر كذلك، قلما نقرؤه، أو نفهم حرفيته، أيضا فيه وصف مرض يـأتي، يجـب أن نعالجـه؛ لا أنـا وأنـت، وفلان وفلان وعلان، وإنما الأمة كلها، هذه التي تفخر بكثرة عـددها، ينبغـي أن يجتمع كل من يسمى اليوم بالدعاة الإسلاميين، يجب أن يجتمعوا جميعا على توجيـه المـسلمين؛ بتفهـيمهم أولا: بعلـتهم ومرضـهم، ثـم بتقـديم العـلاج والدواء.

ما هو المرض الثاني الذي أخبر بـه الرسـول ﷺ؟ هـو مـرض أخطـر مـن الأول؛ هو انقلاب مفاهيم المـسلمين لنـصوص الـشريعة انقلابـا معكوسـا، فيعملون بالإسلام وهم يحاربون الإسلام لجهلهم بالإسلام، ذلـك مـا أشـار إليه نبينا ﷺ بقوله في الحديث الذي أسمعتكم إياه أكثر من مرة، ولكن - مـع الأسف - قلما أجد له أثرا في كثير من الـشباب الـواعي، ألا وهـو قولـه: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقـر، ورضـيتم بـالزرع، وتـركتم الجهـاد في سبيل الله، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»[١٢].

انظروا هذا الحديث: كيف يشهد لقول الإمام مالك: (لا يصلح آخـر هـذه الأمة، إلا بما صلح به أولها) و (مـا لم يكـن يومئـذ دينـا، لا يكـون اليـوم دينـا)

---

(١٢) سيأتي تخريجه في أثناء شرحنا بعون الله.

فالرسول ﷺ يقول: «**إذا فعلتم كذا وكذا سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**» فهل نحن الآن أذلاء أم أعزاء؟ أظن هذه النقطة لا خلاف فيها(...) بالإجماع، كلنا يشهد بأن المسلمين اليوم أذلاء، وليسوا أعزاء، فلم هذا؟ الجواب في نفس الحديث: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله**» فإذن، رسولنا قد وصف لنا في هذا الحديث: الداء الأول: هو حب الدنيا وكراهية الموت، والداء الآخر، وهو الأحط، وهو قوله: «**إذا تبايعتم بالعينة**»، التبايع بالعينة هو نوع من المعاملات الربوية، فهو يقول: إذا استحللتم الربا، لا يعني: إذا أكلتم الربا؛ فهذا بلاء أصاب المسلمين الآن- إلا من شاء الله- خاصة من التجار، منهم؛ يأكلون الربا، ولكن كثيرون منهم يعترفون بخطئهم، ويقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله، مضطرون! ولكن لا يقولون: لا، هذا ليس بربا، إلا أفرادا منهم يأكلون الربا، ويسمونه بغير اسمه، يسمونه بيعا، وهذا مثال ذكره الرسول ﷺ باسم: بيع العينة، إذا تبايعتم بالعينة، فَقَرْنُ بيع العِينَة مع هذه الأشياء يدل دلالة واضحة على مخالفتها للشريعة، فماذا هو بيع العينة؟

بيع العينة: هو أن يشتري المسلم الحاجة بثمن مؤجل، ثم يعود فيبيع تلك السلعة؛ الشيء الذي اشتراه بثمن مؤجل، لنفس البائع، بثمن معجل، أقل من الثمن المؤجل، دورة ولفة لاستحلال ما حرم الله من الربا، بصورة أوضح: رجل يريد ألف دينار..نقدا، من الذي يقرضه هذا المبلغ قرضا حسنا؟ فيلجأ إلى هذه الطريقة من التحايل على ما حرم الله، باستحلال ما حرم بطريق اللف والدوران»[١٣].

---

(١٣) الحاوي من فتاوى الشيخ الألباني، إعداد أبي يوسف محمد بن إبراهيم، مكتب العلمية للتراث، ط ١، بنها، ٢٠٠١م، ص ١٦٢ – ١٦٤.

ويقول تحت عنوان: الاعتصام بالكتاب والسنة: «هناك كلمة للإمام مالك، إمام دار الهجرة، رواها الإمام أبو إسحق الشاطبي في كتابه الاعتصام - ومعناها: الاعتصام بالكتاب والسنة، تلك الكلمة التي تستحق أن تكتب بماء الذهب حقا، ذلك لأنها وضعت الخطة والمنهج الذي يجب على المسلمين، لا سيما في الأزمنة المتأخرة، وبخاصة منها زمننا هذا، ذلك قوله رحمه الله: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة، اقرؤوا قول الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣][١٤]. هذه المسألة التي أريد أن ألفت النظر إليها، ليست من المسائل التي اختلفوا فيها، فإنهم اجتمعوا جميعا على أن صلاح الأمة الأولى أمة محمد ﷺ الذين تلقوا من رسالته السماوية مباشرة بدون واسطة، ألا وهم الصحابة، بماذا صلح أمر هؤلاء الصحابة؟ لا شك أن ذلك- بالإجماع- إنما هو الإيمان والعمل الصالح، إنما صلح أمر الأمة الأولى، التي هي قدوتنا بالإيمان والعمل الصالح، والعكس بالعكس، يخسر الناس جميعا حينما يعرضون عن هذا السبب الذي أخذ به السلف الصالح، فصلح أمرهم في دنياهم قبل آخرتهم، العكس بالعكس تماما، كما قال الله في السورة المباركة القصيرة العظيمة: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، هذه السورة جمعت تلك القاعدة التي لفت إمام دار الهجرة نظرنا إليها، بقوله: (ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) بماذا صلح أولها؟ (...) بالإيمان والعمل الصالح(...) ولكن مع الأسف: اختلف في تفسير ما قامت عليه القاعدة: من

---

(١٤) نص مالك كاملا، كما أورده الشاطبي: «قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ فما لم يكن يومئذ دينا؛ فلا يكون اليوم دينا، انظر: الإمام الشاطبي: الاعتصام، الجزء الأول، المكتبة التجارية الكبرى، مكتبة مصر، بالفجالة، القاهرة، ص ٤٩.

الإيمان والعمل الصالح، ولا شك أن سبب هذا الاختلاف هو الذي رمى إليه الإمام مالك في هذه الكلمة من أولها إلى آخرها، ولذلك سمعتموه يقول: ومن ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدا خان الرسالة(...) يقول لنا: إن الإحداث في الدين، ولو بدعة واحدة، مهما كانت(...) فهو إحداث في الدين، واتهام لمن أنزل عليه هذا الدين بأنه لم يبلغ الرسالة(...) إذن، فما هو المخرج؟ الجواب: في كلام الإمام مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، وكلمة مالك هذه، هي في الواقع تلخيص لما دل عليه الكتاب والسنة، فقد ذكرت لكم قوله ﷺ: «**أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل**»، هذا ينطبق علينا كثيرًا، ومن المؤسف أن بعض الكتاب.. اليوم، يفخرون بكثرة عدد المسلمين، ولا ينتبهون إلى هذا الوصف الذي ذكره رسول الله ﷺ، بوحي السماء لنا، لكي نتخذه عبرة بالغة أن القضية ليست بالكثرة؛ لأنه يقول: «**أنتم يومئذ كثير غثاء كغثاء السيل**»، ثم إنه ﷺ في هذا الحديث، أشار إلى أمر، نحن أيضا نغفل عنه، وكأنه تتمة لاعتدادنا وفرحنا لكثرة عددنا، لا ننتبه لقوله ﷺ: «**وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت**».

إذن، هذه الكثرة الكاثرة من عدد المسلمين الذين وصفهم رسولنا ﷺ، في هذا الحديث بأنهم غثاء كغثاء السيل لا تساوي شيئا.

فبيع العينة إن كان مجسدا في إنسان يريد أن يستقرض مئة دينار، أو ألف دينار، فهو لأنه لا يعيش في مجتمع إسلامي، كذلك المجتمع الذي يدعو الإمام مالك إلى أن نقتدي به، لا يجد من يقرضه ذلك القرض، الذي ينشده؛ لانفكاك الرابطة الإسلامية بين أفراد المسلمين، حيث صاروا غثاء كغثاء السيل، لذلك فهو حين لا يجد من يحسن إليه بالقرض الحسن، فلقد سول الشيطان لبعض المفتين قديما أن يجد طريقا لذلك الإنسان أن يستقرض بطريق

يجوز به القرض لأهل المال: لأنهم سيستفيدون من ذلك القرض (ثم ضرب الشيخ مثالا لبيع العينة) وهذا هو الربا، ولكن كما قال الرسول ﷺ: يسمون بغير اسمه، فإذا كان الرسول أشار إلى مرض سيصيب المسلمين فيما بعد، وهو الاحتيال على استحلال ما حرم الله من المحرمات، (...) ففعلنا ما فعل اليهود قديما، الذين احتالوا على استحلال ما حرم الله، وقصة اصطيادهم السمك في يوم السبت، المحرم عليهم العمل فيه، معروفة بنص القرآن الكريم، وهناك في السنة نماذج أخرى(...) لقد أصابنا ما أصاب اليهود من استحلالهم حرمات الله، وبالتالي، سيصيبنا- إن لم يكن قد أصابنا- ما أصاب اليهود من الذل، لقد أصابنا الذل، لماذا؟

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] هذا مثال بيع العينة معروف(...) أما تسمية الخمر بالبيرة، والويسكي؛ فهذا معروف لديكم جميعا.

إذن، لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، صلح أولها: بالإيمان الصحيح، بالمفهوم الصحيح، والعمل الصحيح، وليس بالاقتصار على الإيمان فقط، والإعراض عن العمل الصالح.

لذلك: فنحن اليوم بحاجة لمعالجات جذرية أساسية جوهرية جدا جدا، لا أهم منها إطلاقا، ولذلك سمعتم في سياق الحديث السابق: «**إذا تبايعتم بالعينة**» جاء فيه: «**وتركتم الجهاد في سبيل الله**» هذه الأمور كلها إذا تجمعت «**سلط الله عليكم ذلا، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**».

إذن، العلاج واضح جدا في هذا الحديث في كلمة واحدة: «**أن نرجع إلى ديننا**» لكن كيف الرجوع إلى ديننا اليوم؟ (...) ربنا في القرآن قد نص على ما يشبه ما نص عليه الحديث، وهو يستقي من القرآن بداهة، حين قال: ﴿إِنَّ

اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١]، فنحن الآن فينا هذه الأمراض، بعضها اعتقادية فكرية، وبعضها الآخر أخلاقية تربوية، فنحن لا ينصرنا الله؛ لا يغير ما فينا من ذل ومهانة؛ إلا إذا غَيَّرنا ما بأنفسنا: «**لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**» فالقرآن والسنة يتجاوبان مع بعض، لأنهما كلاهما (كذا) يصدران من مشكاة واحدة.

فهل المسلمون اليوم، وهم يشعرون بهذا الذل الذي ران عليهم، هل هم عند هذا الموقف الذي لفت نظرنا إليه الإمام مالك، بناء على نصوص الكتاب والسنة، وقد ذكرت لكم بعضها، وهو: أن نرجع إلى ديننا لنفهمه أولا فهما صحيحا ونتربى على هذا الفهم الصحيح.

المؤلم جدا جدا أن أكثر الدعاة الإسلاميين لا يدندنون حول هذه النقطة الخطيرة، إطلاقا؛ لا يدندنون حول التصفية، ولا حول التربية(...) وأعني بالتصفية: فهم الدين على منهج السلف الصالح(...) فالتربية الإسلامية هي مأخوذة، قواعدها وأسسها، من التربية الغربية الكافرة الفاجرة.

فإذن، نحن نعني تربية إسلامية مستقاة من الكتاب والسنة، وليس من كتب الرجال، ولا سيما إذا كانوا غير مسلمين، فلذلك نحن اليوم مهما تحمسنا وعلمنا من قيام الأعداء علينا جميعا من كل صوب، فسوف لا يفيدنا ذلك شيء، بحكم ضعفنا، والآية والحديث توضحان: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[الرعد: ١١]، «**سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**» .

فإذن، رجوعنا إلى الدين بالمفهوم الصحيح، والتزامنا بالتربية الإسلامية الصحيحة على الكتاب والسنة، وعلى منهج السلف الصالح، هذا الذي ندعو الناس إليه منذ قرابة نصف قرن من الزمان، ومع ذلك تجد أفرادا قليلين

جدا.. هم قليلون، ثم هم متفرقون، ولم تسنح لهم الفرصة بعد لكي يجتمعوا على كلمة واحدة، وهي كلمة (لا إله إلا الله) بالمفهوم الذي فهمه سلفنا الصالح المقرون بالعمل الصالح: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]؛ لذلك لا يكفينا الكلام، ونحن لا نعمل بالإسلام، بل لا نفهم هذا الإسلام، الذي نريد أن ننصره، وفاقد الشيء لا يعطيه؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين»(١٥).

د- تعقيب على شرح الألباني:

يتفق هذا الشرح مع شرح البنا، لكن يضيف عليه شرح حديث آخر مهم جدا، ويربطهما ببعض، ويقرر الحقائق الآتية:

١- أن الحديث ينطبق على المسلمين اليوم، وأن أكثرهم فارغة قلوبهم من التربية الصالحة، وأنهم متكالبون على الدنيا..وأن هذا هو واقعنا اليوم، وهو متفق مع البنا في هذا، مع أن بين الشرحين حوالي خمسين عاما.

٢- أن العبرة ليست بالكثرة الفارغة..التي انفكت الرابطة الإسلامية بينها، وأرادوا استحلال ما حرم الله، وجهلوا الإسلام وتركوا الجهاد..إلخ، ويتفق هذا مع تقرير البنا كذلك، لكن يضيف عليه مضمون الحديث الثاني.

٣- أن التربية الشائعة في المسلمين اليوم هي تربية غربية كافرة، فاجرة، وهذا يتفق فيه مع البنا، كذلك.

٤- أن المسلمين فيهم مرض أخطر من المرض الأول: (حب الدنيا..) وهو التحايل على استحلال ما حرم الله».. وهذا يتطلب تربية تفهم المسلمين

---

(١٥) الحاوي من فتاوى الشيخ الألباني، مرجع سابق، ص ٨٣ – ٨٨.

دينهم، وتربيهم على ما فهموه فهما صحيحا، وهذه إضافة أضافها المرحوم الألباني، لكنها كما أرى، نتاج لحب الدنيا في القلوب، فلما هيمنت الدنيا على القلوب اتجهت إلى تحايل على الإسلام، رغبة في الدنيا..إلخ.

٥- إن سبيل الإنقاذ هو: تربية إسلامية صحيحة قائمة على الإيمان الصحيح، بالفهم الصحيح، والعمل الصالح، والعلم الصحيح، على منهج الرسول ﷺ، وحسب مقولة الإمام مالك: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

تربية: تربي الإيمان، والعقيدة الإسلامية، وتدفع للعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله.

وهو يتفق مع البنا في ذلك أيضا، وكلاهما استشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

لكن الألباني حدد مرجعية التغيير، وهو منهجية السلف الصالح.

٦- أضاف الألباني – رحمه الله – مبدأ التصفية، أي: تخليص الإسلام من البدع، وتخليص العمل الإسلامي منها كذلك، للوصول إلى فهم إسلامي صحيح، صاف، من كتاب الله، وسنة الرسول، الصحيحة الصافية، وهذا هو منبع الصلاح، والإصلاح في الأمة.

٧- لكن الألباني رحمه الله، لم يصل إلى العمق النفسي في بيان علة الغثائية في المسلمين اليوم، ولا إلى العمق التربوي لإنقاذ نفسية المسلمين من حالة الغثائية والدنيوية، وهو المتمثل بتربية إيمانية، وخلقية تكسب المسلمين الإيمان بالله، والبعث بعد الموت، وأن الموت آت، ومحتوم، وأن الحرص عليه طريق الحياة العزيزة، وتكسبهم التضحية، وحب الجهاد في سبيل الله.. وهو ما أضافه البنا رحمه الله.

والخلاصة أنهما شرحان متكاملان متضايفان لا بد منهما معا، فرحمهما الله تعالى.

ثالثا: شرح وتحليل إضافي:

أ- تشخيص حالة الأمة:

قلت: إن الحديث معجزة للنبي ﷺ، فهو كما قال البنا والألباني بحق يصف واقعنا اليوم، في هذه الحقبة التاريخية الراهنة، فالنبي ﷺ يتحدث عن أحوالنا السياسية والاجتماعية والدولية والنفسية والخلقية والتربوية وذلك بوحي من الله، وأتناول ذلك فيما يلي:

١ - **الأمة**: كثيرة العدد، أكثر من مليار وثلاثمائة مليون إنسان، لكنها كثرة واهنة، خفيفة الوزن جدًّا، ليس لها ثقل إيماني، ولا علمي، ولا خلقي، ولا اقتصادي، ولا سياسي، ولا دولي، ولا عسكري، فالبدع الشركية منتشرة، والحكم بغير ما أنزل الله هو السائد، والاستبداد يفتك بها، وانتهاك كرامة الإنسان، هو خاصة عامة فيها، والتمزق والصراع يدمر وحدتها، واعتقال الأبرياء من المسلمين في سجون الطواغيت سمة لها، والتبعية الثقافية، والسياسية والاقتصادية للغرب والنصارى واليهود خاصة من خصائص حكوماتها ونظمها الراهنة، وأحزابها العلمانية التي تفلسف للإلحاق الثقافي والسياسي والاجتماعي بفرنسا، وأمريكا، فهي حالة تغرب، وتأمرك، وتابعية للأيدلوجيات غير الإسلامية.

ولا إبداع في عالم العلم والتقنيات والتصنيع، ولا قوة لها عسكريا، بناء على ذلك، فأسلحتها مستوردة، متقادمة، وأرضها مكشوفة، ونفطها يشفطه الغرب، واقتصادها هش، وتعليمها لا يربي الشخصية المسلمة، وهي مفتوحة لعمليات البث الإعلامي المستهدف لتزييف الوعي، ونشر القيم الأمريكية، وهي محاصرة بالنظام الغولمي الأمريكي المعسكر، مربوطة بالدولار، ترهب

الخلاص منها، فتستسلم له، تحتل أمريكا والصهاينة ثلاثا من دولها، وترهب باقي الدول هذا الغول الأمريكي الذي يذيقها المذلة: مذلة الخوف، من المخالفة، ومذلة التبعية، وخفة الوزن، أو انعدام الثقل الإيماني والخلقي والعلمي.. والانكشاف الاقتصادي، والعجز العسكري هو الذي أفرز حالة (القابلية) للغزو والاحتلال – في الأمة، التي حدث فيها فراغ عقدي، وإيماني، وخلقي، وثقافي، واجتماعي، وسياسي.

هذا الوضع العاجز هو ما يشكل (القابلية) لهيمنة الآخر، وملئه لهذا الفراغ، وقدومه، دون رهبة، ودون خوف مقاومة، من هذه الأمة الواهنة، الفارغة.. الخفيفة الوزن.. فجاءت الأمم يدعو بعضها بعضا، جاء اليهود، وجاءت أمة الإنجليز، وأمة الأمريكان، والأسبان وغيرهم، يدعو بعضها بعضا لالتهام القصعة، أي: الأمة وثرواتها، ووضعها، وموقعها الاستراتيجي – إلخ.

وهذا ما عبر عنه الحديث: «**يوشك**» أي: يقرب، وقد حدث ذلك، «**أن تداعى عليكم الأمم**» وفي رواية «**أن تتداعى الأمم**»، هكذا يدعو بعضها بعضا، بصوت عال، فيستجيب بعضهم لبعض، «**من كل أفق**» من روسيا وأستراليا والهنود، والأسبان، والإنجليز، والأمريكان، من كل أفق، «**كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» فهم نهمون لنا، للسيطرة علينا، لأنهم يؤمنون أنهم أفضل منا، ونحن أقل منهم، ونهمون لثرواتنا، جائعون لخيراتنا، واستعبادنا.

وهم لذلك كله، يريدون الهيمنة علينا، لأكلنا بنهم كما يأكل الجائعون الطعام اللذيذ في القصعة.

٢- **الأمة**: غثاء كغثاء السيل: أي: كالزبد، والرغوة، وما يتجمع، دون رابط، على تيار الماء، فهي غثاء، محمول، لا نفع، ولا إرادة له، وليس تيارا مترابطا، يحمل غيرها، ويشق طريقه بإرادته، وينفع في الأرض، ويمكث فيها

بقوة ورسوخ.

فالأمة لا تشكل - والحالة هذه - قوة إيمانية تتجسد في مجتمع متماسك مترابط، ملتزم بهوية إسلامية، فاعلة في التاريخ، سياسيا ودوليا، إنها لا تشق الأرض للزرع والصناعة، بل يشق لها أعداؤها الأرض لكي يدفنوها.

هذه الغثائية نتاج للفراغ العقدي من الولاء والبراء، ومن الحب والبغض، والموالاة والمعاداة، والمؤاخاة الإسلامية، ونتاج لروح الخلقية الأنانية النفعية، ونتاج للدنيوية التي تغلغلت في القلوب، ففككت المجتمع، وأحدثت التحاسد والتنافس، والتقاطع، والتباغض، والالتهاء عن منهج الله..، وفصمت الروابط الإيمانية..فأصبح كل إنسان في الأمة، في واد ذاتي مفصوم عن الآخرين.

هكذا – بفعل عمليات التغريب، والتربية التابعة للنهج العلماني الدنيوي، والإعلام التابع، المستحمر للقلوب والإرادات والعقول- حدثت حالة الغثائية.

٣- **الأمة**: مستسلمة كخروف مشوي مجهز، رائحته نفاذة تدعو الجائعين، فهي كقصعة الطعام، وأعداؤها أكلة جائعون، تداعوا من كل أفق، في تحالف سياسي، استراتيجي وعسكري، منظم على مستوى دولي، مجهز بتقنية المعلوماتية، وما بعد الإنترنت، وما بعد الأسلحة النووية، بالقنابل الذكية، وطائرات الشبح، المجهزة بالقنابل الموجهة بالأقمار الصناعية.. تداعوا جميعا (من كل أفق) ليأكلوا الأمة: المستسلمة، جاءت أمم الغولمة الأمريكية، لنهب بلادنا، وشفط بترولنا، ومعادننا، ومياهنا، وثرواتنا الزراعية، وقهر حرياتنا واستقلالنا، وكراماتنا، والحيلولة بيننا وبين الالتزام بمنهج ربنا، وحكم أنفسنا بأنفسنا، ولنهب (قلوبنا، وعقولنا) لنكون تابعين لهم عاطفيا، وثقافيا،

وسياسيا واقتصاديا.. وتربويا.. إنهم جاؤوا فعلا لأكلنا، لبلعنا في بطونهم، لاقتنائنا فيهم.

جاءوا نيرانا متحالفة مع نيران النظم الجبرية- التي ثارت عليها شعوبها في بعض دولها للتخلص منها- التي تحل ما حرم الله، وتقهر الناس، وتحكم بالعسكر والأحكام العرفية، وبحماية أمريكية، لهذه النظم، ليشتركوا معا في إنضاجنا على نيران القهر والاحتلال.. تحالف بعضهم مع بعض للفتك بالقصعة.. والأمة؟! كغثاء السيل.

ب- تحديد عوامل الغثائية من منظار تربوي:

١- افتقاد مقومات الإنسان المسلم: فالأمة: كثرة، تفتقد قيم ومقومات الشخصية الإسلامية الفاعلة في التاريخ، وفي العالم، تفتقد القلوب المؤمنة، المستيقنة بالله، والإسلام والدار الآخرة، وتعرف الله، وتعبده، وتواليه، وتنصر منهجه: إيمانا واتباعا وتحاكما، تفتقد القلوب المخمومة، التقية، النقية، النظيفة من الغل، والحسد، والحقد والبغضاء، والغدر، والغش، فهم قلوب مصابة بداء الأمم، تفتقد القلوب إلى تفهم الدنيا فهما صحيحا، وتحب الآخرة، وتخالق الناس بخلق حسن، تفتقد العقول الرشيدة المبدعة في العلوم والتقنيات، وابتكار الجديد النافع في كل مجال من مجالات عمارة الكون، والأرض والدنيا، تفتقد النفوس القوية، الحرة، المختارة، المستقلة، الرافضة للتبعية، والانهزام النفسي، تفتقد أخلاق التماسك، والتضامن والتكافل، الاجتماعي، والمؤاخاة، وروح التوحد، والولاء، والمناصرة، تفتقد الإيمان بالقيم السياسية الإسلامية المؤمنة بالشورى، وحق الأمة في اختيار حكامها، وأن تكون عيارا عليهم، تفتقد الوعي السياسي العميق بتاريخها، وقضاياها، وأعدائها، وتفتقد قدرات المشاركة الفاعلة في كل المجالات المجتمعية، تفتقد الوعي بالزمن، وأهميته، وتعجز عن استثمار أوقاتها، فتهدره كأنه مياه تسيح على رمال الصحاري..

تفتقد روح التكتل الإسلامي وروح الوحدة، والروح المؤمنة الموصولة بالله، وبالرسول وباليوم الآخر، وبالقرآن الكريم، تفتقد الخلق الحسن، مع الناس، والأشياء، والطيور والحيوانات، تفتقد القيم الاقتصادية الإسلامية..فتهدر أموالها، وثرواتها.

تفتقد مقومات الإنسان المسلم الصحيح، وهذا هو ما يشكل **العلة الأولى لهذه الغثائية.**

إنها العلة الراجحة للتربية، في المدارس، والجامعات ووسائل الإعلام، والبيوت.. التي أنتجت- على مدى قرون من الزمن- هذه النتائج في الشخصية المسلمة، فأصبحت وقد تحقق فيها ما ذكره الرسول ﷺ في الأحاديث الآتية:

١-١ : أخرج أبو داود عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**(١٦).

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أدخل الله عليهم ذلا، ثم لا ينزعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»**(١٧).

ورواه الطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، **«إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أدخل الله تعالى عليهم ذلا، لا يرفعه عنهم؛ حتى يراجعوا دينهم»**(١٨).

---

(١٦) أخرجه أبو داود؛ انظر: السنن، ج ٣، كتاب الإجارة، باب في النهي عن العينة، رقم ٣٤٦٢، ص ٢٥٣ وإسناده حسن كما قال شعيب الأرناؤوط، انظر تخريجه لزاد المعاد، ج ٣، ص ٧٨.

(١٧) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١، ص ٣١٢.

(١٨) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ٦٧٥، ص ١٧٧، وفي الصحيحة رقم (١١).

هكذا في صحيح الجامع ولفظ الطبراني عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر قال: أتى علينا زمان وما يرى أحد منا أنه أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم، وإنا في زمان؛ الدينارُ، والدرهمُ أحب إلينا من أخينا المسلم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتركوا الجهاد في سبيل الله، ولزموا أذناب البقر، وتبايعوا بالعينة، سلط الله عليهم بلاء لم يرفعه حتى يراجعوا»**(١٩).

ورواه عنه بلفظ: **«إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، أرسل الله عليهم ذلا، لا يرفع عنهم حتى يراجعوا دينهم»**(٢٠).

ورواه أحمد في المسند عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا» يعني: **«ضن الناس بالدينار، والدرهم، وتبايعوا بالعين، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء، فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»**(٢١).

فهذه روايات لهذا الحديث الصحيح تحدد أسبابا عقدية وخلقية واقتصادية واجتماعية لحالة الذل المسلط علينا، **«سلط الله عليكم ذلا»** **«أدخل الله عليهم ذلا»** هذه الأسباب هي:

---

(١٩) قال حمدي السلفي: وهو حديث صحيح؛ لمجموع طرقه، وانظر السلسلة الصحيحة، لشيخنا الألباني، رقم ١١، الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٢، رقم ١٣٥٨٣، ص ٣٣٠، ٣٣١.

(٢٠) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٢، رقم ١٣٥٨٣، ص ٣٣١ وهو صحيح بشواهده. وقال الشيخ شعيب في تخريج زاد المعاد عنه مثل رواية الطبراني الأولى: حسن، وابن القيم، زاد المعاد، مؤسسة الرسالة، ج ٣، ص ٧٨، هامش رقم (٣).

(٢١) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٤، رقم ٤٨٢٥، ص ٤١٤. وساق ابن القيم رواية أحمد ثم قال: «ورواه أبو داود بإسناد صحيح، (...) قال شيخنا رضي الله عنه: وهذان إسنادان حسنان، أحدهما يشد الآخر ويقويه... إلخ».

انظر: ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، المجلد الثاني، دار الحديث، القاهرة، ص ١٤٥.

أ- الضن بالدينار والدرهم، أي: الشح، بالمال، وهذا نتاج حب الدنيا، والشح مرض اجتماعي، ونفسي واقتصادي.

ب- نتاجا للشح، وحب الدنيا حدث التبايع بالعينة، وهو تحايل على استحلال الربا، كسب للمال الحرام.. فالضمير أصبحت تهيمن عليه الدنيوية، وحب المال..وعشق الحياة الدنيا..فتغيرت القيم الموجهة للإنسان، وأصبحت هي الشره، وأكل المال الحرام.. وهذا نتاج لحب الدنيا.

جـ- إذلال النفس للدنيا، والركون البالغ لها، والطمأنينة بها..وإرادتها وحدها، وهذا هو المعبر عنه بقوله: «**واتبعوا أذناب البقر**» «**وأخذتم أذناب البقر**» أي: مشيتم وراء البقر (رمز الحرث والزرع) وأنتم قد رميتم لها حبالها على أعناقها، وأمسكتم بذيولها.. إعجابا بها، واطمئنانا، وسرتم وراءها.. «ورضيتم بالزرع» أي: قنعتم بحب الزراعة، وانشغلتم بالمادة، قال أحمد شاكر: «يريد أنهم تفرغوا للزرع، وأذلوا أنفسهم للأرض، وتركوا الجهاد..وهذا شيء مشاهد: ظهرت آثاره في المسلمين، حين صاروا عبيد الأرض والزرع، بل هو ظاهر في كل أمة استعبدتها الأرض، وقصرت نفسها على الزرع»(٢٢).

وهذه الجملة فيها دلالتان خطيرتان:

الأولى: أنهم تبعوا أذناب البقر، ورضوا بالزرع، نتاجا للحب الشديد للدنيا، وإرادة البقاء فيها.

والثانية: أنهم اكتفوا بالمجال الزراعي، دون المجال الصناعي والتجاري، والملاحي، والعسكري.. فتخلفوا في هذه المجالات، وبالتالي عجزوا اقتصاديا وعلميا، وعسكريا.. فكانوا قصعة سائغة للأمم الجائعة القوية.

وكلا الأمرين هو نتاج لمنهج فاشل في تربية أبناء المسلمين، منهج لا يربي

---

(٢٢) أحمد شاكر: المسند، المصدر السابق، تحت الحديث رقم ٤٨٢٥، ص ٤١٤.

قيم الإسلام في الإنسان المسلم، بل يربي قيم الدنيوية، والتغرب، والركون إلى الدنيا، ولا ينمي قيم الزمن والتصنيع، وقيم الإبداع العلمي والتقني...إلخ.

د- ونتاجا لذلك كله، حدث ترك الجهاد في سبيل الله؛ لأنه قد حدث حب شديد للحياة الدنيا، وخوف جبان من الموت أو القتل، فكان النتاج هو ترك الجهاد.. لذلك السبب نفسه، تربية دنيوية، وتربية تكره المسلمين في الجهاد.. وتحذف مقرراته من الكتب إرضاء لليهود، والأمريكان، وعملائهم من حكام الجبرية والاستبداد العسكري الديمقراطي.

وترك الجهاد هو إلقاء للنفس في التهلكة، كما قال أبو أيوب الأنصاري: «إنما نزلت الآية فينا، معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام؛ قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها، وندع الجهاد..»[٢٣].

وأية تهلكة تفوق حالة الذل التي يعيشها المسلمون الآن؟!

هذه الجوانب الأربعة أنتجت حالة الذل، أو الوهن، والتخاذل، في نفوس الناس، لأنهم تركوا دينهم، وهجروه، فلم يعرفوه، بسبب عمليات التجهيل التربوي، وتزييف الوعي الديني، ولم يعملوا به: إيمانا، وأخلاقا، وجهادا.. وتصورا وحركة، بسبب غياب التربية الإسلامية الحقيقية في مؤسسات الأمة.

ولن تقدس الأمة من جديد، ولن ترفع حالة الذل عنها، إلا بالرجوع إلى دينهم.. «**حتى يراجعوا دينهم**» «**حتى ترجعوا إلى دينكم**»، والرجوع إلى الدين يستلزم عمليات تربية حقيقية تغير عالم الأفكار والمعتقدات، وعالم القيم

---

(٢٣) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (١٦٦٧) والحاكم (٢/ ٢٧٥) ووافقه الذهبي، والحديث أخرجه أبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٦) انظر تخريج: ابن القيم: زاد المعاد، ج ٣، ص ٧٩ هامش رقم ٢.

الموجهة، والأخلاق، وعالم المشاعر والعواطف والاتجاهات، وعالم العادات والسلوكيات والمواقف والتصرفات.. تغييرًا ينطلق من مقومات عبادة الله وحده التي شرحناها في فصل سابق، مستهدفًا إنهاء حالة الوهن..والذل التي أصيبت بها الأمة، وذلك بتربية إيمانية قلبية، وتربية عقلية معرفية، وتربية روحية، وعاطفية، وزمنية، وخلقية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، تنمي كل مقومات الإيمان والإسلام في الكيان الإنساني، ليكون إنسانًا عابدًا لله وحده، متبعًا لمنهجه، معمرًا في الأرض، تقيًّا، نقيًّا، على خلق حسن، يعمل في الأرض، وقلبه وجل، يراعي الجزاء والحساب يوم القيامة، محبًا لله، مضحيًا في سبيله، مريدا للشهادة، في رضا الله، عارفًا بدينه، عاملًا به في كل وقت، وفي كل مكان يوجد فيه.

بهذا تحدث مراجعة الدين، ونقضي على مقومات الذل السابقة.

١-٢: قال البخاري: باب(...) ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «**جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمري**»(٢٤).

وأخرجه أحمد ثلاث مرات عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده، لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»(٢٥)، وفي رواية لأحمد: «**وجعل الذل والصغار على من خالف أمري..**»(٢٦).

---

(٢٤) فتح الباري، ج ٦، كتاب الجهاد، باب ٨٨، ص ٩٨ قال ابن حجر: «هو طرف من حديث أخرجه أحمد(...) وفي الإسناد: عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان: مختلف في توثيقه، وله شاهد مرسل بإسناد حسن، أخرجه ابن أبي شيبة، عن طريق الأوزاعي، عن سعيد بن جبلة، عن النبي – بتمامة» المصدر السابق، ص ٩٨.

(٢٥) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٤، رقم ٥١١٥، ص ٥١٦.

(٢٦) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٥، رقم ٥٦٦٧، ص ١٧١ وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط ٣، رقم ٢٨٣١، وإرواء الغليل (رقم ١٢٦٤) وحجاب المرأة المسلمة، ص ١٠٤، وشرح الجملة الأخيرة في الهامش، ص ١٠٤، ١٠٥.

فالذلة والصغار؛ الهوان، جعل لمن خالف أمر رسول الله، ومنهجه، وشرعه، فإذا حدثت مخالفة شرع رسول الله، في الحكم السياسي، والأحكام والممارسات الاجتماعية، والفردية، نتجت حالة الذلة والصغار في الأمة، ولا يقدس الأمة سوى عملها، العمل التربوي الذي يعلم المسلمين أمر رسول الله، ويعرفهم دينه، ويزيح حالة الجهل والالتباس، ويفقهه الناس، ويربيهم على اتباع دين محمد ﷺ: دين عبادة الله وحده لا شريك له، بمقوماتها التي شرحناها في فصل (تربية الإيمان في القلب).

١-٣: وهناك أحاديث كثيرة يمكن مراجعة كتاب (الجواب الكافي) بخصوصها، في هذا الموضوع، أكتفي منها بحديث واحد صحيح:

أخرج ابن ماجه، عن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال:

«يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسِّنين وشدة المؤونة وجَوْر السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القَطْر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»(٢٧).

وساقه في صحيح الجامع بلفظ: **«يا معشر المهاجرين، خصال خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن**- وساق الحديث إلى أن قال: **- وما لم**

---

(٢٧) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٦٢، ص ٣١٦، والسلسلة الصحيحة رقم (١٠٦) وقال البوصيري: «رواه الحاكم.. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، هذا حديث صالح للعمل به (...) ورواه البزار والبيهقي، من هذا الوجه، ورواه الحاكم بنحوه، من حديث بريدة، وقال: صحيح الإسناد، ورواه مالك بنحوه، موقوفا على ابن عباس، ورفعه الطبراني وغيره، إلى النبي ﷺ» انظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج ٣، ص ٢٤٦.

تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل، ويتحروا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»(٢٨).

وقد شرح الشيخ حسن البنا - رحمه الله - هذا الحديث شرحا لا يسعنا أن نتركه، قال:

«**المفردات والتراكيب**: فشا الأمر: ذاع وانتشر.

أخذوا بالسنين: أخذوا بالقحط، ونقص الثمرات، واشتداد الأزمات.

شدة المؤنة: كثرة المطالب وإلحاح الحاجات.

القطر: المطر والغيث.

جعل الله بأسهم بينهم: أوقع الخلاف والفرقة في صفوفهم.

أسمعت - أيها القارئ - هذا الحديث، وتدبرته، وفهمت معناه.

وبربك: ألست ترى أن المصطفى ﷺ كأنما يحدثنا نحن عن عصرنا هذا، فيقص علينا من حوادثه، ويبين ما ترتب عليها من النتائج المؤلمة، والثمرات المرة المحزنة؟

هذا حديث شريف، يا عزيزي - قصه المصطفى ﷺ على المهاجرين من أصحابه (...) واستعاذ بالله - تبارك وتعالى - أن تظهر هذه الخصال في أصحابه الذين أحبهم، ومنحهم عطفه وشفقته؛ لما يعلم من سوء أثر هذه الخصال، وأنها داعية البلاء والشقاء، والانحلال والفناء في كل أمة ظهرت فيها، وكل جماعة فشت فيها.

فلماذا نرضى نحن أن تفشو بيننا وتنتشر هذه المفاسد، التي لم يرضها

---

(٢٨) وقال: صحيح، صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط ٣، رقم ٧٩٧٨، ص ١٣٢١، والصحيحة رقم (١٠٦).

وقال محقق الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي): (.. ولكن له طريقًا أخرى في مستدرك الحاكم (٤/ ٥٤٠) بسند حسن) انظر: ابن القيم: الداء والدواء، ص ٧٠، ٧١.

المصطفى ﷺ لأصحابه، واستعاذ بالله منها، وحذرهم من الوقوع فيها.

وألست ترى - أيها العزيز - أن هذا الحديث الشريف معجزة، من معجزات بلاغة الرسول ﷺ وعلم من أعلام النبوة، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم:٣].

وهل علمت - أيها العزيز - **أن** عالما اجتماعيا أو باحثا «سيكولوجيا» أو فيلسوفا باحثا في طبائع الأمم وسنن الاجتماع يرقى إلى مثل هذا البيان الرائع، والحكم الصادق، والتصوير الدقيق في العلل التي تعترض حياة الأمم، وما يترتب عليها من أعراض وآثار؟

كفاك بالعلم في الأمي معجزة   في الجاهلية، والتأديب في القيم

وبعد: فلا نريد أن يكون حظنا من أحاديث نبينا ﷺ وإرشاداته السامية: أن نعجب بألفاظها فحسب، ونتغنى بصدقها فقط، فذلك لا يزيد صاحبها كمالا فوق كماله، ولا يضيف إليها جمالا أنضر من جمالها، ولكننا نريد أن يكون الحظ الأوفر من دراسة الحديث على صفحات هذه الجريدة: الاعتبار والعظة، والمبادرة إلى العمل بما فيه الخير لنا، والابتعاد عن ما فيه الشرور والآثام.

وهذه خصال خمس، ذكر النبي ﷺ أن لكل واحد منها أثرا شديد السوء في حياة الأمم:

أولاها: فشو الفاحشة، وظهور الزنى في الأمة، حتى يصير ذلك متعارفا لديها، والأثر الذي يترتب على ذلك: أن تفشو الأمراض، وتكثر العلل في هذه الأمة، حتى تهدم صحتها.. وتحطم أعصاب أبنائها.

وقد ظهرت هذه الخصلة -مما يؤسف له- في هذه الأمة الإسلامية، وفشت حتى اعترفت بها بعض حكوماتها، وحمتها قوانينها..فظهر مع ذلك، ما لم نكن نعرف من الأمراض الخبيثة.. مما قضى على فتوة الشباب، وحطم أجسامهم بقدر ما نال من رجولتهم، وهدم من عزتهم.

وثانيتها: نقص المكيال والميزان: وضعف الأمانة، وخراب الذمم، والغش، في البيع والشراء، وهذه الخصلة إذا ظهرت في أمة ترتب عليها آثار ثلاثة: القحط والأزمة، وكثرة المطالب وزيادة النفقات، واشتداد الحكام.

ومن الأسف أن هذه الخصلة تجلت في الأمة الإسلامية فظهرت آثارها.. الآفات الزراعية.. الأزمة المالية تأخذ بخناقهم.. وهذه الحكومة تشتد عليهم في المكوس والضرائب(...).

والخصلة الثالثة: أن يتملك الشح نفوس الأغنياء من الناس، فيبخلوا بحق الفقراء..الذي جعله الله في أموالهم، للسائل والمحروم، والذي يترتب عليه دوام الألفة، والمحبة والتعاون بين طبقات الأمة.

فإذا تملك الشح نفوس الأغنياء، فمنعوا الزكاة؛ عاقبهم الله، تبارك وتعالى، بمثل عملهم، وجزاؤه عدل، فمنع عنهم موارد رحمته وغيث نعمته وحبس عنهم القطر، ومنع المطر(...).

وما أشد التوبيخ في هذه العبارة: (ولولا البهائم لم يمطروا)، فوا أسفاه حين ينحط بنو آدم- الذين كرمهم الله وفضلهم – عن منزلتهم، فيكرمهم الله لأجل البهائم.

والخصلة الرابعة: أن تنقض عهد الله ورسوله:

وما عهد الله ورسوله إلى الناس: إلا التمسك بكتابه، والعمل بدينه، والإخلاص في عبادته، والابتعاد عن وساوس الشهوات، وهمزات الشياطين ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذا هو عهد الله مع الناس: أن يؤمنوا به إيمانا يشجع نفوسهم، ويقوي على

الحق قلوبهم، ويدفعهم إلى الخير، لا يهابون في سبيله أحدًا، ولا يخشون فيه لومة لائم، وأن يحلوا كتابه ودينه من نفوسهم المحل اللائق به، فيحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويقيموا أحكامه؛ فإذا فعلوا ذلك فقد صدقوا ما عهدوا الله عليه، وإذا أهملوا؛ فقد نقضوا ميثاقهم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

هؤلاء الناكثون: إنما جزاؤهم أن يمنع الله عنهم نصره، ويسلط عليهم عدوهم(...) فيأخذ ما في أيديهم من أرض ومال وعزة وسلطان، وذلك ما يشكوه المسلمون في هذا الزمان.

والخصلة الخامسة: أن يصنع الناس لأنفسهم أحكاما غير ما (شرع) الله، ويعطلوا هذه الأحكام السماوية التي وضعها لهم بارئ السموات والأرض، وعالم خفيات الأمور، ومكنونات النفوس.

فإذا انصرف الناس عن حكم الله إلى حكم وضعوه من أنفسهم كثر الخلاف بينهم فيما وضعوه؛ لأن كلا منهم يدعي أن النظام وضعه أصلح، وفائدة مبادئه أجل وأعظم، وليس ثم (هناك) ما يرفع الخلاف، أو يحسم النزاع، فتستمر الفتنة ناشبة، والأمة مضطربة، والنفوس حائرة، حتى يلمح في ثنايا هذه البأساء شعاع من نور الله، على يد مصلح حكيم يرجع الأمة إلى حكم ربها، وهداية دينها، فتنقطع مادة الشر، ويسود قانون الألفة.

فما ترك قوم حكم ربهم إلا جعل الله بأسهم شديدا بينهم، وها نحن نرى ذلك في شؤون كل أمة من أمم الإسلام أهملت أحكام القرآن.

وبعد: فهلا يتعظ المسلمون بما في هذا الحديث(...) فيتخلصوا من هذه الآلام جميعًا»[٢٩].

---

(٢٩) حسن البنا: نظرات في السنة، الجزء الأول، عقوبات إلهية لذنوب بشرية، ص ١٨١ - ١٨٩، والمقالتان نشرتا منذ ٧٣ عاما، ثم نشرها في مجلة النذير بعد خمس سنوات، ملخصة.

وقال في شرح ثان لهذا الحديث: «ويحكم الحاكم بغير ما أنزل الله، ولا يتحرى أحكامه، بل يتتبع الجور، وما تهوي الناس، ويشرع الناس لأنفسهم ما لم يأذن به الله من القوانين الوضعية القاصرة، فتقع الخصومة، ويدب الخلاف، أليس كذلك أيها الناس؟

ذلكم تشخيص الداء، وبأيديكم تناول الدواء، فاعملوا والله معكم»(٣٠).

إذن بسبب هذه الفواحش والذنوب، يضعف الإيمان، وتتفكك الأمة، ويظهر الاستبداد، والضعف الاقتصادي والخلقي، فتظهر القابلية للاحتلال، فيسلط العدو على بلادنا، فيأخذ بعض ما في أيدينا من أرض ومال وعزة، وسلطان.

وهذه الخصال الخمس جميعا هي نتاج حب الدنيا وكراهية الموت، وترك الدين.

وقد حدث ذلك بسبب عمليات التربية التغريبية في الأمة، وعمليات العلمنة، والعولمة، والتأمرك الثقافي التي يبثها الإعلام في بلادنا..وكلا العمليتين قائمة منذ زمن بعيد.

هذه هي العلة الأولى للغثائية في الأمة.

٢- **أما العلة الثانية فهي**: انفكاك رابطة المؤاخاة والموالاة بين المسلمين، فأصبحوا كثرة لا اندماج بينهم، ولا توحد، فحدث التفرق، والتحاسد، والتباغض، والتشتت، وأكل بعضنا لحوم بعض، وهذه علة خطيرة حقيقية للغثائية، وقد أشار إليها الألباني، كما ذكرنا عنه، وهذه العلة هي نتاج: حب الدنيا..حب الحياة الدنيا، مما أدى إلى سلسلة العلل الاجتماعية الخطيرة، التي هي (داء الأمم) والتي تناولناها في الفصل السابق.

---

(٣٠) المرجع السابق، ص ١٩٠، ١٩١.

فالتربية التي تبث حب الدنيا الحرام في القلب، والتي تكره الإنسان في الموتة الشريفة العزيزة، هي التربية التي تنتج أخلاق التفكك، والتحاسد، والتنافس، والتباغض، والشح.. مما ينتج تفكك التماسك، والرابطة الاجتماعية، فتصبح الأمة خارج الفعل التاريخي، وحركة التاريخ، لأنهم يصبحون (نثارا) (فقاقيع) (زبدا) عائما على تيار الماء، لا رابط بينها، ولا ولاء، ولا قوة، ولا ثقل.

هذا هو نتاج تربية التجهيل بالإسلام الصحيح، تربية التغريب، والعلمنة، وتزييف الوعي، وإنتاج أخلاقية المنفعة والأنانية، والانغماس في الدنيا الحرام، ونسيان الآخرة، والنفور من الجهاد في سبيل الله، وقيم التضحية، والموت الشريف.

٣- **تربية الجبرية السياسية المعلمنة:** والمستمرة منذ حوالي مائتي سنة، التي ربت الأمة على الجبن، والخوف، والدنيوية، والارتباط بحدود الدنيا المحسومة فقط، والنظر لأكل العيش والمصلحة الفردية فقط، تربية الخوف والقهر، التي بثت الوهن في القلوب، بثت في قلوب (المواطنين) عبر مؤسسات التعليم، والإعلام وأجهزة التثقيف والترويح المسرحي والسينمائي، أن الدين لا علاقة له بالدنيا، وأن الدنيا هي المبدأ والمنتهى، وأن هذا العالم الدنيوي هو مجال عملنا فقط، وما ينبغي أن نعمل له، وأن العلمانية هي مذهب الحرية والتقدم، ومن يرفع رأسه ضد الجبرية السياسية والعسكرية سوف تقطع رأسه، أو يرمى به في المعتقل أو يشوه بالاتهامات المجهزة. تحالف العلمانيون والشيوعيون والجبرية السياسية والعسكرية لإقرار ذلك في قلوب الناشئين وأجيال المواطنين..وتربى الناس على أن (الجهاد في سبيل الله) إرهاب، وأن الإقبال على الدنيا – وحدها – مدنية، وتقدمية، فنشأت القلوب تخاف من الموت، وترهب الأعداء، من اليهود والأمريكان، وعباد البقر، وعباد الدنيا، فأصيب الناس بالوهن، قال ابن

منظور: «الوهن: الضعف في العمل والأمر.. والوهن: لغة فيه(...) وفي حديث علي: ولا واهنا في عزم: أي: ضعيفا في رأي..ورجل واهن: ضعيف لا بطش عنده، (...) وقوله، عز وجل: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. أي: ما فتروا وما جبنوا عن قتال عدوهم(...) الوهنانة من النساء: الكسلى عن العمل، تنعمًا..»(٣١).

فالتربية التي مورست مع أجيال المسلمين أنتجت ضعف القلب، والإرادة، والرأي، والقدرة، والعزيمة، والفتور النفسي، والجبن والتكاسل عن أداء الواجبات الكبرى.. إنها تربية حب الدنيا وكراهية الموت، تربية الوهن.

٤- **وقد أدى كل ذلك إلى انقلاب الوضع**: فبعد أن كان أعداء الإسلام والمسلمين يرهبوننا، ويهزمهم الرعب منا -على مسيرة شهر، بسبب قوتنا الإيمانية والخلقية، وتماسكنا الاجتماعي، وتوحدنا، وحرصنا للموت في سبيل الله، وأخذ الاستعداد التام.. وإتقان المهمات والواجبات، بعد أن كان العدو يرهب المسلمين- على مسيرة شهر؛ لأن الله يقذف الرعب في قلوبهم- منا، أصبحنا نحن نرهبهم، ونخاف الموت، والقتال؛ لأننا أصبحنا نحب الدنيا الحرام.

أخرج أحمد في المسند والبيهقي في السنن الصغير، والكبرى؛ عن أبي إمامة أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلني ربي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام**» -أو قال: «**على الأمم، بأربع**»، قال: «**أرسلت إلى الناس كافة، وجعلت الأرض كلها لي، ولأمتي مسجدا، وطهورا.. ونصرت بالرعب، مسيرة شهر - يقذفه في قلوب أعدائي، وأحل لنا الغنائم**»(٣٢).

---

(٣١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٤٩٣٤، ٤٩٣٥.

(٣٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٠٣٦، ص ٢١٣، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح، انظر تخريجه لكتاب ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ١، ص ١٩٣، هامش رقم (٢) ط٤، مؤسسة الرسالة.

وفي رواية البيهقي: «ونصرت بالرعب، يسير بين يدي، مسيرة شهر، يقذف في قلوب أعدائي..»(٣٣).

ويذكر الله تعالى أنه قذف في قلوب اليهود الرعب، في غزوة بني النضير، ﴿فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، فالله قذف، وألقى.. في قلوب هؤلاء اليهود الرعب.. وهو الخوف الشديد من محمد وأصحابه، فالله هو الذي يلقي ويقذف الرعب في قلوب أعدائه، وهو الذي ينزعه من قلوبهم، كل بأسبابه.

فالرعب كان يقذف في قلوب أعداء رسول الله ﷺ.. من مسيرة شهر، للأسباب التي ذكرناها، فأحدثت هذه الأسباب رهبة في صدور العدو، وجعلت للمسلمين مهابة في قلوب الأعداء.

لكن حدث التحول في القلوب والأعمال.. حدثت تربية تحببنا في الدنيا الحرام، (ارجع للفصل السابق) الدنيا التي تلهي، وتهلك، دنيا المذلة، والهوان على الناس، والأمم، دنيا التمتع المحقور بالجنس، أو بالحشيش أو بالبانجو، أو بمسرحية هزلية - تربية تحبب في دنيا الفردية، والأنانية، والتنافسية، والتحاسدية - والانهماك في الملذات..وتبغض في التضحية، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي الموت الحر.. تربية تنمي أخلاق الدنيوية لا أخلاق الإسلام، وإعلاء التغرب والتأمرك، لا إعلاء منهج الله، والولاء للأرض والقومية لا الولاء لله ورسوله والمؤمنين، وأخلاق الفردية والنفعية لا أخلاق التماسك والتضحية، وأخلاق التملك والاقتناء لا أخلاق المعنى الإنساني، وتقبيح الكينونة الإنسانية — فحدث التفكك، والتمزق والغثائية.

فطمع الأعداء، وزالت المهابة منا من صدورهم..«ولينزعن الله من صدور

---

(٣٣) البيهقي: السنن الصغير، ج ١، دار الفكر، بيروت، رقم ٢٢٠، ص ٩٢، ٩٣.

عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن» فكانت التضحية هي هـذه، عجز عن رد هجوم الأمم علينا، واستسلام لهم، ووهن القلوب.

٥- إذن، العلة النهائية الكامنة لحالة الغثائية والوهن هي في عالم: الأفكار، والمعتقدات، والتصورات، (تصور دين الله، ومعرفته، تـصور الـدنيا، تـصور مفهوم الحياة الحرة...إلـخ) وفي عـالم القـيم، والأخـلاق (أخـلاق التـضحية وحب الموت في سبيل الله، والالتزام بأخلاق الإسلام - أم بأخلاقيـة الـوهن والغثائية؟) وفي عـالم العواطـف والرغبـات والمـشاعر والاتجاهـات والميـول والإرادات، والنزوعات (هل نريد الله؟ هل نريد الدنيا؟ هل نحب الله؟ هـل نحب الإسلام؟ هل نحب الحياة الحـرة العزيـزة؟ هـل نحـب الاستـشهاد في سبيل الله؟ هل نحب الدنيا..؟ إلخ) وهذه كلها تتمركـز حـول هـذه الكلمـة الجامعة (**حب الدنيا وكراهية الموت**).

جـ- المخرج من حالة الغثائية والوهن: تربية تحـرر القلـوب مـن الـوهن وأسبابه:

رأينا أن علل الغثائية والوهن في الأمة ترجع إلى عملية التربيـة التغريبيـة، والعلمنة التي فرغت القلوب والعقـول، والأخـلاق والمـضمون الإسـلامي الصحيح الفاعل، ورأينا أن شراح هذا الحـديث اتفقـوا عـلى أن المخـرج هـو التربية الإسلامية الإيمانية العقدية، والخلقية، على مـنهج النبـي ﷺ، وسـوف أجمل رؤيتي التربوية لتحرير القلوب من الوهن والغثائية، فيما يلي:

١- تربية القلب- أولًا- على الإيمان بالله وحبه، وخشيته، وعبادته وحده، والولاء للإسلام، وحب الرسول ﷺ وإكسابه قيم التقوى والنقاء، والسلامة والرحمة..(انظر: فصل: تربية الإيمان، وفصل: تربية القلب المخموم، وفصل: آنية الله قلوب عباده الصالحين، وفصل: تربية واعظ الله في قلب كل مسلم).

٢- إكساب كل مسلم التصورات الإسلامية عن الدنيا، والآخرة، بحيث يعتقدها، ويحبها، ويتمسك بها، ويعمل على أساسها (انظر فصل: تربية القلب المخموم – القسم الثاني منه) بحيث يبغض الدنيا الحرام، ويحب الآخرة.

٣- إكساب كل مسلم قيم الولاء والمحبة لله ورسوله، والمؤمنين، والرغبة في ممارسة المحبة والنصرة مع كل مسلم في الأرض.

٤- إكساب كل مسلم عقيدة الإسلام في الموت، وما بعد الموت: (الموت حق على كل مخلوق - الموت آت في وقت محدد لا نعلمه، ولا نعلم مكانه، مهما عشنا فلابد من الموت، ولو كنا في بروج مشيدة - لكل إنسان أجل حدده الله له – من لم يمت قتلا، مات على فراشه - الرجعى بعد الموت إلى الله – هناك حساب، وثواب وعقاب بعد الموت، هناك بعث، بعد الموت... إلخ).

وعقيدة القضاء والقدر، (إن الله علم ما يحدث لنا وما نفعل، قبل أن يحدث، إن الله كتب كل آجالنا وأرزاقنا وأعمالنا، قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة – إن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، إن ما شاء الله كان – وما لم يشأ لم يكن – الرضا بقضاء الله وقدره..إلخ) وعقيدة الاستشهاد في سبيل الله، وحب الموت الكريم (الشهداء أحياء، الشهيد لا يجد من ألم القتل إلا مثل ما نجد من ألم القرصة – الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته – الحرص على الموت في سبيل الله، يحقق الحياة الحرة العزيزة... إلخ) .

إكساب هذه العقائد الأساسية الثلاث من خلال دراسة كل نصوصها في القرآن والسنة، والسيرة، والتاريخ الإسلامي الصحيح، دراسة تتغلغل في القلب، وتحث المشاعر على التحقق بها.

٥- تربية أخلاق التضحية، والتماسك الاجتماعي، والشجاعة، والجرأة، والمغامرة، والتحرر من الخوف من أي مخلوق، (انظر كتابنا: القيم في كتابات

زكي نجيب محمود - دراسة تحليلية تأصيلية - الفصل السابع).

٦- دراسة تاريخ النهضات الإسلامية، وتحليل أسبابها، وكيف حدثت؟ (مرحلة السيرة النبوية، مرحلة عمر بن الخطاب، مرحلة قطز، مرحلة صلاح الدين، مرحلة يوسف بن تاشفين، مرحلة الجهاد ضد فرنسا في مصر، والجزائر... إلخ) مع إبراز دور التربية العقدية والخلقية والاجتماعية والسياسية في تلك النهضات، وجوانب الأخلاق التي تم تنميتها.

٧- تربية روح الفعالية الاجتماعية والسياسية، وحب الاستقلال، وحب الإنجاز، والإبداع العلمي والتقني النافع، والاعتزاز بالهوية الإسلامية، والرابطة الإسلامية، والتحرر من روح التبعية، والذوبان في الغرب والثقافة التغريبية والأمريكية، والتشبه بغير المسلمين (انظر الفصل السادس من كتابنا: التربية السياسية).

٨- تربية روح التخلص من كل أسباب وعوامل الغثائية، التي شرحناها سابقا، وتربية روح التمسك بالإسلام- علما صحيحا، وعملا ملتزما بعقائده، وشعائره، وأخلاقه، وقيم معاملاته- بصدق، وحب، وإخلاص، وتربية الإيمان بأن النجاة من حالة الغثائية والوهن: هي بالرجوع إلى دين الله، من القرآن والسنة، تعلما، وإيمانا، وتخلقا، وعملا، وأن هذا يتطلب جهدا ذاتيا بالتعلم الذاتي المبرمج، وجهدا جماعيا تربويا، ودعويا، وتعليميا.

٩- عمل برامج ودورات تربوية في كل محور من المحاور السابقة، وفي كل فصل من فصول هذا الكتاب.

١٠- دراسة هذا الفصل بعمق، والعمل بما فيه.

إنه لا بديل عن المشروع التربوي طويل المدى، الذي يستغرق جيلا أو أكثر.. إننا نعالج أسباب الوهن وعوامل الغثائية التي تراكمت على الأمة منذ

ستة قرون تقريبا، بسبب نمط التربية، وطبيعة الحكم، والانغماس في الدنيويات، والتحلل من قيم الدين الحق.. فالعلاج يتطلب مشروعا تربويا شاملا: في الجوانب التربوية، وطبيعة الحركة.

وإنما ألف هذا الكتاب ليكون جزءا من هذا المشروع التربوي، الذي يجب أن نمارسه على الفور، من كل العاملين للإسلام، المحبين لنصرته، وإحياء أمته.

رابعا: خاتمة ونتائج:

هذا الفصل لا يحتاج إلى خاتمة، لأننا سنكرر كل ما كتبناه في النقاط الآتية:

١- حالة الأمة الآن- ومنذ عدة قرون- هي حالة الغثائية والوهن، والاستسلام للعدو من كل أفق.

٢- ترجع هذه الحالة لأسباب تربوية، وخلقية، وعقدية وسياسية، أنتجت هذا الوضع.

٣- هذا الوضع جعل الأمة مكشوفة للأعداء، وأصابها بالقابلية للاحتلال، بسبب الوهن في القلوب، وأخلاق الضعف والتفكك الناتجة عنه.

٤- الحل الوحيد لهذه الإشكالية هو الرجوع إلى الدين، وتحرير القلوب من الوهن والغثائية.

٥- الطريق لتحقيق هذا الحل هو المشروع التربوي الإسلامي المتكامل الذي رسمنا بعض أبعاده في الصفحات السابقة.

٦- إنجاز هذا المشروع هو واجب كل مسلم على حدة، من جانب، وواجب العمل الإسلامي الجماعي، وكل داعية مسلم، يجب ضم جميع الجهود لإنجاز هذا المشروع التربوي الشامل، الصحيح.

خامسا: أسئلة وتكليفات لتعميق الفهم وتسهيل الممارسة:

١- ما معنى: يوشك؟ وتداعى؟ والأكلة؟ والقصعة؟ ومن الآكل؟ ومن

المأكول؟ وبأي شيء شبهت الأمة المأكولة؟ وما دلالة هذا التشبيه؟ وما دلالة الأكل هنا؟

٢- ما معيار النهوض، والقعود الحضاري؟ هل هو الكثرة والقلة العددية؟ ما هو؟

٣- ما الخصائص الثلاث الأساسية للأمة المعاصرة - كما يحددها هذا الحديث؟ وما مفهوم الغثائية؟ وما مفهوم الوهن؟

٤- ما العوامل التي أفرزت هذه الحالة؟

٥- ما ملامح الغثائية والوهن في الشخصية المسلمة الراهنة؟

٦- ما موقف الأمم الآفاقية من المسلمين اليوم - كما يحدده الحديث الشريف؟ ما الذي أنتج هذا الموقف؟

٧- كيف نغير هذا الوضع وهذا الموقف؟ اطرح مشروعًا تربويًا، وحدد كيف تنفذه.

٨- لخص شرح الشيخ البنا، وشرح الشيخ الألباني، وقارن بينهما، وما رأيك في الشرح الذي قدمه المؤلف؟ هل أضاف جديدا؟ ما هو؟

٩- كم آية قرآنية في هذا الفصل؟ ما دلالة الاستشهاد بها؟

١٠- كم حديثا شريفا في هذا الفصل؟ استخرجها، واقرنها ببعضها، واحفظها، وتفهمها.

١١- حدد منظومة قيم الغثائية والوهن - كما شرحها البنا والألباني ورسلان، ثم بين موقفك من كل قيمة منها.

١٢- طلب منك أن تحلل الوضع الحالي في العراق (بعد الاحتلال الأنجلو أمريكي لبغداد - إبريل ٢٠٠٣م) في ضوء معطيات هذا الحديث: حدد مظاهر الغثائية والوهن، والمذلة هناك، ما الأسباب التي أنتجت هذه الحالة؟

ما دخل النظام البعثي: تربويًا وإعلاميًا وسياسيًا ومخابراتيًا وخلقيًا... إلخ في إنتاج هذه الحالة؟ هل كان يمكن للشعب العراقي أن يقاوم، ويطرد الغزاة الكفار المعاصرين؟ كيف؟ وبأية شروط؟

١٣- حلل الأبعاد السياسية والاقتصادية والخلقية، والتربوية للغثائية في الأمة المسلمة – عبر دولة واحدة منها فقط – اختر أية دولة، وحلل وحدد هذه الأبعاد، وبين الأسباب، وبين المخرج التربوي والحركي، والخلقي، وما يمكنك بيانه من مخارج للإنقاذ والتحرر من هذه الحالة.

١٤- طلب منك إعداد دورة تربوية عن (تحرير القلوب من الوهن) حدد: الأهداف المعرفية والقيمية والعاطفية للدورة، وحدد الأنشطة الدراسية، والعبادية لها، هل يمكن دراسة هذا الفصل في هذه الدورة؟

١٥- ضع برنامجا لدورة تربوية عن عقيدة الموت وما بعد الموت في المفهوم الإسلامي، وأثرها في تربية قيم التضحية والحرص على الاستشهاد، وإحسان صناعة الحياة، وصناعة الموت، ما العناصر العقدية التي يجب دراستها؟ ما الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة، والمواقف التاريخية الداعمة؟ هل يمكن دراسة ما ذكره الحكمي في معارج القبول – الجزء الثاني– عن عقيدة الموت وما بعد الموت، والاكتفاء به؟ ارجع إليه ثم حدد إجابتك.

١٦- ضع برنامجا تربويا، لدورة عن عقيدة الإسلام في الدنيا والآخرة، مستعينا بما فصلناه في الفصل السابق.

١٧- ضع برنامجا لدورة تربوية عن عقيدة القضاء والقدر وأثرها في تربية الإنسان المجاهد في سبيل الله، وتحرير الأمة من الوهن (يرجع لمعارج القبول، وطريق الهجرتين وشفاء العليل، والإيمان والحياة للقرضاوي).

١٨- قم بتنفيذ هذه البرامج مع نفسك، واجمع عددا من الشباب المسلم ونفذها معهم بهدوء وفاعلية وتركيز.

١٩- ما صلة هذا الفصل بفصل تربية القلب المخموم، وتربية تجدد الإيمان في القلب؟ بين ما تقول؟

٢٠- ما رأيك في طريق بناء هذا الفصل، وأسلوب نقل شَرْحَي الحديث - من البنا الألباني؟ هل كان يمكن التلخيص؟ هل أنا متجاوز؟ أم أنا فعلت للقارئ معروفا؟ هل فيهما فائدة؟

٢١- ما رأيك في الأبيات الآتية:

أيُّ يومي من الموت أفر؟ يوم لا قَدَرٍ أم يوم قدَّرْ

يوم لا قدر: لا أرهبه ومن المقدور لا يغني الحَذَرْ

وقول أبي الطيب:

إذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تعيش جبانا

هل يمكن توظيفهما في تربية الإنسان المؤمن المحب للموت في سبيل الله؟

وما رأيك في توظيف الأشعار من هذا القبيل في تربية روح التضحية وحب الموت في سبيل الله؟

٢٢- أخرج أحمد في الزهد، مرسلًا، بسند صحيح عن مصعب بن سعد: **«احذروا الدنيا، فإنها خضرة حلوة»**(٣٤).

بين دلالة هذا الحديث في موضوع الفصل الحالي، وعلاقته بالفصل السابق.

---

(٣٤) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط ٣، رقم ١٩٢، ص ٩٩، والسلسلة الصحيحة رقم (٩١٠).



الفصل الثامن عشر

تربية القلب الغني

تربية القلب الغني

أولا: نصوص الحديث النبوي:

أ- أخرج النسائي في الكبرى، والحاكم وابن حبان، عن أبى ذر: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟**» قلت: نعم، قال: «**وترى قلة المال هو الفقر؟**» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «**إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب، من كان الغنى في قلبه؛ فلا يضره ما لقي من الدنيا، ومن كان الفقر في قلبه؛ فلا يغنيه ما أكثر له في الدنيا، وإنما يضر نفسه شُحُّها**»(١).

وأورده في الفتح عن ابن حبان مثله إلى قوله: «**إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب**»(٢).

وأخرجه الطبراني في الكبير عن أبى ذر؛ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، تقول: كثرة المال الغنى؟**» قلت: نعم، قال: «**تقول: قلة المال الفقر؟**» قلت: نعم (قال ذلك ثلاثا) ثم قال رسول الله ﷺ: «**الغنى في القلب، والفقر في القلب، من كان الغنى في قلبه؛ لا يضره ما لقى من الدنيا، ومن كان الفقر في قلبه؛ فلا يغنيه ما أكثر له في الدنيا، وإنما يضر نفسه شُحُّها**»(٣).

ب- أخرج البخاري عن الحسن: حدثنا عمرو بن تغلب، أن رسول الله ﷺ أتى بمال- أو سبي- فقسمه، فأعطى رجالا وترك رجالا، فبلغه أن الذين ترك عتبوا؛ فحمد الله ثم أثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد، فو الله إني لأعطى الرجل**

---

(١) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٧٨١٦، ص ١٢٨٩، وهو في صحيح الترغيب، ج ٤، رقم ٨٢٠، ص ٩٢، ٩٣.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج ١١، ص ٢٧٢.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢، رقم ١٦٤٣، ص ١٥٤ قال محققه: ورواه.. المصنف في مسند الشاميين (٢٠٢٠) والحاكم (٤/ ٣٢٨) من طريق آخر صحيح.

والذى أدع؛ أحب إلى من الذى أعطي، ولكن أعطى أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب»، فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم(٤).

ورواه بلفظ: «إني أعطى قوما أخاف ظَلَعَهم وجزعهم، وأَكِلُ أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى..»(٥).

ورواه في التوحيد، وفيه: «أعطى أقواما لما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير..»(٦).

جـ- وأخرج البخاري في باب الغنى غنى النفس عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى كثرة العَرَض، ولكن الغنى: غنى النفس»(٧).

ورواه أحمد بلفظ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن إنما الغنى غنى النفس»(٨). وفى رواية له عنه بعد النص السابق: «ولكن الغنى غنى النفس، ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر..»(٩).

ثانيا: تأسيس إسلامي لقيمة غنى القلب والنفس:

كل إنسان يريد أن يكون غنيا؛ وقلب الشيخ، يكبر حب المال والدنيا،

---

(٤) فتح الباري، ج ٢، رقم ٩٢٣، ص ٤٠٣، ورواه برقم ٣١٤٥، فتح الباري، ج ٦، ص ٢٥٠.
(٥) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣١٤٥، ص ٢٥٠ (ظلعهم: اعوجاجهم، وأصل الظلع: الميل، وأطلق هنا على مرض القلب وضعف اليقين).
(٦) فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٥٣٥، ص ٥١١.
(٧) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤٤٦، ص ٢٧١، وأخرجه مسلم، في كتاب الزكاة، إكمال المعلم، ج ٣، رقم ١٠٥١، ص ٥٨٦، ورواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء أن الغنى غنى النفس، سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٣٨٠، ص ١٦٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه، باب القناعة، ج ٣، رقم ٣٣٥٤، صحيح سنن ابن ماجه، ص ٣٥٥، وقال الألباني: صحيح، وأخرجه أحمد ثماني مرات، انظر: المسند، ج ٨، رقم ٨١٥٩، ص ٢٢١، وقال شاكر: وهو صحيح.
(٨) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٧، رقم ٧٣١٤، ص ١٣٩، وانظر: رقم ٧٥٤٦، ص ٣٢٢، والمسند، رقم ٩٠٣٩، ص ٩٢، ورقم ٩٦١٣، نفس الجزء، ص ٢٧١، ورقم ٩٦٧٩، ص ٢٩١، ورقم ١٠٩٠٠، ص ٦١٦، ورقم ٦١٧.
(٩) إسناده صحيح، المسند، ج ٩، رقم ١٠٩٠٠، ص ٦١٦.

معه، كما سيأتي، فهل الغنى كثرة الفلوس والمقتنيات؟ وما مفهوم الغنى وما مفهوم الفقر؟ ولماذا ركز النبي ﷺ على غنى القلب والنفس؟ وهل غنى القلب ينافي غنى الجيب؟ ولماذا حرص النبي ﷺ على تحرير وتقرير مفهوم جديد للغنى والفقر؟

إنه ﷺ- في هذه الأحاديث الثلاثة – يبين أن هناك قيمة للقلب المسلم، هي غنى القلب، أو الغنى والخير في القلب، أو غنى النفس، يمدح بها الإنسان، ويثني بها عليه، فهي قيمة ممدوحة محمودة، كما رأينا في حديث عمرو بن تغلب، حتى إنه فضل مدح النبي له بذلك، على حمر النعم، وهي أثمن النياق، وأحلاها، وبين فضل غنى القلب في حديث أبي ذر ببيان أثره في النفس، إذن، قيمة الغنى القلبي والنفسي قيمة مطلوبة، مرغوب فيها، للقلب المسلم.

ومن هنا فهي قيمة تربوية لابد من تصورها تصورا صحيحا، ومعرفة مضمونها، وأسسها، وآثارها، ومحبتها، والرغبة فيها، والتعود عليها، والاتصاف بها مثل عمرو بن تغلب.

فمن قيم، وأهداف تربية القلب الإنساني: أن يكون غنيا، إذن غنى القلب، واكتساب مضمونه: معرفة، ومحبة، واتصافًا، يمثل جزءًا من المشروع التربوي الإسلامي، ومنظومة قيمه، وأهدافه، وجوانبه، وأساليبه.

وفى هذا الفصل أبدأ- أولًا- بتأسيس إسلامي لقيمة غنى القلب والنفس:

أ- النفس الإنسانية حريصة على جمع المال، والتكثر من المقتنيات المادية، فهذه شهوة مزينة في النفس بحسب فطرته ؛ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وحب النفس للمال وجمعه، والاستكثار منه: ينمو ويكبر، كلما كبر الإنسان، فهو غريزة مستمكنة في النفس والقلب، ينبه عليها النبي ﷺ في أحاديث:

١- أخرج البخاري أن أبا هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل**»(١٠).

ورواه مسلم عنه بلفظ: «**قلب الشيخ شاب، على حب اثنتين: حب العيش، والمال**».

وفي رواية لمسلم: «.. **طول الحياة وحب المال**»(١١).

ورواه أحمد عنه بلفظ: «**الشيخ يكبر ويضعف جسمه، وقلبه شاب على حب اثنتين: طول العمر، والمال**»(١٢).

وفي لفظ لأحمد: «**إن الشيخ.. يهرم ويضعف جسمه، وقلبه شاب على حب اثنتين؛ طول الحياة، وحب المال**»(١٣).

ورواه ابن ماجه بلفظ: «**قلب الشيخ شاب في حب اثنتين: في حب الحياة وكثرة المال**»(١٤).

٢- وأخرج البخاري عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حب المال، وطول العمر**»(١٥).

ورواه مسلم بلفظ: «**يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر**»(١٦).

---

(١٠) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤٢٠، ص ٢٣٩.

(١١) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ١٠٤٦، ص ٥٨٢.

(١٢) إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٨٤٠٣، ص ٣٠٩.

(١٣) المصدر السابق، رقم ٨٤٣٧، ص ٣١٩، وانظر رقم ٣٢٣، ص ٣٢٣.

(١٤) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤٣٠، ص ٣٧٨ وروى مثله الترمذي، وقال: حسن صحيح، سننه، ج ٤، رقم ٢٣٤٥، ص ١٥١.

(١٥) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤٢١، ص ٢٣٩.

(١٦) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ١٠٤٧، ص ٥٨٢، وروى مثله الترمذي، وقال: صحيح، سننه، ج ٤، رقم ٢٣٤٦، ص ١٥٢، وابن ماجه، وقال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤٣١، ص ٣٧٨.

فهذان الحديثان يبرهنان على أن الحرص على كثرة المال، والدنيا، وطول العمر، إنما هو غريزة تنمو، وتكبر كلما كبر الإنسان، فقلب العجوز يشب، ولا يزال شابا قويا فتيا، في حب المال والدنيا، وسماه شابا؛ إشارة إلى قوة استحكام حبه للمال[١٧].

وشابًّا قويًّا في الحرص على المال. والحرص: جشع النفس ونهمها وشرهها[١٨].

فقلب الشيخ العجوز: كامل الحب لكثرة المال، لأن هذا الحب غريزة، وشهوة تنمو مع طول العمر، وتكبر.

إذن، يبرهن هذا الحديث على استحكام شهوة المال والدنيا، وأنه لا أمل في محوها، وإنما فقه النفس يلزمنا بحسن توجيه هذه الغريزة، بتوجيهها إلى مضمون أعلى للغنى، وإلى موقف صحيح من المال والدنيا.

٣- ويبين النبي ﷺ قوة استحكام هذه الشهوة، في أحاديث تبين شدة تطلع النفس الإنسانية إلى الاقتناء المادي، وتكديس الثروات:

أخرج البخاري عن ابن عباس: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[١٩]. ورواه عنه بلفظ: «**لو أن لابن آدم ملء واد مالا لأحب أن له إليه مثله، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ..**»[٢٠]. ورواه مسلم عنه بلفظ: «**..لأحب أن يكون إليه مثله، ولا يملأ نفس ابن آدم إلا التراب..**»[٢١].

وأخرج البخاري عن ابن الزبير، من حديث: يقول: يا أيها الناس، إن

---

(١٧) ابن حجر: فتح الباري، ج ١١، ص ٢٤٠.
(١٨) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١١٢، ١٨٥.
(١٩) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤٣٦، ص ٢٥٣.
(٢٠) نفس المصدر، والصفحة، رقم ٦٤٣٧.
(٢١) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ١٠٤٩، ص ٥٨٤.

النبي ﷺ كان يقول: «**لو أن ابن آدم أعطى واديا ملآن من ذهب، أحب إليه ثانيا، ولو أعطى ثانيا؛ أحب إليه ثالثا، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(٢٢).

وأخرج مسلم عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «**لو كان لابن آدم واد من ذهب، أحب أن له واديا آخر، ولن يملأ فاه إلا التراب، والله يتوب على من تاب**»(٢٣).

فهذا حديث عن الطبيعة الإنسانية، يبين حرص النفس الإنسانية على التكاثر الدنيوي والرغبة في تكديس الثروة، فهذه طبيعة الباطن الإنساني؛ قال المازري: «يحتمل أن يريد بالجوف: القلب، وأنه لا يمل من محبة المال..وفى حديث آخر: «**لا يملأ نفس ابن آدم**»، وهذا يشير إلى أن المراد به: المحبة، وما يكون بالقلب(...) قال القاضي (عياض): (...) الأظهر.. أن المراد بالحديث: حرص القلب ورغبة النفس(...) ولما كانت معظم جوارح الشهوات والرغبات في الجوف، وفيه القلب، الذى عنه يصدر الحرص والرغبة، والشره والأمل؛ أضاف ذلك إليه»(٢٤).

وهذا الحديث - يقول النووي: «خرج على حكم غالب بنى آدم في الحرص على الدنيا، ويؤيده قوله ﷺ: «**ويتوب الله على من تاب**» (...) ومعناه: أن الله يقبل التوبة من الحرص المذموم وغيره من المذمومات»(٢٥).

فالنبي ﷺ يبين أن هذه الطبيعة الإنسانية الحريصة على تكديس الثروة، يمكن التغيير فيها بتوفيق الله، بأن ينزل الله على القلب ما يصلحه حتى يثمر

---

(٢٢) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤٣٩، ص ٢٥٣.

(٢٣) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ١٠٤٨، ص ٥٨٤، ورواه الترمذي، السنن، ج ٤، رقم ٢٣٤٤، ص ١٥١.

(٢٤) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٥٨٣.

(٢٥) ابن حجر: فتح الباري، ج ١١، ص ١٤٠.

الأخلاق الزكية، فيعالج شرهه، وحرصه الشديد، ويتسامى به إلى الخير، وفى سبيل الخير، فينفق على المساكين، واليتامى، وفى المنافع العامة، ...إلخ.

٤- فالنبي لا يهدف إلى تغيير هذه الطبيعة التكديسية، وإنما التغيير (فيها) وتوجيهها للخير، حتى لا تتوجه الطبيعة الاقتنائية بصاحبها نحو الشر، فقد تدفع الإنسان - حتى إلى أن يبيع دينه في مقابل عَرَض؛ أي: مال ومتاع دنيوي، كما أشار النبي ﷺ إلى نماذج من هذا النوع:

أخرج مسلم عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا، ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»(٢٦). وفى رواية الترمذي: «**يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا**»(٢٧). وفى رواية أحمد: «**يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل**»(٢٨).

وفى رواية الحاكم عن ابن عمر: «**ليغشين أمتي من بعدي فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا قليل**»(٢٩). والعرض: متاع الدنيا وما نيل منها.

في هذه الحالة تصبح الفلوس أهم من دين الله، في بعض النفوس، تصبح الأعراض، والمظاهر أهم من جوهر الإنسان، إنه يربح العالم ويخسر نفسه، إن الحرص على المال، وحب الاقتناء المادي يجعل اعتبار المال هو القيمة العليا في بعض القلوب والنفوس، إنه يحدث تحويلا جذريا خطيرا في سلم القيم، فيجعل عرض الدنيا، وقيمة الثروة أعلى، وأهم من قيمة الإيمان والعمل

---

(٢٦) إكمال المعلم، ج ١، كتاب الإيمان، حديث رقم ١٨٦، ص ٤٠٥.

(٢٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٢٠٢، ص ٨٤، وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ٢٨١٤، ص ٥٤٣.

(٢٨) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٨٠١٧، ص ١٣١.

(٢٩) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج ٢، ط ٣، رقم ٥٤٦٠، ص ٩٥٩.

الصالح، ومن هنا تنشأ اللامبالاة الخلقية في مجال التعامل الاقتصادي، وتنشأ المكيافيللية الخلقية وأخلاق (مقاومي الأنفار) بمفهومها السيئ.. أخلاق الهبش، (وخذ الفلوس واجري)..التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «**ليأتين على الناس زمان لا يبالى المرء بما أخذ المال: أمن الحلال، أم من حرام؟**»(٣٠).

ورواه أحمد بلفظ: «**ليأتين على الناس زمان لا يبالى المرء: أبحلال أخذ المال أم بحرام**»(٣١). وهذا يدل على أن قوة الحرص على تكديس الثروة هي التي حكمت قيم الإنسان، فغلب التكديس على قيم الإيمان بالله، والتقوى.

٥- ومن هنا تفتك هذه الغريزة، حين تنفلت من الالتزام بقيم التقوى - تفتك بدين الإنسان، ويبين النبي ﷺ أن الحرص على المال والشرف الدنيوي هو أشد فتكا بالدين من ذئبين جائعين فاتكين، أرسلا في زريبة غنم، فإنهما سيفتكان بالغنم، ولكن الحرص على المال والشرف الدنيوي هو أشد فتكا بالدين، وقيمه، من فتك الذئبين بتلك الغنم، كما بين النبي ﷺ:

أخرج أحمد، والترمذي، والطبراني، وابن المبارك عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(٣٢). ورواية الطبراني: «**ما ذئبان ضاريان أرسلا في غنم..مثله..**»(٣٣) ضاريان: معتادان على أكل المواشي.

ورواه ابن أبى الدنيا بلفظ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم أفسد به من حرص الرجل على المال والشرف لدينه**»(٣٤).

---

(٣٠) البخاري: فتح الباري، ج ٤، رقم ٢٠٨٣، ص ٣١٣ (عن أبى هريرة) ورواه برقم ٢٠٥٩، ص ٢٩٦ ورواه أحمد بإسناد صحيح، رقم ٩٥٨٦، المسند، ج ٩، ص ٢٦٢، ورقم ٩٧٩٩، ص ٣٢٦.

(٣١) إسناده صحيح، المسند، ج ٩، رقم ١٠٥١١، ص ٥٠٤، ٥٠٥.

(٣٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٧٣٤، ص ٣١٩، ورواه برقم ١٥٧٢٤، ص ٣١٠ ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح، سننه، ج ٤، رقم ٢٣٨٣، ص ١٦٦، ١٦٧، وهو في الزهد لابن المبارك رقم ١٨١، من زيادات نعيم بن حماد، ص ٥٠.

(٣٣) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٩، رقم ١٨٩، ص ٩٦.

(٣٤) ابن أبى الدنيا: إصلاح المال، رقم ١٤، ص ١٤٥، ١٤٦ وانظر رقم ١٥- ١٧.

ب- إذن، الطبيعة الإنسانية تحب جمع المال وامتلاك المقتنيات المادية، وإذا قويت هذه الطبيعة، ولم يوجهها الإنسان بقيم صحيحة، فقد يدفعها هذا إلى بيع دينها بعَرَض مالي دنيوي قليل، أي: أنها تضحي بقيم الإيمان والخير والحق، من أجل المال، تربح العالم، وتخسر نفسها، تضحي بالكينونة الإنسانية الحقيقية، من أجل الامتلاك والاقتناء المادي، تضحي بالجوانية الثرية الممتلئة بالخير، والمعرفة، من أجل البرانية المزوقة.. وهذا هو الذى حذر منه النبي ﷺ كما رأينا.

جـ- هذه الطبيعة الحريصة على كثرة المال، وابتغاء تكديسه، تعتقد حسب عرضها الذى عبر عنه أبو ذر، أن الغنى: هو كثرة المال، هو التملك الاقتنائي، وأن الفقر هو افتقاد المال، والاحتياج إليه.

وهذا يختصر الإنسان في كيان برانى فقير الجوانية، فقير البرانية - كذلك؛ لأنه - دائما - يَشْرَهُ إلى غيره، ويطمع في التكديس المادي، المالي، مع الفقر المعنوي الخلقي من القيم الحقة، قيم الإيمان، والغنى العالي، والخير، التي تربى الكينونة الإنسانية تربية ترقيها من الأثرة وحب الاقتناء، والانغلاق على الذات وحدها، إلى التفتح الاجتماعي، وحب العطاء، والتضحية، والإيثار؛ لأنها غنية القلب، والنفس، مكتملة بما تتمسك به من قيم الإيمان والخير، والحق، والجمال ونفع الآخرين، والتحرر من الأنانية المنغلقة.

د- ولأجل تربية الإنسان تربية مكتملة صحيحة، أراد النبي ﷺ أن يهذب، ويطور، ويوجه ويثرى مفهوم الغنى، والفقر، أراد أن يعطى للغنى مفهوما أعمق، وأغنى يربطه بتربية الجوانية الإنسانية، ويعطى للفقر مفهومًا جديدًا نافعًا.

إنه مفهوم الغنى بالله، والفقر إلى الله، والتحرر من رق الاقتناء، وثراء القلب والنفس بالله، وبالخير، وبالقناعة، وبالرضا، وبالحرية.

هـ- ولهذا سأل النبي ﷺ أبا ذر: «**أترى كثرة المال هو الغنى؟**» فقال: نعم، فسأله: «**وترى قلة المال هو الفقر؟**» فأجابه: نعم، يا رسول الله.

هذا هو مفهوم الغريزة الفطرية للغنى والفقر، وهو مفهوم صحيح على هذا المستوى، وحين يلتزم بقيم الإيمان والخير، فعلى مستوى الطبيعة الإنسانية الفطرية: الغنى: هو قلة الحاجات المادية وكثرة المقتنيات، والفقر: هو عدم المقتنيات، أو قلتها(٣٥).

ولكن النبي ﷺ يعلم المسلم مفهوما أرقى، وأعمق، وأكثر انطباقا مع طبيعة الإسلام، للغنى والفقر، مفهوما جديدا لا يرتبط بالجيب، ولا بالجانب البرانى للشخصية، وإنما يرتبط بالجواني؛ بالعمق الإنساني، فقال: «**إنما الغنى: غنى القلب، والفقر هو فقر القلب**» «**الغنى في القلب، والفقر في القلب**» «**أكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير**» «**الغنى: غنى النفس**».

هذا المفهوم النبوي لا يحارب الطبيعة الإنسانية، ولا يقهر فطرة حب الغنى وكراهية الفقر- فيها، ولكن يتسامى بهذه الطبيعة، ويرتقى بها للوصول إلى الاكتمال الإنساني، جوانيا وبرانيا.

و- وإذا فرغ القلب من الغنى (العالي) ومن (الافتقاد إلى الله) لا إلى الخلق، فإن القلب يسكنه الهلع، والجزع، والظلع، عند افتقاد المال؛ ويصيبه الشره، والطمع، وسعار الحرص على الازدياد، من المال، وتكديس الثروة.

فمهما امتلك من مال الدنيا، فلا يغنيه ذلك، مهما كثر، لأن نفسه يسكنها الشح، والحرص، ولأنه يفتقد القناعة، والغنى العالي فإنه تشح نفسه، وتيبس، ولا تلين لخلق الله، من المحتاجين، وتتجه للتكاثر، والتنافس الدنيوي.

ولأجل الاكتمال الإنساني، ولأجل تخليص النفس الإنسانية من أضرار الفراغ القلبي سأفصل مفهوم غنى القلب، وفقر القلب في الفقرة التالية.

---

(٣٥) انظر: الراغب: المفردات، ص ٣٦٦، ٣٨٨.

ثالثا: مفهوم الغنى: غنى القلب ـ الغنى: غنى النفس:

سوف أثبت - أولا - تحليلات بعض العلماء لمفهوم الغنى والفقر، في الأحاديث التي معنا، ثم أفصل ما يتعلق بهذين المفهومين المهمين، كما حللهما الإمام ابن القيم.

أ- يقول المازري في شرح حديث «**الغنى: غنى النفس**»: «ويعنى الحديث: أن حقيقة الغنى، والغنى المحمود: هو غنى النفس وشبعها، وقلة حرصها، لا كثرة المال، مع الحرص على التزيد منه، والشح به، فذلك فقر بالحقيقة؛ لأن صاحبه لم يستغن به بعد»(٣٦).

ويعلل النووي: «لأن من كان طالبا للزيادة لم يستغن بما معه، فليس له غنى»(٣٧).

ويقول ابن بطال: «معنى الحديث: ليس حقيقة الغنى: كثرة المال؛ لأن كثيرا ممن وسع الله عليه في المال لا يقتنع بما أوتي، فهو يجتهد في الازدياد، ولا يبالي من أين يأتيه؟ فكأنه فقير؛ لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى: غنى النفس؛ وهو من استغنى بما أوتي، وقنع به، ورضي، ولم يحرص على الازدياد، ولا ألح في الطلب، فكأنه غنى»(٣٨).

أقول:

١- تحليل هؤلاء الأئمة يجعل حقيقة الغنى هو شبع النفس وقلة حرصها، والاكتفاء الذاتي، والقناعة بالموجود، وهذا ليس هو الغنى الحقيقي، وإنما هو نتاج هذا الغني، كما سيأتي بيانه.

٢- إن الحرص على الازدياد من حلال لا يناقض غنى القلب والنفس،

---

(٣٦) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٥٨٦.

(٣٧) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٧، (ط مناهل المعرفة) ص ١٤٠.

(٣٨) فتح الباري، ج ١١، ص ٢٧٢.

فكما رأينا في فصل سابق، أن نبي الله أيوب، حرص على كثرة المال، الحلال، وقال لله تعالى: لا غنى عن بركتك، مع أن قلبه كان غنيا بالله، وفيه علم النبوة وخيرها.

فلنتأمل في تحليلات أخرى:

ب- يجعل القرطبي نتاجا لتحقيق الغنى في النفس، فيقول: «معنى الحديث: أن الغنى النافع، أو العظيم، أو الممدوح، هو غنى النفس، وبيانه: أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع، فعزت، وعظمت، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح، أكثر من الغنى الذى يناله من يكون فقير النفس؛ لحرصه؛ فإنه يورطه في رذائل الأمور، وخسائس الأفعال؛ لدناءة همته، وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم، فيكون أحقر من كل حقير.

والحاصل: المتصف بغنى النفس يكون قانعا بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد، لغير حاجة، ولا يلح في الطلب، ولا يلح في السؤال، بل يرضى بما قسم الله، له، فكأنه واجد أبدًا.

والمتصف بفقر النفس على الضد منه؛ لكونه لا يقنع بما أعطي، بل هو أبدًا في طلب الازدياد، من أي وجه أمكنه، ثم إذا فاته المطلوب؛ حزن وأسف، فكأنه فقير من المال؛ لأنه لم يستغن بما أعطي، فكأنه ليس بغني.

ثم إن غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى، والتسليم لأمره، علمًا بأن الذي عند الله خيرًا وأبقى، فهو معوض عن الحرص»[٣٩].

أقول: هذا تحليل جيد لغنى النفس، واقتراب صحيح من حقيقة مفهوم غنى القلب، حيث جعله ينشأ من الإيمان القلبي بقضاء الله... إلخ.

---

(٣٩) فتح الباري، ج١١، ص٢٧٢.

جـ- ويعطي الطيبي مفهوما أكثر قربا لغنى القلب، يقول: «يمكن أن يراد بغنى النفس، حصول الكمالات العلمية والعملية وإلى ذلك أشار القائل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل: الفَقْرُ

أي: ينبغي أن ينفق أوقاته في الغنى الحقيقي؛ وهو تحصيل الكمالات، لا في جمع المال»(٤٠).

أقول: جمع المال الحلال ضروري لاكتساب الكمالات، أما باقي التحليل فهو مهم جدا؛ لأن غنى النفس إنما يتحقق بتحصيل الكمالات العلمية، والخلقية، فالغنى هو الامتلاء بالمعرفة، والوعي، وحب الخير، والتفتح الاجتماعي، والإيمان بالله، واليوم الآخر، والتخلق بمكارم الأخلاق، والاهتمام بالآخر.. وباليوم الآخر.. والعيش مع العظماء، ومع حركة التاريخ... إلخ.

ومن وَعَى التاريخ في صدره   أضاف أعمارًا إلى عمره

ولكن كيف يتحقق ذلك للنفس؟ كيف تتصف بالغنى الحقيقي الذي هو كمالها؟

د- يقول ابن حجر: «وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب؛ بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره، فيتحقق أنه المعطى المانع، فيرضى بقضائه، ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه، غنى نفسه عن غير ربه- تعالى»(٤١).

وهذا كلام نفيس يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب؛ فالغنى، هو الاستغناء بالله والاكتفاء به، وهو عين الافتقار إليه، وهذا – بحق – هو غنى القلب، والنفس- معًا:

(٤٠، ٤١) المصدر السابق، ص ٢٧٣.

١- يقول محمد بن عبد الله الفرغاني: «إذا صح الافتقار إلى الله تعالى؛ فقد صح الاستغناء به، وإذا صح الاستغناء بالله؛ كمل الغنى به»(٤٢).

٢- يقول أبو بكر الكتاني: «إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى به؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بصاحبه»(٤٣).

٣- ويحلل ابن القيم: «فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد – في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة، فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه»(٤٤). وهذا الفقر الحقيقي «لا تنافيه الجدة ولا الأملاك، فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته (في قمة الافتقار إلى الله، والغنى به..) مع جدتهم وملكهم، كإبراهيم الخليل ﷺ؛ كان أبا الضيفان، وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك كان سليمان وداود- عليهما السلام- وكذلك كان نبينا ﷺ، كان كما قال الله- تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم»(٤٥) وسيأتي تفصيل لتحليل ابن القيم بعد فقرة واحدة، بإذن الله.

وهذا الافتقار إلى الله، والغنى به- عزيز، ينتج العزة، قال أبو حفص النيسابوري: «ما أعز الفقر إلى الله، وأذل الفقر إلى الأشكال، وما أحسن الاستغناء بالله، وأقبح الاستغناء باللئام»(٤٦).

هـ - ويعطي أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي إضافة لمفهوم الغنى، يقول: «الغنى: إعظام النعم، والدوام في أداء الشكر، وقلة الاغتمام بما تكفل به الرب، فمن عَظَّمَ نعم ربه؛ أحبه، وأدْأبَه شكره، (...) فمن عظم ما به النعم:

---

(٤٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٦٠.
(٤٣) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٣٧٩.
(٤٤) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٥٩.
(٤٥) المصدر السابق، ص ٤٥٨، ٤٥٩.
(٤٦) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ١١٧.

حَلَّ به الغنى، ولم يأسف على ما فاته من الدنيا(...).

قلت: ما الذي يبعث على قلة الاهتمام بما تكفل له به رَبُّه؟

قال: يقينه بالله، لما ضمن له الوفاء، ومعرفته بأنه لا يضيع الضعفاء، ونظره إلى مولاه من حيث جُودُه وحسن عطفه على عباده، وأنه ينجز ما وعد، ولا يخلف، وهو الغنى الحميد، الرحيم الودود، فإذا نظر إلى ربه بجوده، وحسن الوفاء بوعوده، قل اهتمامه(...) فأفاق من مؤنة الاهتمام، وقام فعله بالتمام، وأزاح عنه حسن الظن بمولاه - الفقر وشغله عن ذكر الدنيا: حُسْنُ القيام بالشكر، فسكن إلى الغنى، وحَلَّ بالراحة»[٤٧].

فالغنى عند المحاسبي: قطع الطمع في الخلق، والفقر: شدة الطمع، وأن يعظم نعم الله التي عنده، ويحبه، ويشكره، وأن يحسن ظنه بالله، وينتظر اليسر منه[٤٨]. وأن يتيقن في الله، ويعرفه بأسمائه الحسنى.

وهذا كله اقتراب صحيح لقيمة الغنى العالي، غنى القلب والنفس.

و- تحليل ابن القيم لغنى القلب:

١- يقول في (طريق الهجرتين)، تحت عنوان «فصل في تقسيم الغنى إلى عال وسافل»:

ولما كان الفقر إلى الله سبحانه، هو عين الغنى به، فأفقر الناس إلى الله: أغناهم به، .. كان ذكر الغنى بالله مع الفقر إليه متلازمين متناسبين، فنذكر فصلا نافعا في الغنى العالي.

واعلم أن الغنى - على الحقيقة - لا يكون إلا بالله الغني بذاته، عن كل ما سواه، وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر، كما هو موسوم بسمة الخلق والصُّنْع، وكما أن كونه مخلوقًا أمر ذاتي له؛ فكونه فقيرًا أمر ذاتي له، وغناه: أمر

(٤٧) المحاسبي: أعمال القلوب، ص ٥١، ٥٢.

(٤٨) المصدر السابق، ص ٥٢.

نسبى إضافي عارض له، ولا يوصف بالغنى- على الإطلاق - إلا من غناه من لوازم ذاته، فهو الغنى بذاته عما سواه، وهو الأحد الصمد الغنى الحميد.

والغنى قسمان: غنى سافل، وغنى عال؛ فالغنى السافل: الغنى بالعواري المستردة من.. القناطير المقنطرة.. والحرث، وهذا أضعف الغنى(...) وهذا الغنى محفوف بفقرين، فقر قبله، وفقر بعده، .. فحقيق بمن نصح نفسه ألا يغتر به، ولا يجعله نهاية مطلبه، بل إذا حصل له جعله سببا لغناه الأكبر، ووسيلة إليه، ويجعله خادما من خدمه، لا مخدوما له، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبدها لغير مولاه الحق؛ إذ يجعلها خادمة لغيره(٤٩).

فابن القيم- بهذه اللمحة الذكية - يبين أن الغنى السافل مطلوب كسبه للغنى الأكبر، كخادم، لا كسيد، يستعبدنا.

٢- ثم يبين الغنى العالي، فيقول: فالغني إنما يصير غنيا بحصول ما يسد فاقته، ويدفع حاجته، وفى القلب فاقة عظيمة، وضرورة تامة، وحاجة شديدة، لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنى الحميد، الذى إن حصل للعبد، حصل له كل شيء، وإن فاته؛ فاته كل شيء، فكما أنه سبحانه الغني على الحقيقة، ولا غني سواه؛ فالغني به: هو الغني في الحقيقة، ولا غنى بغيره البتة، فمن لم يستغني به عمن سواه؛ تقطعت نفسه على السِّوَى حسرات، ومن استغنى به؛ زالت عنه كل حسرة، وحضره كل سرور وفرح(...).

«وغنى القلب: ما يناسبه؛ من تحققه بالعبودية المحضة التي هي أعظم خِلْعَة تُخْلَع عليه، فيستغني حينئذ بما توجبه هذه العبودية له: من المعرفة الخاصة، والمحبة الناصحة الخالصة، وبما يحصل له من آثار الصفات المقدسة، وما تقتضيه من الأحكام والعبوديات المتعلقة بكل صفة على الانفراد، ومجموعها قائمة بالذات»(٥٠).

---

(٤٩) ابن القيم: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص ٣١، ٣٢.

(٥٠) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٣٢، ٣٣.

ويقول في المدارج: «حقيقة غنى القلب: تعلقه بالله وحده، وحقيقة فقره المذموم: تعلقه بغيره»[(٥١)].

٣- ثم يفصل ابن القيم مقومات الغنى العالي؛ غنى القلب، وتتحدد في المقومات الآتية:

٣-١ : المقوم الأول: سلامة القلب؛ من التعلق بالسبب، لا من قيام الجوارح به: أي: تخلص القلب من التعلق بأسباب الغنى المادي، من صناعة أو زراعة، أو قوة علمية، أو منصب، أو وظيفة،... إلخ، فيتخلص من الفقر إلى السبب، والتعلق به، وشهوده والاعتماد عليه، والركون إليه، والثقة به، فالغنى هو بمسبب الأسباب، ومتى كان معتمدا على سبب غناه، واثقا به؛ لم يطلق عليه اسم الغنى؛ لأنه فقير إلى الوسائط، بل لا يسمى صاحبه غنيا إلا إذا سلم من التعلق بالسبب؛ استغناء بالمسبب، بعد الوقوف على رحمته، وحكمته، وتصرفه، وحسن تدبره، فلذلك يصير صاحبه غنيا بتدبير الله سبحانه، فالغنى: هو سكون النفس والقلب إلى مسبب الأسباب، فهو غني به، مفتقر إليه، مع قيام جوارحه في الأسباب، يعقلها، ويحكمها، ويحسن ممارستها، ويتقنها، ويتوكل على الله[(٥٢)].

٣-٢ : المقوم الثاني لغنى القلب: المسالمة والانقياد لأحكام الله:

فلا يكون القلب غنيا إلا بمسالمة حكم الله؛ والتخلص من منازعة الرب سبحانه.

وحكم الله نوعان:

حكم شرعي ديني: «فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم، وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، وهذا: تسليم العبودية المحضة؛ فلا يعارض:

---

(٥١) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٦٩.

(٥٢) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٣٤، مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٦٩.

بذوق ولا وجد ولا سياسية ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلا البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول»(٥٣) لشرع الله وحكمه، فإذا تلقاه القلب بهذا التسليم والمسالمة؛ إقرارا وتصديقا، بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر لحكم الله الديني الشرعي؛ إرادة وتنفيذا وعملا؛ «فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذى سلم من شبهة تعارض الحق، وشهوة تعارض الأمر(...) فهذا حق الحكم الديني»(٥٤).

والحكم الثاني للرب سبحانه: هو حكم الله الكوني القدري: الذى ليس للعبد فيه اختيار؛ «الحكم القدري الكوني الذي يجرى على العبد بغير اختياره، ولا طاقة له بدفعه، ولا حيلة له في منازعته؛ فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام، والمسالمة، وترك المخاصمة(...) فها هنا يحسن الاستسلام والمسالمة، مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخر، سوى التسليم والمسالمة؛ وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه، وعدله، في قضائه، وحكمته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الكتاب الأول (اللوح المحفوظ) سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم، جل جلاله، وصفته الحكمة، وأن القدر قد أصاب مواقعه، وحل في المحل الذى ينبغى له أن ينزل به، وأن ذلك أوجبه عدل الله، وحكمته وعزته، وعلمه(...) فهو موجب أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، فله عليه أكمل حمد، وأتمه، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره»(٥٥).

(٥٣، ٥٤) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٣٥.

(٥٥) المرجع السابق، ص ٣٦، ٣٧.

ويبين المحاسبي علاقة التسليم لحكم الله القدري بغنى القلب، فيقول: «ثلاث خلال تلزمها قلبك:

الخلة الأولى: الإيمان بأن المقدور يأتي، وأن ما لم يقدر لا تناله، والغنى بالله.

فمن ألزم قلبه ذلك أورث ذلك قلبه ثلاث خصال:

أحدها: أن يأمن قلبه أن يفوته ما قدر له.

والثانية: أن ييأس: أن ينال ما لم يقدر له.

فمن ألزم قلبه أن رزقه لا يفوته، والإياس أن ينال ما لم يقدر له؛ استغنى، وقل همّه وخضوعه للخلْق، والمداراة لهم؛ لأن (لكي) ينال منهم منفعة، فهذا هو المستغنى عن غير الله.

والخلة الثانية: الحذر من الله، أن يغفل، فيزل، فيسقط من عينه؛ لأن الحذر يوقظه، والتيقظ يذكره، والذكر ينبهه، حتى يراقب مليكه.

والخلة الثالثة: ذكر اطلاع الله عليه في ضميره وجوارحه، فإن ذلك يورثه الحياء من الله- عز وجل(...).

وجملة ذلك: أن تغدو إلى سوقك أو غيرها فتلزم قلبك ثلاثًا: اليقين، والحذر، والنظر، فباليقين يحذر، وبالحذر يتيقظ، وبذكر النظر يستحيي من الناظر الأعلى، جل ثناؤه»[٥٦].

فاليقين بقدر الله يورث القلب الغنى به.

وأما حكم الله الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة؛ فهذا حقه أن يُنَازَعَ ويُدَافَعَ، بكل ممكن، ولا يُسَالَمَ البتة، بل يُنازِع بالحكم الكوني أيضًا، فينازع حكم الحق بالحق، للحق، فيدافع به، وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي: (إن الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا،

---

(٥٦) الحارث بن أسد المحاسبي: معاتبة النفس، دار الاعتصام، ص ٣٤ – ٣٦. والخلة الأولى هي المطلوبة هنا.

وأنا انفتحت لي رَوْزَنَة (نافذة) فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والعارف: من يكون منازعًا للقدر، لا واقفًا مع القدر).

فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه فتأمل عمر بن الخطاب، وقد عوتب على فراره من الطاعون، فقيل له: أتفر من قدر الله؟.. فقال: نفر من قدر الله إلى قدر الله»(٥٧).

فقدر الجوع والعطش والبرد تنازعه بقدر الأكل والشرب واللباس،... فتدفع قدر الله بقدره، وقدر الحريق في البيت تنازعه بقدر الإطفاء بالماء وبكل ممكن حتى تطفئ قدر الله بقدر الله، وما خرجنا في ذلك من قدر الله، وقدر المرض تنازعه بقدر التداوي، لدفع قدر المرض، فحق الحكم القدري الكوني الذي لنا فيه كسب واختيار وإرادة: «أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه، فإن غلبه وقهره؛ حرص على دفع آثاره، وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، ونازع الحكم بالحكم، وبهذا أمر، بل هذا حقيقة الشرع والقدر»(٥٨).

٣-٣: المفهوم الثالث لغنى القلب: الخلاص من مخاصمة الخلق في حظوظ دنيوية عاجلة:

فإن منازعة الخلق دليل على فقد القلب إلى الأمر الذى وقعت فيه

---

(٥٧) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٣٥ – ٣٦، أخرج مسلم من حديث ابن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان برسغ لقيه أهل الأجناد – أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه- فأخبره أن الوباء (الطاعون) قد وقع بالشام.

ثم ذكر مسلم استشارة عمر للمهاجرين والأنصار، ومشيخة قريش من مهاجرة الفتح، ثم قرار عمر بالرجوع، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرار من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! – وكان عمر يكره خلافه – نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان: إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟.. ثم ساق باقي الحديث. (انظره كاملا في: إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٢١٩، ص ١٣٦ – ١٣٨.

(٥٨) المصدر السابق، ص ٣٦.

الخصومة في **الحظوظ العاجلة**، ومن كان فقيرا إلى حظ من الحظوظ؛ يسخط لفوته، ويخاصم الخلق عليه؛ لا يطلق عليه اسم «الغني» حتى يسلم الخلق من خصومته؛ بكمال تفويضه إلى وليه وقيومه، ومتولى تدبيره، «فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب، ومن علة منازعته لأحكام الله- سبحانه- ومن علة مخاصمته للخلق، على حظوظ؛ استحق أن يكون غنيا بتدبير مولاه، مفوضا إليه، لا يفتقر قلبه إلى غيره، ولا يسخط شيئا من أحكامه، ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه، فتكون مخاصمته لله، وبالله، ومحاكمته إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في استفتاح صلاة الليل: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت**»[٥٩]. فتكون مخاصمة هذا العبد لله، لا لهواه، وحظه، ومحاكمة خصمه إلى أمر الله، وشرعه، لا إلى شيء سواه، فمن خاصم لنفسه؛ فهو ممن اتبع هواه، وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط[٦٠]. وهذا لتكميل عبوديته، ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله: فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أمر أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت؛ حتى يجعل الحكم لله وحده، كما هو كذلك، في نفس الأمر»[٦١].

أقول: إذا اعتدى عليك أحد وظلمك، فنازع هذا القدر بقدر المدافعة، واسترداد الحق بطرقه الشرعية، فهذا مخاصمة بالحق للحق.

٣-٤: المقوم الرابع لغنى القلب: استقامة النفس على مراد الله:

الذى يحبه الله ويرضاه، وتجنبها لمناهيه، التي يسخطها ويبغضها، وذلك تعظيمًا لله- سبحانه- وتعظيمًا لأمره، وإيمانًا به واحتسابًا لثوابه، وخشيةً من

(٥٩) البخاري: صحيحه، رقم١١١٢، ومسلم: صحيحه، رقم ٧٦٩.
(٦٠) البخاري: صحيحه، رقم ٦١٢٦، ومسلم: صحيحه، رقم ٢٣٢٧.
(٦١) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٣٤، ٣٥.

عقابه، «لا طلبا لتعظيم المخلوقين له، ومدحهم، وهربا من ذمهم وازدرائهم، وطلبا للمنزلة والجاه عندهم؛ فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله، والبعد عنه، وأنه أفقر شيء إلى المخلوق».

فسلامة النفس من ذلك؛ واتصافها بضده؛ دليل غناها؛ لأنها إذا أذعنت؛ منقادة لأمر الله، طوعا واختيارا ومحبة وإيمانا واحتسابا، بحيث تصير لذتها وإراحتها، ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته كما كان النبي ﷺ يقول: «**يا بلال، أرحنا بالصلاة..**»[٦٢]. فإذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل؛ فأي فقر يخشى معه؟ وأي غنى فاتها حتى تلتفت إليه؟

ولا يحصل لها هذا حتى ينقلب طبعها، ويصير مجانسا لطبيعة القلب، فتصير بذلك مطمئنة(...) وإنما تصير مطمئنة بعد تبدل صفاتها، وانقلاب طبعها؛ لاستغناء القلب بما وصل إليه من نور الحق، سبحانه، فجرى أثر ذلك النور في سمعه وبصره، وشعره وبشره، وعظمه ولحمه، ودمه، وسائر مفاصله، وأحاط بجهاته؛ من فوقه، وتحته، ويمينه، ويساره، وخلفه، وأمامه، وصارت ذاته نورا، وصار عمله نورا، وقوله نورا، ومدخله نورا، ومخرجه نورا(...) وإذا وصلت النفس إلى هذه الحال؛ استغنت بها عن التطاول إلى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة، والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة، (...) وإذا صارت النفس حرة طيبة مطمئنة؛ ففاض منه إليها..استقامت بذلك الغنى على الأمر المرغوب، وسلمت به عن الأمر المسخوط، وبرئت من المراءاة»[٦٣].

فإذا تحقق المسلم - والمسلمة - بالمقومات السابقة لغنى القلب، فإنه يرقى إلى أعلى درجات الغنى القلبي العالي، وهو:

---

(٦٢) أبو داود: سننه، ج٢، رقم ٤٩٨٥، ص٧١٥، وقال الألباني: صحيح.

(٦٣) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٣٧، ٣٨، مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٧٠.

٣-٥ : المقوم الخامس لغنى القلب: «وهو الغنى بالحق تبارك وتعالى عن كل ما سواه»[٦٤] : وهو يتحقق بفعل ما يلي، فتدبره واعمل به، ليتحقق قلبك بالغنى العالي.

٣-٥-١ : أولا: أن تشهد – بعقلك وقلبك – ذكر الله- عز وجل- إياك قبل ذكرك له، وأنه- تعالى- ذكرك ابتداء، قبل وجودك، وقبل طاعتك له، وقبل ذكرك له، فَقَدَّرَ خلقك ورزقك، وعملك، وإحسانه إليك، ونعمه عليك، قبل أن تكون شيئا، وذَكَرَكَ الله- تعالى- بالإسلام فوفقك له، واختارك له، دون من خَذَلَه، قال- تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، فهو الذي أهَّلَك بسابق ذكره لك، فلولا الله ما اهتديت، ولا تصدقت، ولا صليت، ومن الذي ذكرك باليقظة حتى استيقظت وغيرك من رقدة الغفلة مع النُّوَّام؟ ومن الذي ذكرك- سواه- بالتوبة حتى وفقك لها، وأوقعها في قلبك، وبعث دواعيك، وأحيا عزماتك الصادقة عليها، حتى تبت إليه، وأقبلت عليه، فذقت حلاوة التوبة.. ولذتها؟ ومن الذي ذكرك- سواه- بمحبته، حتي هاجت من قبلك لواعجها، وتوجهت نحوه- سبحانه- ركائبها؟ وعمر قلبك بمحبته بعد طول الخراب، وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب؟ ومن تقرب إليك أولا، حتى تقربت إليه(...)؟ فلولا سابق ذكره إياك، لم يكن من ذلك كله شيء، ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه – من معرفته، وتوحيده، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والتقرب إليه، فهذه كلها آثار ذكره لك.

ثم إنه- سبحانه- ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نعم عديدة، ذكرك بها قبل وجودك، وتعرف

---

(٦٤) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٣٩.

بها إليك وتحبب بها إليك، مع غناه التام عنك، وعن كل شيء، وإنما ذلك مجرد إحسانه، وفضله وجوده، (...) كيف، وهو الغنى الحميد، فإذا وصل إليك أدنى نعمة منه فاعلم أنه ذكرك بها، فلتعظم عندك؛ لذكره لك بها.

فإذا شهد العبد ذكر ربه تعالى له، ووصل شاهده إلى قلبه، شغله ذلك عما سواه، وحصل لقلبه به غِنًى عَالٍ لا يشبهه شيء، (...) فهذا هو غنى ذكر الله للعبد، وقد قال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»، فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه، غير الذكر الأول، الذى ذكره به حتى جعله ذاكرًا»(٦٥).

٣-٥-٢: ثانيا: دوام شهود القلب لأوَّلِيَّة الله وقيوميته: لأن العبد، إذا فتح الله لقلبه شهود أوَّلِيَّته – سبحانه – حيث كان، ولا شيء غيره، وهو الإله الحق الكامل في أسمائه، وصفاته، الغني بذاته عما سواه، الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده، ويعبده ويمجده، فهو معبود محمود حي قيوم، له الملك، وله الحمد، في الأزل والأبد، لم يزل، ولا يزال موصوفا بصفات الجلال، منعوتا بنعوت الكمال، وكل شيء سواه، فإنما كان به، وهو سبحانه بنفسه، ليس بغيره، فهو القيوم الذى قيام كل شيء به، ولا حاجة به في قيوميته إلى غيره، بوجه من الوجوه، فإذا شهد العبد سبقه تعالى، بالأولية ودوام وجوده الحق، وغاب بهذا عما سواه من المحدثات، (...) فيستغني العبد بهذا المشهد العظيم، ويتغذى به عند فاقاته وحاجاته(...) فاضمحل ما دون الحق تعالى في شهود العبد، كما هو مضمحل في نفسه، وشهد العبد، حينئذ، أن كل ما سواه: باطل، وأن الحق المبين، هو الله وحده، ولا ريب أن الغنى بهذا الشهود أتم من الغنى بالذي قبله.

---

(٦٥) طريق الهجرتين، ص ٣٩، ٤٠ والحديث سبق تخريجه.

«وليس هذا مختصا بشهود أوليته تعالى فقط، بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه، يستغني العبد بها بقدر حظِّه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها..»[٦٦]. فيشهد علو الله، وعلمه المحيط، وأنه سميع، بصير، ويشهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل شيء، وكل نفس، وهو القائم بنفسه، المقيم لغيره، القائم عليه بتدبيره، وربوبيته، وأنه بكمال قيوميته لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يضل ولا ينسى، فيشهد مشهد الربوبية، ومشهد الألوهية، وأنه المعبود وحده، بحق، وكل معبود سواه باطل، فهو وحده المستحق أن يعبد، ويصلى له، ويسجد، ويستحق كمال الحب، وكمال الخضوع له، وأن يطاع وحده، فكل عبادة لغيره باطلة، وكل غنى بغيره، فقر وفاقة، وكل عز بغيره ذل، فله الحب كله، وله التعظيم كله، وهو المستحق للولاء، «فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية، وقام بحقه من التعبد الذى هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم، والقيام بوظائف العبودية، فقد تم له غناه بالإله الحق، وصار من أغنى العباد، ولسان حاله مثل هذا يقول:

غَنِيتُ بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالي عن الشيء لا به

فيا له من غِنًى: ما أعظمَ خَطَرُهُ! وأجلَّ قدرَه! تضاءلت دونه الممالك فما دونها»[٦٧].

٣-٥-٣: ثالثا: ترقى القلب من شهود آثار الصفات إلى آثار وجود الذات: وهذا الترقي يكون بطلوع فجر التوحيد في القلب، وإشراق شمس الوجود الحى الباقي، فتزيل كل ضباب في القلب، «وهذا عبارة عن نور يقذف في القلب، يكشف له بذلك النور عن عظمة الذات، كما كشف له

---

(٦٦) طريق الهجرتين، ص ٤٠، ٤١.

(٦٧) المصدر السابق، ص ٤٣، والمعطى الذى قبله، ص ٤١ – ٤٣.

بالنور الذى قبله عن عظمة الصفات، فإذا كان أثر من آثار صفات الذات، أو صفات الأفعال؛ يُغني القلب والنفس؛ فما ظنك بما تُكَاشَف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والإكرام؟ فهذا غنى لا يناله الوصف، ولا يدخل تحت الشرح، فيستغني العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم، فيا لك مِنْ غنى يدوم، ومِنْ عيش ألذ من الْمُنَى!

فلا تستعجز نفسك عن البلوغ إلى هذا المقام، فبينك وبينه: صدق القلب، وإنما هي عزمة صادقة، ونهضة حر ممن لنفسه عنده قدر وقيمة، يغار عليها أن يبيعها بالدون، وقد جاء في أثر إلهي، يقول الله - عز وجل: «**ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب، (...) ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدتَ كل شيء، وإن فُتّكَ فَاتَكَ كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**» فمن طلب الله بصدق وجده، ومن وجده: أغناه وجوده عن كل شيء، فأصبح حرا: في غنى ومهابة، على وجهه أنواره، وضياؤه»(٦٨).

هذا هو الغنى العالي، فارجع النظر والتفكر، وأعد القراءة مرتين، وانهض نهضة حر، واطلب الله، واستغن به، وأنت تسعى في الحياة، كما شرحنا سابقا.

فالغنى القلبي والنفسي: امتلاء القلب بمعرفة الله، وتوحيده، وعبادته، وبالحكمة والمعرفة النافعة، وبالخير، وبالوعي، وبحياة الضمير، وصحوة الوعي، وبالحرية، وبمعنى الوجود لرسالة كبيرة... إلخ، وبالتفتح الاجتماعي، وبالهموم الكبرى.. هموم الأمة، وهموم الفقراء، والمضطهدين، والمستضعفين في العالم... إلخ.

رابعا: بعض آثار غنى القلب:

لغنى القلب آثار في النفس والجوارح والسلوك، فإذا افتقد القلب هذا الغنى ظهرت آثار الفقر الحقيقي في النفس، كما سأذكر بعضها:

---

(٦٨) المصدر السابق، ص ٤٣، ٤٤.

أ- بعض آثار غنى القلب في النفس:

١- قررنا في فصل سابق أن القلب مثل أمير مطاع، وصلاحه هو صلاح لجميع رعيته، فغنى القلب بالله يؤدى إلى غنى النفس والجوارح، يقول ابن القيم: «والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية خلع على.. الرعية خلعا تناسبها، فخلع على النفس خلع الطمأنينة، والسكينة، والرضا والإخبات، فأدت الحقوق في سماحة، لا كَظْمًا؛ بانشراح ورضا ومبادرة، وذلك لأنها جانست القلب حينئذ، ووافقته في أكثر أموره، واتحد مرادهما – غالبا، فصارت له وزير صدق..»(٦٩).

٢- فغنى القلب ينعكس في غنى النفس، فترضى بالله، وتسكن لأمره، ولا يضرها ما أصابها من أقدار البلاء في المال، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من كان الغنى في قلبه فلا يضره ما لقى من الدنيا..**» لأن الغَنِـيَّ بالله وَجَد الله فوجد معه الرضا والسعادة، حتى وإن لم يعط من مال الدنيا، وهكذا كان الصحابي عمرو بن تغلب ﷺ كما ذكرنا في حديثين.. «**والذي أدع أحب إلى من الذى أعطي؛ أعطى أقواما لما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، منهم عمرو بن تغلب**»، فقال عمرو: ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم.

فالذين أعطاهم النبي ﷺ في هذه الواقعة، لم تتصف قلوبهم بالغنى العالي، فسكنه الجزع، وهو عجز النفس والقلب عن الثبات والعمل، فيسخط، ويعمل أعمال السخط..(٧٠). ويسكنه الهلع؛ وهو الضَّجَر، والخوف من الفقر المالي، أما صاحب القلب الغنى بالله، فهو متحرر من الجذع والضجر والحزن على عدم تحصيل ثروة مالية، مع أنه يسعى لكسب المال الحلال – ولهذا لم

(٦٩) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٧٠) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٥٧.

يعتب عمرو بن تغلب على عدم إعطائه مالا، لما جعل الله في قلبه من الغنى والخير.

٣- ومن استغنى قلبه بالله، جمع الله له شمله، فكان مطمئن النفس مجتمع الهم على الله، منظما في أموره، وأتته الدنيا ذليلة تخدمه، .. أما الذي يفتقد الغنى العالي، فإن نفسه تتقطع حسرات، ويجعل الله فقره المادي حاضرا بين عينيه، فهو طماع جماع، مناع، حساد، متطلع لما عنده غيره، متشعب القلب في الدنيا، فهو يجرى فيها جرى الوحش في البرية، شمله مفرق، وأمره فرط، ولا يأتيه من الدنيا إلا ما قدر له، كما سأشرح في الفصل القادم، بعون الله.

٤- القناعة، وعدم الحرص، والتخلص من الحسد، واستشراف النفس لما عند الآخرين.

٥- تحرر النفس من التعبد للمقتنيات.

ب- بعض آثار غنى القلب في الجوارح والسلوك:

إذا غني القلب بالله: «خلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار، وعلى الوجه: خلعة المهابة والنور والبهاء، وعلى اللسان: خلعة الصدق والقول السديد، الثابت، والحكمة النافعة، وعلى العين: خلعة الاعتبار والنظر، والغض عن المحارم، وعلى الأذن: خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع، .. في معاشه ومعاده، وعلى اليدين والرجلين: خلعة البطش في الطاعات أين كانت، بقوة وأيْدٍ، وعلى الفرج خلعة العفة، والحفظ، فغدا العبد وراح، يَرْفُلُ في هذه الخلع»(٧١).

جـ- أما (من كان الفقر في قلبه) أي: الفقر من الغنى بالله، والطمع في المقتنيات المادية؛ (فلا يغنيه ما أُكثر له في الدنيا)، فمهما أكثر له من المقتنيات

---

(٧١) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٣٣.

والثروات المادية، والأموال، فهو طماع، تنبعث نفسه إلى طلب المزيد منها، فكان فقره حاضرا دائما بين عينيه، ولا يشعر بالغنى المادي أبدًا، إلا إذا استغنى قلبه بالله، وبالإيمان، والخير؛ لأن همه الدنيا وليس همه الله، والفوز بالجنة، وبرؤية وجهه الكريم فيها، فجعل فقره المادي بين عينيه، مهما أكثر له من الدنيا.

د- ومن كان الفقر في قلبه – أي: عدم التحقق بالغنى بالله، والخير- فإنه يتصف بشح النفس، أي: بالبخل، مع شدة الحرص والطمع، الذى يدفعه لمزيد من الاقتناء، والتكديس، وشفط ما عند غيره، دون مراعاة لما أحل الله، وما حرم، ودون إنفاق للمال في حقوقه، ودون تحقيق للوظيفة الاجتماعية للمال، ودون تصريفه في مصارفه النافعة؛ من فعل الخير للنفس والأهل، والمساكين، .. فتتشوه نفسه، وتتضاءل، بسبب هذه الطبيعة الاقتنائية، الاكتنازية الأنانية، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ومن كان الفقر في قلبه؛ فلا يغنيه ما أكثر له من الدنيا، وإنما يضر نفسه شحها**» فشح النفس: يضرها حيث يمنعها من التنعم بالغنى العالي، وبالغنى المالي، وبلذة الإنفاق في الخير، وإعانة الفقراء، والكادحين، ويدمغها بالأنانية، وحب التكديس، فيحوله إلى نملة، إلى مسخ جديد ضئيل، فيفقد الثراء المعنوي الذي هو أساس لاكتمال الكينونة الإنسانية التي تتحقق بثراء الوجدان، والجوانية، بالله، وبالخير، وبالعلم، وبالوعي، وبالهمة العالية، والاهتمام الجاد بآلام الآخرين... إلخ، فتتنعم النفس بالتسابق في فعل الخيرات، لعيال الله، إنها نفس تتفتح مثل وردة لا تذبل أبدًا.

فالغنى - بالإيمان، وبالمعرفة، وبالخير، وبالتفتح الاجتماعي، لا يقاربه الشح، ولا يجتمع معه في القلب، كما قال النبي ﷺ: «**لا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل**» رواه أحمد عن أبى هريرة(٧٢).

---

(٧٢) وإسناده: صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٨٤٩٣، ص ٣٣٥.

ورواه بلفظ: «**لا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والشح**»(٧٣).

وأخرجه النسائي بلفظ: «**ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا**»(٧٤).

ورواه بلفظ: «**ولا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم**»(٧٥).

وأخرج النسائي عن أبى هريرة موقوفًا: «**ولا يجمع الله في قلب امرئ مسلم الإيمان بالله والشح جميعا**»(٧٦).

قال السندي: «أي: لا ينبغي للمؤمن أن يجمع بينهما؛ إذ الشح أبعد شيء من الإيمان(...) أو المراد أنه قلما يجتمع الشح والإيمان»(٧٧).

وقد حذر النبي ﷺ من هذا الشح الذى هو: «الحرص على ما ليس عندك، والبخل بما عندك»(٧٨)، فقال: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**».

فالإيمان تفتح على الغني الحميد الكريم، وتفتح على خلق الله، وتفتح على الخير، وانفتاح اجتماعي بالإنفاق وبذل المساعدة للآخرين، والشح انغلاق النفس، ويبسها.. فلا يجتمعان في القلب، فإذا قوى الإيمان دفع قوة الخير للعمل، وطرد الشح من القلب..، لأنه غني، ويعمل عمل أغنياء القلوب.

هذه هي قيمة غنى القلب، بالله، وافتقاره إليه، وآثارها في القلب، والنفس والمشاعر، والجوارح، والسلوك، ألسنا في حاجة إلى تربية هذا الغنى في قلوبنا؟ جرب، وها أنت ذا وربك، الغني الحميد.

---

(٧٣) المصدر السابق، رقم ٨٤٦٠، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

(٧٤) سنن النسائي، ج ٦، كتاب الجهاد، رقم ٣١١٠، ص ١١، ورقم ٣١١١، ص ١١ ورواه الحاكم، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط ٣، رقم ٧٦١٦، ص ١٢٦٢.

(٧٥) سنن النسائي، رقم ٣١١٤، ج ٦، كتاب الجهاد، ص ١٢، وهى رواية لأحمد، قال شاكر: إسناده صحيح: المسند، ج ٧، رقم ٧٤٧٤، ص ٢٧٦.

(٧٦) المصدر السابق، رقم ٣١١٥، ص ١٢.

(٧٧) حاشية السندي على النسائي، ج ٦، ص ١١.

(٧٨) إكمال المعلم، ج ٨، ص ٤٨، والحديث رواه مسلم، نفس المصدر، رقم ٢٥٧٨، والصفحة.

خامسا: تربية الغنى في القلب:

كيف نصل إلى هذا الغنى العالي: غنى القلب، وغنى النفس؟

أ- يلزم أولا: أن نتصور هذه القيمة تصورا صحيحا، مضمونا، وآثارا، وبوضوح، وباقتناع.. فنقطة البدء في اكتساب هذه القيمة أن نتصورها – حسبما حددناها في هذا الفصل- وأن نقتنع بضرورة الاتصاف بها، وذلك بدراسة مفهومها، وآثارها، وقول النبي فيها.

ب- اشتهاء الاتصاف بهذه القيمة: أي: أن تتكون رغبة، وعشق، ومحبة قوية لهذه القيمة، في القلب، من خلال المعرفة السابقة، والتصور لآثارها، والتذوق لمعانيها في النفس، ودورها في الاكتمال الذاتي.

جـ- اكتساب ما يؤدى إلى تذوق الغنى بالإيمان والخير.. أي: اكتساب حقائق الإيمان بالله، وشهود معانى أسمائه الحسنى، والتعبد لله، والتحرر من رق الأغيار.. والتحقق بشهود الإيمان بالقضاء والقدر، وحقيقة الدنيا، ومنزلتها من الآخرة.. إلخ (انظر فصول: تربية الإيمان في القلب، وتربية القلب المخموم، وتحليل ابن القيم للغنى العالي).

د- ممارسة التعبد بمعاني أسماء الله، الغني الحميد، الأول، القيوم، الواجد، الماجد.

هـ- التوجه إلى الله بالدعاء أن يرزقنا غنى القلب، مثلا: «**اللهم أغنني بالافتقار إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك**» وما يشبه ذلك، من الدعاء.

ذكر ابن سعد في الطبقات أن غلاما من أهل اليمن قال له رسول الله ﷺ: «**ما حاجتك؟**» فقال: يا رسول الله، ادع الله يغفر لي، ويرحمني، ويجعل غناي في قلبي، فقال: «**اللهم اغفر له، وارحمه، واجعل غناه في قلبه، فكان بعد ذلك من أزهد الناس**»[٧٩].

(٧٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٢٠ ونقله ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ط دار الفكر، ص ٧١١.

و- تفريغ النفس والقلب من أي هم يحول دون عبادة الله، بإخلاص.. وهذا طريق حدده الله في حديث قدسي، لغنى القلب، أخرج أحمد عن أبى هريرة قال: قال النبي ﷺ: قال الله- عز وجل: «**يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي؛ أملأ صدرك غنى، وأسُدُّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا، ولم أسد فقرك**»(٨٠).

ورواه الترمذي بلفظ: «**إن الله- تعالى- يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي؛ أملأ صدرك غنى وأسُدُّ فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا، ولم أسد فقرك**»(٨١).

ورواه ابن ماجه: «**يقول الله- سبحانه: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسُدُّ فقرك، وإن لم تفعل، ملأت صدرك شغلا، ولم أسد فقرك**»(٨٢).

وأخرجه الحاكم(٨٣) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان(٨٤) عن أبى هريرة قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] الآية؛ ثم قال: «**يقول الله: ابن آدم، تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل، ملأت صدرك شغلا، ولم أسد فقرك**».

---

(٨٠) إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٨٦٨١، ص ٣٩١.

(٨١) وقال: هذا حديث حسن غريب، السنن، ج ٤، رقم ٢٤٧٤، ص ٢١١ (كتاب صفة القيامة) وهذا لفظ صحيح الجامع، وقال الألباني: صحيح، (صحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ١٩١٤، ص ٣٨٨) وفى الصحيحة برقم ١٣٥٩.

(٨٢) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٣٣١، ص ٣٤٦، والحديث أخرجه الحاكم وصححه، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٩٣) ورواه الطبراني عن معقل بن يسار، بإسناد ضعيف بلفظ: «**قال ربكم تعالى: ابن آدم تفرغ لعبادتي؛ أملأ قلبك غنى، وأملأ يديك رزقًا، ابن آدم لا تباعد عني فأملأ قلبك فقرًا، وأملأ يديك شغلًا**» فيه سلام الطويل: متروك، وزيد العمي: ضعيف. انظر: الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٠، رقم ٥٠٠، ص ٢١٦.

(٨٣) في: المستدرك، ج ٢، ص ٤٤٣.

(٨٤) حديث رقم ١٠٣٣٩.

فالتوجه إلى الله بالعبادة، بإخلاص وتجرد يثمر غنى القلب، بـل يمـلأ الله الصدر غنى، لأنه غنى بالله، وأقبل بقلبه، وهمومه إلى عبادة الله.

ز- ومن أساليب تنمية الغنى في القلب: أن يجعل المسلم همه هما واحـدا، هو هَمّ الآخرة، فإن ثمرة ذلك هو أن يجعل الله الغنى في قلبه، وهذا موضـوع الفصل القادم، الذى هو تكملة لهذا الفصل، فلنتوجه إليه لنتأمله.

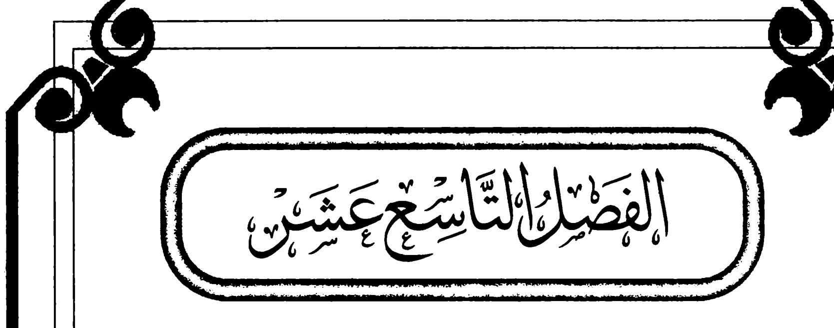
سادسا: خاتمة:

نخلص مما سبق عرضه إلى أن غنى القلب قيمة ممدوحـة، مرغـوب فيهـا، فهي جزء من منظومة قيم تربية القلب، وهـدف مـن أهـدافها، وبالتـالي فـإن إكسابها يمثل جزءا من المشروع التربوي الإسـلامي، وإهمالهـا يـشكل إهمـالا لقيمة أساسية وهدف أساسي فيه.

إذن من أهداف تربية القلب – في الخطاب التربـوي الإسـلامي: إكـساب القلب قيمة الغنى العالي: تصورًا، وإيمانًا، وعملًا، وتخلقًا.

فالشخصية الإسلامية لا يكتمل وجودها الـواقعي إلا إذا اتـصفت بغنـى القلب، والنفس وما ينتجان من ثراء معنوي، وتفتح اجتماعي.

وسوف يكتمل بناء هذا الفصل- وهذه القيمة، باكتمال الفـصل القـادم- **بعون الله تعالى.**



الفصل التاسع عشر

تربية القلب الغني وجعل غناه في قلبه

تربية القلب الغني
وجعل غناه في قلبه

أولا: نص الحديث النبوي:

أ - أخرج ابن ماجه، عن زيد بن ثابت، من حديث، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كانت الدنيا هَمَّهُ؛ فَرَّقَ الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نيته؛ جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»(١).

وأورده في صحيح الجامع معزوًّا لابن ماجه عن زيد بن ثابت، وفي الصحيحة معزوًّا لابن حبان؛ بلفظ: «**من كانت هَمَّه الآخرة، جمع الله له شَمْلَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت هَمَّه الدنيا؛ فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له**»(٢).

وأخرجه أحمد في المسند عن زيد، من حديث قال: «**من كان همه الآخرة؛ جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا؛ فرق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له**»(٣).

وأخرج الطبراني عن زيد بن ثابت، من حديث: «**ومن كانت الدنيا هَمَّه نزع الله الغنى من قلبه، وجعل فقره بين عينيه، وشَتَّتَ الله عليه ضيعته، ولم يأته من الدنيا إلا ما رُزِق، ومن كانت الآخرة هَمَّه، جعل الله الغنى في قلبه، ونزع**

---

(١) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٣٢٩، ص ٣٤٦، وهو في الصحيحة رقم (٩٥٠) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: (هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات) ورواه أبو داود الطيالسي، والطبراني بإسناد لا بأس به، وابن حبان في صحيحه، وأبو يعلى، انظر: الشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج ٣، رقم ١٤٥٤، ص ٢٧١.

(٢) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٦٥١٦، ص ١١١٠، ١١١١.

(٣) قال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢١٤٨٢، ص ٣٢.

فقره من بين عينيه، وكَفَّ عليه ضيعته، وأتته الدنيا وهي راغمة»(٤).

ب- وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت الآخرة همه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه؛ جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له**»(٥).

ثانيا: مفهوم الهم ومفهوم النية في هذا الحديث:

يبين هذا الحديث إحدى وسائل تربية الغنى في القلب، وهي أن تتحرر نية القلب، وهمه، بحيث تكون خالصة لله، وإرادة الآخرة، فهو تكملة للفصل السابق، إذ هو يبين آثار إرادة الدنيا وكثرة المال، وهو الفقر المادي في النفس، وآثار إرادة الآخرة، ونهوض القلب من أجلها، ولهذا فإني أتناوله بإيجاز، وفي هذه الفقرة أبين مفهوم الهم ومفهوم النية، في سياق هذا الحديث.

أ- يقول الراغب: «الْهَمُّ: الحَزَن الذي يذيب الإنسان، يقال: هَمَمتُ الشحم فَانْهَمَّ، والهمُّ: ما هَمَمْتَ به في نفسك، وهو الأصل، ولذا قال الشاعر:

وهَمُّكَ - ما لم تُمْضِه - لك مُنْصِبُ»(٦)

فالْهَمُّ: هو الشيء الذي تقصده النفس، وتنبعث إليه لتعمله، فإذا لم تعمله؛ حزنت وتعبت، وذاب شحمها.

قال ابن منظور: «الْهَمُّ: الحُزْن.. وأهَمَّنِي الأمر؛ إذا أقلقك وحَزَنَك.. ويقال: معنى: ما أهَمَّكَ، أي: ما أحزنك، وقيل: ما أقلقك، وقيل: ما أذابك(..) والمهمات من الأمور: الشدائد المحرقة، وهَمَّه.. يَهُمُّه هَمًّا: أذابه، وأذهب

---

(٤) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٥، رقم ٤٦٢٥، ص ١٥٤ - ١٥٥ وفيه ليث بن أبي سليم، لكن الحديث مروي بإسناد صحيح من غير طريقه، فهو - كما قال البوصيري: إسناده لا بأس به.

(٥) سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٤٧٣، ص ٢١١ - وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم٦٥١٠، ص ١١٠٩، ١١١٠ وهو في الصحيحة برقم ٩٤٩ ، ٩٥٠.

(٦) الراغب: المفردات، ص ٥٤٥ (منصب: أي: متعب، محزن، موجع..).

لحمه، وهَمَّنِي.. أذابني، وهَمَّ الشَّحْمَ.. هَمًّا: أذابه(..) وهَمَّ بالشيء يَهُمُّ هَمًّا: نواه، وأراده، وعزم عليه»(٧).

ب- والْهَمُّ: خاطر، توطنت النفس عليه، وعزمت عليه، واعتقدته وأصرت عليه، يقول ابن حجر: «الهم: ترجيح قصد الفعل، تقول: هممت بكذا، أي: قصدته بهمتي، وهو فوق خطور الشيء بالقلب»(٨) . فالهم: هو قصد الشيء بالهمة، وهو إرادته إرادة يشعر بها قلبه، ويحرص على تحصيل هذا الشيء، ويصمم عليه، فيجزم به، وينبعث لفعله(٩).

والْهَمُّ- بهذا التحديد- عمل من أعمال القلوب، وكسب يثاب عليه الإنسان أو يعاقب.

جـ- ويقول ابن رجب، في تعريف الهم: هو «العزم المصمِّم الذي يوجد معه الحرص على العمل، لا مجرد الخطرة التي تخطر، ثم تنفسخ من غير عزم ولا تصميم»(١٠).

فالهم يكون هما حين يعقد القلب عليه، ويجزم به، دون كره أو نفور.

د- وفي المدارج، يذكر ابن القيم أن الهم: مبدأ الإرادة، والهمة: منتهاها، وهي ما يبعث النفس على المقصود، ويستولي عليها استيلاء خالصا صرفا، فلا يقدر صاحب الهم والهمة على المهلة، ولا يصبر؛ لشدة إلزامه إياه بطلب المقصود(١١).

ولهذا يقول أبو تراب: «احفظ همك؛ فإنه مقدمة الأشياء، فمن صح له همه؛ صح له ما بعد ذلك من أفعاله وأحواله»(١٢).

ويقول ممشاد: «الهَمَّةُ: مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همة وصدق فيها،

---

(٧) ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٤٧٠٢، ٤٧٠٣.
(٨) فتح الباري، ج ١١، ص ٣٢٣.
(٩) انظر: المصدر السابق، ص ٣٢٤.
(١٠) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٤٢٠.
(١١) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٣، ص ٣، ٤.
(١٢) السلمي: طبقات، ص ١٥١.

صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال»(١٣).

وقال أبو علي بن الكاتب: «الهمة مقدمة الأشياء؛ فمن صحح همته بالصدق: أتت عليه توابعه على الصحة والصدق؛ فإن الفروع تتبع الأصول، ومن أهمل همته أتت عليه توابعه مهملة، والمهمل من الأحوال والأفعال لا يصلح لبساط الحق»(١٤).

وقال الجنيد: «عليكم بحفظ الهمة؛ فإن حفظ الهمة مقدمة الأشياء»(١٥).

هـ- ويقول إبراهيم القصار الرقي: «قيمة كل إنسان بقدر همته، فإن كانت همته للدنيا؛ فلا قيمة له، وإن كانت همته رضا الله، فلا يمكن استدراك غاية قيمته، ولا الوقوف عليها»(١٦).

و- فَهَمُّ الدنيا؛ يعني: أن تكون الدنيا - بمالها، وزهرتها، وزينتها، هي مقصد القلب، الذي يستشعره، ويريده، ويحرص على تحصيله، ويصمم على ذلك، ويستولي هذا الهم على النفس، ويلزم بتحصيل المقصود، وإذا لم يحقق هذا الهم؛ حَزِن، حزنا يذيب قلبه.

فهذا معنى: أن تكون الدنيا همه؛ أي: قصده وإرادته، الذي يقصده بهمته وسعيه، وينهض لتحصيله.

والهم الثاني: أن تكون الآخرة؛ أي: رضا الله، وثوابه ونعيمه، في الآخرة، في الجنة، هو مقصد القلب ومراده، الذي يستشعره، ويحرص على تحصيله، ويصمم على ذلك، ويهتم له، وينبعث، وينهض قلبه لعمل ما يوصله إليه، فإذا لم يحقق هذا المراد حَزِن حزنا يذيب قلبه.

---

(١٣) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١٠، ص ٣٥٣.
(١٤) المصدر السابق: ص ٣٦٠ و السلمي: طبقات، ص ٣٨٨.
(١٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١٠، ص ٢٦٨.
(١٦) المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٥٤.

ز- ومفهوم النية في قوله: «**ومن كانت الآخرة نيته**» هو مفهوم «الهم» ولهذا جاء في رواية «**من كانت همه الآخرة**» وفي رواية أحمد: «**من كان همه الآخرة..**» وعند الطبراني: «**..ومن كانت الآخرة همه**» .

«والنية: نهوض القلب إلى الله تعالى، وبدؤها: الخاطرة، ثم الإرادة، ثم النهوض، ثم اللحوق إلى الله تعالى، بعقله، وعلمه، وذهنه، وهمته، وعزمه، وإضماره، فهاهنا تتم النية، ومن هاهنا يخرج إلى الأركان، فيظهر على الجوارح فعله، فمبدأ النية: نهوض القلب، ومنتهاه: عزمه، ثم الارتحال، يقال: ناء ينوء؛ أي: نهض، والعزم: عقد القلب، ولا يكون نية إلا بالعقد، فإذا صح العزم؛ خرج الرياء والفخر والخيلاء من جميع أعماله»(١٧).

«فالنية: نهوض القلب، بعقله ومعرفته، إلى الله، فعلى قدر العقل والمعرفة: يقدر القلب على السعي والطيران إلى الله»(١٨).

«فالنية: نهوض القلب، قاصدا إلى الله- عز وجل، مبتغيا بسعيه وجه الله تعالى، يقال في اللغة: ناء ينوء؛ أي: نهض ينهض»(١٩).

قال أبو عبيدة: «ناء.. أي: نهض، وأنأته: أنهضته»(٢٠).

والهم إذن، هو أساس النية، أساس: نهوض القلب، فقوله: «**من كانت الآخرة نيته؛**» أي: همه الذي أنهض قلبه، وجعله يعزم على الطيران لتحصيله.

ثالثا: مُتعلَّقا الهمِّ والنية، وآثارهما:

أ- المتعلق الأول: الدنيا:

إذا كانت الدنيا هَمّ القلب، ونيته، فإن أحوال صاحب هذا القلب، وأعماله، تنسجم مع هذا الهم، وقد بين الحديث أن الله يصيب صاحب هذا

(١٧) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج ٢، ص ٣٢٠.
(١٨) المصدر السابق، ص ٤١٥.
(١٩) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٥٢.
(٢٠) الراغب: المفردات، ص ٥١٠.

القلب بثلاث نتائج خطرة:

الأولى: «**فرق الله عليه أمره**» وعند الترمذي: «**فرق عليه شمله**» وعند أحمد: «**فرق الله عليه ضيعته**» والشمل: «الاجتماع، يقال: جمع الله شمله، وفي حديث الدعاء: **أسألك رحمة تجمع بها شملي**؛ الشمل: الاجتماع،.. وجمع الله شملهم؛ أي: ما تشتت من أمرهم، وفرق الله شمله؛ أي: ما اجتمع من أمره»(٢١).

«وشمل القوم: مجتمع عدوهم وأمرهم»(٢٢).

والشمل أيضا: ما يشتمل عليه القلب والنفس والضمير من أمور وحاجات مجتمعة، فلأن قلبه أراد الدنيا ونهض إليها، فإن قلبه يتوزع، ويتفرق على شعبها، فيكون من قلبه بكل واد من أوديتها شعبة، فينشعب قلبه، أي: يتمزق، ويتفرق، وينفرط أمره، ويتفرق المجتمع عنده، ويصيبه هوس الدنيا، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] أي: أعماله، وأحواله، وشؤونه: سفه وتفريط وضياع(٢٣).

وهذا كما أخرج ابن ماجه عن ابن مسعود قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «**من جعل الهموم هما واحدا؛ هم المعاد، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا؛ لم يبال الله في أي أوديته هلك**»(٢٤).

وأخرجه في كتاب السنة من المقدمة بلفظ: «**من جعل الهموم هما واحدا، هم آخرته - كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا؛ لم يبال الله في أي أوديتها هلك**»(٢٥).

(٢١، ٢٢) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٢٣٣٢.

(٢٣) انظر: ابن كثير: تفسير.. ج ٣، ص ٨١.

(٢٤) قال الألباني: حسن، صحيح. سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٣٠، ص ٣٤٦.

(٢٥) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ٢٠٩، ص ١٠٠.

وفي رواية: «**من جعل الهموم هما واحدا، هم المعاد، كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك**»[٢٦].

فالذي تتشعب - أي: تتفرق- به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله، أي: لا يعبأ، الله به، ولا يبالي في أي أوديتها هلك، ولهذا كان أبو الدرداء يقول: «اللهم إني أعوذ بك من تفرقة القلب»[٢٧].

فهذا مصير الذي جعل الدنيا همه؛ وجاء في رواية: «**فرق الله عليه ضيعته**» والضيعة: الحرفة والصناعة والمعاش والكسب، والمال، والعقار، والأرض المغلة، والمنزل، والعيال[٢٨]. أي: أن الله يفرق، ويشتت، عليه ماله، وعياله.. فلا يستقر، ولا يهدأ، ولا يطمئن، ونعوذ بالله من ذلك، قال الهروي: «ضيعة الرجل: ما يكون منه معاشه؛ من صناعة، أو غلة، وغيرها، (..) ويدخل فيها الحرفة والتجارة»[٢٩].

والنتيجة الثانية: «**جعل الله فقره بين عينيه**» وفي رواية الطبراني: «**نزع الله الغنى من قلبه، وجعل فقره بين عينيه**».

وهذا كما جاء في حديث الفصل السابق: «**من كان الفقر في قلبه فلا يغنيه، ما أكثر له في الدنيا..**» فهو طماع، والطمع: فقر حاضر، وهو حريص، جماع، مناع للخير، وهو من خوف الفقر في فقر، قلبه كجهنم: كلما ألقي في خزائنه مال قال: هل من مزيد، هو - كما وصف النبي ﷺ: «**كالذي يأكل ولا يشبع**» فهو شره، نهم، مفجوع، لفراغ القلب من الغنى العالي، فصدره مملوء شغلا، وقلقا، وطمعا.. وهذا من أبلغ العذاب في الدنيا.

---

(٢٦) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط٣، رقم ٦١٨٩، ص ١٠٦٤، ١٠٦٥.
(٢٧) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ١، ص ٢٨٣.
(٢٨) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٢٦٢٤.
(٢٩) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٢٧٠.

فمن فرغ قلبه من كل هم سوى عبادة الله، وسوى هم الآخرة، أغنى الله قلبه، وسد فقر جيبه، ومن لم يفرغ قلبه من الهموم الدنيوية؛ ملأ الله صدره شغلا.. وجعل فقره حاضرا يراه، بين عينيه(٣٠).

والنتيجة الثالثة: «**لم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له**» . وفي رواية: «**إلا ما قدر له**» وفي رواية الطبراني: «**إلا ما رزق**» فبعد الجري في الدنيا جري الوحوش، غير رزقك يا بن آدم (لم تحوش) لن تنال إلا ما قدر الله، وكتبه لك.. فاتق الله، وأجمل في الطلب، وكن حرا كما خلقك الله.

هذه هي نتائج تعلق هم القلب بالدنيا، فهو متعلق ضار خطر، إنه متعلق يجعل الإنسان يربح العالم، لكنه يخسر نفسه، ويخسر الجنة، ويخسر رضا الله.

ب- أما المتعلق الثاني:

وهو الصحيح، فهو تعلق الهم بالآخرة، بالمعاد، والجزاء..إنه البحث عن ربح النفس، وصاحب هذا التعلق الأخروي المعادي، يتمتع بنتائج- أو بثمرات- ثلاث:

الأولى: «**جمع الله له أمره، وشمله، وكف عليه ضيعته**»: فلأنه جمع همومه، ونهضات قلبه وعلقها بالمعاد بثواب الله، في الآخرة، فإن الله يجمع له أمره، وشؤونه، فيكون مهدي البال، منظم الحال، مرتبا، منسقا، متسقا في أعماله، وتصرفاته، مطمئنا، متوحدا، وبين جميع أعماله (وحدة)، فتخرج أعماله الباطنة والظاهرة كقصيدة رائعة فريدة تتمتع بالوحدة العضوية والموضوعية، وبمذاق واحد، وبوزن واحد، وقافية واحدة؛ لأن (البحر) الذي تستمد منه واحد، والروح التي تسري فيها واحدة؛ عبادة الله، ورجاء ثوابه في الآخرة، ويعني جمع الشمل أيضا: لم الشمل العائلي، والانسجام القرابي والاجتماعي، ولم شمله في العمل، والحرفة، فهو في كل الأحوال مستريح البال، مطمئن، لا

---

(٣٠) انظر: ابن القيم: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٤٨.

يعاني من ضغط الدم، ولا الضغط العصبي.

والنتيجة- أو الثمرة- الثانية: «جعل الله غناه في قلبه» وعند الطبراني: **«جعل الله الغنى في قلبه، ونزع فقره من بين عينيه»**: فملأ الله قلبه ونفسه بالغنى العالي، وكفاه كل همومه، وجعله لا يرى إلا الغنى، فالغنى بالله، يحيط به، في قلبه، وبين عينيه.

والنتيجة- أو الثمرة- الثالثة: «وأتته الدنيا وهي راغمة»: أي: ذليلة، خادمة، مطيعة له، يأخذ قَسْمَه منها بأمر الله، وينفقه في مرضاة الله.

فصاحب الغنى العالي- الذي شرحناه في الفصل السابق- يقبل على الدنيا إقبال السيد على عبده، والمستخدم على خادمه، إقدام الحر لا إقدام القِنِّ الرقيق، يستخدمها ويستعملها في طاعة الله، وإصلاح شؤونه، واستصلاح خلقه، ولا تستخدمه هي، فهو السيد، الحر من رق الأخيار، لأنه بالله، ولله، ومع الله، أما الدنيا فهي الخادمة الراغمة.

رابعا: تأمل:

وفي نهاية هذا الفصل؛ تأمل في المقولتين الآتيتين:

أ- قال ابن القيم: «إذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه، فكيف من كان الله سبحانه أكبر همه؟! فهذا من باب التنبيه والأولى»[٣١].

ملاحظة: ذكر ابن القيم لفظ الحديث الذي معنا كالآتي:

قال ﷺ: **«من أصبح والدنيا أكبر همه؛ جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع»** ولم يعزه لأحد.

---

(٣١) ابن القيم: طريق الهجرتين، ص ٤٤.

ب- قال أبو عبد الله بن الجلاد: «من عَلَتْ همته على الأكوان؛ وَصَل إلى مُكَوِّنها، ومن وقف بهمته على شيء سوى الحق، فاته الحق؛ لأنه أعَزُّ مِنْ أن يرضى معه بشريك»(٣٢).

خامسا: أسئلة الفصلين الثامن عشر، والتاسع عشر:

١- ما مفهوم غنى القلب، وما دلالة ذلك؟

٢- ما مقومات غنى القلب، كما شرحها ابن القيم؟

٣- هل غنى القلب يناقض غنى الجيب؟ وضح إجابتك.

٤- ما آثار غنى القلب في النفس والسلوك؟

٥- كيف تربي قيمة الغنى العالي في القلب والنفس؟

٦- ما آثار هَمّ القلب بالآخرة؟ وبالدنيا؟

٧- ما مفهوم الْهَمِّ – والنية؟

٨- حدد قائمة لعناصر غنى القلب، بالله، والفقر إليه..ثم راجع نفسك عليها.

٩- كلفت بإعداد دورة تربوية عن غنى القلب: حدد أهداف هذه الدورة، وأنشطتها المعرفية والتعبدية، وبرنامج التقويم الخاص بها، مستعينا بالفصلين معًا.

١٠- استخرج جميع الأحاديث النبوية في الفصلين معا، وتفهمها، وحاول حفظها، واستنبط منها ما أمكنك.

١١ - هل كان يمكن الاختصار في مقومات الغنى العالي؟

١٢- هل جعل المادة العلمية في فصلين أفضل – أم في فصل واحد؟ ولماذا؟

---

(٣٢) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ١٧٩.

١٣- ما مراحل تربية قيمة الغنى العالي في القلب؟

أ- بناء تصور صحيح، مقنع للقيمة.

ب- تنمية الرغبة القوية في الاتصاف بها.

جـ- الهم والعزم على الاتصاف.

د- ممارسة غنى القلب والتعود عليها. وكيف يتم ذلك؟ (الدراسة لهذا الفصل وما قبله- التفكر في معطياته- الانفعال به- التضرع من أجل اكتساب الغنى القلبي- محاسبة النفس والتقويم الذاتي).

١٤- وضح علاقة هذين الفصلين بفصل (تربية تحرر القلوب من الوهن) وبفصل (تربية القلب المخموم).

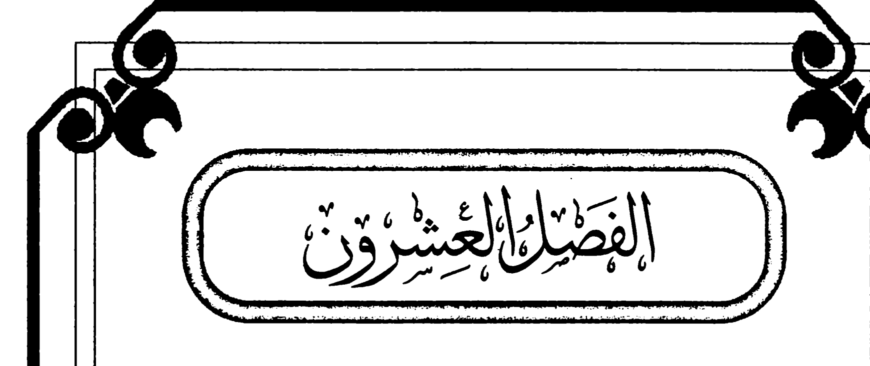
١٥- ادرس الحديث الآتي، وتبين دلالته في تربية القلب الغني:

أخرج مسلم عن عامر بن سعد؛ قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله، فجاءه ابنه عمر؛ فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل، فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟! فضرب سعد في صدره؛ فقال: اسكت؛ سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي**»[٣٣].

ما مفهوم الغنى هنا؟ وما دلالة حب الله للعبد الغني؟

---

(٣٣) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٩٦٥، ص ٥١٧.



تربية الكَرْم والحرية في قلب المؤمن

تربية الكَرَم والحرية في قلب المؤمن

أولًا: نص الحديث النبوي:

أ- قال البخاري: باب قول النبي ﷺ: «**إنما الكرم قلب المؤمن**» وقد قال: «**إنما المفلس الذي يفلس يوم القيامة**» كقوله: «**إنما الصُّرَعَة الذي يملك نفسه عند الغضب**» كقوله: «**لا ملك إلا الله**»، فوصفه بانتهاء الملك، ثم ذكر الملوك أيضًا فقال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤] (...) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ويقولون: الكَرْم، إنما الكرم قلب المؤمن**»(١).

ورواه أحمد بلفظ: «**يقولون: الكرم، وإنما الكرم قلب المؤمن**»(٢).

وأخرجه مسلم عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا: كَرْم، فإن الكرم قلب المؤمن**»(٣).

ورواه عنه بلفظ: «**لا يقولن أحدكم: الكرم، فإنما الكرم قلب المؤمن**»(٤).

ب- وأخرج مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «..**ولا يقولن أحدكم للعنب: الكرم؛ فإن الكرم الرجل المسلم**».

وأخرجه عنه بلفظ: «**لا تسموا العنب الكرم؛ فإن الكرم الرجل المسلم**».

وأخرجه بلفظ: «**لا يقولن أحدكم للعنب الكرم، إنما الكرم: الرجل المسلم**»(٥).

وأخرجه أحمد بروايات صحيحة مثل روايات مسلم(٦)، ومنها: «**لا**

---

(١) فتح الباري، ج ١٠، كتاب الأدب، رقم ٦١٨٣، ص ٥٦٦.

(٢) إسناده صحيح، المسند: ج ٧، رقم ٧٢٥٦، ص ٩١، ٩٢.

(٣) إكمال المعلم، ج ٧، كتاب الألفاظ، رقم ٢٢٤٧، ص ١٨٥، ١٨٦.

(٤) إكمال المعلم، ج ٧، كتاب الألفاظ، رقم ٢٢٤٧، ص ١٨٥، ١٨٦.

(٥) إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٢٤٧، ص ١٨٥ - ١٨٦ (رقم ٦، ٨، ١٠).

(٦) انظر: المسند، ج ٧، رقم ٧٦٦٨، ص ٣٩٨، وانظر: رقم ٧٥٠٩، ص ٣٠٤، نفس المصدر.

تقولوا لحائط العنب: الكرم؛ فإنما الكرم الرجل المؤمن»[٧].

جـ- وأخرج مسلم عن علقمة بن وائل عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: الكرم، ولكن قولوا: العنب والْحَبَلَة»[٨].

ورواه بلفظ: «لا تقولوا: الكرم، ولكن قولوا: الحبلة» يعني: العنب[٩].

وأخرجه أبو داود بلفظ: «لا يقولن أحدكم: الكرم؛ فإن الكرم الرجل المسلم، ولكن؛ قولوا: حدائق الأعناب»[١٠].

ثانيا: دلالة النهي في الحديث عن تسمية العنب كَرْمًا:

أ- نهى النبي ﷺ - نهي كراهة- أن نسمي العنب كرما، وخص قلب المؤمن، والمؤمنة - بهذا الاسم، كما خص الرجل المسلم - المؤمن - والمرأة المسلمة - المؤمنة، بهذا الاسم، وسيأتي تحليلنا لتسمية قلب المؤمن والمؤمنة: كَرْمًا، وما الخصائص والمقومات الخلقية التي نستنبطها من تسمية النبي ﷺ لقلب المؤمن: كرما.

ب- وإنما قلت: نهى النبي ﷺ عن تسمية العنب: كرمًا، نهي كراهة، وليس نهي تحريم؛ اتباعًا للإمام النووي؛ قال: «ففي هذه الأحاديث: كراهة تسمية العنب كرمًا، بل يقال: عنب، أو حَبَلَة، قال العلماء: سبب كراهة ذلك أن لفظة الكرم كانت العرب تطلقها على شجرة العنب، وعلى العنب، وعلى الخمر المتخذة من العنب، سموها كرمًا؛ لكونها متخذة منه(...) فكره الشرع إطلاق هذه اللفظة على العنب وشجره؛ لأنهم إذا سمعوا اللفظة ربما تذكروا

---

(٧) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٧٨٩٦، ص ٢٥، وانظر: رقم ٨١٧٥، ص ٢٢٩- نفس الجزء، وإسناده صحيح.

(٨) إكمال المعلم، ج ٧، كتاب الألفاظ، رقم ٢٢٤٨، ص ١٨٦.

(٩) نفس المصدر السابق، والرقم، والصفحة، ورواه البخاري في الأدب المفرد، قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٧٩٥، ص ٢٧٦، ورواه الطبراني: في: المعجم الكبير، ج٢٢، رقم١٤، ص١٣، ١٤.

(١٠) سنن أبي داود، ج ٤، كتاب الأدب، رقم ٤٩٧٤، ص ٣٢١ وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٧٧٦١، ص ١٢٨١.

بها الخمر؛ وهيجت نفوسهم إليها، فوقعوا فيها، أو قاربوا ذلك»[١١]، وهذا بني على القاعدة الإسلامية في التربية اللسانية اللغوية: أن الألفاظ المسموعة لها تأثير في النفس، سلبا وإيجابا.

جـ- إذن، يكره تسمية العنب كرما، لكن يجوز تسميته بذلك، مع الكراهة، وإنما الأحق بهذا الاسم هو قلب المؤمن، والمؤمنة، والرجل المؤمن، فهو الأجدر بهذا الاسم؛ لجملة الخصائص التي يتخلق بها قلب المؤمن، كما سيأتي، بعون الله.

د- وإنما قلت: الأحق والأجدر أن يسمى قلب المؤمن: كرما؛ اتباعا للإمام البخاري، في جعله الحصر بـ (إنما) ليس على ظاهره، أي: لا يحصر اسم الكرم في قلب المؤمن، أو الرجل المؤمن، ولا يقصره عليه فقط، بل يجوز أن يسمي به غيره، لكن الأحق والأجدر به، على حقيقته وكمال معناه، هو قلب المؤمن، وقد ذكرنا مقدمة البخاري لهذا الباب في أول هذا الفصل، قال ابن حجر: «غرض البخاري: أن الحصر ليس على ظاهره، وإنما المعنى: أن الأحق باسم الكرم: قلب المؤمن، ولم يرد أن غيره لا يسمى كرما، كما أن المراد بقوله: وإنما (المفلس) من ذكر، ولم يرد أن من يفلس في الدنيا لا يسمى مفلسا..»[١٢] إلخ.

إذن، يتبين لنا أنه يجوز تسمية العنب كرما - مع الكراهة؛ لأن الأولى، والأحق، والأجدر بهذا الاسم هو قلب المؤمن، وأولى بنا أن نسمي العنب: عنبا، أو حَبَلَةً أو حَبْلَةً، وهو اسم عربي يطلق على العنب كذلك، أو حدائق الأعناب، أو حائط العنب.

ثالثا: مفهوم كلمة كَرَم، ودلالتها، ودلالة العنب، الخلقية:

لماذا قال النبي ﷺ إن الأولى، والأجدر والأحق باسم الكرم هو قلب

---

(١١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٥ (ط. مناهل العرفان) ص ٤ ، ٥.
(١٢) فتح الباري، ج ١٠، ص ٥٦٦.

المؤمن، والرجل المؤمن؟

تتحصل الإجابة بتحليل كلمة (مؤمن) ودلالتها الخلقية، (ارجع لفصل تربية الإيمان في القلب)، وتحليل كلمة (كَرْم)، وتحديد بعض خصائص العنب الذي أطلق العرب على شجرته، وعلى ثمرته اسم الكَرْم:

أ- **الكَرْم**: اسم مشتق من الكرم، قال في اللسان: والكريم: الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل (...) وفي حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تسموا العنب الكرم، فإنما الكرم الرجل المسلم**» قال الأزهري: وتفسير هذا- والله أعلم- أن الكرم الحقيقي هو من صفة الله تعالى، ثم هو من صفة من آمن به وأسلم لأمره، وهو مصدر يقام مقام الموصوف، فيقال: رجل كرم، ورجلان: كرم، ورجال كرم، وامرأة كرم، لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث، لأنه مصدر أقيم مقام المنعوت، فخففت العرب الكرم، وهم يريدون كَرْمَ شجرةِ العنب، لما ذُلِّل من قطوفه عند الينع، وكَثُرَ من خيره، في كل حال، وأنه لا شوك فيه يؤذي القاطف، فنهى النبي ﷺ، عن تسميته بهذا الاسم، لأنه يعتصر منه المسكر المنهي عن شربه، وأنه يغير عقل شاربه، ويورث شربه العداوة والبغضاء، وتبذير المال في غير حقه، وقال: الرجل المسلم أحق بهذه الصفة من هذه الشجرة(١٣).

وقال الخطابي: «إنما نهاهم عن تسمية هذه الشجرة كرما؛ لأن هذا الاسم - عندهم - مشتق من الكرم، والعرب تقول: رجل كَرَم.. ثم تسكن الراء منه، فيقال: كَرْم، فأشفق ﷺ أن يدعوهم حسن اسمها إلى شرب الخمر المتخذة من ثمرها، فسلبها هذا الاسم، وجعله صفة للمسلم الذي يتوقى شربها، ويمنع نفسه الشهوة فيها، عِزَّة وتكرُّمًا»(١٤).

---

(١٣) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٨٦١، ٣٨٦٣، وانظر: ابن الأثير: النهاية.. ج٤، ص١٦٧.

(١٤) الخطابي: معالم السنن، ج ٤، المكتبة العلمية، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، بيروت لبنان، ص١٣٠، ١٣١.

ب - إذن، الكَـرْم - كَـرَم، والكَـرْم: اسـم للأخـلاق والأفعـال الحـسنة المحمودة، التي تظهر من الإنسان، «ولا يقال: هو كريم، حتى يظهر ذلك منه، قال بعض العلماء: الكَرَمُ كالحرية، إلا أن الحرية قد تقال في المحاسن الـصغيرة والكبيرة، والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة»(١٥).

فالكرم: حرية وزيـادة، قـال في اللـسان: «والحـر مـن النـاس: أخيـارهم وأفاضلهم.. وحُرُّ الفاكهة: خيارها.. والحـر: كـل شيء فـاخر، .. وحـر كـل أرض: وسطها وأطيبها..وحر الدار: وسطها وخيرها، .. وطين حر: لا رمـل فيه.. والحـر: الفعـل الحـسن، .. الحـرة: الكريمـة.. وحـر البقـل والفاكهـة: جيدها.. والحر: الصقر»(١٦).

فهناك نوع ترادف بين الكرم والحرية.

إذن، الكرم:

١- ظهور الأخلاق والأفعال المحمودة.

٢- يتضمن الكرم تخلق الإنسان بالحرية.

ويضيف الراغب: « وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فإنما كان كذلك؛ لأن الكرم: الأفعال المحمودة، وأكرمها وأشرفها: ما يقـصد به وجه الله تعالى، فمن قصد ذلك بمحاسن فعله؛ فهـو التقـي، فـإذن؛ أكـرم الناس أتقاهم، وكل شيء شرف في بابه، فإنه يوصف بالكرم»(١٧).

وقال في إكمال المعلم: «وأصل الكرم: الكثرة والنفع، فـالكريم: مـن كثـر نفعه، وكثرت فضائله، (...) وقد يسمى بالكرم: الرفيع القدير؛ لأن من كثـر نفعه؛ عظم قدره»(١٨).

---

(١٥) الراغب: المفردات، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(١٦) ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٨٣٠.

(١٧) الراغب: المفردات، ص ٤٢٩.

(١٨) إكمال المعلم، ج ٧، ص ١٨٦.

ويعلل ابن القيم نهي النبي بقوله: «لأن هذه اللفظة تدل على كثرة الخير والمنافع، في المسمى بها، وقلب المؤمن هو المستحق لذلك، دون شجرة العنب»[١٩].

إذن، الكرم:

١- هو التُّقَى؛ بفعل مكارم الأخلاق، وابتغاء وجه الله بها.

٢- هو الشرف، وعلو الشيء على غيره، من جنسه.

٣- كثرة الخير والمنافع والفضائل.

ج- إذا تَبيَّنا ما سبق، وتذكرنا قول النبي ﷺ: «**الكرم: قلب المؤمن**» فإننا نستنتج أن قلب المؤمن يسمى كَرْما:

١- لتخلقه بالأخلاق المحمودة، وقيامه بالأفعال الشريفة، وكثرة الخير فيه، وكثرة المنافع.

٢- لتخلقه بالحرية.

٣- لاتصافه بالتقوى.

٤- لشرفه وعلوه على قلوب غير المؤمنين.

وسيأتي بيان ذلك، بعد قليل، بعون الله.

د- هذا من جهة اشتقاق الكَرْمِ من الكَرَمِ.

وأما من جهة إطلاق العرب لفظ الكرم على العنب، وشجر العنب، فأقول:

يتميز شجر العنب بخصائص هي:

١- ذكر الأزهري - فيما نقلنا عنه - أن من خصائص شجر العنب، التي

---

(١٩) ابن القيم: زاد المعاد، في هدي خير العباد، ج ٢، ص ٣١٨.

جعلت العرب يسمونه كرما: «لما ذُلِّل من قطوفه عند الينع، وكثر من خيره في كل حال، وأنه لا شوك فيه يؤذي القاطف»، كما أنه يتميز بكثرة أوراقه، وكثرة ثماره، وكلاهما نافع، فالورق: طعام للإنسان، والحيوان، والعنب فاكهة نافعة، ولا يؤذي قاطفه، «ويحمل الأصل منه مثل ما تحمل النخلة، فأكثر، وكل شيء كَثُرَ: فقد كَرُمَ»(٢٠).

٢- أن شجر العنب مُذَلَّل، منقاد لزارعه، وقاطفه، فحيثما وجهت شجرته توجهت معك، «وإنما سمي العنب كرما؛ لأنه لين ينقاد حيثما استقيد»(٢١).

٣- أن ثمرة العنب رطبة طرية، لذيذة، محبوبة، نافعة.

٤- أن العنب إذا نبذ وترك تحول إلى خمر حرام.

هـ- وهذه الخصائص المميزة للعنب، كلها، يتصف بها قلب المؤمن:

١- فهو قلب كثير الخير، طيب، لين، نافع، حيثما وقع؛ نفع ليس فيه أذى لمبتغي نفعه، فخيره ونفعه: خالص، غير مخلوط بأذى؛ لأنه متجرد من أشواك الحقد والحسد، والكبر، والغل، والغش، والغدر، والأنانية، والرياء، وحب التعالي، والتعاظم،... إلخ.

٢- وهو لين سهل، مذلل منقاد لربه، لأنه هو الذي غرس فيه غرس الإيمان، بل هو غرس غرسه الله سبحانه، أخرج ابن ماجه عن أبي عِنَبة الخَوْلاني - وكان قد صلى القبلتين، مع رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته**»(٢٢).

ورواه أحمد بلفظ: «**لا يزال الله- عز وجل- يغرس في هذا الدين بغرس**

---

(٢٠) فتح الباري، ج ١٠، ص ٥٦٧.

(٢١) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج ١، ص ٤٩٤.

(٢٢) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ٨، ص ٢٠، وفي الصحيحة برقم (٢٤٤٢) - وقال في مصباح الزجاجة: وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات، وقد توبع هشام عليه، فرواه ابن حبان في صحيحه من طريق الهيثم بن خارجة، عن الجراح به، انظر: مصباح الزجاجة، ج ١، رقم ٤، ص ٤٥.

يستعملهم في طاعته»(٢٣).

وساقه في صحيح الجامع بلفظ: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته، إلى يوم القيامة**»(٢٤).

وساقه الحكيم في النوادر بلفظ: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته**»(٢٥).

فقلب المؤمن غرس غرسه الله، وأنبته، ورباه، حتى أثمر، وكثر ثمره النافع الطيب، فهو يستعملهم في هذا الدين بطاعته، إلى يوم القيامة، فقلب المؤمن- غرس الله: «لين رطب، بذكر الله- سبحانه وتعالى- ينقاد لله- تعالى- في أموره وأحكامه»(٢٦)، والغرس يحتاج لسقيا، وري، فهو مسقي مروي، رطب، طري، غض، مثمر، نافع.

٣- فقلب المؤمن رطب، طري، ليس قاسيا، ولا جاسيًا، ولا جافيًا، ولا يابسا، ولا ناشفا، حطبا، بل هو رطب، غض بذكر الله، رقيق، صاف، كما فصلنا في فصول الرقة والرحمة.

٤- إن قلب المؤمن إذا ترك من غير استعمال في طاعة الله؛ وإذا لم يوظف في عبادة الله، ومنفعة الخلق؛ فإن الشيطان يفسده، يحوله إلى خمر حرام والخمر مسكر، والقلب إذا لم يعبد الله، ويحبه، ويعمل بطاعته، فإنه يغفل ويتوه، ويحتار، ويضيع، ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا

---

(٢٣) قال محققه الزين: إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٧٧١٥، ص ٤٩٨.

(٢٤) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٧٦٩٢، ص ١٢٧٢، ونسبه لأحمد وابن ماجه، ولفظها - كما رأيت- مختلف قليلا.. وبغير الزيادة في آخره، ونسبه للبخاري في التاريخ.

(٢٥) النوادر، ج ١، ص ٤٩٣.

(٢٦) المصدر السابق، ص ٤٩٤.

ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧١، ٧٢].

فقلب المؤمن: كرم، حلال طيب، نافع، طاهر، طري، غض، غرس لا يؤذي، إذا أسلم لرب العالمين، وصلى لله، واتقاه، وخاف مقام ربه، أي: إذا تحقق فيه وصف (المؤمن - المسلم)، أما إذا تعطل عن ذلك؛ وصار بطالا، فإنه يتحول إلى خمر، وكل خمر حرام، لا تقربه الملائكة، «فإذا غفل المؤمن عن شيطانه؛ أوقعه في المخالفة، كما أن من غفل عن عصير كرمه؛ تخمر، فتنجس (...) فينبغي للعاقل أن يتعرض لمعالجة قلبه: لئلا يهلك، وهو على الصفة المذمومة»[٢٧].

إذن - بعد تحليلنا لقوله: الكرم، ولخصائص العنب، يتبين لنا أن الأولى والأجدر والأحق باسم الكرم هو قلب المؤمن؛ لأن الإيمان يأمر بمكارم الأخلاق ومعاليها، وأحسنها، وهذا هو الكرم، وهو الحرية.

رابعا: مقومات الكَرَم في قلب المؤمن: تحليل إضافي:

أ-يقول النبي ﷺ: «**ويقولون: الكَرْم، إنما الكرم: قلب المؤمن**».

- ويقولون: الواو: حرف عطف، على شيء محذوف، وكأنه قوله: «**لا تسموا العنب الكرم**»[٢٨]، في حديث سابق، وقوله: (الكرم) مبتدأ، وخبره: محذوف، مقدر، أي: يقولون: الكرم شجر العنب، (إنما الكرم، أو إن الكرم، قلب المؤمن)».

ب- وسمي قلب المؤمن كرما، لتخلقه بخصائص حسنة رفيعة القدر، كريمة، منها:

١- شرف قلب المؤمن، وعلوه في الرفعة والمنزلة والعطاءات الربانية، والمعتقد، وعالم الأفكار الفعالة، والواردات الإلهية عليه، والهمة، والمشاعر الرقيقة الرفيعة، وعالم القيم، فهو شريف عال على أي قلب آخر غير مؤمن،

---

(٢٧) فتح الباري، ج ١٠، ص ٥٦٨.

(٢٨) رواه البخاري: فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦١٨٢، ص ٥٦٤.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فهم الأعلون قلوبًا، وعقولًا، وهمما، وعقيدة، وأخلاقا، وأعمالا، وأحوالا.

فقلب المؤمن هو الأحسن، والأعلى، والأشرف؛ لأنه الأكرم، والأكثر حرية، وخلقا حسنا.

«وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جَمْرَة ما ملخصه: لما كان اشتقاق الكَرْم من الكَرَم، والأرض الكريمة هي أحسن الأرض؛ فلا يليق أن يعبر بهذه الصفة إلا عن قلب المؤمن، الذي هو خير الأشياء؛ لأن المؤمن خير الحيوان، وخير ما فيه قلبه، لأنه إذا صلح صلح الجسد كله، وهو أرض لنبات شجر الإيمان»(٢٩).

٢- اتصافه بالأخلاق المحمودة وامتلاؤه بالنور والإيمان، وحب الخير، والهم بمصالح الفقراء، وعامة الناس، فهو قلب يغلي بالبر والخير، والحق، والجمال، وحب العمار، والحرية، ونية المعروف.

يقول النووي: «فسمي قلب المؤمن كَرْمًا: لما فيه من الإيمان والهدى، والنور، والتقوى، والصفات المستحقة لهذا الاسم»(٣٠).

ويعلل الخطابي تسمية القلب المؤمن كرما بقوله: «لما فيه من نور الإيمان وهدي الإسلام»(٣١).

٣- اتصاف قلب المؤمن بالحرية، فالكرم: حرية وزيادة، فكل كريم هو حر بالضرورة، والحرية ضربان: (...)، والثاني: من لم تتملّكه الصفات الذميمة؛ من الحرص، والشَّرَهِ على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تُضَادُّ ذلك؛ أشار النبي بقوله: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار**»، وقول

---

(٢٩) المصدر السابق، ص ٥٦٨

(٣٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٥ (ط مناهل العرفان) ص ٥.

(٣١) فتح الباري، ج ١٠، ص ٥٦٧.

الشاعر:

ورقُّ ذوي الأطماع رِقٌّ مُخَلَّدُ»[٣٢]

فقلب المؤمن قلب حر، فتأمل مدونتنا المختصرة في حرية القلب.

خامسا: مقولات إضافية، ومدونة مختصرة في حرية القلب، للتأمل والدرس:

أ- تناولت في فصل تربية القلب المؤمن أن عبادة الله وحده تحرير كامل للإنسان، فالقلب المؤمن العابد لله، قلب متحرر من الأغيار والسِّوَى، والمقتنيات، والهوى، والخوف، والوهم، وسلطة التقليد، والماضي، والعرف، وأجهزة تزييف الوعي، وقوى الملأ الاجتماعي، والرياء والمظهرية، فعبادته لله وحده؛ هي عين تحرره، وحريته من كل ما سواه، ومن سواه، فتوحيد العبادة، والقصد تحرير كامل للإنسان، من جميع المعتقدات النفسية والعقلية والاجتماعية، والثقافية والسياسية، والتشريعية، وهذه حقيقة نفسية، وإيمانية تناولناها في ذلك الفصل بالإيضاح والبيان، فادرسها هناك.

ب- يقول أحمد بن خضرويه: «في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية»[٣٣].

جـ- وقال أبو الحسين بن بنان (من أكابر مشايخ مصر): «الحرية: أن يكون السِّرُّ حُرًّا إلا من عبودية سيده، يصح له بذلك العبودية للحق، والحرية عن الخلق»[٣٤].

د- ويقول إبراهيم بن شيبان القرميسيني: «من أراد أن يكون حُرًّا من الكون؛ فليخلص في عبادة ربه، فمن تحقق في عبادة ربه صار حُرًّا مما سواه»[٣٥].

---

(٣٢) الراغب: المفردات، ص ١٠٤.

(٣٣) السلمي: طبقات، ص ١٠٤.

(٣٤) السابق، ص ٣٩٠.

(٣٥) السابق، ص ٤٠٤.

هـ- وقال جعفر الخلدي: «كن لله عبدًا خالصًا؛ تكن عن الأغيار حرا»[٣٦].

و- وقال عبد الله بن محمد الخراز الرازي: «العبودية ظاهرًا، والحرية باطنًا؛ من أخلاق الكرام»[٣٧].

ز- وقال الشبلي: «الحرية هي حرية القلب لا غير»[٣٨]، هل هذا صحيح؟ وما علاقة ذلك بكلام ابن تيمية: «الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب»؟

ح- ويقول الجنيد: «إنك لن تكون له على الحقيقة عبدا، وشيء مما دونه لك مسترق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقيقة عبوديته بقية، فإن كنت له وحده عبدا؛ كنت مما دونه حُرًّا»[٣٩].

ط- قال مسعر بن كِدَام: «من صبر على الخَلِّ والبَقْلِ؛ لم يُسْتَعْبَد»[٤٠].

ى- وقال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامة أن لا يرى لك عن هواك نُزُوعُ
العبد عبد النَّفْسِ في شهواتها والحر يشبع مرة ويجوعُ[٤١]

فالقلب: كريم، وحر، لأنه مؤمن، متخلق بمكارم الأخلاق، ومعاليها، حسن الجوانية، متخلص من الأمراض الوِقَاحِ السُّود.

وقد قلنا: إن هناك نوع تلازم وترادف بين الكرم، والحرية، وقلنا: إن الأجدر باسم الكرم هو القلب المؤمن، وهو الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة.

---

(٣٦) السابق، ص ٤٣٧.
(٣٧) السابق، ص ٢٨٩، وأبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١٠، ص ٣٤٥.
(٣٨) السلمي: طبقات، ص ٣٤٣.
(٣٩) السابق، ص ١٥٨.
(٤٠) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ١٦٥.
(٤١) السابق، ج ٨، ص ٤١٧.

أما بماذا نسمي العنب؟ فنسمي: عنبا، وحَبَلَة، وحدائق الأعناب.

سادسًا: خاتمة، ومشروع مختصر لتربية الكرم والحرية:

١ - كنت أقرأ هذا الحديث، كثيرًا، ربما منذ عشرين سنة، وكنت أمر عليه مرورًا عاجلًا، وكنت أحسب أن النبي ﷺ يأمرنا بعدم إطلاق اسم الكرم على العنب، وتسمية المؤمن، وقلب المؤمن بالكرم: أي: أن الأمر - بادي الرأي - ما كان يتجاوز - عندي - التهذيب اللفظي، والتربية اللسانية، ولكن لما بدأت أتدبر هذا الحديث، وأبحث عن علل هذا النهي: انفتحت في قلبي وعقلي أنوار السنة النبوية، فرأيت في الحديث معاني كثارًا، وغزارًا، أثبت مجملها في هذا الفصل، وتيقنت أن النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم في كل ما قاله، ولعل أحد العلماء يتدبر هذا الحديث، بأعمق مما فعلت، فيخرج بأكثر مما خرجت، وإن فيه لمقومات أخرى للقلب المؤمن؛ فالكرم: جود وسخاء، وقلب المؤمن كرم، ففيه جود وعطاء، وسخاء، كما أن فيه الحرية، ومعالي الأخلاق.

٢- ومما سبق يتبين أن قلب المؤمن يتصف بالكرم والحرية، بكل مقوماتها السابقة، فهو أولى بالكرم، وأولى بالحرية، وأولى بمحاسن الأخلاق.. فهذه صفات ممدوحة محمودة للقلب المؤمن، إذن، هي قيم تحدد أهدافا لتربية القلب الإنساني، أي: أن تربية القلب تستهدف - من حيث هي عملية تنمية وتزكية، ورعاية، وتغذية، وحماية - أن يكتسب المسلم والمسلمة هذه المقومات جميعا؛ ويجمعها قولنا: أن يكون قلب المؤمن: مؤمنا، كريمًا، حُرًّا.

٣- وتربية القلب الكريم الحر، هي ذاتها: تربية القلب المؤمن، وتربية القلب المخموم، وتربية القلب الرقيق، والرحيم، فإذا أحكمنا أساليب التربية في تلك الفصول، فإننا نكون قد تحققنا بأوصاف الكرم والحرية(٤٢).

---

(٤٢) انظر - بالإضافة لما أشرنا إليه - مقترحاتنا لتربية منظومة قيم الحرية في رسالتنا: القيم في كتابات زكي نجيب محمود، دراسة تحليلية تأصيلية، الجزء الثاني، الفصل السابع.

٤- لكننا نضيف- هنا- أطروحتنا التربوية، ذات الأبعاد المحددة؛ فالتربية: تنمية تصورات محددة، واضحة، مقنعة عن الشيء الذي نريد اكتسابه- أولًا- إذن الشرط التربوي الأول لكي تكون قلوبنا مؤمنة، كريمة، حرة، هو: أن نتصور الإيمان، والكرم، والحرية تصورًا دقيقًا، صحيحًا، واضحا، مقنعا، وهذا يتطلب الدرس المتأني لمعطيات هذا الفصل وبراهينه، ومعطيات الفصول المشار إليها، بدقة، واهتمام.

هذا **أولًا**، **وثانيًا**: لا يمكن أن يكتسب الإنسان قيمة أو خلقًا، بدون أن يحبه، ويشتهي العمل به، فالمحبة داعية الحركة، والعمل، فإذن يتوجب تربية الرغبة والمحبة لكرم القلب، وحريته؛ من خلال تكوين القناعة بهما، وأهميتهما... إلخ.

وثالثًا: التربية: تعويد، وتدرب، وممارسة، فالخير عادة، أي: تعود على فعله، أي: لابد من الشروع الفوري في ممارسة قيم الكرم والحرية..بقدر ما نستطيع، مع الاستشعار القلبي لحلاوتها، والسرور بأدائها.

ورابعًا: الاستمرار في هذه الممارسة، وهذا التدعيم النفسي الذاتي، حتى يتحقق الاتصاف الخلقي بقيم الكرم والحرية، وذلك من خلال ممارسة مفهوم المجاهدة، والانقياد لأمر رسول الله ﷺ.

وخامسًا: المرء على دين خليله، فمن الضروري العيش في بيئة اجتماعية ثقافية خيرة تعين على الاتصاف بتلك القيم، فالمصاحبة أصل تربوي مهم في اكتساب كل قيمة ولأنها تحدث تدعيما للنفس، وترغيبا في الاتصاف، بالقيمة، أو بعكسها.

وسادسًا: ممارسة آلية تقويم الذات، من خلال المحاسبة قبل العمل، وفي أثناء العمل، وبعد العمل، وهذا يتطلب ممارسة مبدأ المقايسة، بين ما نتعلمه ونعرفه، وبين ما نعمله ونمارسه، ثم تحديد مناطق النقص، والشروع في

معالجتها، وتكميلها.

وسابعًا: إعمال مبدأ الاهتمام، ومبدأ الشعور بالحاجة إلى الاتصاف، والاقتناع بأهمية هذا الاتصاف.

وإذا تم إنجاز هذه الآليات جميعًا، فإن القلب- يكون على طريق الكَرْم والحرية.

سابعا: أسئلة لتعميق الفهم وتسهيل الممارسة:

١ - ما مفهوم الكرم؟ وما دلالة تسمية قلب المؤمن بهذا الاسم؟

٢- ما خصائص العنب؟ وما خصائص الإنسان المسلم - المؤمن؟

٣- ما مقومات القلب المؤمن، في ضوء قول النبي ﷺ: «**الكرم: قلب المؤمن**»؟

٤- وضح علاقة الكرم بالحرية، من جهة، وعلاقتها بقلب المؤمن من جهة أخرى؟

٥- ما الدلالة التربوية لهذه العلاقة؟

٦- كيف نربي الكرم والحرية في قلب المؤمن؟

٧- حدد قائمة بمقومات الكرم في قلب المؤمن، ثم راجع نفسك عليها.



الفصل الحادي والعشرون

تربية القلب الخاشع لله

تربية القلب الخاشع لله

أولا: نص الحديث النبوي:

أ- أخرج مسلم عن زيد بن أرقم؛ قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول؛ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»(١).

ورواه أحمد مثله، وفي آخره: «فقال زيد بن أرقم: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن، ونحن نعلمكموهن»(٢).

وأخرجه النسائي عن زيد بن أرقم: لا أعلمكم إلا ما كان رسول الله ﷺ يعلمنا، يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل..**» وساق الحديث، وفيه: «**اللهم أني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها**»(٣).

وأخرجه أيضا عن عبد الله بن الحارث قال: كان إذا قيل لزيد بن أرقم: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ، يقول: لا أحدثكم إلا ما كان رسول الله ﷺ حدثنا به، ويأمرنا أن نقول، وساق الحديث..(٤).

ب- وأخرج أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو قال: «كان النبي ﷺ يتعوذ

---

(١) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٢٢ (كتاب الذكر والدعاء) ص ٢١٦- ٢١٧.

(٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٩٢٠٤، ص ٤٣٨.

(٣) سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٤٥٨، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٤) المصدر السابق، رقم ٥٥٣٨، ص ٢٠٧، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج١، ط٣، رقم ١٢٨٦، ص ٢٧٦. والحديث أخرجه الطبراني: المعجم الكبير، ج ٥، أرقام ٥٠٨٥ - ٥٠٨٨، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

من علم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع»(٥).

ورواه الترمذي عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع**»(٦).

جـ- وأخرج أحمد عن أبي هريرة يقول: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الأربع: من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع**»(٧).

د- وأخرج أحمد والنسائي، عن أنس أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع، وعمل لا يرفع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع**»(٨).

وفي لفظ النسائي: أن النبي ﷺ كان يدعو بهذه الدعوات: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع.. الحديث**»(٩).

هـ- وأخرج الطبراني في المعجم الكبير عن جرير أن النبي ﷺ كان يدعو:

---

(٥) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٥٥٧، ص ١٢٩-١٣٠، ورواه النسائي، سننه، ج٨، رقم ٥٤٤٢، ص ١٨٥.

(٦) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه.. سنن الترمذي، ج ٥، كتاب الدعوات، رقم ٣٤٩٣، ص ٢٩٣.

(٧) إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٨٤٦٩، ص ٣٢٨، ورواه في المسند، ج ٩، ورقم ٩٧٩٠، ص ٣٢٣ وإسناده صحيح، ورواه أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب الاستعاذة، رقم ١٥٤٨، ص٥٧٢، ورواه النسائي، في السنن، ج ٨، رقم ٥٤٦٧، ص ١٩١، وأخرجه ابن ماجه، وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ٢٠٤، ص ٩٩، وصحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣١٠٩، ص ٢٥٥، وانظر: صحيح الجامع، ج١، ط ٣، رقم ١٢٩٨، ص ٢٧٨.

(٨) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٢٩٣٧، ص٦٠، ورقم ١٣٦٠٨، ص٢٤٤، ورقم ١٣٩٥٦، ص ٣٣١ – مثل رواية أبي هريرة.

(٩) النسائي: المجتبى من السنن، ج ٨، رقم ٥٤٧٠، ص ١٩٢، ورواه في كتاب العلم، رقم ١٦٥، ص ١٤٨، وصححه الألباني، هناك، هامش رقم ٨٢، ص ١٤٨ في: من كنوز السنة، رسائل أربع، وصححه في: صحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ١٢٩٨، ص ٢٧٨.

«اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع»(١٠).

و- أخرج ابن سعد عن محمود بن لبيب أن النبي ﷺ قال - لما توفي ابنه إبراهيم: «**إنما أنا بشر، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون**»(١١).

ثانيا: مدخل لأهمية خشوع القلب:

أ- تبين لنا أحاديث التعوذ من قلب لا يخشع: أن النبي ﷺ كان يطلب من الله أن يعيذه، أي: أن يحميه، ويحصنه، من قلب لا يخشع، ومفهوم هذا التعوذ هو طلب أن يكون خاشعا لله، فالخشوع قيمة مرغوبة، محمودة مطلوبة.

ويبين زيد بن أرقم ﵁، أن النبي ﷺ كان يعلم الصحابة هذا الدعاء، وكان يأمرهم به، وأن الصحابة كانوا يعلمونه للتابعين، «لا أعلمكم إلا ما كان رسول الله ﷺ يعلمنا» «كان يعلمناهن، ونحن نعلمكموهن»، مما يدل على أن المسلمين في حاجة لتعلم هذا التعوذ، والعمل به، والاتصاف بخشوع القلب.

ويقول السندي: «وفي استعاذته ﷺ من هذه الأمور: إظهار للعبودية، وإعظام للرب- تبارك وتعالى- وأن العبد ينبغي له ملازمة الخوف ودوام الافتقار إلى جنابه- تعالى- وفيه حث للأمة على ذلك، وتعليم لهم، وإلا فهو ﷺ معصوم من هذه الأمور(...) ونفس لا تشبع، أي: حريصة على الدنيا، لا تشبع منها، وأما الحرص على العلم والخير: فمحمود مطلوب..»(١٢).

---

(١٠) قال في المجمع: (١٠/ ١٤٣): ورجاله رجال الصحيح، انظر: الطبراني، المعجم الكبير، ج ٢، رقم ٢٢٧٠، ص ٣٠٥.

(١١) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج١، ط٣، رقم ٣٤٠، ص ٤٦٢، وهو في الصحيحة برقم ١٧٣٢.

(١٢) حاشية السندي على سنن النسائي، ج ٨، ص ١٨٥ وقال المازري: «ومعنى قوله: ونفس لا تشبع: استعاذة من الطمع والحرص على الدنيا، وتعلق النفس بالآمال منها»، إكمال المعلم، ج ٨، ص ٢١٦.

إذن يعلمنا النبي ﷺ بعمله، وبقوله، وبالأمر المباشر بالتعليم، أن ندعو بهذا الدعاء، وأن نعمل بمقتضاه، أي: أن نكتسب خشوع القلب لله تعالى وما نزل من الحق.

ب- ويبين الحديث الثاني أن النبي ﷺ كان خاشع القلب، حتى في ساعة الحزن على موت ولده إبراهيم، فيقول في هذه الحال: «ويخشع القلب» فهو أيضا يعلم الأمة أن تتصف بخشوع القلب لله، وللحق، في كل ساعاتها، كما علمها أن تستعيذ بالله، وتلجأ إليه ليحميها من قلب لا يخشع، ونفس لا تشبع... إلخ.

وهذا كله يبين لنا أهمية هذه القيمة.

جـ- فالخشوع قيمة مهمة، كما أنه علم، وعمل، وهو علم عزيز، يرفع من الأرض، لكنه ينزل لمن يستحقه، ويطلبه، **ولنتأمل:**

أخرج الإمام أحمد عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي (ثقة) قال: حدثنا جبير بن نفير، عن عوف بن مالك أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، ذات يوم، فنظر في السماء، ثم قال: «**هذا أوان العلم أن يرفع**» فقال له رجل من الأنصار، يقال له: زيد بن لبيد: أيرفع العلم يا رسول الله، وفينا كتاب الله، وقد علمناه أبناءنا ونساءنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن كنت لأظنك من أفقه أهل المدينة**»، ثم ذكر ضلالة أهل الكتابين، وعندهما من كتاب الله- عز وجل- فلقي جبير بن نفير شداد بن أوس بالمصلَّى، فحدثه هذا الحديث عن عوف بن مالك، فقال: صدق عوف، ثم قال: وهل تدري ما رفع العلم؛ قال: قلت: لا أدري، قال: ذهاب أوعيته، قال: وهل تدري أي العلم أدل أن يرفع؟ قال: قلت: لا أدري: قال: الخشوع؛ حتى لا تكاد ترى خاشعا[١٣].

(١٣) إسناده صحيح، المسند، ج ١٧، رقم ٢٣٨٧٢، ص ١٩٧.

وأخرجه الطبراني من طريقين عن الليث بن سعد عن إبراهيم بن أبي عبلة عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، عن جبير بن نفير، عن عوف بن مالك الأشجعي، أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يوما فقال: «**هذا أوان رفع العلم**» فقال له رجل من الأنصار، يقال له: زياد بن لبيد: يا رسول الله، يرفع العلم وقد أثبت ووعته القلوب؟!.. وساق الحديث وفي آخره: فلقيت شداد بن أوس فحدثته بحديث عوف، فقال: صدق عوف، ألا أخبرك بأول ذلك يرفع؟ قال: الخشوع، لا ترى خاشعا(١٤).

وأخرجه الترمذي عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء، وساق الحديث، قال جبير: «فلقيت عبادة بن الصامت، فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس؛ الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد الجامع فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا»(١٥).

وأخرجه الخطيب البغدادي من طريق الطبراني، مثله (١٦).

إن هذا الحديث يبين أهمية علم الخشوع، والعمل به، وأن العلم وحده لا يغني، بل لابد من التحقق به عملًا، وحالًا.

كل ذلك يجعلنا نركز على قيمة خشوع القلب.

---

(١٤) إسناده صحيح، المعجم الكبير، ج ١٨، رقم ٧٥، ص ٤٣، وانظر: تخريج محققه هناك، والحديث رواه البزار في مسنده (٢٣٢) وابن حبان في صحيحه (٤٥٧٢/ ١٠) بإسناد صحيح، كما قال محققه الترمذي (ج ٤، رقم ٢٦٦٢) ص ٢٩٧.

(١٥) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، سننه، ج ٤، رقم ٢٦٦٢، ص ٢٩٧، قلت: هو حديث صحيح بطرقه التي ذكرناها.

وقال الألباني في رواية الترمذي عن أبي الدرداء: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٦٩٩٠، ص ١١٧٣.

(١٦) الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادي: كتاب اقتضاء العلم العمل، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، رقم ٨٩، ص ١٨٩، قال الألباني: «حديث صحيح، وأخرجه أحمد والحاكم وصححه هو والذهبي، وإسناده صحيح على شرط مسلم»، هامش رقم ٨٩، ص ١٨٩.

وفي الفقرات الآتية نبين محل الخشوع، ومفهومه، وكيف نربيه؟ وبعض متعلقاته، وذلك بتوفيق الله، ومعونته.

ثالثا: محل الخشوع: القلب:

الخشوع عمل من أعمال القلب، وقيمة من قيمه، كما تدل الأحاديث السابقة، وأخرج الحاكم عن علي ﷺ، قال: «الخشوع في القلب، وأن تلين كَنَفَكَ (جانبك) للمرء المسلم، وألا تلتفت في صلاتك»[١٧].

وقال الحسن: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك البصر، وخفضوا به الجناح.. وقال إبراهيم النخعي: الخشوع في القلب، وكذلك يروى عن قتادة[١٨].

ولهذا قال الله- تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، فجعل الخشوع عملا للقلب، قال ابن القيم: «وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره،(...) وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن(...) وكان بعض الصحابة ﷺ وهو حذيفة، يقول: إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعا، والقلب ليس بخاشع، ورأى عمر بن الخطاب ﷺ رجلا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب (....) وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه، وقال حذيفة ﷺ: أول ما تفقدون من دينكم: الخشوع»[١٩].

وأخرج أحمد عن أبي الدرداء قال: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قيل

---

(١٧) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك، ج٢، ص٣٩٣، وأخرج مثله الطبري، جامع البيان، ج١٠، ج١٨، دار الفكر، ص ٥.

(١٨) الطبري: جامع البيان، مجلد ١٠، ج ١٨، ص ٥. ابن كثير: تفسير، ج ٣، ص ٢٣٨.

(١٩) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٩١.

له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى الجسد خاشعا، والقلب ليس بخاشع»[٢٠].

فالخشوع- إذن- عمل من أعمال القلوب، تظهر آثاره على الجوارح، وثمراته في الأخلاق والسلوك والتصرفات.

رابعا: مفهوم الخشوع ومضمونه:

أ- في لسان العرب: «خشع...: رَمَى ببصره نحو الأرض، وغضه، وخفض صوته، وخشع بصره: انكسر... واختشع: إذا طأطأ صدره، وتواضع،(...) وكل ساكن خاضع: خاشع(...) والتخشع: نحو التضرع، والخشوع: الخضوع.. والتخشع لله: الإخبات والتذلل»[٢١].

وفي تفسير الطبري: «قال ابن زيد: الخشوع: الخوف والخشية لله، وقرأ قول الله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥]. قال: قد أذلهم الخوف الذي نزل بهم، وخشعوا له.

وأصل الخشوع: التواضع والتذلل والاستكانة»[٢٢].

ب- ويقول ابن القيم: «والخشوع- في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون، قال- تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي: سكنت، وذلت، وخضعت، (...) والخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه.

وقيل: الخشوع: الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع، فمن علاماته: أن العبد إذا خُولِفَ ورُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

---

(٢٠) الإمام أحمد: كتاب الزهد، ص ١٣٥، وروى مثله ابن المبارك: كتاب الزهد، رقم ١٤٣، ص٤٦- ٤٧.

(٢١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ١١٦٥.

(٢٢) الطبري: جامع البيان، ج١، ص ٣٤٠.

وقيل: الخشوع: خمود نيران الشهوة (...) وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع: تذلل القلوب لعلام الغيوب»(٢٣).

والخشوع: معنى يلتئم من تعظيم الله في القلب، ومحبته، والذل له، والانكسار بين يديه، والتذلل، والانقياد لأمره، والامتثال له؛ باطنا وظاهرا، مع الافتقار إلى هداية الله، ومعونته، والاستسلام لحكم الله الشرعي القدري، والانقياد - بالمسكنة - لأمر الله، وقضائه، وانكسار القلب والجوارح لنظر الله إليها، وإطلاعه على تفاصيل ما في القلوب والجوارح، والخوف من أن يطلع على غش ونفاق، فيخشع القلب(٢٤).

جـ- وفي تفسير ابن كثير لقول الله- تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]: «قال أبو سنان: الخشوع: هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدا، وعن مجاهد أيضا: خاشعين؛ أي: متواضعين، وقال الحسن وقتادة والضحاك: خاشعين، أي: متذللين لله- عز وجل، وكل هذه الأقوال متقاربة»(٢٥).

أقول: الخوف يحدث سكونا وتواضعا في القلب، فيتذلل ويستكين لله- عز وجل.

وقال في تفسير آية: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]: أي: تلين عند الذكر، والموعظة، وسماع القرآن؛ فتفهمه، وتنقاد له، وتسمع له، وتطيعه(٢٦).

د- وقال الراغب: «الخشوع: الضراعة».

---

(٢٣) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٩٠ - ٣٩١.
(٢٤) المصدر السابق، ص ٣٩٢.
(٢٥) ابن كثير: تفسير، ج ٣، ص ١٩٣.
(٢٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٠.

وقال الشوكاني: «والخشوع: لين القلب، ورقته»(٢٧).

ويقول الشوكاني: «والخاشع: هو المتواضع، والخشوع: التواضع، قال في «الكشاف»: والخشوع: الإخبات والتطامن، ومنه: الخشعة: للرملة المتطامنة، وأما الخضوع: فاللين والانقياد، .. انتهى، وقال الزجاج: الخاشع: الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه، كخشوع الدار بعد الإقواء (أي: التي خلت من أهلها وهجروها).. وخشعت الأصوات: سكنت، وخشع ببصره: إذا غضه، والخشعة: قطعة من الأرض رخوة، وقال سفيان الثوري: سألت الأعمش عن الخشوع؛ فقال: يا ثوري، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع؟ ليس الخشوع، بأكل الخشن، ولبس الخشن، وتطأطؤ الرأس، لكن الخشوع: أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء؛ وتخشع لله في كل فرض افترض عليك.. انتهى.

وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته: أنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع»(٢٨).

هـ- ومن خلال تحليل الحكيم الترمذي للخشوع نخلص إلى أنه يعني: خمود الشهوات، وسكون النفس، وإشراق نور العظمة الإلهية على القلب، فخمدت الجوارح لخوف القلب، واطمأن القلب إلى الله، وللسكينة التي نزلت عليه من ربه، وهو مثل قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤] والمخبت: المطمئن، فالقلب المخبت: خشع وتطامن، أي: خضع وتواضع لله- تعالى(٢٩).

فالقلب الخاشع، هو القلب المخبت، ويفسر الراغب الإخبات بأنه: اللين

---

(٢٧) الشوكاني: فتح القدير، ج ٥، ص ٢٢٩.
(٢٨) الشوكاني: فتح القدير، ج ١، ص ١٨٢.
(٢٩) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٠٠.

والتواضع، وقال: «وقوله- تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج: ٥٤] أي: تلين وتخشع..»(٣٠).

وقال ابن كثير: «أي: تخضع وتذل له قلوبهم»(٣١).

ونخرج من قول الله- تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]: أن المخبت هو الذي أخلص دينه لله، واستسلم لحكمه وطاعته، وتواضع له، واطمأن، واستسلم لقضائه، واستشعر عظمته، فإذا ذكر الله، وجل قلبه، أي: خاف منه خوف تعظيم وإجلال، وصبر على المعصية، وتحمل مكروهها بقلب ثابت، وأدى حق الله فيما أوجبه عليه، فأقام الصلاة، وأنفق من طيب ما رزقه الله، على أهله وأقاربه، والفقراء والمحاويج، وأحسن إلى الخلق، وحافظ على حدود الله.

وقال ابن القيم: «والخبت؛ في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض، وبه فسر ابن عباس- رضي الله عنهما- لفظ (المخبتين) وقال: هم المتواضعون(...) وقال الأخفش: الخاشعون، (...) وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم (...) وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع والسكون إلى الله- عز وجل، ولذلك عدي بإلى؛ تضمينا لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله»(٣٢).

إذن، هناك اشتراك وتقابل بين مفهوم الخشوع، ومفهوم الإخبات؛ فالقلب الخاشع: هو الخائف من الله، الخاضع له، المتذلل له، المنجمع عليه، المنكسر بين يديه، الساكن، المطمئن لحكمه، المنقاد لأمره، المتضرع له، اللين

---

(٣٠) الراغب: المفردات، ص ١٤١.
(٣١) ابن كثير: تفسير، ج ٣، ص ٢٣٠.
(٣٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣.

لذكره، الخائف من مقام ربه، الذي يوقن بالرجعى إليه، الذي لا يرى لنفسه، ولا في نفسه شيئا، من نفسه، بل يرى الفضل كله لله عليه، فيذل له، ويسارع في فعل الخير، لوجه الله وحده، مؤديا حق الله، ومحسنا إلى خلقه.

هذا هو مضمون قيمة خشوع القلب، ولهذه القيمة متعلقات أذكرها في الفقرة الآتية.

خامسا: بعض متعلقات خشوع القلب:

إذا خشع القلب لله - بالمضمون السابق - فإن آثار هذا الخشوع تتجلى في الجوارح، وفي الأخلاق، والأفعال، وطريقة المشي والكلام... إلخ.

وقد ذكرنا المضمون القلبي والسلوكي الاجتماعي للخشوع، والإخبات في الفقرة السابقة، وكان هذا شائعا في أصحاب رسول الله ﷺ وفي التابعين كان الربيع بن خثيم نموذجا عمليا لهذا المضمون، وهو الذي قال له عبد الله بن مسعود: يا أبا يزيد، لو أن رسول الله ﷺ رآك لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين، وكان يقول إذا رآه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، وكان شديد التلطف في العبادة، وما سمع الناس منه على مدى عشرين سنة كلمة تعاب، وما تكلم بكلام إلا كلاما يصعد، وكان يقول: قولوا خيرا، وافعلوا خيرا تجزوا خيرا، ويقول: كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل، وكان يكنس الحش (دورة المياه) بنفسه، فقيل له: إنك تُكْفَى هذا، قال: إني أحب أن آخذ بنصيبي من المهنة... إلخ(٣٣).

ونشير هنا إلى بعض متعلقات آثار الخشوع لله في القلب.

أ- **الخشوع لذكر الله، وما نزل من الحق**، وللموعظة، فتلين القلوب لذلك، وتتفهمه، وتنقاد له، وتطيعه، وتتبع أحسنه.

---

(٣٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤، دار الفكر، ص ٤٠٩ - ٤١٤، أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٠٨ - ١١١.

ب- **الإخبات لآيات القرآن، وحديث الرسول ﷺ**، فيعلم أن القرآن حق من عند الله، وأن صحيح السنة وحي من الله، فيصدق به، وينقاد له، ويخضع، ويذل له، ويفرح به، ويطمئن، ويسكن، فيهتدي في الدنيا والآخرة؛ قال الله- تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الحج: ٥٤].

جـ- الخشوع في الصلاة:

علق الله- تعالى- فلاح المؤمنين بجملة صفات، أولها: ﴿**ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ**﴾ [المؤمنون:٢] أي: خائفون ساكنون..[٣٤].

«والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له، وقرة عين»[٣٥] فيقبل على الله، بقلبه ووجهه، ويفرغ قلبه لها، ويفنى عن شهود الأغيار، ويتمسكن لله، يا رب، يا رب، ويتدبر في المعاني، ويسجد قلبه لله، ويرق، فتدمع عيناه، هذه الصلاة الخاشعة؛ هي أيضا وسيلة لتربية الخشوع في القلب[٣٦].

ويقول عطاء: «إنما الصلاة تخشع وخشوع لله، وقال: سمعت أبا هريرة يقول: إذا صلى أحدكم فلا يلتفت، إنه يناجي ربه، فإنه أمامه، فإنه يناجيه»[٣٧].

ويقول: الخشوع خشوع القلب، وألا يلتفت يمينا ولا شمالا[٣٨].

والقيام لله خاشعًا في الصلاة، يعني: «متذللاً إذا قام بين يديه يناجيه»[٣٩].

---

(٣٤) ابن كثير: تفسير، ج ٣، ص ٢٣٨.
(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٣٨.
(٣٦) انظر في ذلك: ابن أبي الدنيا: كتاب الرقة، ص ١٢٩ - ١٤٤.
(٣٧) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ٢، رقم ٣٢٦٧، ٣٢٧٠، ص ٢٥٦، ٢٥٧. ورواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة، رقم ١٤٢، ص ٨٦، ٨٧ وإسناده حسن.
(٣٨) إسناده حسن، محمد بن نصر المروزي، تعظيم قدر الصلاة، رقم ١٣٩، ص ٨٥-٨٦.
(٣٩) المصدر السابق، ص ١٨٩.

ويقول المروزي في قوله- تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]: «وهم المنكسرة قلوبهم، إجلالا لله، ورهبة منه»(٤٠).

والصلاة بلا خشوع لا يعتد بها في الثواب، فلا يعتد إلا بما عقل المصلي منها، وخشع فيه لربه، وفي مسند أحمد، مرفوعا: «إن العبد ليصلي الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها، حتى بلغ عشرها»(٤١).

وقد نبه النبي ﷺ على أهمية الخشوع في الصلاة، أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**هل ترون قبلتي ها هنا؟ فو الله ما يخفى عليّ خشوعكم، ولا ركوعكم..**» الحديث(٤٢).

وأخرجه في باب (الخشوع في الصلاة) وأخرج عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**أقيموا الركوع والسجود..**»(٤٣).

فالنبي ﷺ «أراد أن ينبه على أن الخشوع يدرك بسكون الجوارح؛ إذ الظاهر عنوان الباطن، وروى البيهقي بإسناد صحيح عن مجاهد قال: كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود (...) وكان يقال: ذاك الخشوع في الصلاة»(٤٤).

والخشوع في الصلاة: تضرع لله، وتمسكن، وتذلل، وتواضع، وتدبر، وإقبال بالقلب والوجه على الله، وقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه أن النبي ﷺ كان إذا ركع قال: «**اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي**»(٤٥).

---

(٤٠) المصدر السابق، ص ١٠٥.
(٤١) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٩٤ .
(٤٢) فتح الباري، ج ١، رقم ٤١٨، ص ٥١٤.
(٤٣) فتح الباري، ج ٢، رقم ٧٤١، ٧٤٢، ص ٢٢٥.
(٤٤) فتح الباري، ج ٢، ص ٢٢٦.
(٤٥) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ٧٧١، ص ١٣٤، سنن الترمذي، ج ٥، رقم ٣٤٣٢، ص ٢٦٦، ٢٦٧، أبو داود، ج ١، رقم ٧٦٠، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

وفي حديث عمرو بن عبسة: «فإن هو قام فصلى فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»(٤٦).

وعن عقبة بن عامر، رضي الله عنه، قال: قال: رسول الله ﷺ: «**ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين يقبل بقلبه ووجهه عليهما إلا وجبت له الجنة**»(٤٧).

فالصلاة الخاشعة تنقية للكيان الإنساني، وتجديد، وإحياء للذات الإنسانية.

هذه – بإيجاز – بعض متعلقات الخشوع القلبي لله، وهي قيمة تتعلق بكل الكيان الإنساني باطنا وظاهرا، تتجلى آثارها في المشاعر والأحاسيس، والأخلاق، والتصرفات.. وأنتقل الآن إلى بيان كيف نربي الخشوع في القلب.

سادسا: تربية الخشوع في القلب:

أ- قيمة الخشوع، كغيرها من القيم، تعين هدفا للتربية القلبية، واكتساب هذا الهدف، وهذه القيمة، يتطلب جملة العمليات التربوية التي تكسب الإنسان التصور الصحيح الواضح المقنع لقيمة خشوع القلب، واكتساب هذا التصور بدوره يستلزم الدرس المتأني لمفهوم الخشوع ومضمونه، ومبررات اكتسابه وآثاره، وصوره السلوكية.. بحيث يحصل الإنسان مضمون ذلك كله، بأسلوب مقنع، مؤثر، ينمي التصور المطلوب، بوضوح؛ فبدون هذا التصور، الواضح المقنع، لا يتشكل فكر الإنسان عن هذه القيمة، ولا يقتنع بضرورة الاتصاف بها، وتربية هذا التصور، من خلال الدرس، قد يتحقق

---

(٤٦) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ٨٣٢، ص ٢٠٩.

(٤٧) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه. انظر الألباني: صحيح الترغيب والترهيب، المجلد الأول، مكتبة المعارف، الرباط، ط ١، رقم ٢٢٧ باب الترغيب في ركعتين بعد الوضوء، (٢).

بتلاوة آيات القرآن في الخشوع، ودراستها، والصلاة بها، وقراءة تفسيرها، وكذلك دراسة الأحاديث الصحيحة، والتطبيقات الحية لهذه القيمة القلبية، مثل دراسة أحوال أبي بكر، وعمر، وأبي الدرداء، والربيع بن خثيم... إلخ.

ودراسة منزلة الخشوع، ومنزلة الإخبات من مدارج السالكين، ودراسة هذا الفصل، وما يماثله، حتى يتربى هذا التصور ويتعمق في العقل والوعي، فينشئ حالة رغبة، وعشق، واشتهاء لاكتساب هذه القيمة، وممارستها.

ب- وهذه الرغبة المشتاقة للاتصاف بقيمة الخشوع، والإخبات تتربى بالدرس السابق، وبالاقتناع بجدوى الخشوع، وعاقبته، والتفكر في مآلات الخشوع في الدنيا، والآخرة، وفي القلب، وفي الخلق.. فتنمية هذه الرغبة هي تنمية للمحبة للخشوع، والمحبة داعية الحركة، وإرادة الاتصاف، فيشرع الإنسان، وينزع لممارستها، والتأسي بالخاشعين المخبتين في متعلقات خشوع القلب، جميعها.

جـ- ومما يعزز إرادة الاتصاف بخشوع القلب: التضرع لله، بالدعاء، وفي الصلاة، أن يعيذ القلب من عدم الخشوع، وأن يحقق الخشوع في القلب والأخلاق.

د- لكن هناك مداخل مهمة لتربية الخشوع في القلب، أولها: اكتساب المعرفة بالله، واليقين به، والإيمان بجلاله، يقول الحكيم الترمذي: «فخشوع القلب: من المعرفة، فكلما كان أوفر حظا من العلم بالله، والمعرفة بآلائه؛ كان أخشع، فأثقال المعرفة حلت بالقلب؛ فأدَّتْ القلبَ إلى ثلاث: خشعة، وخضعة، وذلة (...) والخضعة: اللين، والخشعة: الانكسار والانحذاء، فهذه صفة القلب»[٤٨].

---

(٤٨) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج ٢، ص ٣٤٤.

ويبين الغزالي ذلك بقوله: «إن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله- عز وجل- ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعا في الصلاة وفي غير الصلاة، بل في خلوته، وفي بيت الماء عند قضاء الحاجة، فإن موجب الخشوع: معرفة اطلاع الله- تعالى- على العبد، ومعرفة جلاله، ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليست مختصة بالصلاة»(٤٩).

ويقول الحسن البصري في تأمل بصير: «إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله، صدَّقوا بها، فوصل نفعها إلى قلوبهم فخشعت لذلك قلوبهم، وأسماعهم، وأبصارهم، فكنت إذا رأيتهم رأيت قوما كأنما يرون ما يوعدون رأى المتقين»(٥٠).

إذن، تربية الخشوع في القلب إنما تتحقق بإكساب القلب، معرفة الله، بأسمائه الحسنى، وصفات جلاله، فيتأملها القلب، ويتعبد بها لله، فتحدث له حالة الخشوع نتيجة الانفعال المؤسس على اليقين بهذه الأسماء والصفات.

ونتيجة للتعبد لله بأسماء الجلال؛ مثل: العظيم، العزيز، الجليل، مالك الملك، ذو الجلال، ذو الطول، القهار، الكبير، المتعال، شديد المحال، الرقيب، المهيمن، ونتيجة استغراق العقل، بالتدبر والتفكر، ومطالعة آثار الصفات في العالم، واستغراق القلب في التعبد، ورؤية تقصير الذات نحو الله- تعالى- فإن الله يتجلى لهذا القلب، بآثار إشراقات أسمائه، وارداته، فيخشع له.

«والخشعة من التجلي»(٥١) فخشوع القلب: لعبد تَجَلَّى في قلبه جلال الله، وعظمته، فانخشع القلب، وامتلأ بالخضوع والخشية..(٥٢)، فإذا تجلى الله للقلب، بصفات جلاله؛ خاف وخشع، وأخبت لله، واتصف بصفات

---

(٤٩) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٣٠٧.

(٥٠) محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، رقم ٧٩٨، ص ٤٥٨.

(٥١) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٥٢) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ٢٢٧.

الخشوع والإخبات المذكورة سابقا.

إذن، يتحدد سبيل تربوي للتخلق بخشوع القلب هو التعبد بأسماء الله الحسنى، وبصفات جلاله، ولا يتحصل ذلك إلا بمعرفتها، وتدبر معانيها، والتعلق بها، والتعبد لله بحسب دلالة كل منها، مثل التعبد بمقتضى نظر الله تعالى للقلب، وبمقتضى صفة القهار، فكل صفة نقرؤها في القرآن، أو في الصلاة، أو تذكرها بقلوبنا، وعقولنا، نقف عندها، ونتعمقها، ونتعبد بها.

لنعرض قلوبنا لجلال الله، وعلمه، وقيوميته، وقهره، وعزته، وقيامه على نفوسنا بما كسبت.. إلخ، مع شعورنا بتقصيرنا.

فمثل هذا التعبد، والتفكر، والمقايسة يثمر حالة الخشوع في القلب، فالله- عز وجل- إذا تجلى للقلب خشع له.

هـ- تربية اليقين في اليوم الآخر:

يحدد القرآن الكريم سبيلا واضحا لتربية الخشوع، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] أي: إن إقامة الصلاة المقربة من مرضاة الله، العظيمة إقامتها إلا على الخاشعين، المتواضعين لله، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته، هؤلاء هم الذين يعلمون ويتيقنون أنهم ملاقو ربهم، وأنهم راجعون إليه بعد موتهم، فهم يوقنون بالمعاد، والمرجع إلى الله، والبعث بعد الموت، وبالثواب والعقاب، والجنة والنار، فمرجعهم إلى الله، بعد نشرهم، وإحيائهم من مماتهم، يوم القيامة، فينشئ هذا العلم اليقيني، والإيمان، خشوعا في قلوبهم؛ لأنهم موقنون بمجازاة الله لهم على كل شيء.. فيوجلون لذلك، ويخشعون، وكلما ازداد الإنسان علما حقا باليوم الآخر، وتفصيلاته، ازداد خشوعا لله، وإخباتا له.

و- مطالعة عيوب النفس: وعيوب ونقائص الأعمال: من الكبر، والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث على

العمل من الهوى النفسي، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي يرضاه الله.

ومع هذه المطالعة رؤية فضل كل ذي فضل عليك، فتعترف بذلك، وتراعي حقوقهم، عليك، فتؤديها، وتنسى فضل نفسك، يقول ابن تيمية: «العارف: لا يرى له على أحد حقا، ولا يشهد له على غيره فضلا، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب»(٥٣).

فإذا تحقق القلب بهاتين المطالعتين اكتسب خشوعا لا محالة.

ز- أن يعبد الله بذل القلب، وانكساره، وافتقاره إلى الله، وتجرده له، ورؤية الفضل منه وحده، يقول ابن القيم(٥٤): «فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لا يصح له – بعد – الإسلام، حتى يدعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول – كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكَدِّي وابن المُكَدِّي وهكذا كان أبي وجَدِّي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله، إني إلى الآن أُجَدِّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بَعْدُ إسلامًا جيدًا.

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي والخير إن يأتنا من عنده ياتي

(٥٣) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٩٣.

(٥٤) نفس المصدر، ص ٣٩٣ – ٣٩٤.

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات
وليس لي دونه مولى يدبرني ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع، كما قد جاء (آيات)
ولست أملك شيئا دونه أبدا ... ولا شريك أنا في بعض ذرات
ولا ظهير له كي يستعين به ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدا ... كما الغِنى أبدا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلبا من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملء الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعد قد ياتي».

إن دراسة هذا الفصل، وممارسة هذه الأساليب، والإقبال على الله، بالدعاء، وبالصلاة، وبالذكر الخاشع.. ودراسة أحوال الخاشعين، ومطالعة أسماء الله الحسنى، وتعميق اليقين بالله، وباليوم الآخر، كل هذه تربية للخشوع في القلب، وأساس ذلك كله، أن نرغب – حقا – من عمق قلوبنا، أن نكون لله خاشعين.

سابعا: خاتمة:

١- الخشوع قيمة من قيم القلب اتصف بها النبي ﷺ، ودعا إليها القرآن والسنة الصحيحة، وعلمها النبي ﷺ أصحابه، وعلموها للتابعين، وبشر الله أصحابها، فهي قيمة ممدوحة محمودة مطلوب اكتسابها من كل مسلم ومسلمة، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من قلب لا يخشع.

٢- الخشوع يتقابل مع معنى الإخبات، وأساسها: انكسار القلب وخضوعه لله، والانقياد لأمره، والإقبال على فعل الخير، بتواضع، وسوف يزداد هذا المعنى بيانا عند دراسة تربية القلب المتواضع –بعون الله، في فصل قريب.

٣- للخشوع متعلقات في النفس، والأخلاق- عموما- وله تعلق بذكر الله، وبالقرآن، وبالصلاة، على وجه الخصوص.

٤- إن تربية قيمة الخشوع في القلب تمثل ركنا من أركان تربية القلب، فهي جزء رئيسي من المشروع التربوي الإسلامي، أي: إن من أولويات تربية الإنسان أن يكون خاشع القلب لله، ولابد من أخذ هذا الهدف، وهذا الجانب والبعد التربوي في حسبان المربين، وواضعي خطط التربية الإسلامية، من أجل تربية مسلمين ومسلمات خاشعين لله، مخبتين له، ممارسين لكل أبعاد الخشوع والإخبات، فذلك هدف رئيسي من أهداف تربية القلب.

٥- وقد حددنا بعض الأساليب التربوية لإكساب المسلمين هذه القيمة، ويمكن ممارستها، فرديا، وزوجيا، وجماعيا، وعلى المستوى التعليمي الدعوي العام – في دروس ومحاضرات، وندوات، وحوارات، وتسجيلات، وعلى المستوى التربوي الخاص في المحاضن الهادئة الأكيدة المفعول، من خلال مدارسات ثنائية للمعطيات السابقة، وقيام ليال بآيات الخشوع، وتدبر أحاديث هذا الفصل، ومطالعة سير بعض المخبتين، وتحديد قائمة تقويم ذاتي، تشتق من مضمون قيمة خشوع القلب، لمراجعة النفس عليها، وتحديد مواطن النقص لاستكمالها.

ثامنا: أسئلة وممارسات لتعميق الفهم وتسهيل الممارسة:

١- ما دلالة استعاذة النبي ﷺ من قلب لا يخشع؟ وما دلالة أمره بتعلم هذا التعوذ؟

٢- ما أهمية علم الخشوع والعمل به؟ وضح من خلال الحديث النبوي الصحيح.

٣- حلل مفهوم الخشوع، وبين علاقته بمفهوم الإخبات.

٤- حدد قائمة تبين فيها مضمون الخشوع.

٥- ما المتعلقات التي تناولناها لخشوع القلب؟ هل أدخلتها في القائمة السابقة؟

٦- بين الأساليب التربوية لتربية الخشوع في القلب؟

٧- قم بإعداد محاضرة عن خشوع القلب، مبينا: أهداف المحاضرة، والمحتوى المعرفي لها، والآيات، والأحاديث التي توضح كل عناصر الموضوع.

٨- اخترت لإدارة دورة تربوية لتنمية الخشوع في القلب: ما أهداف هذه الدورة؟ ما الأنشطة المعرفية، والتعبدية والتقويمية التي يجب القيام بها لإنجاز هذه الأهداف؟

٩- بين علاقة خشوع القلب، بالإيمان، بالله، وباليوم الآخر.

١٠- اختر شخصية إسلامية وحدد أبعاد الخشوع في سلوكها، (أبو بكر الصديق – عمر- الحسن البصري – الربيع بن خثيم- ابن تيمية..).

١١- هل تتوفر فيك كل مقومات الخشوع، مضمونا، وأبعادا، وثمرات؟ راجع نفسك على أساس القائمة السابقة.

١٢- هل التربية القائمة في أسرتك، وفي الجامعة، أو في الحركة الإسلامية التي تعرفها، ربت فيك، أو فيمن تعرفه، أو تربي – قيمة خشوع القلب؟ ما رأيك؟ وكيف العمل؟ هل بنيت حكمك على براهين محددة؟ ما هي؟

١٣- ما أهمية تربية خشوع القلب، في بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة؟

١٤- ورد في مقولة جاءت في آخر حديث عن النعمان بن بشير، «**وإن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له**»(٥٥). وفي رواية أحمد في المسند: «**فإذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له**»(٥٦). وفي رواية النسائي: «**إن الله- عز وجل- إذا بدا**

---

(٥٥) قال ابن حجر: أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه، وصححه ابن خزيمة والحاكم، ونقل في الفتح أن هذا الحديث أثبته غير واحد من أهل العلم، وهو ثابت من حيث المعنى أيضا. انظر: فتح الباري، ج ٢، ص ٥٣٧، وانظر ما بعده.

(٥٦) المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٨١، قال محققه الزين: إسناده صحيح، ص ١٥١.

لشيء من خلقه خشع له..»(٥٧). وفي رواية له أيضا: **«وإن الله- عز وجل- إذا تجلى لشيء من خلقه يخشع له..»**(٥٨).

بين دلالة هذه المقولة في تربية الخشوع في القلب.

١٥- سئل الأوزاعي (الثقة، الخير، الفاضل، الفقيه، الحجة، الخاشع) عن الخشوع في الصلاة؛ قال: غض البصر وخفض الجناح، ولين القلب، وهو: الحزن، الخوف(٥٩).

بين في ضوء هذه المقولة – أثر الصلاة الخاشعة في تربية الخشوع في قلب المؤمن؟

---

(٥٧) النسائي: المجتبى من السنن، ج ٣، كتاب الكسوف، رقم ١٤٨٥، ص ٩٨ – ٩٩.

(٥٨) النسائي: المصدر السابق، رقم ١٤٨٧، ص ١٠١.

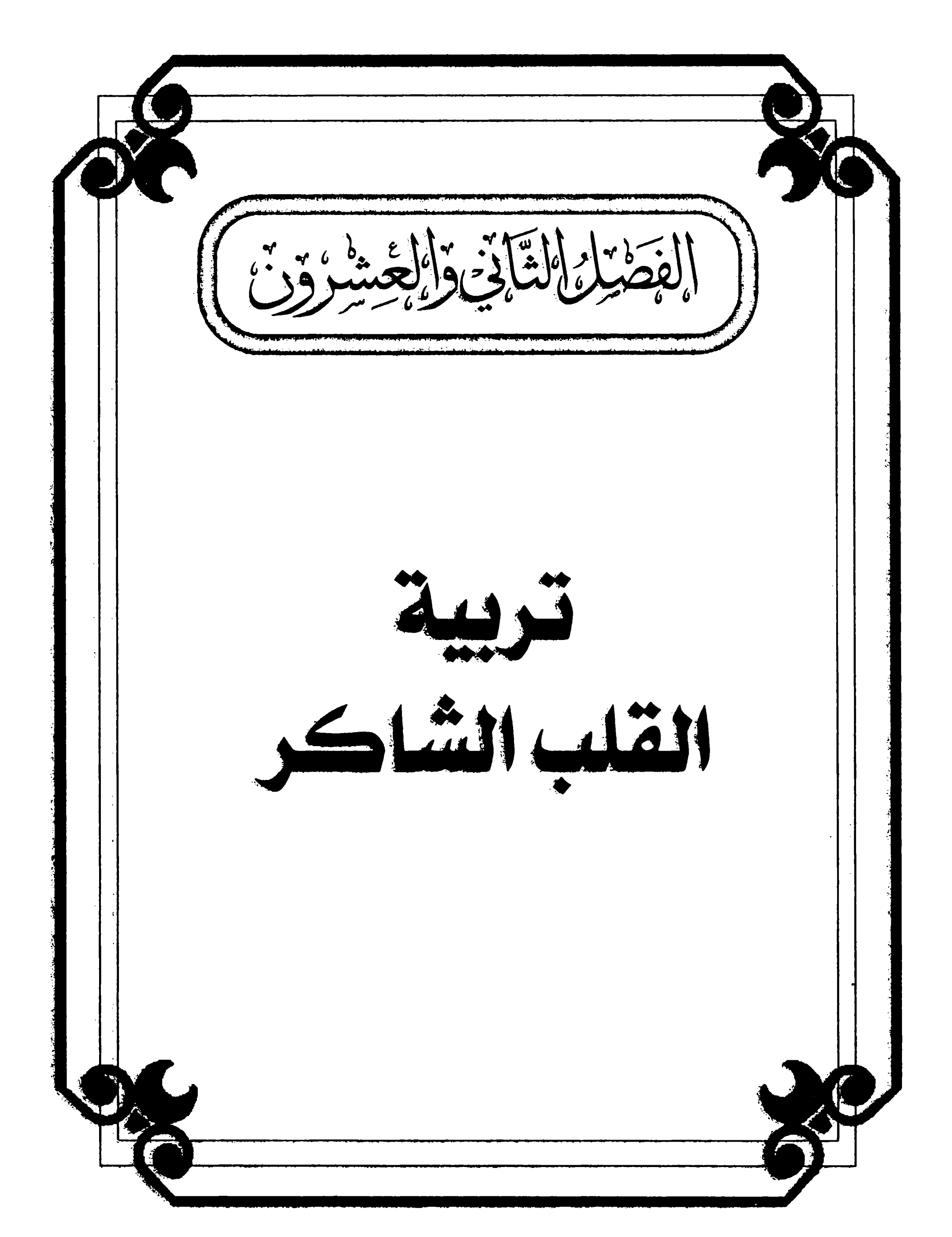
والحديث رواه أيضا الحكيم الترمذي، الفروق ومنع الترادف، ص ٢٢٨.

وقد استنكر الغزالي، قديما، والألباني – حديثا – هذه الزيادة، في حديث الكسوف، عن النعمان ابن بشير، انظر: حاشية السيوطي، والسندي على سنن النسائي، ج ٣، ص ٩٩، وقال الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه: «منكر بزيادة: فإذا تجلى..» رقم ٢٣٠، ص ٩٣ – ٩٤.

قلت: قال ابن القيم – وهو أعلم: «وإسناد هذه الزيادة: لا مطعن فيه، ورواته كلهم ثقات حفاظ، ولكن لعل هذه اللفظة مدرجة في الحديث من كلام بعض الرواة، ولهذا لا توجد في سائر أحاديث الكسوف، فقد رواها عن النبي تسعة عشر صحابيا(...) فلم يذكر أحد منهم في حديث هذه اللفظة، فمن هنا يخاف أن تكون أدرجت في الحديث إدراجا، وليست في لفظ رسول الله ﷺ» ونقل السيوطي، والسندي عن التاج السبكي، أن إنكار هذه الزيادة غير جيد، أو ليس بجيد.

انظر: حاشية السيوطي على سنن النسائي، ج ٣، ص ٩٩ – ١٠٠، وحاشية السندي على النسائي، ج ٣، ص ٩٩، قلت: ومعنى الزيادة: صحيح قطعا، وهي مروية بإسناد صحيح.

(٥٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٧، ١١٦، وانظر من ص ١٠٧ – ١١٩.



الفصل الثاني والعشرون

تربية القلب الشاكر

تربية القلب الشاكر

أولا: نص الحديث النبوي:

أ- أخرج الإمام أحمد عن ثوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نـزل؛ قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: أنا أعلم ذلك لكم، قال: فأوْضَعَ على بعير، فأدركه، وإنا في إثره، فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ قال: «**ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة تعينه على أمر الآخرة**»(١).

وفي رواية عنه، قال: لما أنزلت ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: قد نزل في الذهب والفضة ما نزل، فلو أنا علمنا أي المال خير اتخذناه، فقال: «**أفضله لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه**»(٢).

وروى الترمذي مثله، وفيه فقال: «**أفضله: لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه**»(٣).

ورواه ابن ماجه مثل رواية أحمد، وفيه: أي المال نتخذ؟ فقال: «**ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة**»(٤).

وأخرجه أبو نعيم في الحلية، بروايتين في إحداهما: «**ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا، وقلبا شاكرا، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على إيمانه**»(٥).

---

(١) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٣٣٦، ص ٣٠٦.
(٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٢٩٢، ص ٢٩٣.
(٣) وقال: هذا حديث حسن، سنن الترمذي، ج ٥، كتاب التفسير، رقم ٣١٠٥، ص ٦٥.
(٤) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ١٥١٧، ص ١٢٢، وصححه في: صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٥٣٥٥، ص ٩٤٥، وفي الصحيحة برقم ٢١٧٦.
(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١، ص١٨٢ – ١٨٣، ورواه الطبري في: جامع البيان، مجلد ٦، ج ١٠، ص١٤١.

ب- أخرج البيهقي في الشعب عن أبي أمامة وابن ماجه عن ثوبان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**قلب شاكر، ولسان ذاكر، وزوجة صالحة تعينك على أمر دنياك ودينك، خير ما اكتنز الناس**»[٦].

ثانيا: الشكر قيمة عليا من قيم توحيد العبادة، وقيم تربية القلب:

أ- فقد أمر الله به، ونهى عن ضده؛ فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢]، وقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢].

ب- وجعل الله الشكر غاية خلقه وأمره؛ فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى على لسان إبراهيم الخليل: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

جـ- ووعد الله الشاكرين أحسن الجزاء، فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

د- ومن أسماء الله الحسنى: شاكر وشكور، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم معنى يليق بهم من معاني اسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين، وفضلا[٧].

وأخبر أنه- سبحانه- يرضى الشكر لعباده، فقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

هـ- وأخبر الله تعالى أن إبليس جعل من أهدافه الاستراتيجية منع الناس من الشكر لله، فقال - حاكيا عن خطة إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وإبليس مُصِرٌّ على منع الناس من الشكر، وإدخالهم في الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

---

(٦) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط٣، رقم ٤٤٠٩، ص ٨١٢.

(٧) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٢٥٣.

و- ولهذا فإن من أهداف التربية الإسلامية هو مواجهة التحدي الاستراتيجي الإبليسي، وذلك بتربية القلب الشاكر لله، عملا بأمره، وتخلقا بصفة يرضاها، واقتداء بالنبي ﷺ؛ فقد أخرج البخاري عن زياد (ابن علاقة) قال: سمعت المغيرة ﷺ يقول: «إن كان النبي ﷺ ليقوم - أو ليصلي - حتى تَرِم قدماه، أو ساقاه، فيقال له؛ فيقول: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»[٨]، فهو يشكر الله بالصلاة له، على نعمته عليه، وفي رواية للبخاري عنه يقول: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»[٩].

وأخرجه مسلم عنه أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»[١٠].

وأخرج البخاري عن عائشة- رضي الله عنها- أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر (تتشقق) قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا..**» الحديث[١١]. فهو يجب أن يكون متحققا بالشكر لله، قلبا،

---

(٨) فتح الباري، ج ٣، رقم ١١٣٠، ص ١٤، وانظر: ج ١١، رقم ٦٤٧١، ص ٣٠٣.

(٩) فتح الباري، ج ٨، رقم ٤٨٣٩، ص ٥٨٤، وأخرجه مسلم، انظر: إكمال للمعلم، ج ٨، رقم ٢٨١٩، ص ٣٥٥.

(١٠) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٨١٩، ص ٣٥٥ (رقم ٧٩ من الباب) والحديث عن المغيرة أخرجه أحمد في المسند، ج ١٤، رقم ١٨١١٤، ص ١٠١، ورقم ١٨١٥٥، ص ١١٢، ورقم ١٨١٥٩، ص ١١٣ بأسانيد صحاح، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٢٠، أرقام ١٠٠٩ - ١٠١١ بأسانيد صحاح، ص ٤١٩ - ٤٢٠، ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، انظر: سنن الترمذي، ج ١، رقم ٤١٢، ص ٤٢١، وأخرجه ابن ماجه، صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١١٧٤، ص ٤٢٥ - ٤٢٦، ورواه النسائي: السنن، كتاب قيام الليل، ج ٣، رقم ١٦٤٤، ص ١٥٣. ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة بإسناد صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١١٧٥، ص ٤٢٦.

(١١) فتح الباري، ج ٨، رقم ٤٨٣٧، ص ٥٨٤، وأخرجه مسلم بلفظ قريب، إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٨٢٠، ص ٣٥٥.

ولسانا وعملا، وحالا.

وقد كان ﷺ يقول في دعائه: «**رب اجعلني لك شكارا، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطيعا، إليك مخبتا، إليك أواها منيبا..**»(١٢).

وفي رواية الترمذي: «**رب اجعلني لك شكارا، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطواعا، لك مخبتا، إليك أواها منيبا..**»(١٣).

ورواه البخاري في الأدب المفرد بلفظ: «**رب اجعلني شكارا لك، ذكارا لك، راهبا لك، مطواعا لك، مخبتا لك، أواها منيبا..**»(١٤).

وكان النبي ﷺ يدعو أصحابه أن يسألوا الله العون على الشكر، أخرج أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ أخذ بيده يوما ثم قال: «**يا معاذ، إني لأحبك**»، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا أحبك، قال: «**أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»، قال: وأوصى بذلك معاذ الصنابحي، وأوصى الصنابحي أبا عبد الرحمن، وأوصى أبو عبد الرحمن عقبة بن مسلم(١٥).

---

(١٢) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣١٠٣، ص ٢٥٣ (عن ابن عباس أن النبي كان يقول في دعائه..) وأخرج أحمد في المسند، والترمذي، وأبو داود، والحاكم، وابن أبي عاصم في السنة، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ٣٤٨٥، ص ٦٥٦، قلت: رواية ابن أبي عاصم ليس فيها نص هذا الدعاء (رقم ٣٨٤)، ص ١٨٠، ورواية أبي داود، فيها: اللهم اجعلني لك شاكرا..) سنن أبي داود، ج ١، رقم ١٥١٠، ص ٥٦٠.

(١٣) وقال: حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٥، كتاب الدعوات، رقم ٣٥٦٢، ص ٣٢٣ – ٣٢٤، وانظر: المسند، ج٢، رقم ١٩٩٧، ص ٤٧٨ – ٤٧٩، وقال شاكر: إسناده صحيح، وفيه «**لك مطواعًا، إليك مخبتًا، لك أوَّاهًا منيبًا..**».

(١٤) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٦٦٥، ص ٢٢٩، والحديث أخرجه الحاكم وصححه، وأقره الذهبي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه.

(١٥) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٠١٨، ص ٢٠٤ – ٢٠٥، وأخرجه أبو داود، السنن، ج١، رقم ١٥٢٢، ص ٥٦٣ – ٥٦٤، ورواه النسائي، سننه، ج ٣، رقم ١٣٠٣، ص ٣٧ – ٣٨ والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان، وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٧٩٦٩، ص ١٣٢٠ وقال الألباني: صحيح.

وأخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على شكرك، وذكرك، وحسن عبادتك**»(١٦).

فشكر الله صفة خلقية تعبدية مرغوب فيها، وموصى بها، فهي قيمة من قيم الإيمان، وتربية القلب المسلم، اتصف وتخلق بها محمد رسول الله ﷺ، ودعا المؤمنين أن يتصفوا بها، وأن يسألوا الله أن يعينهم عليها، وجعلها خير ما اكتنز المسلم، وأمر بالاتصاف بها، كما في حديث هذا الفصل.

ومن هنا فإن تربية تستهدف أن يكتسب المسلم هذه القيمة، معرفة وتصورا، وإيمانا وحبا، وممارسة وسلوكا.. أي: أن يعرف قيمة الشكر، ويتصور معناها، ومضمونها، وصورها التطبيقية، ويحب ذلك، ويصدق به، ويرغب في العمل به، ويمارسه فعلا، بصوره المتعددة الصحيحة.

ونقطة البدء هنا هي تحديد مضمون الشكر، وهذا هو موضوع الفقرة الآتية.

ثالثا: مفهوم الشكر ومضمونه القلبي السلوكي:

أ- في لسان العرب: «الشُّكْر: عِرْفان الإحسان ونشره، وهو الشُّكُور، أيضًا، قال ثعلب: الشكر لا يكون إلا عن يد(...) والشكر: مثل الحمد، إلا أن الحمد أعم منه، فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة، وعلى معروفه، ولا تشكره إلا على معروفه، دون صفاته، والشكر: مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية؛ فيثني على المنعم بلسانه، ويذيب نفسه في طاعته، ويعتقد أنه موليها، وهو من شَكَرَتِ الإبلُ، تَشْكُرُ: إذا أصابت مرعى فسمنت عليه(...) والشُّكْر: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف(...) والشُّكْران: خلاف الكفران والشَّكُور من الدواب: ما يكفيه العلف القليل، وقيل: الشكور من

---

(١٦) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٧٩٦٩، ص ١٠١ - ١٠٢ - وتأمل تخريج شاكر هناك.

الدواب: الذي يسمن على قلة العلف، كأنه يَشْكُر، وإن كان ذلك الإحسان قليلا، وشُكْرُه: ظهور نمائه، وظهور العلف فيه(...) وفي حديث يأجوج ومأجوج: دواب الأرض تَشْكَرُ شَكَرا؛ بالتحريك، إذا سمنت، وامتلأ ضرعها لبنا»(١٧).

فالشكر فعل من الإنسان مقابل الإحسان إليه بالنعم والأيادي، فيثني ويمدح، ويطيع، ويعترف، ويظهر عليه آثر النعمة.

ب- ويقول الراغب(١٨): الشُّكْر: تصور النعمة، وإظهارها، قيل: وهو مقلوب عن الكَشْر؛ أي: الكشف، ومضاده: الكفر؛ وهو نسيان النعمة وسترها.

ودابة شَكُور: مظهرة بِسِمَنِهَا إِسْدَاءَ صاحِبِها إليها.

وقيل: أصله: من عَيْنٍ شَكْرَى؛ أي: ممتلئة، فالشكر – على هذا – هو الامتلاء من ذكر المنعِم عليه.

والشكر: ثلاثة أضرب؛ شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح: وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه».

ويوضح الحكيم الترمذي، فيقول: «فالشكر: رؤية العبد بقلبه النعم من الله- عز وجل(..) والشكر: انكشاف غطاء القلب، فإذا انكشف الغطاء أبصر بقلبه، فرجع البصر بعلم إلى القلب، فذلك علم الحقيقة، فأظهره في صدره، فإذا أخرجه إلى لسانه: فذلك شكر اللسان، وإذا أخرجه إلى جوارحه؛ عملا بطاعته، فذلك شكر الجوارح، فأصل الشكر: الظهور(....) فإذا نطق به، فذاك شكر المنطق، يريد أن ينشر عن الله ما أنعم به عليه، حتى يكون ظاهرا عند

---

(١٧) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، دار المعارف، ص ٢٣٠٥، ٢٣٠٦.

(١٨) الراغب: المفردات، ص ٢٦٥.

خلقه محاسن أفعاله، ومحمود صنائعه، فيحببه إلى خلقه»[١٩].

جـ- ويقول ابن القيم: «وأصل الشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورا بينا، تقول: شكرت الدابة تشكر شكرا، على وزن: سمنت، تسمن، سمنا؛ إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل، وتعطي من العلف، وفي صحيح مسلم: «**حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم**..» لتسمن[٢٠].

فأصل الشكر؛ في اللغة، يدور على معان ثلاثة: الظهور، والزيادة، والامتلاء؛ يقول ابن القيم: «وكذلك حقيقته في العبودية، وهو: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه: شهودا ومحبة، وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة.

والشكر: مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة»[٢١].

د- وكل من حلل وحدد مفهوم الشكر لم يخرج عن هذا الإطار:

١- يقول القشيري: «حقيقة الشكر، عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع»[٢٢].

---

(١٩) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٦٨.

(٢٠) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٢٥٤ والحديث رواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، انظر: الأسنى، للقرطبي، ج ١، هامش رقم ٥٨٤، ص ٣٢٢.

(٢١) ابن القيم: المصدر السابق، ص ٢٥٤.

(٢٢) القشيري: الرسالة، ص ٨٨، وقد نقل ابن القيم هذا التعريف، دون أن يشير لصاحبه، مدارج السالكين، ج ٢، ص ٢٥٤.

ويعلل القرطبي لذلك، بقوله: «لأن الرجل قد يعترف بنعمة غيره على سبيل الاستهزاء، به، فلا يقال: إنه يشكره، فلهذا قيل: إن حقيقة الشكر: الاعتراف بنعمة المنعم على سبيل الخضوع»(٢٣).

٢- وقال في الفتح: «والشكر: الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي شكورا، ومن ثم قال- سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]»(٢٤).

٣- وقال أبو بكر الوراق: «شكر النعمة: مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة»(٢٥).

٤- ولنتأمل في التعريفات الآتية:

- حقيقة الشكر: الثناء على المحسن، بذكر إحسانه، وشكر العبد – على الحقيقة – إنما هو نطق اللسان، وإقرار القلب بإنعام الرب تعالى، والشكر: ينقسم إلى شكر اللسان، وهو اعترافه بالنعمة؛ بنعت الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان: وهو اتصاف بالوفاق والخدمة، وشكر بالقلب: وهو اعتكاف على بساط الشهود، بإدامة حفظ الحرمة.

وقال أبو عثمان: الشكر: معرفة العجز عن الشكر.

وقيل: الشكر: إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة (الخضوع لله).

وقال الجنيد: الشكر: ألا ترى نفسك أهلا للنعمة.

وقال رُوَيْم: استفراغ الطاقة (يعني: في طاعة الله، والثناء عليه..إلخ).

وقال الجنيد: كان السَّرِيُّ إذا أراد أن ينفعني يسألني، فقال لي يوما: يا أبا القاسم: إيش الشكر؟ فقلت: ألا يستعان بشيء من نعم الله- تعالى- على

---

(٢٣) القرطبي: الأسنى، ج ١، ص ٣٢٣.

(٢٤) ابن حجر: فتح الباري، ج ٣، ص ١٥.

(٢٥) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٢٢٣.

معاصيه، فقال: من أين لك هذا؟ فقلت: من مجالستك(٢٦).

هـ- فالشكر: هو من غِنى القلب، والثراء الروحي، والامتلاء بكنوز المعرفة بالله، وبالخير، فيؤدي ذلك إلى الاعتراف بنعم الله، وإحضارها في الوعي، وشهودها بالقلب، وتمييزها، والإقرار القلبي، والعقلي، والنفسي بأنها نعم من الله، ثم قبولها، وتلقيها بإظهار الفقر إلى الله، والفاقة إليها، من حيث هي عطاء الله، وأنه بذاته غير مستحق لها، ولم يقدم ثمن هذه النعمة، فيقبلها بهذه الأحوال القلبية، ويفرح بها، لأنها من عند الله، ثم يثني بها على المنعم بها، فيصف الله بالجود، والكرم، والبر، والإحسان، ويتحدث بهذه النعمة ويخبر بوصولها إليه من جهة الله تعالى، فيحبب الله إلى خلقه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] فيذكر النعمة، ويخبر بها، ويحب الله، بقلبه، لإنعامه بها عليه، ويستعين بها على طاعته ومرضاته، ولا يجعلها سبيلا لمعصيته، ويحسن إلى عباده من هذه النعم، وألا يشهد بقلبه سوى المنعم، فيستعظم نعمه عليه، ويحبه، ويستحلي منه كل فعله فيه، حتى الشدة التي تصيبه، فإنه يعدها نعمة؛ لما في طيها من الثواب، ومِنَّةِ الله عليه(٢٧).

ويذكر الغزالي أن الشكر يتركب من: علم القلب بأن الله هو المنعم وحده، وفرحه بهذا الإنعام، من حيث إن الله هو الذي أنعم به، والخضوع والتواضع للمنعم، والعمل بموجب العلم والفرح الحاصل من معرفة المنعم؛ فيقصد الخير، ويضمره، لكل الخلق، ويظهر الشكر بلسانه، فيحمده بالتحميدات الدالة عليه، ويستعمل نعم الله في طاعته..إلخ(٢٨).

وهكذا فالشكر قيمة قلبية، لسانية، سلوكية، تنعكس في أحوال خلقية

---

(٢٦) انظر: القشيري: الرسالة، ص ٨٨ – ٨٩ . ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٢٥٤ – ٢٥٥.
(٢٧) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٢٥٧ – ٢٦٥.
(٢٨) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٢٢٠٤ – ٢٢٠٩.

حسنة، وحث ذاتي على فعل الخير للخلق.

و- وقد جعل الغزالي حمد الله نتاجا عن تحقق القلب بالشكر، وقد بين ابن تيمية وابن القيم والقرطبي علاقة الحمد بالشكر؛ ففي مجموع فتاوى ابن تيمية سئل عن «الحمد والشكر»: ما حقيقتهما؟ هل هما معنى واحد؟ أو معنيان؟ وعلى أي شيء يكون الحمد؟ وعلى أي شيء يكون الشكر؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. الحمد: يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه، سواء كان الإحسان إلى الحامد، أو لم يكن، والشكر: لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر، فمن هذا الوجه: الحمد أَعَمُّ من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن، والإحسان، فإن الله- تعالى - يحمد على ما له من الأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة، والأولى، ولهذا قال- تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١] وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

وأما «الشكر»: فإنه لا يكون إلا على الإنعام فهو أخص من الحمد، من هذا الوجه، لكن يكون بالقلب، واليد، واللسان، كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المُحَجَّبَا

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

والحمد: إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه: الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه، (...)، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد: يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**»(٢٩).

---

(٢٩) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١١، ط دار الوفاء، ص ٧٩ والحديث رواه مسلم في الذكر، إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٣٤، ص ٢٣٠، والترمذي في الأطعمة، رقم ١٨١٦، وأحمد في مسند أنس ابن مالك، كلهم عنه.

فمذهب أهل السنة أن الشكر يكون بالاعتقاد والقول والعمل[٣٠].

ويضيف ابن القيم: «ومعنى هذا: أن الشكر: يكون بالقلب: خضوعا واستكانة، وباللسان: ثناء واعترافا، وبالجوارح: طاقة وانقيادا، ومتعلقه: النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه، وبصره، وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد، من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر، من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان»[٣١].

ويقول القرطبي: «والصحيح: أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر: ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان(..) فالله- سبحانه- يحمد على ما وجب له من صفات الجلال والكمال ونزاهة ذاته المقدسة من كل نقص، ويشكر على ما أسداه من معروف»[٣٢].

والحق أن الحمد لله يكون أيضا على إحسانه ونعمه، لكنه يكون بالقلب واللسان، دون الجوارح، والحمد: يتضمن إثبات جميع أنواع الكمال لله[٣٣].

وقد أخرج مسلم والترمذي، وابن ماجه، والنسائي عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله، تملآن، أو تملأ ما بين السموات والأرض..»**[٣٤].

وأخرج ابن ماجه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحب قال: **«الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»**، وإذا رأى ما يكره قال: **«الحمد**

---

(٣٠) ابن تيمية، المصدر السابق، ج ١١، ص ٨٠.

(٣١) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٣٢) القرطبي: الأسنى، ج ١، ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٣٣) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٢٦١.

(٣٤) انظر: شرح هذا الحديث في المصدر السابق، ص ٢٥٥ وما بعدها.

لله على كل حال»[٣٥]. وأخرج عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ**»[٣٦].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر: أحب إلى مما طلعت عليه الشمس**»[٣٧].

وأخرج مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي**»[٣٨].

وأخرج مسلم عن البراء، من حديث.. وإذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[٣٩].

فالقلب المؤمن: شكور لله، حامد لربه، لأنه يرى نعم الله عليه، وإحسانه إليه، فيحمده عليها، وهذا الحمد، والشكر نعمة جديدة، فيحمد الله على هذه النعمة، فالحمد لله، فيحمده في الصباح والمساء، وختام كل صلاة، ويكثر من الحمد في كل أحيانه، تعبيرا عن شكر قلبه لله، المنعم- سبحانه وتعالى[٤٠].

هذه هي قيمة الشكر، ولها متعلق آخر، وهو شكر الناس، سأشير إليه في

---

(٣٥) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٠٨١، ص ٢٤٥.
(٣٦) قال الألباني: حسن، المصدر السابق، ص ٢٤٦.
(٣٧) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٩٥، ص ١٩٣.
(٣٨) المصدر السابق، رقم ٢٧١٥، ص ٢١١.
(٣٩) المصدر السابق، رقم ٢٧١١، ص ٢٠٩، وروى مثله البخاري عن حذيفة، فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٣١٢، ص ١١٣ ورقم ٦٣١٤، ص ١١٥، ورقم ٦٣٢٤، ص ١٣٠، وعن أبي ذر، رقم ٦٣٢٥، ص ١٣٠
(٤٠) يرجع إلى كتب الدعوات، والأذكار، من صحيح البخاري، ومسلم والسنن، وكتاب الأذكار للنووي، وكتاب الوابل الصيب لابن القيم، وصحيح الكلم الطيب لابن تيمية والألباني في أذكار الحمد.

ثنايا الفقرة التالية.

رابعا: تربية قيمة الشكر في قلب المؤمن:

أ- رأينا أن الشكر قيمة قلبية لسانية، سلوكية عملية، وتربية هذه القيمة إنما يكون بإعمال آليات تربية القيم التي أشرنا إليها كثيرًا، وهي: معرفة القيمة وتصورها تصورا واضحا، مقنعا مسوغا للعمل بها، وإرادة القيمة ومحبة الاتصاف بها، والشروع الفعلي في ممارستها، والعمل بها، والتعود عليها، وتدعيم هذا العمل بالسرور بها، والدرس للآيات والأحاديث الواردة في فضلها، وبالاقتداء بمحمد رسول الله ﷺ، أفضل الشاكرين، فيها..وتذوق هذا الفصل، ومعرفة ثواب الحمد لله، والشكر لله.

كل ذلك يربي، أي: ينمي ويعظم، الشكر لله في قلب المؤمن.

ومن أول ما يساعد على ذلك أن يدرس الآيات والأحاديث الصحيحة في فضل الحمد لله، كما أوردنا من أحاديث الحمد، وفيها ما أخرجه أحمد (١٥٦٢٤) والحاكم وصححه (٣/ ٦١٤) ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٣٤٢)، (وقال الهيثمي: ورجال أحد أسانيد أحمد رجال الصحيح) عن الأسود بن سريع قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك وتعالى؟ فقال: «**أما إن ربك- عز وجل- يحب الحمد**».

ب- ومما يساعد، على تربية الشكر في القلب: أن يتعبد المسلم.. لله، باسمه: الشاكر والشكور.. والمنعم، والجواد، والكريم، والحميد.. يقول القرطبي في الشاكر والشكور: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- هو الشاكر والشكور على الإطلاق، وأن شكره- تعالى- واجب على كل مكلف، من غير خلاف، لأنه الذي يقبل القليل، ويعطي الكثير، ثم اعلم أن على كل جارحة شكرا يخصها، وعلى اللسان من ذلك مثل ما على سائر الجوارح، (...)

وشكر كل جارحة: إنما هو باستعمالها بتقوى الله- العظيم، في امتثال ما يخصها من الطاعات، واجتناب ما يخصها من العصيان، فشكر البدن: ألاَّ تستعمل جوارحه في غير طاعته، وشكر القلب: ألاَّ تشغله بغير ذكره ومعرفته، وشكر اللسان: ألاَّ تستعمله في غير ثنائه ومدحه، وشكر المال: ألاَّ تنفقه في غير رضاه ومحبته، ووراء ذلك تطوعات للشاكر والشكور(...)، ثم على المسلم أن يشكر من أسدى إليه معروفا من الناس، قال رسول الله: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»(٤١)(..) ومثل هذا في المعنى قول الحق: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فأمر بشكر الوالدين، إذ كانا سبب وجوده، وأمر بشكره، إذ أوجده بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وهداه إلى معرفته، والإقرار بربوبيته، ووحدانيته، فأبواه: حدبا عليه، وربياه إلى أن صار يقوم بنفسه، فوجب شكرهما لذلك، فإذا عقهما بالإساءة إليهما، والمخالفة لأمرهما؛ فكأنه لم يشكر الله، الذي أوجده وهداه، لارتباط أحد الإحسانين بالآخر، فتحصل من هذا: أن للشكر ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة للمنعم، والاستعانة بها على طاعته، وشكر من أجرى النعمة على يده، بالتسخير منه إليه»(٤٢).

فتربية الشكر هي بالتعبد لله باسمه: الشاكر والشكور، وممارسة مقتضاهما: أي ممارسة صفة الشكر مع كل من أسدى، أي: تفضل، إلينا معروفا.

---

(٤١) رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة؛ عن النبي قال: (..الحديث) وقال الألباني: صحيح، انظر: الأدب المفرد، رقم ٢١٨، ص ٨٣، والصحيحة رقم (٤١٦)، ورواه أبو داود، كتاب الأدب، ج ٤، رقم ٤٨١١، ص ٢٧٤ (باب في شكر المعروف)، وأخرجه أحمد بلفظ: «من لم يشكر الناس لا يشكر الله- عز وجل» قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٧، رقم ٧٤٩٥، ص ٢٩٥، ورواه مثل لفظ البخاري، ج ٨، رقم ٧٩٢٦، ص ٦١ بإسناد صحيح، وبرقم ٨٠٠٦، ج ٨، ص ١٢٦ بإسناد صحيح، ورواه الترمذي مثل رواية أحمد الأولى، وقال: حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩٦٢، ص ٣٨٤، وروى مثله برقم ١٩٦١ وقال: حسن صحيح، المصدر السابق، ص ٣٨٤ ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء، ج ٨، ص ٣٨٩.

(٤٢) القرطبي: الأسنى، ص ٣٢٥ – ٣٢٨.

جـ- ومما يربي الشكر في القلب: مطالعة نعم الله، فيطالع بقلبه، وعقله، ومشاعره نعم الله عليه، ويعددها على قلبه، قدر ما يستطيع، ليعرف فضل الله عليه فيشكره، ويحبه – وقد يكون ذلك بعمل قائمة بنعم الله على الإنسان ثم مطالعة عناصرها.. وشكر الله على كل نعمة منها، وشكر الله على الهداية لشكره.

د- التعود الفعلي على الشكر؛ فالخير عادة، فتعودوا الخير ما استطعتم، أي: مارسوا الخير، وقد اكتسبتموه، فنشكر الله بعد كل صلاة، ونشكره بعد كل طعام، وبعد كل شراب، كما ذكرنا في حديث صحيح سابق(٤٣)، وكما أخرج البخاري عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: «**الحمد لله كثيرا طيبا، مباركا فيه، غير مَكْفِيٍّ، ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغْنًى عنه، ربنا**» وأخرجه عنه بلفظ: أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من طعامه – وقال مرة: إذا رفع مائدته – قال: «**الحمد لله الذي كفانا وأرْوَانَا، غير مكفي، ولا مكفور**»، وقال مرة: «**لك الحمد ربنا، غير مكفي، ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا**»(٤٤).

ورواه الترمذي بلفظ: «**الحمد لله حمدا كثيرا طيبا، مباركا فيه، غير مودع، ولا مستغنى عنه، ربنا**»(٤٥).

وعن أبي هريرة قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء، النبي ﷺ قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ، وغسل يديه، قال: «**الحمد لله الذي يُطْعِم، ولا يُطْعَم، ومَنَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع، ولا مكافأ، ولا مكفور، ولا مستغنى عنه، الحمد الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصرنا من العمى،**

---

(٤٣) انظر هامش (٢٩).

(٤٤) فتح الباري، ج ٩، كتاب الأطعمة، رقم ٥٤٥٨، ٥٤٥٩، ص ٥٨٠، وانظر شرحه هناك.

(٤٥) وقال: حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٥، كتاب الدعوات، رقم ٣٤٦٧، ص ٢٨٣، والحديث له روايات عند أحمد، وأبي داود، وابن ماجه، والطبراني في المعجم الكبير، وغيرهم، والذهبي في سير أعلام النبلاء بسند حسن، ج ٧، ص ١٥٩.

وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا، الحمد لله رب العالمين»(٤٦).

وهكذا يحمد الله، ويشكره، ويتعود على ذلك، حتى يصبح ذلك لـه خلقـا يمارسه مع كل نعم الله عليه، ويشكر والديه، ويشكر كل من قدم له معروفا.

فهذا هو خلق المسلم، وممارسة هذا الخلق هو تعود عليه، وتخلق به.

فإذا عـرف المسلم ثـواب شـكر الله، وثـواب حمـده، بمطالعـة الآيـات، والأحاديث الصحيحة في ذلك، وإذا تعبد باسـم الله الـشاكر والـشكور، وإذا طالع نعم الله عليه، وتصورها بقلبه، فاعترف بها – فإن كل ذلك يغنـي قلبـه، فيدفعه للشكر لله، وللناس، ولوالديه.

ومن المهم التعود على هذا الخلق، منـذ الـصغر في الأسر، وتنبيـه الإنـسان على شكر كل من أحسن إليه، أو قدم له خدمة.

خامسا: خاتمة:

١ – من هذا الفصل يتبين لنا أن شكر القلب، أو القلب الشاكر، هـو خـير من الخير، من خير ما يكتنزه الناس، وهو قيمة مأمور بها، من قيم الإيمان بالله، والتعبد لله، وهو مقتضى اسم الله الشكور، حين يحصيه القلب المسلم، ويتعبد به، وهو اقتداء بالنبي ﷺ وهو خلق موصى به، يسأله المسلم في دعائه.

فهو إذن قيمة من قيم تربية القلب المسلم، أي: من اللازم أن يتربى القلب بحيث يصبح شاكرا لله، وتربية ذلك تكون بما ذكرناه، علـما، وحـالا، ودعـاء لله، فيدعو الله أن يجعله شكارا، شاكرا لله.

---

(٤٦) أورده ابن كثير في تفسيره، انظر: أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير، ج ١، ص ٦٧٢.

وقال الشيخ شاكر في تحقيقه: «هذا حديث صحيح، ذكره الحافظ ابن كثير دون تخـريج، وقـد رواه الحاكم (١/ ٥٤٦) بهذا اللفظ، مع اختلاف قليل في بعض الكلمات، ورواه ابن حبان في صـحيحه (٧/ ٢٦٥) (مخطوطة الإحسان المصورة) مختصرا قليلا وقال الحاكم: (صحيح عـلى شرط مـسلم، ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي..إلخ» نفس المصدر، هامش رقم ٣.

فتربية المسلم لا تتحقق بشكلها الكامل والصحيح بدون تربية قيمة الشكر في القلب.

ومن هنا يصبح لدينا معيارا آخر نُقوِّم به واقعنا التربوي، ونصلح من خلاله النقص الشائع.

فتربية قيمة الشكر إخراج لإنسان غني القلب، مكتمل الشخصية، لا يجد غضاضة في أن يعترف بالنعم لأصحابها، ويشكرهم عليها.

٢- إن للشكر مضمونا قلبيا ولسانيا، وسلوكيا عمليا بيناه في الفقرة الثالثة من هذا الفصل، فإكساب القلب قيمة الشكر، يعني إكسابه هذا المضمون بحيث يتصوره تصورا صحيحا، واضحا، مقنعا، ودفعه للعمل به اعتقادا، وقولا وعملا.

٣- إن هناك أساليب لتربية الشكر: منها: التعبد بأسماء الله الحسنى المتعلقة بالشكور، والمنعم، ومنها: مطالعة نعم الله، وتعدادها على القلب، وإجراؤها على الخاطر، ومنها: الدعاء المتضرع أن يجعلنا الله شكارين له، وشاكرين لوالدينا، وللناس الذين يقدمون لنا معروفا أو خدمة، ومنها: التعود بالممارسة على الشكر: بعد الطعام أو الشراب، أو اللبس، أو القيام من النوم... إلخ، ومنها: ترديد أذكار الحمد لله - صباحا ومساء وعند رؤية ما يسرنا، وعند كل حال، ومنها: دراسة أبواب الشكر من كتب الحديث، ودراسة هذا الفصل، لتنمية الرغبة القلبية، والاشتهاء الوجداني للاتصاف بالشكور.. ومنها: دراسة أحوال الشاكرين، والتأسي بهم، مثل حال سيدنا محمد، وسيدنا داود..ومنها: دراسة الآيات والأحاديث التي تبين ثواب الشكر والحمد.

كل هذه الأساليب التربوية تنمي فينا تصور الشكر تصورا صحيحا مقنعا واضحا، وتنمي فينا الرغبة في الشكر، وإرادته، ومحبته، فتتحرك دواعي

ممارسة الشكر، والاتصاف به، والتعود عليه، وممارسته، بوعي، وحب، وإخلاص.

سادسا: أسئلة لتسهيل الممارسة، وتعميق الفهم:

١- ما الأدلة على أن الشكر القلبي قيمة إيمانية تعبدية محبوبة ومأمور بها؟ وما دلالة ذلك؟

٢- ما مفهوم الشكر؟ عند أهل اللغة، وعند أهل التربية القلبية؟

٣- حدد، في عبارات تقريرية، مضمون الشكر، وحدد مضمون الحمد.

٤- هل تمارس هذا المضمون: قلبا، وقولا، وعملا؟

٥- أعد قائمة لصور الشكر والحمد التي ذكرناها في هذا الفصل، ثم راجع نفسك عليها.

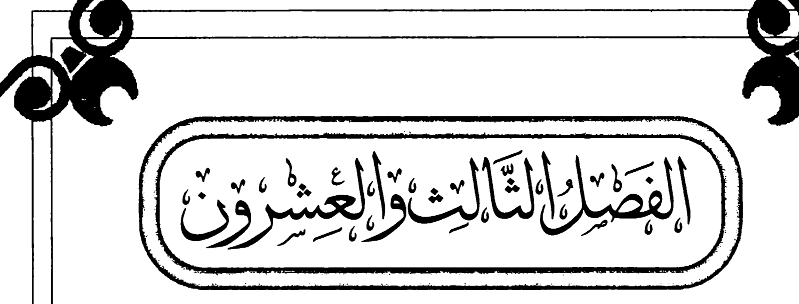
٦- ما الأساليب التربوية التي تكسبنا قيمة الحمد والشكر؟ هل مارست هذه الأساليب؟

٧- هل مررت بخبرة تربوية أرادت تنمية الشكر في قلبك ولسانك وعملك وسلوكك؟ ما هي؟

٨- انقد التربية في أسرتك؟ وفي مدرستك؟ وفي جامعتك؟ وفي الذين يمارسون التربية من حولك، ولك بهم علاقة بمرجعية قيمة شكر القلب، هل هي تربية تنمي هذه القيمة؟ وكيف؟ وبأي درجة؟

٩- هل ترى أن هناك حاجة لعقد دورة تربوية لك ولأصحابك لإكسابكم هذه القيمة: تصورا، ومحبة وممارسة؟

١٠- إذا رأيت أن هناك حاجة واقعية فأعد برنامجا لهذه الدورة من خلال هذا الفصل، واتفق مع عدد من أصحابك، واشرعوا في تنفيذه: دراسة، وتعبدا، وممارسة لمضمون الشكر.



تربية القلب المتواضع المتحرر من الكبر

تربية القلب المتواضع المتحرر من الكبر

أولا: نص الحديث النبوي:

أ- أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بَطَر الحق وَغَمْطُ الناس**»(١). وأخرجه مسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء**»(٢).

ورواه مسلم عنه بلفظ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(٣).

ورواه أحمد عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر**» فقال رجل: يا رسول الله، إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلا، ورأسي دهينا، وشراك نعلي جديدا، وذكر أشياء، حتى ذكر عَلَاقَة سوطه، أفمن الكبر ذاك، يا رسول الله؟ قال:«**لا، ذاك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر: من سَفِهَ الحق، وازدرى الناس**»(٤).

ورواه أحمد عنه بلفظ: «**لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من كبر، ولا**

---

(١) إكمال المعلم، ج ١، رقم ١٤٧، ص ٣٥٩ – ٣٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٦٢.

(٤) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٤، رقم ٣٧٨٩، ص ٣٥ – ٣٦ وأخرجه الطبراني في: المعجم الكبير، ج ٦٠، رقم ١٠٥٣٣، ص ٢٢١ – ٢٢٢.

يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»(٥).

ورواه عنه مختصرا بلفظ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»(٦).

وأخرجه أبو داود عنه بلفظ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال (خردلة) من إيمان**»(٧).

وأخرجه الترمذي عنه بلفظ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار، يعني: من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**»، قال: «**فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسنا، ونعلي حسنة**»، قال: «**إن الله يحب الجمال، ولكن الكبر: من بَطَر الحق، وغَمِصَ الناس**»(٨).

ب- وأخرج أحمد في المسند قال: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا أبو حيان، عن أبيه قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر، ثم أقبل عبد الله بن عمر، وهو يبكي، فقال له القوم: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: الذي حدثني؛ هذا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»(٩).

---

(٥) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٤، رقم ٣٩١٣، ص ٨٢ - ٨٣، ورواه برقم ٣٩٤٧، بإسناد صحيح، ص ٩٥، نفس الجزء.

(٦) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٤، رقم ٤٣١٠، ص ٢١٢.

(٧) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٠٩١، كتاب اللباس، ص ٢٦، ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٣، كتاب البر والصلة، رقم ٢٠٠٥، ص ٤٠٢، وأخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح، في التواضع والخمول، تحقيق لطفي محمد الصغير، دار الاعتصام، رقم ١٩٢، ص ١٩٥.
وأخرجه ابن خزيمة في: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب- عز وجل- دار الدعوة السلفية، ص ٣٢٨ وأخرجه الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ١٠٠٠٠، ص ٧٥.
وأخرجه ابن ماجه، وقال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ٥٠، ص ٣٦.

(٨) وقال: حسن صحيح غريب، سننه، ج ٣، رقم ٢٠٠٦، ص ٤٠٢. والحديث رواه أيضا ابن سعد في الطبقات، وقال الألباني: صحيح، وهو بلفظ: «وغمط الناس« صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط٣.

(٩) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٥٢٦، ص ٩٢ - ٩٣.

وأخرجه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: التقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص، على المروة، فتحدثا، ثم مضى عبد الله بن عمرو، وبقي عبد الله بن عمر يبكي، فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هذا، يعني: عبد الله بن عمرو، زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، أكبه الله على وجهه في النار**»(١٠).

ثانيا: تمهيد:

أ- يبين النبي ﷺ أن صاحب القلب الذي فيه أقل شيء من الكبر أو الكبرياء، أو الاستكبار، ولو مثقال ذرة كبر فإنه لا يدخل الجنة، أو يكب على وجهه في النار.

ب- وقوله: «**لا يدخل الجنة**»: فيه معنيان:

الأول: الكبر الذي هو كبر الكفر والشرك، أي: الكبر على الله، الذي يؤدي إلى الاستكبار عن عبادته، فإنه لا يدخل الجنة أبدا؛ لأن هذا الكبر أشد من الكفر، والشرك: أعني: الكبر الذي يؤدي إلى التكبر على الله، وعن عبادته، ورد الحق على الله، قال ابن تيمية: «التكبر شر من الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره»(١١).

فإن مات على هذا الكبر والتكبر فإنه لا يدخل الجنة أبدًا، ويكب على وجهه في النار، خالدًا مخلدًا فيها أبدًا.

والمعنى الثاني: الكبر على الناس، الذي يؤدي إلى احتقارهم، والتعظم عليهم، والأنفة من قبول الحق منهم، فإن معنى لا يدخل الجنة - هنا - أي: لا يدخلها

---

(١٠) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٧٠١٥، ص ٤٤٩، وأخرجه ابن أبي الدنيا في: التواضع والخمول، رقم ١٩٦، قال محققه: رجاله رجال الصحيح، ص ١٩٧.

(١١) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣٤٥.

مع أول الداخلين، دون مجازاة، فهو لا يدخل الجنة أولا، ولكن ثانيا، بعد تعذيب في النار، وذلك إذا لم يعف الله عنه، أو إذا لم يتب من هذه الكبيرة القلبية الخطيرة، التي بكى من خوف عقابها سيدنا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما[١٢].

جـ- وأخصص هذا الفصل للقلب المستكبر، وكيف يتحول إلى قلب متواضع لله، ولكلامه، ولخلق الله - وأتناول في الفصل القادم - بعون الله - الجزء الثاني من الحديث النبوي: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**» لأبين فيه أصلا مهما من أصول التوحيد.

د- ويقرر هذا الحديث أن الكبر قيمة قبيحة مرفوضة، تؤول بصاحبها إلى النار، وبالمفهوم فإن التواضع قيمة محبوبة يدعو إليها الإسلام، فالتحرر من الكبر، والاتصاف بالتواضع قيمتان، أو قيمة واحدة من قيم تربية القلب المؤمن، وأتناولها في الفقرات الآتية:

ثالثا: لله الكبرياء في السموات والأرض:

أ- الكبرياء: وصف لا يحق إلا لله- عز وجل- ولا يصلح لمن دونه؛ إذ كل من سواه عبد مملوك، له، وهو المليك القادر المتكبر المتعال، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة.

١ - قال الله- تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية:٣٦، ٣٧]، قال مجاهد: يعني: السلطان، أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه، فقير إليه[١٣].

وقال الراغب: «الكبرياء: الترفع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه غير الله»[١٤].

---

(١٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢ (ط مناهل العرفان) ص ٩١.
(١٣) ابن كثير: تفسير، ج ٤، ص ١٥٣.
(١٤) الراغب: المفردات، ص ٤٢٢.

وفي لسان العرب: «والكبرياء: عظمة الله، جاءت على فعلياء. والكبرياء: العظمة والملك، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات، وكمال الوجود، ولا يوصف بها إلا الله- تعالى، .. والكبرياء: العظمة والتجبر..»[١٥].

٢- والله- جل ثناؤه- هو «العزيز، الجبار، المتكبر، أي: المتعالي عن صفات الخلق، ويقال: هو الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة، فيقصمهم، والتاء - في المتكبر - تاء التفرد والتخصيص بالكبر، لا تاء التعاطي والتكلف، والكبر: لا يليق بأحد من المخلوقين، وإنما سمة العبيد: الخشوع والتذلل، (...) وقيل: إن المتكبر: من الكبرياء الذي هو عظمة الله- تعالى»[١٦].

والتكبر في وصف الله- تعالى- يقول الراغب:«أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة، في الحقيقة، وزائدة على محاسن غيره، وعلى هذا وصف الله- تعالى- بالتكبر»[١٧].

وفي اللسان: «الكبير، في صفة الله- تعالى- العظيم الجليل، والمتكبر: الذي تكبر عن ظلم عباده، والكبرياء: عظمة الله(...) قال ابن الأثير: في أسماء الله- تعالى: المتكبر والكبير؛ أي: العظيم ذو الكبرياء، وقيل: المتعالي عن صفات الخلق(...) وهما من الكبر، بالكسر؛ وهو العظمة(...) كَبُرَ..أي: عَظُمَ..(...) والتكبر والاستكبار: التعظم..»[١٨].

فالله هو العظيم الذي له العظمة، والكل حقير بالإضافة إلى ذاته- سبحانه وتعالى.

---

(١٥) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٨٠٧، ٣٨١٠.

(١٦) البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ٩٣، ٩٤.

(١٧) الراغب: المفردات، ص ٤٢٢.

(١٨) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٨٠٧، ٣٨١٠.

ب- وقد قررت الأحاديث الصحيحة هذه الصفة لله وحده، وأن هذا الوصف لا يليق بغيره، فإذا فعل العبد ما لا يليق إلا بالمولى- عز وجل- فإن غضب المولى يشتد عليه[١٩].

١- فقد أخرج أحمد وأبو داود والنسائي، والطبراني والبيهقي عن عوف ابن مالك، في وصف صلاة صلاها مع رسول الله ﷺ قال: «**فاستفتح البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف يتعوذ، ثم ركع فمكث راكعا بقدر قيامه، يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء، والعظمة..**»[٢٠].

وفي رواية أبي داود والبيهقي: «قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ..الحديث»[٢١]. والجبروت، مبالغة من الجبر، وهو القهر. والملكوت، مبالغة من الملك، وهو التصرف والسلطان، والكبرياء: العظمة والملك، والكمال، في الذات والصفات، فالله صاحب ذلك كله، لا يشركه في ذلك أحد.

٢- أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**»[٢٢].

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد عنهما بلفظ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن نازعني بشيء منهما عذبته**»[٢٣].

---

(١٩) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٢٩٩.

(٢٠) هذه رواية أحمد: وهي بإسناد صحيح، المسند، ج ١٧، رقم ٢٣٨٢٢، ص ١٩١، ١٩٢ وأخرج مثله النسائي، والمجتبى من السنن، ج ٢، رقم ١٠٤٩، ص ١٣٧.

(٢١) سنن أبي داود، ج ١، رقم٨٧٣، ص ٣٣١، ٣٣٢ – البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ١٧٢ وأخرجه الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٨، رقم ١١٣، ص ٦١، ٦٢ وفي مسند الشاميين برقم ٢٠٣٣.

(٢٢) إكمال المعلم، ج ٨، كتاب البر والصلة، رقم ٦٢٠، ص ١٠١.

(٢٣) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٥٥٢، ص ١٨٩ وهو في الصحيحة برقم (٥٤١).

وأخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه- عز وجل- قال: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدا منهما قذفته في النار**»(٢٤).

وأخرجه عنه موقوفا قال: قال الله- عز وجل: «**الكبرياء ردائي، والعزة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيه في النار**»(٢٥).

وأخرجه أبو داود عنه قال رسول الله ﷺ: «**قال الله- تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار**»(٢٦).

وأخرجه ابن ماجه عنه بلفظ: «**يقول الله- سبحانه: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم**»(٢٧).

وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس مثله، وفيه: «**فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار**»(٢٨).

وأخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة مثل رواية ابن ماجه(٢٩).

وأخرجه البيهقي عنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه- عز وجل- قال: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني منهما شيئا قصمته**» ورواه عنه بلفظ: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدة منهما قذفته في جهنم**»(٣٠).

---

(٢٤) إسناده صحيح، المسند، ج ٩، رقم ٩٣٣٠، ص ١٨٦ وأخرجه الحاكم (١/ ٦١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢٥) قال شاكر: إسناده صحيح، وقال: هو مرفوع حكما، إن لم يصرح برفعه؛ لأنه مما لا يدرك بالرأي، ولا القياس، كما هو بديهي، المسند، ج ٧، رقم ٧٣٧٦، ص ١٨٨، مع الهامش ص ١٨٨، ١٨٩.

(٢٦) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٠٩٠، ص ٢٥.

(٢٧) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٨٣، ص ٣٦٤ – ٣٦٥.

(٢٨) قال الألباني، صحيح، المصدر السابق، رقم ٣٣٨٤، ص ٣٦٥.

(٢٩) ابن أبي الدنيا: التواضع والخمول، رقم ١٩٥، وهو حديث صحيح، انظر تخريجه هناك، ص ١٩٦.

(٣٠) الإمام البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ١٧٣ (كلاهما).

قال الخطابي: «معنى هذا الكلام: أن الكبرياء والعظمة صفتان لله - سبحانه - اختص بهما، لا يشركه أحد فيهما، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما؛ لأن صفة المخلوق: التواضع والتذلل، وضرب الرداء والإزار مثلا في ذلك؛ يقول - والله أعلم: كما لا يشرك الإنسان في ردائه وإزاره أحدا؛ فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق، والله أعلم»[٣١].

ويقول المازري: «هذا مجاز، واتساع، على عادة العرب، وهم يقولون: فلان شعاره الزهد والورع، ودثاره التقوى، ولا يريدون بذلك الثوب الذي هو شعار ودثار، وإنما يريدون أنه صفته ونعته، ووجه الاستعارة في هذا أن الرداء والإزار يلصقان بالإنسان ويلزمانه، بجملته، وفيهما: ستر له وجمال، فضرب ذلك مثلا لكون العز والكبرياء بالباري- تعالى- أحق، وله ألزم وأوجب، واقتضاء جلاله لهما آكد..»[٣٢].

ويقول النووي: «ومعنى: «ينازعني»: يتخلق بذلك، فيصير في معنى المشارك، وهذا وعيد شديد في الكبر، مصرح بتحريمه، وأما تسميته إزارا ورداء؛ فمجاز واستعارة حسنة..[٣٣] إلخ كلام المازري السابق..».

فمعنى قوله: الكبرياء رداؤه، والعز، أو العزة، أو العظمة: إزاره، أي: الكبرياء صفته وحده، ولا تليق إلا له والعز، والعظمة صفته وحده، ولا تليق إلا به، ولا ينبغي لأحد غير الله، أن يتخلق بهما.

رابعا: مصير المتكبرين في الآخرة:

أ- من تكبر من الخلق، فقد تخلق، وتشبع بغير صفته، وتعظم بغير حق، واتصف بصفة لا تليق إلا بجلال الله، فهو ينازع الله في صفته، فعظم الكبر

---

(٣١) الخطابي: معالم السنن، ج ٤، المكتبة العلمية، ص ١٩٦.

(٣٢) إكمال المعلم، ج ٨، ص ١٠١.

(٣٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦ (ط المطبعة المصرية) ص ١٧٣ - ١٧٤.

والتكبر والاستكبار ذنبا، واشتد غضب الله- تعالى- على المتكبر الذي ينازع الله رداءه، فاستحق أن يقصمه، وأن يقذفه في نار جهنم، ليذوق العذاب الأليم.

ويقول الله- تعالى- يوم القيامة للمتكبرين: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

وهذا الخلود في جهنم هو لمن استكبر عن عبادة الله، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: أذلة صاغرين.

ب- وقد أخرج البخاري عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جَوَّاظ مستكبر**»[٣٤].

وفي روايته في كتاب الأيمان: «**وأهل النار: كل جواظ عتل مستكبر**».

ورواه مسلم، بثلاث روايات، إحداها بلفظ: «**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل جواظ زنيم متكبر**»[٣٥].

ورواه ابن ماجه بلفظ: «**..ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر**»[٣٦].

والعتل: هو الشديد الجافي عن الموعظة، الفظ، الغليظ، العنيف، الفاحش الآثم، الظلوم للناس.

---

(٣٤) فتح الباري، ج ٨، كتاب التفسير، رقم ٤٩١٨، ص ٦٦٢، وفتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠٧١، ص ٤٨٩، ورواه بلفظ قريب في الأيمان، فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٦٥٧، ص ٥٤١، ورواه مسلم، انظر: إكمال المعلم، ج ٨، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون - رقم ٢٨٥٣، ص ٣٨٣، ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ج ٤، رقم ٢٦١٤، ص ٢٧٢.

(٣٥) إكمال المعلم، ج ٨، ص ٣٨٣.

(٣٦) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٣٩، ص ٣٤٩.

والجواظ: المختال في مشيه، الفاجر، الفظ، الجموع المنوع، الجافي القلب، المتكبر مع عظم الجسم.

والزنيم: الدعي الذي يعرف بالشر.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمرو بن العاص: عن النبي ﷺ: **«أهل النار: كل جَعْظَرِي جواظ مستكبر..»**(٣٧).

وأخرج هذا الجزء الحاكم عن عبد الله بن عمر(٣٨) وأحمد أن رسول الله ﷺ قال عند ذكر أهل النار: **«كل جعظري جواظ، مستكبر، جماع، مناع»**(٣٩).

فالمستكبر والمتكبر من أهل النار.

جـ- وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: **«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صورة الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن من جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار؛ طينة الخَبَال»**(٤٠).

وأخرجه ابن أبي الدنيا عنه، بلفظ: **«يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا، في مثل صور الرجال، يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بولَس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار»**(٤١).

---

(٣٧) قال محقق التواضع والخمول: إسناد صحيح، انظر ابن أبي الدنيا: التواضع.. رقم ٢٢٠، ص ٢٠٧.

(٣٨) فتح الباري، ج ٨، ص ٦٦٣، والجعظري: الفظ الغليظ المتكبر، المنتفخ بما ليس عنده.

(٣٩) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٥٨٠، ص ١٥٣.

(٤٠) قال الألباني: حسن، الأدب المفرد، رقم ٥٥٧، ص١٩١. ورواه الترمذي مثله، وفيه: **«أمثال الذر في صور الرجال»** وقال: هذا حديث حسن صحيح، انظر: سنن الترمذي، ج٤، رقم ٢٥٠٠، ص٢٢١.

وأخرجه أحمد في المسند عنه، أن النبي قال: **«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا في جهنم..»** الحديث، قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٦٧٧، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٤١) إسناده حسن، ابن أبي الدنيا: التواضع والخمول، رقم ٢٢٣، ص ٢٠٨.

وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«يحشر المتكبرون الجبارون يوم القيامة في صور الذر، يطؤهم الناس؛ لهوانهم على الله- عز وجل»**(٤٢).

فالمتكبرون، يعذبون، ويهانون، ويذلون، ويدوس الناس عليهم، ويعلوهم الذل، والصغار، ويسجنون في سجن جهنم عقابا لهم على تعظمهم في الدنيا، وتعززهم بالباطل، واحتقارهم للناس، ونفختهم الكذابة، وردهم للحق.

د- وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن ابن عمر، عن النبي ﷺ يقول: **«من تَعَظَّم في نفسه، أو اختال في مشيته، لقي الله، وهو عليه غضبان»**(٤٣).

هذا هو مصير المستكبرين في الآخرة: ذل، وسجن، وغضب من الله عليهم.

خامسا: المستكبرون في الدنيا: قُوَى الملأ:

أ- والكبر، والتكبر، والاستكبار، حال للقلب يمنعه من قبول الحق، ويدفعه للتعظم على خلق الله، وهو يشكل سمة لقوى (الملأ) في كل مجتمع؛ أي: القوى التي تملأ العين، وتتملك السلطة والثروة، والإعلام والثقافة والتربية الرسمية، في المجتمع، وتوظف ذلك في سبيل المشروع اللاديني، محادة، ومشاقة، وعداء للمنهج الإسلامي.

ففي كل رسالة لرسول، أرسله الله، ليحرر المستضعفين، ويقيم منهج الله في الأرض؛ نجد الذين تصدوا له هم قوى (الملأ) الذين (استكبروا) وذلك من أول رسالة نوح حتى رسالة محمد- صلوات الله عليهم جميعا-.. «فأخبر أن المستكبرين هم أهل الجحد لله- تعالى- والخلاف عليه، وأهل الصد عن سبيله للضعفاء، وأهل الخلاف على الرسل والأنبياء»(٤٤).

---

(٤٢) المصدر السابق، رقم ٢٢٤، ص ٢٠٩.

(٤٣) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٥٤٩، ص ١٨٩.

(٤٤) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٣٠٠.

وهذا يلفت نظرنا إلى قاعدة كلية في فهم الصراع والتدافع الاجتماعي؛ هي أن الذي يواجه قوى التحرير الإسلامي للمستضعفين، هم (قوى الملأ الذين استكبروا) في المجتمع؛ بالسلطة والثروة، والسيطرة على وسائل الإعلام والتثقيف والتربية - الرسمية - فبين هؤلاء جميعا تحالف استكبار داخلي، قد يكون له امتداد بتحالف دولي مع الاستكبار العالمي، وذلك لوأد حركة التحرير الإسلامي للمستضعفين، فهذه طبيعة اجتماعية وسياسية من طبائع الاستكبار الداخلي، والدولي، يشهد تاريخ الرسالات والمجتمعات على صحتها، منذ نوح، وحتى الآن، (٢٠٠٣م) حيث تهيمن أمريكا على سيادة قوى الملأ العالمي، الذين استكبروا..في الأرض.. كلها.

إن قوى (الملأ الذين استكبروا) لن يتركوا حركة التحرير الإسلامي للمستضعفين حتى ينجزوا مهمتهم، في تحريرهم من قهر المستكبرين واستعبادهم، واستغلالهم، واستحمارهم، واحتلال عقولهم وقلوبهم، وربما أراضيهم، وشفط ثرواتهم، أبدا – لن يتركوهم، وإلا فعلى من يستكبرون؟ ومن يستغلون وينهبون؟

ومن هنا نأخذ مبدأ حركيا تربويا: لابد من حصار الاستكبار، بتقبيحه، وتربية السخط عليه، وتربية أنفسنا تربية تحررنا، وتنقذنا من الكبر وأخلاقه، حتى لا نشارك قوى الملأ في خصائصهم الرئيسية الأساسية، وهي الاستكبار وأخلاقه، وبتربية الناس على التواضع للحق لله وللناس، حتى لا يكون لقوى الملأ منطقة استقطاب جديدة بين عامة الناس، لابد من حصار وباء الاستكبار الداخلي والخارجي، بهذه الحركة الثلاثية الاتجاه:

أولًا: تحقير وتقبيح الاستكبار وتعميم ما قدمناه من آيات وأحاديث في وصفهم ومصيرهم.

وثانيًا: بتربية أنفسنا لتحريرها من خصائص الاستكبار.

وثالثًا: بتربية التواضع الحيوي في قلوب الناس، حتى لا يكونوا مصدرا، وموردا جديدا لقوى (الملأ الذين استكبروا).

لابد من تربية السخط على الاستكبار؛ لأنه أساس الاستبداد الداخلي، والاستعلاء الأمريكي الدولي الراهن.

ب- ومما يزيد من خطورة الاستكبار والتكبر والكبر في المجتمع، ويشكل عبئًا إضافيا على حركة التحرير الإسلامي، أمران:

الأول: أن قلب المتكبر قد طبع الله عليه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

فالقلب المتكبر، يحتاج أولا لإزالة طبقة الران من عليه، والحجاب المستور عنه، وفتح أقفاله، حتى يفهم الحق، ويقبله.

الثاني: أن المتكبر – يقول المحاسبي: «يستحق من الله- عز وجل- ألا يفهمه العلم، ولا يفقهه في الدين، ومن ذلك قوله- عز وجل: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قيل في بعض التفسير: سأدفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفسير: سأحجب قلوبهم عن الملكوت، يعني: عن النظر إلى ما غاب: باليقين، وما شاهدوا من العبر، وكفى بذلك بلاء وخذلانا، قال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا، وروي عن عيسى ابن مريم- عليه السلام؛ أنه قال: «الزرع: إنما ينبت في السهل، ولا ينبت على الصفا، وكذلك الحكمة: تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبر..» مثل ضربه للمتكبر، إنه إن تكبر؛ وضعه الله، وأزال عن قلبه فهم الحكمة، وإن تواضع أفهمه الله- عز وجل- حكمته، ونفعه بها»(٤٥).

---

(٤٥) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٣٠١.

ويفسر أبو محمد الجريري، فيقول: «من استولت عليه النفس صار أسيرا في حكم الشهوات، محصورا في سجن الهوى، وحرم الله على قلبه الفوائد، فلا يستلذ كلامه، ولا يستحليه، وإن كثر ترداده على لسانه؛ لأن الله- تعالى- يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ١٤٦]، أي: حتى لا يفهمونه (كذا) ولا يجدون له لذة، لأنهم تكبروا بأحوال النفس والخلق والدنيا، فصرف الله عن قلوبهم فَهْمَ مخاطباته، وأغلق عليهم سبيل فهم كتابه، وسلبهم الانتفاع بالمواعظ، وحبسهم في عقولهم وآرائهم، فلا يعرفون طريق الحق، ولا يسلكون سبيله»(٤٦).

فالكبر سبب لصرف القلوب عن الفهم..فهم آيات الله في القرآن، وفي الكون، وسبب لطبع الله عليها، وإغلاقها.

فتخليص القلوب من الكبر يتطلب حركة تربوية مضاعفة الجهد لإزالة الطبع، وفتح الأقفال، وإدخال التواضع.

جـ- وقبل هذا المصير، وبعده، فإن المستكبرين محرومون من محبة الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

ويا له من حرمان. ولهذا كله حذرنا النبي ﷺ فقال: «**إياكم والكبر؛ فإن الكبر يكون في الرجل، وإن عليه العباءة**»(٤٧).

وإذا كان حال، ومصير المستكبرين بهذه الوضعية الخطيرة في الدنيا والآخرة- وإنها كذلك – فإن المسلم والمسلمة ينبغي أن يحذرا أن يكون في قلبيهما أدنى مثقال ذرة من كبر، والطريق لذلك: هو تحديد وتوضيح مفهوم الكبر، وطريق التخلص منه، والاتصاف بنقيضه؛ وهو التواضع، وأبين ذلك تباعا في الفقرات الآتية:

---

(٤٦) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٢٦٢.

(٤٧) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر، ورجاله ثقات، انظر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٩١.

سادسا: مفهوم الكبر، ومضمونه، وأنواعه:

أ- يقول الراغب في (الذريعة): «والكبْرُ: رفع نفسه فوق قَدْرِه(..) فالكبر: هو ظن الإنسان بنفسه أنه أكبر من غيره، والتكبر: إظهار لذلك، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله- تعالى- ومن ادعاها من المخلوقين؛ فهو فيها كاذب»(٤٨).

قال: «والمتكبر، والضَّرِعُ (الضعيف الجبان) كلاهما جاهلان، لكن الضرع غبي، والمتكبر غبي أحمق، وشتان ما بينهما(...) ولأن الضرع قد ترك ماله، والمتكبر ادعى ما ليس له، وشتان ما بين المنزلتين، ولأن الكبر يتولد من الإعجاب، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل: رأس الانسلاخ عن الإنسانية، ومن الكبر: الامتناع عن قبول الحق..»(٤٩).

ويقرر نفس المعنى بتوضيح أكثر فيقول، في المفردات: «والكبر والتكبر، والاستكبار، متقارب؛ فالكبر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر: التكبر على الله؛ بالامتناع عن قبول الحق، والإذعان له بالعبادة، والاستكبار: يقال على وجهين:

أحدهما: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيرا؛ وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب، فمحمود.

والثاني: أن يتشبع، فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم»(٥٠).

وهذا تمييز مهم من الراغب، فمتى أحب الإنسان أن يصير كبيرا، وتحرّى ذلك، بما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب، فهذا خلق محمود.

---

(٤٨) الراغب: الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ٢٩٩ – ٣٠٠.

(٤٩) السابق، ص ٣٠٠.

(٥٠) الراغب: المفردات، ص ٤٢١.

ب- ويحلل المحاسبي مفهوم الكبر ومنشأه، وأنواعه، تحليلا علميا ممتـازا، فيفرق - أولا - بـين الإعجـاب بـالنفس، وبـين الكـبر، قـال: «إن أول بـدو (ظهور) الكبر: العجب، فمن العجب يكون أكثر الكبر، فمنه سـمي بـالكبر، ولا يكاد المعجب أن ينجو من الكبر، فلما كان العجـب هـو الـذي أخـرج إلى الكبر، وعنه كان، فإنه يسمى به، ودلت أخلاق الكبر عليه؛ لأنه قد يـستعظم ما أعطي من دين أو دنيا، ولا يتعظم به على أحد، فذاك العجب، إذا نسي منـة الله- عز وجل- بذلك، فإذا تعظم به على غيره، وأنف منه، فحقره؛ فقد تكبر، لأنه إذا أعجب بنفسه ولم يحقـر غـيره، كـان معجبـا، ولم يكـن متكـبرا، فـإذا أعجب بنفسه، ثم نظر إلى غيره، وقال في نفسه: أنا خير منه؛ محتقرا له، مزريـا به؛ سمي- حينئذ- العجب كبرًا، من أجل أنه هو أهاجه على الكبر»(٥١).

إذن، نستطيع أن نصوغ مفهوم الكبر في معادلة نفسية هي:

الكبر = إعجاب بالنفس + نظر إلى الغير بتعظم + احتقار وازدراء له.

ويضيف المحاسبي: «قلت: الكبر: ما هو، ومم يكون؟ وأبدأ بما يكون عنه الكبر، ومم يتشعب؟

قال: الكبر يتشعب من العجب والحقد، والحسد، والرياء، وأصـل ذلـك: مِنْ جَهْلِ معرفة القَدْر، فإذا جهل العبد قَدْرَه؛ تكبر.

قلت: قولك: الكبر، ما معناه؟

قال: إذا جَهِل قَدْر نفسه عَظُمَ قدرها عنـده، فـتَعظَّم عـلى الخلـق، وأنـف فالكبر: التعظم، ومنه يكون أخلاق الكبر، وأخلاق الكبر كلها تـسمى كـبرا، وقد يكون عن الحقد، والحسد، والريـاء، والعجـب، إلا أن أوَّلـه في القلـب: استعظام القدر، فإذا استعظم العبد قدره: تعظـم؛ فـإذا تعظـم؛ أَنِـفَ وحَمِـيَ، وتعزز، وافتخر، واستطال، ومَرِح، واختال.

---

(٥١) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٢٩٥.

فالكبر: التعظُّم.

قال عطاء الخراساني عن ابن عباس؛ في قوله- عز وجل: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]. قال: عظمة لم يبلغوها، وقال ابن جريج: «عُلُوًّا في الأرض»؛ تعظما.

فأخبر ابن عباس: أن الكبر هو التعظم، وعنه تكون أخلاق الكبر»(٥٢).

جـ- وتحليل الغزالي لمفهوم الكبر لا يخرج عن هذا الإطار، ولكنه يزيده وضوحا؛ يقول(٥٣): «الكبر: ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن: هو خُلُق في النفس، والظاهر: هو أعمال تصدر عن الجوارح، واسم الكبر بالخلق الباطن أحَقُّ، وأما الأعمال؛ فإنها ثمرات لذلك الخلق، وخلق الكبر موجب للأعمال؛ ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال: تكبر، وإذا لم يظهر؛ يقال: في نفسه كبر، فالأصل: هو الخلق الذي في النفس؛ وهو: الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكَبِّر عليه(...) ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه، أو مِثْل نفسه، فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره، فإنه مع ذلك، لو رأى غيره، مثل نفسه، لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة، ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعن هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر(...) هذه الرؤية، وهذه العقيدة، تنفخ فيه فيحصل في قلبه: اعتداد، وهزة، وفرح، وركون إلى ما اعتقده، وعز في نفسه بسبب ذلك، فتلك العزة والهزة والركون إلى هذه العقيدة هو خلق الكبر(...) فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين، وهو الاستعظام، كبر، وانتفخ، وتعزز، فالكبر: عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات(...)، ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر

---

(٥٢) المصدر السابق، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٥٣) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٩٤٦، ١٩٤٧.

والباطن، هي ثمرات، ويسمى ذلك تكبرا، فإنه مهما عظم عنده قدره - بالإضافة إلى غيره- حَقَرَ من دونه، وازدراه، وأقصاه عن نفسه، وأبعده، وترفع عن مجالسته، ومؤاكلته، ورأى أنه أحق أن يقوم ماثلا بين يديه، إن اشتد كِبْرُهُ(...) وإن حاج أو ناظر أنف أن يُرَدَّ عليه، وإن وعظ؛ استنكف من القبول، وإن وعظ عَنَّفَ في النصح، وإن رد عليه شيء من قوله؛ غضب، وإن عَلَّمَ لم يرفق بالمتعلمين، واستذلهم، وانتهرهم، وامتن عليهم(...) وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير؛ استجهالا لهم واستحقارا...»ا.هـ.

فالغزالي يتفق مع المحاسبي في إن الكبر خلق نفس ناشئ عن التعظم وأن له أخلاقا تصدر عنه.

د- ويبين المحاسبي متعلقي الكبر، فيقول:

«قلت: قد أراك ذكرت أخلاقه بوجوه شتى، ويتشعب من وجوه شتى، ففسره لي، فَسِّرْ لي كل وجه من أخلاقه، وعلى جهته ومعناه.

قال: إن الكبر على وجهين:

أحدهما: بين العباد وبين ربهم- عز وجل- وهو أعظم الكبر.

والآخر: بين العبد وبين العباد.

فأما ما كان بين العبد وبين ربه- عز وجل- فقوله- عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وقال- عز وجل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] (...) ومن ذلك: استكبر إبليس على آدم حتى خرج إلى المعاندة، وترك السجود لطاعة ربه- عز وجل(...) وقد يجامع هذا البابَ من الكبر- بينه وبين ربه - الرد على الرسل، فيرد أمره، ويعانده، ويخالفه في أمره، فأنفوا أن يتبعوا الرسل- عليهم

السلام- ويكونوا لهم أتباعا، فعاندوا الله- عز وجل- في أمره، وردوا كتابه، وجحدوا حجته(..) فأنفوا أن يكونوا تبعا لمن هو مثلهم في الخلقة، وقالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[الفرقان: ٢١]، قال الله- عز وجل: ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١](..).

ومنه أيضا: حَقَرِيَّتُهُمْ (احتقارهم) لمن اتبع الرسل ألاَّ يكونوا مثلهم، ولا يدخلوا في مشاركتهم، وقالوا لنوح- عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧](..) فقال لهم؛ يخبر أنهم يأنفون منه، وأنه ليس بالظاهر يصغر العباد عند الله، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١].

فأخبر أنهم ازدروهم، كبرا واستعظاما عليهم، فلم يتبعوه، وردوا على الله- عز وجل- وكذبوا رسله، وجحدوا بآياته»(٥٤).

فهذا هو النوع الأول من الكبر، وهو، التكبر على الله، ومعادلته هي:

التكبر على الله = التعظم على عبادة الله + رد وحي الله ومعاندته + تكذيب رسل الله + احتقار المؤمنين بالرسل + الأنفة من مشاركتهم في الحق الذي اتبعوه.

هـ- ويبين المحاسبي النوع الثاني، يقول(٥٥): «وأما الوجه الآخر من الكبر الذي بين العباد؛ فهو التعظم عليهم.

قلت: ما حقيقة التعظم عليهم؟

قال: خصلتان:

إحداهما: الْحَقَرِيَّةُ لهم، والأنفة منهم، وذلك أنه يرى أنه خير منهم، فهو ينظر إليهم بالازدراء والحقرية لهم (الاحتقار أو التحقير لهم).

---

(٥٤) المحاسبي: الرعاية، ص ٣٠٢- ٣٠٤.

(٥٥) المصدر السابق، ص ٣٠٥ - ٣٠٧.

والخصلة الثانية: رد الحق عليهم؛ أن يقبله منهم، وهو يعلم أنه حق، إن أمره بعضهم بخير، أو نهاه عن منكر، أو ناظره في دين، فيرد الحق، وهو يعلم، كما وصف الله- عز وجل- بني إسرائيل فقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فإن ناظر أحدا كان همته الغلبة، والرد، وترك الفهم؛ أنفا وتعززا أن يتعلم من غيره، وحقرية له، وحبا للغلبة(...) فإن أمره بخير؛ أنف وأخذته العزة؛ فرد الحق بالغضب؛ استعزازا للكبر الذي في قلبه، ألم تسمع إلى قوله- عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[البقرة: ٢٠٦](...).

فمن رأى نفسه أنه خير من غيره، مزدريا به، حاقرا له، أو رد حقا، وهو يعلم أنه حق، فقد تكبر بينه وبين الخلق.

وقد يؤول (ينتهي) به هذا الكبر بينه وبين الخلق، إلى أن يتكبر بينه وبين الله- عز وجل- كما فعل إبليس، قال ابن عجلان: ما زاد إبليس على أن قال: أنا خير منه، فلما رأى أنه خير منه؛ أنف أن يسجد له، وقد علم أن ذلك مهلكه؛ إذ رد على الله- عز وجل- أمره، وعانده بقوله: لا أسجد، أبيًّا على الله- عز وجل- معاندًا لله- سبحانه- للأنف؛ إذ رأى أنه خير من آدم(...) قال ذلك؛ جهلًا بالله عز وجل، وأنفًا من آدم- عليه السلام- فأخرجه الكبر على آدم إلى أن رد على رب العالمين- عز وجل- فكفر بذلك، فجعله لعينا ملعنا، ويجمع ذلك كله قول المصطفى ﷺ حين سأله ثابت بن قيس بن شماس؛ فقال يا رسول الله، إني امرؤ قد حبب إلى من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو ؟ قال: «**لا ولكن الكبر: من بطر الحق، وغمط الناس**»، يعني: ازدراء الناس، وفي حديث آخر: «**من سفه الحق، وغمص الناس**» يعني: ازدراء الناس، وحقرهم.

فمن تعظم وأنف أن يقبل عن الله- عز وجل- أمره، وأن يذل ويخضع

لطاعته، فقد تكبر بينه وبين ربه- جل وعلا- ومن رأى أنه خير من أخيه؛ حقرية له، وازدراء به، أو رد الحق وهو يعرفه، فقد تكبر بينه وبين العباد.

فأصل الكبر: التعظم، وحقيقته: الأنف، وازدراء العباد، ورد الحق، بعد العلم به، فذلك جماع الكبر» ا.هـ.

والحق أنني أقبل كل ما قرره هذا المحلل الإسلامي الكبير، وأنتقل مباشرة لبيان بعض أخلاق الكبر، الذي هو خلق قلبي قبيح.

سابعا: بعض أخلاق الكبر وأعماله:

أ- رأينا أن الكبر ينشأ في القلب من الإعجاب بالنفس، ورؤيتها فوق قدرها، والنظر بتعظم للآخرين، بسبب علم عنده، أو مال، أو جاه، أو جمال، أو صحة، أو منصب، أو تدين، نعم، فينتفخ، ويتعظم، فتظهر عليه أخلاق الكبر، «فيجمع المتكبر - بالدين والدنيا - خصالا يبغضها الله- عز وجل- حب العلو، والأنف من الخضوع للحق، والنفور من قبول الصواب ممن هو دونه، فلا يكلم من دونه إلا بالذَّبْرِ (الزجر والعنف)، ولا ينظر إليهم إلا شذرا، ينظر إليهم بالاحتقار، ويجاورهم بالاستصغار»[٥٦].

ب- وقد بينت الأحاديث النبوية الصحيحة هذه الأخلاق والأعمال:

١- ففي الحديث الأول في هذا الفصل: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**» وفي رواية أحمد: «**الكبر: من سفه الحق، وازدرى الناس**» وفي رواية الترمذي: «**الكبر من بطر الحق، وغمص الناس**».

٢- وأخرج أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو - من حديث الأعرابي الذي قال له رسول الله ﷺ: «**وأنهاك عن الشرك والكبر**» قال: قلت- أو قيل: يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: «**أن يكون لأحدنا نعلان**

---

(٥٦) المصدر السابق، ص ٣١٦، واقرأ من ص ٣٠٩ - ٣١٦.

حسنتان لهما شراكان حسنان؟» قال: «لا» قال: «هو أن يكون لأحدنا حُلَّةٌ يلبسها؟» قال: «لا» قال: «الكبر: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟» قال: «لا» قال: «أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟» قال: «لا» قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «سَفَهُ الحق، وغَمْص الناس»(٥٧) رواه البخاري في الأدب المفرد(٥٨).

وأخرج أبو داود، والبخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة؛ أن رجلا أتي النبي ﷺ، وكان رجلا جميلا، فقال: يا رسول الله، إني رجل حبب إليَّ الجمال، وأعطيت منه ما تراه، حتى ما أحب أن يفوقني أحد - إمَّا قال: بشراك نعلي، وإما قال: بشسع نعلي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: «لا، ولكن الكبر: من بَطر الحق، وغَمِط الناس»(٥٩).

٣- من هذه الأحاديث يتبين بوضوح أن من أعمال الكبر - أي: من ثمراته السلوكية، أي: أخلاق الكبر:

٣-١: بَطَرُ الحق، أي: دفعه، وإنكاره؛ ترفعا وتجبرا، واعتقاد أنه باطل، وهو (سَفَهُ الحق) أي: جهله، والاستخفاف به، وألاَّ يراه على ما هو عليه من الرجحان والرزانة، فالبطر: أن يتكبر، ويتعظم على الحق، فلا يقبله، والسفه: أن يستخف بالحق(٦٠).

٣-٢: غَمْصُ الناس، أو غمط الناس: وهو احتقارهم، وألاَّ يراهم شيئا،

---

(٥٧) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٥٨٣، ص ١٥٤ - ١٥٧ - مع الهامش المهم - هناك.

(٥٨) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٥٤٨، ص ١٨٨.

(٥٩) هذا لفظ أبي داود، سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٠٩٢، ص ٢٦ وقال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٥٥٦، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٦٠) انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٣٠٠، وابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ١، ص ١٣٥.

والاستخفاف بهم، والطعن فيهم، والغمص والغمط بمعنى: العيب والازدراء والاستهانة والاستحقار، وهو معنى: ازدرى الناس، وغَمَطَ وغَمِطَ، وغَمَصَ وغَمِصَ معناه: أزرى بالناس، واستخفهم، **واحتقرهم**(٦١)، واستصغرهم.

وهذا الغمط والغمص يكون شرا خطيرا إذا كان لإنسان مؤمن بالله، مسلم له، كما أخرج مسلم من حديث عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»(٦٢) فقد أغرقه احتقاره له في الشر.

٣-٣: **الاختيال**: وهو التبختر: والاهتزاز في المشي، والمشي بشموخ، ثاني عطفه، أي: يميل رقبته تكبرا، مصعرا خده، مستكبرا، يقول الحسن: تلقى أحدهم يتحرك في مشيته، يسحب عظامه عظما عظما، لا يمشي بطبيعته(٦٣).

٣-٤: **جر الثوب تكبرا واختيالا: الإسبال**: وهذه أولا مجموعات من الأحاديث الصحيحة؛ فلنتأملها:

٣-٤-١: قال البخاري في أول كتاب اللباس: «١- باب قول الله- تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ**﴾ وقال النبي: «**كلوا واشربوا، والبسوا، وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة**»، وقال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت؛ ما أخطأتك اثنتان: سَرَفٌ أو مخيلة(...) عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الله إلى من جر ثوبه: خيلاء**»(٦٤). وأخرجه أحمد عن مسلم بن يَنَاق، قال: كنت مع عبد الله بن عمر في مجلس

---

(٦١) انظر: ابن الأثير: النهاية..ج ٣، ص ٣٨٧ – الخطابي: معالم السنن، ج ٤، ص ١٩٧ – ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٢٩٨.

(٦٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦ (ط المصرية) ص ١٢٠ – ١٢١.

(٦٣) ابن أبي الدنيا: التواضع، رقم ٢٣٦، ص ٢١٥.

(٦٤) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٧٨٣، ص ٢٥٢، والحديث رواه مسلم: كتاب اللباس، إكمال المعلم، ج ٦، رقم ٢٠٨٥، ص ٥٩٨ – ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح، سننه، ج ٣، كتاب اللباس، رقم ١٧٣٦ ص ٢٨٣ – وفيه (يوم القيامة).

بني عبد الله بمكة، فمر علينا فتي مُسْبِل إزاره، فقال: هلم يا فتي، فأتاه، فقال: من أنت؟ قال: أنا أحد بني بكر بن سعد، قال: أتحب أن ينظر الله إليك يوم القيامة؟ قال: نعم، قال: فارفع إزارك، إذن، فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول- بأذني هاتين، وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه- يقول: «**من جر إزاره، لا يريد به إلا الخيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»(٦٥).

رواه ابن أبي الدنيا عن زيد بن أسلم قال: دخلت على عبد الله بن عمر فمر به عبد الله بن واقد، وعليه ثوب جديد، فسمعته يقول: أي، بني، ارفع إزارك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا ينظر الله- عز وجل- إلى من جر إزاره خيلاء**»(٦٦). وأخرج مالك عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**الذي يجر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة**».

ورواه مالك بلفظ: «**لا ينظر الله يوم القيامة إلى من يجر ثوبه خيلاء**»(٦٧).

وأخرج مسلم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين، يقول: «**من جر إزاره، لا يريد بذلك إلا المخيلة، فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة**»(٦٨).

وأخرجه بلفظ: «**إن الذي يجر ثيابه من الخيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة**»(٦٩).

---

(٦٥) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٥، رقم ٦١٥٢، ص ٣٩٦.

(٦٦) قال محققه: حديث صحيح، التواضع والخمول، رقم ٢٣٩، ص ٢١٦.

(٦٧) الإمام مالك: الموطأ، كتاب اللباس، باب ٥، رقم ١١٢٩، ص ٥٧٠.

(٦٨) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ٢٠٨٥، ص ٦٠٠ والحديث رواه النسائي، سننه، ج ٨، رقم ٥٣٢٧، ٥٣٢٨، ص ١٥١ (كتاب الزينة) ورواه الذهبي بلفظ: «**من جر ثوبه من مخيلة؛ فإن الله لا ينظر إليه**» وإسناده صحيح، والمخيلة: الكبر.

ورواه الذهبي بلفظ: «من جر إزاره، لا يريد بذلك إلا المخيلة، لم ينظر الله إليه، وإسناده صحيح، انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٩، ص ٣٨ وهامش ٣، و ص ٣٩ وهامش ٢.

(٦٩) إكمال المعلم، نفس المصدر، ص ٥٩٩.

وأخرج البخاري، قال: «باب من جر إزاره من غير خيلاء(..) عن سالم ابن عبد الله، عن أبيه ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**من جر ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»، قال أبو بكر: يا رسول الله، إن أحد شقي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال النبي ﷺ: «**لست ممن يصنعه خيلاء**»(٧٠).

وأخرجه أحمد مطولا وفي آخره: ثم التفت إلى أبي بكر فقال: «**من جر ثوبه من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**» فقال أبو بكر: إنه يسترخي إزاري؟ فقال النبي: «**لست منهم**»(٧١).

٣-٤-٢: وقال البخاري: باب من جر ثوبه من الخيلاء(...) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا**»(٧٢).

ورواه مسلم عن محمد - وهو ابن زياد - قال: سمعت أبا هريرة- ورأى رجلا يجر إزاره فجعل يضرب الأرض برجله، وهو أمير على البحرين، وهو يقول: جاء الأمير، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى من يجر إزاره بطرا**».

٣-٤-٣: وأخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، أنه قال: سألت أبا سعيد الخدري عن الإزار؟ فقال: أنا أخبرك بعلم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِزْرَةُ المؤمن إلى أنصاف ساقيه، لا جناح عليه فيما بينه وبين**

---

(٧٠) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٧٨٤، ص ٢٥٤، والحديث أخرجه أحمد في المسند، ج ٥، رقم ٥٣٥١، وفيه: «**إنك لست ممن يصنع ذلك خيلاء**» قال شاكر: إسناده صحيح، ص ٣٠، وبرقم ٥٨١٦، ص ٢٥٥ وفيه: «**إنك لست ممن تصنع الخيلاء**» ص ٢٥٥ وإسناده صحيح، ورواه أبو داود، وفيه: «**لست ممن ينعله خيلاء**» سننه، ج ٤، رقم ٤٠٨٥، ص ٢٣ ورواه النسائي، وفيه: «**إنك لست ممن يصنع ذلك خيلاء**» سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٣٣٥، ص ١٥٢.

(٧١) إسناده صحيح، المسند، ج ٥، رقم ٦٣٤٠، ص ٥١٦، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ج ١٢، رقم ١٣١٧٤، ص ٢٣١ وفيه «**لست ممن يصنعه خيلاء**» وبرقم ١٣١٧٨، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ وفيه: «**لست ممن يصنع الخيلاء**».

(٧٢) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٧٨٨، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ورواه مسلم، إكمال المعلم، ج ٦، رقم ٢٠٨٧، ص ٦٠١، ورواه مالك: الموطأ، كتاب اللباس، رقم ١٠، ص ٥٧٠.

الكعبين، ما أسفل من ذلك ففي النار، ما أسفل من ذلك ففـي النـار، **لا ينظـر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا**»(٧٣).

ورواه أبو داود وفيه: «**على الخبير سقطت، وفيه: ما كان أسفل من الكعبين فهو في النار، من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه**»(٧٤).

وأخرج ابن ماجه عن أبي سلمة قال: مر بأبي هريرة فتـى مـن قـريش يجر سَبَلَه، فقال: يا بن أخي، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من جر ثوبـه مـن الخيلاء، لم ينظر الله له يوم القيامة**»(٧٥).

وأخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قـال: «**مـا أسـفل مـن الكعبين من الإزار، فهو في النار**»(٧٦).

وأخرج الطبراني عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: «**ما خلف الكعبين ففـي النار**»(٧٧).

وأخرج أحمد عن ابن عمر قـال: كـساني رسـول الله ﷺ حُلَّـة مـن حُلَـلِ السِّيَرَاء، أهداها له فيروز، فلبست الإزار، فأغرقني طولا وعرضا، فـسحبته، ولبست الرداء، فتقنعت به، فأخذ رسول الله ﷺ بعاتقي فقـال: «**يـا عبـد الله، ارفع الإزار؛ فإن ما مست الأرض من الإزار إلى ما أسفل الكعبين: في النار**».

قال عبد الله بن محمد: فلم أر إنـسانا قـط أشـد تـشميرا مـن عبـد الله بـن عمر(٧٨).

---

(٧٣) الإمـام مالـك: الموطـأ، ك اللبـاس، رقـم ١٢، ص ٥٧٠، ورواه أحمـد في المسند، ج ١٠، رقـم ١١٣٣٥، ص ١٣٩، بإسناد صحيح، وفيه: «**فما كان أسفل من ذلك ففي النار، ..**».

(٧٤) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٠٩٣، ص ٢٦، ورواه ابن ماجه، وقـال الألبـاني: صـحيح، صـحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٢٨٩١، ص ١٩١.

(٧٥) قال الألباني: حسن صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٨٨٩، ص ١٩٠ – ١٩١.

(٧٦) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٧٨٧، ص ٢٥٦، وأخرجه النسائي بلفظ: «**ما تحت الكعبين من الإزار ففي النار**» سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٣٣٠، ص ١٥١، ورواه برقم ٥٢٣١، ص١٥١ – ١٥٢.

(٧٧) قال حمدي السلفي: حديث صحيح وله شواهد، المعجم الكبير، ج١٢، رقم ١٣١٧٦، ص٢٣٢.

(٧٨) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٥، رقم ٥٧١٣، ص ١٩٨ – ١٩٩.

ورواه عنه بلفظ: فأخذ بمنكبي، وقال يا بن عمر: «**كل شيء مس الأرض من الثياب ففي النار**»(٧٩).

وأخرج أحمد في المسند عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تحت الكعبين من الإزار في النار**»(٨٠).

وأخرج أحمد عن عائشة تقول: قال رسول الله ﷺ: «**ما تحت الكعب من الإزار في النار**»(٨١).

٣-٤-٤: وأخرج ابن ماجه عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا سفيان بن سهل، لا تُسْبِل، فإن الله لا يحب المسبلين**»(٨٢).

وأخرج أبو داود عن أبي جُرَيّ جابر بن سليم.. من حديث؛ قال: قلت: اعهد إلي، قال: «**لا تسبن أحدًا**»، قال: فما سببت بعده حرًّا ولا عبدًا، ولا بعيرًا ولا شاةً، (وساق الحديث إلى قوله:) «**وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار؛ فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة.. الحديث**»(٨٣).

وأخرج مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارا، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «**المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**» وفي رواية له: «**.. والمسبل إزاره**»(٨٤).

---

(٧٩) إسناده صحيح، المسند، ج ٥، رقم ٥٧٢٧، ص ٢١٧ ورواه الطبراني، المعجم الكبير، ج ١٢، رقم ١٣٤٣٣، ص ٢٩٦.

(٨٠) إسناده صحيح، المسند، ج ١٥، رقم ٢٠٠٤٤، ص ١٤٢.

(٨١) إسناده صحيح، المسند، ج١٧، رقم ٢٤١٩٦، ص٢١٩، ورواه برقم ٢٦٠٥١، ج١٨، ص١٥٣، وبرقم ٢٦٠٨٢، ص ١٦٠ مثل حديث سمرة، وهما صحيحا الإسناد.

(٨٢) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٢٨٩٢، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٨٣) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٠٨٤، ص ٢٢- ٢٣.

(٨٤) إكمال المعلم، ج ١، رقم ١٧١، ص ٣٨٠ - ٣٨١، ورواه النسائي، سننه، ج ٨، رقم ٥٣٣٣، ص١٥٢، وأبو داود، سنن، ج ٤، رقم ٤٠٨٧، ص ٢٤.

وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «**الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، من جر شيئا خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»(٨٥).

وأخرج أبو داود عن ابن عمر، يقول: «ما قال رسول الله ﷺ في الإزار، فهو في القميص» وأخرج عن عكرمة «أنه رأى ابن عباس، يأتزر، فيضع حاشية إزاره من مقدمه على ظهر قدميه، ويرفع من مؤخره، قلت: لم تأتزر هذه الإزرة؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ، يأتزرها»(٨٦).

وأخرج الطبراني عن أبي إسحاق قال: «رأيت ابن عباس أيام منى، طويل الشعر، عليه إزار، فيه بعض الإسبال، وعليه رداء أصفر»(٨٧).

٣-٤-٥: وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال النبي ﷺ أو قال أبو القاسم ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حُلَّة، تعجبه نفسه، مُرَجِّل جُمَّتَهُ (مسرح شعره) إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**»(٨٨).

ورواه مسلم بروايات: «**بينما رجل يمشي، قد أعجبته جمته وبرداه، إذ خسف به الأرض..**»، «**بينما رجل يتبختر، يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٨٩).

وأخرج النسائي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء، خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»(٩٠).

---

(٨٥) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٢٨٩٤، ص ١٩٢، ورواه أبو داود، سنن، ج ٤، رقم ٤٠٩٤، ص ٢٧، ورواه النسائي، سننه، ج ٨، رقم ٥٣٣٣، ورواه الطبراني، المعجم الكبير، ج ١٢، رقم ١٣٢٠٩، ص ٢٤٠، وصححه النووي في رياض الصالحين (ص٣٤٨) كما قال السلفي.

(٨٦) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٠٩٥ - ٤٠٩٦، ص ٢٧.

(٨٧) قال الهيثمي: وإسناده حسن، انظر: الطبراني، المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ١٠٥٧٢، ص ٢٣٤.

(٨٨) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٧٨٩، ورقم ٥٧٩٠، ص ٢٥٨.

(٨٩) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ٢٠٨٨ (باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه) ص ٦٠٢.

(٩٠) سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٣٢٦، ص ١٥٠.

يتجلجل: يغوص في الأرض، محدثا حركة وصوتا.

٣-٤-٦: وأخرج أحمد في المسند عن هُبَيْبِ بن مُغْفِل الغفاري أنه رأى محمدا القرشي، قام يجر إزاره، فنظر إليه هبيب، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من وَطِئه خيلاء وَطِئه في النار**»[٩١].

٣-٤-٧: وبعد تأمل الأحاديث الصحيحة السابقة **نتأمل في أقوال العلماء**:

٣-٤-٧-١: قال الخطابي: «إنما نهى عن الإسبال؛ لما فيه من النخوة والكبر»[٩٢].

٣-٧-٤-٢: جاء في الأحاديث السابقة أن من يجر ثوبه، أو ثيابه، أو إزاره خيلاء، أو بطرا، أو من الخيلاء، أو من المخيلة، فإن الله لا ينظر إليه، فهنا شرطان للإسبال: الجر على الأرض، والثاني أن يكون ذلك خيلاء، قال النووي: «الخيلاء.. والمخيلة، والبطر، والكبر، والزهو والتبختر: كلها بمعنى واحد، وهو حرام(...) واختال اختيالا؛ إذا تكبر، (...) ومعنى: «لا ينظر الله إليه»: أي: لا يرحمه، ولا ينظر إليه نظر رحمة»[٩٣].

وقال في إكمال المعلم: «قوله: **لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء**».. وفي الآخر: «**ومن جر إزاره لا يريد إلا المخيلة**»، وفي الآخر: بطرًا: المخيلة، والخيلاء، والبطر، بمعنى، وهو الكبر والزهو والتبختر(...) قال الإمام: المخيلة: يعني: الكبرياء(...) قال القاضي: قوله: «**من جر ثوبه**»: عموم في كل ثوب، إزار وغيره(...) وأجمع العلماء أن هذا ممنوع في الرجال خاصة، دون النساء، وقوله: «خيلاء»: دل أن النهي إنما تعلق لمن جره لهذه العلة، فأما لغيرها

---

(٩١) إسناده صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٥٤٢، ص ٢٤٦ وفي رواية: «**من وطئه من الخيلاء..**» وأخرجه الطبراني، مثله، المعجم الكبير، ج ٢٢، رقم ٥٤٣، ٥٤٤، ص ٢٠٦.

(٩٢) الخطابي: معالم السنن، ج ٤، ص ١٩٥.

(٩٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٤ (مناهل العرفان) ص ٦٠ – ٦١.

فلا؛ من استعجال الرجل لحاجته، وجر ثوبه خلفه».. وكذلك إن كان جره خيلاء على الكفار، أو في الحرب؛ لأن فيه إعزازا للإسلام، وظهوره في استحقار عدوه وغيظه، بخلاف الأول: الذي إنما فيه استحقار المسلمين، وغيظهم، والاستعلاء عليهم(...) وقوله: «**لا ينظر الله إليه يوم القيامة**»: أي: لا يرحمه(...) وقوله - في حديث ابن عمر في جر الإزار أنصاف الساقين، مثل حديث أبي ذر «**إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، ما أسفل من ذلك ففي النار**»، وجعل الحد المستحسن المشروع إلى نصف الساقين، والإباحة والرخصة إلى الكعبين، وما دون ذلك محظور، متوعد عليه فاعله بالنار، وذلك القدر من رجليه وساقيه في النار، وذلك إن عاقبه الله، وأنفذ عليه وعيده، وبهذا فسره نافع.

قال أهل العلم: ويكره - بالجملة - كل ما زاد على الحاجة والمعتاد في اللباس، من الطول والسعة، وقد كره ذلك مالك وغيره من أهل العلم، وروي عن عمر وعليّ مثله»(٩٤).

وقال أيضا: المسبل إزاره: أي: المرخي له، الجار طرفه؛ خيلاء، كما جاء مفسرا في الحديث الآخر؛ «**لا ينظر الله إلى من يجر ثوبه بطرا**».

وفي آخر: «**إزاره خُيَلاء**» والخيلاء: الكبر، وقد تقدم قول من قال: إنه لا يكون إلا مع جر الإزار(...) وتخصيص جره على وجه الخيلاء يدل أن من جره لغير ذلك فليس بداخل تحت الوعيد، وقد رخص في ذلك النبي ﷺ لأبي بكر الصديق ؓ، وقال: «**لست منهم**»؛ إذ كان جره إياه لغير الخيلاء؛ بل لأنه كان لا يثبت على عاتقه(٩٥).

---

(٩٤) إكمال المعلم، ج ٦، ص ٥٩٨ - ٦٠١.

(٩٥) قال الخطابي: وكان السبب في ذلك: ما علمه من نقاء سره، وأنه لا يقصد به الخيلاء والكبر، وكان رجلا نحيفا (...) فإذا سقط إزاره جره، فرخص له رسول الله ﷺ، في ذلك، وعذره، معالم السنن، ج ٤، ص ١٩٦.

قال الطبري وغيره: وخص الإزار؛ لأنه كان عامة اللباس، وحكم غيره من القمص، وغيرها: حكمه، قال القاضي: وأما على ما جاء في الحديث الآخر: «ثوبه»، فهو عام»[٩٦].

وقال ابن حجر: «وهذا الإطلاق محمول على ما ورد من قيد الخيلاء؛ فهو الذي ورد فيه الوعيد بالاتفاق(...) ويستثنى من إسبال الإزار مطلقا: ما أسبله لضرورة؛ كمن يكون بكعبيه جرح مثلا يؤويه الذباب مثلا، إن لم يستره بإزاره، حيث لا يجد غيره»[٩٧].

ويقول: «قال شيخنا- في شرح الترمذي: ما مس الأرض منها؛ خيلاء: لا شك في تحريمه، قال: ولو قيل بتحريم ما زاد على المعتاد؛ لم يكن بعيدا، ولكن حدث للناس اصطلاح بتطويلها، وصار لكل نوع من الناس شعار يعرفون به، ومهما كان من ذلك على سبيل الخيلاء فلا شك في تحريمه، وما كان على طريق العادة فلا تحريم فيه، ما لم يصل إلى جر الذيل الممنوع، ونقل عياض عن العلماء كراهة كل ما زاد على العادة وعلى المعتاد في اللباس؛ من الطول والسعة»[٩٨].

ويقول ابن حجر: «وفي هذه الأحاديث: أن إسبال الإزار للخيلاء كبيرة، وأما الإسبال؛ (أي: إرخاء الثوب وتطويله حتى ينجر على الأرض، ويماس الأرض) لغير الخيلاء؛ فظاهر الأحاديث تحريمه أيضا، لكن استدل بالتقييد في هذه الأحاديث بالخيلاء؛ على أن الإطلاق في الزجر الوارد في ذم الإسبال محمول على المقيد هنا، فلا يحرم الجر والإسبال إذا سلم من الخيلاء، قال ابن عبد البر: مفهومه: أن الجر لغير الخيلاء لا يلحقه الوعيد، إلا أن جر القميص

---

(٩٦) إكمال المعلم، ج ١، ص ٣٨١ - ٣٨٢.

(٩٧) فتح الباري، ج ١٠، ص ٢٥٧.

(٩٨) المصدر السابق، ص ٢٦٢.

وغيره من الثياب؛ مذموم على كل حال»(٩٩) والجر يعني: تطويل الثوب حتى يماس الأرض، وينجر عليها.

وقال النووي: «وأما قوله ﷺ: «**المسبل إزاره...**» فمعناه: المرخي له، الجار طرفه؛ خيلاء، كما جاء مفسرا في الحديث الآخر: «**لا ينظر الله إلى من يجر ثوبه خيلاء**»، والخيلاء: الكبر، وهذا التقييد: بالجر خيلاء؛ يخصص عموم المسبل إزاره، ويدل على أن المراد بالوعيد: من جره؛ خيلاء، وقد رخص النبي ﷺ في ذلك لأبي بكر الصديق ﷺ، قال: «**لست منهم؛ إذ كان جره لغير الخيلاء**»(١٠٠).

ويقول النووي: «فالمستحب: نصف الساقين، والجائز بلا كراهة: ما تحته إلى الكعبين، فما نزل عن الكعبين، فهو ممنوع، فإن كان للخيلاء فهو ممنوع منع تحريم، وإلا فمنع تنزيه، وأما الأحاديث المطلقة بأن ما تحت الكعبين في النار فالمراد منها: ما كان للخيلاء؛ لأنه مطلق، فوجب حمله على المقيد، والله أعلم»(١٠١).

فهل هو مكروه، إذا كان لغير ضرورة؟ هكذا يشير النووي، ونقل ابن حجر عن الشافعي قوله: «لا يجوز السدل في الصلاة ولا في غيرها؛ للخيلاء، ولغيرها: خفيف؛ لقول النبي ﷺ لأبي بكر، وقوله: (خفيف) ليس صريحا في نفي التحريم، بل هو محمول على أن ذلك بالنسبة للجر خيلاء، فأما لغير الخيلاء؛ فيختلف الحال: فإن كان الثوب على قدر لابسه، لكنه يسدله؛ فهذا لا يظهر فيه تحريم، ولا سيما إن كان عن غير قصد، كالذي وقع لأبي بكر»(١٠٢).

---

(٩٩) المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(١٠٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢ (مناهل العرفان) ص ١١٦.

(١٠١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٤ (مناهل العرفان) ص ٦٣.

(١٠٢) فتح الباري، ج ١٠، ص ٢٦٣.

قلت: والأحسن: ألا يجر ثوبه، أي: لا يطيله حتى يماس الأرض، بل يجعله فوق كعبيه، أي: العظمين الناتئين فوق العقب، في نهاية الساقين، أو محاذيا لكعبيه، أو مثلما فعل ابن عباس في رواية أبي داود، فإن نزل الثوب إلى أسفل من الكعبين لغير الخيلاء، فهو ممنوع منع تنزيه كما قال النووي، وإذا نزل أسفل منهما للخيلاء، سواء جر، أو لم يجر فهو حرام، وكبيرة.

والذي نخرج به من هذه الأحاديث: أن نلبس الثياب الحلال، التي أفتى بها ابن عمر «وسأله رجل: ما ألبس من الثياب؟ قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء»(١٠٣).

وقال إبراهيم النخعي: «كان من كان قبلكم في أشنق الثياب، وأشفق القلوب»(١٠٤).

والذي نختاره: أن نلبس الثياب بحيث لا تنزل أسفل من- أو تحت- الكعبين وأن نراعي المعتاد في مجتمعنا ما دام اللباس لا ينزل إلى أسفل من الكعبين بحيث يمكن أن يجر على الأرض.

وإنما أطلت في هذه النقطة – برغم أنني تركت كثيرا من الأحاديث وأقوال الفقهاء- لأنها تدور في الإطار السابق، لأن بعض إخواننا جعلوها (قضية) من قضايا (الدعوة) و (المفاصلة)، فتأمل ما ذكرناه هنا تفصيلا، وأعد النظر فيه، وأحكم موقفك من اللباس.

والعقيدة التي ينبغي التمسك بها هو أن الثياب والملابس لها فلسفة وعقيدة(١٠٥)، وعقيدتنا هي أن الملابس والثياب تؤثر في القلب، فالظاهر يؤثر في الباطن، والعكس صحيح، فثيابنا يجب أن تنطلق من مفهوم الحلال الذي

---

(١٠٣) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٢، رقم ١٣٠٥١، ص ٢٠٣، ورجاله رجال الصحيح.

(١٠٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٤، ص ٢٣٠.

(١٠٥) انظر ذلك في: أبي الأعلى المودودي: اللباس، المختار الإسلامي، ١٩٧٣م.

أحله الله، ومن منظومة القيم الإسلامية التي تعلي التواضع، والتخلص من الكبر، والاختيال، والتبختر، والبطر، والخيلاء.

فالثياب تعكس شخصية صاحبها وعقيدته، وشخصية المجتمع وهويته، وشخصية المسلم هي الالتزام بالتواضع والتخلص من السرف، والكبر، والخيلاء، والاختيال..والإسبال؛ أي: الجر والاختيال.

فاختيار الثياب - بالشروط والقيم السابقة- هي انسجام مع عقيدة المسلم وقيم الإسلام من جهة، وهو تربية لقيمة التواضع في قلب المسلم من جهة أخرى، وهو تأكيد على استقلالية الهوية الاجتماعية لجماعة المسلمين، من جهة ثالثة.

ثامنا: التحول من الكبر والتكبر والاستكبار إلى التواضع: فعل تربوي:

ذكرنا أن الكبر خلق في القلب والنفس ينشأ عن رؤية معينة ومعتقدات وتصور للنفس والآخرين، وذكرنا أن الكبر ينشأ عنه منظومة قيم الاستكبار، وأعمال تكبر عدة- أشرنا لها في الفقرات السابقة- وتقدم أن الكبر يدخل النار، ومن كان في قلبه أو في شيء منه فهو لا يدخل الجنة، فالتحرر منه فرض عين على كل مسلم ومسلمة، والتخلص من الكبر يستلزم مشروعا تربويا:

أ- يكتسب من خلاله الإنسان تصورا صحيحا عن نفسه، وقدرها، ونفوس الآخرين، وعن علاقته بالله، وبالعالم.

ب- يكتسب من خلاله الإنسان تصورا صحيحا عن الكبر، وعوامل نشأته في القلب والنفس، وصوره الأخلاقية القبيحة، ومصير المستكبرين في الدنيا، وفي الآخرة.

جـ- يكتسب من خلاله الإنسان اتجاها وجدانيا راغبا، وعاشقا، ومشتهيا للتخلص من الكبر وأسبابه، وأخلاقه، بحيث يصير القلب مبغضا لذلك، مشتهيا للتواضع.

وكل ذلك يتطلب درسا مستوعبا لكل المضمونات السابقة في هذا الفصل، وكل المضمونات الآتية عن التواضع وأخلاقه، وثمراته في الدنيا والآخرة، مما ينمي الرؤية الصحيحة، ويفكك الرؤية الباطلة ويدمرها.

د- يكتسب من خلاله الإنسان قوة الإرادة على التحرر من الكبر، وكسر الطوق الذي يحيط بالإنسان، ليتحرر من أخلاقه، وينطلق إلى فضاء التواضع، وحرية الخشوع لله، وللحق.

هـ- يمارس الإنسان - في ظل ممارسته للآليات التربوية في هذا المشروع التربوي - كل أفعال التواضع الممكنة، والأعمال المناقضة للكبر وأخلاقه مما يربي فيه التخلق الصحيح بأخلاق القلب المسلم: التواضع والخشوع.

وهذه إشارات أكثر توضيحا لملامح هذا المشروع التربوي:

١ - الدراسة التي تعرف الإنسان قدره، والتفكر في ذلك:

وذلك، بأن يدرس ذاته، ويتفكر في بدايته، وحياته، وعاقبته، ومصيره؛ أن يعرف نفسه، وأنه مخلوق، مربوب لله، وأنه لم يكن شيئا مذكورا وقتا ما، ثم خلقه الله، من مني يمنى، ثم كان نطفة، وعلقة، فخلقه الله، وسواه، وصيره إنسانا ليعبده وحده، ويتحرر مما سواه، لا ليستطيل على الناس، ولا ليستكبر على الذي خلقه، وأنه مهما كان كبيرا فإن فيه بعض الأقذار، وأنه سيموت، وسيرجع إلى الله ليحاسبه، وأن الله هو الذي أنعم عليه بالنعم التي (يتكبر بها) فهو مسيء بها، وفيها، لا يشكر الله عليها، وأنه من التراب، نشأ، وإلى التراب يصير، ولولا ما فيه من روح وعقل، وإرادة، ولولا ما وفقه الله له من أعمال لما كان له شأن، في الدنيا، ولا في الآخرة.

وأنه قد يسلب النعم التي يتكبر بها في أية لحظة - ونعوذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن زوال نعمته، وتحول عافيته.

فيتقن درس هذه الحقائق، والتفكر فيها، فينتج، في الوعي، في القلب،

والعقل، معرفة ضرورية تؤدي إلى قلع الكبر، وخلعه، ورميه، وغرس التواضع، ويقول المحاسبي: «فإذا تذكر العبد، وتفكر: كيف كان بدوه، وما أصله، وفصله؟ وفي ضعفه ومسكنته، وصغر قدره في نفسه؛ مما يتقلب فيه من المكروهات(...) ومما لا يكاد أن ينفك عنه من الأسقام والغموم، والوجع، والجوع، والظمأ(...) وما يصير إليه من الموت والبلى، وما بعد الموت، مما يعانيه من الأهوال، وما يخاف أن يصير إليه من العذاب؛ زال عنه الكبر، ولزمه الخضوع، والذلة، والتواضع لله- عز وجل- والشكر للمنعم- تعالى- والانكسار للخوف من العقاب، ..فإذا عرف ذلك؛ عرف قدره، وصغر قدر نفسه في الدين والدنيا، عنده»(١٠٦).

فالآلية الأولى لتربية التواضع، ونفي الكبر: التفكر في المبدأ والمسير والمصير الإنساني، والنماذج الإنسانية المتكبرة، وكيف كان مصيرها..

٢- الآلية الثانية:

أن يتفكر في كونه إنسانا، وأن الناس أيضا، مثله، كلهم بشر، وأننا جميعا لنا نفس القدر من الكرامة، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأن الناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، وأنه لا فضل لغني على فقير، ولا لأبيض على أسود، إلا بتقوى الله، وعمل صالح، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، أخرج البزار عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: **«كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجُعْلان»**(١٠٧).

وأخرج ابن السني وأبو بكر المقرئ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«كل نفس من بني آدم سيد، فالرجل سيد أهله، والمرأة سيدة بيتها»**(١٠٨).

---

(١٠٦) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٣٢٠.

(١٠٧) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٤٥٦٨، ص ٨٣٨.

(١٠٨) قال الألباني: صحيح، المصدر السابق، رقم ٤٥٦٥، ص ٨٣٨.

وأخرجه الذهبي عنه بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «**كل بني آدم سيد، والرجل سيد أهله، والمرأة سيدة بيتها**» وقال: رواته ثقات(١٠٩).

وأخرج ابن سعد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**الناس ولد آدم، وآدم من تراب**»(١١٠).

فيتفكر في هذه الحقائق، وفي أن التكبر رذيلة تنقصه، ولا ترفعه، فمن آمن بهذا، وتفكر فيه، وتيقنه؛ حدث في قلبه معرفة تزعه، أي: تمنعه، من داخله، عن التكبر، لأنه يؤمن بقيمة التسوية بين الناس في أصل الخلق، وفي الكرامة الإنسانية، وفي احترام الآدمية. إن الإيمان بهذه الحقائق يحرر النفس من معتقلات الكبر والاستطالة على خلق الله.

فيلزم دراسة هذه الأحاديث الصحيحة، والآيات القرآنية التي توصل لهذه الحقائق، والتفكر الذي يولد المعرفة الخلقية التي تشكل وازعا قلبيا عن الكبر، ودافعا روحيا للتواضع، وذراع تحويل نحوه.

٣- الآلية الثالثة:

التعبد باسم الله المتكبر العزيز.. فيردد في قلبه، وفي وعيه، كل يوم هذه المعاني: الله هو العزيز المتكبر - العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن نازع الله شيئا منهما عذبه، وقذفه في جهنم - فيردد، ويكرر هذه المعاني، كل يوم خمس مرات - مثلا - إلى أن يعرف ربه بالكبرياء والعظمة، ويستقر هذا المعنى في قلبه ووجدانه، وتنشأ له حالة ذوقية وجدانية تحرق الكبر، من قلبه، وتخلعه، وتقلعه من جذوره، وتقذف به بعيدا، فيخضع القلب لله وحده، لأنه الكبير المتعال وحده، وكيف يتكبر من (يؤمن) أن الله وحده ﴿لَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: ٣٧].

---

(١٠٩) الحافظ الذهبي: كتاب تذكرة الحفاظ، ج٢، دار الكتب العلمية، ترجمة ٥١٦، ص ٥٠٤.

(١١٠) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٦٧٩٨، ص ١١٥٠.

٤- الآلية الرابعة:

ومما يدعم الآلية التربوية السابقة أن يجري على قلبه معاني الكبير والأكبر، والمتكبر في وصف الله- تعالى- وهو يصلي، ويكبر، مع كل ركعة في الصلاة، ويعظم الله في الركوع، ويضع وجهه لله في السجود.. وهو يكرر على قلبه: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة.. فيدخل في عمق الصلاة المربية بهذا التفكر في قوله «الله أكبر»، وفي تفهم دلالة الركوع، ودلالة السجود لله وحده، فمن صلى بهذه الحال - فقد برئ من الكبر..فعلا.

٥- الآلية الخامسة:

الدرس المتأني لهذا الفصل كله، بشهوة، وحب، ورغبة، بحيث تتحول المعرفة إلى اشتهاء وجداني محب للتواضع، ساخط على الكبر والتكبر والاستكبار بكل أشكاله وأخلاقه، فيتربى في قلبه عشق للتواضع لله، وللناس، ويدعم هذه الآلية، دراسة مصائر المستكبرين، ومصائر المتواضعين في كل جوانب الحركة الإنسانية.. سواء من القرآن والسنة أو من التاريخ، أو من المذكرات المكتوبة، أو من الخبرات الواقعية المباشرة أو بزيارة مواقع المستكبرين وتخيل ما حدث لهم.

٦- الآلية السادسة:

أن يدخل نفسه فورًا في ممارسات مضادة للكبر والتكبر، وهذا تعويد للنفس على التواضع ومجاهدة الكبر، والخير هو تعود.. هو ممارسة بالفعل، فتربية الخير تكون بالشروع في ممارسته فعلا، مما يعود النفس على التواضع، ويقلع الكبر من جذوره، **وهذه بعض ممارسات للسلف الصالح، يمكن الاعتبار بها والقياس عليها:**

- كان أبو عبيدة بن الجراح - وهو أمير - يحمل سَطْلا له من خشب، حتى يأتي حَمَّام أبان.

- عن طريف قال: رأيت الربيع بن خثيم يحمل عَرَقَة (قفة من خوص) إلى بيت عمته.

- عن صالح - بياع الأكسية - عن أمه - أو - جدته - قالت: رأيت عليا اشترى تمرا، فحمله في ملحفته، فقلت: أحمل عنك يا أمير المؤمنين، قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

- مر الحسين بن علي، على مساكين، وقد بسطوا كساء، وبين أيديهم كسر؛ فقالوا: هلم يا أبا عبد الله، فحول وركه وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣]، فأكل معهم، ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني، فقال للرباب: (يعني زوجته) أخرجي ما كنت تدخرين.

- حمل عبد الله بن سلام حزمة من حطب، فقيل له: قد كان في بنيك وخدمك ما يكفونك، قال: أجل، ولكني أردت أن أجرب نفسي: هل تنكر ذلك؟[١١١].

- وقال عروة بن الزبير - رضي الله عنهما: «رأيت عمر بن الخطاب ﷺ، على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها»[١١٢]

«ومضي بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها»[١١٣].

- أن يكون لباسه لباس المتواضعين، فلا يسدل ثوبه، أسفل الكعبين، ولا يلبس اللباس (الفخم) الذي يلفت الأنظار إليه، ولا الثياب التي تزدريه فيها الأعين، والمهم في كل الأحوال أن يبتعد عن السرف والخيلاء والتكبر، وحب

(١١١) المحاسبي: الرعاية، ص ١٢٩. البخاري: الأدب المفرد: رقم ٥٥١، ص ١٨٩، في حكاية سيدنا علي، وهو ضعيف الإسناد.
(١١٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣٤٣.
(١١٣) الرسالة القشيرية، ص ٧٦.

الشهوة، وأن يتأمل في قول سعيد بن المسيب: «أصلح قلبك والبس ما شئت»(١١٤).

- قال الحسن: «من خصف نعليه، ورفع ثوبه، وعفر وجهه لله- عز وجل- فقد برئ من الكبر»(١١٥).

- أن يأكل مع عياله، ويجالس المساكين والفقراء، ويجيب دعوة الفقراء، ويمشي مع المحتاجين لقضاء حوائجهم، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويعاملهم بلطف وتواضع، سواء كانوا أقارب له، أم بعداء، وقد أخرج البخاري عن أنس قال: كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله فتنطلق به حيث شاءت(١١٦).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن أبي أوفى يقول: «كان رسول الله ﷺ، يكثر الذكر، ويقل اللغو، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي له حاجته»(١١٧).

- أن يمشي مشيا طبيعيا، من غير تبختر، وأن يخدم الفقراء، قال أحمد بن خضرويه: «من خدم الفقراء أكرم بثلاثة أشياء: التواضع، وحسن الأدب، وسخاوة النفس»(١١٨).

- أن يقبل الحق من غيره، مهما كان، قال مظفر القرميسيني: «التواضع: قبول الحق ممن كان»(١١٩).

---

(١١٤) ابن أبي الدنيا: التواضع، رقم ١٥٢، ص ١٧٣، وانظر: رقم ٩٧، ص ١٤٥، رقم ١٠١، ص ١٤٧ - ١٤٨، ورقم ١٠٢، ص ١٤٨، ورقم ١١٠، ص ١٥١، ورقم ١٢٩، ص ١٦٣.

(١١٥) المصدر السابق، رقم ٢٠٧، ص ٢٠٢.

(١١٦) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠٧٢، ص ٤٨٩.

(١١٧) ابن أبي الدنيا: التواضع، رقم ١٩٣، ص ١٩٦، قال محققه: حديث صحيح.

(١١٨) السلمي: طبقات، ..ص ١٠٥.

(١١٩) السابق...، ص ٣٩٦.

٧- الآلية السابعة:

أن يتفكر في خاتمته، ومصيره إلى الحساب بعد الموت، وإلى المجازاة على أفعاله، وأخلاقه.

٨- الآلية الثامنة:

أن يدرس خلق التواضع، ويتفكر فيه، وفي محبة الله له، وفي اتصاف النبي ﷺ، وفي أخلاق التواضع، وفي الثواب العظيم المبارك الذي جعله الله للمتواضعين، مما يكسبه تصورا صحيحا له، ومحبة جارفة للاتصاف به، والتأسي بالنبي، في هذا الخلق وثمراته العملية.

وفي الفقرات المتبقية من هذا الفصل سأتناول هذه الآلية ببعض التحليل.

فإذا مارس الإنسان هذه الآليات، وهو مؤمن بالله، وباليوم الآخر، فإن حلاوة التواضع ستربو في قلبه، فيشتهي الاتصاف به، وممارسة أخلاقه، وسيتربى السخط على الكبر والمستكبرين، ويشتهي التخلص والتحرر من معتقلات الاستكبار، فيتجه إلى تحقيق وإنجاز الهدف التربوي المنشود وهو: أن يتواضع لله، وللخلق، بالفعل، فيفعل أفعال وأخلاق المتواضعين، ويواظب عليها، ويبتعد عن أخلاق الكبر والمستكبرين ويستقبحها، وينفر منها.

تاسعا: مفهوم التواضع وبعض آثاره الخلقية:

أ- التواضع: هو نفي الكبر عن القلب يقول ابن حجر: «والأمر بالتواضع: نهي عن الكبر؛ فإنه ضده»(١٢٠).

فالتواضع هو استكانة القلب لله، وأن يرى غيره من المسلمين أفضل منه، يقول الحسن البصري: «هل تدرون ما التواضع؟ التواضع: أن تخرج من منزلك فلا تلق مسلما إلا رأيت له عليك فضلا»(١٢١).

---

(١٢٠) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٩١.

(١٢١) ابن أبي الدنيا: التواضع والخمول، رقم ١١٦، ص ١٥٤.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن يوسف بن أسباط؛ قال: «غاية التواضع: أن تخرج من بيتك، فلا تلق أحدا إلا رأيت أنه خير منك»(١٢٢).

ب- وقال الفضيل: «التواضع: أن تخضع للحق، وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه»(١٢٣).

ورواه السلمي عنه: «أن تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبل الحق من كل من تسمعه منه»(١٢٤).

فالتواضع خلق ينشأ عن رؤية للذات ورؤية للآخرين، فيثمر سلوكا نحوهم..كما أنه ينشأ عن رؤية للحق، وهو أنه فوق الذات، فيقبله وينقاد له، في كل الأحوال، وهو يردد قوله: لئن ردني الحق عبدا لأذلن ذل العبيد.

جـ- وقال يحيى بن أبي كثير: «رأس التواضع ثلاث: أن ترضى بالدون من شرف المجلس، وأن تبدأ من لقيته بالسلام، وأن تكره المدحة والسمعة والرياء- بالبر»(١٢٥).

د- وفي الرسالة والمدارج:

١- قال الفضيل بن عياض: من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

٢- وسئل الجنيد عن التواضع فقال: خفض الجناح للخلق، ولين الجانب لهم.

٣- وقال ابن عطاء: التواضع: قبول الحق ممن كان.

---

(١٢٢) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٨، ص ٢٣٨، وهامش رقم ٥، من نفس المصدر السابق، والصفحة.

(١٢٣) ابن أبي الدنيا: التواضع..رقم ٨٨، ص ١٤٢.

(١٢٤) السلمي: طبقات..، ص ١٢.

(١٢٥) ابن أبي الدنيا: التواضع والخمول، رقم ١١٨، ص ١٥٥.

٤- وقال حمدون القصار: التواضع: ألَّا ترى لأحد -إلى نفسك- حاجة، لا في الدين ولا في الدنيا[١٢٦].

هـ- وفي طبقات السلمي: قال ذو النون: «من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله، فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله؛ ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته»[١٢٧].

وهذا التعريف يبين نشأة التواضع في القلب، وأنه ثمرة تعرض القلب لعظمة الله، وهيبته، والافتقار إليه.

أما التعريفات السابقة؛ فتبين - جميعا - بعض آثار التواضع، الخلقية؛ في الموقف من الحق، ومن الخلق.

و- والتواضع - في تحليل ابن القيم - خلق للقلب والنفس، وحقيقته: خضوع القلب وذله وانقياده لسلطان الحق- عز وجل- بحيث يتصرف فيه الحق تصرف المالك في مملوكه، فبهذا يحصل خلق التواضع وحقيقته؛ أي: الخضوع لصولة الحق، وانقياده لسلطانه.

فإذا تحقق الإنسان بهذه الحقيقة انقاد للدين الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ واستسلم له، وأذعن له؛ فلا يعارض الوحي بمعقول فاسد، ولا برأي يقدمه على النص الصحيح، ولا بذوق نفسي يقدمه على أمر الله، ولا بسياسة تخالف شرع الله.

فالتواضع يخلص الإنسان من هؤلاء الأربعة، ويحرره من أن يتهم أدلة الدين الحق، فيظنها قاصرة، أو ناقصة، أو أن غيرها أولى منها، فيخلصه التواضع من هذه الآفة، ويلزمه باتباع الوحي المنزل من الله الحق، وسنة النبي ﷺ، فلا يخالفه باطنًا وظاهرًا، جوانيًا وبرانيًا، وقولًا وعملًا، وحالًا.

---

(١٢٦) القشيري: الرسالة، ص ٧٥، ٧٦ - ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣٤٢، ٣٤٤.
(١٢٧) السلمي: طبقات الصوفية، ص ٢٠.

وإذا خضع قلبك لسلطان الحق- تعالى- فإنك تتخلق بالركن الثاني في التواضع؛ وهو أن ترضى أن يكون كل مسلم لله أخا لك، فعبوديتك لله توجب رضاك أن يكون كل عبد لله أخا لك، وأن تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك، فتقبل منه الحق، وتعطيه الحق الذي له عندك، فحقيقة التواضع: أنه إذا جاءك الحق من عدو تبغضه قبلته منه، وإن كان له عليك حق أديته إليه؛ فلا تمنعه عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

وأن تقبل من المعتذر الذي أساء إليك، وجاء يعتذر عن إساءته معاذيره؛ فالتواضع؛ يوجب عليك قبول معذرته، حقًّا كانت أما باطلًا، وتكل سريرته إلى الله- تعالى- وعلامة التواضع.. والكرم..: أنك إذا رأيت الخلل في عذره؛ لا توقفه عليه، ولا تجادله فيه، بل تقول: يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قضي شيء لكان، ونحو ذلك.

وإذا خضع قلبك لسلطان الحق - تعالى- عبدته، وخضعت له، ونزلت من عوائدك وآرائك لأجل خدمته؛ فيكون الباعث لك على عبادته، ليس هو العادة، ولا مجرد الرأي الحسن، بل يكون هو حق الله عليك، وأمره لك، وكونك له عبدا تطيعه وتذعن له(١٢٨).

فالتواضع ينشأ من خضوع القلب لسلطان الحق- تعالى- فيصير خلقا ذا اتجاهين:

الأول: خضوعا، وانقيادا وتعبدا.

والثاني: مع الخلق، فيكون مع الله بلا خَلْق، ومع الخَلْق بلا نَفْسٍ، فينتج آثارًا خلقية أخرى.

ز- فإذا تحقق القلب بخلق التواضع أنصف الناس من نفسه، وعرف لهم حقوقهم، ولم يتطاول عليهم، ولم يحتقرهم، فالإنصاف؛ قيمة تتأسس على

---

(١٢٨) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣٤٦ - ٣٥٣، فيدرس تفصيلا هناك.

خلق التواضع، وعلى نفي الكبر، وتأمل في قول الشافعي: «ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني؛ إلا هبته واعتقدت مودته، ولا كابرني على الحق أحد، ودافع الحجة إلا سقط من عيني»، وقال: «ما ناظرت أحدا فأحببت أن يخطئ». وقال: «ما ناظرت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق، ويسدد، ويعان، ويكون عليه رعاية من الله، وحفظ، وما ناظرت أحدا إلا ولم أبال بَيَّنَ الله الحق على لساني أو لسانه»(١٢٩).

وهذا هو الإنصاف حقا؛ والتواضع الذي يحفز ويدفع إلى مزيد من نمو الذات، وإصلاح العلاقات.

ح- ومن أهم نتائج التواضع الخلقية: أنه يدفع الإنسان إلى الاستمرار في التعلم، والازدياد من العلم والعمل، فتواضع الإنسان يجعله لا يستنكف من التعلم ممن هو دونه؛ في سن أو نسب، أو شهرة، أو دين، أو ممن هو أفضل منه في علم آخر.

بل يحرص على اكتساب الفوائد ممن كانت عنده، وإن كان دونه في جميع هذا، ولا يستحي عن السؤال عما لا يعلم، وكان جماعة من السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم، قال الحميدي- تلميذ الشافعي- صحبت الشافعي من مكة إلى مصر، فكنت أستفيد منه المسائل، وكان يستفيد مني الحديث، وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني؛ فإذا صح عندكم الحديث فقولوا لنا حتى آخذ به(١٣٠).

---

(١٢٩) فخر الدين الرازي: مناقب الإمام الشافعي: ص ٣٦٠ - ٣٦١ - ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٤٩.

(١٣٠) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ط ١، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٤ م، ص ٨٤. النووي: المجموع شرح المهذب، (طبعة على يوسف)، ج ١، ص ٥٢. الخطيب البغدادي: كتاب الفقيه والمتفقه، ج ٢، ص ١١٣. عبد الباسط العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد، ص ١٠٧ - ١٠٨. خان زاده: منهاج اليقين - شرح كتاب أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، ص ١٠٨ - ١٢٨. د. عثمان عبد المعز رسلان: دستور المعلمين، ط ١، دار البشير للثقافة والعلوم، (قيمة التواضع).

فالتواضع: تكميل للذات، وتنمية لها..وتفتح على آفاق جديدة للمعرفة، والسلوك الصحيح.

ط- إن التواضع نقيض الغرور العارم، ويساعد الإنسان على إدراك مكانه اللائق به في العالم، فالتواضع القلبي والنفسي، والذهني، هو أساس احترام الناس، ومقدراتهم المتنوعة، ومنشط قوي لعنصري التشويق وحب الاستطلاع، وروح التواضع: هي ميزة تجعل الإنسان طالبا دائما في مدرسة الحياة التي لا نهاية لها، ما دام حيا.

وهذه الروح يجب ألا تخلط مع عدم الثقة، أو طمس الذات، فالتواضع الحقيقي عامل مهم في تنمية الثقة، والاطمئنان الذاتي، الإيجابي، «كم يرتاح الإنسان، عندما يتفهم مكانه الصغير (المهم) في هذا الكون تفهما حقيقيا، وحين يستطيع الإنسان أن يخاطب نفسه بإيمان؛ قائلا: ها أنا ذا إنسان صغير، ولكني أنمو، وجاهل ولكني أتعلم، وعدائي، وخائف، لكني أنمو في الحب، والثقة، فهو إنسان يسير في طريق الحرية الرائعة»(١٣١). إنها حرية الذات، من معتقلاتها، معتقلات الكبر، والغرور، والنفخة الكذابة.

إن تربية القلب المتحرر من الكبر تقتضي استيعاب هذا المضمون كله، ومحبته، والتفكر فيه، والعزم على العمل به.

عاشرا: أهمية التواضع:

من التحليل السابق يظهر - بجلاء - أن التواضع ضد الكبر، وأنه قيمة خلقية ذات مضمون سلوكي قلبي، واجتماعي، نحو الله، ونحو الناس، وأنه يثمر منظومة قيم خلقية مهمة مثل: الإنصاف، والتفتح المعرفي، والاجتماعي، واحترام الحق، والخلق، وفضلا على ذلك؛ فإن التواضع عبادة لله، وقربة لها جزاؤها العظيم، ولها نتائجها في الدنيا والآخرة، **فلنتأمل فيما يلي:**

---

(١٣١) إيرك بولياس، وجيمس يونج: المعلم..أمة في واحد، ص ٢٠٣، وانظر: قيمة التواضع في كتابنا: دستور المعلمين، دار البشير، طنطا، ط ٢٠٠٠م.

١- عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «إنكم لتغفلون أفضل العبادة: التواضع»(١٣٢).

٢- أخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(١٣٣).

قال المازري وعياض: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»: فيه وجهان:

«**أحدهما**: أن الله- تعالى- يمنحه ذلك في الدنيا، جزاء على تواضعه له، وأن تواضعه يثبت له في القلوب محبة ومكانة وعزة.

والثاني: أن يكون ذلك ثوابه في الآخرة على تواضعه، وهذه الوجوه كلها في الدنيا ظاهرة موجودة، وقد صدق- عليه الصلاة والسلام- فيما أخبر منها، وقد يكون جمع الوجهين في جميعها»(١٣٤).

وقال النووي: «فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه في الدنيا، ويثبت له -بتواضعه- في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويجل مكانه.

والثاني: أن المراد: ثوابه في الآخرة، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا»(١٣٥).

٣- وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «**من يتواضع لله سبحانه..، يرفعه الله..**»(١٣٦).

---

(١٣٢) ابن أبي الدنيا: التواضع والخمول، رقم ٨٠، ص ١٣٧، قال محققه: جاء بأسانيد صحيحة في كل المصادر التي خرجنا الحديث منها، فالقول ثابت عن عائشة، قال الدارقطني: وقد صح موقوفا عن عائشة، هامش، ص١٣٧ - ١٣٨. وأخرجه ابن المبارك في: الزهد والرقائق، رقم ٣٩٣، ص١٣٢.

(١٣٣) إكمال المعلم، ج ٨، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٨٨، ص ٥٩، وانظر: ابن أبي الدنيا: التواضع والخمول، رقم ٧٤، ص ١٣٣ بإسناد صحيح، وانظر تخريجه هناك.

(١٣٤) إكمال المعلم، ج ٨، ص ٥٩.

(١٣٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦ (المصرية) ص ١٤٢.

(١٣٦) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٨٥، ص ٣٦٥.

٤- أخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عمر - قال يزيد: لا أعلمه إلا رفعه، قال: قال الله- تعالى: «**من تواضع لي هكذا؛ رفعته هكذا**»(١٣٧).

وأورده المنذري في الترغيب بلفظ: «من تواضع لي هكذا (وجعل يزيد باطن كفه إلى الأرض، وأدناها) رفعته هكذا (وجعل باطن كفه إلى السماء، ورفعها نحو السماء)»(١٣٨).

٥- وقال عمر بن عبد الله: «من تواضع؛ تخشعا؛ رفعه الله، ومن تكبر؛ تعظما؛ وضعه الله»(١٣٩).

٦- وعن عون بن عبد الله قال: كان يقال: من كان في صورة حسنة، وموضع لا يشينه، ووسع عليه في الرزق، ثم تواضع لله - عز وجل - كان من خالص الله- عز وجل(١٤٠).

٧- ولأهمية خلق التواضع يقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم من حديث عياض: «**وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»(١٤١).

ورواه أبو داود بلفظ: «**إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد**»(١٤٢).

---

(١٣٧) ابن أبي الدنيا: التواضع..، قال محققه: إسناد صحيح، رقم ١٢٣، ص ١٥٧.

(١٣٨) عزاه المنذري لأحمد والبزار، وقال: رواتها محتج بها في الصحيح (الترغيب/ ٣/ ٥٦٠) وكتاب التواضع، هامش المحقق، رقم ٦، ص ١٥٧.

(١٣٩) ابن أبي الدنيا: التواضع، رقم ١٢٦، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(١٤٠) المصدر السابق، رقم ٨٤، ص ١٤٠، وابن المبارك: الزهد، من زيادات نعيم بن حماد، رقم ١٨٥، ص ٥١.

(١٤١) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٨٦٥، ص ٣٩٨، وأخرج ابن ماجه دون العبارة الأخيرة، قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٨٧، ص ٣٦٥.

(١٤٢) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٨٩٥، ص ٢٩٦.

فالتواضع يثمر العدل، واحترام حقوق الآخرين، ويمنع من البغي، والفخر على الآخرين، ولهذا أمر الله به في وحي مخصوص، وعلمه النبي ﷺ للأمة في خطاب مخصوص، لأمر الله له أن يعلمهم ما جهلوا قال: «**إلا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني، يومي هذا..**» كما في رواية لمسلم لهذا الحديث، في أوله.

٨- ومن تحقق بقيمة التواضع، وعبد الله بها، فإنه يصبح متخلقا بأخلاق عباد الرحمن: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] أي: متواضعين، في سكينة وعفة وحلم.

٩- وبالتواضع يكون المسلم متخلقا بشرط من شروط المؤاخاة والموالاة الإسلامية؛ المذكورة في قول الله- تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

١٠- هذه هي أهمية قيمة التواضع: فهي خلق ينفي الكبر، والفخر، والبغي ورد الحق، والاستطالة على الخلق، وانغلاق العقل والنفس، وهو خلق يثمر الإنصاف والتفتح العقلي والاجتماعي، والعدل، والاعتراف بالنعم، وتصحيح الذات، وتنميتها، وهو عبادة لله- تعالى- يصبح صاحبها خالصاً لله، فيرفع الله قدره، ويثبت عزته في المجتمع، ويدخله الجنة، في الآخرة، وهو خلق من أخلاق عباد الرحمن، وشرط للمؤاخاة والموالاة الإسلامية التي بها يوجد المجتمع المسلم في عالم الواقع الاجتماعي.

وإنما نبين هذا لأن معرفته، والإيمان به، واعتقاده شرط لتربية الرغبة في الاتصاف به، فهو آلية لتربية القلب المتواضع، والتحرر من الكبر وقبائحه الخلقية.

فالتفكر في أهمية التواضع هو آلية لإقناع القلب والعقل بأهمية الاتصاف بالتواضع والتحرر من الكبر، ولتربية محبة هذا الخلق الإسلامي المهم.

حادي عشر: أخلاق التواضع مُجَسَّدَة في النموذج الحي:

إن من أهم آليات التربية رسم النموذج، والتوجيه نحو التأسي بالقدوة المتحققة بالخلق المطلوب تحققا صحيحا وكاملا، وخاصة إذا كان القدوة نموذجا كاملا في الأخلاق الحسنة كلها، ومحبوبا من الذي يتأسى به، ويتبعه فإن جذبة الحب توجهه نحو التخلق بهذه الأخلاق الحميدة، وتحمل نفسه على العمل بها، وهذا ما يتحقق في سيدنا محمد ﷺ، وموقف كل مؤمن به، يود لو رآه بنفسه وماله.

ومن هنا أشير إلى أخلاق التواضع كما تجسدت في السيرة المحمدية، مع الله، ومع الناس فمن أحب أن يربي في قلبه وسلوكه أخلاق التواضع، فمن حضرة النبي ﷺ، فليؤمن به أولا، وليتعلم من سلوكه، وليطبق، بحب وحنين، **فركز معي على ما يلي:**

أ- تقول عائشة- رضي الله عنها: «ما رفع رسول الله ﷺ قط غداء لعشاء، ولا عشاء قط لغداء(...) ولا رُئِي قط فارغا في بيته؛ إما يخصف نَعْلًا لرجل مسكين، أو يخيط ثوبا لأرملة»[١٤٣].

ب- قال البخاري في كتاب المناقب: عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا مُتفحِّشًا، وكان يقول: «**إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا**»(...) عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها»(...) عن أنس ﷺ قال: «ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من

(١٤٣) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ١، ص ٨٧.

كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحا قط - أو عَرْفًا قط- أطيب من ريح، أو عرق- النبي ﷺ»(...) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «وإذا كره شيئا عرف في وجهه»(...) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عاب النبي ﷺ طعاما قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه»(١٤٤).

جـ- وفي صحيح مسلم من روايات عن أنس بن مالك قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أُفًّا، قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا(...) قال: فخدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لِمَ لَمْ تصنع هذا هكذا؟(...) ولا عاب عَلَيَّ شيئا قط»(..) قال أنس: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب؛ لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: **«يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟»** قال: قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله»(١٤٥).

د- وفي الأدب المفرد للبخاري (باب ما يعمل الرجل في بيته) (..) عن الأسود قال: سألت عائشة- رضي الله عنها: ما كان يصنع النبي ﷺ في أهله؟ فقالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج» (...) عن هشام بن عروة؛ عن أبيه قال: سألت عائشة- رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: «يخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجل في بيته»(...) عن سفيان، عن هشام، عن أبيه قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع

---

(١٤٤) فتح الباري، ج ٦، أرقام ٣٥٥٩ - ٣٥٦٣، ص ٥٦٦، وانظر: الشرح، ص ٥٧٥ - ٥٧٧.

(١٤٥) إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٣٠٩ - ٢٣١٠ كتاب الفضائل، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ قلت: والأبواب من ١ إلى ٣٩ من كتاب الفضائل من صحيح مسلم يجب أن تدرس بعمق.

في بيته؟ قالت: «ما يصنع أحدكم في بيتـه؟ يخـصف النعـل، ويرقـع الثـوب، ويخيط»، قالت: «كان بشرًا من البشر: يفلي ثوبه، ويحلب شاته»(١٤٦).

هـ- وفي الشفا للقاضي عياض: «وأما تواضعه ﷺ مع علو منصبه، ورفعة رتبته، فكان أشد الناس تواضعا، وأعدمهم كبرًا(..) عـن أبي أمامـة ﷺ قـال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا؛ فقمنا له، فقـال: «**لا تقومـوا كـما تقوم الأعاجم، يعظم بعضها بعضًا**».

وقال: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبـد**» وكـان ﷺ: يركب الحمار، ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجلـس بين أصحابه مختلطًا بهم، حيثما انتهى به المجلس؛ جلس(...) ولما فتحت عليـه مكة، ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحلـه، رأسـه، حتـى كـاد يمـس قادمته؛ تواضعا لله- تعالى-(...) وعن عائشة والحسن، وأبي سعيد، وغيرهـم، في صفته- وبعضهم يزيد على بعض- كان في بيته في مهنـة أهلـه، يفـلي ثوبـه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقمّ البيت، ويعقـل البعير، ويعلف ناضحه (الجمل الذي يستقي عليه المـاء) ويأكـل مـع الخـادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق(...) ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقال له: «**هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنـا ابـن امـرأة مـن قريش تأكل القديد**»(١٤٧).

و- وفي باب الشمائل الشريفة من صحيح الجامع الصغير:

«كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه؛ قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتنـاول يـده ناولـه

---

(١٤٦) كلهـا روايـات صـحيحة الأسـانيد، كـما قـال الألبـاني، الأدب المفـرد، أرقـام ٥٣٨ – ٥٤١، ص١٨٥ – ١٨٦.

(١٤٧) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج ١، ص ١٢٩ – ١٣٣.

إياها، فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحدا من أصحابه فتناول أذنه ناوله إياها، ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه» (حسن، ابن سعد عن أنس) (...).

كان إذا ودع رجلا أخذ بيده، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده، ويقول: «**أستودع الله دينك وأمانتك، وخواتيم عملك**» (صحيح، ..).

«كان أرحم الناس بالصبيان والعيال» (صحيح..).

«كان طويل الصمت، قليل الضحك» (حسن).

«كان لا يأكل متكئا، ولا يطأ عقبه رجلان» (صحيح).

«كان لا يُدْفَع عنه الناس، ولا يُضْرَبوا عنه» (صحيح).

«كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم» (صحيح).

«كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير» (صحيح).

«كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم» (صحيح).

«كان يذكر الله- تعالى- على كل أحيانه» (صحيح).

«كان يرخي الإزار من بين يديه، ويرفعه من ورائه» (صحيح).

«كان يردف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار» (صحيح).

«كان يركب الحمار، ويخصف النعل، ويرقع القميص، ويلبس الصوف، ويقول: «**من رغب عن سنتي فليس مني**» (حسن).

«كان يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم» (صحيح).

«كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه» (صحيح).

«كان يقبل الهدية، ويثيب عليها» (صحيح).

«كان يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين، والعبد، حتى يقضي له حاجته» (صحيح).

«كان يكره أن يطأ أحد عقبه، ولكن يمين، وشمال» (صحيح).

«كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم» (صحيح).

«كان يمر بنساء فيسلم عليهن» (صحيح).

«كان يمشي مشيا يعرف فيه أنه ليس بعاجز، ولا كسلان» (حسن).

«كان يلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول: «**يا زوينب، يا زوينب**»، مرارًا» (صحيح)..»(١٤٨).

ز- وفي مدارج السالكين: «ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة، واليتيم، في حاجتها، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، ولو إلى أيسر شيء».

وكان ﷺ: هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساما، متواضعا، من غير ذلة، (...) رقيق القلب، رحيما بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب معهم، وقال ﷺ: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ أو تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب، هين، لين، سهل**»

---

(١٤٨) صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، من بين أرقام ٤٧٨٠ - ٥٠٢٥، ص ٨٦٨ - ٨٩٦، وانظر: بيان تواضعه ﷺ من إحياء علوم الدين، ج٢، ص ١٣٢٦ - ١٣٢٧، ومختصر شمائل الرسول للترمذي، والألباني (باب تواضعه).

(رواه الترمذي، وقال: حديث حسن)(١٤٩).

ح- وفي سنن ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري؛ قال: أحبوا المساكين، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين**»(١٥٠).

هذه بعض أخلاق التواضع مجسدة في سلوك أعظم الناس تواضعا، وأحسنهم خلقا، وهو سيدنا محمد ﷺ، فمن آمن به، وأحبه، ودرس هذه الأخلاق، فإن إيمانه به، وحبه له، سيدفعانه للتأسي به، والعمل بأخلاقه، فيشرع المحب لرسول الله ﷺ بجذبة الحب، واتباع الإيمان في التخلق بأخلاق التواضع، والتحرر من أخلاق الكبر.

وإنما أثبتُّ هذه الجملة من أخلاق التواضع المحمدية لتكون نموذجا واقعيا حيا للإشعاع السلوكي، ومثلا أعلى، للخلق العظيم، في مستواه الكامل، والواقعي، في وقت واحد، أما المسلم الذي يربي في قلبه قيمة التواضع ويمارس أخلاقه؛ يرفعه الله في الدنيا والآخرة.

ثاني عشر: خاتمة:

١- يتبين من التحليل السابق أن العجب خلق قلبي قبيح يؤدي بصاحبه

---

(١٤٩) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣٤١ – ٣٤٢؛ قلت: في نسخة الترمذي التي رجعت إليها؛ فيها: «**على كل قريب هين سهل**» وقال: حديث حسن غريب، وهو عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ، انظر: سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٤٩٦، ص ٢٢٠ وأورده في صحيح الجامع بلفظ: «**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غدا؟ على كل هين لين قريب سهل**»، وقال: صحيح، انظره هناك: ج١، ط ٣، رقم ٢٦٠٩، ص ٥٠٩.

وأخرجه الطبراني بلفظ: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟**» قالوا: بلى: يا رسول الله، قال: «**كل هين لين قريب سهل**» قال محققه: «ورواه أحمد (٣٩٣٨) والترمذي (٢٦٠٦) وابن حبان (١٠٩٦ و ١٠٩٧) والخرائطي في مكارم الأخلاق (١١، ١٢) (..) والبغوي في شرح السنة (٣٥٠٥) وصححه شيخنا في السلسلة الصحيحة (رقم ٩٣٨) لشواهده، والطبراني، المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ١٠٥٦٢، ص ٢٣١.

(١٥٠) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٤٥، ص ٣٥١.

إلى التكبر وأخلاق الاستكبار في الدنيا، والاصطفاف مع قوى الملأ الذين استكبروا في الأرض، ويؤدي بصاحبه إلى النار، وإلى الحرمان من الفهم، وأن المسلم مطالب بأن يتخلص من الكبر وأخلاقه، وأن يربي قلبه ليتصف بالتواضع وأخلاقه.

فالتواضع، ورفض الكبر والتحرر من أخلاقه وأعماله قيمة من قيم تربية القلب، وتربية التواضع تعني: تحرير القلب من أخلاق الكبر لكي يتصف بأخلاق التواضع التي حللناها.

فشخصية المسلم تتصف بكراهية الكبر، ومحبة التواضع، والاتصاف بأخلاقه، وهذا ما يجب أن تهدف إليه تربية الشخصية المسلمة.

إنها تربية تعمق في الإنسان معنى إنسانيته، وتكسبه الثراء القلبي، والامتلاء الروحي، الذي يدفع الكبر، ويقبحه، ويمدح التواضع، ويتذوقه، ويستحليه، ويمارسه.

وبدون هذه التربية لا تخرج الشخصية الإسلامية الحقة إلى الواقع الاجتماعي.

فتربية التواضع في القلب، وتحريره من أخلاق الكبر، هي جزء وجانب وبعد رئيسي من جوانب تربية الشخصية الإنسانية.

لأنها تكسبها قيمة لا يدخل الإنسان عالم المؤاخاة الاجتماعية بدونها، ولا يدخل الجنة إلا بها، ولا تكتمل شخصيته بدونها، ولا يكون مؤمنا عابدا للرحمن دون أن يتصف بها - بحق.

٢- وقد حددنا برنامجا تربويا لاكتساب هذه القيمة والتحرر من نقيضها- الكبر - يتكون من إحدى عشرة آلية تربوية تهدف كلها إلى أن يكتسب الإنسان - إذا مارسها بنجاح - قيمة التواضع، ويتحرر من الكبر.

٣- وفي ضوء ذلك نقرر أن التربية الإسلامية تهدف إلى إكساب الشخصية

الإنسانية قيم التواضع وأخلاقه، وتخليصه من قيم الكبر وأخلاق الاستكبار، وأن إكساب هذا الهدف قيم من خلال إنجاز مشروع تربوي مكون من إحدى عشرة آلية تربوية متكاملة، بيناها في هذا الفصل، وبدون إنجاز هذا المشروع التربوي تكون الشخصية الإسلامية شخصية مشوهة، متناقضة مع قيم الإسلام الذي تدعي أنها تؤمن به، وتكون المشروعات التربوية مشروعات خداج، ناقصة، أو عديمة الجدوى الخلقية.

٤- إن في هذا الفصل محتوى عقديا وفكريا وخلقيا يمثل ركنا رئيسا من أخلاقية الضمير المسلم، لا يمكن إغفاله، سواء على مستوى التصور العقدي، أو على مستوى المعرفة الخلقية، أو على مستوى التربية العقدية والخلقية.

إن فيه بيانا لمفهوم الكبر، وتمييز الجمال عن الكبر، وكون الكبر عاملا نفسيا للكفر، وللاستكبار العالمي، والداخلي، فهو أحد المركبات النفسية لقوى الملأ- وبالتالي لا يمكن تفسير الصراع بين قوى الاستكبار وقوى التحرير الإسلامي داخليا وخارجيا، بدون هذا المكون النفسي، والخلقي..

وفي هذا الفصل بيان لكون الكبر معوقا خطيرا لفهم الظواهر الكونية، والاجتماعية، والآيات القرآنية، وفيه بيان لمصير المستكبرين في الدنيا والآخرة، وفيه تحليل لمضمون الكبر وأسبابه النفسية والاجتماعية، ولأنواعه، ولأعماله، ولأخلاقه، وآثاره الاجتماعية.

وفيه بيان مهم لكيفية التحول من الكبر وأخلاقه إلى التواضع وأخلاقه، وأن ذلك يتم - فقط من خلال الفعل التربوي الذي ينفذ آليات تربوية محددة، وقد بينا هذه الآليات، ورسمنا الطريق للاتصاف الحقيقي بالتواضع.

وقد بينا مفهوم التواضع وأخلاقه، وآثاره في النفس الإنسانية، وأهميته، وأوردنا تجسيدا الخلق التواضع وأعماله، في السيرة المحمدية، ليشع هذا التجسيد أنوارًا تهدي من يريد الاتصاف بالتواضع الفعال.

فدراسة هذا الفصل والتفكر فيه، هو جزء من ممارسة تربوية لمن يريد التخلق بالتواضع، والتحرر من الكبر، ولمن يريد معرفة الشخصية الإنسانية التي يريدها الإسلام.

٥- وهذا الفصل كله، هو بيان للجزء الأول من حديث هذا الفصل، أما الجزء الثاني فأخصص له الفصل الآتي، بعون الله وتوفيقه.

ثالث عشر: أسئلة وتطبيقات لتعميق الفهم وتسهيل الممارسة:

١- وضح موقف الإسلام من الكبر والمستكبرين في الدنيا وفي الآخرة.

٢- ما مفهوم الكبر، ومضمونه العقدي والخلقي؟

٣- أعد قائمة تقويم ذاتي، وحدد عليها في عبارات واضحة قائمة أخلاق الكبر بنوعيه (على الله، وعلى الخلق)، ثم بين عليها موقفك السلوكي إزاء كل عبارة وخلق.

٤- حدد موقف الإسلام من الجمال في ضوء بيان الحديث النبوي، في هذا الفصل.

٥- بين - بشكل دقيق - الآليات التربوية لاكتساب خلق التواضع، والتحرر من معتقلات الكبر.

٦- ما علاقة هذا الفصل بتربية الخشوع في القلب؟

٧- بين موقف الإسلام من إسبال الثياب، وما علاقة ذلك بالكبر؟

٨- ما مفهوم التواضع؟ وما ركناه؟ وما آثاره في المجتمع الإسلامي؟

٩- قم بإعداد قائمة خلقية للتقويم الذاتي، تحدد فيها أخلاق التواضع، ثم حدد موقفك أنت عليها.

١٠- قم بإعداد قائمة أخلاق التواضع كما طبقها سيدنا محمد ﷺ، ثم احكم على نفسك في ضوئها.

١١- هل التربية التي مررت بها حررتك من الكبر، وأكسبتك التواضع؟

١٢- كيف تكون متواضعا؟

١٣- كم حديثا نبويا في هذا الفصل؟

١٤- ما رأيك في خطة إنجاز هذا الفصل؟ هل كان يمكن كتابته بشكل آخر؟ هل كتبته بروح انفعالية؟ أم بروح هادئة؟ وما دلالة ذلك؟ هل كنت أعاني بعض الضيق النفسي، والروحي، وأنا أكتبه؟ وما دليلك من سياق المؤلف؟

لو أنك كتبت هذا الفصل: ماذا كنت تفعل؟ هل يمكنك إعادة إنتاج هذا الفصل؟

قم بتلخيص هذا الفصل، واكتب تلخيصك.

١٥- تخير ثلاثة من أصحابك وادرس معهم هذا الفصل، وحاولوا تطبيق آلياته التربوية.

١٦- ما رأيك في قول أبي حفص: «لا تكن عبادتك لربك سببا لأن تكون معبودا»؟ (السلمي: طبقات، ص ١٢١).

هل لهذا المضمون علاقة بالتكبر؟

١٧- ما الدلالة التربوية لهذا الفصل؟

١٨- ما الدلالة الحركية لهذا الفصل؟

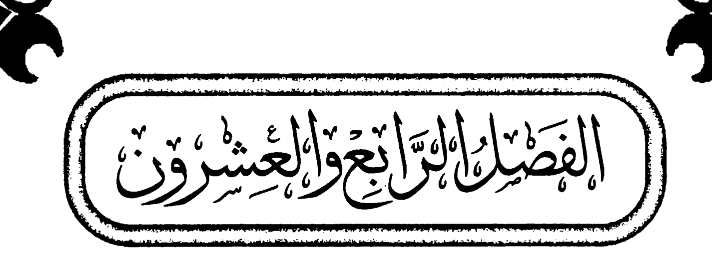
١٩- ما طبيعة الشخصية التي يريدها الإسلام - في ضوء هذا الفصل؟

٢٠- طلب منك إعداد دورة تربوية للتحرر من الكبر، والتخلق بالتواضع، وتنفيذها لمدة أسبوعين، حدد الأهداف التي تريد إكسابها للمشتركين، والأنشطة الدراسية والتعبدية التي يمارسونها، وقوائم التقويم الذاتي... إلخ.

٢١- ما رأيك في الجمع بين رسالة القشيري وإحياء الغزالي، ومدارج ابن القيم، وتواضع ابن أبي الدنيا؟ هل هناك تناقض، أم انسجام مرجعي؟ ما

رأيك.. هل نوافق منهج أهل السنة في هذا (الجمع)؟ هل خالفنا الحق؟ أم اتبعناه؟

٢٢- حدد دور الصلاة - تحديدًا كاملًا - في تربية التواضع والتحرر من الكبر.



تربية الإيمان والخير في القلب
خروجٌ من النار

تربية الإيمان والخير في القلب
خروج من النار

تقديم:

هذا الفصل هو استكمال لفصلين سابقين: فهو استكمال لفصل تربية الإيمان في القلب؛ لأن الفصل الحالي يبين أن وجود الإيمان في القلب- بالحد الأدنى من الإيمان والخير- هو الشرط الأساسي لشفاعة النبي ﷺ، وشفاعة الشافعين؛ لإخراج العاصي من النار، ولإدخال الله له الجنة بعد ذلك، إن لم يغفر الله له، أو لم ينب إليه، فتربية الحد الأدنى من الإيمان والخير في القلب هو شرط خروج عصاة الموحدين من النار، وهذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة، والمغزى من ذلك الأصل: هو مغزى تربوي، أي: يلزم تربية الإيمان في القلب من أجل دخول الجنة في الآخرة، من هنا كان هذا الفصل استكمالا لفصل تربية الإيمان وتجديده في القلب؛ إذ إننا نقدم هنا مبررا - أو مسوغًا- قويا يسوغ الاهتمام بتربية الإيمان أولًا.

ومن ناحية ثانية: فإن الفصل الحالي يكمل بيان الحديث النبوي الصحيح الذي قدمناه في الفصل السابق (الثالث والعشرون) ونصه: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**».

وفي رواية: «**لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان**» أي: لا يدخلها دخول أهلها المخلوقين فيها..ولأن هذا الجزء من الحديث يحدد أصلا من أصول أهل السنة المحمدية في الإيمان، وفي الجزاء الأخروي؛ فإننا سنورد مجموعات صحيحة من الحديث النبوي، تبين هذا الأصل المهم جدا في تصور الإيمان والجزاء، وفي بيان حد الإيمان، وحقيقته.

ولأن هذا الجزء من الحديث هو النصف الأول من حديث الفصل السابق؛ فإننا جعلناه تابعا في ترتيب الفصول، لكنه في نفس الوقت هو جزء

من فصل تربية الإيمان وتجديده في القلب.

وقد عقدنا فصلا مستقلا له؛ لأن هنا أصولا عقدية لابد من إحكامها.. والإيمان بها، واعتقادها، والعمل بمقتضياتها، وسوف تتبين هذه الأصول من خلال تناول مجموعات الأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع، والتعقيب عليها بكلام أهل العلم لبيان الحقائق العقدية المتضمنة فيها، ثم نستخلص الأصول الكلية منها، ونختم الفصل بعدها بعون الله.

أولا: نصوص الأحاديث النبوية والقواعد المستنبطة منها:

أ- أخرج مسلم وغيره عن علقمة عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**»[١].

قال الخطابي: «معناه: ألاَّ يدخلها دخول تخليد وتأبيد، والله أعلم»[٢].

ويقول النووي: «فالمراد به: دخول الكفار، وهو دخول الخلود»[٣].

فالمعنى: أنه لا يدخل النار دخول خلود أحد في قلبه أقل درجات الإيمان، والحد الأدنى منه، وسيأتي بيانه تباعا، وقد ورد الحديث بلفظ: «..**من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**».

ب- وقال الترمذي: «وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان؛ إنما معناه: لا يخلد في النار، وهكذا روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**»، وقد فسر غير واحد من التابعين هذه الآية: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢] فقال: من خلد في النار فقد أخزيته»[٤].

---

(١) انظر تخريجه في بداية الفصل الثالث والعشرين.

(٢) الخطابي: معالم السنن، ج ٤، ص ١٩٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢، ص ٩١ (مناهل العرفان) ومثل ذلك في: إكمال المعلم، ج ١، ص ٣٥٩.

(٤) سنن الترمذي، ج ٣، تحت الحديث رقم ٢٠٠٦، ص ٤٠٢ والحديث أورده الألباني بلفظ: «**مثقال ذرة من الإيمان**» وقال: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، ط ٣، رقم ٨٠٦٢، ص ١٣٤٠ وهو في الصحيحة برقم ٢٤٥٠ والحديث رواه أحمد والنسائي.

جـ- أخرج البخاري ومسلم وأحمد وابن خزيمة والآجري وابن أبي عاصم، وغيرهم، وهذا لفظ مسلم، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل الله أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار، ثم يقول: انظروا: من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون منها حُمَمًا، قد امْتَحَشُوا، فيلقون في نهر الحياة، أو الحيا، فينبتون فيه، كما تنبت الحبة إلى جانب السيل، ألم تروها: كيف تخرج صفراء ملتوية؟**»(٥).

وفي رواية للبخاري: «**مثقال حبة من خردل من خير**»(٦).

وفي رواية ابن أبي عاصم: «**فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل..**»(٧).

فالله- تعالى- يخرج من وجد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، أو خير، فيخرجون فحما، قد احترقوا، فيلقون في نهر الحياة – وهو المطر؛ لأنه يحيا به الأرض، فيحيا به هؤلاء المحترقون، وتحدث فيهم النضارة، وينبتون بسرعة، كما تنبت الحبة – وهي بذور البقل، أو حب الرياحين، في حميل السيل، أي: ما يجيء به السيل من طين أو غثاء، فتنبت الحبة بسرعة، وهي أسرع نابتة نباتا، فأخبر النبي ﷺ عن سرعة نباتهم.

فهذا الحديث يثبت أن المعاصي تضر بالإيمان، لكنها لا توجب الخلود في النار، ما دام مع الإنسان أصل الإيمان.

ونقل الكرماني في شرحه على البخاري قول النووي: «قال العلماء: المراد بحبة الخردل: زيادة على أصل التوحيد، وقد جاء في الصحيح بيان ذلك؛ ففي رواية: أخرجوا من قال لا إله إلا الله، وعمل من خير ما يزن كذا، ثم بعد هذا

---

(٥) إكمال المعلم، ج ١، رقم ١٨٤، ص ٥٥٤.

(٦) فتح الباري، ج ١، رقم ٢٢، ص ٧٢.

(٧) كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة، للألباني، رقم ٨٤٢، ص ٣٩٧، وانظر: صحيح الجامع، ج٢، ط٣، رقم ٨٠٧٣، ص ١٣٤١.

يخرج منها من لم يعمل خيرا قط غير التوحيد(...) قال: وفيه أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله ﷺ: «**خردل من إيمان**»، والمراد: ما زاد على أصل التوحيد»(٨).

وقال ابن حجر: «والمراد بحبة الخردل - هنا - ما زاد من الأعمال على أصل التوحيد، لقوله في الرواية الأخرى: «**أخرجوا من قال: لا إله إلا الله، وعمل من الخير ما يزن ذرة**»(٩).

د- وأخرج البخاري ومسلم عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير**» قال أبو عبد الله: قال أبان: حدثنا قتادة؛ حدثنا أنس، عن النبي ﷺ: «**من إيمان**» مكان «**من خير**»(١٠).

والبُرَّة: هي القمعة، والذرة: هي أقل الأشياء الموزونة، وقيل: هي الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس، مثل رؤوس الإبر، ويقال: إن أربع ذرات= وزن خردلة.

وقال ابن حجر: «فيه دليل على اشتراط النطق بالتوحيد، أو المراد بالقول- هنا- القول النفسي، فالمعنى: من أمر بالتوحيد، وصدق، فالإقرار: لابد منه،

---

(٨) صحيح أبي عبد الله البخاري بشرح الكرماني، ج ١، ط ٢، المطبعة البهية المصرية بمصر، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م، ص ١١٧ - ١١٨.

(٩) فتح الباري، ج ١، ص ٧٣.

(١٠) هذا لفظ البخاري: فتح الباري، ج ١، رقم ٤٤، ص ١٠٣ - إكمال المعلم، ج ١، رقم ٣٢٥، ص٥٧٩، والحديث رواه ابن أبي عاصم، في السنة، ومن ظلال الجنة، رقم ٨٤٩، ص ٤٠١ - ٤٠٢ بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم، وانظر تخريجه هناك، ورواه الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج ٢، رقم ٢٠٦٣، ص ٩٣٥ - ٩٣٦ بإسناد صحيح.
ورواه أحمد في المسند، ج ١٠، رقم ١٢٠٩٢، ص ٣٧٣ بإسناد صحيح، وبرقم ١٢٧٠٨، ص ٥٥٧ بإسناد صحيح.
ورواه في المسند ج ١١، رقم ١٣٨٦٣، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ بإسناد صحيح. ورواه ابن أبي شيبة في: كتاب الإيمان بإسناد صحيح، على شرط الشيخين، رقم ٣٥، ص ١١.
ورواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، ص ٢٩٢ ورواه غيرهم.

فلهذا أعاده في كل مرة، (...) فإن قيل: فكيف لم يذكر الرسالة؟

فالجواب: أن المراد: المجموع، وصار الجزء الأول علما عليه، كما تقول: قرأت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: السورة كلها»[١١].

ونقل الكرماني عن النووي أن في الحديث دلالة على أنه «لا يكفي في الإيمان معرفة القلب، دون الكلمة، ولا الكلمة من غير اعتقاد»[١٢].

ورواية البخاري للحديث تثبت أن الخير المذكور هو (الإيمان).

فاشترط هنا للخروج من النار:

١- قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٢- أن يكون معه أصل التوحيد.

٣- أن يكون في قلبه من الخير - الذي يزيد على أصل التوحيد - ما يزن ذرة.

ونلاحظ أنه ذكر دائما: (وفي قلبه)... خير...، إيمان... فلابد من دخول أصل الإيمان، والخير في القلب. وهذا يقتضي تربية هذا الإيمان فيه وموافاة الله به.

هـ- وأخرج مسلم - في حديث الشفاعة الطويل - عن أنس، قال: حدثنا محمد ﷺ، قال: (وساق الحديث، وفيه):

«فأوتي، فأقول: أنا لها، فأنطلق، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن، يلهمنيه الله، ثم أخر له ساجدا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: «رب، أمتي، أمتي»، فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: «أمتي، أمتي»، فيقال لي: انطلق، فمن كان

---

(١١) فتح الباري، ج ١، ص ١٠٤، والمعطى السابق كذلك.

(١٢) صحيح أبي عبد الله البخاري بشرح الكرماني، ج ١، ط ٢، ص ١٧٦.

في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: «يا رب أمتي، أمتي»، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل».

وفي رواية ثانية لمسلم «..ثم أرجع إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: «يا رب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله»، قال: ليس ذلك لك، أو قال: ليس ذاك إليك، ولكن: وعزتي، وكبريائي، وعظمتي، وجبريائي، لأخرجن من قال: لا إله إلا الله»[١٣].

ورواه ابن أبي عاصم وفي آخره: «فأقول: يا رب، يا رب»، فيقول: أخرج من كان في قلبه أو في شيء، قال: فأخرج أناسا من النار يقال لهم: الجهنميون، وإنهم لفي الجنة»[١٤].

قال النووي: «وفي هذا الحديث دلالة لمذهب السلف وأهل السنة ومن وافقهم في أن الإيمان يزيد وينقص...»[١٥].

قلت: لاحظ وجود الإيمان في القلب، في حده الأدنى، فلابد من تربيته في القلب، لنوافي الله به.

و- أخرج مسلم عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة

---

(١٣) إكمال المعلم، رقم ١٩٣، ج ١، ص ٥٨٠ والجبرياء: من الجبروت، وهو العظمة، وكثرة الإحسان، والحديث رواه أحمد في المسند، ج ١٠، رقم ١٢٤٠٨، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ بإسناد صحيح، باختلاف في ألفاظ ، ورواه ابن خزيمة في التوحيد، ص ٢٥٣، ٢٩٣.

(١٤) ابن أبي عاصم: كتاب السنة، قال الألباني، في ظلال الجنة، إسناده صحيح على شرط الشيخين.. رقم ٨١٦، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ وروى مثل الرواية الثانية لمسلم، برقم ٨٢٨ قال الألباني: حديث صحيح.. ص ٣٨٧.

(١٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٣ (مناهل العرفان) ص ٦٣.

مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا»(١٦).

قال النووي: «فيه دلالة لمذهب أهل الحق أن كل من مات غير مشرك بالله تعالى؛ لم يخلد في النار، وإن كان مصرا على الكبائر»(١٧).

قلت: في حديث أنس السابق، اشترط شرطين، هما:

١- الإقرار بالتوحيد.

٢- أن يكون في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان.

وفي هذا الحديث اشترط أن يموت الإنسان الذي هو من أمة محمد ﷺ.. «**لا يشرك بالله شيئا**» أي: قد حقق التوحيد، وبرئ من الشرك.

وهنا يجب أن نتنبه لضرورة الإيمان والتوحيد في الإنسان المسلم، وقد اشترط شرطين في الحديث الآتي.

ز- أخرج أحمد في المسند عن أبي هريرة قال: قلت للنبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

فقال النبي ﷺ: «**لقد ظننت، يا أبا هريرة، ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصة من قبل نفسه**»(١٨).

ورواه أيضا، وفيه: «**لقد ظننت لتكونن من أول من سألني؛ مما رأيت من حرصك على العلم، شفاعتي لمن يشهد أن لا إله إلا الله، مخلصا، يصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه**»(١٩).

---

(١٦) إكمال المعلم، ج ١، رقم ١٩٩، ص ٥٨٨، ورواه ابن خزيمة في التوحيد، ص ٢٧٣، وانظر: كتاب السنة وظلال الجنة، أرقام ٨١٨ – ٨٢٥.

(١٧) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٣، ص ٧٥ وادرس (باب الشفاعة لأهل الكبائر) في: الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج ٢، ص ٩٢٥ – ٩٤٥.

(١٨) إسناده حسن، المسند، ج ٩، رقم ٨٨٤٤، ص ٢٥.

(١٩) إسناده حسن، المسند، ج ٩، رقم ١٠٦٦١، ص ٥٤٦.

وأخرجه البخاري ولفظه: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه**»[٢٠].

وأخرجه في الرقاق ولفظه: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قبل نفسه**»[٢١].

وأخرجه الطبري اللالكائي وفيه: «**إن أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله، مخلصًا من قلبه**»[٢٢].

في هذا الحديث شروط هي:

١- أن يشهد وأن يقول: لا إله إلا الله.

٢- أن يكون مخلصا من قلبه، وخالصا من قبل نفسه.

٣- أن يكون مستيقنا بها؛ يعلمها علم اليقين، عاقدا قلبه عليها.

٤- الصدق في قولها.

قلت: وهناك شروط أخرى لقول لا إله إلا الله.

ح- أخرج مسلم عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[٢٣].

فهذا شرط العلم بها المنافي للجهل بمضمونها.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة، في آخره (فقال) عند ذلك: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد، غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة**».

وفي رواية له: فقال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول**

---

(٢٠) فتح الباري، ج ١، كتاب العلم، رقم ٩٩، ص ١٩٣.

(٢١) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٥٧٠، ص ٤١٨، والحديث صححه ابن حبان، انظر، فتح الباري، ج١١، ص ٤٤٣.

(٢٢) الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج ٢، رقم ٢٠٤٥، ص ٩٢٧.

(٢٣) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٢٦، ص ٢٥٣.

الله، لا يلقى الله بهما عبد، غير شاك، فيحجب عن الجنة»(٢٤).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة، من حديث، فقال: يا أبا هريرة، وأعطاني نعليه، قال: **«اذهب بنعلي هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقنا بها قلبه، فبشره بالجنة...»**(٢٥).

فهذا شرط اليقين المنافي للشك.

فتأمل في هذه الشروط وهي: الإخلاص، والصدق، والعلم، واليقين... تجد أنها كلها شروط قلبية، تقتضي تربيتها في القلب.

وبها نجد شروطا أخرى هي: التحقق بالتوحيد، والبراءة من الشرك...، والعمل بمقتضى لا إله إلا الله، بهذا يصبح الإنسان أهلا لشفاعة الشافعين، إذا مات على ذلك، ثم تأمل ما يأتي:

ط- أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، من حديث رؤية ربنا يوم القيامة، وهو حديث طويل طيب، وفيه: **«ثم يوضع الصراط بين ظهري جهنم، والأنبياء بناحيتيه، قولهم: اللهم سَلِّم سَلِّم، اللهم سلم سلم، وإنه لَدَحْضُ مَزَلَّةٍ، وإنه لكلاليب وخطاطيف (...) فأكون أنا وأمتي لأوَّل من مر، أو أوَّل من يجوز، قال: فيمرون عليه مثل البرق، ومثل الريح، ومثل أجاويد الخيل والركاب، فَنَاجٍ مُسَلَّم، ومخدوش مُكَلَّم(مجروح) ومكدوس في النار، فإذا قطعوه، أو فإذا جاوزوه – فما أحدكم في حق، يعلم أنه حق له، بأشد مناشدة منهم في إخوانهم الذين سقطوا في النار، يقولون: أي، رب، كنا نغزو جميعا، ونحج جميعا، ونعتمر جميعا، فبم نجونا اليوم وهلكوا؟**

قال: فيقول الله– عز وجل: انظروا من كان في قلبه زنة قيراط من إيمان فأخرجوه، قال: فيخرجون، قال: ثم يقول: من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه» قال: فيخرجون. قال: ثم يقول أبو سعيد: بيني وبينكم

---

(٢٤) المصدر السابق، ج ١، رقم ٢٧، ص ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢٥) المصدر السابق، رقم ٣١، ص ٢٦٣ – ٢٦٤.

كتاب الله. قال عبد الرحمن: وأظنه يعني قوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال: «فيخرجون من النار، فيطرحون في نهر يقال له: نهر الحيوان، فينبتون كما تنبت الحب في حميل السيل، ألا ترون ما يكون من النبت إلى الشمس يكون أخضر، وما يكون إلى الظل يكون أصفر، قالوا: يا رسول الله، كأنك كنت قد رعيت الغنم، قال: أجل، قد رعيت الغنم»(٢٦).

وأخرجه البخاري عن أبي سعيد، وفيه: «وإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم، يقولون: ربنا، إخواننا الذين كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فيقول الله- تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم على النار، فيأتونهم، وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا» قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني؛ فاقرؤوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] «فيشفع النبيون، والملائكة، والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقواما قد امتحشوا، فيلقون بنهر بأفواه الجنة، يقال له: ماء الحياة، فينبتون في حافتيه، كما تنبت الحبة في حميل السيل(...).

فيخرجون كأنهم اللؤلؤ، فيجعل في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه»(٢٧).

---

(٢٦) حديث صحيح الإسناد، المسند، ج ١٠، رقم ١١٠٦٩، ص ٥٦، ٥٧ وقد رواه مرارا في هذا الجزء، مثلا رقم ١١٤٧١ ورقم ١١٨٣٧، ص ٢٩٧ بإسناد صحيح، وهي رواية مسلم التي ذكرتها فوق.

(٢٧) فتح الباري، ج ١٣، كتاب التوحيد، رقم ٧٤٣٩، ص ٤٢٠ – ٤٢٢.

ورواه مسلم عن أبي سعيد، وفيه: «ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم»، قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «دَحْضٌ مَزَلَّة، فيه خطاطيف وكلاليب، وحسك(...) فيمر المؤمنون؛ كطرف العين وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار؛ فو الذي نفسي بيده، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله، في استقصاء الحق من المؤمنين لله، يوم القيامة، لإخوانهم الذين في النار؛ يقولون: ربنا، كانوا يصومون معنا، ويصلون، ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا، ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا، في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها من أمرتنا أحدا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا،(...) فيقول الله- عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين؛ فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حُمَمًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل(...) قال: فيخرجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله، الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه» وساق الحديث إلى قوله: «فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[٢٨].

(٢٨) إكمال المعلم، ج ١، رقم ١٨٣، ص ٥٤٦ - ٥٥٣.

قلت: قوله: «بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه» أي: زيادة على أصل التوحيد والإيمان، وعدم الشرك بالله، بدليل:

ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة – من حديث – وفيه: «**حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا، ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل..** » الحديث (٢٩).

أقول: نلاحظ في الأحاديث السابقة، عن أبي سعيد، وأبي هريرة أن خلقا كثيرا دخلوا النار، وهم يصومون ويصلون، ويحجون، ويعتمرون، ويغزون، ويعملون، ويسجدون لله، ولم يخرجهم من النار إلا إيمان القلب، ووجود الإيمان والخير، والتوحيد في القلب، وتجريدهم التوحيد، والبراءة من الشرك.. لكنهم فعلوا كبائر لم يتوبوا منها، ولم يغفر الله لهم، فدخلوا النار، ثم خرجوا بشفاعة الشافعين.

فهنا توحيد، وإيمان، في القلب، وسجود لله، وصيام، ..ولم يخرجوا من النار إلا بشرط أن يوجد في قلوبهم إيمان، وخير، وتوحيد، وأن يقروا، ويشهدوا بالتوحيد.

إذن، تربية الإيمان في القلب نجد لها – هنا – مسوغا مهما وضروريا.. لابد منها للنجاة النهائية من النار.

فهذا الحديث بروايتيه يقرر أربعة شروط:

١– من كان لا يشرك بالله شيئا.

(٢٩) فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٤٣٧، ص ٤٢٠.

٢- من يشهد أن لا إله إلا الله.

٣- من يسجد لله، وفيه أثر السجود.

٤- من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وخير.

والخير المذكور في الحديث هو شيء زائد على أصل الإيمان، والتوحيد، من عمل صالح، أو ذكر خفي، أو عمل من أعمال القلب، من شفقة على مسكين، أو خوف من الله- تعالى- ونية صادقة، ويدل عليه قوله في الرواية الأخرى: «**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يوزن كذا**»، ومثله حديث: «**فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط**»، فهؤلاء ليس معهم شيء زائد على أصل الإيمان إلا أثر السجود.. فتفرد الله بعلم ما تكنه القلوب، ورحم من ليس عنده إلا أصل الإيمان، وضرب بمثقال الذرة المثَلَ لأقل الخير، وفي هذا الحديث دليل على أنه لا ينفع من العمل إلا ما حضر له القلب، وصحبته نية، وفيه دليل على زيادة الإيمان ونقصانه، وهو مذهب أهل السنة[٣٠].

والدلالة التربوية من هذه الأحاديث الصحيحة هي ضرورة تربية الإيمان والتوحيد في القلب، حتى نوافي الله بقلوب فيها هذا الإيمان والخير، وكلما زاد إيماننا، بتربيتنا له، ازددنا قربا من الله، وربما لا يدخلنا النار أبدا برحمته.

ي- أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم** – أو قال: بخطاياهم – **فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما، أذن بالشفاعة، فجيء بهم، ضبائر، ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل**..»[٣١].

---

(٣٠) ملخصا من: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٣، ص ٣١ – ٣٢ (مناهل العرفان) وهو كله منقول عن القاضي عياض، في: إكمال المعلم، ج ١، ص ٥٦٥ – ٥٦٧.

(٣١) إكمال المعلم، ج ١، رقم ١٨٥، ص ٥٥٥.

ضبائر: جماعات في تفرقة.

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله: قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن قوما يخرجون من النار، يحترقون فيها، إلا دارات وجوههم، حتى يدخلون الجنة**»(٣٢).

قلت: هذه الأحاديث تؤصل أصلا عقديا مهما، قال عياض: «وذكر في هذه الأحاديث؛ في المعذبين من المؤمنين، «**أن النار لا تأكل أثر السجود**»، وفي الحديث الآخر: «**تحرم صورهم على النار**» دليل على أن عذاب المؤمنين المذنبين بالنار خلاف عذاب الكافرين، وأنها لا تأتي على جميعهم، ألا تراه كيف قال: (**امتحشوا**) وذكر أنها لا تأكل منهم ما ذكر، إما إكراما لمواضع السجود، ولعظم مكانه من الإيمان، والخضوع إلى غايته لله- تعالى- أو لكرامة تلك الصورة التي خلق آدم والبشر عليها، وفضلهم بها من بين سائر خلقه، وخص أهل الإيمان بهذه الفضيلة، وذكره الصور ودارات الوجوه في الأحاديث الأخر يدل بأن المراد بأثر السجود: في الوجه(...) وقد ذكر في الحديث: «**أن منهم من تأخذه النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه**»، فدل أن عذاب المؤمنين فيها بخلاف عذاب غيرهم، وقوله، في أهل الذنوب: «**فأماتهم الله إماتة..**» وقال بعض المتكلمين ويحتمل معنيين:

أحدهما: أن المذنبين: يميتهم الله موتا حقا حتى لا يحسون النار، فيكون عقابهم: حبسهم في النار، عن دخول الجنة كالمسجونين، وأما أهل النار- الذين هم أهلها- فهم أحياء حقيقة، ولقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ [الأعلى: ١٣]؛ أي: يستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣] حياة ينتفع بها وهي في الكفار؛ لقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١١].

الوجه الثاني: أن الإماتة لأهل الذنوب، ليست على الحقيقة؛ لكن غيب

---

(٣٢) المصدر السابق، رقم ١٩١، ص ٥٦٦. ودارات: جمع دَارَة، وهي ما يحيط بالوجه من جوانبه.

عنهم إحساسهم للآلام، بلطف منه، ويجوز أن تكون آلامهم أخف كالنوام، وقد سمى الله النوم؛ لإعدامه الحس، وفاة(...) لكنه قد قال: «**حتى إذا كانوا فحما**» فدل أن النار، مع هذا، تعمل في أجسادهم، أو بعضها..»[٣٣].

قلت: وقد عقب النووي على كلام عياض، فقال: «وأما قوله ﷺ: «**ولكن ناس أصابتهم النار**»، إلى آخره فمعناه: أن المذنبين من المؤمنين، يميتهم الله تعالى إماتة، بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله- تعالى- وهذه الإماتة: إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم يميتهم، ثم يكونون محبوسين في النار، من غير إحساس، المدة التي قدرها الله- تعالى- ثم يخرجون من النار موتى، قد صاروا فحما، فيحملون ضبائر، كما تحمل الأمتعة، ويلقون على أنهار الجنة، فيصب عليهم ماء الحياة، فيحممون(...) ثم تشتد قوتهم بعد ذلك، ويصيرون إلى منازلهم، وتكمل أحوالهم، فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه، وحكى القاضي عياض- رحمه الله- فيه وجهين.. فهذا كلام القاضي، والمختار: ما قدمناه، والله أعلم»[٣٤].

قلت: والمختار أيضا: أن أعضاء السجود كلها لا تأكلها النار.

هذه جملة من الأحاديث الصحيحة التي تتعلق بأن الذي في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، والخير، لا يدخل النار دخول خلود.

كلها تبرهن على ضرورة تربية الإيمان في القلب حتى تنجو من النار، سواء أولا، أو ثانيا، بشفاعة الشافعين، وبرحمة الله.

ثانيا: القواعد العقدية الكلية المستنبطة من الأحاديث السابقة:

هذه القواعد العقدية أركزها فيما يلي:

أ- إن جماعة من مذنبي أمة سيدنا محمد ﷺ يعذبون بالنار، ثم يخرجون

---

(٣٣) المصدر السابق، ص ٥٦٠ – ٥٦١.

(٣٤) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٣، ص ٣٨، وانظر: فتح الباري، ج ١١، ص ٤٦٢.

منها بالشفاعة والرحمة، قال عياض: «وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحتها في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف الصالح، ومن بعدهم من أهل السنة عليها، ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها، وتأولت الأحاديث الواردة فيها، واعتصموا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار، واحتجوا بقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وبقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] وهذه الآيات: في الكفار، وتأولوا أحاديث الشفاعة في زيادة الدرجات، وإجزال الثواب».

وألفاظ الأحاديث..تدل على خلاف ما ذهبوا إليه، وأنها في المذنبين، وفي إخراج من استوجب، **لكن الشفاعة بمجموعها على خمسة أقسام:**

أولها: مختصة بنبينا ﷺ، وهي الإراحة من هول الموقف، وتعجيل الحساب(...).

الثانية: في إدخال قوم الجنة دون حساب، وهذه أيضا وردت لنبينا محمد ﷺ (...).

الثالثة: قوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبينا ﷺ ومن شاء الله له أن يشفع(...).

الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين، فقد جاء في مجموع هذه الأحاديث إخراجهم من النار بشفاعة نبينا ﷺ، وغيره من الأنبياء والملائكة، وإخوانهم من المؤمنين، ثم يخرج الله كل من قال: لا إله إلا الله، كما جاء في الحديث، حتى لا يبقى فيها إلا الكافرون، ومن حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود(...).

والشفاعة الخامسة: هي في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها(...).

وعرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح النبي ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: «إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبي ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين»؛ فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف

الحساب، وزيادة الدرجات، ثم كل عاقل معترف بالتقصير، محتاج إلى العفو، غير معتد بعمله، مشفق أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب، وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف الصالح»(٣٥).

وقال ابن أبي عاصم: «والأخبار التي روينا عن نبينا ﷺ- فيما فضله الله به من الشفاعة، وتشفيعه إياه فيما يشفع فيه- أخبار ثابتة، موجبة بعلم حقيقة ما موت، على ما اقتصصنا، والصاد عن الأخبار الموجبة للعلم، المتواترة: كافر»(٣٦).

ثم قال: «والأخبار التي حواها كتابنا هذا؛ من ذكر الخارجين من النار بعد كونهم فيها، وما نالهم من أليم عذاب خالقهم، بقدر ما استحقوا، ثم بِجِيرَة الرؤوف بفضل رحمته؛ أخبار ثابتة توجب العلم والإيمان بصحة ما أدت، والتصديق به، وإلى الذي من علينا بالإيمان والتصديق به، ووفقنا له: نبتهل أن يجعلنا من المتقين الذين ينجيهم منها بِطَوْلِه ومنِّه، فإن أدخلناها بِجُرْمِنَا، الذي استحققنا به دخولها، أن يجعلنا ممن تدركه رحمته، فيخرجه منها، ولا يجعلنا قرناء شياطينها، ولا الكفار الجاحدين له»(٣٧).

وأخرج الطبري اللالكائي «عن حنبل، قال: قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل: ما يروى عن النبي في الشفاعة؟ فقال: هذه أحاديث صحاح؛ نؤمن بها، ونقر، وكل ما روي عن النبي بأسانيد جيدة: نؤمن بها ونقر، قلت له: وقوم يخرجون من النار؟

فقال: نعم- إذا لم نقر بما جاء به الرسول ودفعناه؛ رددنا على الله أمره، قال الله- عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

---

(٣٥) إكمال المعلم، ج١، ص٥٦٥ -٥٦٦، ونقله كله النووي في شرح صحيح مسلم، ج ٣، ص٣٥، ٣٦.
(٣٦) ابن أبي عاصم: كتاب السنة، ص ٣٩١.
(٣٧) المصدر السابق، ص ٤٠٥.

قلت: والشفاعة؟

قال: كم حديث يروى عن النبي ﷺ في الشفاعة والحوض! فهؤلاء يكذبون بها، ويتكلون، وهو قول صنف من الخوارج، (...) والحمد لله الذي عدل عنا ما ابتلاهم به»(٣٨).

قلت: هذا ما نعتقده ونؤمن به تفصيلا، فارجع إلى توحيد ابن خزيمة، ومعارج الحكمي(٣٩).

ب- إن تعذيب الموحدين - في النار- بخلاف تعذيب الكافرين؛ لاختلاف مراتبهم؛ من أخذ النار: بعضهم إلى ساقه، وأنها لا تأكل أثر السجود، وأنهم يموتون فيها إماتة فيكون عذابهم إحراقهم، وحبسهم عن دخول الجنة سريعا، وأولا، فيصيرون كالمسجونين، ثم يخرجون على التفصيل المذكور سابقا، وقد بينا هذا الأصل.

جـ- أن الإيمان يتبعَّض، ويتجزأ، ويزيد، وينقص، كما بينا هذا في فصل سابق، وأحاديث هذا الفصل برهان يقيني على ذلك، وما دام يزيد فإنه يتربى، أي: ينمي ويعظم، ويزود..والمهم: تربيته – في القلب.

د- أن الشفاعة تكون لمن يشهد بالتوحيد، ويقر بالإيمان، ولم يشرك بالله شيئا، وأخلص، واستيقن، وصدق، وعلم – بلا إله إلا الله محمد رسول الله، وكان في قلبه من الإيمان والخير شيء زائد على هذا الأصل، فهذا هو التوحيد الذي ينجي من النار، ورحمة الله وسعت كل شيء.

---

(٣٨) الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج ٢، ص ٩٤٥.

(٣٩) يدرس هذا المعتقد من المصدر السابق، ومن: ابن خزيمة: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب، ص ٢٤١ – ٣٢٢ كتاب الإيمان من صحيح مسلم، انظر الأبواب من ٨١ – ٨٨ (من الحديث ١٨٢ – ٢٠٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان، ج ١، ص ٢٩٣– ٢٩٩، ص٤٨٠ – ٥٧٩، وكتاب السنة لابن أبي عاصم (باب في ذكر شفاعة النبي ﷺ) ص ٣٥٧ – ٤٠٥ – الشيخ حافظ بن أحمد حكمي: معارج القبول.. ج ٢، ص ٢٤٨ – ٢٥٤ (في الشفاعة والمقام المحمود).

فمن مات على ذلك، في قلبه الإيمان والخير والتوحيد، والسجود لله، وإن لم يعمل عمل خير زائدا على هذا الأصل، فإن الله يخرجه من النار ويدخله الجنة، بعد أن يعذبه بذنوبه الكبائر، إذا لم يرحمه، أو يغفر له ابتداء، وهذا يدل بالقطع على أن الذنوب والخطايا تضر بالإيمان، وتدخل النار..نسأل الله أن يدخلنا الجنة مع أول الداخلين من غير عذاب سابق، وإن أدخلنا النار، بجرم ارتكبناه، فنسأله أن يخرجنا منها، آمين.

هـ- وفي كلا الحالين لابد من تربية الإيمان والخير في القلب، فدخول الجنة- في النهاية، والبداية- مترتب على تربية الإيمان، والتوحيد، والخير، في القلب، وهو ما قد بيناه في فصل (تربية الإيمان وتجديده في القلب) فارجع إليه من جديد.

ثالثا: أسئلة لتعميق الفهم:

١- ما الأصول العقدية المستنبطة من أحاديث هذا الفصل؟

٢- ما الدلالة التربوية لهذه الأحاديث؟

٣- ما علاقة هذا الفصل بفصل تربية الإيمان في القلب؟ هل يعتبر هذا مسوغا لتربية الإيمان في القلب، والاهتمام العميق بذلك؟

٤- كم حديثا ورد فيه لفظ القلب في هذا الفصل؟ وما دلالة ذلك؟ وكم مرة ورد لفظ القلب في كل روايات هذا الفصل؟

٥- أعد قائمة بشروط لا إله إلا الله، وشروط الشفاعة، كما بينتها أحاديث هذا الفصل، ثم انظر في مدى تحققك بها (البراءة من الشرك - الإخلاص - العلم - الصدق، اليقين - الإقرار، تحقق القلب..).

٦- ما دلالة هذه الأحاديث في موقفك القلبي نحو سيدنا محمد ؟ كم هي أنواع الشفاعة التي جعلها الله لنبينا ﷺ ؟

٧- هل ترجو الشفاعة؟

٨- كم كتابا أوصيتك أن تدرس فيها أصول عقيدة الشفاعة؟ ما أسماؤها؟ هل قرأت ودرست منها شيئا؟

٩- ما الأصل الذي يجب أن تخرج به من دراستك لهذا الفصل؟ أعني: ما يلزمك من عمل فوري؟

١٠- في ضوء هذا الفصل: قم بدراسة الحديث الآتي:

أخرج ابن ماجه عن حذيفة بن اليمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يَدْرُسُ الإسلام كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثوب، حتى لا يدري: ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك؟ ولا صدقة، وليُسْرَى على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها»**.

فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله – وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة؟

فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة؛ فقال: يا صلة، تنجيهم من النار (ثلاثا)[٤٠].

فهل قوله: «**تنجيهم من النار**» يعني: أنهم لا يدخلونها؟

وما شروط خروجهم منها؟

وهل جهلهم بالصلاة والصيام والزكاة والنسك، مع قولهم: لا إله إلا الله، كما قالها آباؤهم، يعين عذرا لهم، فلا يخلدهم الله في النار؟

---

(٤٠) قال البوصيري: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، رواه مسدد في مسنده، عن أبي عوانة، عن أبي مالك، بإسناده، ومتنه، ورواه الحاكم في المستدرك، من طريق أبي كريب، عن أبي معاوية به، وقال: صحيح على شرط مسلم. وانظر: مصباح الزجاجة، في زوائد ابن ماجه، ج ٣، رقم ٤٠٤٩ (١٤٢٩)، ص ٢٥٤ – ٢٥٥، وقال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٨٩، ص ٣٢٦، وفي الصحيحة برقم ٨٧، وفي صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط ٣، رقم ٨٠٧٧، ص ١٣٤٢. ووَشْيُ الثوب: نَقْشُه.



الفصل الخامس والعشرون

تربية
القلوب المتآلفة

تربية القلوب المتآلفة

أولا: مدخل تفسيري:

أ- كنت أردت أن أجعل محتوى هذا الفصل جزءا أساسيا في شرح حديث (تربية القلوب المعلقة في المساجد) عند قول النبي ﷺ: «**ورجلان تحابا في الله؛ اجتمعا على ذلك، وتفرقا عليه**».

وذلك لأن نتيجة الحب في الله والموالاة فيه، هي تماسك المتحابين، اجتماعيا، وتآلفهم، وتضامنهم، ولكني وجدت أنه من الأفضل أن أجعل هذا الموضوع فصلا مستقلا؛ لأن التخلق بخلق التماسك الاجتماعي، هو هدف تربوي رئيسي، في التربية الاجتماعية الإسلامية، التي تستهدف إخراج الإنسان من نوازع الأثرة والأنانية، والانعزالية الفردية، وإدماجه في زمرة اجتماعية يحبها، وينتمي إليها، ويتآخى معها، ويتماسك معها، ويتعاون، ويتآلف لإنجاز أهداف مشتركة، محققا معها الشرط الاجتماعي الأساسي للتغيير الاجتماعي وإحداث حراك اجتماعي وسياسي إيجابي في المجتمع والتاريخ.

ب- وتحقيق هذه الأهداف التربوية له أساليب تربوية واجتماعية عديدة تناولتها في كتب أخرى، لكن أهم أساليب اكتساب التماسك والتآلف الاجتماعي هو الاندماج - معا - في عمل مشترك؛ فأن أتشارك معك في صلاة، وأكل، وقراءة، وسفر، وعمل تطوعي اجتماعي، أو حملة لإنجاز هدف عام... إلخ، معناه: أنني أندمج معك، وأتماسك معك، وأتعلم معك، كيف نخرج من حدود ذواتنا، لنندمج في فعل اجتماعي مشترك، نحقق به - معا - وجودنا الاجتماعي الفاعل في التاريخ، فالتشارك الاجتماعي، في أعمال واقعية، ينعكس في تآلف قلبي، وتحاب، وتشارك وجداني، عاطفي، وتدين اجتماعي:

فالأول: يزيد في الثاني.

والثاني: يحفز الأول، ويدعمه، ويقويه.

جـ- وهذا هو الشرط الأساسي لوجود (أمة) و(مجتمع) إسلامي، أعني: الموالاة والتماسك، والتآلف، فقد يوجد أفراد مؤمنون كثيرون جدا، لكنهم لا يشكلون (أمة)، ولا (مجتمعا) إلا إذا (أحب) بعضهم بعضا، ومال بعضهم إلى بعض، (ووالى) بعضهم بعضا، ودخلوا في (زمرة اجتماعية) وعمل مشترك، يحققون به وجودهم الاجتماعي في التاريخ.

ولهذا كانت العبادات - التي هي أركان- كلها ذات منحنى اجتماعي، لدعم هذه الخاصة الاجتماعية في الجماعة المسلمة؛ فالشهادتان لابد أن نشهد بهما أمام آخرين، وأن ندعو الآخرين لهما، والصلاة جماعة: واجب، يومي، وأسبوعي، والصوم: لغة اجتماعية ملزمة لكل مسلم، على مدى شهر كامل؛ يمسكون معا، ويفطرون معا، ويصلون التراويح، معا، ويتزاورون، ويخرجون زكاة الفطر معا، لإغناء الفقراء في يوم العيد، والزكاة فريضة ذات بعد اجتماعي راسخ رئيسي، والحج- في بعض جوانبه- مؤتمر اجتماعي سنوي لجماعة المسلمين، فممارسة هذه العبادات هي في وقت واحد تربية اجتماعية للمؤمنين فضلا على أنها عبادة لله وحده.

ولهذا كانت الأخلاق الاجتماعية من أهم ما أمر به الإسلام مثل الإحسان إلى الجار، وصلة الرحم، والإنفاق على المحتاج، وتجنب داء الأمم: الحسد والبغضاء، والحقد.. إلخ، وجاءت السور المكية الأولى توجه المسلمين إلى ممارسة البعد الاجتماعي للدين، كما يمارسون البعد التوحيدي فيه، بل جعل الله قهر اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين، تكذيبا بالدين..إلخ.

ولهذا جعل الله الموالاة شرطا في التوحيد، ولذوق حلاوة الإيمان، ولهذا جاءت أحاديث هذا الفصل.

وكلها تستهدف إدخال المسلمين في عمل اجتماعي مشترك، لا يكون فيه تنازع، ولا تخالف، مما يؤدي إلى تدعيم وتقوية روح التماسك، والتآلف الاجتماعي بين المسلمين، ليشكلوا أمة متماسكة تؤدي رسالتها ودورها في العالم والتاريخ.

د- ومن هنا ندرك، ونفهم لماذا كان الرسول ﷺ يركز في كل صلاة جماعة على هذا المعنى، أعني: تسوية الصفوف، والتراص في الصفوف، وعدم الخلخلة فيها، كما سيأتي؛ لأن الخلخلة وعدم التراص، هي تخالف ظاهري، قد يؤدي إلى اختلاف القلوب والوجوه، والأرواح- كما سيأتي- فالرسول ﷺ، حساس جدا لأي مؤثر سلبي على تماسك المسلمين، وتآلفهم..القلبي، والاجتماعي؛ لأن القلبي هو أساس الاجتماعي، والظاهر يؤثر في الباطن، وبهذا نفسر أيضا لماذا شدد الرسول ﷺ على الاجتماع على قراءة القرآن، وعلى التعلم، وعلى ذكر الله، في حلقات – جماعية، مشتركة، فإذا حدث تجادل، وتنازع، واختلاف، فالأمر النبوي هنا: هو الانفضاض الفوري، منعا لسريان الاختلاف الظاهر إلى القلوب، فيحدث التخلخل الاجتماعي، مما يؤدي إلى (الهلاك) الاجتماعي والحضاري، كما سأبين ذلك في هذا الفصل.

إن السبب هو أن النبي ﷺ يريد بناء (صف) اجتماعي (متماسك) متآخ، متآلف، متحاب، منسجم اجتماعيا؛ لأنه منسجم قلبيا، وعقديا، وعاطفيا، وخلقيا، ويريد أن يمنع أي تخالف ظاهري؛ لأنه يؤدي إلى تخالف في القلوب.

إنه يريد بناء (زمرة القلب الواحد)؛ ليدخلوا الجنة في الآخرة مع الداخلين.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على إثرهم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم**

ولا تباغض، ولا تحاسد..» الحديث[١].

وفي رواية لمسلم: «**لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا**»[٢].

هـ- ولإيجاد زمرة القلب الواحد، في الواقع الاجتماعي الراهن، يلزم الدخول والاندماج في أعمال اجتماعية مشتركة، تدعم التآلف القلبي، مثل الاجتماع على طعام مشترك، وعلى مدارسة مشتركة، وعلى معاونة من يستحق المعونة، ومن هذه الأعمال:

١- الاجتماع في المساجد لصلاة الجماعة، ولقراءة القرآن، بالروح المذكورة في أحاديث هذا الفصل.

٢- التجمع على قراءة القرآن في البيوت، أو مدارسته، أو ذكر الله..بالروح التي ذكرها رسول الله ﷺ.

و- وفي هذا الفصل سأترك أحاديث النبي ﷺ تنطق بالحق في قلوبنا مع بعض تفسير، حين أرى ذلك لازما.

والمهم أن نتأمل هذه الأحاديث، ونعمل بها، بروح هذا التقديم، الذي يفسر الاهتمام بالاجتماع المتآلف المتراص في الصلاة، وفي حلقات القرآن والعلم، والذكر.

ثانيا: التماسك في صلاة الجماعة:

أ- أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه والطبراني عن أبي مسعود الأنصاري قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «**استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنهى، ثم**

(١) انظر: صحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ٢٥٦٥، ص ٥٠١، ٥٠٢.

(٢) المصدر السابق، رقم ٢٥٦٦، ص ٥٠٢، وانظر: إكمال المعلم؛ ج٨، رقم ٢٨٣٤ (كتاب الجنة/ باب رقم ٦)، ص ٣٦٧.

الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال أبو مسعود: فأنتم اليوم أشد اختلافا، هذا لفظ مسلم(٣).

وفي رواية أحمد: قال وكيع: ويقول: «**استووا ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولو الأحلام والنهى..**»(٤).

وأخرجه الطبراني بروايات، عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**».

وفي رواية: .. يمسح مناكبنا ويقول: «**استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»(٥).

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ، يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «سووا المناكب، وأقيموا الصفوف، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»(٦).

ب- في هذا الحديث ما يلي:

١ - أن النبي ﷺ كان يمسح مناكب الصحابة قبل الدخول في الصلاة، أي: يسوي مناكبنا في الصفوف ويعدلنا فيها.

وقال عياض: «يعدلنا ويسوينا»(٧). وهذا معنى: يقيم مناكبنا، أي: يسوي ويرص الأكتاف.

---

(٣) إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٤٣٢، ص ٣٤٥. وروى مثله عبد الرزاق: المصنف، ج٢، رقم ٢٤٣٠، ص ٤٥.

(٤) إسناده صحيح، المسند، ج١٣، رقم ١٧٠٣٩، ص٢٦٥ ورواه النسائي، ج٢، رقم ٨٠٧ كتاب الإمامة، باب ٢٣، ص٦٦، ورقم ٨١٢، ص ٦٨، وابن ماجه، بدون قول أبي مسعود، ج١، رقم ٨٠٣، ص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٥) رواه الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٧ (رقم ٥٨٦ - ٥٩٠) ص ٢١٤ - ٢١٥ف ورقم ٥٩٦، ص ٢١٧.

(٦) المصدر السابق، ج ١٧، رقم ٥٩٨، ص ٢١٧ - ٢١٨، وهو حديث صحيح رواه عبد الرزاق والحميدي، وابن أبي شيبة.

(٧) إكمال المعلم، ج ٢، ص ٣٤٦، وصحيح مسلم بشرح النووي، ج ٤، ص ١٥٥.

فالنبي ﷺ بنفسه، كان يسوي ويعدل الصفوف، ويقيمها بحيث لا يكون هناك (انبعاج) أو (اعوجاج) أو تقدم، أو تأخر، أو ميل في الصف، وكان يمرر كفه على أكتاف المصلين، ليرص كل واحد بإزاء جاره، وبحذائه.

قال القاضي عياض: «وهذه سنة، وقد عمل بها الخلفاء بعده، ووكلوا من يقيم الصفوف، وشدوا في ذلك، حتى إذا استوت؛ كبروا»(٨).

وأخرج مالك «عن نافع أن عمر بن الخطاب كان يأمر بتسوية الصفوف، فإذا جاؤوه، فأخبروه أن قد استوت؛ كبر»(٩).

وروي مثل ذلك عن عثمان رضي الله عنه(١٠).

وقال الترمذي: «وروي عن عمر: أنه كان يوكل رجالا بإقامة الصفوف، فلا يكبر حتى يخبر أن الصفوف قد استوت».

وروي عن علي وعثمان: أنهما كانا يتعاهدان ذلك، ويقولان: استووا، وكان علي يقول: تقدم يا فلان، تأخر يا فلان(١١).

وستأتي أحاديث النبي ﷺ في ذلك.

٢- قوله: ويقول: «**استووا، ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم**» أي: أن النبي ﷺ كان يأمر بالاستواء في الصف، أي: أن يقف كل واحد بحذاء جاره، متساويا معه في خط واحد، ليس متقدما عليه، ولا متأخرا عنه.

وهذا معنى قوله، في رواية الطبراني: «**سووا المناكب، وأقيموا الصفوف..**» أي: اجعلوا الأكتاف بحذاء بعضها، حتى تستوي الصفوف، فلا يكون فيها اعوجاج، أو انبعاج، أو ميل، أو انحراف، أو تقدم، أو تأخر، بل يكون الصف

---

(٨) إكمال المعلم، ج ٢، ص ٣٤٧.
(٩، ١٠) الإمام مالك: الموطأ، باب ١٤، ما جاء في تسوية الصفوف، حديث رقم ٤٧، ٤٨، ص ١١٦.
(١١) الترمذي: سنن، ج ١، تحت الحديث رقم ٢٥٧، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

متراصا، متساويا.. فإذا كان هناك اعوجاج، .. كان هناك اختلاف في الأجسام؛ في الظاهر، وقد نهى عنه النبي ﷺ بقوله: «**لا تختلفوا..**» لأن اختلاف الأجسام، الذي هو باختيار الناس، ينتج عنه اختلاف في القلوب، والبواطن، وهذه قاعدة كلية في التربية الاجتماعية، الاختلاف السلوكي الجسمي، الظاهر، يؤدي إلى اختلاف قلبي وتباغض، فنهى النبي ﷺ عن ذلك؛ بحسم المربي، القائد.

قال في النهاية: «أي: إذا تقدم بعضهم على بعض في الصفوف تأثرت قلوبهم، وفشا بينهم الْخُلْف»(١٢).

قال السندي: «لا تختلفوا: بالتقدم والتأخر في الصفوف، ..(فتختلف)؛ بالنصب على أنه جواب النهي، أي: اختلاف الصفوف سبب لاختلاف القلوب، بجعل الله تعالى كذلك»(١٣).

وسيأتي مزيد بيان لهذه القاعدة النفسية الاجتماعية.

٣- وقوله: «**ليلني منكم أولو الأحلام والنُّهَى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»؛ وفي رواية: (ليليني..) وهذا أمر عن النبي ﷺ بأن يليه، أي: يقرب منه، (أولو الأحلام)؛ أي: ذوو الألباب، والعقول الراجحة المتثبتون في الأمور، (والنهى) أي: العقول، جمع: نُهْيَة، وهي العقل؛ لأن العقل ينهي صاحبه عن الرذائل، والعقول: تعقله عنها، فهم ذوو العقول، والمعرفة بقوله، البالغون الفطنون الذين يمتنعون من القبائح والرذائل، المتثبتون في الأمور.

هؤلاء الذين أمر النبي ﷺ أن يقتربوا منه، ويكونوا في الصف الأول، ثم الذين يقربون منهم في هذه الأوصاف.

قال الخطابي: «إنما أمر النبي ﷺ أن يليه ذوو الأحلام والنهى؛ ليعقلوا عنه

---

(١٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج٢، ص١٤٣.

(١٣) حاشية السندي على النسائي، ج ٢، ص ٦٦ – تحت الحديث رقم ٨٠٧.

صلاته، ولكي يخلفوه في الإمامة، إن حدث به حدث في صلاته، وليرجع إلى قولهم، إن أصابه سهو، أو عرض في صلاته عارض، في نحو ذلك من الأمور»(١٤).

وقال في إكمال المعلم: «ليقربوا منه؛ لاستخلافه إن احتاج إليهم، وللتبليغ لما سمعوه منه، والضبط لما يحدث عنه، والتنبيه على سهو إن اتفق منه، ووجدهم عن قرب لما يحتاجهم له، ولأنهم أحق بالتقدم على من سواهم، وليقتدي بهم من بعدهم، ويتوصل بهم إليه في لَمَّات الأمور، وكذلك ينبغي لسائر الأئمة الاقتداء بسيرته، في ذلك، في كل حال؛ من جموع الصلاة، ومجالس العلم، ومشاهد الذكر، ونوادي التشاور، والرأي، ومعارك القتال، والحرب، وأن يكون الناس في كل الأمور على طبقاتهم من المعرفة والعلم والدين والعقل، ..»(١٥).

٤- قول أبي مسعود: «فأنتم اليوم أشد اختلافا» أي: حدث اختلاف شديد بينكم، إما عند الصلاة، وإما في الواقع الاجتماعي بسبب عدم التمسك بمقومات زمرة القلب الواحد.

جـ- أخرج أحمد عن علقمة؛ عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «**ليليني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، وإياكم وهوشات الأسواق**»(١٦).

وأخرجه الترمذي مثله، وفيه: «.. **وإياكم وهَيْشَات الأسواق**»(١٧).

---

(١٤) الخطابي: معالم السنن، ج ١، ص ١٥٩، ١٦٠ (ط - دار الكتب العلمية).

(١٥) إكمال المعلم، ج ٢، ص ٣٤٧.

(١٦) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٤، رقم ٤٣٧٣، ص ٢٣٢.

(١٧) قال أبو عيسي: «حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح غريب، وقد روي عن النبي ﷺ: «**أنه كان يعجبه أن يليه المهاجرون والأنصار؛ ليحفظوا عنه**» سننه، ج ١، رقم ٢٢٨، ص ٢٦٣ - ٢٦٤، وهكذا رواه أبو داود، سننه، ج ١، رقم ٦٧٥، ص ٢٦٠، والطبراني، المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ١٠٠٤١، ص ٨٨، والحديث رواه الدارمي، وابن حبان، وابن خزيمة، والبزار.

وأخرجه الطبراني، وأخرج أيضا عن عبد الله قال: إن كان رسول الله ﷺ ليجد منكب الرجل مائلا، عن منكب صاحبه، فيثقفها، ويقول: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»(١٨).

وقد أخرجه مسلم عنه بلفظ: «**ليليني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم**- ثلاثا- **وإياكم وهيشات الأسواق**»(١٩).

د- وفي هذا الحديث – زيادة على الحديث السابق – تحذير النبي ﷺ من هيشات – أو – هوشات – الأسواق، قال ابن الأثير: «الهوش: الاختلاط(..) ومنه حديث ابن مسعود «**وإياكم وهوشات الأسواق**»، ويروى بالياء، أي: فتنها وهَيْجَها»(٢٠).

وقال الخطابي: «وهيشات الأسواق: ما يكون فيها من الجلبة، وارتفاع الأصوات، وما يحدث فيها من الفتن، وأصله: من الهوش، وهو الاختلاط، يقال: تهاوش القوم؛ إذا اختلطوا، ودخل بعضهم في بعض، وبينهم تهاوش: أي: اختلاط واختلاف»(٢١).

وقال النووي: «أي: اختلاطها، والمنازعة والخصومات، وارتفاع الأصوات واللغط والفتن التي فيها»(٢٢).

فالنبي ﷺ يريد صفا مثقفا؛ أي: معدلا، مستقيما، ليس فيه اختلاف، ولا اختلاط، ولا تنازع، ولا تخاصم، ولا لغط، ولا ارتفاع صوت، ولا جلبة ولا ضوضاء.. بل صفا من العقلاء، المتثبتين، المستقيمين، الهادئين..ذوي الأناة والذوق الجمالي.

---

(١٨) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ١٠٢٦١، ص ١٤٥.
(١٩) إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٤٣٢، ص ٣٤٥.
(٢٠) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ٥، ص ٢٨٢.
(٢١) الخطابي: معالم السنن، ج ١ (دار الكتب العلمية) ص ١٦٠.
(٢٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٤، ص ١٥٦.

هـ- أخرج أحمد عن النعمان بن بشير، قال: أقبل رسول الله ﷺ بوجهه على الناس فقال: «**أقيموا صفوفكم**- ثلاثا- **والله لتقيمن صفوفكم، أو ليخالفن الله بين قلوبكم**» قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبته، ومنكبه بمنكبه (٢٣).

وأخرجه أحمد عن النعمان بن بشير، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ، فرأى رجلا خارجا صدره من الصف، فقال: «**استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»(٢٤).

وأخرجه أبو داود عنه، يقول: «أقبل رسول الله ﷺ، على الناس، بوجهه، فقال: «**أقيموا صفوفكم**- ثلاثا- **والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم**» قال: فرأيت الرجل يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، وكعبه بكعبه(٢٥).

و- أخرج البخاري ومسلم وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه والترمذي عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَتُسَوُّنَّ صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم**»(٢٦).

ز- قال البخاري: «باب إلزاق المنكب بالمنكب، والقدم بالقدم في الصف، وقال النعمان بن بشير: رأيت الرجل منا يلزق كعبه بكعب صاحبه(...) عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**أقيموا صفوفكم (..)**» وكان أحدنا يلزق منكبه

---

(٢٣) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٣٤٢، ص ١٧١.

(٢٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٣٤٧، ص ١٧٢.

(٢٥) أبو داود: سننه، ج ١، رقم ٦٦٢، ص ٢٥٦ وقال في الفتح ما ملخصه: وصححه ابن خزيمة، فتح الباري، ج ٢، ص ١١، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ١١٩١، ص ٢٦١، دون قول النعمان، وهو في الصحيحة برقم ٣٢، وصحيح أبي داود برقم ٦٦٨.

(٢٦) فتح الباري، ج ٢، رقم ٧١٧، ص ٢٠٧ - إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٤٣٦، ص ٣٤٦ - المسند، ج ١٤، ١٨٣٠٢، ص ١٥٨، ورقم ١٨٣٥٢، ص ١٧٣ وهو صحيح الإسناد، الترمذي، ج ١، رقم ٢٢٧، ص ٢٦٢، وقال: حسن صحيح.

بمنكب صاحبه، وقدمه بقدمه»(٢٧).

ح- في الحديث السابق:

١- أمر النبي بإقامة الصفوف، أي: تسويتها، وتعديلها، وإخراج الصفوف عن الاعوجاج.

٢- قول النبي ﷺ: «**لتسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم**» قال ابن حجر: أي: إن لم تسووا؛ والمراد بتسوية الصفوف: اعتدال القائمين بها على سمت واحد، أو يراد بها سد الخلل الذي في الصف(...) واختلف في الوعيد المذكور، فقيل: هو على حقيقته، والمراد: تشويه الوجه؛ بتحويل خلقه عن وضعه(...) ومنهم من حمله على المجاز. قال النووي: معناه: يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب، كما تقول: تغير وجه فلان عليَّ؛ أي: ظهر لي من وجهه كراهية؛ لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم، واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن. ويؤيده رواية أبي داود وغيره بلفظ: «**أو ليخالفن الله بين قلوبكم**» (...). وقال القرطبي: معناه: تفترقون فيأخذ كل واحد وجها غير الذي أخذ صاحبه؛ لأن تقدم الشخص على غيره مظنة الكبر المفسد للقلب، الداعي إلى القطيعة»(٢٨).

وقال السندي: «والمعنى: لابد من أحد الأمرين: إما إقامة الصفوف منكم، أو إيقاع الخلاف من الله- تعالى- في قلوبكم؛ فَيُقِل المودةَ، ويكثر التباغض، والمراد بالوجوه في الحديث القلوب، كما في رواية؛ وذلك لأن الاختلاف في القلوب، بالتباغض، والتعادي، ينشأ منه الاختلاف في الوجوه، بأن يدبر كُلٌ صاحبه»(٢٩).

---

(٢٧) فتح الباري، ج ٢، رقم ٧٢٥، ص ٢١١.
(٢٨) فتح الباري، ج ٢، ص ٢٠٧.
(٢٩) حاشية السندي على النسائي، ج ٢، ص ٦٧.

وقال النووي: «والأظهر، والله أعلم، أن معناه: يوقع بينكم العداوة والبغضاء، واختلاف القلوب..»(٣٠).

قلت: كلام النووي والسندي يكتب بالنور على صفحات القلوب، ويعض عليه بالنواجذ، فما أحسنه، والله، وما أدقه، وما أنفعه، في تربية زمرة القلب الواحد، فالنبي ﷺ، يأمر بتسوية الصفوف، وإقامتها حتى يتحقق التآلف في الظواهر، والصفوف، والأجسام، فيؤدي ذلك إلى تآلف القلوب، وإلا حدث تخالف في الصفوف بسبب تخالف الأجسام، والظواهر، وتخالف القلوب يؤدي إلى تباغضها، وهذا يؤدي إلى تخالف الوجوه، والتقاطع، والتدابر، فيحدث التفرق الاجتماعي.

ط- ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلا خارجا صدره من الصف، قال: «**استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**» توكيدا لنفس القاعدة.

وقد روى مسلم عن سماك بن حرب؛ قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: كان رسول الله ﷺ يسوي صفوفنا، حتى كأنما يسوي بها القداح، حتى رأى أنا قد عقلنا عنه، ثم خرج يوما فقام، حتى كاد يكبر، فرأى رجلا باديا صدره من الصف، فقال: «**عباد الله، لتسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم**»(٣١).

ي- في هذا الحديث:

١- «كان رسول الله يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح».
والقداح: جمع: قدح، وهو خشب السهم حين ينحت ويبرى، والمعنى: أن

---

(٣٠) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٤، ص ١٥٧.

(٣١) إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٤٣٦، ص ٣٤٧ - ٣٤٨، ورواه أحمد في المسند، ج ١٤، رقم ١٨٣١٣، ص ١٦١، رقم ١٨٣٥٣، ص ١٧٤ بإسنادين صحيحين، ورواه النسائي، ج ٢، رقم ٨١٠، ص٦٧ ورواه أبو داود، ج ١، رقم ٦٦٣، ص ٢٥٦ ورواه الترمذي، ج ١، رقم ٢٢٧، ص ٢٦٢، ورواه ابن ماجه، ج ١، رقم ٨٢٠، ص ٢٩٦، وهو في صحيح أبي داود للألباني، برقم ٦٦٩.

النبي كان يبالغ في تسوية صفوفنا حتى تصير شديدة الاعتدال، وكأنما يقوم، ويعدل، ويسوي بها السهام؛ لشدة استوائها واعتدالها(٣٢).

أي: تصبح الصفوف معيارًا ومقياسًا لتسوية خشب السهام عليها.

٢- واستمر النبي يفعل هذا (حتى رأى أنا قد عقلنا عنه)؛ أي: فهمنا ما يريد، وضبطناه في عقولنا، وتصورناه تصورا صحيحا، أي: اكتسبنا الهدف الذي يريده، وهو تحقيق التساوي والتماسك، والتراص في الصفوف.

٣- ثم خرج يوما.. إلى آخر الحديث: وهذا يبين أن النبي ﷺ رجع إلى الأمر بتسوية الصفوف، وإلى التحذير من التخالف الجسمي الظاهري، حتى لا يؤدي إلى تخالف، وتباغض في القلوب، وذلك عندما رأى رجلا باديا صدره، أي: ظاهرا، وناتئا، أي: خارجا صدره، وبارزا عن بقية الصف، فحث من جديد على التسوية، وحذر من التخالف.

٤- وقد استجاب الصحابة لتوجيه الرسول كما قال النعمان بن بشير، وأنس بن مالك: «فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه»، **والكعب:** العظم الناتئ في جانبي الرجل عند ملتقى الساق والقدم، وهو الذي يمكن أن يلزق بالذي بجنبه(٣٣).

وركبته بركبته، ومنكبه بمنكبه؛ أي: كتفه بكتفه، قال أنس: «وقدمه بقدمه» وهذا الوضع يبين شدة التماسك والتراص في الصف، والتآلف القلبي بين المسلمين.

ك- أخرج أحمد عن البراء بن عازب «قال: وكان يأتي ناحية الصف إلى ناحيته، يسوي صدورهم، ومناكبهم» يقول: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»(٣٤).

---

(٣٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٤، ص ١٥٧.

(٣٣) فتح الباري، ج ٢، ص ٢١١.

(٣٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٤٢٥، ص ١٩٦ - ١٩٧.

وفي رواية له: قال: وكان يأتينا إذا قمنا إلى الصلاة، فيمسح عوائقنا أو صدورنا، وكان يقول: «**لا تختلفوا، فتختلف قلوبكم**..»(٣٥).

وفي رواية له: يقول: «**لا تختلف صفوفكم، فتختلف قلوبكم**..»(٣٦).

وأخرجه أبو داود عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يتخلل الصف، من ناحية إلى ناحية يمسح صدورنا ومناكبنا، ويقول: «**لا تختلفوا، فتخلف قلوبكم**..»(٣٧).

وأخرج الدارمي عن البراء أن رسول الله ﷺ قال: «**سووا صفوفكم، لا تختلف قلوبكم**»(٣٨).

ورواه عبد الرزاق عن البراء قال: كان النبي ﷺ يمسح صدورنا في الصلاة، من ها هنا إلى ها هنا، فيقول: «**سووا صفوفكم، لا تختلفوا فتختلف قلوبكم..إلخ**»(٣٩).

ل- وفي هذا الحديث تأكيد لنفس القانون النفسي الاجتماعي أن اختلاف الصفوف، واختلاف الأجسام والظواهر يؤدي إلى اختلاف القلوب، فاختلاف الظاهر ينتج اختلاف الباطن، وأن تسوية الصف يمنع هذه النتيجة، فالتآلف الجسمي، والظاهر، يثمر تآلف القلوب، وإعمالا لهذا القانون كان النبي ﷺ يتخلل الصفوف، أي: يدخل خلالها، ليسويها - فيمسح الصدور والأكتاف؛ تأكيدا لاعتدالها، وعدم اعوجاجها.

---

(٣٥) إسناده صحيح، المسند، رقم ١٨٤٢٧، ص ١٩٧.
(٣٦) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٦١٠، ص ٢٤٧، وبرقم ١٨٥٢٨، ص ٢٢٨ بإسناد صحيح.
(٣٧) سنن أبي داود، ج ١، رقم ٦٦٤، ص ٢٥٦ - ٢٥٧، وأخرجه النسائي، المجتبى، ج ٢، رقم ٨١١، ص ٦٨، وقال الألباني: صحيح، صحيح سنن أبي داود، رقم ٦٧٠، وصحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٧٢٥٦، ص ١٢١٥.
(٣٨) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ٣٦٤٨، ص ٦٨١.
(٣٩) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ٢، رقم ٢٤٣١، ص ٤٥.

يقول النعمان بن بشير: «كان رسول الله ﷺ، يسوي- يعني: صفوفنا- إذا قمنا للصلاة، فإذا استوينا كبر»(٤٠).

م- أخرج مسلم عن جابر بن سمرة: قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «**ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس، اسكنوا في الصلاة**» قال: ثم خرج علينا فرآنا حلقا، فقال: «**ما لي أراكم عزين؟**» قال: ثم خرج علينا فقال: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**» فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف**»(٤١).

وأخرج أبو داود جزءه الأخير وفيه: «**يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف**»(٤٢).

ن- وفي هذا الحديث:

١- في الجملة الأولى: أمرهم النبي ﷺ بالسكون في الصلاة، ونهاهم عن التشبه بذيول الخيل الشمس، وهي التي لا تستقر، بل تضطرب وتتحرك بأذنابها (بذيولها) وكان بعض الصحابة يرفع يديه ويحركها عند السلام من الجانبين، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك.

٢- وقوله: «**فرآنا حلقا؛ فقال: ما لي أراكم عزين؟**» أي: متفرقين؛ جماعة جماعة، **وعزين**، جمع، مفرده: عِزَة، أي: جماعة، ومعناه: «النهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع»(٤٣).

---

(٤٠) سنن أبي داود، ج ١، رقم ٦٦٥، ص ٢٥٧.

(٤١) إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٤٣٠، ص ٣٤٣، وأخرجه أحمد في المسند، ج ١٥، رقم ٢٠٨٦٠، ص ٣٧٠ وفيه: «يتمون الصفوف الأولى، ويتراصون في الصف» وإسناده صحيح، وروى جزءه الأخيرة برقم ٢٠٩٢٢، ص ٣٨٣، بإسناد صحيح.

(٤٢) سنن أبي داود، ج ١، رقم ٦٦١، ص ٢٥٦، ورواه ابن ماجه، ج ١، رقم ٨١٨، ص ٢٩٥، ٢٩٦، قال الألباني: صحيح، ورواه النسائي، ج ٢، رقم ٨١٦، ص ٦٩ وأخرجه الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢، رقم ١٨١٠، ص ١٩٩، وبرقم ٢٠٧٥، ص ٢٥٧.

(٤٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٤، ص ١٥٣.

قال في إكمال المعلم: «أمرهم بالائتلاف والاجتماع، وحذرهم من الفرقة(...) وفي هذا، وفي الأحاديث الأخر في الأمر بالصفوف وتسويتها وإقامتها، والوعيد على ترك ذلك(...) مما لا يختلف فيه أنه من سنن، وجماعات الصلاة، وهديها، وحسن هيأتهم، وإكمال الصف الأول فالأول، والتراص فيه؛ ليتم استقامته واعتداله، لئلا يتخلله الشياطين(...) وتشبها بالملائكة في صفوفها، ولما في ذلك من جمال هيئة الجماعة للصلاة وحسنها، وتأتي صلاتهم في صفوفهم دون أن يضيق بعضهم على بعض(...) ولأن في ذلك- مع مراعاة تمكنهم من صلاتهم - من تكثير جمعهم أكثر مما يكون مع الاختلاط..»[٤٤].

وواضح من هذا أن النبي ﷺ يستهدف تحقيق زمرة القلب الواحد، ويوظف كل مناسبة لهذا الهدف، فلما خرج مرة ورأى أصحابه في حلقات منفصلة، كأنه استنكر ذلك التفرق، فحثهم على أن يجتمعوا في حلقة واحدة، ليكون الدمج الاجتماعي أقوى، وروح التماسك والتآلف أعم، وأشد.

وأخرج أبو داود عن جابر بن سمرة قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، وهم حلق، فقال: «**ما لي أراكم عزين**»، ثم روى عن الأعمش بهذا - قال: كأنه يحب الجماعة[٤٥].

قلت: وهذا هو التعليل الصحيح، فالنبي ﷺ يحب الجماعة، ويريد منهم أن يجتمعوا في مجلس واحد؛ تربية للتماسك الاجتماعي، وروح التآلف.

٣- وفي الجملة الثالثة: دعاهم النبي ﷺ أن يصفوا كما تصف الملائكة، يتمون الصفوف المقدمة، ويتراصون في الصف، والتراص: هو التلاصق، حتى لا يكون بينهم فرجة، من رص البناء؛ إذا لصق بعضه ببعض، فالتراص

---

(٤٤) إكمال المعلم، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٤٥) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٨٢٣، ٤٨٢٤، ص ٢٧٧.

في الصف هو تلاصق المسلمين، وانضمام بعضهم إلى بعض، على السواء، دون فرج، ودون اعوجاج.

فالنبي ﷺ يريد أولا: إتمام الصفوف؛ الأول، فالأول، وهذا مظهر اجتماعي يدل على التوحد، والتحاب، والنشاط في الصلاة، وحسن النظام.

ويريد ثانيا: التراص في الصف، بحيث يلتصق المسلم بالمسلم، من غير خلل، القدم بالقدم، والكعب بالكعب، والكتف بالكتف، والركبة بالركبة، ليس بينهم ثغرات، متساوون، منضم بعضهم ببعض، ملتصق بعضهم ببعض ليشكلوا صفا واحدا متماسكا كالبنيان المرصوص، وكان الصحابة ينفذون ذلك تماما، كما ذكرنا عن النعمان وعن أنس رضي الله عنهما.

فهذا هدف أساسي من أهداف التربية الإسلامية ليمكن للمؤمنين أن يشكلوا أمة واحدة، متآلفة، فاعلة، في التاريخ.

وتأمل كيف يرغب المسلمين في هذا التراص، فهم - بتحقيقهم هذا التراص- يفعلون فعل الملائكة عند ربها، فهو يريد بناء مجتمع بشري، طاهر، متماسك، متراص، وقد جعل النبي ﷺ من الثلاث التي فضلت أمته بها على الناس: «**جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة..**»(٤٦).

وأخرج البخاري عن أنس قال: أقيمت الصلاة، فأقبل علينا رسول الله بوجهه؛ فقال: «**أقيموا صفوفكم، وتراصوا..**»(٤٧).

وأخرج البخاري في باب: إقامة الصف من تمام الصلاة، عن قتادة، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**سووا صفوفكم، فإن تسوية الصف من إقامة الصلاة**»(٤٨).

---

(٤٦) رواه مسلم عن حذيفة، إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٥٢٢ ، ص ٤٣٥ .
(٤٧) فتح الباري، ج ٢، رقم ٧١٩، ص ٢٠٨.
(٤٨) المصدر السابق، رقم ٧٢٣، ص ٢٠٩.

ورواه مسلم بلفظ: «..**فإن تسوية الصف من تمام الصلاة**»(٤٩).

وأخرج البخاري عن أبي هريرة، من حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «..**وأقيموا الصف في الصلاة، فإن إقامة الصف من حسن الصلاة**»(٥٠).

وتسوية الصف: تعديله، والتراص فيه، فإن ذلك من إقامة الصلاة، ومن تمام الصلاة، ومن حسن الصلاة؛ لأن الصلاة عبادة لله، وتحقيق التراص الاجتماعي عبادة لله، كذلك، وإقامة الصلاة، وتمامها، وحسنها: أن تثمر إقامتها أخلاقا حسنة وتقربا إلى الله، وتآلفا اجتماعيا.

٤- ولأهمية هذا الهدف: تحقيق التماسك، والتراص، المؤدي إلى تحقيق التآلف القلبي، والتماسك الاجتماعي، صح عن عمر أنه ضرب قدم أبي عثمان النهدي؛ لإقامة الصف، وصح عن سويد بن غفلة قال: «كان بلال يسوي مناكبنا، ويضرب أقدامنا في الصلاة»(٥١).

٥- وأخرج البخاري عن أنس بن مالك: «أنه قدم المدينة، فقيل له: ما أنكرت منا منذ يوم عهدت رسول الله ﷺ؟ قال: ما أنكرت شيئا إلا أنكم لا تقيمون الصفوف»(٥٢).

ورواه معلقا عن بشير بن يسار: «قدم علينا أنس بن مالك المدينة.. بهذا»(٥٣).

ووصله أحمد في المسند: «قال: جاء أنس إلى المدينة، فقلنا: ما أنكرت منا من عهد رسول الله ﷺ؟ قال: ما أنكرت منكم شيئا غير أنكم لا تقيمون الصفوف»(٥٤).

---

(٤٩) إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٤٣٣، ص ٣٤٥.

(٥٠) فتح الباري، ج ٢، رقم ٧٢٢، ص ٢٠٩، ورواه مسلم، إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٤٣٥، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٥١) فتح الباري، ج ٢، ص ٢١٠.

(٥٢) المصدر السابق، رقم ٧٢٤، ص ٢١٠.

(٥٣) السابق نفسه.

(٥٤) المسند، ج ، رقم ، ص وفتح الباري، ج ٢، ص ٢١٠.

فأنس ﷺ يستنكر عدم إقامة الصفوف، ويعتبر ذلك مخالفة لعهد رسول الله ﷺ.

٦- وأخرج أبو داود عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفا وصله الله، ومن قطع صفا قطعه الله**».

قال أبو داود: «ومعنى: **ولينوا بأيدي إخوانكم**»: إذا جاء رجل إلى الصف فذهب يدخل فيه فينبغي أن يلين له كل رجل منكبيه، حتى يدخل في الصف»(٥٥).

ص- نخلص مما سبق إلى أن النبي ﷺ كان يؤكد ويشدد على التراص، والتماسك في صفوف الصلاة، وعلى تسويتها، وتعديلها ومنع الاعوجاج، والاختلاف بين الأجسام، وذلك تأكيدا لتآلف القلوب، ومنعا لاختلافها؛ لأن اختلاف الظواهر يؤدي إلى اختلاف القلوب، والعكس صحيح.

ونحن، في عصرنا الحالي، مطالبون بتأكيد هذا المعنى والتمسك به، والعمل به في كل صلاة جماعة، لإقامة الصلاة، وإتمامها، وإحسانها، من جهة، وتربية للتماسك والتآلف الاجتماعي بين المسلمين.

ولا تربية لذلك، سوى بالعمل بالمضمون السابق، فهو الهدف، والآلية، معا.

ثالثا: التماسك في حلقة قراءة ومدارسة القرآن الكريم:

أ- رغب النبي ﷺ في الاجتماع في المساجد، وأمر به، ليعلم المسلمين، فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد، وأحمد في المسند، والطبراني في الكبير عن

---

(٥٥) سنن أبي داود، ج ١، رقم ٦٦٦، ص ٢٥٧ وقال الألباني: صحيح (صحيح أبي داود (٦٧٢)، وصحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ١١٨٧، والصحيحة برقم ٧٤٣، وصحيح الترغيب (٤٩٥)..).

معن بن يزيد، أن النبي ﷺ قال: «**اجتمعوا في مساجدكم، وكلما اجتمع قوم فليؤذنوني**».

فأتانا أول من أتى، فجلس..(وساق الحديث وفي آخره): ثم أمرنا وعلمنا.

وفي رواية أحمد والطبراني: قال رسول الله ﷺ: «**اجتمعوا في مساجدكم، فإذا اجتمع قوم فليؤذنوني**» قال: فاجتمعنا أول الناس، فأتيناه، فجاء يمشي معنا حتى جلس إلينا (..وساق الحديث وفي آخره): ثم أقبل علينا فأمرنا، وكلمنا، وعلمنا»(٥٦).

فالنبي ﷺ أراد اجتماع المسلمين، كل قوم في مسجده، ليأتيهم، ويعلمهم، فالاجتماع على العلم في المسجد، أمر مرغوب فيه، مطلوب.

ب- وقد دعا النبي ﷺ المؤمنين إلى الاجتماع في بيوت الله، ليقرؤوا القرآن معا، ويتدارسوه معا، ويتعلموا أحكامه معا، ترغيبا ينشئ في قلب المؤمن (رغبة) وعشقا، للاجتماع المشترك على التلاوة، والمدارسة، والتعلم.

١ - أخرج مسلم وأحمد عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نَفَّسَ (أزال) عن مؤمن كربة (شدة وعسرًا) من كرب الدنيا؛ نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بَطَّأ به عمله؛ لم يسرع به نسبه**»(٥٧).

---

(٥٦) قال الألباني: حسن الإسناد، الأدب المفرد، رقم ٨٧٧، ص ٣٠٥-٣٠٦- المسند، ج ١٢، رقم ١٥٨٠٥، ص ٣٤٩ وإسناده صحيح، الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٩، رقم ١٠٧٤، ص ٤٤٢.

(٥٧) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧، ص ٢١ (المطبعة المصرية) وإكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٩٩، ص ١٩٥، ورواه أحمد بإسناد صحيح، المسند، ج ٧، رقم ٧٤٢١، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

ورواه أحمد بلفظ: «**ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله، يقرؤون، ويتعلمون كتاب الله- عز وجل- يتدارسونه بينهم، إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده**.. الحديث»(٥٨).

قال النووي: عن جزء الاجتماع في بيوت الله، وفيه: «دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن، في المسجد(...) ويلحق بالمسجد - في تحصيل هذه الفضيلة- الاجتماع في مدرسة، ورباط، ونحوها، إن شاء الله- تعالى- ويدل عليه الحديث الذي بعده، فإنه مطلق يتناول جميع المواضع»(٥٩).

قال المازري: «وقوله: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله**..»؛ ظاهره: يبيح الاجتماع لقراءة القرآن في المساجد، وإن كان مالك قد قال في المدونة بالكراهة، بنحو ما قضى هذا الظاهر جوازه، وقال: يقامون، ولعله لما صادف العمل لم يستمر عليه، ورأى السلف لم يفعلوه، مع حرصهم على الخير؛ كره إحداثه، ويراه من محدثات الأمور، وكان الإتباع لعمل أهل المدينة، وما عليه السلف، وكثيرا ما يترك بعض الظواهر بالعمل»(٦٠).

قلت: الحديث ظاهر في استحسان هذا العمل، والندب إليه، وليس في الجواز فقط، فمن المستحب اجتماع المسلمين في المساجد لتلاوة القرآن، ولمدارسته، ولتعلمه، وعدم استمرار العمل على هذا الحديث لا يلغيه، فقد يكون عدم الاستمرار لانشغالهم، وعدم العمل بالشيء، لا يدل على كراهته، خصوصا أن الحديث يرغب في الاجتماع على تلاوة وقراءة القرآن، ومدارسته، في المساجد.

٢- والحديث الذي أشار إليه النووي أخرجه مسلم عن الأغر أبي مسلم؛

---

(٥٨) إسناده صحيح، المسند، ج ٩، رقم ٦٢٤٥، ص ١٥٨ - ١٥٩.
(٥٩) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧، ص ٢١ - ٢٢.
(٦٠) إكمال المعلم، ج ٨، ص ١٩٥.

أنه قال: أشهد على أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «**لا يقعد قوم يذكرون الله- عز وجل- إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**»(٦١).

وتلاوة القرآن، هي من صميم ذكر الله- تعالي- وكذا مدارسته، وتعلم أحكامه، فأنت ترى أن النبي ﷺ قد أخبر أنه «**ما اجتمع قوم**» أي: قعدوا مجتمعين، في حلقة، يتلون القرآن، ويتدارسونه بينهم، ويذكرون الله، إلا تحقق لهم الثواب المذكور، وهو: طمأنينة القلب، وهدوء البال، ونزول الرحمة عليهم، بحيث تغطيهم، وأن الملائكة تحفهم، وتتحلق معهم، وأن الله- تعالى- يذكرهم في الملأ الأعلى من الملائكة، عنده.

٣- فظاهر- إذن- ترغيب النبي ﷺ في تكوين حلقات التلاوة المشتركة، والمدارسة المشتركة - للقرآن، وحلقات الذكر الجماعي، بالتحميد والتسبيح والتهليل، والتكبير والاستغفار، والدعاء، وقد نص النبي ﷺ على فضل ذلك.

أخرج مسلم في باب فضل مجالس الذكر: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن لله- تبارك وتعالى- ملائكة سيارة، فُضْلا، يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر: قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم، حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله –عز وجل- وهو أعلم بهم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض: يسبحونك، ويكبرونك، ويهللونك، ويحمدونك، ويسألونك، قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك؛ قال:**

(٦١) إكمال المعلم، ج٨، رقم ٢٧٠٠، ص١٩٦. وأخرجه الترمذي: «**ما من قوم يذكرون الله..**» وقال: حسن صحيح، سننه، ج٥، رقم ٣٣٨٩، ص٢٤٦، وأخرجه ابن ماجه في الأدب؛ «**ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله فيه..**» قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٠٧٣، ص٢٤٢.

وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا، أي: رب، قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: ومم يستجيرونني؟ قال: من نارك، يا رب، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا، قال: فيقولون: رب، فيهم فلان، عبد خطاء، إنما مر فجلس معهم، قال: فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»(٦٢).

ورواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله؛ تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا؛ قال: فيسألهم ربهم- عز وجل- وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا، والله، ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا- وساق الحديث، وفي آخره: هم الجلساء، لا يشقى جليسهم»(٦٣).

ورواه أحمد بلفظ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض، فضلا عن كتاب الناس، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى بغيتكم، فيجيئون، فيحفون بهم إلى السماء الدنيا، فيقول الله: أي شيء تركتم عبادي يصنعون؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك، ويمجدونك، ويذكرونك.. الحديث، وفي آخره: فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»(٦٤).

---

(٦٢) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٨٩، ص ١٨٨ – ١٨٩.

(٦٣) فتح الباري، ج ١١، كتاب الدعوات، رقم ٦٤٠٨، ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

(٦٤) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٧، رقم ٧٤١٨، ص ٢٢٥ – ٢٢٨ وروى مثله الترمذي، وقال: حسن صحيح، سننه، ج٥، رقم ٣٦١١، ص٣٤٤، وفي آخره: «هم القوم لا يشقى لهم جليس».

وقوله: «فُضْلا»؛ أي: زائدون على الحفظة، لا وظيفة لهم إلا اتباع حلق الذكر(٦٥).

وقوله: «قعدوا معهم»، يدل على أنهم قاعدون في مجلس مشترك.

وقوله: «فإذا تفرقوا»: أي: الحلقة التي قعدت، وجلست تذكر الله.

وقوله: «لا يشقى بهم جليسهم»، يدل على أنهم جلوس في جماعة، في حلقة.

٤- وفي حديث عند البزار: «**ويعظمون آلاءك، ويتلون كتابك، ويصلون على نبيك، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم**»(٦٦).

وهذا الحديث - برواياته - يبين، ويدل دلالة ظاهرة، على فضل القعود الجماعي، والجلوس الجماعي المشترك، (بدليل: قعدوا معهم، وبدليل: فجلس معهم، وبدليل: جليسهم، وبدليل: هم الجلساء.. وبدليل: واو الجماعة المتكررة في الحديث..) المخصص لذكر الله، قلبا، ولسانا، وليس بالقلب فقط، بل القلب يواطئ اللسان، بدليل: أن الملائكة سمعتهم، وبدليل: قول الله، سبحانه، في رواية البخاري: «**ما يقول عبادي؟**»، وأن هذا الذكر ذكر جماعي مشترك، بدليل صيغة الجمع المتكررة في كل نوع من أنواعه المذكورة في الروايات، وأنهم:

١- يسبحونك.

٢- ويكبرونك.

٣- ويهللونك.

٤- ويحمدونك.

---

(٦٥) انظر: فتح الباري، ج ١١، ص ٢١١.

(٦٦) فتح الباري، ج ١١، ص ١١٢.

٥- وأنهم يسألونك.

٦- ويستغفرونك.

٧- ويستجيرون بك.

٨- ويمجدونك.

٩-ويصلون على نبيك.

١٠- ويسألونك لآخرتهم دنياهم.

١١- ويتلون كتابك.

١٢- ويعظمون آلاءك.

فهذه أنواع الذكر في هذه المجالس، وليس مجرد تفكر في عظمة الله، وتذكر قلبي، لأمر الله، فيمتثل الأمر، ويجتنب النهي، وهذا ذكر أيضا، وليس مجرد تعلم للعلم النافع، وليس مجرد مدارسة للقرآن، وهذا أيضا من أرفع الذكر، والحديث إنما نص على اثني عشر نوعا من الذكر، قال فيها ابن حجر:

«والمراد بالذكر- هنا- الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها، والإكثار منها، مثل الباقيات الصالحات، وهي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وما يلحق بها؛ من الحوقلة، والبسملة، والحسبلة، والاستغفار، ونحو ذلك، والدعاء بخيري الدنيا والآخرة، ويطلق ذكر الله أيضا، ويراد به: المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه؛ كتلاوة القرآن، وقراءة الحديث، ومدارسة العلم، والتنفل بالصلاة، ثم الذكر يقع تارة باللسان، ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط ألاَّ يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق: الذكر بالقلب؛ فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر، وما اشتمل عليه من تعظيم الله- تعالى- ونفي النقائص عنه؛ ازداد كمالا، (...) فإن صحح التوجه وأخلص

لله- تعالى- في ذلك؛ فهو أبلغ الكمال»(٦٧).

٥- وفي الحديث السابق: «فضل مجالس الذكر، وإن لم يكن الجالس فيها من أهلها، وفيه فضل مجالسة الصالحين وتزكيتهم»(٦٨).

٦- وقد ساق ابن حجر الأحاديث التي وردت في فضل الذكر، ثم قال: «ويؤخذ من مجموع هذه الطرق المراد بمجالس الذكر، وأنها التي تشتمل على ذكر الله بأنواع الذكر الواردة؛ من تسبيح وتكبير، وغيرهما؛ وعلى تلاوة كتاب الله- سبحانه وتعالى- وعلى الدعاء بخيري الدنيا والآخرة، وفي دخول قراءة الحديث النبوي، ومدارسة العلم الشرعي، ومذاكرته، والاجتماع على صلاة النافلة، في هذه المجالس نظر؛ والأنسب: اختصاص ذلك بمجالس التسبيح والتكبير، ونحوهما، والتلاوة، حَسْب، وإن كانت قراءة الحديث ومدارسة العلم والمناظرة فيه، من جملة ما يدخل تحت مسمى ذكر الله- تعالى»(٦٩).

قلت: عموم الأحاديث الأخرى يدخل مدارسة القرآن، والحديث، والعلم النافع في مجالس الذكر.

قال ابن حجر: «فضل مجالس الذكر والذاكرين؛ وفضل الاجتماع على ذلك، وأن جليسهم يندرج معهم في جميع ما يتفضل الله تعالى به عليهم؛ إكراما لهم، ولو لم يشاركهم في أصل الذكر»(٧٠).

جـ- والذي نقصده- هنا- أن نبرهن على فضل الاجتماع على ذكر الله، بالصيغ المأثورة الصحيحة، وبالطريقة التي وردت في الحديث: قعود وجلوس، في حلقة، وذكر بالقول واللسان لله، بالصيغ المأثورة، المشار إليها،

---

(٦٧) المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٦٨) إكمال المعلم، ج ٨، ص ١٨٩.

(٦٩) فتح الباري، ج ١١، ص ٢١٢.

(٧٠) فتح الباري، ج ١١، ص ٢١٣.

وما يلحق بها، وصلاة على النبي ﷺ، وحوقلة، واستغفار، ودعاء وسؤال، وشكر، وحمد، وتمجيد، يقولون ذلك، ويتوجهون به لله وحده، وقد تبين بالدليل القاطع أن ذلك مندوب إليه، كما أن الاجتماع على تلاوة القرآن، ومدارسة، ومدارسة الحديث، والعلم النافع، ودراسة الحلال والحرام مندوب إليه، وأن ذلك، ما دام في مساجد المسلمين، أو في أي مكان طاهر، وبدون إحداث بدعة زائدة على الدين، حلال، مندوب إليه.

وقد تبين لنا بالأدلة السابقة، وبالنقل عن أهل العلم أن ذلك كله، فضائل يحبها الله، ويرغب فيها رسوله، وذلك لثلاثة أسباب:

الأول: أنها عبادة يحبها الله، ويرغب فيها رسوله ﷺ، كما رأينا، بل يخصص الله لها ملائكة وظفهم لاتباع هذه المجالس، مما يبرهن على فضلها، وثوابها، ومنزلتها عند الله.

الثاني: أن الجلوس المشترك، والذكر المشترك، والتلاوة المشتركة، والمدارسة المشتركة، وسائل مهمة لبناء التآلف القلبي، وتدعيم، وتربية التماسك والتضامن والاندماج الاجتماعي بين المسلمين المشتركين في هذه المجالس.

الثالث: أن هذه التلاوة والمدارسة لكلام الله، تعليما، وتعلما طريق لاكتساب الربانية: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فنحن نرغب المسلمين في مجالس الذكر بالصيغ المأثورة، وبالكيفية الواردة سابقا، بالتجمع في حلقات، في بيوت الله، أو في بيوتهم، أو في الحقول، أو على شواطئ الترع والأنهار، أو تحت الأشجار، فيجتمعون بعفوية، في حلقات ومجالس، لذكر الله بالصيغ المذكورة سابقا، فيقولون هذه الصيغ- معا- ويتلون كتاب الله، معا، أو واحدا بعد الآخر، أو يختارون أحسنهم صوتا وأخشعهم، لذلك، فيقرئوهم، وهو يسمعون، أخرج الطبراني عن علقمة بن قيس، قال: كنت رجلًا قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، فكان ابن

مسعود يرسل إلي؛ فأقرأ عليه القرآن، فكنت إذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا، فداك أبي وأمي؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**حسن الصوت زينة القرآن**»(٧١).

ونرغبهم في مجالس العلم، ومدارسة القرآن، والحديث، والعقيدة وأحكام الحلال والحرام.. مجالس جماعية مشتركة.. تتبع السنة، وتلتزم الأحاديث السابقة.

ففي هذه المجالس تربية للربانية، وللتماسك الاجتماعي – معا – إنها عبادة شرعية تحتاج لإحياء شرعي صحيح.

د- وأخرج مسلم والنسائي والترمذي، والطبراني عن أبي سعيد الخدري- وهذا لفظ مسلم- قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد (تأمل: هي حلقة في عهد التابعين) فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله.

(إذن، هي حلقة، ومجلس- جلسنا- ذكر، مشترك؛ بدليل أن السؤال، والجواب بصيغة الجمع، فهم يذكرون بصيغة تُسْمَع- معا- وإلا كيف عرف بعضهم ذكر بعض؟..) قال: الله، ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ، أقل عنه حديثا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، (حلقة في عهد الصحابة، يبشرها رسول الله ﷺ) فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن به علينا.

(فهم جلوس معا، يذكرون الله، معا، ويحمدونه..) قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة**

---

(٧١) له شاهد، وهو مروي بإسناد حسن، انظر: المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ١٠٠٢٣، ص ٨٢ – ٨٣، مع الهامش.

لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»(٧٢) أي: يظهر فضلهم لهم، ويريهم حسن عملهم، ويثني عليهم،.. وأصل البهاء: الحسن والجمال.

فهو عمل يحبه الله ويثني عليه، ويباهي بأصحابه؛ أعني: الجلوس لذكر الله، وحمده على نعمة الإسلام، ونعمة إرسال الرسول ﷺ، كما جاء في رواية النسائي: «جلسنا ندعو الله، ونحمده، على ما هدانا لدينه، ومَنَّ علينا بك..»(٧٣).

وفي رواية الطبراني: «جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ علينا بك..»(٧٤).

فالتابعون يقيمون حلقة في المسجد لذكر الله، ومعاوية ﷺ يبشرهم بما حدث به عن رسول الله ﷺ.

هـ- مجالس ذكر الله سنة نبوية؛ بالطريقة الواردة المأثورة، وبالكيفية والصيغ الشرعية التي أشرنا إليها، ذكرا جماعيا، في مجالس، يقعد أو يجلس فيها عدد من المسلمين يقولون معا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ويمجدون الله، ويصلون على النبي ﷺ، ويدعون الله، ويستغفرونه، ويتلون كتابه، أو يستمعون إليه، أو يتدارسون بعضه، ... إلخ هذه المجالس سنة نبوية، مشروعة، لا بدعية فيها.

- وإذا كان الأمر كذلك - وهو فعلا كذلك- فلماذا أنكر سيدنا عبد الله ابن مسعود على القوم الذين أنكر عليهم؟

---

(٧٢) إكمال المعلم، ج ٨، رقم (٢٧٠١) ص ١٩٦، ورواه الترمذي، سننه، ج ٥، رقم ٣٣٩٠، ص ٢٤٧.
(٧٣) سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٤٢٦، ص ١٨١.
(٧٤) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٩، رقم ٧٠١، ص٣١١، ورواه ابن المبارك في الزهد، رقم ١١٢٠ (خرج معاوية على حلقة في المسجد..) ص ٣٩٥.

أقول: أولا: نسوق روايات هذه الواقعة:

١- أخرج الطبراني عن أبي الزعراء قال: جاء المسيب بن نجبة إلى عبد الله، فقال: إني تركت قوما يقولون: من سبح كذا وكذا فله كذا وكذا، قال: قم يا علقمة، فلما رآهم قال: يا علقمة، اشغل عني أبصار القوم، فلما سمعهم وما يقولون؛ قال: إنكم لتمسكون بذنب ضلالة، أو إنكم لأهدى من أصحاب محمد ﷺ!(٧٥).

٢- وأخرج الطبراني عن قيس بن أبي حازم قال: ذكر لابن مسعود قاص، يجلس بالليل، ويقول للناس: قولوا كذا، فقال: إذا رأيتموه فأخبروني، قال: فأخبروه، فجاء عبد الله متقنعا، فقال: من عرفني، فقد عرفني، ومن لم يعرفني؛ فأنا عبد الله بن مسعود، تعلدون أنكم لأهدى من محمد وأصحابه، أو إنكم لمتعلقون بذنب ضلالة(٧٦).

٣- وأخرج الطبراني بإسناد ضعيف، منقطع، عن أبي البختري، قال: بلغ عبد الله بن مسعود أن قوما يقعدون من المغرب إلى العشاء، يسبحون، يقولون: قولوا كذا، وقولوا كذا، وساق الحادثة، وفيها: «فقال: لقد جئتم ببدعة، وظلماء، أو لقد فضلتم أصحاب محمد علما، فقال رجل من تميم: ما جئنا ببدعة ظلماء، ولا فضلنا أصحاب محمد علما، فقال: عمرو بن عتبة بن فرقد، أستغفر الله يا بن مسعود، وأتوب إليه، فأمرهم أن يتفرقوا..»(٧٧).

٤- وأخرج الطبراني عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كان عمرو بن عقبة ابن فرقد السلمي، ومعضد، في أناس من أصحابهما اتخذوا مسجدا يسبحون

---

(٧٥) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٩، رقم ٨٦٢٨، ص ١٢٥.

(٧٦) ورواه عبد الرزاق، (٥٤٠٨) وصححه الهيثمي في المجمع (١/ ١٨١)، انظر: الطبراني: المعجم الكبير، ج ٩، رقم ٨٦٢٩، ص ١٢٥.

(٧٧) المصدر السابق، رقم ٨٦٣٠، ص ١٢٥ – ١٢٦.

فيه بين المغرب والعشاء، كذا، ويهللون كذا، ويحمدون كذا، .. وساق الواقعة، وفيها: «ثم قال: أنا ابن أم عبد، والله، لقد جئتم ببدعة ظلماء، أو قد فضلتم أصحاب محمد علما، (...) فقال عبد الله: لئن اتبعتم القوم، لقد سبقوكم سبقا مبينا، ولئن جرتم يمينا أو شمالا، لقد ضللتم ضلالا بعيدا»(٧٨).

ففي هذه الواقعة أن قاصا يجلس بين المغرب والعشاء، في مسجد اتخذه مع أصحابه، فيذكر أصحابه، ويأمرهم أن يسبحوا كذا، ويحمدوا كذا..وذلك من المغرب إلى العشاء، في مسجد مخصوص، وفي كل يوم، وهذا الوضع كله، بدعة ضلالة حقا، فهو تخصيص زمن محدود، وتخصيص مكان محدد، وتخصيص أقوال محددة بأعداد محددة، وتخصيص أفراد معينين، في انفصال عن مساجد المسلمين، ودون جماعة المسلمين، إنه عمل جيب اجتماعي منفصل عن جماعة المسلمين، ومساجدهم، فهذا الوضع كله بدعة، ومغالاة، وهو حقا تمسك بذنب ضلالة، ولهذا جاء في رواية أن هؤلاء قد خرجوا على المسلمين، ضمن الخوارج المعروفين، وقاتلهم أصحاب عبد الله، فهم قوم غلاة، غلوا في هذا الذي فعلوه، وابتدعوا فيه.

أما الذكر في مساجد المسلمين، أو في حيث اجتمع عدد من المسلمين، بالصيغ المأثورة، في حلقات، جماعية كما ثبت عن رسول الله ﷺ، فهو سنة مشروعة (انظر: فقرات أ، ب، ج، د، في هذا المبحث).

ولو ثبت لنا – بالدليل الشرعي – أن ما نقوله خطأ، فنحن راجعون عنه، إلى الدليل الشرعي، والله لئن ردني الحق عبدا لأذلن ذل العبيد لهذا الحق.

و- التأكيد على التآلف عند الاجتماع في مجلس تلاوة القرآن ومدارسته:

رأينا أن النبي ﷺ رغب جدًّا في الاجتماع على تلاوة القرآن، ومدارسته،

---

(٧٨) المصدر السابق، رقم ٨٦٣٣، ص ١٢٦ – ١٢٧ وفيه: عطاء بن السائب، اختلط.

وعلى الذكر لله، والجلوس في حلقات جماعية لذلك، ولكنه في أحاديث أخرى أمر بتلاوة القرآن بشرط الائتلاف، والتوحد، والتماسك دون تنازع، عند قراءته، أو مدارسته، وأمر المسلمين إذا اختلفوا؛ حين التلاوة، أو حين المدارسة، أن يقوموا، أي: أن ينهوا المجلس الجماعي، منعا لتحول الاختلاف الظاهر إلى اختلاف قلبي، وحماية لهيبة كلام الله- تعالى.

١- قال البخاري: باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم(....) عن جندب بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه**»(٧٩).

وأخرج عن أبي عمران الجوني؛ عن جندب، قال النبي ﷺ:«**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم، فقوموا عنه**»(٨٠).

ورواه مسلم عن جندب بن عبد الله البجلي؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا**».

وفي رواية له: «**فإذا اختلفتم فقوموا**»(٨١).

وأخرجه الطبراني بلفظ: «**اجتمعوا على القرآن، ما ائتلفتم عليه، فإذا اختلفتم فيه فقوموا**».

وبلفظ: «**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفت (أي: القلوب) فقوموا**»(٨٢).

---

(٧٩) فتح الباري، ج ٩، رقم ٥٠٦٠، ص ١٠١.

(٨٠) المصدر السابق، رقم ٥٠٦١، ص ١٠١.

(٨١) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٦٧، ص ١٦١، والحديث رواه أحمد، في المسند، ج ١٤، رقم ١٨٧١، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ وإسناده صحيح، والحديث رواه النسائي أيضا، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ١١٦٦، ص ٢٥٨.

(٨٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢، رقم ١٦٧٣، ١٦٧٤، ص ١٦٤ والتفسير الذي بين القوسين من عندي وإسنادهما: صحيح.

٢- ففي هذا الحديث يأمرنا النبي ﷺ أن نجمع على قراءة القرآن، وأن نقرأه، بشرط ائتلاف القلوب، أي: اجتماعها، وتآلفها، وتآخيها، عند التلاوة، فإذا اختلفت القلوب، أو اختلفت الأفهام، أو حدث اختلاف ما، يؤدي إلى التشاحن أو التباغض، فإن النبي ﷺ أمرنا أن نقوم عن التلاوة، قال ابن حجر: «**قوله باب.. ما ائتلفت عليه قلوبكم**» أي: اجتمعت، قوله: «**فإذا اختلفتم**»؛ أي: في فهم معانيه، «**فقوموا عنه**»؛ أي: تفرقوا: لئلا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر»(٨٣).

ويحتمل أن ينهي عن القراءة إذا وقع الاختلاف في كيفية الأداء بأن يتفرقوا عند الاختلاف، ويستمر كل منهم على قراءته(٨٤)، أي: ما دامت صحيحة متواترة.

أقول: قال النبي ﷺ: «**فإذا اختلفتم..**» ولم يذكر نوع الاختلاف، فهو عام، مطلق، يتناول أي نوع من أنواع الاختلاف المؤدي إلى اختلاف القلوب، فإنه قد اشترط ائتلاف القلوب، فإذا حدث الاختلاف في فهم المعنى، أو في كيفية الأداء، أو بأي نوع، ويؤدي ذلك إلى اختلاف القلوب أو تنازعها، أو تباغضها، فقد أمر النبي بالقيام عن القراءة، ولهذا قال في رواية الطبراني: «**فإذا اختلفت فقوموا**» أي: القلوب.

وقد يكون الاختلاف في فهم معاني بعض الآيات، وليس في المجالس عالم متمكن يقرر المعنى، وقد يكون في كيفية الأداء، أو التلاوة، فهذا يريد قراءة ورش، وهذا قراءة الآخرين، وهذا قراءة عاصم، وهذا قراءة ابن كثير.

وقد يكون الاختلاف بسبب عدم علم معنى آية من المتشابه، أو يكون بسبب أن واحدا يريد القراءة بأحكام التجويد، لتعليم الجاهل، وآخر لا يريد مراعاة ذلك.

---

(٨٣) فتح الباري، ج ٩، ص ١٠١.
(٨٤) المصدر السابق، ص ١٠١ نقلا عن عياض.

فمهما حدث الاختلاف، الذي يؤثر في القلوب تأثيرا سلبيا ضارا بحيث يوقع فيها التباغض، أو الميل للنزاع، أو العداء، وبالتالي يدب إلى المسلمين داء الأمم؛ البغضاء، وهو الداء الذي يؤدي إلى الهلاك الاجتماعي.

فإنه يجب القيام عن القراءة، فبدلًا من أن يزداد القراء الجالسون حبًّا وتآلفًا وتماسكًا بهدايات القرآن، فإنهم- بسبب الاختلاف- تتباغض قلوبهم، وتفقد روح التآلف والتماسك، ومنعًا لهذه النتيجة، فقد (أمر) النبي ﷺ بالافتراق عن التلاوة، وفي قلوب الذين اجتمعوا المحبة والتآلف.

وبهذا نفهم سر غضب الرسول ﷺ المذكور في الحديث التالي:

٣- أخرج مسلم أن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوما، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**»(٨٥).

فالقرآن: هداية الله، أنزله بعلمه، نورا وهدى، وروحا وهداية وشفاء، ومنهاجا لتربية كاملة، وسياسة راشدة، وهو كلام الله غير مخلوق، والإقبال على القرآن يكون لطلب هذه الهداية، وتعلم هذا العلم، والاستنارة بهذا النور، والحياة بهذه الروح، ونية اتباع هذا المنهاج، والعمل بدلالاته المحكمة، وبهذا يؤسس القرآن شخصية مسلمة، وأمة مسلمة، فإذا أقبلنا على القرآن ونحن نختلف، ونتنازع فإننا نتحجب عن روح القرآن السابقة، وسينتج اختلافنا البغضاء في قلوبنا وهذا أول طريق الهلاك، وأساسه النفسي، فالبغضاء هي الحالقة التي تحلق الدين، وتحلق الأمة.

٤- وقد أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود: «أنه سمع رجلا يقرأ آية، سمع النبي ﷺ قرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فقال:

---

(٨٥) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٦٦، ص ١٦٠.

«**كلاكما محسن، فاقرآ**»، أكبر علمي؛ قال: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم**»(٨٦).

أي: أهلكهم الاختلاف، وفي رواية: «**فأهلكوا**» وفي رواية ابن حبان والحاكم من طريق زر بن حبيش عن ابن مسعود في هذه القصة: «**إنما أهلك من كان قبلكم: الاختلاف**»(٨٧).

فالنبي ﷺ ينذر، ويحذر، بشدة، من الاختلاف في القرآن، ويجعله (الاختلاف) سببا للهلاك، الاجتماعي، والأخروي، نعوذ بالله من ذلك.

٥- قال ابن حجر: «وفي هذا الحديث والذي قبله: الحض على الجماعة والألفة، والتحذير من الفرقة، والاختلاف، والنهي عن المراء في القرآن، بغير حق، ومن شر ذلك: أن تظهر دلالة الآية على شيء يخالف الرأي، فيتوسل بالنظر، وتدقيقه، إلى تأويلها (صرفها عن معناها الظاهر) أو حملها على ذلك الرأي، ويقع اللجاج في ذلك، والمفاضلة عليه»(٨٨).

٦- إذن مجلس القرآن - تلاوة، ومدارسة- هو مجلس يربي التآلف في قلوب أصحابه، كما يربي القرآن فيهم الإيمان والتقوى، ومكارم الأخلاق.

رابعا: خاتمة واستنتاجات:

١- يريد النبي ﷺ أن نكون متآلفين، متحابين، متماسكين، قلوبنا قلب واحد، لا اختلاف بيننا ولا تباغض، وهذا التآلف القلبي، والتماسك الاجتماعي يكون مع الموالاة والمؤاخاة، الشرط الأساسي لوجود أمة إسلامية فاعلة في التاريخ والعالم.

٢- وسبيل الوصول إلى هذا الهدف هو الاجتماع، والتجمع المشترك، على

---

(٨٦) فتح الباري، ج ٩، رقم ٥٠٦٢، ص ١٠١.

(٨٧) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠٢ (من الشرح).

(٨٨) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠٢ - ١٠٣.

عمل مشترك، مشروع؛ في الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن، ومدارسة الحديث، والعلم النافع، والتفكر، ومحاسبة النفس، والطعام المشترك، والسفر والرحلات المشتركة، والأعمال التطوعية الخيرية الاجتماعية المشتركة مثل: تمهيد طريق عام، أو عمل طلمبة مياه في حقل، أو شارع، أو شق صرف صحي في قرية، أو ردم مستنقع، أو مساعدة في إطفاء حريق..أو في بناء بيت لمن يحتاج المعونة..إلخ.

كل هذه الأعمال المشتركة هي سبل تربوية لتربية التآلف القلبي، والتماسك الاجتماعي، والتراص الوجداني.

٣- وقد حث النبي ﷺ على ذلك كله، تفصيلا، أو إجمالا، كما دللنا على بعض ذلك.

٤- ومن أهم ما أكد عليه النبي ﷺ هو الحرص على التراص والتآلف والتماسك، في صلاة الجماعة، فإذا راعينا هذا التراص والتماسك، وعدم الاختلاف - كل يوم خمس مرات- فما ظننا بالأمة، بعد عام واحد، من هذه التربية الاجتماعية اليومية المتكررة؟!

إن معنا وسيلة تربينا، وهي عبادة الله، في نفس الوقت، فلماذا لا نحسن تفعيلها؟!

٥- وكذلك مما أكد عليه النبي ﷺ: مجالس الذكر، ومجالس تلاوة القرآن، ومدارسته، وقد حرص ﷺ على استمرار روح التآلف والتماسك في هذه المجالس، حتى تثمر تآلف قلوبنا.

٦- وحذر- بشدة- من الاختلاف الظاهر، ومن الاختلاف في مجلس القرآن، لأنه يؤدي إلى اختلاف القلوب.

٧- وفي كل الأحوال فإن النبي ﷺ يقرر قانونا نفسيا اجتماعيا هو أن اختلاف الظواهر يؤدي إلى اختلاف القلوب، ومن الضروري إعمال هذا

القانون في نطاقه، وليس في غير نطاقه.

٨- وأختم هذا الفصل بما أخرجه ابن المبارك عن ابن عباس؛ قال: «إن النعمة تكفر، والرحم تقطع؛ وإن الله- تعالى- يؤلف بين القلوب، وإذا قارب بين القلوب؛ لم يزحزحها شيء أبدا؛ ثم تلا هذه الآية: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]»(٨٩).

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس؛ قال: «النعم تكفر، والرحم تقطع، ولم نر مثل تقارب القلوب»(٩٠).

فالله هو الذي يؤلف بين القلوب، ويجعلها متقاربة، متحابة، متآخية، وهذه الحقيقة تعين أسلوبا لتربية التآلف القلبي هو: الدعاء بصدق، وعمق قلبي أن يؤلف بين قلوبنا نحن المسلمين، وأن يقبل بقلوبنا إليه.

اللهم أقبل بقلوبنا إليك حتى نعرفك حسنا، وحتى نعبدك حسنا، وحتى نرعى عهدك حسنا، وأجذب قلوبنا إليك جذبة لا ترجع بعدها إلى أحد غيرك. آمين.

٩- والدلالة التربوية من هذا الفصل كله أن التآلف القلبي، والتماسك الروحي، والاجتماعي، قيمة إسلامية ضرورية، يجب إكسابها لكل المسلمين، فهي تعين هدفا تربويا رئيسيا في منظومة قيم وأهداف تربية القلب المسلم، والطريق التربوي لذلك هو ممارسة جميع الأعمال التي ذكرناها في هذا الفصل بالشروط الموضحة، وأن نمارس الدعاء لله أن يؤلف بين قلوبنا مع كل عمل من هذه الأعمال الجماعية المشتركة.

ومع ممارسة هذه الأساليب التي هي عبادات لله، جميعا، فإن تربية هذه القيمة في القلوب والعقول، والممارسة تقتضي:

---

(٨٩) ابن المبارك: كتاب الزهد والرقائق، رقم ٣٦٢، ص ١٢٣.

(٩٠) قال الألباني: صحيح الإسناد، الأدب المفرد، رقم ٢٦٢، ص ٩٨.

أ- أن نتصور هذه القيمة تصورا صحيحا، واضحا، مقنعا يسوغ الإيمان بها، والرغبة فيها، والعزم على العمل بها.

واكتساب هذا التصور بدوره يتطلب دراسة هذا الفصل بدقة، وعمق، ودراسة فقرة الموالاة في فصل تربية الإيمان وتجديده في القلب، ودراسة فقرة «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه» في فصل (تربية القلب المتعلق بالمساجد) ودراسة ما يتعلق بدور الدنيا في تباغض القلوب وتحاسدها، في فصل (تربية القلب المخموم) فهذه الدراسة المفصلة، وبشكل مكثف، ومنظم، ومخطط، ومقصود، تكسبنا هذا التصور، كما يريده الإسلام.

ب- أن نرغب في التخلق بهذه القيمة، وأن نحبها بعمق، وأكاد أقول: نعشقها، فلابد من تربية إرادة، ومحبة الاتصاف بقيمة التآلف القلبي، والتماسك الاجتماعي، وهذه المحبة تتربى من خلال الدراسة الجادة، للفصول السابقة، والتفكر في ثمرات التآلف في الدنيا والآخرة.. وأضرار الاختلاف والتباغض القلبي، في الدنيا والآخرة.

جـ- الشروع في ممارسة المؤاخاة، والتآلف في صلوات الجماعة، ومجالس الذكر، والدرس، والتلاوة، وأعمال الخدمة.

د- ممارسة الدعاء بالصيغ الصحيحة التي تتضمن تآلف القلوب، وترابطها، والدعاء للمسلمين بظهر الغيب، في أي وقت.

هـ- التفكر في حاجة المسلمين- الآن- للتآلف، ونبذ التفكك الذي أضعف الأمة.

و- الدخول في أعمال مشتركة مشروعة، مع آخرين من المسلمين.

ز- الابتعاد عن كل سبب يؤدي إلى إنشاء البغض والتعادي في القلب المسلم، مثل: التكلم بكلام غير حسن، في حق أخ مسلم، ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ ... ﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومثل التجمع على ميسر، أو على شرب الحشيش، أو الخمر، أو فعل ذلك، انفراديا.. قال الله- تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

عن ابن عباس قال: «أنزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار، شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا؛ جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة، ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفا رحيما ما صنع بي هذا، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١]»[٩١].

والمقصد أن نترك ونتجنب كل قول أو فعل أو تصرف يؤدي إلى إحداث بغض في قلب مسلم.

اللهم ألف بين قلوبنا، وارحم ذات بيننا. آمين.

بهذا تتربى، بعون الله، قيمة التآلف القلبي، وتتحقق زمرة القلب الواحد، في عالم الواقع.

---

(٩١) رواه النسائي في التفسير (١٧١) بإسناد حسن، وابن جرير في جامع البيان (٧/ ٢٣) والطبراني في الكبير (١٢٣٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢١): رجاله رجال الصحيح. ورواه الحاكم (٤/ ١٤١-١٤٢)، وسكت عنه، وقال الذهبي: على شرط مسلم. ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٨٥، ٢٨٦) وانظر: الشوكاني: فتح القدير، ج ٢، ط دار الوفاء، ص ١٠٧، مع التخريج.

خامسا: أسئلة وممارسات لتعميق الفهم:

١- ما مفهوم التآلف القلبي؟

٢- ما أهميته في بناء الأمة؟

٣- كيف نحقق التآلف القلبي والتماسك الاجتماعي؟

٤- بين دور صلوات الجماعة في تربية التآلف القلبي، والتراص الاجتماعي.

٥- ما القانون النفسي الاجتماعي الذي يقرره هذا الفصل؟

٦- ما الأساليب التربوية المذكورة في هذا الفصل لإكساب المسلمين قيمة التآلف القلبي؟

٧- ما دور مجالس القرآن، والذكر والدعاء، والتعلم في تربية التآلف القلبي؟

٨- ما طبيعة الشخصية الاجتماعية للمسلم، كما يبينها هذا الفصل؟

٩- هل تتحقق فيك هذه الخاصية؟

١٠- هل مررت بدورة تربوية تكسبك هذه القيمة؟

١١- أعد قائمة بالأعمال المشتركة لتربية التآلف، كما وردت في هذا الفصل، ثم حدد: هل تمارسها مع إخوانك؟

١٢- متى يكون الذكر الجماعي – بدعة؟

١٣- متى نترك مجلس القرآن؟

١٤- كم حديثا نبويا صحيحا في هذا الفصل؟

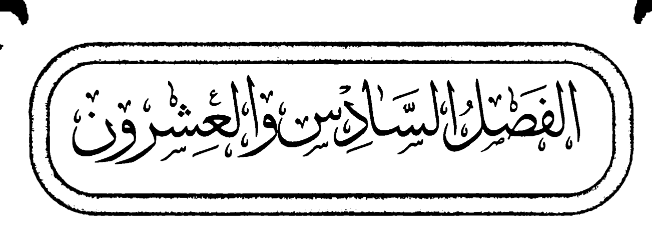
١٥- ما رأيك في بناء هذا الفصل؟ وفي أسلوب كتابته؟ هل بإمكانك أن تعيد كتابته، لمنفعتك، أنت، ومنفعة إخوانك؟ قم بذلك فورا.

١٦- ما شروط جعل مجلس الذكر مطابقا للشريعة ولسنة النبي ﷺ؟

١٧- حدد خصائص زمرة القلب الواحد - كما هي في هذا الفصل؛ ثم اسأل نفسك: هل تتمسك بها؟

١٨- اجمع أدعية صحيحة الصيغ في تآلف وترابط القلوب، وتقوية الروابط بين المسلمين، وادع بها.

والله يديم ودنا، ويوثق رابطتنا، ويؤلف بين قلوبنا، ويرحم ذات بيننا، يهدينا سبلنا. آمين.



تربية القلب المعلق بالمساجد

الذي يحب في اللّه ويخاف من اللّه

تربية القلب المعلق بالمساجد
الذي يحب في الله ويخاف من الله

أولا: نص الحديث النبوي:

أ- أخرج الإمام البخاري عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»**(١).

وأخرجه في كتاب الأذان، عنه، عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»**(٢).

وأخرجه في كتاب الحدود، عنه، عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء؛ ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»**(٣).

ب- وأخرجه مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه**

---

(١) فتح الباري، ج ٣، كتاب الزكاة، باب ١٦، رقم ١٤٢٣، ص ٢٩٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٢، رقم ٢٦٦، ص ١٤٣.
(٣) المصدر السابق، ج ١٢، رقم ٦٨٠٦، ص ١١٢.

معلق في المساجد، ..الحديث»(٤).

ورواه عن طريق مالك، (...) وقال: «**ورجل معلق بالمسجد؛ إذا خرج منه حتى يعود إليه**»(٥).

جـ- وأخرجه مالك عن أبي سعيد الخدري، أو عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه متعلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته ذات حسب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(٦).

د- وأخرجه أحمد عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله؛ الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه متعلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله- عز وجل- اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة أخفاها؛ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته ذات منصب وجمال إلى نفسها؛ قال: أنا أخاف الله- عز وجل**»(٧).

هـ- وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة- أو: عن أبي سعيد- أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل كان قلبه معلقا بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه..**»(٨) الحديث قريبا من رواية مالك، وفيه: «**ورجلان تحابا في الله، فاجتمعا على**

---

(٤) إكمال المعلم، ج ٣، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١، ص ٥٦٢ – ٥٦٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٥٦٤.

(٦) الإمام مالك: الموطأ، باب ما جاء في المتحابين في الله، رقم ١٤، ص ٥٩١.

(٧) إسناده صحيح، المسند، ج ٩، رقم ٩٦٢٨، ص ٢٧٥.

(٨) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، سننه، ج ٤، كتاب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله، رقم ٢٣٩٨، ص ١٧٥.

ذلك، وتفرقا..».

ورواه من طريق حفص بن عاصم عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ، نحو حديث مالك بن أنس، بمعناه، إلا أنه قال: «**كان قلبه معلقا بالمساجد**»، وقال: «**ذات منصب وجمال**»(٩).

و- وأخرجه النسائي من هذا الطريق، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله عز وجل يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله- عز وجل- ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل كان قلبه معلقا في المسجد، ورجلان تحابا في الله- عز وجل.. الحديث**»(١٠).

ز- وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، والسنن الكبرى، عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله- تعالى- ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه، ورجل كان قلبه معلقا بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١١).

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق مالك، وفيه: «**وشاب نشأ بعبادة الله- عز وجل**» وفيه: «**ورجل كان قلبه معلقا بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك، وتفرقا عليه**»(١٢).

---

(٩) المصدر السابق، ص ١٧٥.

(١٠) سنن النسائي، ج ٨، كتاب آداب القضاة، باب ١، رقم ٥٣٨٠، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(١١) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: كتاب السنن الصغير، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت، رقم ٤٦٦، ص ١٥٢، وأخرجه في السنن الكبرى (٣/ ٦٥، ٨/ ١٦٢، ١٠/ ٨٧).

(١٢) الإمام البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ٤٦٩.

وأخرجه من طريق أخرى وفيه: «**سبعة يظلهم الله- تعالى- تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ رجل قلبه معلق بالمسجد، ..**» وفيه: «**ورجل غض عينيه عن محارم الله- تعالى- وعين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله**»(١٣).

ح- وأخرج الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي عن سلمان؛ أنه قال: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، رجل لقي رجلا فقال: والله إني لأحبك في الله، وقال الآخر مثل ذلك؛ ورجل قلبه معلق بالمساجد، من حبها، ورجل جعل شبابه ونشاطه فيما يحب الله ويرضى، ورجل دعته امرأة ذات جمال إلى نفسها؛ فتركها من خشية الله، ورجل أعطى صدقته بيمينه، كاد أن يخفيها من شماله، ورجل إذا ذكر الله فاضت عيناه؛ من خشية الله- تعالى**»(١٤).

وأخرج عبد الرزاق في جامع معمر قال: أخبرنا معمر عن قتادة أن سلمان قال: «التاجر الصادق مع السبعة في ظل عرش الله يوم القيامة، والسبعة: إمام مقسط، ورجل دعته امرأة ذات حسب وميسم (أي: حسن) إلى نفسها: فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل ذكر الله عنده ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق بالمساجد من حب إياها، ورجل تصدق بصدقة، كادت يمينه تخفي شماله، ورجل لقي آخاه فقال: إني أحبك لله، وقال الآخر: وأنا أحبك لله، حتى تصادرا على ذلك، ورجل نشأ في الخير منذ هو غلام»(١٥).

---

(١٣) المصدر السابق، ص ٤٧٠.

(١٤) قال محققه: حديث حسن، إسناد المصنف ضعيف، قلت: عزاه الحافظ في الفتح لسعيد بن منصور، وحسن إسناده، قال: وقيل: المراد: ظل عرشه، ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن، «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه**» فذكر الحديث: فتح الباري، ج٢، ص١٤٤، وقال: وكذا أخرجه سعيد بن منصور من حديث سلمان الفارسي، بإسناد حسن موقوفا عليه، لكن حكمه الرفع، فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٧ وفي رواية سعيد بن منصور بعض اختلاف في الألفاظ عن رواية العبسي، جاء في الفتح: وفي حديث سلمان: أفنى شبابه ونشاطه في عبادة الله، وقال: ووقع في رواية حماد بن زيد: ورجلان قال كل منهما للآخر: إني أحبك في الله، فصدرا على ذلك، ونحوه في حديث سلمان، انظر: المصدر السابق، ص ١٤٥.

(١٥) عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المصنف، ج ١١، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، توزيع المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٣هـ ١٨٨٣م، رقم ٢٠٣٢٢، ص ٢٠١.

ط- وأخرج ابن المبارك في الزهد عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله- عز وجل- ورجل كأن قلبه معلق في المسجد..** الحديث»[١٦].

هذه سبع عشرة رواية لهذا الحديث أثبتها جميعا؛ لأن كل رواية تضيف شيئا مهما في موضوع الفصل، وهؤلاء السبعة جميعا استحقوا نفس الثواب، وهو أن يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، مع تنوع الخصال التي اتصفوا بها؛ لأنهم جميعا تعاملوا مع الله وحده، وابتغوا رضاه وحده، وطابت قلوبهم، فطابت أعمالهم، وأخلاقهم، وجميع هذه الخصال هي من نبع القلب المؤمن، الذي سلم لله، وتربى في وسطه وجذره الإيمان به، والخوف منه، والرغبة في رضاه، وحب مكارم الأخلاق التي يحبها، فالعدل لا يلتزم به إلا مسلم يؤمن بالله، ويلتزم بأمره، والتزام العبادة هو فعل قلبي من حيث المبدأ، والحب في الله فعل قلبي يثمر أخلاق المؤاخاة، وتعلق القلب بالمساجد، وفي المساجد، فعل قلبي خالص، وترك الزنى هو نتاج الخوف والخشية من الله، وهي من أعمال القلوب، ونداوة العين وبكاؤها عند ذكر الله، هو بسبب احتراق القلب من خشية الله، وإجلاله، وشهود آثار صفاته وأسمائه، والتصدق في خلاء، هو إخلاص لله، وابتغاء لمرضاته وحده، وهذا من أعمال القلوب الخالصة.

فالسبعة الأعمال والخصال هي ثمرات لتربية القلب، وللمعاناة من أجل الاتصاف بها، من أجل أن يثيبهم الله وحده، إنهم آووا إلى الله، وآثروه على غيره.

ولهذا فإنني أتناول هذه الخصال السبع بالبيان في النقاط الآتية، وذلك

---

(١٦) ابن المبارك: كتاب الزهد، رقم ١٣٤٢، ص ٤٧٣.

ليتضح لنا وجهة التربية القلبية الإسلامية، وآثارها الخلقية، ولتتضح لنا بعض معالم الشخصية التي نهدف لبنائها وإخراجها للناس، والعالم، فلنتأمل ولندرس.

ثانيا:

ثبت من رواية البيهقي: «**سبعة يظلهم الله تحت عرشه..**» ومن رواية سعيد ابن منصور عن سلمان بإسناد حسن: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه..**» أن الظل المضاف إلى الله تعالى إضافة ملك، وتشريف هو ظل عرشه- تبارك وتعالى- وقد ثبت أن لله عرشا ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال البخاري: باب (وكان عرشه على الماء، وهو رب العرش العظيم) قال أبو العالية: استوى إلى السماء: ارتفع، فسواهن: خلقهن، وقال مجاهد: استوى: علا على العرش(...) عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ، إذ جاءه قوم من بني تميم، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن؛ إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر: ما كان؟ قال: «**كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء**»، ثم أتاني رجل، فقال: يا عمران، أدرك ناقتك، فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها، فإذا السراب ينقطع دونها، وايم الله لوددت أنها قد ذهبت، ولم أقم(...) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «(...) **فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**(...)» عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: كان النبي ﷺ يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله، العليم**

الحليم، لا إله إلا رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض، ورب العرش الكريم..» (...) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش**»(١٧).

فنحن نؤمن بالعرش، وأنه هو السرير، وأنه مربوب مخلوق، خلقه الله، وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه، وأن الاستواء عليه، يعني العلو عليه، وأن الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والإيمان به واجب، والجحود به كفر، فالله استوى على عرشه، مباين لخلقه، وأنه على العرش كما وصف نفسه، نؤمن بذلك من غير تشبيه، ولا تأويل، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تكييف، فنثبت هذه الصفة، ونؤمن بها، كما جاءت، ولا نقول: كيف؟ كما جاء عن أئمة أهل السنة والجماعة، الشافعي وسفيان ومالك وربيعة، وأحمد وابن عينية، وابن المبارك وغيرهم(١٨).

فالعرش هو السرير، وهو أيضا ما يستظل به.

فنحن نؤمن بأن المتخلقين بالصفات الموصلة لظل العرش، سوف يظلهم الله في ظله الحقيقي، يوم لا ظل إلا ظله، يوم الدينونة، حيث تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، ويلجم الإنسان بعرقه، ومن حيث إنهم في ظل عرش الرحمن، فإنهم في كرامته ورحمته، ولا عكس.

ثالثا:

الإظلال في ظل العرش ليس مخصوصا بهؤلاء السبعة المذكورين في حديث

---

(١٧) فتح الباري، ج ١٣، كتاب التوحيد، باب ٢٢، ص ٤٠٢ – ٤٠٥.

(١٨) انظر في تفصيل ذلك: الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المجلد الأول، سياق ما روي في قوله- تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ وأن الله على عرشه في السماء، ص ٣١٩ – ٣٣١. محمد بن إسحاق بن خزيمة: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، (باب ذكر استواء خالقنا العلي الأعلى على عرشه) ص ١٠١ – ١٠٩. عبد الله بن محمد الغنيمان: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الجزء الأول، ص ٣٤٣ – ٤٣١ (وهو مهم جدا). حافظ بن أحمد حكمي: معارج القبول.. الجزء الأول، دار الأرقم، ص ٩٢ وما بعدها.

هذا الفصل، فهناك خصال أخرى موجبة للظلال بظل عرش الرحمن، منها:

إنظار المعسر، وتأجيل رد دينه إلى وقت الميسرة، والرفق به، فقد أخرج مسلم عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار، قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليَسَر- صاحب رسول الله ﷺ، (وساق الحديث وفيه، ..) قال: أجل، كان لي على فلان ابن فلان الحرامي مال، فأتيت أهله، فسلمت، فقلت: ثَمَّ هو؟ قالوا: لا، فخرج عليَّ ابن له جَفْر، فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك، فدخل أريكة أمي، فقلت: اخرج إلي، فقد علمت أين أنت؟ فخرج فقلت: ما حملك على أن اختبأت مني؟ قال: أنا والله، أحدثك، ثم لا أكذبك، خشيت، والله، أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله، وكنت، والله معسرا، قال: قلت: آلله! قال: الله، قلت: آلله؟ قال: الله، قلت: آلله؟ قال: الله، قال: فأتي بصحيفته فمحاها بيده، فقال: إن وجدت قضاء فاقضني، وإلا أنت في حلٍّ، فأشهد، بصر عيني هاتين، ووضع إصبعيه على عينيه، وسمع أذني هاتين، ووعاه قلبي هذا- وأشار إلى مناط قلبه- رسول الله ﷺ يقول: «**من أنظر معسرا، أو وَضَع عنه، أظله الله في ظله**»(١٩).

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أنظر معسرا أو وضع له، أظل الله يوم القيامة، تحت ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله**»(٢٠).

وأخرج ابن ماجه عن أبي اليسر صاحب النبي: قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يظله الله في ظله، فلينظر معسرا، أو ليضع له**»(٢١).

---

(١٩) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، رقم ٣٠٠٦، ص ٥٥٩، ٥٦٠.

(٢٠) قال: وفي الباب عن أبي اليسر، وأبي قتادة، وحذيفة، وابن مسعود، وعبادة، وجابر، قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٣١٠، ص ٥٢ – ٥٣.

(٢١) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ١٩٧٨، ص ٢٨١.

ومن الخصال الموصلة إلى الظلال: الغزو في سبيل الله، وإعانة المجاهد، والتاجر الصدوق[٢٢].

رابعا:

كل ما في الحديث من قيم خلقية يدخل فيه الرجال والنساء، قال ابن حجر: «ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له، بل يشترك معهم النساء فيما ذكر، إلا إن كان المراد بالإمامة العظمى، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم، وتخرج خصلة ملازمة المسجد؛ لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن، حتى الرجل الذي دعته المرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك جميل مثلا، فامتنعت؛ خوفا من الله تعالى، مع حاجتها..»[٢٣].

خامسا:

كل مسلم ومسلمة في حاجة إلى تدبر هذا الحديث والعمل به؛ لأن الموقف يوم القيامة شديد، وكرباته رهيبة، وأكتفي بذكر ما أخرجه مسلم في صحيحه عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تدني الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل** (قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمساحة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين) قال: **فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما**»، قال: وأشار رسول الله إلى فيه[٢٤]، يعني: فمه، فالشمس تقرب،

---

(٢٢) انظر: المعجم الكبير للطبراني، ج ٦، حديث رقم ٥٥٩٠، ص ٨٦.
وجلال الدين السيوطي: بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال، مع كتاب: عبد الحميد كشك: سبعة في ظل عرش الرحمن، مكتبة التراث الإسلامي، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص ١١١-١٢٨ (وهي عنده سبعون خصلة).

(٢٣) ابن حجر: فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٧.

(٢٤) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٨، (ط المصرية) ص ١٩٦.

والأهوال شديدة، ولا ظل هناك- آنذاك- إلا ظل الرحمن، وقد حدد رسول الله ﷺ الخصائص التي ينجي الله بها من هذا الهول الشديد في يوم الوعيد، فليتدبرها كل مسلم، ليعمل بها، ليتخلق بها، ابتغاء وجه الله.

سادسا: الإمام العدل وقيمة العدل:

أ- العادل: هو في نفسه عَدْل، ويحكم بالعدل، ويقصد به من حيث الأصل، وظاهر الخطاب: الخليفة المسلم، صاحب الإمامة العظمى؛ ويلتحق به كل من ولي شيئا من أمور المسلمين، فعدل فيه، ويؤيده رواية مسلم من حديث عبد الله بن عمرو – رفعه: «**إن المقسطين عند الله، على منابر من نور، عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وما وُلُّوا**»(٢٥) أي: كانت لهم عليه ولاية، والمقسطون هم العادلون.

فيدخل في ذلك: كل صاحب مسئولية وولاية، مثل الأب، والأم، والمدرس، مع تلاميذه، والمدير، والوزير، وضابط الشرطة، والمحافظ، والقاضي، ورئيس الدولة، والأمير، وكل موظف.

فكل من عدل، ولم يمل مع الهوى النفسي، والمصلحة الذاتية، والمنفعة، ولم يرتش بمال، ولم يمارس المحسوبية، وأعطى كل ذي حق حقه، ولم ينقص أحدا من حقه، الذي هو له، بل يمشي بالحق مع الجميع، ولا يضيع حدود الله مع أحد، مهما كان، ولم يظلم أي أحد تحت مسئوليته، في حال، أو عرض، أو بدن، أو أي حق كان، كل من كان كذلك؛ تحقق فيه هذا الوصف: العدل، الذي أمر الله به، في قوله: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ**﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ**﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ**﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿**فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ**﴾ [ص: ٢٦]، ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿**وَأَقْسِطُوٓاْ**

(٢٥) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ١٨٢٧، ص ٢٢٧، وأخرجه النسائي، المجتبى، ج ٨، رقم ٥٣٧٩، ص١٦٢ مع اختلاف لفظي يسير، وانظر: ابن حجر: فتح الباري، ج٢، ص ١٤٤ – ١٤٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩].

ب- **والعادل** هو: «الذي يتبع أمر الله؛ بوضع كل شيء في موضعه، من غير إفراط ولا تفريط»(٢٦).

والعادل: الذي يولي الوظائف أكفأ الناس لها، وإلا فهو خائن لله ورسوله، والمؤمنين(٢٧).

والعادل: هو الموحد العابد لله، الذي يضع العبادة موضعها بأن يجعلها لله وحده.

والعدل هو التقسيط على سواء، والتسوية بين المتساوين، ومن العدل: الإحسان إلى من أحسن إليك، وكف الأذى عمن كف أذاه عنك، وهو المساواة في المكافأة، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والإحسان: أن يقابل الخير بأكثر منه، والشر بأقل منه، والعدل: عدم الظلم وعدم الجور، وعدم النقص في حقوق الآخرين، وهو توفية الآخرين حقوقهم، ومن العدل في الحكم ألاَّ يميل برأيه وهواه إلى أحد الطرفين، فيجور في الحكم والمعاملة، والعدل: إعطاء فرص متكافئة للآخرين، وإقامة الوزن بالقسط: سواء وزن الآراء، والمذاهب، أو وزن الأشخاص، أو وزن الأشياء؛ والعدل: هو الإنصاف من النفس، وهو الإقساط، وهو إعطاء الآخرين حقوقهم، تامة(٢٨).

ومن العدل: أن يسوي بين الأولاد في الحقوق والواجبات، والقبلات، وأن ينصف تلامذته، ويسوي بين المتساوين منهم، ويراعي الفروق الفردية بينهم.. إلخ(٢٩).

---

(٢٦) ابن حجر: فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٥.

(٢٧) عبد الحميد كشك: سبعة في ظل عرش الرحمن، ص ٣١.

(٢٨) الراغب الأصفهاني: الفروق في غريب القرآن، ص ٣٢٥ - ٣٢٦، ٤٠٣، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ٣، ص ١٩٠.

(٢٩) د. عثمان عبد المعز رسلان: دستور المعلمين، ص ٣٩٠ - ٣٩٢.

جـ- والعادل يثيبه الله بهذا الثواب؛ لأنه تعامل مع الله وحده، وتخلق بقيمة العدل، ابتغاء وجه الله، فتصور العدل تصورا صحيحا، وآمن به، وأحبه، وعشقه، وآثره وفضله، على الظلم، وعلى أهواء النفس والدنيا، وعانى من أجل التخلق والاتصاف بقيمة العدل، وأدى إلى الله، وأوى إليه المظلوم لأجل الله، وأشعر قلبه العدل، والرحمة، وأظل الضعفاء والمساكين، والمظلومين بظل عدله، فآواه الله إليه، في ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله، ثوابا من الله، والله يحب المقسطين.

د- ولا شك أن المرأة تدخل في كل هذا ما عدا الإمامة العظمى، فالمرأة راعية في بيت زوجها وولده، ومسئولة عن رعيتها، وهي سيدة في بيت زوجها، وهي شقيقة الرجل، كما جاء كل ذلك في الأحاديث الصحيحة، فلها مسئوليات يجب أن تؤديها وتمارسها بالعدل، لأن الله يحب العدل، وأمر بالقسط، وهي تحب ما يحبه الله تعالى.

هـ- والعدل خلق أساسي في شخصية المسلم، فهو عادل مع مكونات نفسه، ومع كل من يتعامل معه، لربه عليه حق، ولبدنه عليه حق، ولعينه عليه حق، ولزوجه عليه حق، ولزوره وضيوفه عليه حق، ولعقله عليه حق، ولروحه عليه حق، ولقلبه عليه حق، ولأولاده عليه حق، ولجيرانه عليه حق، ولكل مسلم عليه حق،..إلخ، وخلق العدل يدفعه دفعا من جوانية قلبه إلى أن يعطي كل ذي حق حقه بالقسط، ولا يبخس- أي: ينقص- الناس أشياءهم.

هكذا يكون عند المسلم حساسية شعورية، واستشعار قلبي لقيمة العدل مع كل من يليه أموره، ومن يتعامل معهم، حتى ولو لم يعامله الآخرون بالعدل، فهو يتعامل بقيمة العدل معهم؛ لأنه يؤمن بالله الذي يحبها ويأمر بها، وهو يتعامل بالعدل حتى مع الذين يبغضهم بقلبه، لأن العدل خلق رباني، قال الله لكل مسلم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: يحملنكم، أي: ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾

بغضهم، ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨] فالمسلم يعدل؛ لأنه تقي ولأنه يحب الله، الذي يحب المقسطين.

و- وليس غرضنا هنا أن نفصل ما يتعلق بقيمة العدل، وإنما الهدف هو أن نقرر أن العدل قيمة للمسلم ينبغي أن يتخلق بها؛ لكي يظله الله في ظل عرشه يوم الدينونة والحساب.

ز- ولا يمكن أن يتخلق المسلم بقيمة العدل إلا من خلال مشروع تربوي، إلا من خلال الفعل التربوي الذي يغير تصوراته ومعتقداته، وأخلاقه السيئة، وشهواته واتجاهاته وعاداته، وتصرفاته، لكي يتجه به إلى ممارسة قيمة العدل، بحيث تكون جزءا من ضميره الخلقي، وهويته الذاتية، وصفة مميزة له.

ح- والمشروع التربوي الذي يغير المسلم ليتخلق بالعدل في كل محاوره وأبعاده يسعى القائمون به والممارسون إلى:

١- أن يتصور المسلم قيمة العدل ومحاورها وأبعادها ومضموناتها تصورا صحيحا واضحا، في العقل والقلب، فيعرف ما العدل؟ وما أبعاده؟ وما صوره التطبيقية؟.. إلخ، وذلك من خلال المحتوى القرآني، والخطاب النبوي الثابت، عن رسول الله ﷺ، وتوضيحات الأئمة الفقهاء: فيدرس آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ في العدل، بكل محاوره، بهدف تكوين وتنمية هذا التصور الصحيح الواضح.

٢- أن يؤمن المسلم بالتصور الإسلامي عن العدل، فيصدق بكل ما سبق، ويعلمه علم اليقين، ويشعره قلبه، ويعلم أن العدل قيمة إيمانية، وشعبة من شعب الإيمان والتقوى، وأن الله أمر بها، ويحبها، ويثيب عليها، ويعاقب على ضدها.. ولا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنه سيقيم العدل التام يوم القيامة.. إلخ، فيتيقن قلبه، ويصدق، ويذعن لكل ذلك، ويستسلم له

بوجدانه ومشاعره، وإرادته.

٣- أن يحب صفة العدل، فالحب داعية الإرادة، والإرادة مبدأ العمل والممارسة، ويشتهي من أعماق قلبه أن يكون عادلا، ليحبه الله، وليكون على منابر من نور، يوم القيامة، وليظله الله في ظل عرشه يوم الدينونة، ويرغب بقوة في الاتصاف بخلق العدل، وذلك بأن يتأمل في آثار العدل في الدنيا والآخرة، وفي آثار الظلم والبغي في الدنيا وفي الآخرة، من خلال دراسة ما ورد في القرآن والسنة عن ذلك.

٤- أن يجمع همه، ويعزم بقوة على أن يكون ممارسا للعدل في كل أبعاده ومحاوره، ليكون شخصية مسلمة حقا، تتخلق بخلق الإسلام، ويستعين على ذلك بدراسة سير النفر القدوة، الذين يربون بإشعاعهم السلوكي، كما يربون بخطابهم التربوي، فيدرس السيرة الخلقية لرسول الله، ولسيدنا يوسف، ولسيدنا عمر بن الخطاب وابن عبد العزيز، ولصلاح الدين الأيوبي، ويدرس أحاديث العدل الواردة عن النعمان بن بشير، وغير ذلك، مما يربي فيه نية العدل، فينهض بقلبه، ويثب بوثبة الحب، وينجذب لهذا الخلق انجذابا قلبيا لينمو بالعدل، وليتحقق بمحبة الله له.

٥- أن يمارس العدل؛ يتكلف العدل عمليا، ويتعود عليه، فالخير بالتعود؛ (تعودوا الخير ما استطعتم) فالخير عادة، فإذا مارسنا العدل مع أولادنا، ومع جيراننا... إلخ فإن خلق العدل ينمو فينا، ويعظم، ونتعود نحن عليه، حتى يصبح خلقا راسخا في القلب والخلق، والسلوكيات والتصرفات، نستطعمه، ونتذوقه، ونستلذ به فيصدر عنا بسهولة، وسرور.

٦- أن نستشعر بقلوبنا السرور إذا مارسنا العدل مرة، وهزمنا نفوسنا، لحساب قيمة العدل، فإن هذا السرور، والفرح والرضا بفعل العدل هو في ذاته تربية للعدل، إنه تدعيم وتعزيز وتقوية للاتصاف النفسي بالعدل، وتقوية

للإيمان والتقوى «**إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك فأنت مؤمن**».

٧- بهذا يصبح خلق العدل قيمة من قيم الضمير المؤمن، قيم واعظ الله في قلب كل مسلم ومسلمة، ولكي تتقوى هذه القيمة في الضمير المؤمن، فإن المسلم يدرس صفات الله: العدل، المقسط، القائم على كل نفس بما كسبت، ويشعرها قلبه، ويحصيها، ويتعبد بها؛ فالله عدل يحب العادلين، ويؤمن بذلك، ويصدقه.

ويدرس أحكام الآخرة، وعقيدة الحساب والمجازاة والميزان، والقصاص يوم القيامة، والثواب والعقاب.. والجنة والنار، ويدرس ما يتعلق بالكتاب الذي سجل فيه كل صغيرة وكبيرة، ولا يغادر شيئا إلا أحصاه.. إلخ.

فيؤمن بذلك، ويشعره قلبه، ويعمل بمقتضاه.

٨- ولتحقيق ذلك كله يمكن أن يخصص المسلم أسبوعا واحدا لدراسة كل ما يتعلق بالعدل، حسب النقاط السبع السابقة، من خلال برنامج للتربية الذاتية لاكتساب قيمة العدل، فيدرس، ويتعبد، ويتخلق، فيجمع آيات القرآن في العدل، (من خلال المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) مثلا، ويدرس تفسيرها في ابن كثير أو الطبري، ويجمع أحاديث العدل في صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد والسنن، أو الترغيب والترهيب، ورياض الصالحين، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ويتأمل فيها.. ويدخلها قلبه.. إلخ ويحمل نفسه على العمل بكل صور العدل التي تتعلق به، أو بها.

٩- ويمكن أن يتم البرنامج التربوي السابق مع إخوة وأصحاب له، مع إضافة صلوات قيام بآيات العدل، وورد حفظ لآيات وأحاديث في العدل، ومحاسبة يومية طوال مدة البرنامج على مدى الالتزام بخلق العدل، بشكل دقيق.

١٠- إن أهم شيء في برنامج تربية قيمة العدل هو ترسيخها في القلب «إذا

قرأ، فَرَسَخ في القلب نفع»، فالأساس القلبي للاتصاف بالعدل، لاشك فيه، فلا يمكن التخلق بالعدل إذا لم نؤمن به، وإذا لم نؤمن بالله الذي يحبه، وإذا لم نؤمن باليوم الآخر، والجزاء على العدل والظلم.. ولا يمكن الاتصاف بالعدل إذا لم نتصوره تصورا صحيحا، بعقولنا، وقلوبنا، وإذا لم نرد العدل، ولم نحبه، ولم نرغب فيه، بقلوبنا..

وباختصار: إن التخلق بالعدل ينشأ من القلب، فإذا طاب القلب بالعدل، طابت الأقوال والتصرفات به، ولا عكس، فتربية العدل في القلب، هي نقطة البدء في الاتصاف بقيمة العدل.

١١- من الضروري في تربية خلق العدل سواء في أنفسنا أو في أولادنا، أو مع من نربيهم في المجتمع، أن نقيم (ثقافة عدل)، أن نحقق (بيئة عدل) في بيوتنا، وفي تجمعاتنا مع أزواجنا، وأولادنا وجيراننا، وأصحابنا، وزملائنا- بأن يبدأ كل واحد بنفسه، فيمارس العدل، عمليا، هذه الممارسات هي التي تشع ثقافة العدل، هي التي تحقق الوسط الاجتماعي العادل، الذي يتشربه الأفراد، وينشئون عليه، فيغذيهم، وينميهم، أي: يربيهم، فالثقافة المربية لخلق العدل تتكون من خلال الفعل الاجتماعي المتحقق بالعدل، إنها تنشئ (تقاليد عدل) صحيحة، يتشربها الأطفال والناشئون، تتكون روح اجتماعية عادلة، تمارس، ولا تقال.

إن الطفل إذا نشأ على عدل أبيه، وأمه معه، وعلى عدل أخيه أو أخته معه، وعلى عدل الأستاذ معه، وعلى عدل جاره معه، وعلى عدل صاحبه معه.. والفلاح، والعامل، والمدرس، والطبيب، والمهندس، كل إنسان إذا نشأ على ذلك فإنه سيمارس العدل، حتى ولو لم يأمره به أحد، فإذا علمناه أن يكون عادلا، وعرفناه العدل مضمونا، وصورا، وآثارا، ومآلا في الدنيا وفي الشخصية، وفي الآخرة، فإن اتصافه بالعدل يكون سهلا، لأن العدل متحقق

فيمن حوله.. فالواقع يدعوه للعدل، كدعوة خطاب الفم أو أشد.

إن ممارسة العدل تحقق في المجتمع (أسوة العدل) وتوجد النفر القدوة الذين يربون بسلوكهم كما يربون بخطابهم.

ومن هنا تظهر أهمية تحمل مكاره ممارسة العدل، والصبر، على ممارسته، وحمل النفس على تحمل مشقات الاتصاف به، لإقرار العدل في الواقع، ولو من فرد واحد.. فإن ممارسة الفرد الواحد للعدل هي انتصار لقيمة العدل في الواقع، هي تغيير خلقي حقيقي في بنية الواقع الاجتماعي.

إن ممارسة العدل- قطعا- تضر بالجشعين وأصحاب القلوب الضيقة، وهؤلاء- على الأقل- سيعرقلون اتصافنا بالعدل، معهم ومع غيرهم، ولا مناص من تجاوز عقبة الجشع الذاتي، وعقبة استكبار الآخرين، بقوة الإيمان بالعدل، وبقوة الإرادة، وبالعشق لقيمة العدل، وبالرغبة الجارفة في إقرار المبادئ العظيمة في واقع النفس وواقع الناس.

وهذا كله يتطلب استعانة بالله، وحده، ولجوءا إليه، وتضرعا ودعاء أن يقوينا على ممارسة العدل مع أنفسنا ومع الآخرين، ومع الطيور والأنعام والأشياء.

ويتطلب إصرارًا على تحقيق ذواتنا المؤمنة بالله، ذواتنا التقية، المؤمنة بالعدل.. في الواقع، فثواب العدل ليس في الآخرة فقط، بل أيضا في اكتمال ذواتنا، في الفرحة الغامرة بإيواء المظلومين والضعفاء إلى خلال رحمتنا وعدلنا، حتى يظلنا الله في ظل عرشه، عرشه هو، يوم لا ظل إلا ظله، ونعم ثواب العادلين.

سابعا: وشاب نشأ في عبادة ربه: التزام الإنسان بعبادة الله في طفولته وشبابه إلى النهاية:

أ- في رواية للبخاري: «**وشاب نشأ في عبادة الله**»، وفي رواية له: «**وشاب**

نشأ في عبادة ربه» وفي رواية لمسلم: «**وشاب نشأ بعبادة الله**» وكذا لأحمد في المسند، والترمذي. وفي رواية ابن أبي شيبة العبسي: «**ورجل جعل شبابه ونشاطه فيما يحب الله ويرضى**». وعند سعيد بن منصور: «**أفنى شبابه ونشاطه في عبادة الله**».

فهنا ثلاثة أمور: أنه نشأ في عبادة الله، وأنه نشأ بعبادة الله، وأنه جعل شبابه ونشاطه في عبادة الله، حتى انتهى شبابه ونشاطه، مستغرقا ذلك الوقت فيما يحب الله ويرضى.

أي: أنه وظف قوته، وفتوته وزمان حيويته وأشده، في عبادة ربه، فهو واع بأهمية مرحلة الشباب، وشاعر ومدرك لأهمية هذا الوقت، فاغتنمه، واستثمره أحسن استثمار، وذلك بأن يجعل هذا الشباب، في طاعة الله، فيما يحب الله ويرضى.

ب- وهو شاب، بواعث الشهوة فيه قوية، وحرارة الغرائز شديدة، ولكنه غلبها، وجاهدها، ولازم عبادة الله، ووظف شبابه، وقوته، وحيويته، ونشاطه في عبادة الله، فيما يحبه الله ويرضاه، حتى توفي على ذلك.

فهذا شاب اغتنم شبابه قبل هرمه وشيخوخته ووهنه وضعفه وعمل بوصية رسول الله ﷺ له:

أخرج الخطيب عن عمرو بن ميمون أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»[٣٠].

---

(٣٠) قال الألباني: حديث صحيح، وهذا إسناد مرسل حسن، لكن رواه ابن أبي الدنيا في (قصر الأمل) (٢/١/٢) والحاكم (٤/٣٠٦) موصولا من طريق أخرى عن ابن عباس مرفوعا، وصححه هو والذهبي، على شرط الشيخين، وهو كما قالا.

انظر: الخطيب البغدادي: كتاب اقتضاء العلم العمل، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، رقم ١٧٠، ص ٢١٧ - ٢١٨ وصححه في: صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ١٠٧٧، ص ٢٤٣- ٢٤٤ (مع تقديم وتأخير).

وهو أدرك توجه التربية الإسلامية نحو اغتنام مرحلة الشباب المتصفة بالحيوية والصحة والقوة والطموح، والفتوة، قال غنيم بن قيس: «كنا نتواعظ في أول الإسلام: ابن آدم، اعمل في فراغك لشغلك، وفي شبابك لهرمك، وفي صحتك لمرضك، وفي دنياك لآخرتك، وفي حياتك لموتك»(٣١).

وكانت حفصة بنت سيرين تقول: يا معشر الشباب، اعملوا: فإنما العمل في الشباب(٣٢).

فمع أن قوة الشهوة، وميول الهوى نحو الحرام، قوية فيه إلا أنه جاهدها، وآثر طاعة الله، على إشباع حرام، فاستظل بظل طاعة الله، وعمل بما يحب الله، ويرضى، فرضي الله عنه، وثبته على عبادته، فأظله في ظل عرشه يوم القيامة.

جـ- وقول النبي ﷺ «**نشأ**» يعني: تربى. قال الراغب: «النشء والنشأة: إحداث الشيء وتربيته،(...) ومنه: نشأ السحاب: لحدوثه في الهواء، وتربيته شيئا فشيئا.. والإنشاء: إيجاد الشيء، وتربيته،(...) وقوله: ﴿**أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ**﴾[الزخرف: ١٨] أي: يربى تربية كتربية النساء، وقُرِئَ: يَنْشَأ؛ أي: يتربى»(٣٣).

فهذا الشاب نشأ: أي: تربي، أي: تغذي ونما وزاد بعبادة الله، بعمل ما يحبه الله ويرضاه، منذ حداثة سنه، حتى تمكنت فيه عبادة الله، واستمر على ذلك، حتى توفاه الله، قال في (إكمال المعلم): «وقوله: «**وشاب نشأ في عبادة الله**»؛ أي: شب وكبر عليها، ولم يكن له صبوة، يقال: نشأ الشيء: ابتدأ، ونشأ الصبي: نبت، وشب»(٣٤).

---

(٣١) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، رقم ١٧١، ص ٢١٨.
(٣٢) المصدر السابق، رقم ١٩٠، ص ٢٣٣.
(٣٣) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٤٩٣ – ٤٩٤.
(٣٤) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٥٦٣.

فهو يربي نفسه بعبادة الله، وفي عبادة الله منذ ابتداء وعيه، وحداثته، حتى يتحقق له التكامل التربوي، الذي يحقق الله به تكامله في الدنيا وفي الآخرة، تقول: «نشأ الصبي ينشأ، فهو ناشئ: إذا كبر، وشب، ولم يتكامل»(٣٥).

فهذا الشاب عرف الله وأحبه، وسلم نفسه له، إيمانا به، وعملا بما يحبه ويرضاه، فجعل مقومات شبابه، في طاعة الله، وتربى، ونما، وتزكى بعبادة الله، وكبر في عمل ما يحبه ويرضاه.

د- ولاشك أن هذا الشاب نموذج صحيح للهدف التربوي العام الذي نريد إنجازه في مجتمعنا: أن ينشأ الشباب، عابدين لله، عاملين بما يحبه ويرضاه، يستوعبون أوقاتهم، وجهودهم في طاعة الله ربهم: وهذا يعني:

١ - أن يعرفوا الله، وأن يحبوه، وأن يعظموه، وأن يتذللوا له، باطنا، وظاهرا.

٢- أن يتوجهوا له وحده، بكل نية وهَمٍّ، وقول، وعمل، من صلاة، وصيام، ودعاء، وذبح، وتعمير في الأرض، وكسب للعيش، وخوف، ومحبة، واستغاثة، وتصرف مع الآخرين..إلخ، وأن يتبرأوا من كل عمل لغير الله، ومن كل معبود غير الله.

٣- أن يحتكموا إلى شرع الله، في كل شأن من شؤونهم الخاصة والعامة.

٤- أن يحبوا الله ورسوله والمؤمنين، وينصروهم، ويوالوهم، فيحبون في الله، ويعادون في الله، ويتبرأون من كل من يعادي، ويشاقق الرسول ﷺ من بعد ما تبين له الهدى.

٥- أن يطيعوا الله ورسوله، فيما أمر، وفيما نهى، ويعملوا بشعب الإيمان ولوازمه.

(٣٥) ابن الأثير: النهاية..ج ٥، ص ٥١.

إن الشاب إذا لزم ذلك، ومارسه فإنه يكون نشأ وتربى في عبادة الله، وبعبادة الله، فوسيلة تربية الشاب العابد، هي أن يمارس العبادة لله، ولا شيء غير ذلك، وقد تناولت هذا في فصل (تجديد الإيمان في القلب)، فيرجع إليه.

هـ- وإذا تحقق الشاب بهذه المقومات وكبر عليها، تمكنت فيه، وتخلق بها، وبالتالي يكون قد أنجز الهدف التربوي العام، وأنجزناه، معه، وحققنا – معا – الوظيفة الكبرى التي هي غاية وجودنا في العالم.

و- ولا شك أن هذا الهدف التربوي، أعني: التخلق بمقومات عبادة الله، تشترك فيه الفتيات، الشابات كذلك، فمن المتعين تنشئة الفتيات المراهقات بعبادة الله، وفي عبادة الله، ليظلهن الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، لأنهن- كما الشباب- قاومن إغراءات الغريزة، ونارها، وفتنة الجنس، وحب الاستعراض، والتزمن بطاعة الله، ونصرة دينه، والعمل بما يحبه ويرضاه، ربهن، فسوف يظلهن الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ز- ومن هنا يتوجب الالتفات المنهجي المنظم للشباب، والفتيات، في بيوتنا، وفي مجتمعنا لتوجيههم إلى هذا المضمون، ولفت أنظارهم إلى أهمية مرحلة الشباب، وضرورة استثمارها في عبادة الله وحده، ونصرة دينه، وتوظيفها في سبيل رسالة عظيمة، هي تحقيق منهج الله في الأرض، والدفاع عن كيان الإسلام، والمسلمين، وذلك من خلال برامج دعوية وتربوية تجذب هؤلاء الشباب الذين تحتاجهم الأمة في سبيل بعثها ونهضتها على منهج الله وحده، وتعرفهم أهمية الشباب، وتعرض أمامهم النماذج الحية الرائعة لشباب عبدوا الله، وقاوموا إغراءات الشهوة، وطموح القوة، مثل سيدنا إبراهيم (الفتى الرشيد، محطم الطواغيت) وسيدنا يوسف، الذي قاوم إغراءات الجمال الأنثوي وفتنته، الرهيبة، وانتصر عليه، واستعصم بالله، وقاوم السجن، بإرادة قوية، فوظف سنوات السجن في عبادة الله، والدعوة إليه، والإحسان..

إلى المسجونين، ووظف مرحلة الحرية، والسلطة في عبادة الله، وإقامة العدل، واشتاق في النهاية إلى أن يلحقه الله بالصالحين.. ومثل سيدنا محمد ﷺ الذي على رغم الجاهلية التي أحاطت به، إلا أنه توجه إلى الله، فهداه الله، حتى أنزل عليه الرسالة، ومثل سيدنا علي، الذي وظف شبابه وحياته لدين الله، ومثل: سليمان بن يسار، وابن تيمية، وابن عبد الوهاب، وحسن البنا، وغيرهم الذين نشأوا في عبادة الله، ونصروا دينه، وقاوموا إغراءات الشباب.

من الضروري عرض هذه النماذج المشعة أمام الشباب، ودراسة سيرهم بعمق، ليتمثلوها، ويقتدوا بالهدى فيها.

ح- وفي توجيه الشباب لينشأ- أي: يتربى- في عبادة الله، يلزم – مع ما قدمناه هنا، وفي فصل (تجديد وتربية الإيمان في القلب) - أن يشعر الشاب ويدرك بوعي حاد أهمية الوقت، عموما، ومرحلة الشباب خصوصا، فيدرس حديث النبي ﷺ الذي أخرجه الترمذي عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله: من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم..**»[٣٦].

فينمي وعيه بأنه مسؤول عن شبابه: فيم أبلاه؟

ويدرس حديث: «**اغتنم خمسا قبل خمس...**»، وحديث: «**سبعة يظلهم الله... وشاب نشأ في عبادة الله..**» وحديث: «**يا معشر الشباب...**»، ويوجه مع ذلك للصيام، في بعض الأيام، ولدراسة القرآن، والسيرة النبوية، وللصلاة.. ولمشروعات الخير العام.. وللصحبة الصالحة.. إلخ، ولممارسة الرياضة البدنية، والصيد، والرحلات في عالم الطبيعة والحقول، والشواطئ التي ليس

---

(٣٦) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، ط ٣، رقم ٧٢٩٩، ص ١٢٢٠، والصحيحة رقم ٩٤٦، وسنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٤٢٤، ص ١٨٨.

فيها إثم، ولدراسة توحيد العبادة، حتى يعرف كيف يعبد الله، ويرضيه..إلخ.

ط- إن اهتمامنا بالشباب يجب أن يترجم في برامج تربوية فعالة مبنية على إدراك صحيح لمطالب هذه المرحلة، وحاجاتها النفسية والعقلية والاجتماعية.. والجسدية.. سواء في البيوت، أو في واقع الحركة الاجتماعية الإسلامية.

ثامنا: ورجل قلبه معلق في المساجد:

وفي رواية: «**معلق في المسجد**»، «**ورجل قلبه معلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه**»، «**ورجل قلبه متعلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه**»، «**ورجل قلبه متعلق بالمساجد**»، «**ورجل كان قلبه معلقا في المسجد**»، «**ورجل قلبه معلق بالمساجد، من حبها**».

أ- معاني: التعليق ودلالاتها:

١- مُعَلَّق: من التعليق، وهو من العَلَق، أي: التشبث بالشيء والتمسك به(٣٧).

قال ابن حجر: «كأنه شبهه بالشيء المعلق في المسجد، كالقنديل مثلا، إشارة إلى طول الملازمة بقلبه، وإن كان جسده خارجا عنه، ويدل عليه رواية.. «**كأنما قلبه معلق في المسجد..**»(٣٨).

أقول: قلب المسلم المحب لله، المشتاق لمناجاة الله، وذكره، يبقى في المسجد، يبقى متشبثا، متمسكا بالمسجد، هو معلق هناك في بيوت الله، في أحب الأماكن إليه، وأطهرها، فإذا خرج من المسجد، خرج بجسمه وأبقى قلبه معلقا به، وفيه، كأنه قنديل من قناديل المساجد، فيكون خارج المسجد مربوطا بقلبه، مشتاقا للصلاة، وذكر الله، فيسرع إلى إجابة نداء الله، ليستقر قلبه في بدنه، بالصلاة، فهو كائن حاضر في المسجد بقلبه، دائما، سواء خرج

---

(٣٧) الراغب الأصفهاني: المفردات، ص ٣٤٣.

(٣٨) ابن حجر: فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٥.

منه، أو دخل فيه، لأن المسجد هو مهوى قلب المؤمن، وهو وطنه الروحي الذي يأوي إليه.. لأن فيه الصفاء، وذكر الله، والتعرف إليه، والسجود لعظمته، والتقرب إليه، والعروج الروحي إليه، فالقلب معلق بهذه القيم التي يمثلها المسجد.

٢- وهذا التعلق بالمساجد هو نتاج المفهوم الأول للتعلق، وهو من العَلَاقة؛ أي: شدة الحب؛ فهو متعلق، أي: مربوط بعلاقة الحب القوي للمساجد، وهذا من شدة الحب، كما صرح به في رواية سلمان: «.. **من حبها**» أي: هذا التعلق القلبي هو بسبب حب القلب للمساجد، وللصلاة فيها، جماعة، ولذكر الله فيها، وتلاوة كتاب الله، وتعلم العلم فيها.

ومصاحبة الملائكة في ساحاتها الطاهرة.

قال في إكمال المعلم: «قوله: «**ورجل قلبه معلق بالمساجد**»: أي: شديد الحب فيه، والملازمة له، والعلاقة: شدة الحب، فيه: فضل النيات واعتقاد الخير، وأنه مكتوب لصاحبه مدخر له، محسوب في عمله، وفضل لزوم المساجد، والصلاة فيها، وعمارتها»(٣٩).

وقال النووي: «معناه: شديد الحب له، أو الملازمة للجماعة فيه، وليس معناه: دوام القعود في المسجد»(٤٠).

ب- أسباب تعلق القلب المسلم بالمساجد:

١- وهذا الحب ينشأ في القلب لأسباب كثيرة: **أولها**: محبة طاعة الله، والخضوع له، وحده، وسجود القلب والجوارح له؛ تعبدا ورقا، وتعظيما، إن قلب المؤمن يحب (المساجد)؛ لأنه (يسجد) لله فيها، فهو لا يسجد لمال، ولا لجاه، ولا لزعيم، ولا لمنصب، ولا لجبار في الأرض، ولا لجسم جميل؛ إنه يحب

---

(٣٩) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٥٦٢.

(٤٠) وانظر: حاشية السيوطي، وحاشية السندي على المجتبى للنسائي، ج ٨، ص ١٦٣.

المساجد، لأنها تحرره، تحرر قلبه من رق الأغيار، والخضوع والذل لغير الله، فبالسجود لله في المساجد يتحرر القلب من محبة الشهوة ومحبة الدنيا، ومحبة الذات.. وينطلق عزيزا بالله، فيسجد لله وحده، سجودا تشهد به الأرض كلها، أنه حر من كل متعلقاتها، وكأنه يردد مع الشاعر المسلم:

ببابك لن أغادره ... ولن أسعى إلى غيرك

سأنسج بالرضا ثوبي ... وأشرف أنني عبدك

وأهتف في جبين الصبح ... حين يقال من ربك

إلهي خالق الأكوان ... أشرف أنني عبدك

٢- **وثانيا:** يحب المساجد؛ لأنه يسجد لله، فيكون أقرب ما يكون لله- تعالى- فالمساجد أماكن القرب من الله، ولهذا يحبها، لأنه يحب القرب من الله - تعالى. أخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»(٤١).

أي: في حالة السجود، فقلبه قريب من الله، من رحمته، وفضله في حال السجود بالجوارح، فإذا سجد القلب مع الجوارح فاضت الأفراح الروحية عليه، وتنزلت عليه الملائكة.. إنه قلب ساجد لله، قريب جدا من الله، ارتفع بسجوده إلى عرش الرحمن، عرج القلب وصعد في السجود لله، بتسبيحه لله الأعلى فوق العرش المجيد، إنه يسبح مع حملة العرش ﴿**وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الزمر: ٧٥].

فحال السجود لله هو حال القرب منه، فيحب القلب المساجد، لأنه يريد الله، ويريد القرب منه، ليدعوه، ويستغفره، ويثني عليه، ويمجده، ويغسل نفسه من الخطايا، ويطهر قلبه من كل الأوساخ التي علقت به:

---

(٤١) إكمال المعلم، ج ٢، كتاب الصلاة، حديث رقم ٤٨٢، ص ٣٩٨.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره**»(٤٢).

وعن عائشة؛ قالت: فقدت رسول الله، ليلة، من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «**اللهم، أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(٤٣).

ففي السجود يدعو، ويسبح، ويستغفر، ويثني على الله.. فيشعر بقرب الله منه، وبقربه من الله.. إنه بهذا السجود يغسل قلبه ليستأهل الوقوف بين يدي الله- تعالى.

وقد رغب النبي ﷺ أصحابه في كثرة السجود، لله كما يلي:

أخرج ابن ماجه عن أبي فاطمة قال: قلت: يا رسول الله ﷺ، أخبرني بعمل أستقيم عليه، وأعمله، قال: «**عليك بالسجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط بها عنك خطيئة**»(٤٤).

ورواه أحمد بثلاث روايات: «**يا أبا فاطمة، إن أردت أن تلقاني، فأكثر السجود**»، «**يا أبا فاطمة، أكثر من السجود، فإنه ليس من مسلم يسجد لله- تبارك وتعالى- سجدة، إلا رفعه الله- تبارك وتعالى- بها درجة**»، «**.. فإنه ليس من رجل..إلخ**»(٤٥).

وأخرج محمد بن نصر المروزي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**من حين يخرج أحدكم من بيته إلى المسجد، فَرِجْل تكتب حسنة، والأخرى تمحو**

---

(٤٢) المصدر السابق، رقم ٤٨٣، ص ٣٩٨.
(٤٣) المصدر السابق، رقم ٤٨٦، ص ٤٠٠ – ٤٠١.
(٤٤) قال الألباني: حسن صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١١٧٧، ص ٤٤٦.
(٤٥) المسند، ج ١٢، رقم ١٥٤٦٥ – ١٥٤٦٧، ص ٢١٧ – ٢١٨، ورواه في تعظيم قدر الصلاة (٢٩٠) بإسناد صحيح، ص ١٧١.

سيئة»[٤٦].

وعن معدان بن أبي طلحة اليعمري: قال: لقيت ثوبان؛ مولى رسول الله ﷺ، فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة- أو قال: بأحب الأعمال إلى الله- فسكت، ثم سألته، فسكت، ثم سألته الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «**عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة**»[٤٧].

وأخرج ابن ماجه عن عبادة بن الصامت، أنه سمع رسول الله يقول: «**ما من عبد يسجد لله سجدة إلا كتب الله له بها حسنة، ومحا عنه بها سيئة، ورفع له بها درجة، فاستكثروا من السجود**»[٤٨].

فالسجدة الواحدة لله ثوابها عظيم، **ثم تأمل**:

أخرج مسلم وغيره عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «**سل**»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «**أو غير ذلك؟**» قلت: هو ذاك، قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[٤٩].

فالنبي ﷺ يقرر أن كثرة السجود لله معينة على الوصول إلى مرافقة الحبيب محمد ﷺ في الجنة.

---

(٤٦) محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، تخريج أحمد أبو المجد، ط ١، دار العقيدة، القاهرة، الإسكندرية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م، ص ٦٧، رقم ١٠١.

(٤٧) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٢، رقم ٤٨٨، ص ٤٠٣، وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، السنن، ج ١، رقم ٣٨٨، ٣٨٩، ص ٣٩٨ - ٣٩٩، وأخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١١٧٨، ص ٤٢٧، ورواه النسائي، انظر: المجتبى، ج ٢، رقم ١١٣٩، ص ١٦٣، وانظر: البيهقي: السنن الصغير، ج ١، رقم ٨٠٧، ص ٢٢٧.

(٤٨) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١١٧٩، ص ٤٢٧ وروى مثله عبد الرزاق عن أبي ذر، المصنف، ج٢، رقم ٣٥٦١، ص ٣٢٧ وما بعده.

(٤٩) إكمال المعلم، ج١، رقم ٤٨٩، ص ٤٠٣، ورواه النسائي، المجتبى، ج ٢، رقم ١١٣٨، ص ١٦٢، ورواه الطبراني في المعجم الكبير بأبسط من هذا.

قال عياض: «ليزداد من القرب ورفعة الدرجات، حتى يقرب من منزلته، وإن لم يساوه فيها، فإن السجود معارج القرب، ومدارج رفعة الدرجات، قال الله- تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩].. ولأن السجود غايته التواضع لله، والعبودية له، وتمكين أعز عضو في الإنسان وأرفعه، وهو وجهه، من أدنى الأشياء، وأحسنها، وهو التراب، والأرض المدوسة بالأرجل والنعال، وأصله في اللغة: الميل»(٥٠).

وفي حاشية السندي على النسائي: «وقيل: معناه: كن لي عونا في إصلاح نفسك، وجعلها طاهرة، مستحقة لما تطلب، فإن السجود كاسر للنفس ومذل بها، وأي نفس انكسرت وذلت (يعني: لله- تعالى) استحقت الرحمة»(٥١).

فكثرة السجود تربية للقلب على التواضع، والتذلل لله، فينصلح القلب، فيرتفع الإنسان في الدرجات، ويعرج بقلبه لله- تعالى- فيستحق مرافقة الرسول في الجنة.

وقد حرم الله النار أن تأكل آثار السجود، كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ «**وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود..**»(٥٢).

وفي رواية: «**وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود**»(٥٣).

وهذا إكرام لمواضع السجود لله- تعالى- وعظم مكانها من الخضوع لله تعالى.

قال والد ابن حجر العسقلاني:

يا رب أعضاء السجود عتقتها ... من عبدك الجاني وأنت الواقي

---

(٥٠) إكمال المعلم، ج١، ص ٤٠٣، وارجع إلى كتاب محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، ص ١٦٩ – ١٧٦.

(٥١) حاشية السندي على النسائي، ج ٢، ص ١٦٢.

(٥٢) فتح الباري، ج ٢، رقم ٨٠٦، ص ٢٩٣.

(٥٣) المصدر السابق، ج ١١، رقم ٦٥٧٣، ص ٤٤٥.

والعتق يسري بالغني يا ذا الغنى فامنن على الفاني بعتق الباقي(٥٤)

فقلب المسلم يتعلق بالمساجد، لحبه للسجود لله؛ حتى ينال كل هذا الثواب، والقرب.

٣- وثالثا: يحب المساجد والمكث فيها لينال الثواب العظيم الذي جعله الله للذين يمشون إلى المساجد، ويبقون فيها انتظارا للصلاة، ومحبة لصحبة الملائكة، والفوز باستغفارها، ودعائها، وحبا للمرابطة، ورجاء في السكينة، لنتأمل:

- أخرج البخاري عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «**صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسا وعشرين ضعفا؛ وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه، ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة**»(٥٥).

وفي رواية لمسلم: «**وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد، لا ينهزه** (يحركه) **إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه: يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه**»(٥٦).

---

(٥٤) فتح الباري: ج١١، ص ٤٥٧ وهو هنا يوافق مختار النووي بأن النار لا تأكل جميع الأعضاء السبعة التي يسجد عليها المسلم، حسب ظاهر الحديث.

(٥٥) المصدر السابق، ج ٢، رقم ٦٤٧، ص ١٣١.

(٥٦) إكمال المعلم، ج٢، رقم ٦٤٩، ص ٦٣٩. ورواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة، رقم ١٠٣، ص٦٨.

وأخرج أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال أحدكم في صلاة، ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة**»(٥٧).

وأخرج مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم إليها ممشى، فأبعدهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرا من الذي يصليها ثم ينام**».

وأخرج مسلم عن أبي بن كعب قال: كان رجل، لا أعلم رجلا أبعد من المسجد منه، وكان لا تخطئه صلاة، قال: فقيل له: أو قلت له: لو اشتريت حمارا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهله، فقال رسول الله ﷺ: «**قد جمع الله لك ذلك كله**».

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله قال: خَلَت البقاعُ حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «**إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد**»، قالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: «**يا بني سلمة، دياركم، تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم**»(٥٨).

* فالمسلم قلبه معلق بالمساجد؛ لأن الذهاب إليها، غسل لخطاياه، ورفع لدرجته، أخرج مسلم عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه: إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة**»(٥٩).

---

(٥٧) المصدر السابق، رقم ٦٤٩، ص٦٤٠ وانظر: سنن أبي داود، ج١، رقم ٤٦٩ – ٤٧١، ص١٩٠، ورقم ٥٥٩، ص٢٢١، ٢٢٢. والحديث أخرجه البخاري، فتح الباري، ج٢، رقم ٦٥٩، ص١٤٢.

(٥٨) انظر: إكمال المعلم، ج ٢، باب فضل كثرة الخطى إلى المساجد، (رقم ٦٦٢ – ٦٦٥) ص٦٤١، ٦٤٢.

(٥٩) المصدر السابق، ج٢، رقم ٦٦٦، ص ٦٤٤.

* وفي الغدو إلى المساجد أكثر من هذا، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من غدا إلى المسجد، وراح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح**»(٦٠).

وفي رواية مسلم: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح**»(٦١).

وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر؛ إلا تبشبش الله له، كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم**»(٦٢).

فالمسلم قلبه معلق في المساجد لكي يتبشبش الله له.

* ولأن هذا من الرباط، أخرج مسلم، ومالك في الموطأ، والنسائي وأحمد وابن ماجه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟** قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**»(٦٣).

وفي حديث مالك اثنتين: «**فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»(٦٤). وهذا

---

(٦٠) هذه رواية البخاري، فتح الباري، ج ٢، رقم ٦٦٢، ص ١٤٨ أعد: هيأ، النزل: ما يهيأ للنازل من الضيافة. والغدو والرواح: الذهاب والرجوع - توسعا.

(٦١) إكمال المعلم، ج٢، رقم ٦٦٩، ص ٦٤٥.

(٦٢) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ٦٥٩، ص ٢٤٦، توطن: التزم حضورها.

تبشبش: فرح، وتلقاه بالبر والإكرام والتقريب، انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج١، رقم ١٧٦، ص ١٥٧.

(٦٣) إكمال المعلم، ج٢، ص ٥٧ - رقم ٢٥٢، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح، السنن، ج١، رقم ٥١، ص ١١٨.

(٦٤) مالك بن أنس: الموطأ. وفي رواية للترمذي، ثلاث مرات، السنن، رقم ٥٢، ص ١١٨، وانظر شرح الحديث في: ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد، قال الألباني: حسن صحيح، ج١، رقم ٦٣٧، ص ٢٣٩ مع بعض اختلاف، ودون: «**فذلكم الرباط**».

ترغيب في هذا الرباط.

* وقلب المسلم يتعلق بالمساجد لأنه يحب ما الله، والمساجد محبوبة لله تعالى، أخرج مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**أحب البلاد إلى الله مساجدها..**»(٦٥).

قال عياض: «لأنها بيوت خصت بالذكر، وبقع أسست للتقوى، والعمل الصالح»(٦٦).

* والمساجد موضع نزول رحمة الله وفضله، ونزول ملائكته بالرحمة على المجتمعين فيها لمدارسة القرآن، ولذكر الله، كما مر معنا في فصل سابق، وأخرج الطبراني عن أبي إمامة عن النبي ﷺ قال: «**من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلمه، كان له كأجر حاج تاما حجته**»(٦٧).

* ولأن المساجد هي البيوت التي أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه،.. ولأنها بنيت لله، ليوحد فيها الله، ويسبح، ولأن الذي يعمرها بإخلاص، مؤمن: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ**﴾ [التوبة: ١٨].

لكل هذه الأسباب يحب المسلم بقلبه بيوت الله(٦٨).

جـ- فالذي تعلق قلبه بالمساجد آثر، وفضل طاعة الله، والقرب منه، وغلب عليه حب الله، وحب ذكره، ومناجاته، فكانت المساجد بيته، وقرة عينه، وراحة قلبه، وكانت الصلاة كذلك، بها تعرج روحه إلى الملأ الأعلى،

---

(٦٥) إكمال المعلم، ج٢، رقم ٦٧١، ص ٦٤٧.

(٦٦) السابق نفسه.

(٦٧) قال العراقي في تخريج الإحياء: إسناده جيد، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي على شرط البخاري، انظر: المعجم الكبير، ج٨، حديث رقم ٧٤٧٣، ص ٩٤ مع تخريج محققه.

(٦٨) ارجع إلى أبواب المساجد في كتب الحديث، وانظر: المنتقى من الترغيب والترهيب (الأحاديث من رقم ١٦٦ – ١٧٧).

فصار لا يحب البراح من المسجد، إلا لضرورات الحياة بأنواعها، فعلق قلبه فيه؛ لأنه يجد فيه روح القرب، ولذة العبادة، وسمو الروح، والتسامي على شواغل الأرض، وحلاوة خدمة الله، فآوى إلى الله، في بيت الله، مؤثرا له على عمله، ودنياه، فآواه الله، وأظله بظله، يوم لا ظل إلا ظله، جزاء لما سبق من معاملته مع الله.

د- تربية القلب المعلق في المساجد:

١- ونحن نستهدف من تربيتنا للقلب أن يكون محبا للمساجد، محبا للمشي إليها، والجلوس فيها لذكر الله، ولتعلم العلم، ولقراءة القرآن، وللصلاة.. وللتأمل، وللاجتماع بإخوانه المسلمين، ومحبا للصلاة فيها، خصوصا في الشتاء، وفي أوقات الظلمات، في الفجر، والعشاء، عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِيَبْشَرَ المشاؤون في الظلم إلى المساجد بنور تام يوم القيامة**»، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَشِّر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»(٦٩).

٢- وسبيل تربية القلب المعلق في المساجد، المحب لها هو أن يدرس آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ في ثواب وفضل المشي إلى المساجد، والبقاء فيها، للصلاة، والذكر، وانتظار الصلاة.

وأن يشرع فعلا في تعليق قلبه في المساجد، بالممارسة، بعد المدارسة، وبالسعي، بعد الوعي.

وأن يأخذ هذا الفصل، أو كتابا في فضل المسجد، ويتأمل، ويتفكر، ويشعر قلبه معنى الآية، والحديث الذي يدرسه.

---

(٦٩) أخرجهما ابن ماجه بإسناد صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، رقم ٦٣٩، ٦٤٠، ص ٢٤٠ ورواه أبو داود والترمذي من حديث بريدة بهذا اللفظ، قال المنذري: ورجال إسناده ثقات. المنتقى من الترغيب والترهيب، ج١، رقم ١٧٣، ص ١٥٦، وسنن أبي داود، ج١، رقم ٥٦١، ص٢٢٢، وسنن الترمذي، ج١، رقم ٢٢٣، ص ٢٦١.

إن المبادرة الذاتية مهمة في هذا المشروع التربوي، لينطلق المسلم إلى بيوت الله، مدفوعًا من ضميره الذاتي.

ولتقوية هذا الدافع، يحتاج المسلم لدروس أهل العلم، وقراءة المصنفات الصحيحة في فضل بيوت الله.

٣- إن إكساب المسلم قيمة تعلق القلب بالمساجد هو هدف تربوي إحيائي، فأحد سبل إحياء الأمة وتجديد دينها هو الأخذ بهم إلى المساجد ليصلوا لله، ويتعلموا التحرر بالعبادة لله وحده، ويدرسوا دينهم من جديد.. ويتعرفوا إلى بعض، ويربوا أرواحهم، ويصلوا قلوبهم بالملأ الأعلى، وليعرفوا الله، وليتقربوا إليه، ويستمدوا من هذه المعرفة حياة لقلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم.

ولهذا من المهمات التربوية أن نربط المسلمين بمساجد الله، وأن نكثر من حلقات العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، في بيوت الله.. فإن الاشتراك في هذه الحلقات مع صلوات الجماعة، تربية روحية وقلبية، وخلقية واجتماعية للمسلمين في هذا العصر.

فمن المهمات التربوية أن توصل هذا المضمون- بأسلوب مؤثر، وبكل الوسائل المتاحة المشروعة- لكل مسلم ومسلمة، بشريط أو كتاب، أو خطبة جمعة، أو محاضرة، أو بدعوة فردية، أو دورة تربوية.. كل ذلك بهدف أن (نحرك) قلب المسلم ليحب المساجد، ويتجه إليها.

هـ- ونحن نفضل ألا تحرم نساؤنا من هذه المحبة وأسبابها، بشروطها الشرعية، فإذا رغبن في الصلاة جماعة، في المساجد، أو لحضور مجالس العلم- فلا ينبغي أن نمنعهن إذا استأذنوننا، وما لنا نحرمهن من خصلة تؤدي بهن إلى أن يظلهن الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؟

ففي الصحيحين عن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**إذا**

استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهن»(٧٠).

وفي رواية لمسلم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا استأذنكم نساؤكم إلى المساجد فأذنوا لهن**».

وأخرج البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد**».

وأخرج ابن عمر قال: كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ قال: يمنعه قول رسول الله: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»(٧١).

وفي رواية أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا استأذنت أحدكم امرأته أن تأتي المسجد فلا يمنعها**» قال: وكانت امرأة عمر بن الخطاب تصلي في المسجد، فقال لها: إنك لتعلمين ما أحب، فلا يمنعها، قال: وكانت امرأة عمر بن الخطاب تصلي في المسجد، فقال لها: إنك لتعلمين ما أحب، فقالت: والله لا أنتهي حتى تنهاني، قال: فطعن عمر، وإنها لفي المسجد(٧٢).

وروى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه، عن النبي ﷺ: «**إذا استأذنت امرأة أحدكم فلا يمنعها**»(٧٣).

وأخرج مسلم عن ابن شهاب، قال: أخبرني سالم بن عبد الله، أن عبد الله ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا**

---

(٧٠) فتح الباري، ج٢، باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس، رقم ٨٦٥، ص ٣٤٧، إكمال المعلم، ج٢، رقم ٤٤٢، ص ٣٥٣.

(٧١) فتح الباري، ج٢، رقم ٨٩٩، ٩٠٠، ص ٣٨٢، ونص كلام رسول الله في الحديث الثاني رواه مسلم، رقم ٤٤٢، ص ٣٥٣، ورواه أبو داود، ج١، رقم ٥٦٦، ص ٢٢٤.

(٧٢) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٤، حديث رقم ٤٥٢٢، ص ٢٩٣، ٢٩٤، وكلام رسول الله رواه مسلم، إكمال المعلم، ج٢، رقم ٤٤٢، ص ٣٥٣.

(٧٣) فتح الباري، ج٢، رقم ٨٧٣، ص ٣٥١.

استأذنكم إليها»، قال: فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعهن، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبه سبا سيئا، ما سمعته سبه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ، وتقول: «**والله لنمنعهن!**»(٧٤).

وأخرج عن طريق مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل**»، فقال ابن لعبد الله بن عمر: لا ندعهم يخرجن فيتخذنه دَغَلا، قال: فزبره (انتهره) ابن عمر، وقال: أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقول: «**لا ندعهن**»، وفي رواية لمسلم: قال: فضرب في صدره وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتقول: لا(٧٥).

وفي رواية لمسلم من طريق بلال بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد؛ إذا استأذنوكم**» فقال بلال: والله لنمنعهن، فقال له عبد الله: أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقول أنت: لنمنعهن(٧٦).

وفي رواية أحمد: «قال: فانتهره عبد الله، قال: أف لك، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقول: لا أفعل»(٧٧).

وفي رواية لأحمد «**فما كلمه عبد الله حتى مات**» وفي رواية لأبي داود: «**فسبه وغضب..**»(٧٨).

فالإذن للنساء بالخروج إلى المساجد، إذا استأذن، سنة نبوية لا يجوز أن ترد بالهوى أو مجرد الرأي، ما دامت تخرج ، تَفِلَة غير متطيبة، ولا متزينة، ولا مثيرة

---

(٧٤) إكمال المعلم، ج٢، ص ٣٥٣.
(٧٥) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٣ – ٣٥٤.
(٧٦) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٤ ورواه أحمد، بإسناد صحيح، المسند، ج٥، رقم ٥٦٤٠، ص ١٥٩، ١٦٠.
(٧٧) إسناده صحيح، المسند، ج٥، رقم ٦١٠١، ص ٣٧٧.
(٧٨) سنن أبي داود، ج١، رقم ٥٦٨، ص ٢٢٥.

لفتنة، أخرج مسلم عن زينب امرأة عبد الله قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا**»(٧٩).

قال ابن حجر: «والأولى أن ينظر إلى ما يخشى منه الفساد فيجتنب»(٨٠).

قال القاضي عياض: «وانتهار عبد الله لابنه، وضربه في صدره، وسبه له(...) فيه تأديب المعترض على السنن برأيه، وعلى العالم بهواه، وجواز التأديب باليد، وبالسب، وتأديب الرجل ولده وإن كان كبيرا في تغيير المنكر، وتأديب العالم من يتعلم عنده، أو يتكلم بما لا يجب بين يديه.

ونهي النبي ﷺ للنساء عن الخروج إلى المساجد إذا تطيبن أو تبخرن؛ لأجل فتنة الرجال بطيب ريحهن، وتحريك قلوبهم وشهواتهم بذلك، وذلك لغير المساجد أحرى، وفي معنى الطيب: ظهور الزينة، وحسن الثياب، وصوت الخلاخيل والحلي، وكل ذلك يجب منع النساء منه إذا خرجن بحيث يراهن الرجال، وقد قال محمد بن سلمة: يمنع الخروج إلى المسجد الجميلة المشهورة، لما يخشى من فتنتها»(٨١).

والمقصد: أننا نفضل الإذن للنساء إلى المساجد، إذا استأذن، ما دمن يلتزمن بشروط الخروج، وبشرط تحقق مصالح للمسلمة بهذا الخروج للمساجد.

إننا نريد للمسلمين والمسلمات قلوبا معلقة بالمساجد، بيوت الله، نريد أن ترتبط القلوب بالمسجد الذي يأخذ المسلمين إلى الله.

تاسعا: الحب في الله:

«**ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه**» وفي رواية حماد بن زيد:

---

(٧٩) إكمال المعلم، ج٢، رقم ٤٤٣، ص ٣٥٥، وانظر باقي أحاديث مسلم في باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، ص ٣٥٣ - ٣٥٦.

(٨٠) فتح الباري، ج٢، ص ٣٥٠.

(٨١) إكمال المعلم، ج٢، ص ٣٥٥.

«**ورجلان قال كل منهما للآخر: إني أحبك في الله، فصدرا على ذلك**»، وفي رواية مالك والترمذي: «**ورجلان تحابا في الله: اجتمعا على ذلك، وتفرقا عليه**» وفي كتاب الجامع لمعمر بن راشد عن قتادة أن سلمان قال: التاجر الصادق مع السبعة في ظل عرش الله يوم القيامة، والسبعة: (...) ورجل لقي أخاه فقال: إني أحبك لله، وقال للآخر: وأنا أحبك لله، حتى تصادرا على ذلك، ورجل نشأ في الخير منذ هو غلام(٨٢).

هذه الخاصية الموصلة لظلال عرش الرحمن هي التحاب في الله، والاجتماع على المحبة في الله، والصدور عن المحبة في الله، ولله، وأتناول هذه القيمة العقدية والاجتماعية والنفسية في النقاط الآتية:

أ- الحب والمحبة هو ميل القلب ميلا اختياريا إلى الشيء المرغوب، وتعلق القلب به، والانعطاف إليه، وإرادته، وإيثاره على غيره، والسعي نحوه، والشوق إلى الوصول إليه وأنس النفس بالاجتماع به، والتضحية بالنفس والجهد والوقت والمال من أجل هذا المحبوب المرغوب المراد، وهذا الحب هو أصل كل حركة في العالم، وهو أصل الموالاة، والنصرة، والتماسك.. وأصل الأعمال كلها.. والبغض والكراهية أصل كل ترك، والحب ينتج عنه الأنس بالمحبوب، والتلذذ بالوصول إليه، وأصل الحب المشروع هو محبة الله- تعالى- وهي مستلزمة لمحبة ما يحبه الله من الفرائض والواجبات والخيرات، ومن يحبه الله من الملائكة والأنبياء، والأولياء من عباد الله، وهذه المحبة توجب المجاهدة في سبيله، ومحبة وموالاة من يحبه، وبغض ومعاداة من يبغضه، وهذه هي الموالاة والمعاداة، فأصل الموالاة: الحب، وأصل المعاداة: البغض، وبالحب والموالاة لله، وفي الله يتحرك المسلم لبناء قوة التماسك الاجتماعي، وإنشاء

---

(٨٢) الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المصنف، ج١١، تحقيق: حبيب الأعظمي، المكتب الإسلامي، رقم ٢٠٣٢٢، ص ٢٠١.

المجتمع المسلم(٨٣).

ب- فالمحبة المقصودة في هذه الخاصية تنشأ من حب الله، وحده، وحب الإيمان به، وعبادته، في القلب، فلأن القلب يؤمن بالله، ويعبده، ويحبه الحب كله، ويحب أمره، وطاعته، ويكره، ويبغض معصيته، فإنه تبعا لذلك يحب كل من آمن بالله، وأسلم له، وأطاعه، واتبع منهجه، فهو يحبه لأجل الله، لا لأي غرض آخر، أو أي دافع آخر، فقلبه متجرد من الأغيار والسِّوَى، خالص لله وحده، فإذا وجد مؤمنا بالله، عاملا بطاعته، انعطف قلبه نحوه، ومال إليه ميل الحبيب إلى حبيبه، تعظيما لله، وللإيمان، ولشعائر الله، وللإسلام، فالذي ينشئ الحب في الله- هنا- في القلب، ليس القرابة، ولا الوطن، ولا اللون، ولا المال، ولا المصلحة المادية، ولا الدنيا، ولا العنصرية، وإنما الذي ينشئ الحب للمسلم هو الله، الإيمان بالله، وما في القلب من المحبة له، ولما يحب، ولمن يحب.

وإذا نشأ هذا الحب في قلب المسلم، فإنه يدفعه للتحاب، للبحث عن المسلم الآخر، فيحبه، ويتآلف معه، ويتزاور، ويتجالس، ويتباذل، ويتعاون، ويتناصر، ويتماسك، ويتصافى؛ من أجل بناء قوة المجتمع المسلم، فينشأ بهذا تكتل إسلامي، هو المجتمع المسلم المتماسك، المتحاب، المتآخي.

فالرابطة التي يجتمع عليها الناس- في هذا الدين- رابطة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، تتعلق بأبعاد وأهداف يختص بها المنهج الرباني الكريم، هذه الرابطة، «هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة،..

---

(٨٣) انظر: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: قاعدة في المحبة، تحقيق د. محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٨٧، ص ٧ إلى آخر الكتاب، وأحب للدعاة أن يدرسوا هذا الكتاب، وليس عرضي هنا تحليل مفهوم المحبة، فلذلك كتاب مستقل بعون الله.

إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد، كما قال الله- سبحانه وتعالى- لعبده نوح عليه السلام- وهو يقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] ثم يبين له لماذا يكون (ابنه ليس من أهله.. إنه عمل غير صالح). إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكم يا نوح.. فأنت تحسب أنه من أهلك، ولكن هذا الحسبان خاطئ، أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك.

وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة؛ إن الجاهليات تجعل الرابطة- آنا- هي الدم والنسب، وآنا هي الأرض والوطن، وآنا هي القوم والعشيرة، وآنا هي اللون واللغة، وآنا هي الجنس والعنصر، وآنا هي الحرفة والطبقة، تجعلها آنا هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك.. وكلها (...) تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي، والمنهج الرباني القديم- فمثلا في هذا القرآن(...) وفي توجيهات الرسول ﷺ (...) قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير(...).

وهذا المثل الذي يضربه في السورة (سورة هود) عن نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد، ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط.. ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها (...).

وبهذه الأمثلة التي ضربها الله للأمة: المسلمة (...) وضحت معالم الطريق لهذه الأمة، وقام هذا المعلم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم، ولا يقوم على سواها، وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح (...).

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع

الإسلامي، وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان(...).

يجعل الإسلام العقيدة (...) هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي»(٨٤).

«إن التجمع على آصرة العقيدة وحدها هو قاعدة الحركة الإسلامية، فهو أصل من أصول الاعتقاد والتصور، كما أنه أصل من أصول الحركة والانطلاق»(٨٥).

جـ- وإذا كان الدافع للحب والموالاة في الله، هو العقيدة، هو عبادة الله وحده، والكفر بالطاغوت، فإن الله يحب هذين المتحابين، لأجله، ويظلهما بظل عرشه، يوم الأهوال، والحر الشديد؛ لأنهما آثرا طاعة الله، ومحبته، واتباع منهجه، فتحركا واجتمعا على هذه المحبة والطاعة لله، وتفرقا على هذه المحبة، وهكذا، حتى يفرق الموت بينهما، فيجتمعان يوم القيامة، معا، يشتاق كل منهما للآخر، فيلتقيان في ظل العرش، كما كانا يشتاقان لبعضهما في الدنيا، فيلتقيان في ظل محبة الله، لله، في الله، «عن الحسن قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ يذكر الرجل من إخوانه في بعض الليل، فيقول: يا طولها من ليلة، فإذا صلى المكتوبة غدا إليه، فإذا التقيا عانقه»(٨٦).

د- وهذه الحقيقة قررها الحديث النبوي الذي معنا بقوله: «**تحابا في الله..**» أي: «اشتركا في جنس المحبة، وأحب كل منهما الآخر، حقيقة، لا إظهارا فقط»(٨٧).

---

(٨٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ط ٣١، ص ١٨٨٦ - ١٨٩٢، وهو درس يجب أن يقرأ، ويدرس، ويراجع معه الجزء الثالث، ص ١٥٥٧-١٥٥٩ (مهم جدا).

(٨٥) المصدر السابق: في ظلال القرآن، مجلد ٣، ص ١٧٢٢.

(٨٦) ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، رقم ٨٣، ص ١٤٩ ورواه أحمد في الزهد؛ مثله.

(٨٧) ابن حجر: فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٥.

«اجتمعا على ذلك..»: «والمراد: أنهما داما على المحبة الدينية، ولم يقطعاها بعارض دنيوي، سواء اجتمعا حقيقة، أم لا، حتى فرق بينهما الموت»(٨٨). ويقول النووي: «معناه: اجتمعا على حب الله، وافترقا على حب الله، أي: كان سبب اجتماعهما: حب الله، واستمرا على ذلك، حتى تفرقا من مجلسهما وهما صادقان في حب كل واحد منهما صاحبه، لله تعالى، حال اجتماعهما وافتراقهما، وفي هذا الحديث: الحث على التحاب في الله، وبيان عظيم فضله، وهو من المهمات؛ فإن الحب في الله، والبغض في الله من الإيمان، وهو بحمد الله كثير، يوفق له أكثر الناس، أو من وفق له»(٨٩).

هـ- فالحب في الله، ولله- بصدق- لازم من لوازم الإيمان، وثوابه عظيم، يقول المازري: «المحبة في الله، والبغض في الله من الفرائض»(٩٠). وقال عياض: «والحب في الله من ثمرات الحب لله، ومعنى حب العبد لله: استقامته في طاعته، والتزامه أوامره ونواهيه في كل شيء، ولهذا قال بعضهم: المحبة: مواطأة القلب على ما يرضي الرب؛ فيحب ما أحب، ويكره ما يكره(...) وبالجملة: فأصل المحبة: الميل لما يوافق المحب(...) ومن محبته ومحبة رسوله: التزام شريعته، ووقوفه عند حدوده، ومحبة أهل ملته، وهو تمام محبته، فيحب (العبد لا يحبه إلا لله، لأن من أحب شيئا أحب ما يحبه، ومن يحبه، ومن هو من سببه(...) وإذا حصل هذا بين المؤمنين؛ حصلت منه الألفة الموجبة للتعاون على البر والتقوى، والمزيدة لأمر الدين والدنيا، والمحبة لله، والبغض فيه من واجبات الإسلام، وهو قول مالك وغيره من العلماء»(٩١).

---

(٨٨) المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٨٩) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٧، ص ١٢١ - ١٢٢ وانظر إكمال المعلم، ج ٣، ص٥٦٣.

(٩٠) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٥٦٣.

(٩١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

و- والخطاب الإسلامي (كلام الله وكلام رسوله) يريد أن نربي في قلوبنا عظمة الله، وجلاله، ومعرفته، واليقين فيه، والإيمان به، ومحبته محبة أشد من أي محبة أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فينشأ من هذه المحبة محبة أولياء الله، أي: المؤمنين به، المتقين له، المحبين له، فجاء الخطاب الإلهي والنبوي لكل مسلم، يحث، ويحض، ويحفز، ويدفع المسلم والمسلمة للتحقق بهذه الخاصية، وهو خطاب كثير طيب، ودود، مرب.

فلنتأمل في (بعض) خطاب المحبة في الله:

١- الحب في الله هو أحد الأسباب الثلاثة التي يذوق بها المسلم حلاوة الإيمان وطعمه؛ فالإيمان شجرة طيبة مثمرة، تؤتي ثمرها بإذن ربها، وثمرها أحلى وألذ ثمر، وهو عمل الطاعات وفعل الخيرات، وما يثمر في القلب من أنوار وأفراح ومسرات، والمسلم لا يذوق ثمرات الإيمان وطعمها ولذتها وحلاوتها إلا بالمحبة، فيستلذ الطاعات، ويتحمل المصاعب ويغالب العقبات بفرح، وسرور، وتلذذ؛ لأن هذا فيه إرضاء الله- تعالى- أخرج البخاري عن أنس، عن النبي ﷺ قال: **«ثلاث من كن فيه، وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»**(٩٢). ورواه مسلم بلفظ: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحب إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»**(٩٣). ورواه مسلم بلفظ: **«ثلاث من كن فيه وجد طعم الإيمان: من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن**

---

(٩٢) فتح الباري، ج ١، رقم ١٦، ص ٦٠.
(٩٣) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٤٣، ص ٢٧٨.

يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه»(٩٤).

وفي رواية البخاري: «من أحب عبدا لا يحبه إلا لله»(٩٥).

ورواه النسائي بلفظ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله- عز وجل- ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب في الله، ويبغض في الله، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئًا»(٩٦).

وأخرجه ابن أبي الدنيا بلفظ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، وحلاوته: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب في الله، ويبغض في الله، وأن لو أوقدت نار عظيمة، لو وقع فيها، أحب إليه من أن يشرك بالله»(٩٧).

يقول المازري: «إن الإنسان إذا رضي أمرا واستحسنه، سهل عليه أمره، ولم يشق عليه شيء منه، فكذلك المؤمن؛ إذا دخل قلبه الإيمان؛ سهلت عليه طاعات ربه، ولذت له، ولم يشق عليه معاناتها»(٩٨). ثم يقول: «لا تتضح محبة الله ورسوله حقيقة، والحب للغير في الله، وكراهة الرجوع إلى الكفر، إلا لمن قوي بالإيمان يقينه، واطمأنت به نفسه، وانشرح له صدره، وخالط دمه ولحمه، وهذا هو الذي وجد حلاوته..»(٩٩).

وفي حاشية السيوطي والسندي على النسائي أن حلاوة الإيمان: حسنه، وبسبب اجتماع وحصول هذه الخصال الثلاث في المسلم يجد حلاوة الإيمان،

---

(٩٤) المصدر السابق، ص ٢٧٨، ورواه النسائي، قريبا منه، سنن النسائي، ج ٨، رقم ٤٩٨٨، ص ٧٠.

(٩٥) فتح الباري، ج ١، رقم ٢١، ص ٧٣.

(٩٦) سنن النسائي، المجتبى، ج ٨، رقم ٤٩٨٧، ص ٦٩، ٧٠. والحديث المذكور رواه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد وابن المبارك في الزهد، وتركنا التخريج اختصارا.

(٩٧) حديث صحيح، ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، رقم ١٦، ص ١٠١،١٠٢.

(٩٨) إكمال المعلم، ج ١، ص ٢٧٠، ٢٧٨ بالتوالي.

(٩٩) السابق نفسه.

أي: انشراح الصدر به، ولذة القلب له، فللإيمان لذة في القلب تشبه الحلاوة الحسية، بل ربما يغلب عليها حتى يدفع بها أشد المرارات، وقوله: (أحب إليه) أي الحب الاختياري الذي يجعله يختار طاعتهما على هوى النفس وغيرها، وأن يحب غير الله في الله، أي لأجله، لا لأجل هواه، وأن يبغض كل ما يبغض (في الله) أي: لأجله، وحاصل هذا أن يكون الله- تعالى- هو المحبوب بالكلية، وأن تكون النفس مفقودة في جنب الله، فلا يراها أصلا إلا من حيث كونها عبدا له تعالى، وأن يكون إيقاد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من الشرك، فالشرك يصير عنده- لقوة اعتقاده- بمنزلة النار، في الكراهة والنفرة عنه، فكما أنه لو خير بين نار الآخرة ونار الدنيا لاختار نار الدنيا، كذلك لو خير بين الشرك ونار الدنيا لاختار نار الدنيا[١٠٠].

وقد قرأت شرحين لهذا الحديث للشيخ حسن البنا- رحمه الله- ألخصهما- هنا- لأهميتها، يقول: «للإيمان حلاوة وطعم، ولذة، يتذوقها القلب، وتنعم بها الروح، وتظهر آثار ذلك على الجوارح، وفي الأعمال، ومن أراد أن يظفر بهذه اللذة الروحية فعليه بهذه الثلاث خصلات:

- أن يحب الله ورسوله فوق كل شيء، وآية ذلك وعلامته: أن يقدم مرضاتهما وطاعتهما على كل عزيز في الحياة.

- وأن يحب إخوانه من المسلمين- لله- فيسلم صدره من كراهتهم، ومن بغضهم وحسدهم، والحقد والعدوان عليهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه، ويؤثرهم إن استطاع سبيلا إلى الإيثار، حتى تقوى الرابطة الإسلامية، فلا يجد العدو ثغرة ينفذ منها إلى صفوف المسلمين.

- وأن يكره الكفر ومظاهر الكفر، وأعمال أهل الكفر، والعودة إليها- كما

---

(١٠٠) حاشية السيوطي، وحاشية السندي، على سنن النسائي، ج ٨، ص ٦٩- ٧٠ وانظر شرح ابن حجر له، فتح الباري، ج ١، ص ٦٠-٦٢ الحلاوة من ثمرات الإيمان، ثلاث: أي: ثلاث خصال، (كن) أي: حصلن، فهي تامة.. إلخ.

يكره أن يقذف في النار.

تلك هي صفات المؤمن الحق الذي يحرص على أن يتذوق حلاوة الإيمان.

أما إذا كانت طاعة الله ورسوله بغيضة إليه، وهو يسارع دائما إلى العصيان، والهزء بأحكام الله. وأما إذا كان يمنح مودته وعطفه وصلته وبره لغير إخوانه المسلمين- من أجانب وكفار- وأما إذا كانت عاداته وأعماله أعمال أهل الكفر، ورضي بقانون أهل الكفر، وتعليم أهل الكفر، في نفسه، وفي بيته، وفي كل شأنه: فهذا محروم مطرود من رحمة الله.

فأي الفريقين أنتم يا مسلمي هذا الزمان؟

انظروا، واعترفوا، وتوبوا إلى الله»(١٠١).

ثم يقول: «وقفة مع الخصلة الأولى:

العقيدة، إذا تمكنت من النفوس، واستولت على القلوب، وتغلغلت في الجوارح، واستقرت في أعماق الأفئدة، ودانت بها الأرواح، واعتقدتها؛ لابد أن يكون لها مظاهر وآثار تدل عليها، وتنتج عنها، فإذا لم تترك أثرا ظاهرا، ولم تحمل على عمل واضح، كان ذلك لأحد أمرين لا ثالث لهما:

- إما لأنها عقيدة عقيمة لا تأتي بخير.
- وإما لأن الإيمان بها ناقص، وسلطانها على القلب ضعيف.

وكثير من أولي العقائد (ماتوا) وهم أثبت من شم الجبال، لم يتزحزحوا عن مبادئهم، ولم يؤمنوا بغير ما آمنت به قلوبهم، ولم يبيعوا إيمانهم رغبة أو رهبة، وذلك أروع مظاهر البطولة، وأقدس عواطف الإيمان(...).

وهذا تاريخ الإسلام يحدثنا عن مواقف الغر الميامين من أصحاب نبي الإسلام ﷺ، أولئك الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وباعوا دماءهم وأنفسهم ﴿يَبْتَغُونَ

---

(١٠١) نظرات في السنة، للإمام الشهيد حسن البنا، ج ١، ط ١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ص ٤٨، عن مجلة النذير.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ويحدثنا عن مواقف العلماء الأعلام من أئمة الإسلام الذين أرادتهم الأهواء على غير ما يعتقدون، فلم يقولوا بغير ما يعلمون، وما منهم إلا من امتحن، فكان الوفي الأمين على دين الله، الثابت على الإيمان بالحق (...) (ذكر مواقف مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد، وطاوس والفضيل، وسفيان الثوري، والحسن البصري، وسعيد بن جبير) وغير هؤلاء كثير ممن اعتنوا في سبيل الحق، فلم ينحرفوا عنه شعرة: **﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٦].

هذه بعض آثار العقيدة الصحيحة في نفوس من يعتقدونها.

وقد حدثنا النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف عن علامات ثلاث لقوة العقيدة وثبات الإيمان:

أولها: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» فيسمو بعقيدته عن أن يزنها بعرض من أعراض الحياة، أو يبيعها بغاية من غاياتها.

وإنما تكون هذه العقيدة محور أعماله، ومعقد آماله، هي له كفاء، وكل شيء له فداء، قد اتحدت بنفسه، واتحدت بها نفسه، فهي هو، وهو هي(...) يقف عليها كل مواهبه، ويخضع لها جميع مطالبه، فهي المطلب الأول، والمطالب لها خدم، وهي المقصد الأسمى، والمقاصد بعدها عدم(...).

فما أسمى أن تكون غايتك الأولى في حياتك: (حب الله ورسوله)، وإن الله لا يرضى من عباده الصادقون بغير ذلك، واقرأ، إن شئت، قوله تعالى: **﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾** [التوبة: ٢٤].

على هذه المبادئ تربى رجال الإسلام الأولون، فباعوا – لله ولرسوله –

نفوسهم وأموالهم، وجادوا بها رخيصة في سبيل الحق (...).

وثانية هذه الخصال: «أن يحب المرء لا يحبه إلا لله»:

ذلك أن النسب والصلة والأخوة والقرابة- بين أولي العقائد وأبناء المبادئ- أقوى وأمتن، وأخلد وأبقى من الصلة الرحمية، والنسبية الدموية، ونَسَبٌ في شرع الهدى أقرب بيننا من نسب أبوي.

وقلت: أخي قالوا: أخ من قرابة؟ فقلت: نعم إن الشُّكُول أقارب

وها أنت قد رأيت أن السلف الصالحين- رضوان الله عليهم- فهموا ذلك من كتاب الله، فكانت العقيدة كل شيء عندهم، بها تقرب الأنساب المتباعدة، وتلتقي القبائل المتنافرة، وتجتمع القلوب المتخاصمة، ذلك إن اتحدت (يعني العقيدة) فإذا اختلفت فقد تباعدت الأسباب، وتقطعت الأنساب.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وحتى هذه الصلة بين إبراهيم وأبيه قد انقطعت حين اليأس من هدايته، والقنوط من إيمانه.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ولقد بارز أبو عبيدة أباه في غزوة بدر، وهَمَّ أبو بكر بالخروج لابنه عبد الرحمن قبل إسلامه- رضي الله عنهما- في غزوة بدر، ولقد باعد الكفر بين أبي لهب وبين شرف الاتصال بالمصطفى ﷺ، وهو صنو أبيه، ووصل الإيمان بين سلمان وبين البيت المطهر، وهو (فارسي لا يمت إلى العروبة بصلة) «**سلمان منا أهل البيت**»، (رواه الطبراني والحاكم عن عمرو بن عوف، وصححه)

وهل علمت- يا صاح- صلة بين المهاجرين والأنصار غير صلة الإسلام؟ وهل رأيت اندماجا بين جماعة من الجماعات كذلك الاندماج الذي أوجده الاتحاد في العقيدة بينهم، يحلونها في بيوتهم، وينفقون عليهم أموالهم، ويواسونهم في كل شيء، ويقدمونهم على أنفسهم: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

كذلك إذا استولت العقيدة على قلب صاحبها، كان كل شيء يخالفها ممقوتا أمامه بعيدا عن نفسه:

أيا ساكني أكناف دجلة كلكم   إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

فإذا وصل الإنسان إلى هذه المرتبة: مرتبة حب إخوانه في العقيدة والإيمان، كان ذلك دليل تغلغل العقيدة من نفسه، وتمكن الإيمان من فؤاده.

وكذلك قل في البغض في الله أيضا.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي الحديث: «**وهل الإيمان إلا الحب والبغض**».

ولهذا كانت العلامة الثالثة: «أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار»: فهو ثابت على عقيدته، قوي في إيمانه؛ يكره كل ما يخالفها، ويمقت (المقت: أشد البغض) أن يعود إلى نقيضها، ويسلب نعيم اعتقادها، كما يكره أن يلقى في النار.

إذا وجدت هذه الدلائل الثلاث؛ دل ذلك على وصول العبد إلى ذروة الإيمان، وكمال اليقين، وهناك يجد سعادة المؤمنين، ولذة الموقنين التي دونها كل لذة، (...) وما السعادة إلا عقيدة تنبع من القلب، ولا تأتي من خارجه أبدا.

وإن المؤمنين يجدون من نعيم إيمانهم، وحلاوة يقينهم، ما يجعلهم يحقرون كل لذة، ويستقلون كل سعادة- إلا سعادتهم- مهما أوذوا في سبيلها، ومهما وجدوا من عنت وإرهاق.

وهل رأيت ذلك الذي سجن في سبيل عقيدته (الإمام ابن تيمية) وعذب أشد العذاب، فكان يقول لمعذبيه: إنكم لن تستطيعوا تعذيبي مهما أسرفتم في هذه الوسائل المادية، فإن جنتي وبستاني في صدري، ولا سلطان لكم عليه، وإن سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة، ولو بذلت لكم ملء قصوركم هذه ذهبا لما كافأتكم بتلك النعمة، التي أنعمتم بها علي، من حلاوة العذاب في سبيل الإيمان.

وهل رأيت ذلك الذي يسلط السيف على رأسه (يعني: خبيب بن عدي رضي الله عنه) وتشحذ الشفرة لقتله، فيكون كل ما يستقبل به ذلك أن يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله، وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

وهل رأيت الذي يعاني سكرات الموت.. فلا ينسيه ذلك أن يقول:

الحمد لله ولم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وبعد: فاقرأ هذين البيتين بفهم وتدقيق؛ لترى إلى أي حد يستشعر المؤمنون لذة إيمانهم، ويغالون بها فوق كل شيء:

أيا صاحبي، قف لي مع الحق وقفة أموت بها وَجْدًا، وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الأرض: تجهد جهدها فذا الملكُ ملكٌ لا يباع ولا يُهْدَى

أفلست بعد هذا كله قد آمنت بأن للإيمان الصحيح حلاوة - دونها كل حلاوة، يجدها من يحمل يقينه، ودلت عليه هذه الخصال الثلاث.

اللهم اجعلنا من المؤمنين الصادقين»(١٠٢).

---

(١٠٢) حسن البنا: نظرات في السنة، مرجع سابق، ص ٥٠-٧٥.

إذن، الحب في الله، ولله، أحد الخصال التي يذوق بها المسلم حلاوة الإيمان، وهو أساس الرابطة بين المسلمين.

٢- الحب في الله هو أوثق عرى الإيمان، أخرج ابن أبي الدنيا عن البراء بن عازب- من حديث- أن النبي ﷺ قال: «**أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله، عز وجل**»(١٠٣). وله شاهد صحيح بلفظ: «**أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله، عز وجل**»(١٠٤).

يقول ابن مسعود: «**إن من الإيمان: أن يحب الرجل الرجل ليس بينهما نسب قريب، ولا مال أعطاه إياه، ولا محبة -إلا لله- عز وجل**»(١٠٥). وعن زُحْلَة- مولاة أم البنين- قالت: كنا مع أم الدرداء (الصغرى، ثقة، تقية، عابدة، زوج أبي الدرداء) جلوسا، فقال لها هشام بن إسماعيل: يا أم الدرداء، ما أوثق عملك في نفسك؟ قالت: الحب في الله»(١٠٦).

٣- الحب في الله: خصلة رئيسة من الخصال الموصلة لظلال عرش الرحمن، يوم الدينونة، كما مر في حديث الباب، وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناد حسن عن العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال: «**قال الله- تبارك وتعالى: المتحابون بجلالي: في ظل عرشي، يوم لا ظل إلا ظلي**»(١٠٧).

وأخرج مالك عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون لجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا**

(١٠٣) ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، رقم (١) ص ٨٦، وله شاهد صحيح، هو النص التالي، فوق.

(١٠٤) الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ٢٥٣٩، ص ٤٩٧.

(١٠٥) كتاب الإخوان، رقم ١٥، ص ١٠١.

(١٠٦) المصدر السابق، رقم ١٨، ص ١٠٣.

(١٠٧) كتاب الإخوان، رقم ٢، ص ٨٧، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، وإسنادهما جيد، هامش ص ٨٧ من نفس المصدر.

ظل إلا ظلي»(١٠٨).

وأخرجه مسلم بلفظ: «**أين المتحابون بجلالي..**»(١٠٩) مثله.

والمتحابون لجلال الله: أي: لعظيم حقه وطاعته، لا لغرض سواه، وأظلهم في ظلي: هو ظل العرش، وهو ظل من الحر والشمس، ووهج الموقف، وأنفاس الخلق، وهو ظل في عيش ظليل طيب.

فتأمل هذا الثواب العظيم، وقل: لماذا؟ والجواب: هو أنهم تحابوا لأجل تعظيم حق الله، وطاعته، لا لغرض دنيوي، وهم مصحوبون في محبتهم لبعضهم- بجلال الله.

وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المتحابون في الله- عز وجل- يوم القيامة على منابر، في ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله، على منابر من نور، يغبطهم النبيون والصديقون**»(١١٠). وأخرج الترمذي عن معاذ: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله- عز وجل: المتحابون في جلالي، لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء**»(١١١). وفي المعجم الكبير للطبراني: تسع روايات عن معاذ لهذا الحديث، منها: «**المتحابون بجلال الله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله**»(١١٢). ورواه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن عنه، بلفظ: «**المتحابون بجلال الله -عز وجل- في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله**»(١١٣).

---

(١٠٨) مالك بن أنس: الموطأ، رقم ١٣ (باب ما جاء في المتحابين في الله) ص ٥٩٠.

(١٠٩) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦ (ط. المصرية) ص ١٢٣، كتاب البر والصلة، باب فضل الحب في الله، وانظره في إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٦٦، ص ٣٥.

ورواه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح كرواية مسلم، كتاب الإخوان، رقم (٤)، ص ٨٩.

(١١٠) كتاب الإخوان، رقم ٧، ص ٩٢، ٩٣.

(١١١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، السنن، ج ٤، رقم ٢٣٩٧، ص ١٧٤ وصححه الألباني في الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٤٣١٢، ص ٧٩٥.

(١١٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٠، رقم ١٤٦، ص ٧٩، وانظر: ص ٧٨-٨٢، و ص ٨٨.

(١١٣) ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، رقم ٣، ص ٨٨، وانظر: تخريجه هنا.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يروي عن ربه- تبارك وتعالى: «**حقت محبتي على المتحابين، هم في ظل العرش يوم القيامة، لا ظل إلا ظلي**»(١١٤).

٤- الحب في الله طريق رئيسي لتحصيل ولاية الله، ومحبته للمحب فيه، فالله يحب من يحب المؤمنين فيه، وحده، أخرج مالك عن معاذ بن جبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ**»(١١٥).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمرو بن عبسة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله- عز وجل- يقول: «**وجبت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتصادقون من أجلي**»(١١٦).

وأخرجه ابن المبارك بلفظ: «**حقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتصافون من أجلي**- أو قال: يتواصلون من أجلي- **وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي**»(١١٧).

وأخرج أحمد عن عبادة بن الصامت بلفظ: «**وحقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، وحقت محبتي للمتصادقين فيّ، والمتواصلين**» شك شعبة في المتواصلين أو المتزاورين(١١٨).

---

(١١٤) رجاله ثقات، وصححه الألباني بشاهده، كتاب الإخوان، رقم ٩، ص ٩٤، ٩٥، والألباني: صحيح الجامع الصغير، ج٢، رقم ٤٣٢٠، ص ٧٩٦ وفيه: «**يوم لا ظل إلا ظلي**».

(١١٥) مالك بن أنس: الموطأ، ص ٥٩٢ قال عبد الباقي: هذا الحديث صحيح، قال الحاكم: على شرط الشيخين، وقال ابن عبد البر: هذا إسناد صحيح، ورواه أحمد والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب، وصححه الألباني، صحيح الجامع، ج٢، رقم ٤٣٣١، ص ٧٩٨، وانظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ١، رقم ١٨٣٩، ص ٢٩٣.

(١١٦) رجاله ثقات، وشهر بن حوشب، مقبول هنا، فإن للحديث شواهد جيدة عن معاذ وعبادة بن الصامت، انظر: كتاب الإخوان، رقم ٨، ص ٩٣، ٩٤.

(١١٧) ابن المبارك: الزهد، رقم ٧١٦، ص ٢٤٩-٢٥٠، وانظر تخريجه هناك.

(١١٨) صحيح، المسند، ج ١٥، رقم ٢١٩٠١، ص ١٦٢.

ورواه عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن ربه- عز وجل- يقول: «**حقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، وحقت محبتي للمتزاورين في..**»(١١٩).

ورواه عن عبادة، وفيه: «**وحقت محبتي للمتواصلين في**»(١٢٠). وفي رواية للطبراني: «**وجبت محبتي للذين يتجالسون فيّ.. ووجبت محبتي للذين يتلاقون فيّ..**». وفي رواية للبيهقي في الشعب: «**حقت محبتي للمتصافين فيّ..**»(١٢١).

- فالحب في الله يوجب محبة الله للمحب فيه، وقد أخرج مسلم عن أبي هريرة، أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته (يعني: طريقه الذي يمشي عليه) ملكا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ (يعني: هل تستثمر عنده مالا- لك) قال: لا، غير أنني أحببته في الله- عز وجل- قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته(١٢٢).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس: قال: «**أحب في الله، وأبغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولا يجد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كذلك**»(١٢٣). وفي رواية ابن المبارك:

---

(١١٩) صحيح، المسند، ج ١٥، رقم ٢١٩٦٣، ص ١٨٤.

(١٢٠) صحيح، المسند، ج ١٥، رقم ٢١٩٧٩، ص ١٩١، ١٩٠. وانظر: صحيح الجامع، ج٢، رقم ٤٣٢١، ص ٧٩٦ والمنتقى من الترغيب والترهيب، ج١، رقم ١٨٤١، ١٨٤٢، ص ٢٩٤.

(١٢١) انظر: تخريج محقق كتاب الإخوان، لحديث رقم ٩، ص٩٤، ٩٥.

(١٢٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦ (ط المصرية) ص١٢٣- ١٢٤ باب فضل الحب في الله، وانظر: إكمال المعلم، ج٨، رقم ٢٥٦٧، ص٣٥ (ومدرجة الطريق- أيضا- قارعته). ورواه ابن أبي الدنيا، بإسناد صحيح، كتاب الإخوان، رقم ٩٦، ص١٥٧، ١٥٨، والبخاري في الأدب المفرد بإسناد صحيح، بتحقيق الألباني، رقم ٣٥٠، ص١٢٤، ورواه أحمد، وابن المبارك في الزهد، وغيرهم.

(١٢٣) كتاب الإخوان، رقم ٢٢، ص ١٠٦، ١٠٧، وانظر: تخريجه هناك، وفيه ليث بن أبي سليم، والأكثر على ضعفه ورواه ابن المبارك والزهد، رقم ٣٥٣، ص ١٢٠، ١٢١، وانظر: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني: الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، ص ٤٢.

«أحب لله، وأبغض لله، وعاد في الله، ووال في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك..إلخ» وفيه زيادة في آخره.

- فالحب في الله، وليس في الدنيا أو المال.. أو.. إلخ، هو طريق للوصول لولاية الله، ومحبته، ونصرته ومعيته للمسلم.

ويبين حديث آخر أن الله إذا أحب عبدا، أحبه جبريل، فأحبه أهل السماء (الملائكة) وألقى الله القبول له في قلوب الناس، أخرج مسلم، عن سهيل بن أبي صالح قال: كنا بعرفة، فمر عمر بن عبد العزيز، وهو على الموسم (يعني: الحج بالناس) فقام الناس ينظرون إليه، فقلت لأبي: يا أبت، إني أرى الله يحب عمر بن عبد العزيز، قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس، فقال: بأبيك أنت، سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ، ثم ذكر بمثل حديث جرير عن سهيل.

والحديث هو: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله إذا أحب عبدا، دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض،** .. إلخ الحديث»(١٢٤). والقبول: الرضا والحب في القلوب، أي: تقبله، وتميل إليه، ولا تنفر عنه.

فالله يحب من أحب في الله، وإذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، ووضع له القبول في قلوب الناس.

٥- الحب في الله، ولله، وبجلال الله، على الإيمان بالله ودينه.. هو طريق لنيل الثواب العظيم الذي ذكره الرسول ﷺ في الحديث التالي:

أخرج ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من عباد الله عبادا، يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل: من هم؟ لعلنا نحبهم!**

---

(١٢٤) صحيح مسلم، انظر: إكمال المعلم، ج ٨، حديث رقم ٢٦٣٧، ص ١١٦-١١٧ .

قال: **هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أموال، ولا أنساب، وجوههم نور، وهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»** ثم تلا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢](١٢٥). وفي رواية ابن حبان: «**هم قوم تحابوا بنور الله، من غير أرحام وأنساب..**»(١٢٦).

وأخرج بإسناد حسن، لا بأس به في الشواهد عن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ أقبل على الناس بوجهه فقال: «**يا أيها الناس، اسمعوا واعقلوا، واعلموا أن لله- عز وجل- عبادا، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله**» فقال أعرابي: يا رسول الله، انعتهم لنا، جلهم لنا، فتبسم رسول الله ﷺ لقول الأعرابي؛ قال: «**هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله عز وجل، وتصافوا، يضع الله – عز وجل- لهم منابر من نور ليجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**»(١٢٧). وفي رواية ابن المبارك: «**تحابوا في الله، وتصافوا فيه..**»(١٢٨).

وفي رواية الطبراني: قال: وفي ناحية القوم أعرابي، فقام، فجثا على ركبتيه، ورمى بيديه، ثم قال: حدثنا يا رسول الله عنهم، من هم؟ قال: فرأيت وجه النبي ﷺ ينتشر، فقال النبي ﷺ: «**عباد من عباد الله، من بلدان شتى، وقبائل، من شعوب أرحام القبائل، لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها لله، لا دنيا**

---

(١٢٥) كتاب الإخوان، رقم ٥، ص ٩٠ وانظر: تخريجه هناك.

(١٢٦) انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج٢، رقم ١٨٤٣، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح، والإحسان رقم ٥٧٣، وفي الموارد برقم ٢٥٠٨.

(١٢٧) كتاب الإخوان، رقم ٦، ص ٩١،٩٢، وانظر: تخريجه هناك.

(١٢٨) ابن المبارك، الزهد، رقم ٧١٤، ص ٢٤٨- ٢٤٩ وانظر: المنتقى من الترغيب، ج٢، رقم ١٨٤٤، ص ٢٩٠. وأخرجه أحمد في المسند، قال محققه: إسناده حسن، المسند، ج ١٦، ص ٤٦٣- ٤٦٤.

يتباذلون بها، يتحابون بروح الله- عز وجل..».

وفي رواية له: «**أقوام من قبائل شتى يتحابون في الله**»(١٢٩).

٦- وإنما كان هذا الثواب الذي ذكره النبي ﷺ؛ لأجل دين الله، فهذه المحبة إنما هي إكرام لله، ومحبة لله، وطاعة لله، وحب لدين الله، فالحب في الله هو من الإيمان بالله، قال ابن مسعود: «إن من الإيمان أن يحب الرجل أخاه لا يحبه إلا لله، وفيه»(١٣٠).

وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحب عبد عبدا لله- عز وجل- إلا أكرم ربه- عز وجل**»(١٣١).

وأخرج أحمد عن الزهد قال: قال رجل لمروان: إني أحبك في الله، قال: إنك أحببت الله، فأحببت من يحب الله- عز وجل.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن العوام بن حوشب (ثقة، ثبت، فاضل) قال: «لقيت قتادة (ثقة، ثبت) فقلت: آحبّ في الله؟ قال: إنما أحببت ربك(١٣٢).

فأصل الحب في الله هو حب الله، وإجلال العبد لله، فيدفعه هذا الحب ليحب كل من يحب الله، وكل من يجل الله.

٧- وإذا امتلأ القلب بحب الله، وحب من يحب الله، فإنه يحرص على (التحاب) في الله، فيبحث عن المؤمنين المسلمين لله، المحبين له، ويعقد معهم عقد المحبة والمؤاخاة، في الله.

إنه يخرج من حدود ذاته لينخرط في فعل اجتماعي مشترك يسهم به في

---

(١٢٩) الطبراني: المعجم الكبير، ج٣، رقم ٣٤٣٣، ورقم ٣٤٣٥، ص ٢٩٠، ٢٩١ ورواه عبد الرزاق في جامع معمر، من المصنف، ج ١١، رقم ٢٠٣٢٤.

(١٣٠) عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج ١١، رقم ٢٠٣٢٣، ص ٢٠١.

(١٣١) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢١٣٠، ص ٢٤٢، وقال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج٢، رقم ٥٥١٦، ص ٩٦٨، وانظر: السلسلة الصحيحة برقم ١٢٥٦، ج٣، ص ٢٥٦ وقال: هذا إسناد شامي جيد.

(١٣٢) إسناده صحيح، كتاب الإخوان، رقم ٢١، ص ١٠٥، ١٠٦.

تكوين المجتمع المسلم، إنه فعل التحاب، يعلم من يحبهم أنه يحبهم في الله، ويزورهم، ويجالسهم، ويلتقي بهم، ويؤاكلهم، ويصافيهم، ويصادقهم، ويبذل لهم، وينصرهم في كل ذلك في الله، فيلتقي بهم على محبة الله، ويفترق عنهم، وهم متحابون صادقون في الله.

إن النبي ﷺ وأصحابه والمربين- جميعا- قد حثوا المسلمين على ممارسة هذه الأعمال الأخوية: أعمال المحبة في الله.

تأمل وتذوق الأبعاد الاجتماعية لما يلي:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إذا رزقكم الله عز وجل مودة امرئ مسلم، فتشبثوا بها»(١٣٣).

عن أبي حمزة الشيباني أنه سئل عن الإخوان في الله عز وجل – من هم؟ قال: «هم العاملون بطاعة الله عز وجل، المتعاونون على أمر الله عز وجل، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم، قال: فحدثت به أبا سليمان (الداراني، الإمام العابد الزاهد الثقة) فقال: قد يعملون بطاعة الله عز وجل، ويتعاونون على أمره، ولا يكونون إخوانا حتى يتزاوروا ويتباذلوا»(١٣٤).

عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أحب أحدكم أخاه، فليخبره أنه يحبه»**(١٣٥). وفي الأدب المفرد: **«وإذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه أحبه»**(١٣٦) . وعند الترمذي: **«إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه**

---

(١٣٣) المصدر السابق، رقم ٣٢، ص ١١٤.

(١٣٤) المصدر السابق، رقم ٤٩، ص ١٢٦، ١٢٧.

(١٣٥) حديث حسن، كتاب الإخوان، رقم ٦٥، ص ١٣٦،١٣٥، وانظر تخريجه هناك، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ج١، رقم ٢٧٩، ص ١١٣، ولفظه: «**إذا أحب أحدكم أخاه، فليعلمه أنه يحبه**» صحيح. ورواه أبو داود كما أثبتناه في المتن، سنن أبي داود، ج ٤، كتاب الأدب، رقم ٥١٢٤، ص ٣٦٩.

(١٣٦) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، بتحقيقه، رقم ٥٤٢، ص ١٨٦، والحديث رواه أحمد في المسند، إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٧١٠٥، ص ٢٩٠ وفيه: «**فليعلمه أنه يحبه**».

إياه»(١٣٧).

وأخرج أحمد وابن المبارك، والضياء أن أبا سالم الجيشاني أتى أبا أمية في منزله فقال: إني سمعت أبا ذر يقول: إنه سمع رسول ﷺ يقول: «**إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله، فليخبره أنه يحبه في الله- عز وجل**» وقد أحببتك، فجئتك في منزلك، وفي رواية «.. **فليخبره أنه يحبه لله- عز وجل**»(١٣٨).

وأخرج أبو داود عن أنس بن مالك أن رجلا كان عند النبي ﷺ، فمر به رجل فقال: يا رسول الله إني لأحب هذا فقال له النبي ﷺ: «**أعلمته؟**» قال: لا، قال: «**أعلمه**»، قال: فلحقه فقال: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له(١٣٩). وفي المصنف: عن أنس بن مالك قال: مر رجل بالنبي ﷺ وعنده ناس، فقال رجل ممن عنده: إني لأحب هذا لله، فقال النبي ﷺ: «**أعلمته؟**» قال: لا، قال: «**فقم إليه فأعلمه..**»إلخ(١٤٠).

وعن حبيب بن ضبيعة الضبعي (له صحبة) أن رجلا أتى النبي ﷺ، فقال بعض أصحابه: إني لأحبه في الله، فقال النبي ﷺ: «**وهل أعلمته؟**» قال: لا، قال: «**فقم فأعلمه**»، فقام إليه، فقال: يا فلان، إني أحبك في الله..إلخ(١٤١).

وعن مجهد قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره، ليقل: إني أحبك في الله، إني أودك في الله**»(١٤٢).

---

(١٣٧) قال الترمذي: حسن صحيح غريب، السنن، ج ٤، كتاب الزهد، رقم ٢٣٩٩، ص ١٧٦.

(١٣٨) إسناده حسن عند أحمد، المسند، ج ١٦، رقم ٢١٤٠٥، ٢١٤٠٦، ص ٥، ٦ والمسند، ج ١٥، رقم ٢١١٩١، ص ٤٨٠، ابن المبارك: الزهد، رقم ٧١٢، ص ٢٤٨، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ٢٨١، ص ١١٣.

(١٣٩) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٥١٢٥ ص ٣٦٩.

(١٤٠) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ١١، رقم ٢٠٣١٩، ص ٢٠٠.

(١٤١) إسناده صحيح، كتاب الإخوان، رقم ٧٠، ص ١٣٩ وهو صحيح على شرط مسلم، وانظر تخريجه هناك.

(١٤٢) مرسل، حسن، كتاب الإخوان، رقم ٦٨، ص ١٣٧-١٣٨.

وعن مجاهد قال: حدثت أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب أحدكم أخاه في الله، فليعلمه، فإنه أبقى في الألفة، وأثبت في المودة**»(١٤٣).

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن مجاهد قال: لقيني رجل من أصحاب النبي ﷺ، فأخذ بمنكبي من ورائي، قال: أما إني أحبك، قال (يعني مجاهد): أحبك الله الذي أحببتني له، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحب الرجلُ الرجلَ فليخبره أنه أحبه، ما أخبرتك.. الحديث(١٤٤).

وقد ذكرت – سابقا – رواية حماد بن زيد: «**ورجلان قال كل منهما للآخر: إني أحبك في الله، فصدرا على ذلك**»، أي: رجعا واجتمعا في الله على هذا القول: إني أحبك وهذا تجديد للحب في القلب.

ومن الواضح أن النبي ﷺ يربي الصحابة تربية اجتماعية، إنه يريد تنمية التحاب بين المسلمين، ويريد إدماج كل منهم في زمرة اجتماعية تقية، إنه يبني قوة التماسك الاجتماعي، يبني البنيان الاجتماعي المرصوص الذي يحب بعضه بعضا، ويشد بعضه بعضا.

٨- وإذا افترقا اشتاق كل منهما للقاء الآخر ثانيا، فيذهب ليلتقي به، ويزوره، ويعلمه ويتسلى بمحادثته عن الهموم والأحزان.

- عن الحسن قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ، يذكر الرجل من إخوانه في بعض الليل، فيقول: يا طولها من ليلة، فإذا صلى المكتوبة غدا إليه، فإذا التقيا

---

(١٤٣) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ٢٨٠، ص ١١٣، وكتاب الإخوان، رقم ٦٩، ص١٣٨.

(١٤٤) قال الألباني: حسن صحيح، الأدب المفرد، رقم ٥٤٣، ص ١٨٦.

وروى الطبراني عن ابن عمر، يقول: «بينما أنا جالس عند النبي ﷺ، إذ جاء رجل فسلم عليه، ثم ولى عنه، فقلت: يا رسول الله، والله إني لأحب هذا. قال: «**هل أعلمته؟**» قلت: لا، قال: «**فأعلم ذاك أخاك**»، فاتبعته، فسلمت عليه، فأخذت بمنكبه، وقلت: والله إني لأحبك في الله، وقال هو: وأنا أحبك في الله. وقلت: لولا أن النبي ﷺ أمرني أن أعلمك، لم أفعل. الطبراني المعجم الكبير، ج ١٢، ص ٢٨٠،٢٨١.

عانقه.

وعن عبيد بن عمير (مكي ثقة) أنه إذا آخى أخا في الله أخذ بيده، فاستقبل به القبلة، ثم قال: اللهم اجعلنا شهداء بما جاء به محمد ﷺ، واجعل محمد ﷺ علينا شهيدا بالإيمان، وقد سبقت لنا منك الحسنى، غير مغلول علينا، ولا قاسية قلوبنا، ولا قائلين ما ليس لنا بحق، ولا سائلين ما ليس لنا بعلم.

وعن مالك بن مغول قال: قال لي طلحة بن مصرف: للقياك أحب إلى من العسل.

وقال الخليل بن أحمد (صدوق، عالم، عابد) لأخ له:

العين تبصر ما تهوى وتفقده فناظر القلب لا يخلو من النظر

إن كنت لست معي فالذكر منك معي يراك قلبي وإن غيبت عن بصري(١٤٥)

وهذا الشوق، الذي يبعث على الانتقاء والائتلاف، يرجع إلى أن روح المؤمن تعرف روح المؤمن الآخر، لتشاكلهما، وتشابههما، وتوافقهما في الصفات والشيم والإيمان والأخلاق، فالروح تعرف الروح، والقلب يعرف القلب.. فيتعارفان، فيلتقيان، أخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر عنها اختلف**»(١٤٦).

فالأرواح متعارفة - في الله، والقلوب متقاربة، فيألف أحدهما الآخر.. ويزوره، ويعوده، ويصحبه، ويحدثه، ويعانقه، ويصافحه، ويأكل معه.. إلخ.

عن ابن عباس قال: «الرحم تقطع، والنعم تكفر، ولم ير كتَقَارُب القلوب».

---

(١٤٥) الآثار السابقة في: ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، أرقام ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ص ١٤٩-١٥٢.

(١٤٦) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٣٨، ص ١١٨، ورواه البخاري في الأدب المفرد عنه، وعن عائشة، بإسنادين صحيحين، الأدب المفرد، رقم ٩٠٠، ٩٠١، ص ٣١٤، ورواه ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان رقم ٧٨، ٧٩ ص ١٤٥، ١٤٦.

ويقطع الرحم القريب وتكفر النـ ـــعماء ولا كتقــارب القلبـــين

يبدي الهوى هذا ويبدي ذا الهوى فـإذا همــا نفــس تــرى نفــسين

وعن أبي جعفر قال: اعرف المودة في قلب أخيك لما له في قلبك(١٤٧).

والله هو الذي ألف بين هذه القلوب المتحابة: قال الفضيل بن عياض: لقيت أبا إسحاق (ثقة، عابد، اختلط بآخرة، وهـو الـسبيعي) بعـد مـا ذهـب بـصره، فالتزمني، فقلت: تعرفني؟ قال: نعم والله، إني لأعرفـك، وإني لأحبـك، ولـولا الحياء لقبلتك، تدري فيمن نزلت هذه الآية؟ حدثني أبو الأحوص (عـوف بـن مالك بن نضلة، ثقة) عن عبد الله (ابن مسعود)، قـال: في المتحـابين في الله- عـز وجل: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣](١٤٨).

فالله هو الذي يجمع بين قلوب المؤمنين- بعد التفـرق- عـلى دينـه الحـق، فيصيرهم جميعا، إخوانا متحابين، فتأتلف، وتجتمع(١٤٩).

وأخرج الطبري «عن عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد، ولقيته، وأخـذ بيـدي، فقال: إذا تراءى المتحابين في الله، فأخذ أحدهما بيد صـاحبه، وضـحك إليـه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر، قال عبدة: إن هذا ليـسير، قـال: لا تقـل ذلـك، فـإن الله يقـول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني(١٥٠).

فلأن الله ألف القلبين التقيا وأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحكا لبعضهما، ولولا ذلك لتباغضا وتدابرا، وتقاطعا.

عن ابن عباس قال: إن النعمة تكفر، والرحم تقطع، وإن الله تعالى يؤلـف بين القلوب، وإذا قارب بـين القلـوب لم يزحزحهـا شيء أبـدا، ثـم تـلا هـذه

---

(١٤٧) انظر: باب اتفاق القلوب على المودة، كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا، ص ١٤٣.

(١٤٨) ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، رقم ١٤، ص ١٠٠، ١٠١.

(١٤٩) انظر: الطبري: جامع البيان، مجلد ٦، ج ١٠، ص ٤٢- ٤٣.

(١٥٠) المصدر السابق، ص ٤٣.

الآيـة: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣](١٥١).

فالسبب الذي يبعث على تلاقي الإخوان في الله هو تعارف الأرواح، وتأليف الله لهذه القلوب.

ثم معرفة ثواب التلاقي في الله وأخذ أحدهما بيد صاحبه: أخرج الطبراني عن سلمان الفارسي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما كما تتحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما، ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر**»(١٥٢).

٩- وإذا اشتاق كل منهما للآخر فإنه يزوره في الله، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المسلم إذا عاد أخاه، أو زاره في الله، يقول الله عز وجل: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا**»(١٥٣).

وقد ذكرت سابقا حديث: «**حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي**».

فيزور أخاه، ويبتسم له، ويبش في وجهه، ويصافحه أو يعانقه، ويحدثه، ويصافيه، ويأكل معه، ويصلي معه، ويتباذلان، ويعلم كل منهما صاحبه أنه يحبه في الله، ويعمل كل منهما أعمال المحبة في الله.. ويتعاونان، ويتناصحان، ويتصافيان، .. ويتناصران، ويتعاهدان على خدمة دين الله.. هنا تغفر الذنوب وتتحات الخطايا(١٥٤).

---

(١٥١) ابن المبارك: الزهد، رقم ٣٦٢، ص ١٢٣، انظر: الأدب المفرد، رقم ٢٦٢، ص ٩٨ مختصرا بإسناد صحيح، ورواه عبد الرزاق: المصنف، ج ١١، رقم ٢٠٢٣٣، ص ١٧١.

(١٥٢) المعجم الكبير، ج ٦، رقم ٦١٥٠ ص ٢٥٦.

(١٥٣) حديث حسن، رواه ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، رقم ٩٧، ص ١٥٨،١٥٩ ورواه أحمد في المسند، ج ٨، رقم ٨٥١٧، ص ٣٤٢، ورقم ٨٦٣٦، ص ٣٧٧، ورواه البخاري في الأدب المفرد، وقال الألباني: حسن، رقم ٣٤٥، ص ١٢٢، ورواه الترمذي وابن ماجه.

(١٥٤) انظر: باب في زيادة الإخوان، باب مصافحة أهل المودة، باب في معانقة الإخوان، باب في بشاشة الرجل لأخيه، وطلاقة وجهه إليه إذا لقيه، باب في سخاء النفس بالبذل للإخوان، باب في إطعام الطعام للإخوان، من كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا.

فأين المتحابون في الله.. بجلال الله..؟ إني أحبهم في الله، فاللهم بارك في قلوبنا.

١٠- وإذا أحب المسلمُ المسلمَ فإنه ينصره، ويدافع عنه، ولا يخذله، لأن «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا..**» متفق عليه(١٥٥). ولأن «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله** (أي: لا يترك نصره إذا احتاج إليه، ومعونته في الحق) **ولا يحقره..**»(١٥٦). ولأن النبي ﷺ قال: «**ولينصرن الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، إن كان ظالما فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره**»(١٥٧). وقال: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»، وقال: «**المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»، وقال: «**المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله**»(١٥٨).

ولأن «**المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس**»(١٥٩).

وقد أخرج أحمد وأبو داود والطبراني عن جابر بن عبد الله، وأبي طلحة بن سهل الأنصاري، يقولان: قال رسول الله ﷺ: «**ما من امرئ يخذل امرأ مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله تعالى في**

---

(١٥٥) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٨٥، ص ٥٦ عن أبي موسى الأشعري. ورواه أحمد عن أبي موسى، المسند، ج ١٤، رقم ١٩٥١٤، ١٩٥١٥، ورواه الترمذي.. وغيرهم.

(١٥٦) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٦٤، ص ٣١.

(١٥٧) رواه مسلم، إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٨٤، ص ٥٣.

(١٥٨) هذه الأحاديث رواها مسلم، المصدر السابق، رقم ٢٥٨٦، ص ٥٦.

(١٥٩) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي: المسند، ج ١٦ رقم ٢٢٧٧٥، ص ٤٥٤. ورواه ابن المبارك في الزهد، رقم ٦٩٣ ص ٢٤١، ورواه الطبراني: المعجم الكبير، ج ٦، رقم ٥٧٤٣، ص ١٣١، وقال الألباني: حسن، أحمد عن سهل بن سعد، وذكره في الصحيحة رقم ١١٣٧، صحيح الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٦٦٥٩، ص ١١٣٠.

موطن يجب فيه نصرته، وما من أحد ينصر مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»(١٦٠). وفي رواية أبي داود: «**في موضع تنتهك فيه حرمته..**».

وفي رواية أحمد «**عند موطن..**».

يقول الشيخ حسن البنا في شرح هذا الحديث: «هو الإسلام الذي يجمع شتات القلوب، ويوحد نوافر النفوس، ويتألف شواذ الطباع، ويجعل من المسلمين جسدا واحدا، في تعاطفهم وتراحمهم، وتوادهم، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

هي لحمة الدين ونسبه، ورباط الإيمان وسببه، تقطعت الروابط، وذلك الرباط قوي متين، وانطمست الأسباب وهذا السبب واضح مبين، عليه نحيا، وعليه نموت، وعليه نبعث إن شاء الله.

إن الله لم يرتضِ للمسلمين إلا أن يكونوا إخوة، وامتن عليهم في محكم كتابه بهذه المنة، وهو في هذا الامتنان يذكرهم بهذه الفريضة، وإن الأنصاري الذي كان يقدم للمهاجري نفسه وماله وأهله، لم تكن تربطه به رابطة من دم أو نسب، إن هو إلا الإسلام(...).

لم ير السلف رابطة أولى من هذه الرابطة بالرعاية، فكان الأجنبي لديهم شقيقا كريما وأخا حميما – بالإسلام، وكان القريب بعيدا، وعدوا لدودا، إذا ناوأ دعوة الإسلام.

(...) وأليس منهم من اقتدى بنفسه أخاه في دين الله؟ وهل علمهم القرآن غير هذا العلم، وأدبهم بغير هذا الأدب؛ إذ يقول لهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

---

(١٦٠) قال الألباني: حسن، وهذا لفظه في: صحيح الجامع، ج٢، رقم ٥٦٩٠ ص ٩٩٢-٩٩٣، ورواه أبو داود: السنن، ج ٤، رقم ٤٨٨٤، ص ٢٩٣ وأحمد: في المسند، ج ١٢، رقم ١٦٣٢٠، ص٥٣٦.

وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأنت إذا تصفحت كتاب الله وأحاديث رسوله، وجدت حق المسلم على المسلم كأخ كريم، وولي حميم، فريضة مقررة، وأمرا محتوما لازما، وإذا تصفحت سير كرام السلف الصالح رأيتهم درجوا على ذلك وآمنوا به، وتغلغل في نفوسهم، وفاضت به قلوبهم الطاهرة(...) ولو أخذ المسلمون بهذا الأدب ما ضعفت قوتهم، ولا تفككت وحدتهم، ولا تمكن عدو منهم، ولكنهم تخاذلوا(...) نؤمن بهذا وندين به، ونلقى الله عليه، رغم أنوف دعاة القومية الخاصة الذين يمكنون لأعدائهم في بلادهم، وهم لا يشعرون(...).

هذه العاطفة النفسية، والأخوة الإيمانية لن تكون كلاما لفظيا، ولا أمنية خيالية.

لكنها عقيدة، لابد أن يكون لها أثرها الخارجي العملي، ولابد أن تتمثل في صلات المسلمين ومعاملاتهم، فمن خرج على هذه العقيدة، أو ادعاها ادعاء، ولم يأخذ بمستلزماتها استحق عقوبة تتكافأ مع جريمته.

وعلى ضوء هذه المبادئ نتفهم الحديث الشريف.

أي مسلم يرى أخاه في ضيق وشدة وكرب وعسرة وموضع اعتدى فيه عليه؛ فنال عدوه من كرامته، وانتهك حرمته، وانتقص عرضه، واستبد به، وأذاقه صفوف الهوان، ثم هو يرى ذلك، وهو ساكت واجم، (...) لا يمد يده لنصرة، إلا كان ذلك دليلا على ضعف إيمانه، ورقة دينه، واستهانته بحقوق الإخوة التي هي فريضة منزلة، ومتى كان ذلك؛ فإن الله يكافئه بحرمانه رحمته ورضوانه، في وقت يكون أشد ما يكون رجاء لها وحاجة إليها، وذلك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

وأي إنسان يضمن لنفسه النجاة بعمله أو يعتقد السلامة إذا خلي بينه وبين

نفسه؟ ومن حرم فضل الله: فأي شيء بقي له؟

لهذا كان الوعيد في هذا شديدا، والجزاء صارما عنيفا، ولكن الجريمة تستحق ذلك، وأشد منه، وأي مسلم يرى أخاه على هذه الحال فيهب لنصرته، ويلبي نداءه، ويقف إلى جانبه، ويدفع عنه عدوان المعتدين، وظلم الظالمين، إلا كان ذلك دليلا على قوة إيمانه، ومتانة يقينه، ومعرفته فرائض ربه، واستحق بذلك جزاء من جنس عمله: أن يؤيده الله في الشدائد، وينصره في الملمات والخطوب(...).

أيها المسلمون: هذا دستور دينكم، وقول نبيكم.

ولستم في وقت من الأوقات مظلومين، مهضومين، كما أنتم في هذا العصر(...) فقد تمزقت وحدتكم، واحتلت أرضكم، وسلبت أموالكم، واستغلت مرافقكم (...) ونيل من كرامتكم، وانتهكت حرماتكم، وانتقصت أعراضكم.

فلستم أحوج إلى التساند والمساعدة والتكاتف منكم الآن، وكونوا كما قال رسولكم ﷺ: «**كالبنيان يشد بعضه بعضا**».

أما كيف تتعاونون..فاعلموا يا أحبابي أن الأمر أيسر وإذا صدق العزم وضح السبيل، والحاجة تفتق الحيلة.

وفي الوقت الذي يسودكم فيه هذا الشعور - بحق - وتعلمون أنه أمر لابد منه، ترون كيف تكون السبيل واضحة إلى التعاون والتآزر: ﴿**وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: ٤][١٦١].

هذه هي المحبة في الله، أصلها، وأعمالها، وثمراتها وكونها (عقيدة) من عقائد الإيمان الإسلامي.

---

(١٦١) حسن البنا: نظرات في السنة، ص ١١٨ - ١٢٤.

ونختم هذه الفقرة بقول الحسن: «إن المؤمن شعبة من المؤمن، إن به حاجته، إن به علته(...) يفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، وهو مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه: سدده وقومه، ووجهه، وحاطه في السير والعلانية، إن لك من خليلك نصيبا، إن لك نصيبا من ذكر من أحببت، فتنقوا الإخوان، والأصحاب والمجالس»(١٦٢).

ز- وكل ما ذكرناه عن التحاب في الله، وأعمال المحبة لله، ينطبق على المسلمات المؤمنات، فمن أحبت أختها المسلمة في الله، أحبها الله، وأظلها في ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله، وقد نقلنا عن أم الدرداء أن الحب في الله أوثق أعمالها عندها، والله تعالى يقول: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[التوبة: ٧١].

فتربية قيمة المحبة في الله، هي خطة عامة للمسلمين والمسلمات.

ح- تربية الحب في الله:

١- إن إكساب كل مسلم ومسلمة قيمة الحب في الله- بمضمونها السابق- والتحاب فيه، وما يترتب عليها من موالاة المسلمين، ومؤاخاتهم، وزيارتهم، ونصرتهم، وغير ذلك من أعمال المحبة في الله.. هو هدف تربوي عقدي واجتماعي: أي: يلزم تنمية وتعظيم المحبة في الله في قلوب المسلمين وأفعالهم، بإمداد وتغذية كل مسلم ومسلمة بالغذاء العلمي، المنمي لهذه القيمة، وإدخاله في أعمال المحبة، وممارستها، حتى يتصور هذه القيمة تصورا صحيحا، ويشتهي العمل بها، ويرغب فيها، ويتخلق بها، ويمارسها باعتبارها جزءا من ضميره الديني، وشخصيته الإسلامية، إنها قيمة من قيم البناء الاجتماعي والعقدي للمسلم.

ولا يمكن أن يكون هناك إحياء إسلامي، وبحث إسلامي معاصر بدون اكتساب العاملين للإسلام، والمسلمين عموما لهذه القيمة؛ لأنها شرط

---

(١٦٢) ابن المبارك: الزهد، رقم ٦٦٢، ص ٢٣٢.

للحركة الاجتماعية الفاعلة، وتكوين التيار الإسلامي المحرك والصانع للتاريخ، والتغيير الاجتماعي.

- وباكتساب قيمة المحبة في الله، وما تثمره في النفس والسلوك، ينشأ المجتمع المسلم ويتأسس، ويشرع في فعاليته وصناعته للتغيير، ويوجد وجودا ملموسا في الواقع الاجتماعي.

فالمحبة في الله، والمؤاخاة، والموالاة، والتناصر، والتماسك، والتساند- بين المسلمين- عقيدة وإيمان، من جانب، وشرط لبناء قوة التماسك الاجتماعي، أي: ميلاد المجتمع الإسلامي، من جانب آخر، إنها شرط لتحقيق مفهوم (البنيان يشد بعضه بعضا)، وتحقيق حزب الله في الأرض.

ومن هنا فإن تربية المحبة في الله، والمؤاخاة هي هدف رئيسي من أهداف التربية العقدية والاجتماعية، التي يجب أن تكون في قمة سلم الأولويات التربوية لحركة البعث الإسلامي الشاملة.

ومراجعة هذا البحث كافية للإقناع بما قررناه.

٢- واكتساب قيمة المحبة في الله، وأعمالها يتطلب أولا: أن نكتسب تصورا علميا، وفهما سليما، صحيحا لمضمون وأبعاد التحاب في الله؛ لأن الفكرة الصحيحة عن الشيء، شرط لممارسته ممارسة صحيحة، وأدائه أداء متقنا.

إذن يلزم العلم بالقيمة السابقة، من خلال الدراسة والتعلم، ذاتيا، وجماعيا، دراسة وتدبر آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ في المحبة في الله، وأعمالها، دراسة متأنية، متفهمة، متجهة إلى السعي بعد الوعي، والممارسة بعد المدارسة، تنطلق من الكلمة إلى الفعل في العالم، من خلال برنامج منظم، لاكتساب (الوعي) بقيمة التحاب والتآخي في الله.

ومن هنا فإن دورة تربوية تخصص لاكتساب (الوعي) بهذه القيمة يعتبر شرطا لازما، سواء عبر برنامج تثقيف ذاتي، أو جماعي، تدرس فيها آيات

وأحاديث المحبة في الله، وآثار المربين المسلمين في هذه القيمة الضرورية (مثل كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا- آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي- الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف- رسالة أوثق عرى الإيمان للشيخ محمد بن عبد الوهاب (في مجموعة التوحيد) هذا المبحث من هذا الفصل، أحاديث المحبة في الترغيب والترهيب، وما يتعلق بذلك) .

ويتنوع البرنامج التثقيفي بين دراسة كتب، كتابة بحث، مناقشة، استماع لمحاضرات، استماع لشريط في الموضوع، حفظ آيات المحبة، وأحاديثها..إلخ- تحليل أعمال المحبة- محاسبة النفس بمقايستها بهذه الأعمال، بلقاء كلمات من المحبة.. إلخ.

والهدف من كل ذلك اكتساب تصورات صحيحة ودقيقة لكل ما يتعلق بالمحبة في الله، لتحصيل الفهم والوعي والإدراك لهذه القيمة العقدية الاجتماعية.

٣- واكتساب قيمة المحبة لا يتطلب العلم والفهم والتصور والإدراك لها، فحسب، فلا يمكن أن يمارس الإنسان قيمة لا يريدها، ولا يحبها، ولا يشتهيها، ولا ينهض قلبه نحوها.. إلا إذا أكره على فعلها، وهذا ليس من الإيمان والأخلاق في شيء؛ لأن أساس المسئولية الخلقية هو حرية الاختيار، والرضا.

إذن لابد من شيء سابق للوعي والعلم.. إنه الإيمان: التصديق بالقيمة واليقين فيها، والإذعان لها، والعمل بمقتضاها، والمحبة لها.. وإرادتها بعشق، واشتهاء، ورغبة.. أي: أن نؤمن بالحب في الله، وأنه عقيدة، وأنه لازم، وفرض، وأن نشتهي الاتصاف به، والعمل بلوازمه القلبية والسلوكية السابقة.. وأن نريدها.. أولا، إرادة تثمر الهمة، والعزم الأكيد على التخلق بها، مهما كانت العقبات والصعوبات.

وتكوين هذا الإيمان وهذا العشق في القلب ممكن جدا وذلك بثلاثة أشياء:

الأول: أن نتأثر وننفعل، بالآيات والأحاديث التي ندرسها في الحب في الله، فنفه حس الإدراك، ونتأثر، وندخل مشاعرنا في الموضوع.

الثاني. ان نقدم على الدراسة السابقة ونحن موقنون أن هذه القيمة فريضة إلهية عقدية – لازمة لنا أفرادا ومجتمعات.

الثالث: أن نقتنع بالبراهين- بجدوى هذه القيمة، وثوابها في الدنيا والآخرة، في حياة الفرد والجماعة المسلمة.

ولا شك أن تأمل هذا المبحث، بحب، ورغبة، يمكن أن يكون سبيلا قاصدا لتكوين هذا الإيمان والعشق والإرادة أو سبيل آخر أهم هو تربية حب الله في القلب؛ لأن الحب في الله هو ثمرة من ثماره العظيمة، كما ذكرنا سابقا.

٤- لكن الشرط الضروري لاكتساب هذه القيمة هو التعود عليها، (فالخير عادة، تعودوا الخير ما استطعتم تعرفوا به- كما ورد معناه عند ابن مسعود) أي: بالانخراط الفعلي في (أعمال المحبة في الله)، فالحب في الله إيمان: وهو يزيد وينقص، وما التربية- هنا- إلا تزويد المحبة في الله.. أي ممارسة أعمالها.. فكلما مارسنا عملا من أعمالها، وبينا هذه المحبة، ونَمَوْنا وازددنا محبة في الله وتآخيا، وتماسكا.

ولهذا من اللازم عمل قائمة مفصلة بأعمال المحبة في الله، لكي يمارسها المسلم واحدة واحدة.

ومن هذه القائمة: أن يُعْلِم أخاه أنه يحبه – أن يزوره، أن يعوده، أن يجالسه، أن يلاقيه، أن يحادثه، أن يأكل معه يتباذل معه، يتصافى، يتناصر، ينصره، يرد غيبته، يبش في وجهه، يدعو له بظهر الغيب، يصافحه، يبتسم في وجهه، يتعاون معه، يقف معه في أزماته، يدرس معه، ينصحه.. إلخ.

واكتساب قيمة المحبة في الله إنما يحصل بالاندماج، والمشاركة في زمرة اجتماعية مسلمة، ويمكن عمل برنامج تقويمي ذاتي لمدة ثلاثة أسابيع مثلا،

يتابع فيه المسلم موقفه السلوكي من ممارسة هذه الأعمال مع إخوانه المسلمين، عبر جدول مقنن، يحاسب نفسه في نهاية كل يوم حسابا دقيقا على مدى التزامه وممارسته لأعمال المحبة في الله.

ويمكن أن يتم هذا بشكل جماعي.

المهم أن ننخرط فعلا في أعمال الحب في الله، فهي من الإيمان، وهو يزيد- أي: ينمو ويعظم، أي: يتربى بالطاعات.. أي بأداء هذه الأعمال المذكورة.

ومن هذه الأعمال ما رواه عبد الرزاق في جامع معمر أن عمر بن الخطاب قال: يصفي للمرء ود أخيه: أن يدعوه بأحب الأسماء إليه، وأن يوسع له في المجلس، ويسلم عليه إذا لقيه(١٦٣).

٥- والجماعة المحيطة بالأخ المسلم، والأخت المسلمة، عليها دور تربوي في اكتسابه لهذه القيمة، وذلك من خلال (ثقافة المحبة في الله) التي تشيع فيها، أي:أن تكون الجماعة المحيطة بالمسلم وسطا اجتماعيا ممارسا للحب في الله مع بعضها ومع هذا الأخ، وسطا مشجعا على ممارسة الحب في الله، ومعينا على التزام أعمالها.. وسطا حنونا رفيقا يأخذ بالأيدي الضعيفة ليقويها.. إلخ، وسطا ممدا بالعلم، والعمل والهمة والحال.. وسطا يبحث عن ذرة الخير ليعظمها ويجعلها جبلا وواديا أفيح من الخيرات.

٦- والبناء الاجتماعي للحركة الإسلامية المعاصرة يستلزم التربية على هذه القيمة، واكتسابها من كل العاملين، والسعي في إكسابها لكل المدعوين والمخاطبين.

ولا يصح أن نضيع الفرص، فلنشرع في وضع برنامج للتربية الاجتماعية، لإكساب قيمة الحب في الله، وتنفيذه بكل دقة عبر أساليب التربية المتعددة

---

(١٦٣) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ١١، رقم ١٩٨٦٥، وروى ابن المبارك مثله عن الحسن عن عمر، الزهد، رقم ٣٥٢، ص ١١٩.

(دروس، محاضرات، خواطر، أبحاث، مواعظ، مدارسة كتاب، تلاوة، زيارات، رحلات، صلوات جماعية، أكل جماعي، سفر مشترك، تعاون،.. دورات، ليال تربوية، لقاءات أخوية مبرمجة..إلخ).

٧- ولا تنس الدعاء.. أن نسأل الله.. أن يكسبنا هذه القيمة:

«اللهم نسألك حبك، وحب من يحبك».

«اللهم ألف بين قلوبنا، وارحم ذات بيننا».

«اللهم اجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سِلْما لأوليائك، حربا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك».

«اللهم بارك في قلوبنا، اللهم بارك أخوتنا، اللهم إن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك.. فوثق اللهم رابطتها، وأدم ودها، واهدها سبلها.. اللهم ألف بين قلوب المسلمين، واهدهم سبل السلام.. إلخ».

هذه هي محصلة الحب في الله، التي إذا مارسناها أظلنا الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

خصلة تبدأ من القلب وتنتهي ببناء قوة التماسك الاجتماعي في الواقع.

ونختم هذه الفقرة بآية، تبين أن الحب في الله والبغض في الله، هو ثمرة الإيمان بالله، في القلب، يقول الله- تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢].

فالمؤمنون المفلحون يوادون المطيعين لله ولرسوله، ويعادون المعادين لله ولرسوله، هؤلاء: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ فالله كتب الإيمان في قلوبهم، وأسبقه، وقرره في هذه القلوب، الحية، النابضة، فالإيمان ثابت فيها، مكتوب،

لا يبرحها، فهو يهديهم، وينير لهم طريقهم في الحياة حتى يلقوا الله.

وتأمل قوله: (كتب) فالله هو الذي (كتب) خط وأثبت - بذاته، سبحانه، (في قلوبهم) القلوب المؤمنة كل كتاب في الله..، كتب.. فيها.. الإيمان.. تخيل- أخي وأختي- هذه الحال.. وتذوقه، وافتح قلبك لله.. ليكتب لك الإيمان.. تحب المؤمنين، وتبغض الكافرين المحادين لله ولرسوله.

عاشرا: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال** - وفي رواية: إلى نفسها- **فقال: إني أخاف الله**» :

وفي رواية: «**ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**» وفي رواية: «**ورجل دعته ذات حسب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله**». وفي رواية البيهقي: «**فعرضت نفسها عليه..**»(١٦٤). وفي رواية سلمان- موقوفا: «**ورجل دعته امرأة ذات حسب ومِيسَم إلى نفسها، فقال: إني أخاف الله رب العالمين**»(١٦٥).

أ- هذه الخصلة التي توصل إلى ظلال عرش الرحمن يوم الدين هي العفة عن الحرام، عن الزنى، هي حفظ الفرج، في موقف امتحان صعب قد يغيب فيه العقل، وتستأسد الشهوة، وتشتعل، والجو موات، فالمرأة ذات حسب، ذات أصل وشرف، ومنصب، ومال، وجاه، وذات جمال، ومِيسَم، أي: سمة جمال، وهي التي تشتهي، وتعرض عليه الزنى بها، وتدعوه إلى نفسها، بالمقال والحال، وفتنتها متبرجة، تبرج الأنثى تصدت للذكر، تدعوه ليرتكب معها الفاحشة، وهو رجل، إنسان مزين له شهوة الجنس، وحب النساء في نفسه، فما الذي يمنعه، ما الذي يجعله يتورع، عن فعل الفاحشة معها؟

إنه: الخوف من الله، إنه تقوى الله، وطهارة قلبه من شهوة الزنا، وعفته

(١٦٤) انظر: فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٥.

(١٦٥) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ١١، رقم ٢٠٣٢٢، ص ٢٠١.

لأجل الله، فيقول بقلبه: إني أخاف الله، ويقول بلسانه، ليذكر نفسه، وليزجر هذه المرأة: إني أخاف الله رب العالمين، ويفر ببدنه من هذه الفتنة.. من جحيم النفس، ونار الشهوة المشتعلة؛ خوفا من الله تعالى، الذي يعلم السر، والعلن، عن مجاهد، في تفسير آية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦]، قال: هو الرجل يذكر الله عند المعاصي، فينحجز عنها، وعن إبراهيم قال: إذا أراد أن يذنب؛ أمسك عن الذنب؛ مخافة الله عز وجل، وقال مجاهد: هو الذي إذا هم بالمعصية ذكر الله عز وجل فتركها(١٦٦).

وأخرج الطبري عنه: «هو الرجل يهم بالذنب فيذكر مقام ربه، فينزع» وقال: «هو الرجل يهم بمعصية الله تعالى، ثم يتركها في الله»(١٦٧).

ويقول عبيد بن عمير: من صدق الإيمان وبره: أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء، فيدعها، لا يدعها إلا لله- عز وجل(١٦٨).

فالذي يجعله ينزجر، وينحجز، ويمسك عن هذه الفاحشة، ويدعها ويتركها: هو البرهان، النور الذي في قلبه، هو الإيمان بالله وخوف حسابه وعقابه، إنه واعظ الله في قلبه، يعظه، ويدعوه، ويذكره بالله.. فيردد ما يقول له الواعظ في قلبه: إني أخاف الله رب العالمين، فيصدق عمله قوله، فيفر ببدنه من هذه الفتنة ليكون من خالص الله، لقد خرج ناجحا من امتحان التقوى، فله مغفرة، وأجر عظيم، وظل ممدود بظلال عرش الرحمن.

إنه العفاف الناتج عن الخوف من الله الناتج من معرفة ويقين وإيمان بالله واليوم الآخر.

ب- فالسبيل إلى هذا العفاف هو تربية الخوف من الله، في قلب المسلم والمسلمة، تربية تعظيم الله في القلب، وتقوية الإرادة حتى يكون متأسيا

---

(١٦٦) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ١٩٢، ١٩٣.
(١٦٧) الطبري: جامع البيان، مجلد ١٣، ج ٢٧، ص ١٦٦.
(١٦٨) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ١٩٥.

بيوسف الصديق: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

معاذ الله: أعوذ بالله، وحده، ألجأ إليه من هذه الفتنة، إنه ربي، خالقي، ومالكي، وسيدي، والحاكم علي، أحسن إلي، وأنعم علي، كيف أعصيه، (أما الحرام فالممات دونه)عائذا بالله من الفتن، (فاستعصم) استمسك بحبل الله، استعان بالله، طلب من الله العصمة، والصيانة، والوقاية من هذه الفتنة المشتعلة، سأل الله أن يعصمه، ويحميه من الفاحشة، وأخلص لله، وصدق الله، فصدقه الله، وأخلص له، وصرف عنه الفحشاء: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

تربية الإنسان على عبادة الله، أن يكون عبدا لله وحده، متحررا من قيد الشهوة، ومضلات الهوى، وشهوات الغي.

جـ- **وتأمل في موقف ثان**، يتحقق فيه الحديث الذي معنا، تماما، مع رجل ليس نبيا، ولا صحابيا، بل هو من التابعين الذين تربوا تربية إيمانية تعرف الله، وتخشاه، راودته امرأة ذات جمال فاتن، فماذا حدث في قصة (صاحبة الأبواء)؟

- «عن أبي حازم قال: خرج سليمان بن يسار، خارجا من المدينة، ومعه رفيق له، حتى نزلوا بالأبواء، فقام رفيقه فأخذ السفرة وانطلق إلى السوق، يبتاع لهم، وقعد سليمان في الخيمة، وكان من أجمل الناس وجها، وأروع الناس، فبصرت به أعرابية من قُلَّة الجبل، وهي في خيمتها، فلما رأت حسنه وجماله، انحدرت وعليها البرقع والقفازان، فجاءت ووقفت بين يديه، فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر، فقالت: أَهِبْنِي؟ فظن أنها تريد طعاما، فقام إلى فضل السفرة ليعطيها، فقالت: لست أريد هذا، إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله (يعني: الجماع) فقال: جَهَّزَكِ إِلَيَّ إبليس!! ثم وضع رأسه بين كميه، فأخذ في النحيب، فلم يزل يبكي، فلما رأت ذلك؛ سدلت البرقع على

وجهها، ورفعت رجليها بأكواب (يعني: رجعت بالحسرة والندم) حتى رجعت إلى خيمتها.

فجاء رفيقه، وقد ابتاع لهم ما يرفقهم، فلما رآه وقد انتفخت عيناه من البكاء، وانقطع حلقه؛ قال: ما يبكيك؟ قال: خير، ذكرت صِبْيَتِي، قال: لا إن لك قصة،.. فلم يزل به رفيقه حتى أخبره بشأن الأعرابية، فوضع السفرة، وجعل يبكي بكاءً شديدًا، فقال له سليمان: أنت ما يبكيك؟ قال: أنا أحق بالبكاء منك، قال: فلم؟ قال: لأني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها. قال: فما زالا يبكيان. قال: فلما انتهى سليمان إلى مكة، وطاف، وسعى، أتى الحِجْر، واحتبى بثوبه، ونعس، فإذا رجل وسيم جميل طوال، له شارة حسنة، ورائحة طيبة، فقال له سليمان: من أنت، رحمك الله؟ قال: أنا يوسف بن يعقوب. قال: يوسف الصديق؟ قال: نعم. قلت: إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لشئنا عجيبا، فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب»(١٦٩).

تأمل: (جَهَّزَكَ إِلَيَّ إبليس) هنا وعي المؤمن بخطة عدوه القديم.

تأمل: وضع رأسه بين كميه..وأخذ يبكي: إنه يستشعر ضعفه، فيغض بصره، ويبكي، خوفا من الله.

وينتصر ويسجل انتصارا لإرادة الإنسان المؤمن.

٢- وحدث هذا مرة ثانية مع امرأة أخرى، قال مصعب بن عثمان: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجها، فدخلت عليه امرأة، فسألته نفسها، فامتنع عليها، فقالت له: ادنه، فخرج هاربا من منزله، وتركها فيه(١٧٠).

هذه هي مقاومة الأحرار لخطط إبليس.

---

(١٦٩) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج٢، ص ١٩١- ١٩٢.
(١٧٠) المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٠.

٣- **تأمل**: حج مسلم بن يسار، فو الله، إنه قاعد في بيته يعالج شيئا من طعامه، إذ جاءته امرأة، فقالت له شيئا، فتناول شيئا فأعطاها، فقالت: ليس هذا طلبت، إنما طلبت ما تطلب المرأة من زوجها، فقال بكل شيء في يده، فطرحه، ثم خرج يشتد، فلما خرج قال: يا رب، ليس لهذا جئت أنا، ها هنا(١٧١).

تأمل: رمى كل شيء في يده- خرج يشتد- قال: يا رب، ليس لهذا جئت أنا ها هنا.

فعل قلبي يلجأ لله، وفعل جسدي، قوي، يفر من هذه الفتنة.

٤- وقد حدثت مثل هذه المحنة لعطاء بن يسار، أخي سليمان، «... وبقي عطاء، قائما في المنزل، يصلي، قال: فدخلت عليه امرأة من الأعراب، جميلة، فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة، فأوجز في صلاته، ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قال: ما هي؟ قالت: قم فأصب مني، فإني قد وَدِقْتُ (اشتقت للجماع)، ولا بعل لي، فقال: إليك عني، لا تحرقيني ونفسك بالنار، ونظر إلى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه، ويأبى إلا ما يريد، قال: فجعل عطاء يبكي، ويقول: «ويحك، إليك عني (ابتعدي)، قال: واشتد بكاؤه، قال: فلما نظرت المرأة إليه، وما داخله من البكاء والجزع، بكت المرأة لبكائه، قال: فجعل يبكي، والمرأة بين يديه تبكي، فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان (أخوه) من حاجته، فلما نظر إلى عطاء يبكي، والمرأة بين يديه تبكي، في ناحية البيت، بكى لبكائهما...»(١٧٢).

تأمل: إليكِ عني- ابتعدي- لا تحرقيني ونفسك بالنار، هنا وعي بالمصير، وحضور للآخرة في قلبه.

تأمل: فجعلت تراوده، ويأبى إلا ما يريد، هنا: مقاومة الفتنة، والإصرار

---

(١٧١) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٩٣.

(١٧٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٢، ص ٤٧، ابن الجوزي: ذم الهوى: ص ٢٠١- ٢٠٢.

على حرية الإرادة المؤمنة..استمرارية المقاومة.

تأمل: رقة قلبه، وبكائه، الناتج عن شدة جزعه من العقاب يوم الدين.

تأمل: تأثيره في المرأة، وبعثها على البكاء في ناحية البيت..!

إنها انتصارات جديدة للإنسان المؤمن.

٥- يذكر الشيخ حسن البنا- رحمه الله- نموذجا ممن تربوا في مدرسته التي أنشأها في الإسماعيلية عام ١٩٢٧- ١٩٢٨م على التمسك بأحكام الإسلام الحنيف في كل تصرفاتهم، والتأثر بأخلاقه ومشاعره فيما يصدر عنهم من قول أو عمل، مع أنفسهم أو مع غيرهم من الناس، يقول(١٧٣):

«وهذا الأخ عبد العزيز(...) الذي يعمل «ترزيا» في المعسكر الإنجليزي، تدعوه زوجة أحد كبار الضباط لبعض الأعمال الخارجية.. لتنفرد به في المنزل، وتغريه بكل أنواع المغريات، فيعظها، وينصح لها، ثم يخوفها، ويزجرها، فتهدد بعكس القضية، تارة، وبتصويب المسدس إلى صدره تارة أخرى، وهو على ذلك لا يتزحزح عن موقفه، قائلا: إني أخاف الله رب العالمين،(...) توهمه في إصرار أنها قد قررت قتله، وستعتذر عن ذلك بأنه هاجمها في منزلها، وهَمَّ بها، وتصوب المسدس إليه فيغمض عينيه، ويصرخ في يقين: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فتفاجئها الصيحة، ويسقط المسدس على الأرض، ويسقط في يديها، فلا ترى إلا أن تدفعه بكلتا يديها إلى الخارج، حيث ظل يعدو...».

حدثني مدرس مسلم من الإسكندرية في عام ١٩٩١، أو ١٩٩٢م، أن بعض طلابه أرادوا إيقاعه في الفتنة، لما رأوا من تمسكه بطاعة الله، فأغروا فتاة فاتنة بأن تذهب لحجرته التي يسكن فيها، وقد أعدوا لذلك العدة، وذهبت

---

(١٧٣) حسن البنا: مذكرات الدعوة و الداعية، ط١، دار الدعوة، إسكندرية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٧١.

الفتاة، وتعرت تماما، واستلقت على سريره، وعندما دخل هذا المدرس رآها عارية تماما فاتنة على سريره، فأدار وجهه فورا للحائط، وصرخ بأعلى صوته وهو يبكي، اخرجي، .. اخرجي..، وانتصر هذا المدرس المسلم.

إنني أقص هذه (الوقائع).. لأقرر أن الإنسان قادر على الانتصار على الفتنة، في كل عصر.. وطريق ذلك تربية الخوف من الله، واليقين في الله، وفي اليوم الآخر، وتربية الإرادة المسلمة المتحررة من معتقلات شهوات الغي، ومضلات الهوى.. وتطهير القلب.

د- والذي جعل هؤلاء- وغيرهم ممن لا أريد التطويل بذكرهم- يتركون الفاحشة، والزنى، مع تهيؤ كل شيء حولهم لذلك، هو قوة الإيمان بالله والخوف منه في قلوبهم، واستحضار عذاب النار في وعيهم، وسلامة قلوبهم، وطهارتها من شهوة الحرام، هو يقين قلوبهم بقول الله- تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٣٢]، هو تخلقهم بالعفاف، والحرص عليه، ولذلك دعا النبي ﷺ للشاب الذي مال قلبه للزنى، واشتهاه، ودعا الله له أن يطهر قلبه، أن ينظفه من شهوة الحرام، ويغسله من فتنة الغي.. ويحول إرادته نحو الخير.

أخرج أحمد والطبراني عن سليم بن عامر عن أبي أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنى (عند الطبراني: في الزنى) فأقبل القوم عليه، فزجروه، وقالوا: مه، مه (يعني: كف، اسكت) فقال: «**ادنه** (يعني: اقترب)» فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: «**أتحبه لأمك؟**» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، قال: «**أفتحبه لابنتك؟**» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**»، قال: «**أفتحبه لعمتك؟**» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**»، قال: «**أفتحبه لخالتك؟**» قال: لا، والله،

جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**»، قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**».

وعند الطبراني: فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «**اللهم كفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[(١٧٤)].

فالنبي ﷺ حول إرادة هذا الفتى الشاب بثلاثة أفعال:

الأول: الرفق به، واللطف..، ومراعاة قوة شهوة الفتى الشاب.

الفعل الثاني: الإقناع الحقيقي بأن هذا الفعل قبيح، ولا يليق بالإنسان.

الفعل الثالث: هو وضع اليد على صدر الفتى والدعاء له بأن يطهر الله قلبه؛ لأنه منشأ شهوة الغي، والدافع نحو الزنى.. وأن يحصن فرجه.

وفعل التطهير هو قلع شجرة الحرام، التي غرسها الشيطان في القلب، وخلعها منه، من الجذر، قلع الشهوة الجنسية، حين تكون نحو الحرام، من القلب، فالقلب هو الذي يهوى- يحب- يميل إلى - الزنى، ويشتهيه ويتمناه، وهو الذي يحرك اليد، والرجل.. والبدن كله، فالمسلم يعي هذا، فيتجه لقلبه، يقلع هذه الشهوة المحرمة، ويطهره منها. إن المسلم يعي قول النبي ﷺ في ذلك: أخرج مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه**»[(١٧٥)]. ورواه من حديث ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة، أن النبي ﷺ

---

(١٧٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢١١٢، ص ٢٣٦، ٢٣٧، الطبراني: المعجم الكبير، ج٨، رقم ٧٦٧٩، ص ١٦٢، ١٦٣، ورقم ٧٧٥٩، ص١٨٣، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٣٨.

(١٧٥) إكمال المعلم، ج٨، رقم ٢٦٥٧، ص ١٤٥، وكذا رواية: ابن عباس عن أبي هريرة.

قال: «**إن الله كتب له ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تحب وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**».

فالزنى التام الموجب للحد والعقوبة في الآخرة هو للفرج، وغيره من الجوارح: اليد، اللسان، الرجل، القلب، النفس، لها حظها من الإثم إن مالت للزنى، أو قالت، أو فعلت ما يدعو إليه.

والمقصد هنا: أن القلب يتمنى الزنى، ويشتهيه، ويهواه، ويأثم بذلك، فالمؤمن يتجه لهذه الشهوة المحرمة، ويقلعها، ويطهر قلبه منها، بتذكير القلب بالله، وبالدعاء.

هـ- إذن: تربية الخوف من الله، في القلب، وممارسة فعل التطهير القلبي، يجعل المسلم ينظف قلبه من حب الزنى، فيقلع شجرته الجذرية من الجذر: بهذه المعرفة بالله، واستحضار عقابه في الآخرة، وباستحضار أسمائه الحسنى، وبالوعي والاقتناع، وبتقوية الإرادة، وبثقافة المقاومة الداخلية لإغراء شهوات الغي، وباستحضار ما أعده الله لمرتكبي الزنى في الآخرة.. ﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩] بهذه التربية العميقة، من تحت، يطهر القلب، ويتحصن الفرج، ويضيف المسلم مع ذلك، اللجوء لله، بحرارة، يا رب طهر قلبي من حب الزنى، نظف قلبي من الفواحش، حتى ألقاك طاهرا، نظيفا طيبا، حتى تظلني بظل عرشك، يوم لا ظل إلا ظلك، يا رب قني شر فرجي، وشر مَنِيِّي، أعوذ بك من الفواحش.

ثم يستمر على ذلك، ويقاوم، ويستحضر خوف الله، والنار، والحياء من الله، ويغض من بصره، عن الفتيات، والأفلام، والصور المثيرة، ولا يخلو- بتاتا- بامرأة ليس لها بمحرم، حتى يزكو قلبه، أي: يطهر، وينمو في الخير، وينمو فيه الخير، وإرادة التقوى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟**

فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

و- وكل ما سبق ينطبق على المرأة المسلمة، إذا دعاها شاب ذو منصب وجمال، إلى الزنى، فليقل قلبها، ولسانها: إني أخاف الله، معاذ الله، ألجأ إلى الله، فهو المعاذ، والملجأ، والمعز، (أما الحرام فالمات دونه...) **ولنتأمل:**

١- أخرج البخاري في حديث الغار الذي دخله ثلاثة نفر ليناموا فيه، فانطبقت عليهم صخرة، فدعوا الله بصالح أعمالهم لينجيهم الله «**وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم، أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها، فأبت، حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار، فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله، اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، اللهم فإن كنت تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج لنا منها، ففرج لهم فرجة...**»(١٧٦).

وفي رواية للبخاري: «**فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي، وأني راودتها عن نفسها، فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيتها بها، فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها، فقالت: اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة الدينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم، فخرجوا**»(١٧٧).

فهذه الفتاة امتنعت أولا عفة- حسب رواية ثالثة- ثم لما احتاجت، أجابت، مضطرة، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، خافت الله، وقالت له: يا عبد الله، اتق الله، ولا تفض عذرتي وبكارتي، إلا بزواج حلال، وتزويج

---

(١٧٦) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٧٤، ص ٤٠٤.
(١٧٧) المصدر السابق، ج ٦، رقم ٣٤٦٥، ص ٥٠٦.

صحيح، وفي رواية علي: «**فقالت: أذكرك الله أن تركب مني ما حرم الله عليك، قال: فقلت: أنا أحق أن أخاف ربي**»، وفي حديث النعمان بن بشير: «**فلما أمكنتني من نفسها بكت، فقلت: ما يبكيك؟ قال: فعلت هذا من الحاجة، فقلت: انطلقي**».

وفي رواية: «**فأسلمت إليَّ نفسها، فلما كشفتها ارتعدت من تحتي، فقلت: ما لك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين، فقلت: خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء، فتركتها**»، وفي حديث ابن أبي أوفى: «**فلما جلست منها مجلس الرجل من المرأة أذكرت النار، فقمت عنها**»(١٧٨).

يقول ابن حجر: «والحديث يفسر بعضه بعضا»(١٧٩).

ففعل المرأة يكشف عن حال قلبها مع الله: اتق الله، أذكرك الله أن تركب مني ما حرم الله عليك، بكت، ارتعدت، أخاف الله رب العالمين- أذْكَرَتِ النار.

إنها عملت بنص حديث: «**ورجل دعته امرأة...**» فهذه امرأة محتاجة، دعاها رجل ذو مال – فارتعدت وخافت النار، وقالت: أخاف الله رب العالمين.

٢- أخرج أحمد والترمذي عن ابن عمر؛ قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثا، لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين، حتى عد سبع مرار، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: «**كان الكفل من بني إسرائيل، لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته: أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا، ولم**

---

(١٧٨) ابن حجر: فتح الباري، ج ٦، من الشرح، ص ٥٠٩.
(١٧٩) المصدر السابق، ج ٦، من الشرح، ص ٥٠٩.

تفعلين قط؟ قال: ثم نزل، فقال: اذهبي، فالدنانير لك، ثم قال: والله لا يعص الله الكفل أبدا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبا على بابه: قد غفر الله عز وجل للكفل»(١٨٠).

٣- وروى ابن الجوزي واقعة شبيهة بهذه عن أبي عمران الجوني، قال: «كان لحام بني إسرائيل لا يورع عن شيء فجهد أهل بيت من بني إسرائيل، فأرسلوا إليه جارية منهم تسأله، فقالت: يا لحام بني إسرائيل أعطنا، فقال: لا، أو تمكنيني من نفسك، فرجعت، فجهدوا جهدا شديدا (وفي المرة الثالثة) قالت: دونك، فلما خلا بها، جعلت تنتفض كما تنتفض (السمكة) إذا خرجت من الماء، فقال لها: مالك؟ قالت: أخاف الله، هذا شيء لم أصنعه قط، قال: فأنت تخافين الله، ولم تصنعيه، وأفعله أنا، أعاهد الله أني لا أرجع في شيء مما كنت فيه»(١٨١).

وفي كتاب التوبة لابن أبي الدنيا عن بكر بن عبد الله المزني «أن قصابا (جزارا) ولع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها إلى حاجة لهم في قرية أخرى، فتبعها فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل؛ أنا أشد حبا لك منك لي، ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه، وأنا لا أخافه؟ فرجع تائبا، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه، فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل، فسأله، قال: ما لك؟ قال: العطش، قال: تعال حتى ندعو الله حتى تظللنا سحابة حتى ندخل القرية، قال: ما لي من عمل فأدعوه، قال: فأنا أدعو وأمِّنْ أنت، قال: فدعا الرسول وأمن هو، قال: فأظلتهم سحابة حتى انتهوا إلى القرية، فأخذ القصاب إلى مكانه، ومالت السحابة، فمالت عليه، فرجع

(١٨٠) هذه رواية أحمد: قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٤، رقم ٤٧٤٧ ص ٣٨١- ٣٨٢، وروى مثله الترمذي، وقال: هذا حديث حسن، السنن، ج ٤، رقم ٢٥٠٤، ص ٢٢٣٠، ورواه ابن حبان في صحيحه.

(١٨١) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ١٩٨.

الرسول، فقال له: زعمت أنه ليس لك عمل، وأنا الذي دعوت، وأنت الذي أمنت، فأظلتنا سحابة، ثم تبعتك، لتخبرني ما أمرك؟ فأخبره، فقال الرسول: التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه»(١٨٢).

وأورد ابن الجوزي وقائع جيدة في سياق أخبار النساء اللواتي امتنعن عن الفاحشة مع القدرة عليها، مثل ما روي عن خارجة بن زياد، قال: «هويت امرأة من الحي، فكنت أتبعها إذا خرجت من المسجد، فعرفت ذلك مني، فقالت لي ذات ليلة: ألك حاجة؟ قلت: نعم، قالت: وما هي؟ قلت: مودتك، قالت: دع ذلك ليوم التغابن، قال: فأبكتني، والله، فما عدت إلى ذلك»(١٨٣).

وحكي عن أعرابي قال: خرجت في بعض ليالي الظلمة، فإذا أنا بجارية كأنها علم، فأردتها على نفسها، فقالت: ويلك، أما لك زاجر من عقل، إن لم يكن لك ناه من دين! فقلت: أيهًا، والله ما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟(١٨٤).

وروي أن عمر بن الخطاب خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيرا، إذ مر بامرأة من نساء العرب، مغلقة عليها بابها وهي تقول:

تطاول هذا الليل تسري كواكبه ... وأرقني أن لا ضجيع ألاعبه

فو الله لولا الله لا شيء غيره ... لَنُقِّضَ من هذا السرير جوانبه

ولكنني أخشى رقيبا موكلا ... بأنفسنا لا يَفْتُرُ الدهر كاتبه(١٨٥)

هؤلاء هن المسلمات، المؤمنات اللائي تربين تربية إيمانية: فتيات ونساء يعرفن الله، ويخشينه، ويخفن عذابه، ويراقبنه: «فأين مكوكبها؟»..إلخ.

---

(١٨٢) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٤٤، ص ٤٢-٤٣.

(١٨٣) ابن الجوزي: ذم الهوى، مصدر سابق، ص ٢١٥.

(١٨٤) السابق، ٢١٦.

(١٨٥) السابق، ص ٢٢٤، وأخرجه كاملا ابن أبي الدنيا: الإشراف في منازل الأشراف، رقم ٢٢٩، ص ١٠٧ عن طريق ابن إسحاق، وقد عنعنه.

فتيات حرائر حقا، عندهن تحرر ذاتي، فيأنفن من الفاحشة (تموت الحرة ولا تأكل بثدييها). إنها المسلمة تقول دائما كما قالت هند بنت عتبة- بعد إسلامها: (أو تزني الحرة؟). إنها تربية المرأة الحرة- حقا- العفيفة، الورعة، التي تراقب الله، وتخشى عذابه، وترتعد من المعصية.

هؤلاء سوف يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

حادي عشر: «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»:

وفي رواية: «**في خلاء ففاضت عيناه**». وفي رواية حماد بن زيد «**ففاضت عيناه من خشية الله..**»(١٨٦) .

أ- هذه الخصلة الموصلة إلى ظلال العرش هي: ذكر الله في القلب واللسان، في خلوة، من غير التفات بالقلب عن الله، فيتذكر، ويستحضر، ويستدعي في قلبه صفات الجلال، وأنه العزيز القهار، شديد العقاب، الحكم، العدل، ويتذكر ذنوبه في حق الله، وأن الله مؤاخذه بها، ومحاسبه عليها، فيتوقع الحساب، والعذاب، فيرق قلبه، فيبكي، وتدمع عيناه، من خشية الله، ويتذكر نعم الله، وأوامر الله، وطاعاته، فيعلم أنه مقصر، لم يشكر الله على نعمه، فيستحي، خجلا، ويرق قلبه، فيبكي خشية من عذاب الله، في القبر، وعذابه في جهنم.

ويتذكر ويطالع بقلبه وعيد الله، وأهوال القبر، والبعث، والحشر، والموقف والحساب، والميزان، والمرور على الصراط، وأنه لا نجاة من الوقوع في النار إلا للذين اتقوا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢]. فيتذكر هذا كله، ويستحضره في قلبه، فيبكي خشية من الله، وتدمع عيناه بسبب هذه الخشية، ويتذكر صفات جمال الله، وأنه غفور رحيم، حنان، منان، كريم، بر، رؤوف، وأنه الرحمن،

(١٨٦) ابن حجر: فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٧ (من الشرح).

العفو، الوكيل، وأنه أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأنه سيعطي المؤمن الحسنى وزيادة، وهي رؤيتهم لوجهه الكريم، فما يعطى المؤمنون شيئا من الثواب أحب إليهم من ذلك، فيتذكر هذا، ويستحضره، ويستدعيه في قلبه، ويتخيل ما يجري عليه في الدار الآخرة، فيشتاق قلبه لله، ويحن إلى رؤيته، ويبكي شوقا إليه.. ويذكر الله بأسمائه الحسنى، ويرتل آياته المنزلة، ويسبح، ويحمد، ويكبر.. ويستغفر.. إلخ الأذكار.. ويتفهم معانيها، ويتغلغل بقلبه فيها.. ويرددها بلسانه.. مع قلبه.. فيشعر بالقرب منه، ويحس بفضل الله عليه، وتتنزل عليه الرحمة، والرقة، فيلين قلبه، وتدمع عينه.

ب- وقوله: «**خاليا**»: وجهه «أن ذلك أقرب إلى حضور القلب، وأبعد عن الرياء والمباهاة، وأعون على تدبر معنى ما يدعو به، أو يذكر به، ولا شك أن هذه الحالة أكمل مما يخالفها»(١٨٧).

فمعنى «**خاليا**»: لا يراه أحد سوى الله، من الخلو، وفيه معنيان مطلوبان- معا- الأول: خاليا: أي: من الالتفات إلى غير الله، ولو كان في ملأ، فيذكر الله بقلبه، ولسانه، وهو حاضر القلب مع الله، بين يديه، يعلم أن الله يراه، وينظر إلى قلبه، وينفذه البصر، ويؤيد هذا المعنى ما رواه البيهقي: «**ذكر الله بين يديه..**».

والثاني: ذكر الله في موضع خال، من الناس، كما جاء في الحديث: «**في خلاء**».

جـ- وقوله: «**ففاضت عيناه**» أي: دمعت، نزلت وسالت الدموع من عينيه، وهذه الدموع هي نتاج احتراق القلب بهيبة الجلال، وخوف ذي

---

(١٨٧) الإمام الشوكاني (محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليماني الصنعاني): تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، تحقيق وتخريج سيد إبراهيم وزميليه، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص ٥٨.

الجلال، ونتيجة نار الشوق في القلب، يقول القرطبي: «وفيض العين بحسب حال الذاكر، وبحسب ما يكشف له، ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه»(١٨٨). وقد خص في بعض الروايات بالأول: «ففاضت عيناه من خشية الله»، ويشهد له ما رواه الحاكم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «**من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله، حتى يصيب الأرض من دموعه، لم يعذب يوم القيامة**»(١٨٩).

د- فبكاء العين وفيضها بالدموع هو نتاج لخشية الله في القلب، فهنا ثلاثة أصول:

الأول: تربية الخشية والخوف من الله في القلب.

الثاني: رقة القلب بذلك، واستغراقه في ذكر الله، دون التفات عنه.

الثالث: أن تندى العين، لرقة القلب وخشيته، فتدمع، وتبكي، فيحرمها الله على النار، ويظل صاحبها في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

هـ- فالثواب الذي جعله الله- تعالى- لبكاء العين، إنما هو بسبب احتراق القلب بالخوف والخشية من الله، **لنتأمل فيما يلي**:

١- يقول الحسن: إن العينين لتبكيان، وإن القلب ليشهد عليهما بالكذب، ولو بكى عبد من خشية الله لرحم من حوله، ولو كانوا عشرين ألفا(١٩٠).

٢- ويقول خالد بن معدان (التابعي العابد): إن الدمعة لتطفئ البحور من النيران، فإن سالت على خد باكيها لم ير ذلك الوجه النار، وما بكى من خشية الله إلا خشعت لذلك جوارحه، وكان مكتوبا في الملأ الأعلى باسمه واسم أبيه؛ منورا قلبه بذكر الله.

---

(١٨٨) ابن حجر: فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٧ .

(١٨٩) صححه الحاكم، ووافقه الذهبي (٤/ ٢٦٠)، انظر: المنتقى من الترغيب، ج ٢، رقم ٢٠٧٠، ص ٣٦٨.

(١٩٠) ابن أبي الدنيا: كتاب الرقة والبكاء، رقم ٩، ص ٥٤.

٣- ويقول عمر بن ذر: بلغني أن الباكي من خشية الله يبدل الله مكان كل قطرة أو دمعة تخرج من عينيه أمثال الجبال من النور في قلبه، ويزاد من قوته للعمل، ويطفأ بتلك المدامع بحور من نار.

٤- ويقول أبو عبد الله البراثي: لا تندى العين حتى يحترق القلب.

٥- ويقول ضَيْغَم: كان يقال: إن كثرة الدموع وقلتها على قدر احتراق القلب، حتى إذا احترق القلب كله لم يشأ الحزين أن يبكي إلا بكى، والقليل من التذكر يجزئه(١٩١).

فبكاء العين هو نتاج لاحتراق القلب؛ أي: تسلط خشية الله على خطاياه وأهوائه، فتحرقها، فيرق القلب، فتسرع دمعته، قال إبراهيم بن سفيان: «إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها»(١٩٢).

و- ولهذا جاءت جميع الأحاديث التي بينت ثواب بكاء العين محددة بهذا الشرط: خشية الله أو الخوف منه:

١- روى ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «**لا يلج النار (لا يدخلها) مَنْ بكى مِنْ خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في متحري عبد أبدا**»(١٩٣).

ورواه الترمذي بلفظ: «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع..**»(١٩٤). وفي رواية الطيالسي: «**لا يدخل النار عين بكت من**

---

(١٩١) الآثار السابقة في المصدر السابق، رقم ١٥، ص ٥٦، ورقم ٣٦، ص ٦٥، ورقم ٦٨، ص ٨٦ ورقم ٦٩، ص ٨٧.

(١٩٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ص ٣٨٥.

(١٩٣) ابن أبي الدنيا: كتاب الرقة والبكاء، رقم ١، ص ٤٩٠.

(١٩٤) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي، ج٣، رقم ١٦٣٩، ص ٢٣٦، ورواه أيضا في ج ٤، رقم ٢٣١٨، ص ١٤٠، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٢٣١١، وروى مثله النسائي مع زيادة لفظ واحد، سنن النسائي، ج٦، رقم ٣١٠٨، ص ١٠. وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٧٧٧٨، ص ١٢٨٤.

خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع..»(١٩٥).

فالذي يبكي من خشية الله لا يدخل النار، وهنا بيان عن ثواب وفضل هذه القيمة القلبية العظيمة، وقوله: «**حتى يعود اللبن في الضرع**» بيان لاستحالة دخول من بكى من خشية الله النار، كما يستحيل أن يعود اللبن في ضرع الماشية، بعد حلبه، وهذا يدل على أن «دخول الباكي من خشية الله في النار محال(...) ولعل الله تعالى لا يوفق للبكاء من الخشية إلا من أراد له النجاة من النار، ابتداء»(١٩٦).

٢- وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي ريحانة، صاحب النبي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا ترى النار عين بكت من خشية الله، ولا عين سهرت في سبيل الله**»(١٩٧). ورواه أحمد بلفظ: «**حرمت النار على عين دمعت، أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله**» وذكر عينا ثالثة(١٩٨).

وأخرج الحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**حرم على عينين أن تنالهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس الإسلام وأهله من أهل الكفر**»(١٩٩).

٣- وأخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»(٢٠٠).

---

(١٩٥) مسند الطيالسي ص ٣٢١، من هامش رقم ٥ في كتاب الرقة والبكاء، ص ٤٩.

(١٩٦) حاشية السندي على النسائي، ج٦، ص ١٠.

(١٩٧) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، رقم ٣، ص ٥١.

(١٩٨) المسند، ج٤، رقم ١٧٢١٣، ص ١٣٤. ورواه النسائي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (٢/ ٨٣)، وانظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج٢، رقم ٢٠٧١، ص ٣٦٨، وصححه الألباني في صحيح النسائي، ٢٩١٩.

(١٩٩) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع، ج١، رقم ٣١٣٦، ص ٦٠٠.

(٢٠٠) قال الترمذي: حسن غريب، سنن الترمذي، ج٣، رقم ١٦٤٥، ص ٢٣٩، وصححه الألباني: صحيح الترمذي (رقم ١٣٣٨)، وفي صحيح الجامع بلفظ: «**عينان لا تصيبهما النار..**» ج٢، رقم ٤١١٢ ص ٧٥٦.

ورواه الطبراني في الأوسط عن أنس، بلفظ: «**عينان لا تريان النار: عين بكت وَجلًا من خشية الله، وعين باتت تكلأ في سبيل الله**»(٢٠١).

٤- أخرج الترمذي عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «**ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة من دموع من خشية الله، وقطرة دم تهراق (تسيل) في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله**»(٢٠٢).

فقطرة الدموع التي فاضت من خشية الله، قطرة حبيبة إلى الله، وصاحبها مرحوم.. محرم على النار.. لأن الذي يبكي من خشية الله هو صاحب قلب حي، صالح، يصدر عنه الخير، والعمل الصالح، هو قلب عرف الله، وخافه.. عن علم، فانقبض عن المعصية، وانبسط في فعل الخير، حبا لله، وخشية منه.

نستنتج مما سبق أن ثواب بكاء العين إنما هو بسبب ما استقر في القلب من خشية الله، وخوفه، ورقته، فنقطة البدء للوصول إلى العين الدامعة، والثواب الجزيل عليها، وإلى الوصول لظلال عرش الرحمن، هو تربية الخوف والخشية من الله، في القلب.

ز- تربية الخوف والخشية من الله - في القلب:

رأينا أن الخوف من الله هو الذي يمنع المسلم من فعل الفاحشة، وأن الخشية من الله هي أحد الأسباب الكبرى لرقة القلب وبكاء العين وأن ثواب ذلك عظيم، ويكفي منه أن نذكر حديث هذا الفصل: وهو أن الله يظلِّل الخائفين منه في ظل عرشه، وأن الله حرم النار على عين بكت من خشية الله.

ولكي يصل المسلم إلى هذه الحال، فإن عليه أن يسلك سبيل تربية الخوف والخشية من الله، في قلبه.

---

(٢٠١) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع، ج٢، رقم ٤١١١، ص ٧٥٦.
(٢٠٢) وقال الترمذي: حديث حسن غريب، سنن، ج٣، رقم ١٦٧٥، ص ٢٥٣.

ولا يمكن تربية هذا الخلق الإيماني بدون تصوره تصورًا دقيقًا وصحيحًا، ومعرفة وإدراك أسبابه، ومنزلته وثوابه، والأساليب التي تكونه، وتنميه في قلب المسلم، وممارسة هذه الأساليب والتعرض لها، والتعود عليها.

وفي هذه الفترة أعطي موجزًا ضروريًّا عن هذه النقاط لنستفيد بها في تربية الخوف من الله، والخشية منه في قلوبنا:

١- إدراك مفهوم الخوف من الله والخشية منه، وتصوره تصورًا صحيحًا:

ورد في بعض الأحاديث ما يشير إلى أن الخوف من الله، هو الخشية منه، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كان رجل يسرف على نفسه، لما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فو الله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له**»، وقال غيره: «**مخافتك يا رب**»(٢٠٣).

وفي رواية لمسلم: «**فقال للأرض: أدي ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب**- أو قال: **مخافتك- فغفر له بذلك**»، وفي رواية لمسلم: «**فقال الله: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: مخافتك، قال: فما تَلَا فَاهُ غيرَها**»(٢٠٤). وفي رواية للبخاري: «**قال الله: أي عبدي، ما حملك على أن فعلت ما فعلت؟ قال: مخافتك**- أو: **فرق منك**،.. الحديث»(٢٠٥).

فهنا تبادل بين المخافة والخشية والفَرَق- هو شدة الخوف من الله. وقد

---

(٢٠٣) هذا لفظ البخاري: فتح الباري، ج٦، رقم ٣٤٨١، ص ٥١٤- ٥١٥.

(٢٠٤) إكمال المعلم، ج٨، رقم ٢٧٥٦، ص ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٨. وانظر: صحيح ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٤٥١، ص ٣٨٤.

(٢٠٥) فتح الباري، ج١٣، رقم ٧٥٠٨، ص ٤٦٧.

ذكرنا في حديث الرجل الذي قعد من بنت عمه مقعد الرجل من امرأته فخافت الله، فتركها: من خشية الله، وأنه خاف الله.

٢- فالخشية هي الخوف من الله، قال ابن منظور: «الخشية: الخوف، خشي الرجل يخشى، خشية؛ أي: خاف(...) وخشاه بالأمر تخشية؛ أي: خَوَّفه»[٢٠٦]. وعرف الخوف بأنه: الفزع[٢٠٧].

لكن هذا تحليل لغوي، غير مرتبط بالحال النفسي، والقلبي، ولذلك قال الراغب: «الخشية، خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُـخْشَى منه»[٢٠٨].

فالخشية: خوف مقرون بعلم، وتعظيم، أما الخوف، فقد عرفه الراغب بقوله: «الخوف: توقع مكروه، عن أمارة مظنونة (أو معلومة) كما أن الرجاء والطمع: توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضاد الخوف: الأمن(...) والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي، واختيار الطاعات، ولذلك، قيل: لا يعد خائفا من لم يكن للذنوب تاركا، والتخويف من الله تعالى: هو الحث على التحرز(...) والخيفة: الحالة التي عليها الإنسان من الخوف..»[٢٠٩].

فالخوف: فزع القلب، ورعبه، ورهبته، نتيجة لتوقعه مكروها، فيبعثه ذلك على الحذر، والتحرز والتوقي، والحيطة، والكف عن أسباب وقوع هذا المكروه.

والخشية هي هذا الخوف حين يلابس القلب نتيجة للعلم بالله.. فمن

---

(٢٠٦) ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ١١٦٩.

(٢٠٧) المصدر السابق، ص ١٢٩٠.

(٢٠٨) الراغب: المفردات، ص ١٤٩.

(٢٠٩) السابق، ص ١٦١، ١٦٢.

مواريث العلم بالله، الخشية منه.

يقول الترمذي: «فالخشية من الله- عز وجل- لغزارة علمه بالله، فأعلم الخلق بالله أخشاهم له»(٢١٠).

قال البخاري: «باب قول النبي ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله**(...) عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»(٢١١). وأخرج البخاري عن مسروق قالت عائشة: صنع النبي ﷺ شيئا فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب، فحمد الله ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء وأصنعه؟ فو الله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»(٢١٢).

وأخرج مسلم عن عائشة- رضي الله عنها- أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ يستفتيه، وهي تسمع من وراء الباب، فقال: يا رسول الله، تدركني الصلاة وأنا جُنُب، أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم**» فقال: لستَ مثلنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي**»(٢١٣).

وفي مسند أحمد: «**إني لأعلمكم بالله، وأتقاكم له قلبا**»(٢١٤).

---

(٢١٠) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ٣٥٩.

(٢١١) فتح الباري، ج١، رقم ٢٠، مع ترجمة الباب، ص ٧٠.

(٢١٢) المصدر السابق، ج١٠، رقم ٦١٠١، ص ٥١٣.

(٢١٣) إكمال المعلم: ج٤، كتاب الصيام، رقم ١١١٠، ص ٥٠- ٥١، ورواه أحمد مثله، المسند، ج١٧، رقم ٢٤٢٦٦، ص ٣١٦.

(٢١٤) إسناده صحيح، المسند، ج١٧، رقم ٢٤٢٠٠، ص ٢٩٥.

فخشية القلب وتقواه لله هي ثمرة العلم بالله، فالخشية خوف مخصوص بعلم وتعظيم.

٣- ونورد هنا بعض تحليلات مهمة لقيمة الخشية، والخوف من الله، فيها فوائد ضرورية لمن يريدون تربية الخوف من الله في قلوبهم.

يقول ابن القيم: «والوجل والخوف والخشية والرهبة، ألفاظ متقاربة غير مترادفة، قال أبو القاسم الجنيد: الخوف: توقع العقوبة على مجاري الأنفاس، وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف، وقيل: الخوف: هرب القلب من حلول المكروه، عند استشعاره»(٢١٥).

فالخوف من الله يعني: استحضار العقوبة التي أعدها الله للمعصية، وشعور القلب بها، وقلقه واضطرابه، نتيجة توقعه للعقوبة، أن تحل به، فيهرب من العقوبة، ويتحرك، فيكف عن المعصية.

قال ابن القيم: «والخشية: أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله».. فهي خوف مقرون بمعرفة(...) فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك؛ له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية(...).

وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة، التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه(...).

وأما الوجل: فرجفات القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه، وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما الهيبة فخوف مقارن للتعظيم والإجلال(...).

---

(٢١٥) ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ص ٣٨٤، وكلمة الجنيد في: القشيري، الرسالة، ط الحلبي، ص ٦٥.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين.. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال النبي ﷺ: «**إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية**»، وفي رواية: «**خوفا**» (...).

والخوف المحمود الصادق: حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل، فإذا تجاوز ذلك خيف من اليأس والقنوط، قال أبو عثمان: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرا وباطنا.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.

وقال صاحب المنازل: والخوف: هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر، يعني: الخروج من سكون الأمة باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.

قال: .. الخوف من العقوبة، هو الخوف الذي يصح به الإيمان.. وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة.

والخوف مسبوق بالشعور والعلم، فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به.

وله متعلقان: **أحدهما**: نفس المكروه المحذور وقوعه.

والثاني: السبب والطريق المفضي إليه.

فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف، يكون خوفه، وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه(...) فإذا عرف قدر المخوف، وتيقن إفضاء السبب إليه: حصل له الخوف.

هذا معنى قوله: من تصديق الوعيد، وذكر الجنابة ومراقبة العاقبة»[٢١٦].

٤- قال القشيري: «سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب:الخوف، والخشية، والهيبة؛ فالخوف من شرط الإيمان وقضيته؛ قال

---

(٢١٦) ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ص ٣٨٤- ٣٨٦.

الله- تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٧٥]، والخشية من شرط العلم، قال الله- تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، والهيبة من شرط المعرفة، قال الله- تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]»(٢١٧).

أقول: الخوف يستلزم العلم والشعور- كما قال ابن القيم- فهو خشية كذلك، وهو يثمر الهيبة.

ويقول القشيري: «الخوف: معنى، متعلقه في المستقبل؛ لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه، أو يفوته محبوب، ولا يكون هذا إلا لشيء يحصل في المستقبل(...) والخوف من الله تعالى هو أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى، إما في الدنيا، وإما في الآخرة»(٢١٨).

ويقول الشوكاني: «والخوف: الانزعاج من الأخطار التي لا يؤمن من وقوعها» (فتح القدير، ج٢، ص ٣٠١).

٥- وقد حلل الغزالي: صفة الخوف من الله، وأسبابها ونتائجها، تحليلا نافعا، يقول: «الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه، بسبب توقع مكروه في الاستقبال(...) حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال، وعمل: أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه، وذلك كمن جنى على ملك، ثم وقع في يده، فيخاف القتل مثلا(...) ولكن يكون تألم قلبه بالخوف، بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية (المؤدية) إلى قتله، وهو تفاحش جنايته، وكون الملك في نفسه.. غضوبا منتقما.. خاليا عمن يتشفع إليه في حقه، وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة، وحسنته تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف، وشدة تألم القلب، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف، بل عن صفة المخوف(...) فالعلم بأسباب المكروه هو السبب

(٢١٧، ٢١٨) القشيري: الرسالة، ص ٦٥.

الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف.

فكذلك الخوف من الله تعالى: تارة يكون لمعرفة الله- تعالى- ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارنة (بارتكاب) المعاصي، وتارة يكون بهما جميعا، وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله تعالى، واستغنائه، وأنه لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون- تكون قوة خوفه، فأخوف الناس لربهم أعرفهم بنفسه وبربه(٢١٩).

ثم بين الغزالي أثر الخوف في شخصية المسلم، أي: انعكاس الخوف من الله على الجوارح والصفات أي: الأخلاق، يقول: «إذا كملت المعرفة (يعني بصفات الله وأفعاله، وبعيوب النفس وجناياتها، وباليوم الآخر والجزاء) أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن، والجوارح وعلى الصفات(...).

وأما في الجوارح: فبكفها عن المعاصي، وتقييدها بالطاعات؛ تلافيا لما فرط، واستعدادا للمستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه(...).

وأما في الصفات: فبأن يقمع الشهوات (يعني شهوات الغي في البطون والفروج).. فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب (...) الخشوع.. والاستكانة، ويفارقه الكبر، والحقد، والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه، والنظر في خطر عاقبته.. ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات (...) فيكون

---

(٢١٩) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٣٣١، ٢٣٣٢.

ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه (...) وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف، الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله، وصفاته وأفعاله، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال»[٢٢٠].

هذا خوف مرب، وهو كلام يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب، ويحتاج لتدبره، ويمكن صياغته في معادلة تربوية: معرفة بجلال الله، وصفاته وأفعاله، ومعرفة بعيوب النفس وذنوبها، ومعرفة بما بين يديها من أهوال وأخطار ← تؤدي إلى تألم القلب، واحتراقه وتوقعه للعقوبة - إذا شعر المسلم بها، وتأثر بمعرفته، السابقة ← وهذا التألم والاحتراق، والتأثر يؤثر في الجوارح والصفات والأخلاق.

إن الخوف عملية تغيير نفسي وخلقي.. تبدأ بالمعرفة، وتنتهي بترك المحرمات والشبهات، وفعل الخيرات بدافع من داخل النفس، ودور المربي هو أن يزيد من المعرفة بأبعادها الثلاثة المذكورة.

ثم يقول الغزالي: «وأقل درجات الخوف- كما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا، فإن زادت قوته: كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم، فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه، ويسمى ذلك تقوى، إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس، وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرد في الخدمة فصار(...) لا يعرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه، فهو الصدق، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا.

ويدخل في الصدق: التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة، فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة، فإذا الخوف يؤثر

---

(٢٢٠) المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٣٢، ٢٣٣٣.

في الجوارح بالكف والإقدام»(٢٢١).

هذا هو الخوف المربي فعلا، وهو الذي يجعل المسلم إذا دعته امرأة ذات منصب وجمال يقول: إني أخاف الله، ويعف.. وهو الذي يجعل المسلم إذا ذكر الله، خاليا، فاضت عيناه، خشية من الله، وهكذا..كف عن المحرمات والشبهات، وإقدام على ما يحبه الله، ويرضاه من فعل الخيرات.

والمنطلق التربوي لذلك: هو اكتساب العلم، والمعرفة بالله وصفاته، وأفعاله، ومراداته الدينية، واكتساب المعرفة بعيوب النفس وذنوبها، واكتساب المعرفة بما بعد الموت، من حساب وجزاء وجنة ونار، واكتساب المعرفة بالوعد والوعيد.

٦- ويبين الغزالي أن هناك تفريطا في الخوف، وهو (الخوف القاصر) العارض، الوقتي، مثل الخوف الذي يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن الكريم، فيورث البكاء، لحظيا، أو الخوف عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف ضعيف النفع، قاصر، يحتاج إلى تربية، إلى تعظيم، وتكبير حتى يصلح لتربية النفس.

فالخوف إذا لم يؤثر في الجوارح والصفات فهو حديث نفس، وحركة خاطر، لا يستحق أن يسمى خوفا.

وهناك الخوف المفرط الذي يجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وقد يخرج إلى الضعف وزوال العقل، فهذا مذموم، ولهذا يجب الجمع بين الخوف والرجاء، لنعالج صدمة الخوف.

أما الخوف المحمود الذي هو صفة القلب الوجل، ويكون كمالا وحسن خلق، فهو الخوف الوسطي المعتدل، وهو الخوف الذي ينتج عنه أمر محمود مثل الحذر من المعاصي، والورع، والتقوى، والعفة، والفكر، والذكر، وسائر

---

(٢٢١) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٣٣.

الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن، وسلامة العقل، والسير إلى الله تعالى، والمجاهدة، والترقي في درجات المعارف في كل لحظة.

«فإذًا، الخوف إذا لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة، وإن أثَّر؛ فله درجات بحسب ظهور أثره؛ فإن لم يحمل إلا على العفة- وهي الكف عن مقتضى الشهوات، فله درجة، فإذا أثمر الورع، فهو أعلى، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين، وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى، حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع، فهذا أقصى ما يحمد منه، وذلك مع بقاء الصحة والعقل»(٢٢٢).

٧- وبهذا التحليل نفهم قول النبي ﷺ: «**من خاف أدلج** (سار من أول الليل) **ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(٢٢٣).

ومعنى الحديث: أن من خاف الله، وعقابه، والحجاب عنه، ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة، والمبادرة بالأعمال الصالحة، والسير الفوري إلى الله، قبل أن تقطعه القواطع والعوائق.

ويقول عبد القادر- الشيخ القدوة- المربي: «من لا يخاف الله- تعالى- لا عقل له (...) الدين: الخوف، من خاف أدلج؛ لا يستقر مكانا واحدا، بل يسير، غاية أسفار القوم: قرب الحق، السير سير القلوب»(٢٢٤).

ويقول قتادة: «من رجا طلب، ومن خاف هرب»(٢٢٥).

---

(٢٢٢) المصدر السابق، ص ٢٣٣٦، والمعطيات السابقة، ص ٢٣٣٤ – ٢٣٣٥.

(٢٢٣) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.. سننه، ج٤، رقم ٤٥٨، وأورده الألباني بلفظه في صحيح الجامع الصغير، وقال: صحيح، عن أبي، فانظر هناك، ج٢، رقم ٦٢٢٢، ص ١٠٦٩. وانظر المنتقى من الترغيب.. ج٢، رقم ٢١٠٥، وحاشيته، ص ٣٧٧.

(٢٢٤) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، ص ٢٥٧.

(٢٢٥) ابن جرير الطبري: جامع البيان، ج٢، ص ٤٣٨ رقم ٣٢٧٣.

ويقول مسلم بن يسار: «من رجا شيئا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه»(٢٢٦).

فهذا هو الخوف المربي، ونقطة البدء فيه أن نزود علمنا بالله، وبعيوبنا، وباليوم الآخر، وبالعقوبات المعدة للذنوب، وأن نحصل اليقين في الله، وفي البعث بعد الموت، وفي الجزاء والثواب والعقاب.

وأن ندرس هذا المفهوم وأن ندرك الأسباب الموصلة إلى الخوف..فلنتأمل.

٧- إدراك أسباب الخوف، ومتعلقاته، وآثارها التربوية في القلب والصفات:

يقول الغزالي: «الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار، وإما أن يكون مكروها؛ لأنه يفضي إلى المكروه، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة (...).

فلابد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين، ويقوي انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه، بسبب استشعاره ذلك المكروه»(٢٢٧).

ولابد أن ينتج عن ذلك سلوك سبيل الحذر، والبعد عما يفضي إلى المخوف(٢٢٨).

هنا أصل تربوي نفسي لتربية الخوف وللخوف المربي:

أ- أن نتمثل، ونتصور، ونتخيل- بعمق- المكروهات التي ننتظرها، ونتوقعها.

ب- أن نستشعر بمشاعرنا وعواطفنا، هذه المكروهات.

---

(٢٢٦) ابن أبي الدنيا: الوجل والتوثق بالعمل، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٧م، رقم (١)، ص ١٩، وهو مروى عن حذيفة، وعن علي- رضي الله عنهما- مثله: انظر: نفس المصدر، ص ١٩ هامش رقم (٥).

(٢٢٧) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٣٣٦، و ص ٢٣٣٧ بالتوالي.

(٢٢٨) السابق نفسه.

جـ- أن نحذر أن نقع فيما يؤدي إلى هذه المكروهات.

فمن يخاف زوال رقة القلب، ويبدلها بالقسوة فإنه يواظب على العمل بالأسباب التي ترقق قلبه، ويبتعد عن الأسباب التي تقسي قلبه.

ومن يخاف سوء الخاتمة، بأن يختم له عند الموت بخاتمة السوء، كأن يموت على معصية محرمة، أو على شرك، أو بعد عن الله- عليه أن يكون يقظا، حذرا، دائما، من أن يستدرج، وأن يمكر به، وأن يحذر من غضب الله، وأن يسأل الله حسن الخاتمة، وأن يتمسك بالطاعة، وأن يعمر وقته بذكر الله، وفعل الخيرات، وأن يحرص دائما أن يموت مسلما مؤمنا.

ومن خاف أن يسخط الله عليه، وأن يحجبه عن رؤيته في الآخرة، وأن يدخله جهنم، فعليه أن يحذر من الذنوب، والمعاصي، ويهرب منها.

وهكذا فالخوف يتعدد بتعدد أسبابه، فهناك:

- **خوف السابقة**: أي: القضاء الإلهي الذي جرى بتوقيعه القلم الذي كتب الأقدار إلى يوم القيامة قبل أن يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنة، فأنا لا أعرف ماذا سبق لي في علم الله القديم، فأكون خائفا، حذرا.

- **وهناك خوف سوء الخاتمة**، فالمؤمن بين مخافتين.

والخوف: إما أن يكون من الله: وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى، وصفات جلاله، التي تقتضي الهيبة منه، والرهبة، فكل من عرف الله، بصفاته وأفعاله، وأن ما شاءه كان، علم أن الله جدير أن يخاف منه، حتى ولو لم يرتكب معصية، فالله غني عن عباده، جدير بأن يهاب منه، فهذا الخوف يعني: أن يكون الله هو المخوف، فيخاف البعد عنه، والحجاب عنه، وسخطه، وغضبه على العبد، وأن يكله إلى نفسه، ولهذا نقل في تعريفه الخوف: «حركة القلب من جلال الرب»(٢٢٩).

---

(٢٢٩) القشيري: الرسالة، ص ٦٦.

وهذا هو خوف الله الذي إذا تحقق به المسلم في الدنيا أمنه الله يوم القيامة، أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه- جل وعلا- أنه قال: «**وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة**»[٢٣٠].

وفي الحلية لأبي نعيم: «**قال الله- تعالى: وعزتي وجلالي: لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي**»[٢٣١].

وهذه بشرى عظيمة وثواب كبير لمن يخاف الله في الدنيا - بمفهوم الخوف الذي نحلله.

فالله هو المخوف، وتربية الخوف من الله: طريقها: تقوية الإيمان بالله، وتزويد معرفته بالله، من خلال مطالعة، ومدارسة صفاته، وأفعاله، ونعمه، وآياته، وآلائه، وما ينبغي له، وما يفعله يوم الدين، ويعرف من صفاته ما يقتضي الهيبة، والخوف والحذر، فمن زادت معرفته بالله فلا يحتاج إلى علاج آخر لجلب الخوف إلى قلبه.

فيتدبر آيات القرآن، وأحاديث الرسول الثابتة الصحيحة عن الله، وصفاته، وأفعاله، وأيامه، وعقابه، وثوابه، وعدله.. إلخ، ويستحضرها في قلبه، ويتمثلها، ويستشعرها، ويتأثر بها، ومن فعل هذا حدث له خوف من الله، لا محالة، إن كان يوقن بذلك، ويؤمن به، ثم يتعبد بمقتضيات ذلك، فإن هذا يورثه معرفة بالله، تورثه الخوف والخشية من الله، يورثه الحذر منه، والبعد عن محرماته، والإقبال على طاعاته، ..إلخ.

---

(٢٣٠) في الموارد برقم ٢٤٥٢، وقال الشيخ شعيب في الإحسان: إسناده حسن، رقم ٦٤٠، انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج٢، رقم ٢١٠٤، ص ٣٧٧.

(٢٣١) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع، ج٢، ٤٣٣٢، ص ٧٩٨، وانظر: ابن المبارك: الزهد، رقم ١٥٧، ص ٥١،٥٠، الترغيب والترهيب، ج٢، رقم ٢١١٢ ص ٣٨٠.

وبهذا يقوى إيمانه بالله، ويقوى خوفه منه، ونقطة البدء هي تربية العقيدة في الله، بالتلقي عن القرآن والسنة وتقوية أسبابها المذكورة لها على الدوام، والمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات، وتقليل المعاصي على الاستمرار.

وطريق ذلك هو المدارسة التي تنتج الاستبصار، «فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى تعلم الاستبصار، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين، العارفين، وأقوالهم» ويقتدي بهم(٢٣٢).

- وإما أن يكون الخوف من عقوبة المعصية والذنب، مثل: البدع والنفاق، والكبائر، والصغائر، وأنواع الشرك- فهذا كله يبعد عن الله، ويؤدي إلى عذابه، وسخطه، فيتمثل العقل والنفس مثل الذنوب، وعقوباتها، ويخاف مما يترتب عليها بعد الموت، ويوم القيامة من عذاب وحجاب. وهذا حال عظيم جدا: أن يخاف قلب الإنسان من الذنوب وفيه حديث عظيم:

أخرج الترمذي وابن ماجه- وهذا لفظه: عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: أرجو الله- يا رسول الله- وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمَّنَه مما يخاف**»(٢٣٣).

فلا بد من حضور الخوف من الذنوب في القلب حتى يؤمننا الله مما نخاف، وهذا معنى تمثلها واستحضارها واستشعارها.

- وإما أن يكون الخوف من الأهوال والأخطار عند الموت وما بعده: «وذلك مثل سكرات الموت، وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى، والحياء من كشف الستر،

---

(٢٣٢) إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٣٥٥.

(٢٣٣) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٤٥٥، ص ٣٨٥، وأحكام الجنائز، والصحيحة برقم ١٠٥١، والترمذي، سننه، ج ٢، رقم ٩٨٥، ص ٢٩٦، وحسنه المنذري، المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ٢، رقم ٢١١٢، ص ٣٨٠.

والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته، وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار، وأغلالها، وأهوالها، أو الخوف من الحرمان من الجنة، دار النعيم، والملك المقيم، ومن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله- تعالى»(٢٣٤).

ويلخص المحاسبي فيقول: «وإن العبد بين تسع مخاوف:

فأولها: أن يخاف، ويدعو الله ويتضرع إليه، ألا يكله إلى حسناته، التي يتعزز بها في عباد الله ظلما وعدوانا.

والثانية: أن يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البطر بها، فأشغله عن الشكر عليها.

والثالثة: خوف الاستدراج بالنعم.

والرابعة: خوف الله: أن يبدو له غدا من الله ما لم يكن يحتسب، في طاعاته التي يرجو ثوابها منه.

والخامسة: الذنوب التي عملها، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى.

والسادسة: تبعات الناس قبله.

والسابعة: أنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره.

والثامنة: أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا، والنكال فيها قبل الموت.

والتاسعة: الخوف من علم الله تعالى فيه، وفي أي الدارين أثبت اسمه، في أم الكتاب»(٢٣٥).

فالأصل التربوي الثاني لتربية الخوف من الله والخشية منه، في القلب هو تعلم واستحضار هذه الأسباب، وتمثلها في القلب والنفس حتى يحدث الخوف المؤثر في القلب، والجوارح، وذلك - ابتداء - بدراسة هذه الأسباب،

---

(٢٣٤) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٣٣٩.
(٢٣٥) المحاسبي: آداب النفوس، ص ٩٢- ٩٣.

وفهمها، ومقايسة النفس عليها، والتنكر فيها.

يقول المحاسبي: «وتعاهد يا أخي قلبك عند همه، وألزمه الفكرة في أمر المعاد، فلا تفارق قلبك، وتوهم بقلبك هول المطلع - عند مفارقته الدنيا- وترك ما قد بذل أهلها فيه مهج نفوسهم (...) ثم تركوا ذلك كله، وقدموا على الله فرادى آحاد، على ما قد وردوا عليه من وحشة القبر، وسؤال منكر ونكير، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله، والمساءلة عن جميع ما كان منهم من قول، أو فعل، من مثاقيل الذر، وموازين الخردل، وسؤاله عن الشباب: فيم أبلى شبابه؟

وعن العمر فيم أفنى عمره؟ وعن المال من أين اكتسب؟ وعمن منع؟ وفيم أنفق؟ وعن العلم ماذا عمل فيه؟ وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها، والتي كذبوا فيها؟

فإنك- يا أخي- إن شغلت قلبك بذلك، وأسكنته إياه، وكان فيك شيء من صحة تركيب العقل، فإنه سيكمل منك لسانك، ولا يعدمك الخوف اللازم»(٢٣٦).

فالأسلوب التربوي الثاني: هو دراسة الأسباب المؤدية إلى الخوف، وأنواع الخوف، والتفكر فيها، وجعلها نصب عين القلب، وتمثلها، واستحضارها.. يقول الغزالي في الخوف من عذاب النار، وفوت الجنة..«وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، وضعفه: بسبب الغفلة، وسبب ضعف الإيمان.

وإنما تزول الغفلة بالتذكير، والوعظ، وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة، وأصناف العذاب في الآخرة، وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين، ومجالستهم، ومشاهدة أحوالهم، فإن فاتت المشاهدة، فالسماع لا يخلو من

(٢٣٦) المصدر السابق، ص ٤٩، ٥٠.

تأثير»[٢٣٧].

وفي هذا النص أصول وأساليب تربوية:

الأول: أن تربية الخوف من النار، وعقوبات المعاصي، وخوف الحجاب، عن الجنة: إنما يكون بتربية وتقوية اليقين في البعث، والجنة، والنار، ..إلخ.

الثاني: أن الوسائل الموصلة لهذه التقوية والتربية: هي: حضور مجالس الوعظ، والتذكير، التي تخصص لمدارسة ما بعد الموت، فهذا عامل مهم في بعث وتنمية الخوف في القلب، «سأل المغيرة بن مخادش (شيخ ثقة) الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام ها هنا يحدثوننا حتى تكاد قلوبنا أن تطير؟

قال: أيها الشيخ، إنك والله لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تدرك أمنا خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف»[٢٣٨].

وهذا أسلوب يمارسه الإنسان بقدر ما يربي الخوف في قلبه، خوفا صحيحا مربيا.. وقد يقوم الشريط، والكتاب مقام ذلك الأسلوب إذا لم يتيسر.

الثالث: أن من أساليب تربية هذا الخوف: ملازمة التفكر فيما ذكره، وقد نقلنا عن المحاسبي مثل ذلك.

الرابع: أن من أساليب تربية الخوف من النار، وآثار المعاصي في الآخرة، هو مصاحبة الخائفين، إما فعليا، وإما من خلال مدارسة أحوالهم التي نقلها أهل التربية القلبية، فيطالع أحوال الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، ويطالع أحوال الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية**» وأحوال أولياء الله،.. إلخ.

---

(٢٣٧) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٣٥٣.

(٢٣٨) ابن المبارك: الزهد، رقم ٣٠٣، ص ١٠٢، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء، ج٢، ص ١٥٠ وابن أبي الدنيا: الوجل والتوثق بالعمل، رقم ٣، ص ٢٠.

ويخصص برنامجا لهذا فيطالع ما جاء في (صفة الصفوة)، و(حلية الأولياء)، و(الزهد) لابن المبارك[٢٣٩]، و(الرقة) لابن أبي الدنيا، و(إحياء علوم الدين)[٢٤٠]، وأمثال ذلك.

فإن هذا يبعث في القلب شعور الخوف مما خاف منه هؤلاء الأتقياء الأولياء.

٨- تربية محبة الخوف وإرادته في القلب:

فالإنسان لا يقبل على شيء ولا يمارس شيئا، إلا إذا رغب فيه، وعشقه، وأراده، واشتهاه، فالمحبة هي أصل كل فعل، والبغض هو أصل كل ترك: إن الحب يحرك إرادة القلب.

فلابد من تربية محبة الخوف من الله، ومحبة الاتصاف بذلك، وهذا في ذاته عبادة حسنة.

يقول المحاسبي: «ومِنْ أحْسَن العبادة: أن يمتلئ قلب العبد من حب الطاعة، فإذا فاض (يعني حب الطاعة) عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب.. فإذا عامل الله على هذا بقلبه هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب، فانبعث على الطاعة، وإنما يكون ذلك من القلب إذا خالط سويداءه(...) فإذا عامل الله بهذا من قلبه: اشتاق إلى عبادة الجوارح معه، فيكون عاملا، وفي عمله أنس وسرور وحلاوة»[٢٤١].

إذا طريق الاتصال بخلق الخوف والخشية، والإشفاق هو أنه يمتلئ القلب بحب هذه الأخلاق، فيشتاق إلى الاتصاف بها.

إذا غلا القلب المسلم بحب الخوف من الله، والخشية منه، فاض ذلك في

---

(٢٣٩) ابن المبارك: الزهد؛ رقم ٢٣٤، وما بعده.

(٢٤٠) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٣٧٥- ٢٣٨٨.

(٢٤١) المحاسبي: آداب النفوس، ص ١٧٨.

نفسه وجوارحه.

والطريق إلى تربية محبة وإرادة الخوف من الله، والعزم على الاتصاف بهذه القيمة العظيمة هو:

٨-١: أن ندرك أن الخوف من الله، والخشية منه فضيلة، وخلق مقرب من الله، وفرض من فرائض الإيمان، وشرط من شروطه وضرورة من ضرورات عمران القلب:

يقول ابن القيم عن منزلة الخوف: «وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد، قال الله- تعالى: ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال- تعالى: ﴿**وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ**﴾ [البقرة:٤٠]، ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم، فقال: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

قال أبو حفص: الخوف: سوط الله يُقَوِّمُ به الشاردين عن بابه وقال: الخوف: سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر(...) قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبا إلا خرب»(٢٤٢).

وقوله: الخوف سراج في القلب.. إلخ، يعني: أن الخوف أساس تكوين الضمير الحي في قلب الإنسان.

وقال بشر الحافي: «الخوف ذلك، لا يسكن إلا في قلب متق»، فالخوف واعظ مهيب ذو سلطان: يأمر، وينهي، والقلب مملكة وهذا أساس آخر للضمير الحي، واعظ الله في القلب.

وقول الداراني يعني: أن حياة القلب، وعمرانه يكون بالخوف من الله(٢٤٣).

---

(٢٤٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ص ٣٨٤- ٣٨٥.

(٢٤٣) وانظر: القشيري: الرسالة، ص ٦٥.

وهو فضيلة خلقية لأنه يثمر العفة، والورع والتقوى، والمجاهدة، والإقبال على فعل الخيرات.. وهي جميعا تقرب إلى الله.. فهو قيمة القلب المسلم لها آثارها في القلب والسلوك، في الدنيا والآخرة.

وهو خلق يحبه الله، ويثيب عليه، فالذي يخاف الله في الدنيا يؤمنه في الآخرة، ويحرم عليه النار، ومن بكى مخافة الله، ومن خشيته، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..إلخ ما ذكرناه في هذا المبحث. وهو صفة ملائكته، وصفة رسله، وصفة أوليائه.

قال الله- تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

يقول ابن كثير: «وهذه صفة المؤمن، حق المؤمن؛ الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، فعل أوامره، وترك زواجره، .. قال السدي: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه» (العمدة، ص ٨٧، ج٢).

وقال الشوكاني: «الوجل: الخوف والفزع، والمراد: أن حصول الخوف من الله، والفزع منه عند ذكره هو من شأن المؤمنين الكاملي الإيمان، المخلصين لله(...) الظاهر: أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه، من غير تقييد بحال ودون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة(...).

عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ قال: فَرِقَتْ قلوبهم (...) وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وأبو الشيخ عن طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء قال: إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة، يا شهر بن حوشب، أما تجد قشعريرة، قلت: بلى، قالت: فادع عندها، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك(...) عن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضرمة السعفة،

فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك»(٢٤٤).

والمقصد أن الوجل، والخوف صفة للمؤمن، وقيمة من قيمه القلبية.. فالمؤمن المسلم صاحب قلب حساس، رقيق، شاعر، يتأثر، ويوجل، إذا ذكر الله.

٨-٢: أن نطالع آيات القرآن وأحاديث الرسول في فضيلة الخوف، وثوابه.

اقرأ مثلا: قوله تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] تعرف أن خوف مقام الله، وخوف وعيده طريق للتمكين في الأرض.

واقرأ قوله- تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ إلى قوله- تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٣]- تعلم أن الخشية من الله، وخوف سوء الحساب يوم القيامة هو من صفات العقلاء الذين يدخلهم الله جنات عدن.

يقول الغزالي: «فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته: جمع الله- تعالى- للخائفين: الهدى والرحمة، والعلم، والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان..»(٢٤٥).

إن دراسة آيات القرآن عن الخوف والخشية من الله، وثوابها، يثمر في القلب حبا للاتصاف بهذه الصفة، وكذلك دراسة أحاديث النبي ﷺ عن فضل وثواب الخوف، والخشية من الله، والبكاء من ذلك.

---

(٢٤٤) فتح القدير، ج٢، ص ٤١١- ٤١٢.

(٢٤٥) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٣٤٠ وما بعدها.

٨-٣: ومطالعة ما ورد من أحوال الملائكة، والرسل، والصالحين، الـذين خافوا الله، ففروا إليه.

كل هذا مثمر شوقا للاتصال بخلق الخوف من الله، ومن سوء الحساب.. ويكفي أن نعلم هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقوله تعـالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣١ – ٣٤].

وأن ندرس أحاديث هذا المبحث، وأن نقرأ كتابـا مثـل: (الرقـة والبكـاء) لابن أبي الدنيا، و(الرعاية لحقوق لله) للمحاسبي.

يكفي هذا لتتربى إرادة الخوف من الله في قلوبنا، وشهوة الاتصاف بها.

ويمكن عمل دورة تربوية لهذا المقصد، ويقام فيها بسورة هـود، والواقعـة وق، والتكوير وعم يتساءلون.

ويدرس فيها هذا المبحث، بهدف أن يكون القلب ظمآنا للخوف مـن الله، مريدا، راغبا بشدة في التحقق بهذه الصفة الإيمانية.

٨-٤: ومما يثمر إرادة الخوف مـن الله أن يـدعو الله - بحرقـة قلـب - أن يفتح الله عليه بابا من الخوف، كما حكي عـن الإمـام أحمـد، قـال- رحمـه الله: «سألت الله- عز وجل- أن يفتح عليّ بابا من الخـوف، ففـتح، فخفـت عـلى عقلي، فقلت: يا رب، على قدر ما أطيق، فسكن قلبي»[٢٤٦].

وعلى الرغم من انقطاع السند في هـذه الحكايـة إلا أنهـا ذات دلالـة في أن يتوجه المسلم لربه أن يرزقـه بابـا مـن الخـوف يـصلح أخلاقـه، ومعاملاتـه، وباطنه، وظاهره، ومن ذلك أن يدعو بهذا الدعاء: «اللهم أعوذ بك من قسوة

(٢٤٦) القشيري: الرسالة، ص ٦٧، الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٣٨٥.

القلب وجمود العين، أعوذ بك من قلب لا يخشع، وعين لا تدمع..» وأمثال هذا، بتفكر وتأثر، وتضرع لله الخبير البصير.

٨-٥: ومما يثمر إرادة الخوف: التفكر، ونكتفي هنا بقول المحاسبي: «من طالت فكرته في أربعة أشياء أورثته الخوف والخشية؛ وهي تؤدي بعضها إلى بعض، وكل واحدة منها كافية: من فكر في الموت، وسرعة انقضاء الأجل، والمصير إلى القبر، والوقوف للحساب، والنار التي لا صبر لأحد عليها»(٢٤٧).

وفي الرعاية: «قلت: وبم ينال التخويف؟

قال: بالذكر والفكر في العاقبة؛ لأن الله عز وجل قد علم أن هذا العبد، إذا غيب عنه ما قد خوفه، ورجاه؛ لن يخاف ولم يرج إلا بالذكر والفكر؛ لأن الغيب لا يرى بالعين، وإنما يرى بالقلب في حقائق اليقين، فإذا احتجب العبد- بالغفلة عن الآخرة، واحتجب عنها بأشغال الدنيا- لم يخف ولم يرج إلا رجاء الإقرار وخوفه (يعني الحد الأدنى الذي يدخل به في الإسلام) وأما خوف ينغص عليه تعجيل لذته- مما كره إلهه عز وجل، ورجاء يتحمل به ما كرهته نفسه فيما أحبه لربه – فلا، ما دام مؤثرا لهوى نفسه.

وإنما يجتلب ذلك الخوف والرجاء بمنة الله- عز وجل- بالذكر والفكر، والتنبه والتذكر لشدة غضب الله وأليم عذابه، وليوم المعاد.

وقد أخبر الله أن أولياءه اجتلبوها بذلك، وقال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، فالذي ينال به الخوف: معرفة عظيم قدر العذاب، والذي يعظم به معرفة عظيم قدر العذاب: التخويف، والتخويف: ينال بالفكر في المعاد، والفكر: ينال بالذكر (يعني: استحضار الشيء في الوعي والقلب، واستشعاره..) والذكر: بالتيقظ من الغفلة؛ لأن الله- جل وعز- إنما خوفنا

---

(٢٤٧) المحاسبي: آداب النفوس، ص ١٨٠.

بالعقاب لنخوف أنفسنا، ورجانا لنرجيها.

والتخويف: تكلف من العبد(...) والخوف هائج منه، لا يملكه، يكون عن التخويف.

يهيجه الله من القلب المخوف لنفسه، كما أمره الله.

وقد يخطر الله- جل وعز- الخوف بقلب العبد المؤمن، من غير تكلف، إذا أراد أن يتفضل عليه بذلك، وإن لم يخطره بباله، لم يكن العبد عنده معذورا بتركه التكلف للتخويف، كما أمره أن يخوف نفسه، لأنه أمره بالفكرة في المعاد..»(٢٤٨).

والذي يعين على التفكر: العناية، واجتماع الهم، على المطالبة بالعقل، والتوكل على الرب لا على العقل.

وحضور العقل باجتماع الهم لأن العبد إذا اجتمع همه: تفكر، وإذا تفكر نظر، وإذا نظر أبصر(٢٤٩).

ثم يقول: «فإذا تفكر في المعاد- بتخويف نفسه- عظم قدر العذاب، فإذا عظم قدر العذاب عنده هاج في قلبه الخوف حتى لا يملكه، فما مثل التخويف في جنب الخوف إلا كمثل الوقود في جنب الغليان كالموقد يوقد تحت القدر المملوءة، فكلما أدام الوقود اشتد الغليان، فكذلك العبد: كلما أدام الفكر –بالتخويف- في ذكر العقاب وكثرة الأهوال، وعظيم السؤال، مع المعرفة بعظيم حق الله، جل وعز، وواجب طاعته، وأنه لعامة ذلك مضيع؛ هاج الخوف، فإذا هاج الخوف؛ قَذَفَ القلب بالإصرار على الذنوب، وسخا عنها نفسا؛ فندم، وتاب، وخشع، وأناب.

وكذلك الوقود: كلما اشتد دوام الوقود اشتد الغليان، فإذا اشتد الغليان

---

(٢٤٨) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٦١- ٦٢ ويدرس هذا وما بعدها.

(٢٤٩) المصدر السابق، ص ٦٤- ٦٥.

قذفت القدر ببعض ما فيها.

فمن أدمن الفكر - بالتخويف لنفسه - فيما تهدده ربه، وتوعده به؛ هاج خوفه فأطفأ نار شهواته التي أصر عليها، فسخا- بترك الإصرار- نفسا، وأقلع عن الذنوب، وخاف عاقبتها.

ولا سيما إذا أدمن الفكرة وهو يتلو كتاب الله عز وجل، فيتفكر في وعده ووعيده، وأهوال القيامة وشدائدها، وتلك أنجع الفكر إذا كانت بتلاوة كتاب الله- عز وجل»(٢٥٠).

إذًا، التفكر هو وقود الخوف، وخصوصا إذا كان وهو يتلو القرآن العظيم.

وتأمل في معنى قوله-تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال الشوكاني: «وقلوبهم خائفة(...) قال الزجاج: قلوبهم خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون، وسبب الوجل هو أن يخافوا ألاَّ يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب، لا مجرد رجوعهم إليه سبحانه، وقيل: المعنى: أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب، وعلم أن المجازي والمحاسب هو الرب، الذي لا تخفى عليه خافية؛ لم يخل من وجل»(٢٥١).

٨-٦: ومما يقوي الرغبة- جدا- في الاتصاف بالخوف: أن يتدبر في الخاتمة، وأنه لا يأمن أن يختم له بسوء الخاتمة، فيكون قلبه وجلا، يقول القشيري: «مما أوجب شدة خوفهم فكرهم في العواقب، وخشية تغير أحوالهم»(٢٥٢). ويقول الشيخ القدوة عبد القادر الجيلاني: «كان الفضيل بن عياض- رحمة الله عليه- إذا لقي سفيان الثوري يقول له: تعال حتى نبكي في

---

(٢٥٠) المصدر السابق، ص ٦٧- ٦٨.

(٢٥١) الشوكاني: فتح القدير، ج٣، دار الوفاء، ص ٦٦٤.

(٢٥٢) القشيري: الرسالة، ص ٦٦.

علم الله- عز وجل- فينا.

ما أحسن هذا الكلام! (هذا كلام عارف بالله- عز وجل، عالم به، وبتصاريفه، ما علم الله الذي أشار إليه؟ هو قوله: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي) وخلط الكل موضعا واحدا، فلا يدري من أي القبيلين هو؟ القوم لم يغتروا بما ظهر من أعمالهم؟

الأعمال بخواتيمها(...) وقال سفيان الثوري للفضيل بن عياض: تعال حتى نبكي على علم الله فينا، فكانوا خائفين، حذرين، ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، خافوا ألاَّ تقبل أعمالهم، خافوا سوء الخاتمة»(٢٥٣).

والقلب متحول، متقلب.. فلا يأمن الإنسان المسلم من أن يموت على بدعة، أو نفاق، أو كبر.. فيشتد خوفه من سوء الخاتمة، كما يخاف من (السابقة) فيبادر بالأعمال الصالحة، ويخلص فيها لله ربه، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة، خائفا منها.

٨-٧: ومما يربي إرادة الخوف في القلب: أن يراقب ربه أحوال قلبه، قال ابن المبارك: «الذي يهيج الخوف حتى يسكن في القلب: دوام المراقبة في السر والعلانية»(٢٥٤).

وهذه هي المحاسبة التي أوضحناها في فصل سابق، فليرجع إليه.

٨-٨: والمقصد أن يحرص المؤمن على أن يغذي قلبه بغذاء يربي محبة الخوف من الله، وأن يروي الخوف من الله في قلبه كما ذكرنا، وبغيره مما يكون غذاء وشرابا نافعا مربيا.

كأن يزداد علما بالله، فأعلمنا بالله أخشانا له، وكأن يعرف أن الخوف من الله صفة أساسية للمؤمن، يقول الحسن: «المؤمن من يعلم أن ما قاله الله عز

---

(٢٥٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني: الفتح الرحماني ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢٥٤) القشيري: الرسالة، ص ٦٦.

وجل كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملا، وأشد الناس خوفا، لو أنفق جبلا من مال ما أمن دون أن يعاين، ولا يزداد صلاحا وبرا وعبادة إلا ازداد فرقا، يقول: لا أنجو، لا أنجوا، والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيغفر لي، ولا بأس علي، يسيء العمل، ويتمنى على الله- تعالى»(٢٥٥).

فالمؤمن يجمع، إحسانا، وخشية، وبرا وشفقة، وطاعة ووجلا.

ولا ينفك مؤمن عن الخوف والخشية، وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته بالله، وإيمانه به وباليوم الآخر.

٨-٩: ومن ذلك أن يدرك أن الخوف آلية تربوية ضرورية، بالإضافة لكونه خلقا أصليا من أخلاق القلب المسلم، يقول الداراني: «ينبغي للقلب ألاَّ يكون الغالب عليه إلا الخوف، فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب، ثم قال: يا أحمد، بالخوف ارتفعوا، فإن ضيعوه نزلوا».

ويقول أبوحفص: «الخوف سوط الله، يقوّم به الشاردين عن بابه».

ويقول الروذباري: «الخوف والرجاء هما كجناحي الطائر؛ إذا استويا: استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت».

وقال الواسطي: الخوف والرجاء: زمامان على النفوس، لئلا تخرج إلى رعوناتها»(٢٥٦).

ويبين ابن القيم: أهمية الخوف مع الرجاء في السير إلى الله، يقول في قاعدة تربوية كلية:

«القلب - في سيره إلى الله بمنزلة الطائر: فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع

---

(٢٥٥) ابن المبارك: الزهد، رقم ٥٣٢، ص ١٨٨.

(٢٥٦) انظر: القشيري: الرسالة، ص ٦٥، ٦٦.

الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف.

هذه طريقة أبي سليمان (يعني: الداراني) وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه: الخوف فإن غلب عليه الرجاء: فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء: حَادٍ، والخوف: سائق، والله الموصل بمنه وكرمه»(٢٥٧).

٨-١٠ : أن يكثر الخوف من الله، ويكثر مطالعة هذا المبحث:

قال المحاسبي: «إذا أردت أن تحب شيئا فأكثر ذكره»(٢٥٨).

- أن يكثر الخوف من الله، ويكثر مطالعة هذا المبحث:

قال المحاسبي: «إذا أردت أن تحب شيئا فأكثر ذكره»(٢٥٩).

٩- ممارسة الخوف من الله، والتعود عليه:

وذلك بالشروع الفوري في اعتقاد الخوف من الله، والتوبة من التفريط فيه.

ويعين على ذلك: مصاحبة بعض التائبين الجدد، ومجالستهم، ومدارسة نفس الخوف من الله- معا- ومحاسبة النفس يوميا: هل تخافين الله؟ هل اتصفت بالخشية من الله؟ هل تشفقين على نفسك؟ ..إلخ.

وأن يبادر بترك المحظورات، وبفعل الطاعات.

ح- ونختم هذا المبحث بتأمل ما يلي:

يقول عبد الواحد بن زيد: «يا إخوتاه، ألا تبكون شوقا إلى الله؟ ألا إنه من

---

(٢٥٧) ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ص ٣٨٨.

(٢٥٨، ٢٥٩) المحاسبي: آداب النفوس، ص ١٧٧.

بكى شوقا إلى سيده لم يحرم النظر إليه، يا إخوتاه، ألا تبكون خوفا من النار؟ ألا إنه من بكى خوفا من النار؛ أعاذه الله منها، يا إخوتاه، ألا تبكون خوفا من العطش يوم القيامة؟! ألا إنه من بكى خوفا من ذلك؛ سقي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، يا إخوتاه، ألا تبكون! بلى، فابكوا..»(٢٦٠).

ألا نبكي خوفا من مكر الله؛ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

ألا نبكي للحجاب عن الله!! ألا نبكي لحر يوم الوعيد!! ألا نبكي للحساب! ألا نبكي للميزان، ألا نبكي لتقلب الوجوه في النار!! ألا نبكي لقسوة القلب وجمود العين!! بلى!

ط- إن تربية الخوف من الله في القلب أولوية رئيسة لتربية المسلم، ذكرا، وأنثى.. فخطتنا التربوية تشمل الإناث.. تشمل بناتنا وزوجاتنا وأخواتنا، لتكن خائفات من الله.

ولنتأمل الأخت المسلمة مع الأخ المسلم ما يلي(٢٦١):

١- تقول مؤمنة بنت بهلول – زاهدة: **«قرة عيني! (يعني: يا ربي) ما** طابت الدنيا والآخرة إلا بك، فلا تجمع عَلَيّ **نَقْدَك والعذابَ»**.

٢- بكت غفيرة العابدة **(صاحبة معاذة العدوية) حتى عميت، فقال** رجل: ما أشد العمى! فقالت غفيرة: **الحجاب عن الله أشد، وعمى القلب** عن فهم مراد الله في أوامره: أشد، وأشد.

٣- وكانت شعوانة من المجتهدات الخائفات، **الباكيات المبكيات، تعظ** الناس، وتقرأ لهم، قال أبو عون: بكت شعوانة **حتى خفنا عليها العمى، فقلنا** لها: إنا نخاف عليك العمى، فبكت، وقالت: خفنا؟! أعمى- والله- في الدنيا

---

(٢٦٠) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، رقم ٢٦٠، ص ٦٠، ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٣.

(٢٦١) أبو عبد الرحمن السلمي: ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، ص ٣٤، ٣٩، ٤٤، ١١٨، ١٢٠ – ويقرأ الكتاب كله.

من البكاء، أحب إليَّ من أن أعمى في الآخرة من النار.

وكانت شعوانة تقول: عين فارقت حبيبها، واشتاقت إلى لقائه بغير بكاء؟! لا لحين!

وتقول عنيزة البغدادية: العلم يورث الخشية، والمعرفة تورث المهابة.

وتقول أم الحسين القرشية: من لم تكن له أوائل تغنيه، لم تكن له أواخر تبقيه.

ثاني عشر: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»:

أ- علاقة التصدق بتربية القلب السخي المؤمن:

١- المؤمن- الذي دخل في قلبه الإيمان، واتصف به- تخلص من الشح، وهو: شدة الحرص، والجشع، والبخل، والميل الشديد لجمع الثروة، وحب اقتناء ما عند الغير، يقول النبي ﷺ: «.. **واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»(٢٦٢). والشح: الحرص على ما ليس عندك، والبخل بما عندك(٢٦٣). فهو البخل مع الحرص، وهو صفة المنافق: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ..﴾ [الأحزاب: ١٩].

فالإيمان بالله، واليوم الآخر، وحب رضا الله، وحب الجنة، وهجرة القلب لله، وللرسول ﷺ، وللدار الآخرة- يتسلط على شهوة التملك، فيضبطها، ويوجهها نحو فعل الخير، وبناء الذات المسلمة بناء إيمانيا عقديا، روحيا، خلقيا، متوجها نحو الله وحده، مما يحقق له الفلاح في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيمان إذا دخل القلب، صاغ الإنسان من جديد، صياغة إسلامية ربانية،

---

(٢٦٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، رقم ٢٥٧٨، ص ٤٨.

(٢٦٣) المصدر السابق نفسه.

يحدث في القلب، في جوانية الشخص، تغييرا حقيقيا في مشاعره، وطموحاته، وأهدافه، واتجاهاته النفسية والخلقية والاجتماعية، فيطرد الشح ولابد، القلب المؤمن يبغض الشح، ولهذا لا يجتمع الإيمان والشح في قلب مسلم أبدا – هذه حقيقة توحيدية نفسية قررها النبي ﷺ:

أخرج النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدًا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا**»، وفي رواية له: «.. **ولا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم**»، وفي رواية عن أبي هريرة موقوفا: «.. **ولا يجمع الله في قلب امرئ مسلم الإيمان بالله والشح جميعا**»[(٢٦٤)]. وفي رواية الحاكم: «**ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والشح**»[(٢٦٥)]، لماذا؟ لأن الإيمان: نماء قلب، ونفس بالخضوع لله، والانقياد لأمره، والخضوع والاستسلام لحكمه، الإيمان تحرر من عبودية المال والمقتنيات، والمؤمن آمن، فخضع لله وانقاد لحكمه، مصدقا به، متحررا من جميع المقتنيات؛ أما الشح فهو إمساك، وضيق نفس، وتعبد للمال.. والمقتنيات.. ولا يمكن أن يجتمع الإيمان والشح في قلب رجل أو امرئ مسلم أبدًا؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة**

---

(٢٦٤) النسائي: سنن، ج٦، رقم ٣١١١، ٣١١٤، ٣١١٥، ص ١١، ١٢.

والرواية الأولى: رواها البخاري في الأدب المفرد، رقم ٢٨١، باب الشح، وقال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، تخريجات وتعليقات: محمد ناصر الدين الألباني، ص ١٠٣.

والرواية الثانية، رواها أيضا: الإمام أحمد: المسند، ج٧، رقم ٧٤٧٤، وصححه شاكر، وأطال في تخريجه، ص ٢٧٣– ٢٧٨.

(٢٦٥) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/ ٧٢) انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج١، رقم ٦٨٠، ص ٣٦٣ والحديث رواه الألباني في صحيح الجامع، ج٣، رقم ٧٦١٦، وقال: صحيح، مع اختلاف في اللفظ، ص ١٢٦٢.

وقال شعيب الأرناؤوط: في رواية النسائي وأحمد والحاكم: سنده حسن، وصححه ابن حبان (١٥٩٧) و (١٥٩٩)، انظر: ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٣، تحقيق وتخريج وتعليق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ٢٠٠٣م، ص ٧٢ هامش (١).

تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»(٢٦٦). وفي رواية: «.. **وعبد القطيفة، وعبد الخميصة..**»(٢٦٧).

فالمؤمن متحرر من العبودية للمال والمظهر، لأنه عبد لله وحده، شحت نفسه بأن يبيع كيانه كله لله، وحده، بأن له الجنة، فأصبح هو ذاته وقفا لله تعالى، وضع نفسه تحت تصرف الله وحده، مطيعا لإرادته الشرعية.

وكلما تربى الإيمان في القلب تربى السخاء، وتصدق المسلم بما يملك على عباد الله، وفي سبيل الله.

فيكتسب المسلم خلقا إيمانيا هو سخاء النفس، وكرم القلب، والرفق، والعطف، والرقة، والشفقة على كل محتاج، يصبح له رسالة اجتماعية، وهدف، ومعنى.

٢- والمؤمن اكتسب تصورات إيمانية من دينه الذي آمن به، ومن هذه التصورات العقدية أن المال ليس غاية في ذاته، وليس ملكا ذاتيا له، بل هو مستخلف فيه، ليقوم بتوظيفه توظيفا نافعا، فالمال قيام للناس، أي: يقيم حياتهم في الدنيا، إنه سبب من الأسباب التي بها قوام الحياة الدنيوية، وبه تنتظم معايش الناس، ومنافعهم، فهو (خادم) للإنسان، فالبدن يخدم القلب، والعقل والنفس، والبدن يخدمه المأكل والملبس والمركب والمشرب، والمال يخدم هذا، فالمقتنيات المالية والمادية ليست غاية في ذاتها، بل لها وظائف اجتماعية توجه إليها، فهو ينفق- تطوعا- باختياره، وإرادته الحرة، على المساكين واليتامى، وفي وجوه البر التي يحبها الله، كإنشاء مستشفى، أو معهد علمي، أو صرف صحي، أو تعبيد طريق، أو بناء مسجد، أو توصيل مياه لمكان محروم منها.. إلخ، وهو ينفق على تعليم الإسلام، والدعوة إليه، وعلى

---

(٢٦٦) رو [illegible] البخاري وابن ماجه وغيرهما، انظر: صحيح الجامع، ج١، رقم ٢٩٦٢، ص ٥٦٩، ٥٧٠، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٥٣، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

(٢٦٧) ابن [illegible] فتح الباري، ج٢، ص ١٤٧ .

المجاهدين في سبيله.. إلخ، وبهذا يمارس الوظيفة الاجتماعية للمال، ويتحرر من العبودية للمقتنيات: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فإذا تربت عقيدة الإسلام في المال، وأنه خضر حلو، وأن الله مستخلفنا فيه لينظر كيف نفعل.. وأن الله سائلنا يوم الدين والجزاء عن أموالنا: من أين اكتسبناها؟ وفيم أنفقناها؟ إذا تربت هذه العقيدة، وما يكملها، في القلب- فإنها تطرد الشح من القلب، ويخلص المسلم لله وحده، وينفق لله وحده.

٣- فالدافع للإنفاق- إذًا- ليس المباهاة ولا الرياء الاجتماعي.. بل المؤمن يبغي أن يظله الله، في ظل عرشه يوم الوعيد، والهول الشديد، فهو يخفي الصدقة ويبالغ في الإخفاء، حتى أن شماله مع قربها من يمينه، وتلازمها- لو تصورنا أنها تعلم وتدرك- لما علمت ما فعلت اليمين، من شدة إخفاء الصدقة، ولهذا جاء في رواية حماد بن زيد: «تصدق بصدقة كأنما أخفى يمينه من شماله»[٢٦٨].

إنه يريد ظل العرش، ورضا الله.. أخرج أحمد عن يزيد بن أبي حبيب قال: كان مرثد بن عبد الله لا يجيء إلى المسجد إلا ومعه شيء يتصدق به، قال: فجاء ذات يوم إلى المسجد ومعه بصل، فقلت له: أبا الخير، ما تريد إلى هذا؟ ينتن عليك ثوبك، قال: يا بن أخي، إنه والله ما كان في منزلي شيء أتصدق به غيره، إنه حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**ظل المؤمن يوم القيامة صدقته**»[٢٦٩]. ورواه أحمد مختصرا: «**إن ظل المؤمن.. إلخ**»[٢٧٠].

وفي السنن الصغير للبيهقي عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير، عن عقبة ابن عامر، عن رسول الله ﷺ قال: «**كل امرئ في ظِلِّ صدقته حتى يقضى بين الناس**» أو قال: «**يحكم بين الناس**» قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم

---

(٢٦٨) ابن حجر: فتح الباري، ج٢، ص ١٤٧ .
(٢٦٩) إسناده صحيح، المسند، ج١٧، رقم ٢٣٣٨٢، ص ١٢- ١٣.
(٢٧٠) إسناده صحيح، المسند، ١٤٥، رقم ١٧٩٦٦، ص ٤٧ وانظر تخريجه هناك.

إلا تصدق فيه، ولو بكعكة، أو بصلة(٢٧١).

وعند الطبراني: «وكان أبو الخير لا يخطئه يوم إلا تصدق بكعكة، أو بفولة، أو بكذا، سمى شيئا»(٢٧٢).

فالباعث على التصدق هو الإيمان بالله ومحبته، والرغبة في ثوابه، وتصديق وعده، ووعيده، واليقين في البعث بعد الموت، والمجازاة على مثاقيل الذر، وألاّ يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى.

ولهذا قال النبي ﷺ، فيما رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد عن أبي مالك الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان- إلى قوله: والصدقة برهان..**» الحديث(٢٧٣).

قال ابن رجب: «والبرهان: هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس(...) ومنه سميت الحجة القاطعة برهانا، لوضوح دلالتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة؛ برهان على صحة الإيمان، وطيب النفس علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه، (...) وسبب هذا: أن المال تحبه النفوس، وتبخل به، فإذا سمحت بإخراجه لله- عز وجل- دل على صحة إيمانها بالله، ووعده ووعيده»(٢٧٤).

فالتصدق والإنفاق في وجوه الخير- ابتغاء وجه الله- دليل قاطع على إيمان القلب، ونور ساطع كبرهان الشمس وشعاعها، إنها: صدق في الإيمان، وقوة في إشراق القلب بأنوار المحبة.

٤- إن الصدقة- بالشكل الذي نتناوله هنا- دليل على قوة إرادة الخير في

---

(٢٧١) البيهقي: كتاب السنن الصغير، ج ١، رقم ١٢٨٥، ص ٣٢٩، انظر: تخريجه هناك.

(٢٧٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٧، رقم ٧٧١، ص ٢٨٠، ورواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢٧٣) انظر تخريجه وشرحه في: ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٢٥٥ وما بعدها، وانظر: إكمال المعلم، ج٢، رقم ٢٢٣، ص ٧، ٨.

(٢٧٤) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٢٦٢- ٢٦٣.

النفس، والانتصار، على إغراء الاقتناء، وإغواء الشيطان، ولهذا أخرج أحمد في المسند من حديث أنس، بإسناد حسن - مرفوعا - (كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح) عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله- عز وجل- الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب، هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد، قالت: يا رب، هل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار، قالت: يا رب، هل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم؛ الماء، قالت: رب، فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم؛ الريح، قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه، يخفيها عن شماله**»(٢٧٥).

فالمؤمن المتصدق في خفية ينتصر على إغراءات النفس، وعلى الإغراء الاجتماعي، وحب الظهور، وعلى دعوة الشيطان ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] وعلى القلق، وعلى نظرات أهله..إلخ، فيتصدق، في خفية من يده ذاتها إن أمكن، فهو متحرر الإرادة قويها، حقا، أقوى من الريح، والماء، والنار والحديد والجبال..هذا فعل الإيمان في القلب، وصياغته للشخصية المسلمة.

٥- والمؤمن المتصدق يدرك، بوعي وفقه اجتماعي، البعد الاجتماعي للإيمان - فالدين، أنزله الله ليحرر البشر، ويسعدهم ويجتاز بهم العقبات، وسبيل ذلك أن ينفق المؤمن في الخير ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ [البلد: ١١- ١٦].. هذا طريق امتحان العقبة: الإنفاق والتصدق لأغراض اجتماعية.

---

(٢٧٥) قال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج١٠، رقم ١٢١٩٣، ص ٤٠٠- ٤٠١، ولكن قال الترمذي في روايته: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه: سننه، ج٥، رقم ٣٣٨٠، ص ٢٤٢.

وجعل الله دَعَّ- أي: زجر- اليتيم، وعدم الحض على إطعام المسكين ومنع الماعون- تكذيبا بالدين؛ الدين: أي القانون والمنهاج الذي أنزله الله، والدين: أي يوم الدينونة والجزاء والحساب، والدين: أي: الطاعة والتسليم لله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ – ٧].

وجعل الله من أسباب دخول (سقر) عدم إطعام المسكين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ – ٤٤]، ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٢ – ٣٤].

وجعل الله سبيل التحقق بالبر أن ينفق الإنسان المؤمن كما يجب: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وهكذا.

فالمؤمن بالإسلام يعلم يقينا أن الله أنزل دينه رحمة للعالمين، وطلب منه أن يكون رحيما، رقيق القلب متصدقا على (عيال الله). أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن دينار، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، من أحب الناس إلى الله؟ قال: «**أنفعهم للناس، وإن أحب الأعمال إلى الله: سرور تدخله على مؤمن، تكشف عنه كربا، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف شهرين في مسجد، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه- ولو شاء أن يمضيه أمضاه- ملأ الله قلبه رضا، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها له ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل الماء**»(٢٧٦).

---

(٢٧٦) ابن أبي الدنيا: قضاء الحوائج، رقم ٣٦، ص ٨٩ – ٩٠ في مجموعة الرسائل، له (٧ رسائل). ورواه الطبراني في المعجم الكبير، وقال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ١٧٥، ص ٩٧، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٩٠٦، ص ٤٩٥ - ٤٩٦.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**»(٢٧٧). وفي زوائد الزهد عن الحسن مرسلا: «**أحب العباد إلى الله تعالى: أنفعهم لعياله**»(٢٧٨).

نخلص مما سبق إلى أن تربية الإيمان والعقيدة الإسلامية في القلب تربي هذا القلب على السخاء وسماحة النفس بالإنفاق والتصدق في وجوه البر، وفي سبيل الله.

ب- ولتربية المؤمن الاجتماعي المتصدق، الفعال في الخير، النافع لخلق الله، الذي يتصدق بصدقة فيخفيها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.. جاء خطاب القرآن وخطاب النبي ﷺ يبين (نتائج الصدقة) ابتغاء وجه الله، لينشئ بهذا البيان الإلهي، والنبوي رغبة قوية، ومحبة وشوقا، ونية وعزما، وإرادة راسخة، في قلب المؤمن بالقرآن والسنة، يجعله يغلي بالخير، ويهم بالإنفاق، وتدفعه للتصدق على (عيال الله) في وجوه البر المتعددة، وهو على يقين بأن ذلك مدخور له عند الله أضعافا مضاعفة.

إننا نورد هنا مدرقة مأخوذة من هذا الخطاب الإسلامي الذي يربي- ينمي، يكبر، رغبة التصدق، وإرادته في قلب المسلم، والمطلوب: أن نؤمن بهذا الخطاب، ونتيقن به، ونتفكر في دلالاته، وننفعل به... وندخله في القلب، ونقبله، ونتمثله، ونخلطه بمشاعرنا، وندعه يحركنا ويوجهنا:

١- آيات القرآن في بيان وجوب الإنفاق، وفي بيان ثمراته ونتائجه كثيرة طيبة، نورد منها بعض ما جاء في سورة البقرة: ﴿**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ**

---

(٢٧٧) ابن أبي الدنيا: قضاء الحوائج، رقم ٢٤، ص ٨٧.

(٢٧٨) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع، ج١، رقم ١٧٢، ص ٩٦.

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٢].

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١] ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤].

ويمكن جمع آيات الإنفاق، ودراسة معانيها من تفسير الطبري، وابن كثير وظلال القرآن.. خلال دورة تربوية تهدف لتربية القلب السمح السخي.

٢- أخرج البخاري، ومسلم، وأحمد والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فُلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل**»(٢٧٩). هذا لفظ البخاري في كتاب الزكاة، وفي كتاب التوحيد رواه بلفظ: «.. **ولا يصعد إلى الله إلا الطيب**.. **ثم يربيها لصاحبها**..»(٢٨٠). وأخرجه مسلم، وفيه: «**حتى تكون مثل الجبل أو أعظم**»(٢٨١). وعند النسائي: «**فتربوا في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله**»(٢٨٢).

أقول: قوله: «**بيمينه**» نؤمن به كما جاء، ونثبت لله هذه الصفة من غير تشبيه ولا تكييف، ولا تأويل، ولا تعطيل.

والفلو: هو المهر، «وضرب به المثل؛ لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان عظيما، فإذا أحسن

---

(٢٧٩) فتح الباري، ج٣، رقم ١٤١٠، ص ٢٧٨.
(٢٨٠) المصدر السابق، ج١٣، رقم ٧٤٣٠، ص ٤١٥.
(٢٨١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٧ (مناهل) ص ٩٩.
(٢٨٢) سنن النسائي، ج٥، رقم ٢٥٢٥، ص ٤١- ٤٢.

العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل ابن آدم - لا سيما الصدقة»(٢٨٣).

وقال السندي: «فتربو: أي: تزيد، كما يربي، أي: يربيها الرحمن كما يربي فلوه، أي: الصغير من أولاد الفرس، فإن تربيته تحتاج إلى مبالغة في الاهتمام به، والفصيل: ولد الناقة»(٢٨٤).

وأخرجه البيهقي وفيه: «**فإن الله يقبلها بيمينه، ويربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل أحد**»(٢٨٥).

وعند ابن ماجه: «.. **إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، ويربيها له كما يربي أحدكم فُلُوَّه أو فصيله**»(٢٨٦).

ورواه أحمد بروايات كثيرة منها: «**إن العبد إذا تصدق من طيب، تقبلها الله منه، وأخذها بيمينه، ورباها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله**- أو قال: في كف الله- **حتى تكون مثل الجبل، فتصدقوا**»(٢٨٧).

وفي رواية له: «**إن أحدكم ليتصدق التمرة من الكسب الطيب، فيضعها في حقها، فيليها الله بيمينه، ثم ما يبرح فيربيها كأحسن ما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل، أو أعظم من الجبل**»(٢٨٨).

وفي رواية له: «**إن الله- عز وجل- يقبل الصدقة، ولا يقبل منها إلا الطيب، يقبلها بيمينه- تبارك وتعالى- ويربيها لعبده المسلم- اللقمة - كما**

---

(٢٨٣) ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٢٨٤) حاشية السندي على سنن النسائي، ج٥، ص ٤٢.

(٢٨٥) البيهقي: السنن الصغير، ج١، رقم ١٢٨٤، ص ٣٢٨.

(٢٨٦) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٢، رقم ١٥٠٤، ص ١١٦.

(٢٨٧) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٧، رقم ٧٦٢٢، ص ٣٦٩.

(٢٨٨) قال محققه: إسناده صحيح.. المسند، ج٩، رقم ٨٩٤١، ص ٥٩.

يربي أحدكم مهره أو فصيله، حتى يوافي (يقبل) بها يوم القيامة مثل أحد»(٢٨٩). وفي رواية لأحمد: «**فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى أن التمرة لتكون مثل الجبل العظيم**»(٢٩٠).

٣- أخرج البخاري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»(٢٩١). ورواه مسلم بلفظ: «**من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل**»، وفي رواية له: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة**»(٢٩٢).

٤- أخرج مسلم عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان: فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خَلَفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تَلَفًا**»(٢٩٣).

٥- وأخرج البخاري ومسلم عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «**على كل مسلم صدقة**»، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «**يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**»، قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**»، قال: قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يأمر بالمعروف أو الخير**»، قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «**يمسك عن الشر فإنها صدقة**»(٢٩٤). هذا لفظ مسلم.

---

(٢٨٩) قال محققه: إسناده، حسن، المسند، ج٩، رقم ٩٢١٧، ص ١٥٠.

(٢٩٠) قال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج٩، رقم ٩٣٨٧، ص ٢٠٤. وانظر نفس الجزء، ص ٢٠٧، ٢٤٧، ٣٨٩، ٦٢٤. وانظر: سنن الترمذي، ج٢، كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، رقم ٦٦١ (وهو حسن صحيح) ص ١٤٤، ورقم ٦٦٢، ص ١٤٥،١٤٤.

(٢٩١) فتح الباري، ج٣، رقم ١٤١٧، ص ٢٨٣.

(٢٩٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٧، رقم ١٠١٠، ص ١٠٠- ١٠٢. وهو في إكمال المعلم، ج٣، رقم ١٠٧٦، ص ٥٣٨.

(٢٩٣) إكمال المعلم، ج٣، رقم ١٠١٠، ص ٥٣١، وهو في صحيح مسلم بشرح النووي، ج٧، رقم ١٠١٠، ص ٩٥.

(٢٩٤) إكمال المعلم، ج٣، رقم ١٠٠٨، ص ٥٣٠ ورواه البخاري: فتح الباري، ج٣، رقم ١٤٤٥، ص ٣٠٧- ٣٠٨.

٦- وأخرج مسلم عن أبي هريرة، يبلغ به: «**ألا رجل يمنح أهل بيت ناقة، تغدو بِعُسٍّ** (قدح كبير) **وتروح بعس، إن أجرها لعظيم**»[٢٩٥].

٧- وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم؟ فقال: «**أن تصدق، وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان**»[٢٩٦].

٨- وأخرج مسلم عن أبي إمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن آدم، إنك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى**»[٢٩٧].

٩- وأخرج الترمذي، وأحمد، وابن ماجه- واللفظ للأول- من حديث معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه، ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، قال: «**لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»، ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل..**» إلخ الحديث[٢٩٨].

١٠- روى أحمد الترمذي من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله- سبحانه وتعالى- أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات..**(وذكر منها): **وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يديه**

---

(٢٩٥) إكمال المعلم، ج٣، رقم ١٠١٩، ص ٥٤٣.
(٢٩٦) المصدر السابق، رقم ١٠٣٢، ص ٥٦٥.
(٢٩٧) المصدر السابق، رقم ١٠٣٦، ص ٥٦٩.
(٢٩٨) قال الترمذي: هذا حديث حسن، صحيح، سنن، ج٤، رقم ٢٦٢٥، ص ٢٨٠.

إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم»(٢٩٩).

١١- وروى الحافظ المديني بإسناد حسن جدا (كذا قال ابن القيم)، عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب حديثا طويلا، وفيه: «**ورأيت رجلا من أمتي، يتقي بيده وَهْجَ النار وشرره، فجاءته صدقته، فصارت سترة بينه وبين النار، وظللت على رأسه»**(٣٠٠).

١٢- عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علّمه ونشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا وَرَّثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله- في صحته وحياته- يلحقه من بعد موته»**(٣٠١).

هذا منتخب من أحاديث كثيرة جدا في الإنفاق والتصدق، يربي بها الرسول ﷺ أصحابه.

جـ- من نتائج تربية القلب السخي:

١- استمع المؤمنون لهذا الخطاب الطيب.. الذي يبين فضل الإنفاق.. والتصدق، وإلى غيره- وهو كثير جدا- وهم مؤمنون بأنه حق، وصدق، فتربت في قلوبهم محبة الإنفاق، وإرادة الإنفاق، فرغبت في ثواب الله المذكور، فنما فيهم الميل للتصدق، وعزموا عليه، ونهضوا، وكان منهم من لا يملك ما يتصدق به، فكان يذهب ليؤاجر، ويعتمل، وينفق لينال هذا الثواب.. فتخلصوا من شح النفس وبخلها، وسخت قلوبهم، ونفوسهم، وأصبحوا فعالين في المجتمع؛ لأن الإنفاق قيمة اجتماعية من قيم التربية الاجتماعية

---

(٢٩٩) انظر شرحه عند: ابن القيم: الوابل الصيب في الكلم الطيب، ص ٣٢ وما بعدها والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٢٢٩٨.

(٣٠٠) انظر: ابن القيم، الوابل الصيب، ص ١١٢.

(٣٠١) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ٢٠٠، ص ٩٧، ٩٨.

الإسلامية تغني القلب، وتثري النفس، وتزكي المجتمع، وهذا هو التدين الفعال.. يبدأ من القلب، ويتجه إلى فعل الخير، ابتغاء وجه الله.

٢- كما أنهم رأوا النموذج العملي المطبق لهذا الخطاب.. رأوا رسول الله ﷺ، في الممارسة العملية، أسخى الناس، ونترك ابن القيم يوضح هويته ﷺ في الإنفاق وصدقة التطوع:

«كان ﷺ أعظم الناس صدقة بما ملكت يده، وكان لا يستكثر شيئا أعطاه لله تعالى، ولا يستقله، وكان لا يسأله أحد شيئا عنده إلا أعطاه، قليلا كان أو كثيرا، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه، ولكن سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسلة.

وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه، تارة بطعامه، وتارة بلباسه، وكان ينوع في أصناف عطائه، فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعا، كما فعل ببعير جابر (البخاري، ومسلم..) وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر، ويشتري الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها، أو بأضعافها، تلطفا، وتنوعا في ضروب الصدقة والإحسان بكل ممكن، وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه، وبحاله، وبقوله، فيخرج ما عنده، ويأمر بالصدقة، ويحض عليها، ويدعو إليها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيل الشحيح: دعاه حاله إلى البذل والعطاء، وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه؛ لا يملك نفسه من السماحة والندى.

وكان هديه ﷺ يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف، ولذلك كان أشرح الخلق صدرا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا؛ فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيرا عجيبا في شرح الصدر(...).

فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد(...) ومنها العلم(...)..ومنها الإنابة إلى الله- سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته(...) ومنها الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يملكه من المال والجاه، والنفع بالبدن وأنواع الإحسان؛ فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرا وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا، والبخيل الذي فيه إحسان أضيق الناس صدرا، وأنكدهم عيشا، وأعظمهم هما وغما، وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلا للبخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد: كلما هم المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه، ويعفي آثره، وكلما هَمَّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها، ولم تتسع عليه، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه[٣٠٢].

والحديث المذكور هنا رواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ «**مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتَان**، (وفي رواية: جنتان) **من حديد، من قدميها إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت، على جلده، حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزمت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع**»[٣٠٣]. ورواه مسلم وفيه: «**وجعل البخيل كلما هم بصدقة قَلَصَتْ** (يعني: انقبضت) **وأخذت كل حلقة مكانها**»[٣٠٤].

قال الخطابي: «والمراد: أن الجواد إذا هم بالصدقة؛ انفسح لها صدره، وطابت نفسه، فتوسعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة؛ شحت نفسه، فضاق صدره، وانقبضت يداه»[٣٠٥].

---

(٣٠٢) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٢، ص ٢١- ٢٥، والحديث أخرجه البخاري ومسلم.
(٣٠٣) فتح الباري، ج٣، رقم ١٤٤٣، ص ٣٠٥.
(٣٠٤) صحيح، مسلم بشرح النووي، ج٧ رقم ١٠٠٢١، ص ١٠٨، وانظر إكمال المعلم، ج٣، رقم ١٠٠٢١، ص ٥٤٥- ٥٤٧.
(٣٠٥) فتح الباري، ج٣، ص ٣٠٦.

فالرسول ﷺ كان يربي أصحابه على الإنفاق بقوله، وحاله..بالإشعاع السلوكي الذي يأسر أحبابه، فيحفزهم على التصدق..والإنفاق..حبا لله ورسوله، وابتغاء ما عند الله وحده.

تأمل في الوقائع الآتية التي توضح استجابة الصحابة لهذا الخطاب ولهذه التربية بالقدوة:

٢-١: أخرج البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود عن أنس بن مالك، يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس، فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: إن الله يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت، قال رسول الله ﷺ: «**بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، قد سمعت ما قلت فيها، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه(٣٠٦).

٢-٢: أخرج أحمد عن العرباض بن سارية، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرجل إذا سقى امرأته من الماء أجر**» قال: فأتيتها، فسقيتها، وحدثتها بما سمعت من رسول الله ﷺ(٣٠٧).

٢-٣: وذكر ابن كثير عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله- عز وجل- ليريد منا القرض؟! قال: «**نعم يا أبا الدحداح**»،

---

(٣٠٦) هذا لفظ مسلم: إكمال المعلم، ج٣، رقم ٩٩٨، ص ٥١٦ -٥١٨ وانظر: سنن أبي داود، ج٢، رقم ١٦٨٩، ص ٥٦، وهو مختصر، وتفسير ابن كثير ج١، ص ٣٨١ وتفسير الطبري لهذه الآية.
(٣٠٧) إسناده صحيح، المسند، ج١٣، رقم ١٧٠٩٠، ص ٢٨٣ .

قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي، قال: حائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها، يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي- عز وجل(٣٠٨).

٢-٤: أخرج البخاري في الأدب المفرد عن عبد الله بن الزبير قال: ما رأيت امرأتين أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف، أما عائشة فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا كان اجتمع عندها، قسمت، وأما أسماء فكانت لا تمسك شيء لغد(٣٠٩).

٢-٥: أخرج الطبراني: أن حكيم بن حزام باع دارا له بمكة بمائة ألف، وأشهد أن ثمنها في سبيل الله(٣١٠).

وفي رواية أنه قال: «أشهدكم أنها في سبيل الله، والمساكين والرقاب..».

٢-٦: أخرج البخاري ومسلم والترمذي- واللفظ له- عن ابن عمر قال: أصاب عمر أرضا بخيبر، فقال: يا رسول الله، أصبت مالا بخيبر لم أصب قط أنفس عندي منه، فما تأمرني؟ قال: «**إن شئت حَبَسْتَ أصلها وتصدقت بها**»، فتصدق بها عمر، أنها لا يباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث، تصدق بها في الفقراء والقربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقا، غير مُتَمَوِّل فيه(...). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح(٣١١).

---

(٣٠٨) ابن كثير: تفسير، ج١، ص ٢٩٩، والطبري: جامع البيان، ج٢، ص ٧٢٨.

(٣٠٩) قال الألباني: صحيح الإسناد، الأدب المفرد، رقم ٢٨٠، ص ١٠٢.

(٣١٠) الطبراني: المعجم الكبير، ج٣، رقم ٣٠٧٢، ورقم ٣٠٧٣، ص ١٨٦- ١٨٧. ونقل محققه عن الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٨٤) قال: رواه الطبراني بإسنادين أحدهما: حسن.

(٣١١) الترمذي، ج٣، رقم ١٣٨٠، ص ٨٧ – ٨٨، وهو في البخاري، كتاب الشروط، رقم ٢٧٣٧، وعند مسلم في كتاب الوصية، رقم ٤٣١١.

ووقائع أخرى كثيرة من الرجال والنساء تبين أنهم اكتسبوا خلق التصدق، **أولا:** لإيمانهم بالقرآن والسنة، **وثانيا:** لرغبتهم في الثواب، **وثالثا:** تأسيا بالقدوة والمثال العمل رسول الله ﷺ، **ورابعا:** لأنهم بادروا بالممارسة والسعي للإنفاق - بعد الوعي والمدارسة، فرضي الله عنهم.

د- ولم يكن هذا في الرجال فقط، بل كان مثله في النساء، فالمسلمة مخاطبة بكل ما سبق، أخرج البخاري عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: خرج النبي ﷺ يوم عيد، فصلى ركعتين، لم يصل قَبْلُ ولا بَعْدُ، ثم مال على النساء، ومعه بلال، فوعظهن، وأمرهن أن يتصدقن، فجعلت المرأة تلقي القُلْب والخُرْص(٣١٢). (السوار والحلق).

وأخرج عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال النبي ﷺ: «**إذا أطعمت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة، لها أجرها، وله مثله، وللخازن مثل ذلك، له بما اكتسب، ولها بما أنفقت**»(٣١٣).

وفي رواية للبخاري: «**إذا تصدقت المرأة من طعام زوجها..**»(٣١٤). وفي لفظ لمسلم: «**إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا**»(٣١٥).

وأخرج مسلم عن زينب – امرأة عبد الله (يعني ابن مسعود)- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تصدقن، يا معشر النساء، ولو من حُلِيِّكُنَّ**» قالت: فرجعت إلى عبد الله، فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله، فإن كان ذلك يجزي مني، وإلا صرفتها إلى غيركم،

---

(٣١٢) فتح الباري، ج٣، رقم ١٤٣١، ص ٢٩٩.
(٣١٣) المصدر السابق، ج٣، رقم ١٤٤٠، ص ٣٠٣.
(٣١٤) المصدر السابق، رقم ١٤٣٧، ص ٣٠٢.
(٣١٥) إكمال المعلم، ج٣، رقم ١٠٢٤، ص ٥٥٠ -٥٥١.

فقالت: فقال لي عبد الله: بل ائتيه أنت، قالت: فانطلقت، فإذا امرأة من الأنصار، حاجتي حاجتها، قالت: وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، قالت: فخرج علينا بلال بباب رسول الله ﷺ، فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزئ الصدقة عنهما – على أزواجهما، وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن، قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**من هما؟**» فقال: امرأة من الأنصار، وزينب، فقال رسول الله ﷺ: «**أي الزيانب؟**» قال: امرأة عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: «**لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة**»[٣١٦]. وفي رواية لمسلم: قالت: كنت في المسجد فرآني النبي ﷺ فقال: «**تصدقن ولو من حليكن**»[٣١٧].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسِن شاة**»[٣١٨] (الفرسن: مثل القدم في الإنسان).

وفي المعجم الكبير للطبراني: عن رائطة- امرأة عبد الله بن مسعود- وكانت صناعا، وكانت تبيع في صنعتها وتتصدق، فقالت لعبد الله يوما: لقد شغلتني أنت وولدك، فما أستطيع أن أتصدق معكم شيئا، فقال: ما تحبين أن يكون لك أجران، فسألا النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «**إن لك أجر ما أنفقت عليهم**»[٣١٩].

وفي وصف زينب بنت جحش: «وكانت امرأة صناعا، كانت تعمل بيديها، وتتصدق به في سبيل الله»[٣٢٠].

وقال الزهري: «تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة، وهي أم

---

(٣١٦) المصدر السابق، رقم ١٠٠٠، ص ٥١٩- ٥٢١.
(٣١٧) المصدر السابق، رقم ١٠٠٠، ص ٥٢٢.
(٣١٨) المصدر السابق، رقم ١٠٣٠، ص ٥٦١.
(٣١٩) قال محققه: الحديث صحيح، المعجم الكبير، ج٢٤، رقم ٦٦٦، ص ٢٦٣، وانظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج٢، رقم ١٤٩٧، ص ١١٣ رقم ١٣٣، ص ٥٠.
(٣٢٠) المصدر السابق، رقم ١٣٣، ص ٥٠.

المساكين، سميت لكثرة إطعامها المساكين»(٣٢١).

وفي النسائي من حديث: «فكان من أكثر من يتصدق النساء»(٣٢٢).

وأخرج مسلم وأحمد، وابن ماجه والنسائي عن جابر بن عبد الله، يقول: طُلِّقَتْ خالتي، فأرادت أن تَجُدَّ نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي ﷺ، فقال: «**بلى، فَجُدِّي نخلك، فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفا**»(٣٢٣). (تجد: تقطع الثمرة). وفي رواية النسائي: فقال: «**اخرجي فجدي نخلك، لعلك أن تصدقي وتفعلي معروفا**»(٣٢٤).

وأخرج مسلم عن جابر، أن النبي ﷺ دخل على أم مُبَشِّر الأنصارية في نخل لها، فقال لها النبي ﷺ: «**من غرس هذا النخل؟ أمسلم أم كافر؟**» فقالت: بل مسلم، فقال: «**لا يغرس مسلم غرسًا، ولا يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة**»(٣٢٥).

هـ- ولم يكن هذا في عهد الصحابة فقط بل كان سلوكا لعباد الله المؤمنين، مثلا: في طبقات ابن سعد: قال الربيع بن خُثَيْم لأهله: اصنعوا لنا خَبِيصًا، قال: وكان لا يكاد يتشهى عليهم شيئا، قال: فصنعوه، قال: وأرسل إلى جار له، مصاب، كان به خَبَل، فجعل يلقمه ولعابه يسيل، فلما خرج قال أهله: تكلفنا وصنعنا ثم أطعمت هذا؟ ما يدري هذا ما أكل، فقال الربيع: لكن الله يدري(٣٢٦). أيْ نعم! لكن الله يدري!

---

(٣٢١) المصدر السابق، رقم ١٤٨، ص ٥٧.

(٣٢٢) سنن النسائي، ج٣، رقم ١٥٧٦، ص ١٣١.

(٣٢٣) إكمال المعلم، ج٥، رقم ١٤٨٣، ص ٦٢، وبلفظه أخرجه أحمد بإسناد صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٤٣٨١، ص ٤٥٠ – ٤٥١، ومثله: ابن ماجه، وهو صحيح الإسناد، صحيح سنن ابن ماجه، ج٢، رقم ١٦٦٧، ص ١٧٥ – ١٧٦.

(٣٢٤) سنن النسائي،ج ٦، رقم ٣٥٥٠، ص ١٥١.

(٣٢٥) إكمال المعلم، ج ٥، رقم ١٥٥٢، ص ٢١٤ – ٢١٧.

(٣٢٦) طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٤١٤ ط دار الفكر.

وفي طبقات ابن سعد كان مُوَرِّق ربما دخل على بعض إخوانه فيضع عندهم الدراهم، فيقول: أمسكوها حتى أعود إليكم، فإذا خرج قال: أنتم منها في حِلٍّ.

وعن حماد بن زيد عن جميل بن مرة، قال: كان مورق يجيئنا إلى أهلنا بالبصرة – بالصرة، فيقول: أمسكوا لنا هذه عندكم، فإذا احتجتم إليها فأنفقوها، فيكون آخر عهده بها، وفيه: كان مورق العجلي يتجر فيصيب المال، فلا تأتي عليه جمعة وعنده منه شيء، قال: وكان يلقى الأخ له فيعطيه أربعمائة، خمسمائة، ثلاثمائة، فيقول: ضعها لنا عندك حتى نحتاج إليها، قال: ثم يلقاه بعد ذلك، فيقول: شأنك بها، ويقول الآخر: لا حاجة لنا فيها، قال: فيقول: أما والله ما نحن بآخذيها أبدا، شأنك بها(٣٢٧).

ويقول ابن القيم: «وشاهدت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- إذا خرج إلى الجمعة يأخذ ما وجد في البيت من خبز أو غيره، فيتصدق به- في طريقه – سرا، وسمعته يقول: إذا كان الله قد أمرنا بالصدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ، فالصدقة بين يدي مناجاته تعالى أفضل وأولى بالفضيلة»(٣٢٨).

والنماذج العملية للتصدق عديدة جدا. نختم هذا المبحث بقول رسول الله ﷺ: «**الله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه..**» (٣٢٩).

و- نخلص من هذا المبحث إلى أن من الخصال الموجبة للظلال: التصدق الخفي، وهو نابع من تربية القلب السخي، المتخلص من الشح، وتربية هذا القلب تنبني على تربية الإيمان بالله، والجزاء في الآخرة، وعلى إكساب المسلم والمسلمة تصورات صحيحة من الإنفاق ووجوهه، كما يحدده القرآن، والحديث

---

(٣٢٧) طبقات ابن سعد، ج ٥، ص ٢٥٥.

(٣٢٨) ابن القيم: زاد المعاد، ج ١، ص ٣٩٥.

(٣٢٩) مسلم، صحيحه، ج٤، رقم ٢٦٩٩، ص ٢٠٧٤.

الصحيح، وكما طبقه الرسول وصحابته، وذلك من خلال دراسة الخطاب القرآني عن الإنفاق، والخطاب النبوي عنه، وتأمله، والتفكر فيه، كما تتطلب هذه التربية بناء إرادة التصدق، والرغبة فيه، والمحبة له، وسبيل ذلك هذا الخطاب، ويوقن به.. وما عليه إلا أن يشرع بالإنفاق ولو بنصف تمرة.

المهم أن يبدأ، وسوف يعطيه الله الخير، فالخير عادة، فتعودوا الخير ما استطعتم.

فتربية القلب السخي هدف من أهداف تربية القلب، للمسلمين والمسلمات.

والحركة الإسلامية اليوم مطالبة بإكساب المنتمين إليها في كل فصائلها قيمة السخاء والإنفاق في وجوه الخير.. وأن توجه الإنفاق نحو الأولويات الأساسية للإنفاق، حسبما تحددها الشريعة، ومعطيات وظروف الواقع الاجتماعي.

إن عمل دورة تربوية لدراسة هذا المبحث وممارسة الإنفاق بعدها، أو في أثنائها، هو مشروع تربوي فعال لاكتساب هذه القيمة.

من الضروري إنشاء ثقافة تصدق وإنفاق، من خلال التعود على الإنفاق، والمواعظ، والدروس، وقيام جمعيات خيرية بجمع التبرعات والصدقات، وتوزيعها في أفضل أبوابها: ككفالة يتيم، والإنفاق على الأرامل، والمساكين، والعاجزين عن شراء الدواء.. إلخ، وعلى تبليغ الدعوة، وعلى تربية أبناء الحركة الإسلامية.. إلخ.

ثالث عشر: خاتمة واستنتاجات:

١ – درسنا في هذا الفصل سبع قيم توصل إلى ظلال عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله، يشترك فيها – جميعها – الذكور والإناث، ما عدا الإمامة العظمى أو الرئاسة العامة للمسلمين، وهي كلها تنبع من القلب، فالعدل ينبع من

القلب».. إلخ، وهي كلها معاملة مع الله، فمن تحقق بواحدة أو بأكثر من هذه القيم- بصدق- أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ويمكن للمسلم أن يتحقق بها جميعا، فيكون عادلا، عابدا، ناشئا في عبادة الله، متعلقا قلبه بالمساجد، من حبها، خائفا من الله، متجنبا للزنى، باكيا من خشية الله وخوفه، بخشية قلب، ودمعة عين، محبا في الله، سخي القلب متصدقا بصدقة يخفيها لله.

٢- إن هذه القيم السبع تحدد سبعة أهداف لتربية القلب، وقد بينا كيف نكتسبها ونكسبها لكل مسلم ومسلمة.

وهي تفرض علينا إعادة النظر في برامجنا التربوية في الأسرة، والحركة، من أجل اتخاذ اللازم التربوي لإكسابها لكل أبنائنا وبناتنا، في بيوتنا وحركاتنا، لنتحقق فعلا بهذه القيم.

٣- إن تأمل هذه القيم يعطينا تصورا من الوجهة التربوية للإسلام، إنها المذهب التربوي الحق الذي يخرج الإنسان العادل، العابد لله، الخائف منه، المحب في الله، المتعلق بذكر الله، وبالمسجد، والمنفق.. إلخ.

إنها شخصية ذات أبعاد حركية متعددة ومتكاملة وفاعلة في المجتمع، ومحبة لله، وفي الله، وذاكرة لله سبحانه.. إلخ.

فهذا هو النمط الإنساني الذي تتغياه تربيتنا الإسلامية.

وإذا ضممنا هذا إلى جميع ما ذكرناه في الفصول السابقة، يتبين لنا روعة وكمال التربية الإسلامية، وجميل وشمول قيمها وأهدافها..ولا يبقى إلا أن تمارس هذه التربية فعلا.

رابع عشر: أسئلة وأنشطة لمزيد من الفهم والتعميق:

١- استخرج من هذا الفصل سبع قيم لتربية القلب، وحدد في ضوئها منظومة أهداف تربية القلب، الخاصة بهذا الفصل.

٢- قم بعمل قائمة محاسبة للذات: هل تتحقق فيك هذه القيم وهذه الأهداف أم لا؟ وبأية درجة؟

٣- وضح الصلة بين هذه القيم السبع وبين القلب.

٤- ما ثواب من عمل بكل قيمة من هذه القيم؟

٥- كم حديثا ورد فيه لفظ القلب، أو مشتقاته في هذا الفصل؟ قم بحفظها.

٦- وضح وجهة التربية الإسلامية في ضوء هذا الفصل؟ ما نمط وما جوانب تربية الشخصية المسلمة في ضوء ذلك؟

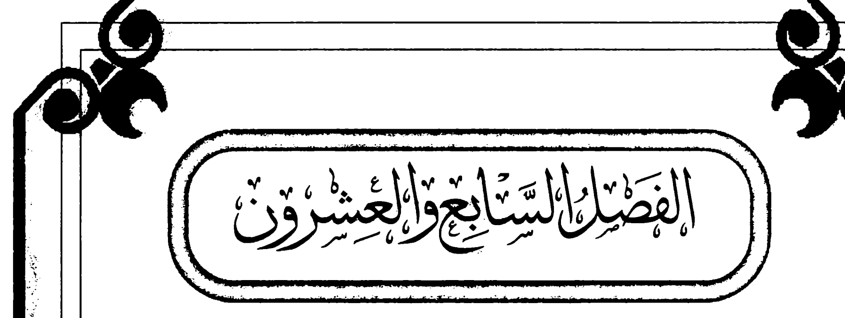
٧- وضح جوانب المشروع التربوي لكل قيمة من القيم السبع: العدل- النشأة في عبادة الله- تعلق القلب بالمساجد- الخوف من الله وترك الزنى- الخشية من الله وبكاء العين- الحب في الله- سخاء القلب واليد بالتصدق.. بمعنى: كيف نربي هذه القيم؟ في أنفسنا، وفيمن ندعوهم ونربيهم؟

٨- قم بإعداد سبعة دروس أو خطب، أو مقالات، ونفذها، أو أعطها لبعض الدعاة لينفذوها.

٩- طلب منك إعداد ٧ دورات تربوية، أو ليالي ربانية - لاكتساب هذه القيم، بالتتالي: حدد أهداف كل دورة ومحتواها: في آيات القرآن، والأحاديث وآثار السلف، والتطبيقات العملية، وجدول المحاسبة الخاص بكل دورة.

١٠- كم حديثا نبويا صحيحا استشهد به المؤلف في هذا الفصل؟

١١- ما رأيك في منهج كتابة الفصل؟ هل يمكن كتابته بطريقة أخرى؟ ما هي؟



تربية القلب المؤمن الموجه لمكارم الأخلاق الاجتماعية

تربية القلب المؤمن
الموجه لمكارم الأخلاق الاجتماعية

أولا: نص الحديث النبوي:

أخرج الأمام أحمد عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من يتبع عوراتهم؛ يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**»(١). ورواه بإسناد فيه مجهول عن رجل من أهل البصرة عن أبي برزة الأسلمي قال: نادى رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق، فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورة أخيه؛ يتبع الله عورته حتى يفضحه في بيته**»(٢). ورواه أبو داود عنه مثله، وفيه: «**فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته..**»(٣).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت عنه بلفظ: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن بقلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين ولا عثراتهم، فإن من يتبع عثرات المسلمين يتبع الله عثرته، ومن يتبع الله عثرته، يفضحه وإن كان في بيته**»(٤). وأخرجه في ذم الغيبة والنميمة، مثله(٥).

وأخرجه الطبري اللالكائي عنه، وفيه: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم**

---

(١) قال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج ١٥، رقم ١٩٦٦٤، ص ٣٢، ٣٣.

(٢) إسناده ضعيف، والحديث يشهد له شواهد، المسند، ج ١٥، رقم ١٩٦٨٩ – ص ٤١، وانظر ما يلي.

(٣) سنن أبي داود، ج ٤، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم ٤٨٨٠، ص ٢٩٢ وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، رقم ٧٩٨٤، ص ١٣٢٢، ١٣٢٣ مع اختلاف في بعض الألفاظ سنثبتها فوق.

(٤) قال محققه- بعد ما عزاه للهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات. ابن أبي الدنيا: الصمت، وحفظ اللسان، تحقيق د.محمد أحمد عاشور، دار الاعتصام، ١٩٨٦م، رقم ١٦٨، ص ١٠٥.

(٥) قال محققه (نجم خلف): إسناده حسن. ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة والنميمة، تحقيق وتعليق د: نجم عبد الرحمن خلف، ط١، دار الاعتصام، حديث رقم ٢٩، ص ١١٠.

يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين..»(٦).

وأخرجه الخرائطي عنه، وفيه: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته**»(٧).

ب- أخرج الترمذي عن نافع عن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوت رفيع قال: «**يا معشر من قد أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**» قال: ونظر ابن عمر يوما إلى البيت أو إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب..(٨).

جـ- وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وهذا لفظ الأول.. عن أبي إسحاق (هو السبيعي) عن البراء ﷺ، قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها، (وعند أبي يعلى: أو قال: في خدورها) فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين.. ومن يتبع الله عورته يفضحه وهو في جوف بيته**»(٩).

---

(٦) اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج١، دار البصيرة، الإسكندرية، رقم ١٤٩٨، وهو حديث حسن بشواهده، ص ٧١٤.

(٧) قالت محققته: إسناده حسن، قال ابن حجر: سعيد بن عبد الله بن جريج صدوق، ربما وهم. انظر: الخرائطي: مكارم الأخلاق ومعاليها، ومحمود طرائقها ومرضيها، تحقيق ودراسة الدكتورة سعاد سليمان إدريس الخندقاوي: ج٢، رقم ٤٩٣، ص ٤٨٥، ٤٨٦.

(٨) وقال الألباني: صحيح، انظر: سنن الترمذي، ج ٣، رقم ٢٠٣٩، ص ٤١٦، وصحيح الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٧٩٨٥ بلفظ «**ولم يدخل الإيمان في قلبه..**» مثله، ص ١٣٢٣.

(٩) ابن أبي الدنيا: الصمت وحفظ اللسان، رقم ١٦٧، ص ١٠٥. ورواية أبي يعلى عند ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢١٤، وصحيح الألباني رواية البراء، صحيح الجامع، ج ٢، رقم ٧٩٨٤، ص ١٣٢٢، ١٣٢٣.

ورواه في ذم الغيبة عن البراء مثله، وفيه: «**ولا تتبعوا عثراتهم..**»[(١٠)].

د- وأخرج الطبراني عن عطاء عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة أسمع العواتق في خدورهن، فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تؤذوا المؤمنين، ولا تتبعوا عوراتهم**»[(١١)].. الحديث.

هـ- وأخرج عبد الرزاق في الجامع عن إبان وغيره، أن النبي ﷺ قام بعد صلاة العصر فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن، قال: «**يا معشر من أعطى الإسلام بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تؤذوا المؤمنين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورات المؤمنين، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته**»[(١٢)].

ثانيا:

هذا الحديث برواياته يقرر أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وإذا دخل القلب فإن الإنسان يتصف بأخلاقه وإذا لم يدخل القلب، ولم يترب فيه، فإن الإنسان ينفلت ويرتكب قبائح سلوكية.

فهذا الحديث يذكر بعض النتائج الخلقية السلوكية القبيحة لعدم تربية الإيمان في القلب، فلأن الإيمان يدخل قلوب هؤلاء المعشر الذين تحدث عنهم الرسول ﷺ في هذا النص، فإنه لم يكن لهم من أنفسهم داع يدعوهم إلى التزام مكارم الأخلاق، وموالاة المسلمين، فارتكبوا جملة منكرة من الأخلاق، دعت النبي ﷺ إلى أن يصعد المنبر، ويعلي صوته، حتى أسمع الفتيات في خدورهن في داخل بيوتهن؛ لأن هؤلاء متدينون من اللسان، دون القلب، ففعلوا سيئ

---

(١٠) قال نجم: إسناده حسن، ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة والنميمة، رقم ٢٨، ص ١٠٩، وانظر تخريجه هناك.

(١١) قال محققه حمدي عبد المجيد السلفي: قال في المجمع (٨/ ١٤): رجاله ثقات، وانظر ما بعده، لكنه صح من حديث أبي برزة الأسلمي والبراء، وابن عمر والطبراني: المعجم الكبير، ج١١، رقم ١١٤٤٤، ص ١٤٩

(١٢) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، كتاب الجامع، ج١١، رقم ٢٠٢٥١، ص ١٧٦ وهو مرسل.

الأخلاق ومذمومها، فهم يغتابون، المسلمين، يتتبعون عوراتهم، وعثراتهم، يؤذون المسلمين، ويعيرونهم.

هذه السلوكيات القبيحة نتجت بسبب خلو قلوبهم من الإيمان، من واعظ الله في القلب المؤمن، «**لم يؤمن قلبه، لم يدخل الإيمان في قلبه، لم يُفْضِ الإيمان إلى قلوبهم..**».

فالأصل في تربية واكتساب الأخلاق الحسنة، الأصل في التربية الخلقية والاجتماعية السليمة- هو تربية الإيمان في القلب، لأن الإيمان واعظ، داع، إلى التزام محاسن الأخلاق ومعاليها، فهو بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان، وكذلك الصدق والأمانة، وسلامة الصدر للمسلمين، ومحبتهم، ونصرتهم، والدفاع عنهم، والذب عن أعراضهم، وعدم إيذائهم، واجتناب غيبتهم، والتجسس عليهم.. كل هذه شعب للإيمان يأمر بها المؤمنين من داخل قلوبهم، ويرغبهم في فعلها، ويحذرهم من تركها.

فتربية الإيمان الحق- في القلب- هو أنجع أسلوب لتربية الأخلاق الحسنة، على المستوى الفردي والاجتماعي، فالتزام المسلم بهذه الأخلاق مع الآخرين يتجذر في إيمانه بالله وباليوم الآخر، إيمانا آمرا ناهيا، فعالا، يشكل واعظ الله في القلب، فإذا قوي الواعظ الواعي الداعي المرشد الموجه- الجواني- ألزم اللسان والأيدي وباقي الجوارح بأخلاق الإيمان- ولابد.

ولهذا يحذر النبي ﷺ من الإيمان الشكلاني، الذي يكون ألفاظا على اللسان، ولا يجاوز الحنجرة أو الترقوة، فلا يسكن القلب، ولا يرتفع إلى الله، إنه إيمان لفظي على طرف اللسان، وليس مغروسا في القلب مستمكنا فيه.. كشأن هذا الذي يحذر منه النبي ﷺ في هذا الحديث، ورفع صوته في المسجد حتى أسمع العواتق في ستورهن وبيوتهن: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن**

قلبه.. إلخ»، وكشأن الخوارج- كما بينا سابقا: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم – يقولون من خير قول البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم**» (البخاري ومسلم). «**لا يجاوز إيمانهم حناجرهم..**» (البخاري). «**يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم، وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم..**» (رواه مسلم). «**يقولون الحق بألسنتهم، لا يجوز هذا منهم** (وأشار إلى حلقه) **من أبغض خلق الله إليه..**» (رواه مسلم).

فقراءتهم في الحنجرة واللسان، وليست من القلب، ولا تنزل إلى قلوبهم، فهي فارغة من الإيمان، لم يفض إليها، ولم يدخل فيها الإيمان، وكذلك دعوتهم، وصلاتهم، وقولهم.. هو مجرد إيمان على اللسان، نتج من ذلك التناقض ما نتج وهو سلوكهم الوحشي البشع المتدثر بإسلام شكلي، ولذلك كانوا «كلاب النار» لأنهم كانوا كالكلاب على عباد الله المسلمين في الدنيا، يعضونهم وينبحون عليهم، فيؤذونهم، ويغتابونهم، ويتتبعون عثراتهم.. إلخ.

وهذه هي مصيبة التدين المغشوش، تدين بلا قلب مؤمن، وبلا ضمير مسلم.

إن هذه الأحاديث الثابتة ينبغي أن تحذرنا من خطورة إغفال تربية الإيمان في القلب.

ثالثا:

ولماذا كانت هذه السلوكيات الوقحة (الاغتياب للمؤمنين المسلمين- التجسس وتتبع العورات والعثرات، إيذاء المسلمين- تعييرهم وعدم الستر عليهم) دليلا على أن الإيمان لم يفض إلى قلوبهم، أي: لم يدخلها؟

والإجابة: أن الإيمان الحق، هو التصديق بوحي الله تصديقا جازما مستلزما للخضوع والإذعان والانقياد لما أمر: فعلا وتركا، ومما يستلزم

الخضوع له والانقياد له، والعمل به: عقيدة الموالاة للمسلمين، أي: حب المسلم وإبطان الأخوة له، ونصرته، ومظاهرته، ومعاونته، وتأييده، وربط المصير به، ورحمته، والرقة عليه، وكف الأذى عنه، والسلام عليه، وسلامة الصدر له، والذَّب (الدفاع) عن عرضه.. إلخ حقوق الموالاة والمؤاخاة في الله.

هذه الموالاة هي أوثق عرى الإيمان، ولن يجد عبد مسلم طعم الإيمان حتى يحب المسلمين في الله، وينصرهم ويدافع عنهم في حضورهم وغيبتهم، وحتى يبغض في الله، ويوالي في الله، ويعادي في الله، فإن ولاية الله لا تنال إلا بهذا.

فتحقق هذه الموالاة دليل على وجود الإيمان في القلب، وانتفاء هذه الموالاة دليل أن الإيمان لم يدخل القلب..فالظاهر عنوان الباطن.

هذه حقيقة عقدية قررها الله ورسوله، وقد تناولناها مرتين في هذا الكتاب، قال الله- تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦] ومن رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسْلِمه..**» (...). وفي الصحيح: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**». وفي الصحيح أيضًا: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا**» وشبك بين أصابعه ﷺ(١٣).

---

(١٣) رواه البخاري، فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠٢٦، ص ٤٥٠.

وقال أحمد: (وساق السند إلى أبي حازم) قال: سمعت سهيل بن سعد الساعدي ﷺ يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «**إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس**» تفرد به أحمد، ولا بأس بإسناده(١٤)(١٥).

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال: «المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيبا أصلحه»(١٦).

ورواه عنه عن النبي ﷺ قال: «**المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن: يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه**»(١٧).

هذه الموالاة شرط من شروط الإيمان، ومقوم من مقومات العبادة، فمن لم يتخلق بها، فإن هذا دليل على خلو قلبه من الإيمان، ولأنه كذلك فإن هذا الشكلاني البرانى لا يعبأ بغيبة المسلم، ولا يعبأ بتتبع عوراته، وعثراته، ولا يعبأ بإيذائه بالقول والفعل، ولا يعبأ بتعييره، فبئس ما يأمره قلبه.

وعلاج هذا الانعواج الخلقي الاجتماعي هو تربية مقومات الإيمان والعبادة في قلب كل مسلم، ومنها: مقوم الموالاة (١٨).

رابعا:

ولماذا حمل النبي ﷺ على هذه الأخلاق الاجتماعية السيئة، وحذر منها، حتى العواتق في البيوت؟

---

(١٤) قلت: لم يتفرد به أحمد، فقد رواه ابن المبارك في الزهد، رقم ٦٩٣، ص ٢٤١، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٦، رقم ٥٧٤٣، ص ١٣١، وقال الألباني: حسن، في صحيح الجامع، وفي السلسلة الصحيحة، وقال الهيثمي: في المجمع: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(١٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٢١١، ٢١٢.

(١٦) قال الألباني: حسن الإسناد، الأدب المفرد، رقم ٢٣٨، ص ٩٠.

(١٧) قال الألباني: حسن، الأدب المفرد، رقم ٢٣٩، ص ٩٠ ورواه أبو داود.

(١٨) انظر فصل: تربية الإيمان وتجديده في القلب، وفصل: تربية القلب المتعلق بالمساجد، من هذا الكتاب.

والإجابة هي: أن النبي ﷺ يريد بناء مجتمع إسلامي متماسك متضامن، متآخ، يطبق الإسلام عمليا، ويوالي بعضه بعضا، على ذلك، وتحترم فيه كرامات الناس وشخصياتهم المادية والمعنوية، وأسرارهم، ويأمن فيه الإنسان على شخصه، وعرضه، وماله، ودمه.

وهذا الذي حذر منه النبي ﷺ هو اغتيال معنوي لشخصية الإنسان: فالغيبة: تشهير، وتحقير وتشويه للإنسان الذي تمارس ضده الغيبة وتتبع العثرات.. إنها (وأد) معنوي لشخصية المسلم، وانتهاك لحرمته، وهي هدم في الكيان الاجتماعي، الذي يجب أن يكون متماسكا ومتآلفا، ومتآخيا، ولكن هذا الذي يغتاب: يشوه الأفراد في المجتمع، وينشر العثرات، ويوقع الكراهية في القلوب، مما يؤدي إلى التباغض، فإذا وقعت البغضاء في القلوب؛ بدأ الكيان الاجتماعي المتماسك فيها.. وبالتالي فإن هدفا كبيرا من أهداف الإسلام منها وكذلك.

ومن هنا حذر النبي ﷺ تحذيرا شديدا - مؤسسا على الحقائق- فصعد المنبر ورفع صوته، وخطب حتى أسمع العواتق في بيوتها، (العواتق؛ جمع عاتق، وهي الفتاة التي بلغت) وذلك لأن التماسك والمؤاخاة، مقوم أساسي للمجتمع المسلم الذي يشارك في بنائه الرجال والنساء، ومن هنا أسمع العواتق في بيوتها، حتى يكون مجتمع النساء نظيفا، كمجتمع الرجال في المجتمع الإسلامي المتماسك المتآخي النظيف.

إن هذا هدف تربوي يتطلب السعي بعد الوعي، والتأسيس بعد التدريس، والممارسة بعد المدارسة.

خامسا:

إن النبي ﷺ جعل ممارسة هذه الأخلاق الاجتماعية السيئة دليلا على خلو القلب من الإيمان، أي: أن الممارس لهذه القبائح الاجتماعية يمارس تدينا منقوصا، لفظيا، برانيا، على اللسان، وليس تدينا متحققا في قلبه، فائضا منه

على الجوارح، ومن هنا قال: «**ولم يؤمن قلبه- ولم يؤمن بقلبه- يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه..**».

وهذه التعبيرات تعطينا مفتاح الخروج من نفق الغيبة والإيذاء، وتتبع العثرات والعورات.. واستئصال (داء الأمم- البغضاء..).. إنه- بكلمة- تربية الإيمان في القلب.

سادسا: التحذيرات التي حذر منها ونهى عنها الرسول ﷺ في هذا الحديث:

أ- لا تغتابوا المسلمين:

مفهوم الغيبة:

١- يقول الراغب: «والغِيبة: أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب، من غير أن أُحْوِجَ إلى ذكره»(١٩).

ويقول ابن منظور: «والغَيْبَة: من الغيبوبة، والغِيبة: من الاغتياب».

واغتاب الرجل صاحبه اغتيابا؛ إذا وقع فيه، وهو أن يتكلم خلف إنسان مستور، بسوء أو بما يغمه- لو سمعه- وإن كان فيه، فإن كان صدقا فهو غِيبة، وإن كان كذبا فهو البَهْتُ والبهتان، كذلك جاء عن النبي ﷺ، ولا يكون ذلك إلا من ورائه.

والاسم: الغِيبة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]؛ أي: لا يتناول رجلا بظهر الغيب بما يسوءه مما هو فيه، وإذا تناوله بما ليس فيه فهو بهت وبهتان..»(٢٠).

ويقول الحكيم الترمذي: «والغِيبة: أن يذكره بسوء في حال الغيبة؛ حَمِيَّة وتَشَفِيًّا، فذكره لنفسه، لا لله، ولم يرجع بذكره إلى منفعة في دين، إنما أراد بذلك ضرره، والتشفِّي منه، ولم يكن منه إليك ظلم، ولا شيء يريد أن

---

(١٩) الراغب: المفردات، ص ٣٦٧.

(٢٠) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٣٢٣.

يشكوه، أو يتظلم منه، وإنما هي عيوب غيبها عن الخلق وسترها، ولا يحب أن تظهر، فذكرك ذلك، وإظهارك له: اغتياب منك له»[٢١].

ويعرفها أبو حامد بقوله: «اعلم أن حد الغِيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه، لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه، أو نسبه، أو في خلقه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينه، أو في دنياه حتى في ثوبه، وداره، ودابته..»[٢٢].

ثم يبين أن الغيبة لا تقتصر على اللسان، فيقول: «إن الذكر باللسان إنما حَرُم، لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك، وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء، والغمز، والهمز، والكتابة، والحركة، وكل ما يفهم المقصود، فهو داخل في الغيبة، وهو حرام.

فمن ذلك: قول عائشة- رضي الله عنها: دخلت علينا امرأة، فلما ولَّتْ، أومأتُ بيدي أنها قصيرة، فقال عليه السلام: «**اغتبتها**»[٢٣].

ومن ذلك: المحاكاة، كأن يمشى متعارجا، أو كما يمشي، فهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم، ولما رأى النبي ﷺ عائشة حاكت امرأة قال: «**ما يسرني أني حاكيت إنسانا، ولي كذا وكذا**» (رواه أبو داود والترمذي وصححه).

وكذلك الغيبة بالكتابة: فإن القلم أحد اللسانين، وذِكْر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب: غيبة، إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره (...) وأما قوله: قال قوم كذا، فليس ذلك غيبة، إنما الغيبة: التعرض لشخص معين، إما حي، وإما ميت.

---

(٢١) أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٢٠.
(٢٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٣، دار الشعب، ص ١٥٩٩.
(٢٣) رواه أحمد، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، رقم ٢٠٦، ص ١٢١، وأخرجه في ذم الغيبة، رقم ٦٨، وقال محققه نجم خلف: إسناده صحيح لغيره، ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، ص ١٣٣، وأخرجه برقم ٧٣٠ ورجاله رجال الصحيح، ص ١٣٩.

ومن الغيبة: أن تقول: بعض من مر بنا اليوم، أو بعض من رأيناه؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا؛ لأن المحذور: تفهيمه، دون ما به التفهيم، فأما إذا لم يفهم عنه، جاز؛ (...) وقولك: بعض من قدم السفر، أو بعض من يدعي العلم؛ إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص؛ فهي غيبة.

وأخبث أنواع الغيبة: غيبة القراء المرائين؛ فإنهم يُفْهِمون المقصود على صيغة أهل الصلاح، ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة، ويفهمون المقصود، ولا يدرون- بجهلهم- أنهم جمعوا بين فاحشتين؛ الغيبة والرياء، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان، فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلينا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، فنسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده: أن يفهم عيب الغير، فيذكره بصيغة الدعاء..إلخ»[٢٤].

وفي الفتح: «وقال النووي في الأذكار، تبعا للغزالي: ذكر المرء بما يكرهه، سواء كان ذلك في بدن الشخص أو دينه، أو دنياه، أو نفسه، أو خَلْقِه، أو خُلُقِه، أو ماله، أو والده، أو ولده، أو زوجه، أو خادمه، أو قربه، أو حركته، أو طلاقته أو عبوسته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته باللفظ أو بالإشارة، والرمز، قال النووي: وممن يستعمل التعريض في ذلك: كثير من الفقهاء في التصانيف، وغيرها، كقولهم: قال بعض من يدعي العلم، أو بعض من ينسب إلى الصلاح، أو نحو ذلك، مما يفهم السامع المراد به، ومنه قولهم عند ذكره: الله يعافينا، الله يتوب علينا، نسأل الله السلامة، ونحو ذلك، فكل ذلك من الغيبة (...) والأرجح: اختصاصها بالغيبة، مراعاة لاشتقاقها، وبذلك جزم أهل اللغة، (...) وغير واحد من العلماء، من آخرهم الكرماني، قال: الغيبة: أن تتكلم خلف الإنسان، بما يكرهه، لو سمعه، وكان صدقا، قال: وحكم الكناية والإشارة- مع النية- كذلك (...) ونقل أبو عبد الله

---

(٢٤) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص ١٦٠١، ١٦٠٢، ويرجع للباب كله فإنه نفيس.

القرطبي في تفسيره الإجماع على أنها من الكبائر، لأن حد الكبيرة صادق عليها؛ لأنها مما ثبت الوعيد الشديد فيه»(٢٥).

٢- وهنا نذكر تعريف النبي ﷺ للغيبة:

أخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ **قال:** «**إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَـهَتَّهُ**»(٢٦).

وبَـهَتَّهُ: قلت فيه البُهْتان، وهو الباطل، قال القاضي عياض: ويفسره الحديث الآخر: «**وإن قلت باطلا فذلك البهتان**» (مالك في الموطأ)(...) وبَـهَتَهُ بَـهْتًا وبُـهْتَانًا: قذفه.

«الاغتياب: محرم، وأصله: ذكر الإنسان بما يسوؤه في غيبته، والبَهْت: في وجهه، وكلاهما مذموم كان بحق أو باطل، إلا أن يكون لوجه شرعي، أن يقول له ذلك في وجهه على طريق الوعظ والنصيحة»(٢٧).

وأخرج مالك في الموطأ: أن رجلا سأل رسول الله ﷺ ما الغيبة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع**» قال: يا رسول الله، وإن كان حقا؟ قال رسول الله ﷺ: «**إذا قلت باطلا فذلك البهتان**»(٢٨).

وأخرجه ابن المبارك في الزهد عن طريق مالك، وفيه: «**وإن كان حقا فهو**

---

(٢٥) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٦٩، ٤٧٠، وانظر: الكبيرة الثامنة والأربعين من كتاب ابن حجر الهيتمي: الزواجر، ج ٢، ص ١٠ وما بعدها، فإنه مهم.

(٢٦) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٨٩، ص ٦٠.

(٢٧) المصدر السابق، ص٦٠ وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦، ص١٤٢، والحديث المذكور، رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، السنن، ج٣، كتاب البر والصلة، رقم ١٩٤١، ص٣٧٥، ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة بإسناد صحيح، رقم ٧١، ص١٣٧، وانظر تخريجه هناك، ورواه أحمد، والدارمي. ورواه الطبري في التفسير، مجلد ١٣، ج٢٦، ص ١٥٨، رقم ٢٤٥٨١.

(٢٨) مالك بن أنس: الموطأ، ص ٦١٠، ٦١١.

الغيبة، وإن كان باطلا فهو البهتان»[٢٩].

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة عن معاذ بن جبل قال: ذُكر رجل عند النبي ﷺ فقالوا: ما أعجزه! فقال رسول الله ﷺ: «**اغتبتم أخاكم**»، قلنا: يا رسول الله، قلنا ما فيه، قال: «**وإن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه**»[٣٠].

وأخرجه في الصمت، وفيه: «**إن قلتم ما فيه اغتبتموه، وإن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه**»[٣١].

٣- ومن تعريفات بعض الصحابة والتابعين؛ يقول ابن عمر: الغيبة: أن تقول ما فيه، والبهتان: أن تقول ما ليس فيه. وقال عون بن عبد الله: إذا قلت ما في الرجل، وأنت تعلم أنه يكره ذلك، فقد اغتبته، وإذا قلت ما ليس فيه، فقد بهته. وذكر ابن سيرين رجلا، فقال: ذاك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله، إني أراني قد اغتبته[٣٢].

وأخرج الطبري عن الحسن أنه قال في الغيبة: أن تذكر من أخيك ما تعلم فيه من مساوئ أعماله، فإذا ذكرته بما ليس فيه فذلك البهتان.

وأخرج عن ابن مسعود قوله: «**ما التقم أحد لقمة أشر من اغتياب المؤمن، إن قال فيه ما يعلم فقد اغتابه، وإن قال فيه ما لا يعلم فقد بهته**»[٣٣].

ونخلص من ذلك إلى أن الغِيبة تَشَفٍّ وكشف للمستور بقصد إيذاء المسلم.

الغيبة كبيرة محرمة:

١- قررنا سابقا أن الغيبة كبيرة، فهي محرمة قطعا؛ لقول الله- تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ**

---

(٢٩) ابن المبارك: الزهد، رقم ٧٠٤ ص ٢٤٥.

(٣٠) ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، رقم ٧٢، ص ١٣٨ وقال محققه: إسناده حسن.

(٣١) ابن أبي الدنيا: الصمت وحفظ اللسان، رقم ٢٠٥، ص ١٢١، وانظر: رقم ٢٠٨، ص ١٢٢.

(٣٢) هذه الآثار في: ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة والنميمة، أرقام ٧٥، بإسناد صحيح، و ٧٦ ، ورجاله ثقات، و ٧٩ بإسناد حسن لغيره.

(٣٣) رواهما الطبري: جامع البيان، مجلد ١٣، ج ٢٦، ص ١٥٨، ١٥٩.

﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وهي كبيرة لثبوت الوعيد الشديد فيها: قال الطبري: «وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ يقول: ولا يقل بعضكم في بعض- بظهر الغيب- ما يكره القول فيه ذلك أن يقال له في وجهه(...) وقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ يقول- تعالى ذكره- للمؤمنين: أيحب أحدكم أيها القوم، أن يأكل لحم أخيه، ميتا، فإن لم تحبوا ذلك، وكرهتموه؛ لأن الله حرم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته، فاكرهوا غيبته حيا، كما كرهتم لحمه ميتا، فإن الله حرم غيبته حيا، كما حرم أكل لحم ميتا(...) عن ابن عباس: قال: حرم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء، كما حرم الميتة(...) عن قتادة: يقول: كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدودة، أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حي»(٣٤).

وقال ابن كثير: «والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، (...) ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت.. أي: كما تكرهون هذا طبعا، فاكرهوا ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا»(٣٥).

٢- وقد رأينا أن النبي ﷺ جعل اغتياب المسلم علامة على عدم دخول الإيمان في القلب.

٣- والغيبة: انتهاك لعرض الإنسان، وقد أخرج مسلم عن أبي هريرة من حديث رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام: دينه وماله وعرضه**»(٣٦). وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن النبي

---

(٣٤) الطبري: جامع البيان، مجلد ١٣، ج ٢٦، ص ١٥٨- ١٦١.

(٣٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢١٤.

(٣٦) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٦٤، ص ٣١، وأخرجه البخاري، فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٦٣، والترمذي وأحمد وابن أبي الدنيا، انظر: ذم الغيبة له، رقم ٢٣، ص ١٠٥ بإسناد صحيح. وأخرجه أبو داود، السنن، ج ٤، رقم ٤٨٨٢، ص ٢٩٢.

ﷺ قال: «**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يغتب بعضكم بعضا، وكونوا عباد الله إخوانا**»(٣٧).

٤- وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافرهم، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس، ويقعون في أعراضهم**»(٣٨).

٥- وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**الربا سبعون حُوبا: أيسرها كنكاح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم**»(٣٩).

وله شاهد صحيح بلفظ: «**أربى الربا شتم الأعراض**»(٤٠). وأخرجه أبو داود بلفظ: «**إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق**»(٤١).

٦- قال ابن حجر: «وعند أبي يعلى من حديث عائشة، ومن حديث أبي هريرة- رفعه: «**من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب له يوم القيامة، فيقال له: كله ميتًا كما أكلته حيا، فيأكله، ويكلح، ويصيح**» إسناده حسن. وفي الأدب المفرد عن ابن مسعود قال: «**ما التقم أحد لقمة شرا من اغتياب مؤمن**» الحديث، وفيه أيضا، وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة في قصة ماعز، ورجمه في الزنى: وإن رجلا قال لصاحبه: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم يدع نفسه حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب، فقال لهما النبي ﷺ: «**كُلا من جيفة هذا الحمار-**

---

(٣٧) ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، رقم ٢٤، ص ١٠٥، ١٠٦، والحديث بدون قوله: «**ولا يغتب بعضكم بعضا**» رواه البخاري، كتاب الأدب، رقم ٦٠٦٥، ومسلم بكتاب البر والصدق، رقم ٢٥٦٣، إكمال المعلم، ج ٨، ص ٢٨.

(٣٨) ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، رقم ٢٦، ص١٠٧، ١٠٨ ورواه في الصمت، رقم ١٦٥، ص١٠٤، وأورده الألباني في الصحيحة، ج٢، ص٥٩، ٦٠، وأخرج أبو داود، سننه، ج٤، رقم ٤٨٧٨، ص٢٩١.

(٣٩) إسناده صحيح، ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، رقم ٣٤، ص ١١٤.

(٤٠) انظر: الصحيحة، للألباني، ٣/ ٤١٨.

(٤١) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٨٧٦، ص ٢٩١، وانظر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٧٠.

لحمار ميت- فما نلتما من عرض هذا الرجل أشد من أكل هذه الجيفة».

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد بسند حسن، عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ فهاجت ريح منتنة، فقال النبي ﷺ: «**هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين**».

وهذا الوعيد في هذه الأحاديث يدل على أن الغيبة من الكبائر(٤٢).

٧- وأخرج ابن أبي الدنيا عن قيس بن أبي حازم قال: مر عمرو بن العاص على بغل ميت، فقال لأصحابه: «والله لأن يأكل أحدكم من لحم هذا حتى يمتلئ؛ خير له من أن يأكل لحم رجل مسلم»(٤٣).

٨- والغيبة أحد أسباب العذاب في القبر، فهي نوع من النميمة، وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن جابر بن عبد الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فأتى على قبرين، يعذب صاحباهما، فقال: «**فهما لا يعذبان في كبير**» وبكى «**أما أحدهما، فكان يغتاب الناس..**» الحديث. وقال الألباني: صحيح لغيره(٤٤).

قال ابن حجر: «وأخرج أحمد والطبراني بإسناد صحيح عن أبي بكرة قال: مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «**إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير**»، وبكى، وفيه: «**وما يعذبان إلا في الغيبة والبول**».

ولأحمد والطبراني أيضا من حديث يعلى بن شبابة أن النبي ﷺ مر على قبر يعذب صاحبه، فقال: «**إن هذا كان يأكل لحوم الناس..**» الحديث، ورواته موثقون(٤٥).

---

(٤٢) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٧٠ وحديث الريح المنتنة رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، رقم ٣٧، ص ١١٦ وإسناده حسن، بأبسط من هذا، وقال الألباني: حسن، الأدب المفرد رقم ٧٣٢، ص ٢٥٢، وحديث ماعز- هنا- ضعفه الألباني في الأدب المفرد، رقم ٧٣٧، ص ٢٥٤.

(٤٣) ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، رقم ٥٠، ص ١٢٤ ورجال إسناده رجال الصحيح. ورواه البخاري في الأدب المفرد، وقال الألباني: صحيح الإسناد، الأدب المفرد، رقم ٧٣٦، ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٤٤) الأدب المفرد، رقم ٧٣٥ ص ٢٥٣.

(٤٥) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٧٠، ٤٧١.

٩- إن هذا كله يبين أن الغيبة حرام، وسبب للعذاب، قال قتادة: ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من البول، وثلث من النميمة(٤٦).

وهذا الخطاب ينشئ في القلب بغضا لهذا الخلق القبيح، وهو الذي يحرك المسلم للتخلص من اغتياب المسلمين، فدراسة هذا الخطاب ضرورة لتربية المسلم على أخلاق الإيمان والعمل الصالح.

ما يباح من الغيبة:

هذه الغيبة لا يدخل فيها ذكر العيب لغرض شرعي، ومصلحة معتبرة يثبت بالدليل أنها مصلحة.

ومما نص الشرع على أنه ليس من الغيبة:

١- إذا كان زعيما أو قائدا فيه شر، ويخاف شره، فيبين حاله حتى لا يغتر به الناس، فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن أبي الدنيا، عن عروة بن الزبير قال: حدثتني عائشة؛ قالت: استأذن رجل على النبي ﷺ فقال: ائذنوا له؛ فبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة، فلما أن دخل؛ ألان له القول: فلما خرج قلنا: قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول؟ قال: «**أي عائشة، شر الناس منزلة عند الله عز وجل يوم القيامة، من وَدَعَهُ، أو، تركه الناس اتقاء شره**» هذا لفظ ابن أبي الدنيا(٤٧).

وفي رواية البخاري: «**بئس أخو العشيرة، أو ابن العشيرة**» وفيه: «**إن شر الناس من تركه الناس**- أو ودعه الناس- **اتقاء فحشه**»(٤٨).

قال المازري: «فيه: إنه لا غيبة فيمن جاهر بفسقه، ولا كافر، ولا أمير

---

(٤٦) رجال إسناده رجال الصحيح، ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، رقم ٥٢، ص ١٢٥.

(٤٧) ذم الغيبة، رقم ٨١، ص ١٤٥، بإسناد صحيح.

(٤٨) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠٥٤، ص ٤٧١ وروى مثله، أيضا رقم ٦١٣١، ص ٥٢٨. والحديث رواه مسلم: باب مداراة من يتقى فحشه، إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٩١، ص ٦٢.

جائر، ولا صاحب بدعة(...) وحديثه: أصل في المداراة، وغيبة أهل الفسوق والكفار وأهل البدع والمجاهرة»(٤٩). وهذا الرجل هو عيينة بن حصن. وقال النووي: «وفي هذا الحديث: مداراة من يتقى فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه»(٥٠).

٢- أن يكون فاجرا معلنا بالمعاصي، أو مبتدعا ضالا، واعيا لبدعته، فتذكر عيوبه للناس حتى يعرفوه ويحذروه، ولا يزاد على ذلك، قال زيد بن أسلم: إنما الغيبة لمن لم يعلن بالمعاصي(٥١). أي: هذا هو الذي تكون غيبته حراما، وقال إبراهيم التيمي: «ثلاث كانوا لا يعدونهن من الغيبة، الإمام الجائر، والمبتدع، والفاسق المجاهر بفسقه»(٥٢).

وقال الحسن: «ليس لمبتدع غيبة»(٥٣). وقال الصلت بن طريف: «قلت للحسن: الرجل الفاجر، المعلن بفجوره، ذكري بما فيه: غيبة؟ قال: لا، ولا كرامة»(٥٤).

٣- أن يكون ذكر العيب لا يراد به شَيْنُ الرجل، أي: عيبه، وتحقيره، مثل لقب الأعرج، والأعمش، وذلك إن تعين طريقا للتعريف به(٥٥).

٤- أن يكون ذكر العيب مقصودا به الاستفتاء، ومعرفة الحكم الشرعي في مسألة، أو يذكر نصحًا، ولا يقوم النصح إلا بذكر هذا العيب.

أخرج مسلم (١٤٨٠/ ٣٦) وغيره عن فاطمة بنت قيس قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أبا جهم ومعاوية خطباني، فقال رسول الله ﷺ:

---

(٤٩) إكمال المعلم، ج ٨، ص ٦٢، ٦٣.

(٥٠) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦، ص ١١٤.

(٥١) ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، رقم ٨٤، ص ١٤٧، بإسناد صحيح.

(٥٢) السابق، بإسناد حسن، رقم ٨٥، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٥٣) السابق، رقم ٨٧، ص ١٤٨، ورجال إسناده ثقات.

(٥٤) السابق، رقم ٩٤، ص ١٥١، ١٥٢ بإسناد حسن.

(٥٥) فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٦٨.

«أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه»، وفي رواية لمسلم (١٤٨٠/ ٤٧): **«وأما أبو الجهم فرجل ضرّاب للنساء»**.

وأخرج ابن حبان (١٣/ ٧٦) والحاكم (٤/ ١٨٤) وصححه، من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة، وكثرة صلاحها وصومها، ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: **«هي في النار»**.

فالعيب في هذين الحديثين ذُكِر للحاجة إلى تعرُّف الحكم الشرعي، أو النصح، وليس غرضه التنقيص.

جاء في الفتح: «تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعا حيث يتعين طريقا إلى الوصول إليه بها: كالتظلم؛ والاستعانة على تغيير المنكر، والاستفتاء، والمحاكمة، والتحذير من الشر، ويدخل فيه تجريح الرواة، والشهود، وإعلام من له ولاية عامة بسيرة من هو تحت يده، وجواب الاستشارة في نكاح أو عقد من العقود، وكذا من رأى متفقها يتردد إلى مبتدع أو فاسق، ويخاف عليه الاقتداء به، وممن تجوز غيبتهم: من يتجاهر بالفسق أو الظلم أو البدعة»(٥٦).

ويعطي النووي بيانا أكثر تفصيلا، يقول: «تباح الغيبة لغرض شرعي؛ وذلك لستة أسباب:

أحدها: التظلم: فيجوز للمظلوم، أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان، أو فعل بي كذا.

الثاني: الاستغاثة (لعلها الاستعانة) على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب: فيقول لمن يرجو قدرته: فلان يعمل كذا فازجره عنه، ونحو ذلك.

الثالث: الاستفتاء: بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان، أو أبي، أو أخي، أو

---

(٥٦) فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٧٢.

زوجي بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، ودفع ظلمه عني، ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة(...) لحديث هند وقولها: إن أبا سفيان رجل شحيح.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر: وذلك من وجوه:

منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود، والمصنفين، وذلك جائز بالإجماع، بل واجب؛ صونًا لتشريعه، ومنها: الإخبار بعيبه عند المشاورة في مواصلته، ومنها: إذا رأيت من يشتري شيئا معيبا(...) أو نحو ذلك، تذكره للمشتري إذا لم يعلمه، نصيحة، لا بقصد الإيذاء والإفساد، ومنها: إذا رأيت متفقها يتردد إلى فاسق أو مبتدع، يأخذ عنه علما، وخفت عليه ضرره، فعليك نصيحته ببيان حاله، قاصدا النصيحة، ومنها: أن يكون له ولاية، لا يقوم بها على وجهها لعدم أهليته، أو لفسقه، فيذكره لمن له عليه ولاية، ليستدل به على حاله، فلا يغتر به، ويلزم الاستقامة، كالخمر (...) وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره.

الخامس: أن يكون مجاهرا بفسقه أو بدعته، بما يجاهر به، ولا يجوز بغيره، إلا بسبب آخر.

السادس: التعريف: فإذا كان معروفا بلقب كالأعمش والأعرج(...) ونحوها؛ جاز تعريفه به، ويحرم ذكره به؛ تنقصا، ولو أمكن التعريف بغيره؛ كان أولى، والله أعلم»[٥٧].

وواجب المسلم إذا انتهك عرض مسلم بالغيبة، وهو شاهد: أن يدافع عن عرض أخيه، ويرد عنه العيب، وقد أخرج ابن أبي الدنيا ما يأتي في باب ذب (دفاع) المسلم عن عرض أخيه[٥٨]:

---

(٥٧) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦، ط المصرية، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٥٨) ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، أرقام ١٠٢ – ١١٤، ص ١٥٧، ١٦٥.

١- عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «**من رد عن عرض أخيه كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة**» (أحمد: ٦/ ٤٤٩) وإسناده حسن، ورواه بلفظ: «**من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**» (الترمذي: ١٩٣١) وإسناده حسن.

٢- قال رسول الله ﷺ: «**ما من امرئ خذل امرأ مسلما في موطن تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله- عز وجل- في موطن يجب فيه نصرته، وما من مسلم ينصر امرأ مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه وتنتهك فيه حرمته؛ إلا نصره الله في موطن يجب فيه نصرته**» إسناده حسن. (رواه أبو داود: ٤٨٨٤).

٣- قال طارق بن شهاب: كان بين سعد وخالد كلام؛ فذهب رجل يقع في خالد، عند سعد، فقال: مه، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا. إسناده صحيح.

٤- عن حزم قال: كان ميمون بن سياه لا يغتاب، ولا يدع أحدا يغتاب، ينهاه، فإذا انتهى وإلا قام. إسناده صحيح.

وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد: عن ابن مسعود يقول: «من اغتيب عنده مؤمن فنصره، جزاه الله بها خيرا في الدنيا والآخرة، ومن اغتيب عنده مؤمن فلم ينصره؛ جزاه الله بها في الدنيا والآخرة شرا، وما التقم أحد لقمة شرا من اغتياب مؤمن، إن قال فيه ما يعلم، فقد اغتابه، وإن قال فيه بما لا يعلم؛ فقد بهته»(٥٩). وفي طبقات ابن سعد: «عن سعيد بن جبير أنه كان لا يدع أحدًا يغتاب عنده أحدًا، يقول: إن أردت ذلك، ففي وجهه»(٦٠).

كيف نربي قلوبنا وألسنتنا على ترك الغيبة؟

إن تربية المسلم خلقيا ليتجنب الغيبة، هي هدف تربوي واجب،

---

(٥٩) قال الألباني: صحيح الإسناد، الأدب المفرد، رقم ٧٣٤، ص ٢٥٣.

(٦٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ١٥.

وملزم..وهذه صيغة تربوية مختصرة:

١- من الضروري أن يتصور المسلم مفهوم الغيبة، وصورها، وإثمها، وما ليس منها تصورا صحيحا، ودقيقا بحيث يحدد في وعيه مفهومها وحرمتها، وصورها، وآثامها، وما ليس منها، والأدلة القرآنية والنبوية، على ذلك كله، ويتصور الآثار الاجتماعية لها، وعلاقتها بالإيمان، بالله، وبعقيدة الموالاة في الله، وبقيمة التماسك الاجتماعي التي هي خاصة الجماعة المسلمة.

واكتساب هذا التصور يلزم له مدارسة دقيقة لكل العناصر السابقة، بالرجوع إلى آيات القرآن، وإلى الحديث النبوي، وكتب علماء التربية المسلمين في هذا الخلق، لتحصيل العلم والوعي والإدراك الدقيق له، وذلك بدراسة كتاب ذم الغيبة، وكتاب الصمت وحفظ اللسان لابن أبي الدنيا، والآفة الخامسة عشرة (الغيبة) من كتاب آفات اللسان في ربع المهلكات من إحياء علوم الدين، وكبيرة الغيبة من الزواجر عن اقتراف الكبائر، وأبواب الغيبة من كتب الحديث (كتاب الأدب من صحيح البخاري- مثلا- وأبواب الترهيب من الغيبة في المنتقى من الترغيب والترهيب.. إلخ) .

إن اكتساب العلم بهذه العناصر، ضروري لمنع القلب، واللسان عن الغيبة.

٢- أن يبغض المسلم الغيبة، بقلبه، بصدق، وذلك بأن يشعر قلبه أن الله يكرهها، وأنها منافية للإيمان، وأنها سبب للتفكك الاجتماعي، وإلقاء البغضاء في القلوب، وانتهاك لحرمة المسلم، واغتيال لشخصيته من وراء ظهره، وسبب لعذاب القبر، وسبب لدخول النار، وإنها حرام حرمه الله ورسوله.

وأنها تعرضه لسخط الله، ولتغطية قلبه بحجاب الران، وأنها مثل أكل لحم أخيه ميتا، وسبب لأن يأخذ الله من حسناته ويعطيها للذي وقعت عليه الغيبة.

فإذا درس المسلم ذلك، وآمن، وصدق، وخضع فإنه سيبغض الغيبة، ولن يطلق لسانه بها، خوفًا من تلك النتائج، وحبًّا لرضا الله.

ومدارسة الآيات والكتب المشار إليها، مع استشعار القلب، والتأثر النفسي، والتفكر في القبر، والجزاء يوم الدين هو سبيل اكتساب بغض الغيبة، والنفور منها، فإذا وجد البغض في القلب نشأ فيه داعي الترك لهذا الخلق السيئ.

ومن هنا نرى أن يحرص المسلم على تلاوة الآيات (في سورة الحجرات) وقراءة وحفظ أحاديث الغيبة وكل ما أوردناه من آثار في هذا المبحث، ويطالعها بقلبه، ويرددها عليه، ويتفكر فيها.. وأن يخصص لذلك دورة تربوية لثلاثة أيام.

٣- إن الخير عادة، والشر لجاجة.. فلكي يتخلق المسلم بخلق حفظ غيبة المسلم، ولكي يترك غيبته، فإن عليه أن يترك الغيبة فورا، بقلبه، ولسانه.. وأن يحاسب نفسه- بحزم- على كلامه، وخواطره، عن المسلمين الآخرين، ويراجع نفسه، وأن يكف فورا عن الغيبة، ويستغفر الله إن وقع فيها.

ويستعمل لذلك جدول محاسبة يوميا، ويراجع نفسه عليه، حتى يتعود الخير.

٤- لابد من التأمل الذاتي في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة والمرض يكون بقطع سببها، وخلعه من القلب، ومن أسبابها: الغضب وشفاء الغيظ، والحقد، والمجاملة للأصحاب، ومساعدتهم على الكلام والتفكه بذكر أعراض الناس وحرماتهم، والمساهمة معهم في ذلك، فيخوض في ذكر المعايب والمساوئ، إرادة المباهاة، ورفع نفسه بتنقيص غيره- الحسد الذي يؤدي إلى القدح في المحسود وإسقاط كرامته عند الناس- الهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك من عيوب الآخرين- السخرية

والاستهزاء واستحقار الآخرين، ومنشؤه التكبر- تجاوز حد الغضب لله تعالى، وللحق.. إلخ- عدم الخشية من الله...

فيعرف السبب الباعث له على الغيبة، ويخلعه من قلبه، ويتحقق بالإيمان وبضد هذه الأسباب، فيكف قلبه ولسانه عن الغيبة.

ويمكن عمل جلسة تحليلية للذات، لتحليل النفس وتحديد الأسباب الباعثة لها على غيبة المسلمين، والشروع الفوري للتخلص منها.

٥- أن يتأمل في عيوب نفسه، ويشتغل بعيوبها، والتخلص منها، مثل: الكبر، والحقد، والحسد، والبغضاء، والغل والبغي، وقسوة القلب.. إلخ، فهذا من أكبر المعينات على إصلاح الأخلاق، والتخلص من هذا الخلق السيئ.

وقد وجهنا المجربون والمربون المسلمون لهذا:

- يقول ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك. (رجاله رجال الصحيح).

- ويقول عون بن عبد الله: ما أحسب أحدا تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه. (رجال إسناده ثقات).

قال بكر بن عبد الله: إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس، ناسيا لعيبه فاعلموا أنه قد مكر به. (إسناد صحيح).

وقال الحسن: يا بن آدم، تبصر القذى في عين أخيك، وتدع الجِذْل (الخشبة العالقة الكبيرة) معترضا في عينك. (إسناده صحيح)[٦١].

ورواه البخاري في الأدب المفرد عن يزيد بن الأصم قال: سمعت أبا هريرة يقول: يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، وينسى الجذل أو الجذع في

---

(٦١) الآثار الأربعة السابقة في : ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة والنميمة، أرقام ٥٦، ٦١، ٦٢، ٦٥ ص ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١.

عين نفسه(٦٢).

ولا شك أن في عيوب النفس، وتقويمها لشغلا، وباعثا على الخجل.. والشعور بالعبودية لله.. (لا تنظروا في عيوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في عيوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله عن العافية.

(رواه مالك بلاغًا عن المسيح- عليه السلام- في الموطأ).

٦- إن مما يعين على اكتساب خلق حفظ غيبة المسلم، وترك غيبته، أن يوجد المسلم في وسط ثقافي مرب، معين له على ذلك، يلتزم فيه أعضاؤه بترك الغيبة والنفور منها، وسط يتكون من أمثال ميمون بن سياه.. الذي كان ينهي الذي يغتاب، وإلا قام عنه.

هذا الوسط المتكون من القدوات الحسنة أكثر فعالية من كثير من المواعظ، إنه موقف عملي يتشربه المسلم، وينغرس في قلبه ووجدانه، ويغرس فيه حفظ الحرمات، وترك الغيبة للمسلمين والمسلمات.

إن على الأب والأم، والمعلم، والمربي الحركي واجبًا ضروريًّا: أن يكون هو قدوة حسنة كميمون بن سياه، إنه بهذا يتربى، ويربي بالإشعاع السلوكي، والموقف العملي، والتوجيه العلمي والموعظة النافعة.

٧- إن تربية الإيمان في القلب، والخوف من الله، والخشية منه، والحب في الله- هي سبل مؤكدة لاكتساب خلق احترام حرمة المسلمين.. فإذا تحقق المسلم بالإيمان والخشية من الله، والخوف منه، فزع من الغيبة.. واجتنبها.. من داخل قلبه، ومن لسانه.

٨- أن يعلم، وأن يوقن، أن الخلاص من الغيبة هو تحققه بالإيمان، وبأفضل الإسلام، فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رجل: يا رسول الله، أي الإسلام

(٦٢) قال الألباني: صحيح موقوفا، الأدب المفرد، رقم ٥٩٢، ص ٢٠٢.

أفضل؟ قال: «**أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك**»(٦٣) (رجاله ثقات).

وأخرجه البخاري بلفظ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(٦٤).

ورواه مسلم بلفظ: «**أي المسلمين خير؟ قال: لا من سلم المسلمون من لسانه ويده**»(٦٥).

ورواه مسلم عن جابر، يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»(٦٦).

ورواه مسلم عن أبي موسى، قال: قلت: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»(٦٧).

وقال سفيان بن الحسين: كنت جالسا عند إياس بن معاوية؛ فنلت من إنسان، فقال: هل غزوت العام الترك والروم؟ فقلت: لا، فقال: سلم منك الترك والروم، وما سلم منك أخوك المسلم(٦٨).

فالمسلم المتحقق بالإسلام، الكامل الإسلام، هو من لم يؤذ مسلما بقول، ولا فعل، ومن ذلك الغيبة.

قال ابن حجر: «والإتيان بجمع التذكير للتغليب، فإن المسلمات يدخلن في ذلك»(٦٩).

ب- التحذير الثاني:

«**ولا تتبعوا عوراتهم**» وفي رواية: «**لا تتبعوا عورات المسلمين ولا**

---

(٦٣) ابن أبي الدنيا: ذم الغيبة، رقم ٧٠، ص ١٣٥.
(٦٤) فتح الباري، ج ١، رقم ١٠، ص ٥٣.
(٦٥) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٤٠، ص ٢٧٦.
(٦٦) المصدر السابق، رقم ٤١، ص ٢٧٦.
(٦٧) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٤٢، ص ٢٧٧. ورواه البخاري، فتح الباري، ج ١، رقم ١١، ص ٥٤.
(٦٨) القشيري: الرسالة...، ص ٨٠.
(٦٩) فتح الباري: ج ١، ص ٥٣، ٥٤.

عثراتهم».

١- مفهوم العورة والعثرة:

قال ابن منظور: «والعوراء: الكلمة القبيحة، أو الفعلة القبيحة، (...) وقال الليث: العوراء: الكلمة التي تهوي في غير عقل ولا رشد، (...) وهي السقطة، (...) والعَوَر: شين وقبح (...) والإعوار: الريبة، ورجل مُعْوِرٌ: قبيح السريرة.. والعورة: الخلل. قال الأزهري: خلل يتخوف منه القتل، وقال الجوهري: العورة: كل خلل يتخوف منه.. والعورة: كل مكمن للستر، وعورة الرجل والمرأة: سَوْأتهما.. العَوْرَات: جمع عَوْرَة، وهي كل ما يستحيا منه إذا ظهر»(٧٠).

ويقول الراغب: «العورة: سوأة الإنسان، وذلك كناية، وأصلها من العار، وذلك لما يلحق في ظهوره من العار، أي: المذمة»(٧١).

فالعورة: هي ما يكون كشفه سببا للعار، أي: المذمة، ويسمى الخلل والشين؛ والعيب: عورة، وهو ما يجب على الإنسان ستره.

والعَثْرَة: السقطة، يقال: عَثَر الرجلُ يَعْثُر؛ إذا سقط، وعَثَر يَعْثُر: زَلَّ برجله، وبلسانه، وكذا، العثرة: الزلة(٧٢).

٢- واتباع العورات والعثرات يعني: أن يبحث الإنسان، وأن يسأل، ويستقصي عن عيوب الشخص وزلاته، وما يجب ستره، ويستاء إذا كشف، وظهر، ويلحق به الذم.

واتباع العورات- بهذا الشكل- هو التجسس، وقد نهى الله عنه بقوله:

---

(٧٠) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٣١٦٦، ٣١٦٧.

(٧١) الراغب: المفردات، ص ٣٥٢.

(٧٢) المصدر السابق، ص ٣٢٢، وابن حجر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص ١٥٣. ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٢٨٠٦.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

قال الطبري: «يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره؛ يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره (...) عن ابن عباس.. يقول: نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن..، عن قتادة: هل تدرون ما التجسس..؟ هو أن تتبع، أو تبتغي عيب أخيك، لتطلع على سره (...) قال ابن زيد: .. يتجسس كما يتجسس الكلاب»(٧٣).

فهذا الخلق القبيح هدفه فضح المسلم، لا الستر عليه، إنه يفكك المجتمع، ويشيع القبائح، ويوغر الصدور بعضها على بعض.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا**»، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ..الحديث**»(٧٤).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، (...) وكونوا عباد الله إخوانا**»(٧٥).

قال ابن حجر: «والأصل: تتحسسوا، قال الخطابي: معناه: لا تبحثوا عن عيوب الناس، ولا تتبعوها، وأصل هذه الكلمة التي بالمهملة من الحاسة، إحدى الحواس الخمسة، وبالجيم: من الجس، بمعنى اختبار الشيء باليد، وهي إحدى الحواس، فتكون التي بالحاء أعم(...) وقيل: بالجيم: البحث عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال: في الشر، وبالحاء: البحث عما يدرك بحاسة العين والأذن، وقيل: بالجيم: تتبع الشخص لأجل غيره، وبالحاء تتبعه لنفسه،.. ويستثنى منه النهي

---

(٧٣) الطبري: جامع البيان.. مجلد ١٣، ج ٢٦، ص ١٥٧.
(٧٤) فتح الباري: ج ١٠، رقم ٦٠٦٤، ص ٤٨١، إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٦٣، ص ٢٨.
(٧٥) إكمال المعلم، ج ٨، ص ٢٨.

عن التجسس: ما لو تعهد طريقا إلى إنقاذ نفس من الهلاك، مثلا، كأن يخبر ثقة بأن فلانا خلا بشخص ليقتله ظلما؛ أو بامرأة ليزني بها، فيشرع- في هذه الصورة- التجسس والبحث عن ذلك، حذرا من فوات استدراكه»(٧٦).

٣- واتباع العورات والعثرات يؤدي إلى التفكك الاجتماعي، وشيوع الفضائح، والفساد السياسي، والخلقي والاجتماعي العام، وقد روى سفيان الثوري عن معاوية ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك إذا اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم**»، فقال أبو الدرداء ﷺ كلمة سمعها معاوية ﷺ من رسول الله ﷺ، نفعه الله تعالى بها، ورواه أبو داود- منفردا به، من حديث الثوري به(٧٧).

ورواه البخاري في الأدب المفرد عن معاوية، يقول: سمعت من النبي ﷺ كلاما نفعني الله به؛ سمعته يقول- أو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك إذا اتبعت الريبة في الناس أفسدتهم، فإني لا أتبع الريبة فيهم فأفسدهم**»(٧٨).

وأخرج أبو داود عن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي إمامة عن النبي ﷺ قال: «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم**»(٧٩).

وروي هذه الجملة ابن أبي عاصم في السنة(٨٠).

وذلك أن الأمير أو القيادة السياسية إذا اتهمت الناس، وجاهرتهم بسوء الظن فيهم، أداهم ذلك إلى ارتكاب ما ظن بهم، ففسدوا، وكذلك هو لا يتبع

---

(٧٦) فتح الباري: ج ١٠، ص ٤٨٢، وفي مفهوم التحسس والتجسس، ينظر أيضا: إكمال المعلم، ج ٨، ص ٢٣.

(٧٧) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٨٨٨، ص ٢٩٤.

(٧٨) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٢٤٨، ص ٩٣.

(٧٩) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٨٨٩، ص ٢٩٤ – ٢٩٥.

(٨٠) انظر تخريجها في: كتاب السنة ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة، للألباني، رقم ١٠٧٣، ص ٥٠٢.

الريبة في الناس إلا عبر جواسيس.. ومن هنا ينشأ الفساد الاجتماعي، والخلقي، الخطير.

فالنبي ﷺ يريد مجتمعا نظيفا، سليما، خاليا من سوء الظن، واتهام الأبرياء، والتجسس وكشف المحجوب والمستور، وتشويه الشخصيات، والحط من أقدار الناس وفضحهم، يقول سهل: «من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون، فمن سلم من الظن سلم من التجسس ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البهتان»(٨١).

٤- وإذا لم يتب المسلم عن التجسس واتباع العورات والعثرات، فإن له الويل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

واللمز: تتبع المعايب.

والمتجسس، والمتتبع للعورات والعثرات؛ يتتبع الله عورته وعثرته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته، وهذا عقاب فظيع، فالذي يريد فضح أخيه المسلم؛ بكشف وإظهار زلته، وسقطته، سوف يفضحه الله، وإن كان في بيته، أو في رحله، سوف يكشف الله ستره عنه، ويتركه في العراء.

٥- وقد رغبنا النبي ﷺ في الستر على المسلم، فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة من حديث: «**ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة**». وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر من حديث: «**ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**». وأخرج الطبراني، من حديث كعب بن عجرة عن النبي ﷺ: «**ومن ستر على مؤمن عورته؛ ستر الله عورته..**». وأخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**»(٨٢).

---

(٨١) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص ٢٠٨.

(٨٢) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٩٠، ص ٦١.

وأخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم؛ كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته**» وإسناده صحيح.

وقال الخرائطي: «باب ما يستحب للمرء من ستر عورة أخيه المسلم وما له من الثواب» وساق فيه أحاديث منها: «عن نعيم بن هزال: قال النبي ﷺ لأبي هزال: «**لو سترته بثوبك كان خيرًا لك**» يعني لماعز بن مالك. إسناده صحيح، رواته ثقات(٨٣).

وعن أشعث بن عبد الملك قال: سئل الحسن عن رجل زنى بامرأة فظهر بها حمل، قال: يتزوجها ويستر عليها. حسن الإسناد.

وعن علام بن مسكين قال: سأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، رجل علم من رجل شيئا أيفشي عليه؟ قال: يا سبحان الله! لا(٨٤).

فمن أخلاق المسلم الواجبة عليه بمقتضى إيمانه بالله: أن يستر، أي: يغطي على عيوب إخوانه المسلمين، ولا يفشيها، فالمؤمن يستر ويرحم، ولا يتتبع العورات، ولا يفضح.

وكل إنسان فيه عيوب، وللناس ألسنة، فاستر، سترنا الله وإياك في الدنيا والآخرة، واسمع نصيحة الحسن: «من وجد دون أخيه سترًا فلا يكشف، لا تجسس أخاك، فقد نهيت أن تجسسه، لا تحقر عليه، ولا تنفر عنه»(٨٥).

٦- وإذا درس المسلم هذه الآية وهذه الأحاديث، وآمن بها- بيقين، وصدق وإخلاص، وانقياد، وقبول، وعزم على العمل، وتأثر- فإنه سيرغب

---

(٨٣) أبو داود، السنن، ج ٢، كتاب الحدود، رقم ٤٣٧٧، ص ٥٣٨.

(٨٤) انظر: الخرائطي: مكارم الأخلاق.. ج ٢، أرقام ٤٨٧، ص٤٨٠، ورقم ٤٩٩، ٥٠٠، ص ٤٩١.
وادرس الكبيرة رقم ٣٥٥ (هتك المسلم وتتبع عوراته حتى يفضحه..) في: الزواجر: لابن حجر الهيثمي، ج ٢، ص ٢٣٠ – ٢٣٢.

(٨٥) عبد الرزاق الصنعاني: كتاب الجامع، في المصنف، ج ١١، رقم ٢٠٢٧٠، ص ١٨١.

في الستر، ويبغض تتبع العورات والعثرات، وسيكف لسانه عن ذكر عورات الناس، وعن تتبع عثراتهم ليتحقق بالإيمان، ويتخلق بخلق الستر، ليستر الله عليه في الدنيا والآخرة.

٧- وهذه وقائع عملية، ونماذج للاقتداء، والتأمل:

أخرج عبد الرزاق عن عكرمة أن عمار بن ياسر أخذ سارقا، ثم قال: أستره لعل الله يسترني.

وأخرج عنه أيضًا: أن ابن عباس أنه أخذ سارقا فزوده وأرسله، وأن عمارا أخذ سارقا.. فدل عليه، فلم يهجه، وتركه.

وأخرج عن أبي بكر الصديق قال: لو لم أجد للسارق والزاني وشارب الخمر إلا ثوبي لأحببت أن أستره عليه(٨٦).

وأخرج عبد الرزاق عن الشعبي قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني وأدت ابنة لي في الجاهلية، فأدركتها قبل أن تموت، فاستخرجتها، ثم إنها أدركت الإسلام معنا، فحسن إسلامها، وإنها أصابت حدا من حدود الإسلام، فلم نفجأها إلا وقد أخذت السكين تذبح نفسها، فاستنقذتها، وقد جرحت نفسها، فداويتها حتى برأ كلمها (شُفِي جرحها) فأقبلت إقبالا حسنا، وإنها خطبت إليّ، فأذكر ما كان منها؟

فقال عمر: هاه، لئن فعلت لأعاقبنك عقوبة يتحدث بها أهل الأمصار، أنكحها نكاح العفيفة المسلمة(٨٧).

أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن حرملة أنه سأل سعيد بن المسيب قال: وجدتُ رجلا سكران، أفتراه يسعني ألا أرفعه إلى السلطان؟ فقال له سعيد:

---

(٨٦) المصدر السابق، ج ١٠، أرقام ١٨٩٢٩ – ١٨٩٣١، ص ٢٢٦ – ٢٢٧.

(٨٧) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ٦، رقم ١٠٦٩٠ ص ٢٤٦ – ٢٤٧، مع اختصاري لرواية داخل النص.

إن استطعت أن تستره بثوبك فاستره[٨٨].

وأخرج عنه قال: خرجت إلى الصبح فوجدت سكران، فلم أزل أجره حتى أدخلته منزلي، قال: فلقيت سعيد بن المسيب فقلت: لو أن رجلا وجد سكران أيرفعه إلى السلطان فيقيم عليه الحد؟ قال: فقال لي: إن استطعت أن تستره بثوبك فافعل. فقال: فرجعت إلى البيت، فإذا الرجل قد أفاق، فلما رآني عرفت فيه الحياء، فقلت: أما تستحي؟ لو أخذت البارحة لحددت، فكنت في الناس مثل الميت لا تجوز لك شهادة، فقال: والله لا أعود له أبدا. قال ابن حرملة: فرأيته قد حسنت حاله بعد[٨٩]. تأمل كيف غَيَّر خلق الستر هذا السكران؟!

روى الذهبي في (تذكرة الحفاظ) أن أحمد بن مهدي (الحافظ الزاهد العابد، ثقة) ذكر أنه جاءته امرأة ببغداد ليلة، فذكرت أنها من بنات الناس، وأنها امتحنت، فبالله استرني، وقد أكرهت، وأنا حبلى، فلا تفضحني، فقد قلتُ: إنكَ زوجي. فسكت. فبعد أيام جاءني إمام المحلة والجيران يهنئوني بالولد، فشكرتهم، ووزنت دينارين ليوصلها للمرأة؛ نفقة، وكنت أعطيها كل شهر دينارين إلى أن صار للولد سنتان، فمات، فجاؤوا يعزونني، فأظهرت التسليم لله، ثم بعد أيام جاءت بالذهب، وقالت: سترك الله، خذ ذهبك، فقلت: هذه الدنانير كانت صلة مني للصغير، وأنت قد ورثتيه[٩٠].

أقول:

١- اللهم بارك لنا في ديننا.

٢- إذا كان هذا خلق المسلم مع العصاة.. فكيف يكون خلقه مع علماء

---

(٨٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣٦٢.

(٨٩) المصدر السابق، ص ٣٦٥.

(٩٠) الإمام شمس الدين الذهبي: كتاب تذكرة الحفاظ، ج ٢، دار الكتب العلمية، ص ٥٩٨.

المسلمين، والعاملين للإسلام؟!!

إنا لله وإنا إليه راجعون.

جـ - التحذير الثالث: «لا تؤذوا المسلمين»:

١- لا تؤذوا: لا تصيبوا غيركم من المسلمين بالأذى، وهو كل ضرر يصل إلى الغير في نفسه أو جسمه، أو تبعاته، دنيويا كان أو أخرويا(٩١).

فالضرب: أذى، والكذب على الإنسان: أذى، والاتهام الباطل، وتشويه السمعة: أذى، ومن ذلك المعنى قول الله- تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، أي: ينسبون إليهم ما هم برآء منه، لم يعلموه، ولم يفعلوه، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهذا هو البهتان الكبير؛ أن يحكي، أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه؛ على سبيل العيب والتنقص لهم.

وأكل ماله بالباطل: أذى، وشتمه: أذى، والسخرية به: أذى، والمكر به: أذى، ووضع العقبات في طريقه: أذى.. وهكذا.

٢- فهذا الإيذاء: بهتان وإثم مبين، يعاقب الله عليه، وهو دليل على أن الإيمان لم يدخل القلب، ولهذا قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره**»(٩٢). وكذلك: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ المسلمين والمسلمات، فيسلم المسلمون من لسانه ويده، ويتحقق بأفضل الإسلام.

قال الغزالي في حقوق المسلم على المسلم: ومنها: ألا يؤذي أحدا من المسلمين بفعل، ولا قول، قال ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» (متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو). وقال ﷺ في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل: «**فإن لم تقدر؛ فدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدقت**

(٩١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥١٧.

(٩٢) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠١٨، ص ٤٤٥.

بها على نفسك» (متفق عليه من حديث أبي ذر)(...). وقال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «**أن يسلم قلبك لله، ويسلم المسلمين من لسانك ويدك**» (أحمد بإسناد حسن عن عمرو بن عبسة الخرائطي). وقال ﷺ: «**لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي المسلمين**» (مسلم عن أبي هريرة)(٩٣).

٣- إن النبي ﷺ يريد مجتمعا متحابا متآلفا، يسلم بعضه من بعض، ويحترم بعضه بعضا، وسبيل ذلك: تربية الإيمان في القلب، ليأمر المؤمن بالخير، ويبغضه في الشر، كما أن من سبيل ذلك: إدخال المسلم في تجربة تربوية: ليدرس هذا التحذير، ويفقه معناه، ويبغض أذى المؤمنين لأن الله يكره أذاهم، ويحب إبعاد الأذى عنهم، ولا يشارك في أذيتهم بقوله، أو فعله.

والخلاصة: أن نجعل من أهدافنا التربوية لأنفسنا ولمن حولنا: ألا نؤذي المسلمين بأن نتصور الأذى وصوره المتعددة مثل رمي القاذورات بجانب داره، أو سبه، أو التقدم بشكوى كيدية ضده، أو إشاعة القالات والاتهامات الباطلة ضده.. إلخ.

وأن يبغض بشدة هذا الخلق القبيح، وأن يقلع عنه، وأن يصاحب من يعاونه على هذه التربية، ويكفي أن يقرأ حديث المرأة التي كانت تؤذي جيرانها فقال النبي ﷺ: «**هي في النار**»، مع أنها كانت تصوم النهار وتقوم الليل (رواه أحمد، والخرائطي بإسناد حسن) .

وقال الفضيل بن عياض: «**والله ما يحل لك أن تؤذى كلبا ولا خنزيرا بغير حق، فكيف تؤذي مسلما**»(٩٤).

---

(٩٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٩٨٩ – ٩٩٠.

(٩٤) رواه الخرائطي بإسناد حسن، مكارم الأخلاق، رقم ٤٢٦، ص ٤٣٠.

وقال النبي ﷺ: «**من ضارَّ مسلما ضار الله به، ومن شان شان الله به**»(٩٥).

واقرأ باب الترغيب في ستر المسلم في المنتقى من الترغيب والترهيب لتعلم أن منهج الإسلام في تربية المسلم هو توجيهه نحو التمسك بهذا الخلق العظيم.

د- التحذير الرابع: «ولا تعيروهم»:

١- أصل التعيير: نسبة الشخص إلى العار، أي: إلى ما يذم بسببه، ومن التعيير: أن تأتي لإنسان فعل ذنبا، أو زَلَّ زَلَّة، فتوبخه، وتُشَهِّر به، أمام الناس، وتقصد فضحه، وإظهاره، فالمسلم لا يعير بذنب، خوفا من أن يبتليه الله بمثله، قال ابن رجب: وفي الترمذي وغيره- مرفوعا: «**من عَيَّرَ أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله**»(٩٦)، وَحُمِلَ ذلك على الذنب الذي تاب منه صاحبه.

قال الفضيل: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير(...) والتعيير يقترن به الإعلان(...) وكان السلف يكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذا الوجه، ويحبون أن يكون سِرًّا فيما بين الآمر والمأمور، فإن هذا من علامات النصح؛ فإن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها»(٩٧).

٢- ومن التعيير: أن يسب إنسان إنسانا بشيء لا دخل له فيه، كأن يشتمه بأنه أسود أو أن أمه سوداء، .. إلخ. يقول أبو ذر: إني ساببت رجلا، فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «**يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**»(٩٨).

فالتعيير خلق جاهلي لا يصح لمسلم أن يتصف به.

---

(٩٥) المصدر السابق بإسناد حسن، مكارم الأخلاق، رقم ٤٢٥، ص ٤٢٩.

(٩٦) إسناده ضعيف، رواه الترمذي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ، ورواه أبن أبي الدنيا، في ذم الغيبة، رقم ١٥١، ص ١٩٠، ١٩١

(٩٧) في كتاب: الفرق بين النصيحة والتعيير، ص ٣٣، عن هامش رقم ٣ في ذم الغيبة لابن أبي الدنيا، ص ١٩١، ١٩٢.

(٩٨) رواه البخاري، فتح الباري، ج ١، رقم ٣٠، ص ٨٤، ورواه مثله، في الأدب المفرد، رقم ١٨٩، بإسناد صحيح، ص ٧٤، وليس فيه الجملة الثانية.

٣- وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن سليم بن جابر الهجيمي، قال: أتيت النبي ﷺ وهو محتب في بردة، وإن هُدَّابها لعلى قدميه (الهداب: طرف الثوب مما يلي طُرَّته) فقلت: يا رسول الله، أوصني، قال: «**عليك باتقاء الله، ولا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ للمستسقي من دلوك في إنائه، أو تكلم أخاك ووجهك منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، ولا يحبها الله، وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه منك؛ فلا تعيره بشيء تعلمه منه، دعه يكون وباله عليه، وأجره لك، ولا تسبن شيئًا**» قال: «**فلا سببت بعد دابة ولا إنسانا**»(٩٩). وفي رواية أبي داود: «**وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك، فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه**».

فالنبي ﷺ يأمر- ناصحا- أحد أصحابه ألاَّ يشتم ولا يعير من يعيره، وأن يتركه يكون إثم ذلك التعيير على المعير، والأجر والثواب لمن وقع عليه التعيير.

فالنبي ﷺ ينفر من التعيير، ويربي البغض في القلب لهذا الخلق القبيح.

٤- وإذا درس المسلم هذه الحقائق النبوية.. وآمن بها، وتأثر بها وجدانيا.. فإنه سيرغب في ترك هذا الخلق المكروه.. سيتركه لأنه ضد الإيمان، ولأنه خلق جاهلي، ولأن له وبالا سيصيب من مارسه..قطعا.

سابعا: خاتمة واستنتاجات:

تبين لنا من هذا الفصل جملة حقائق:

١- أن الأخلاق الاجتماعية السيئة تنتج عن فراغ القلب من الإيمان بالله والرسول والإسلام واليوم الآخر.

---

(٩٩) قال الألباني: صحيح لغيره، الأدب المفرد، رقم ١١٨٢، ص ٤٣١، ٤٣٢ ورواه أبو داود، سننه، ٤٠٨٤ باختلاف أثبتناه فوق، ص ٢٢، ٢٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ٩٨، ص ٨١، وقال الألباني عن رواية أبي داود: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، رقم ٧٣٠٩، ص ١٢٢٢.

٢- أن وجهة تربية الشخصية هي نحو تحقيق الأمن الاجتماعي، وتخليص المسلم من أخلاق اجتماعية سيئة هي: الغيبة، والتجسس، وتتبع العورات والعثرات، وإيذاء المسلمين، والتعيير.

٣- أن النبي ﷺ يريد تربية المسلم والمسلمة ليتخلصوا من هذه القبائح الاجتماعية.

٤- أن السبيل لهذا التخلص هو تربية الإيمان في القلب، وإنزال هذه التحذيرات في القلب أولا.

٥- ولهذا الموضوع تكملة نتناولها في الفصل التاسع والعشرين، بعون الله؛ (تربية القلب المستقيم).

ثامنا: أسئلة وأنشطة لزيادة البحث وتعميق الفهم:

١- اقرأ النص الآتي، وحلله في ضوء معطيات هذا الفصل، وما القيمة التي يتضمنها؟

عن دُخَيْن أبي الهيثم كاتب عقبة بن عامر قال: قلت لعقبة بن عامر: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط ليأخذوهم، قال: لا تفعل، وعظهم، وهددهم، قال: إني نهيتهم، فلم ينتهوا، وأنا داع لهم الشرط ليأخذوهم، فقال عقبة: ويحك، لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ستر عورة فكأنما استحيا موؤودة في قبرها**» رواه أبو داود والنسائي، بذكر القصة، وبدونها، وابن حبان في صحيحه، واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، قلت: ووافقه الذهبي.

٢- ما علاقة هذا الفصل بفصل (تربية الإيمان وتجديده في القلب)؟

٣- أعد قائمة للمراجعة الذاتية فيها هذه الأخلاق التي حذر منها الحديث، ثم علم أمام كل خلق، هل يوجد فيك، أم لا. ثم اشرع في التغيير الذاتي.

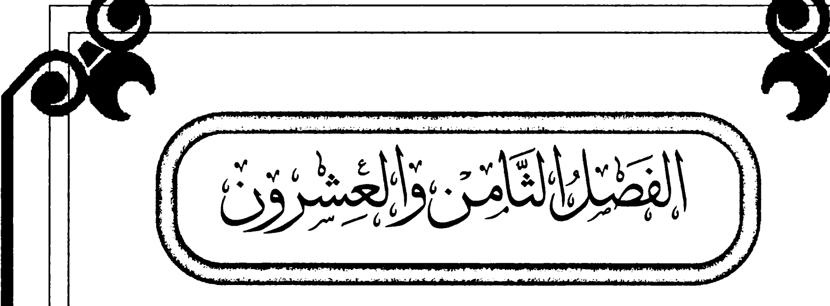
٤- قم بإعداد برنامج لليلة ربانية لمعايشة هذا الحديث، واستخدم هذا الفصل، وراجعه في إعداده، واشرع في تنفيذه مع إخوانك.

٥- كم حديثا صحيحا في هذا الفصل؟ هل شرعت في حفظها؟

٦- ما رأيك في التعليق التربوي على هذا الحديث؟ هل المؤلف مقصر في بيان كيف نتربى طبقا لمعطياته؟

٧- ما الدلالة التربوية لرفع النبي ﷺ صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن؟

٨- ما الدلالة التربوية لقول النبي ﷺ: «**ولم يدخل الإيمان قلبه**»؟



الفصل الثامن والعشرون

تربية القلب المجاهد المغير للمنكر

تربية القلب
المجاهد المغير للمنكر

أولا: نص الحديث النبوي :

أ- أخرج مسلم عن طارق بن شهاب: قال: أول من بدأ بالخطبة، يوم العيد، قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل، فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ترك ما هنا لك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

ورواه أحمد، عن طارق بن شهاب، ولفظه: «قال: أخرج مروان المنبر في يوم عيد، ولم يكن يخرج به، وبدأ بالخطبة قبل الصلاة، ولم يكن يبدأ بها، قال: فقام رجل فقال: يا مروان، خالفت السنة؛ أخرجت المنبر يوم عيد، ولم يك يخرج به، في يوم عيد، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة، ولم يكن يبدأ بها، قال: فقال لي أبو سعيد الخدري: من هذا؟ قالوا: فلان ابن فلان، قال: فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرًا فإن استطاع أن يغيره بيده فليفعل،** (وقال مرة) **فليغيره بيده، فإن لم يستطع بيده، فبلسانه، فإن لم يستطع بلسانه فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢).

ورواه الترمذي مثل رواية مسلم؛ وفيه: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٣)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٧٨، ص ٢٨٨ – ٢٨٩ ورواه النسائي، مثله، سننه، ج ٨، رقم ٥٠٠٨، ص ٨١، ورواه أحمد، مثله: بإسناد صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٠٩٣، ص ٦٦، ورقم ١١٣٩٨، بإسناد صحيح، ص ١٥٤، ورقم ١١٤٣٠، بإسناد صحيح، ص ١٦٤- ١٦٥.

(٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٠١٥، ص ٣٦.

(٣) سنن الترمذي: ج ٤، رقم ٢١٧٩.

وروى النسائي: عن طارق بن شهاب قال: قال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من رأى منكم منكرا فغيره بيده فقد برئ، ومن لم يستطع أن يغيره بيده فغيره بلسانه فقد برئ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه فقد برئ، وذلك أضعف الإيمان»**(٤).

ورواه أبو داود عنه بلفظ: **«من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده(...) فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع بلسانه فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**(٥).

ب- أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف؛ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**(٦).

ورواه أحمد إلى قوله: **«ويفعلون ما لا يؤمرون»**(٧).

ورواه الطبراني عنه، أن نبي الله ﷺ قال: **«ما كان من نبي؛ إلا كان له حواريون يهدون بهديه، ويستنون بسنته، ثم يكون من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون ويعملون ما تنكرون، من جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك**

---

(٤) سنن النسائي (المجتبى) ج ٨، رقم ٥٠٠٩، ص ٨١.

(٥) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٣٤٠، ص ١٠٨، ورواه ابن ماجه مع القصة، بإسناد صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٥٨، ص ٣١٤ – ٣١٥، ورواه برقم ١٢٩١.

(٦) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٨٠، ص ٢٩٠ – ٢٩١.

(٧) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٤، رقم ٤٣٧٩، ص ٢٣٥ – ٢٣٦، وروى مثله بإسناد صحيح، المسند، ج ٤، رقم ٤٤٠٢، ص ٢٤٦ – ٢٤٧.

من الإيمان مثقال حبة خردل»(٨).

جـ- أخرج مسلم عن أم سلمة زوج النبي ﷺ؛ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**» قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما صلوا**» أي: من كره بقلبه وأنكر بقلبه(٩).

د- أخرج الإمام النسائي عن أنس؛ عن النبي ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم**»(١٠).

وأخرجه بلفظ: «**جاهدوا بأيديكم وألسنتكم وأموالكم**»(١١).

وأخرجه أبو داود بلفظ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»(١٢). وبهذا اللفظ رواه أحمد(١٣)، ورواه بلفظ: «**جاهدوا المشركين بألسنتكم وأنفسكم، وأموالكم، وأيديكم**»(١٤). وأورده ابن القيم في زاد المعاد بلفظ: «**جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم**»(١٥).

ثانيا:

هذه أحاديث عظيمة يجب أن تفهم فهما صحيحا، ويجب أن يعمل بها

---

(٨) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ٩٧٨٤، ص ١٣ والحديث بلفظ مسلم في صحيح الجامع، ج٢، رقم ٥٧٩٠، ص١٠٠٨ .

(٩) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ١٨٥٤، ص ٢٦٤ .

(١٠) سنن النسائي، ج ٦، رقم ٣٠٩٦، ص ٧ .

(١١) المصدر السابق، رقم ٣١٩٢، ص ٣٨ .

(١٢) سنن أبي داود، ج ٢، رقم ٢٥٠٤، ص٣٤٦ .

(١٣) إسناده صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٣٥٧٢، ص ٢٣٥، ورواه بلفظه، برقم ١٢١٨٦، المسند، ج ١٠، ص ٣٩٨، وقال الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ٣٠٩٠، ص ٥٩٣ .

(١٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١٢٤٩٣، ص ٤٩٦ .

(١٥) قال شعيب الأرنؤوط في تخريجه: أخرجه أبو داود..، والدارمي..، وأحمد..، والنسائي..، وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (١٦١٨) والحاكم (٢/ ٨١)، ووافقه الذهبي. انظر: زاد المعاد، ج٣، ص ٥٠٠، قلت: روايات أحمد، والنسائي، وأبي داود، ليس فيها لفظ: وقلوبكم، ولعلها في رواية الدارمي أو ابن حبان، أو الحاكم.

المسلم المعاصر والمسلمة المعاصرة، لأنها تقرر أصول الإسلام، ومقوما أساسيا من مقومات المجتمع المسلم، وشرطا من شروط استمراره في الوجود البشري، هذا الأصل والمقوم، والشرط، هو: جهاد الحكام المنحرفين عن شريعة الإسلام، وجهاد المشركين باللسان، والمال، واليد، والنفس والقلب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخصوصا في الأحاديث الثلاثة الأُول: إنكار المنكر، وكراهيته، وتغييره باليد، واللسان والقلب.

ولأن كتابنا هذا في تربية القلب، فإنني لن أتوسع في شرح هذه الأحاديث ولكن- بعد هذا المدخل- سأذكر أهم ما يحتاج إليه المسلم والمسلمة في أصل إنكار المنكر والجهاد بالقلب، والأمر بالمعروف.

وقبل هذا أقول: إن الجهاد باللسان- في الحديث الأخير- يشمل: هجاءهم، وحض الناس على جهادهم، والترغيب فيه، وبيان فضائله لهم، والدعاء على المشركين، وإعلان البراءة منهم، والتوعية بأهدافهم وأساليبهم، وإقامته الحجج ضدهم.

وأن الجهاد بالقلب في هذا الحديث يشمل أن يكون المسلم مع المجاهدين بروحه، وبهمته، وبأن يبغض ويكره فعل المشركين ويبرأ بقلبه منهم، ومن أفعالهم، والجهاد بالأموال، والأيدي معروف، والجهاد بالنفس فبأن يشترك فعليا في كل أنواع الجهاد البدني، والنفسي والمالي، والقلبي ضد الشرك، وضد الطواغيت، وألاَّ يرضى بحكمهم وألاَّ يتابعهم فيه، بل ينكر، وينهض، ويبرأ، ويبذل الجهد للتخلص منهم.

والآن نتناول قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النقاط الآتية:

ثالثا: مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أ- سنورد هنا تفسير الطبري لبعض آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١- يقول الله- تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] يقول الطبري: «﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُمَّةٌ﴾ يقول: جماعة، ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ يعني: إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: يأمرون الناس باتباع محمد ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يعني: وينهون عن الكفر بالله، والتكذيب بمحمد، وبما جاء به من عند الله، بجهادهم بالأيدي والجوارح، حتى ينقادوا لكم بالطاعة، وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: المنجحون عند الله، الباقون في جناته ونعيمه»(١٦).

فالأمر بالمعروف هو: أمر الناس ودعوتهم لاتباع النبي ﷺ ودينه المنزل.

والنهي عن المنكر هو: النهي عن الكفر والتكذيب بمحمد وبالإسلام، من خلال الجهاد بالأيدي والجوامع حتى ينقادوا لحكم الله ورسوله، بالطاعة له.

٢- ويقول في قوله- تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، يقول الطبري في بيان عظيم: «وأما قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإنه يعني: تأمرون بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بشرائعه، ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يعني: وتنهون عن الشرك بالله، وتكذيب رسوله، وعن العمل بما نهى عنه(...) عن ابن عباس يقول: تأمرونهم بالمعروف: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، والإقرار بما أنزل الله، وتقاتلونهم كلهم، ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف، وتنهونهم عن المنكر، والمنكر: هو التكذيب، وهو أنكر المنكر.

وأصل المعروف: كل ما كان معروفا، ففعله جميل مستحسن، غير مستقبح

(١٦) الطبري: جامع البيان، مجلد ٣، ج ٤، ص ٤٨ - ٤٩ .

في أهل الإيمان بالله، وإنما سميت طاعة الله معروفا؛ لأنه مما يعرفه أهل الإيمان، ولا يستنكرون فعله، وأصل المنكر: ما أنكره الله، ورأوه قبيحا مثله، ولذلك سميت معصية الله منكرا؛ لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون ركوبها، وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يعني: تصدقون بالله فتخلصون له التوحيد والعبادة»(١٧).

فالأمر بالمعروف هو: الأمر بالإيمان والتوحيد والعبادة لله، وطاعته.

والنهي عن المنكر هو: النهي عن كل ما أنكره الشرع مثل الكفر، والشرك، والتكذيب،.. إلخ.

٣- وفي قوله- تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٩]. يقول: «﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾: لا ينتهون عن منكر فعلوه، ولا ينهي بعضهم بعضا، ويعني بالمنكر: المعاصي التي كانوا يعصون الله بها»(١٨).

فالنهي عن المنكر هو: النهي عن إتيان المعاصي بأنواعها.

٤- ويقول الطبري: «والمعروف: هو كل ما أمر الله به، أو ندب إليه من أعمال البر والخير»(١٩).

٥- ويقول في شرح قوله- تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]: «يأمر هذا النبي الأمي أتباعه بالمعروف، وهو الإيمان بالله، ولزوم طاعته فيما أمر ونهي، فذلك المعروف الذي يأمر به، وينهاهم عن المنكر، وهو الشرك بالله، والانتهاء عما نهاهم الله عنه»(٢٠).

٦- ونقل عن أبي العالية «قال: كل ما ذكره الله في القرآن من الأمر

---

(١٧) المصدر السابق، مجلد ٣، ج ٤ ، ص ٥٦- ٥٧ .
(١٨) المصدر السابق، مجلد ٤، ج ٦، ص ٣٩٢ .
(١٩) المصدر السابق، مجلد ٤، ج ٥، ص ٣٣٩ .
(٢٠) المصدر السابق، مجلد ٦، ج ٩، ص ١٠٢ .

بالمعروف والنهي عن المنكر: فالأمر بالمعروف: دعاء من الشرك إلى الإسلام، والنهي عن المنكر: النهي عن عبادة الأوثان والشياطين»(٢١).

وقال الطبري في تفسير قوله- تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]، قال: «إن وَطَّنا لهم في البلاد، فقهروا المشركين وغلبوهم عليها(...) يقول: إن نصرناهم على أعدائهم، أطاعوا الله، فأقاموا الصلاة بحدودها، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾،.. وأعطوا زكاة أموالهم.. من جعلها الله له، ﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾؛ يقول: ودعوا الناس إلى توحيد الله، والعمل بطاعته، وما يعرفه أهل الإيمان بالله، ﴿وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾؛ يقول: ونهوا عن الشرك بالله، والعمل بمعاصيه، الذي ينكره أهل الحق والإيمان بالله ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾؛ يقول: ولله آخر أموز الخلق، يعني أن إليه مصيرها في الثواب عليها والعقاب، في الدار الآخرة.

عن أبي العالية.. قال: كان أمرهم بالمعروف: أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده لا شريك له ونهيهم عن المنكر: أنهم نهوا عن عبادة الأوثان، وعبادة الشيطان، قال: فمن دعا إلى الله، .. الناس كلهم.. فقد أمر بالمعروف، ومن نهى عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان فقد نهى عن المنكر»(٢٢).

فالأمر بالمعروف: دعوة الناس إلى التوحيد، وطاعة الله، واتباع شريعة الإسلام، والعمل بها من واجب أو مندوب.

والنهي عن المنكر: نهيهم عن الشرك، والخروج على طاعة الإسلام وحاكميته، وعن عبادة غير الله، وعن المعاصي.. وبالجملة عن كل ما نهى الله عباده عنه، من حرام أو مكروه.

---

(٢١) المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٠٨ ونقله أيضا في المجلد السابع، ج ١١، ص ٤٩ .
(٢٢) المصدر السابق، مجلد ١٠، ج ١٧، ص ٢١١- ٢١٢ .

٧- والحق أن هذا أصل مهم، حتى لا نترك المعروف الأكبر وهو توحيد الله، ومقتضياته، وندعو إلى فروع الإسلام، وحتى لا نترك المنكر الأكبر، وهو الخروج عن طاعة الله ورسوله بتحكيم شرعه، إلى تحكيم شرائع وضعية، وعبادة غير الله.

ب- وهذه النقطة أوضحها سيد قطب- رحمة الله عليه- مرارا، مما يحمد له، يقول: «إن كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم، مجتمع يعترف- ابتداء- بسلطان الله، ويتحاكم إلى شريعته، مهما وجد فيه من طغيان الحكم، في بعض الأحيان، ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان، .. وهكذا نجد في قول الرسول ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر**».. فهو إمام ولا يكون إماما حتى يعترف- ابتداء- بسلطان الله، وبتحكيم شريعته، فالذي لا يحكم شريعة الله؛ لا يقال له: إمام، إنما يقول الله عنه- سبحانه: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤].

فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم إلى شريعة الله؛ فالمنكر الأكبر فيها، والأهم، هو المنكر الذي تنبع منه كل المنكرات، .. هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة، وهذا المنكر الكبير الأساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار؛ قبل الدخول في المنكرات الجزئية، التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر وفرع عنه، وعَرَض له.

إنه لا جدوى من ضياع الجهد.. جهد الخيرين الصالحين من الناس.. في مقاومة المنكرات الجزئية، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول: منكر الجرأة على الله، وادعاء خصائص الألوهية، ورفض ألوهية الله؛ برفض شريعته للحياة.. لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة- بلا جدال.

على أنه: إلام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبون من منكرات؟ بأي ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم: إن هذا منكر فاجتنبوه؟ أنت تقول: إن هذا منكر؛ فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك، يقولون لك: كلا ليس هذا منكرا، لقد كان منكرا في الزمان الخالي، والدنيا (تتطور)، والمجتمع (يتقدم) وتختلف الاعتبارات.

فلابد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال، ولابد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر، فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟(...).

هذا الميزان الثابت، هو ميزان الله.

فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف- ابتداء- بسلطان الله؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله؟ بل ماذا إذا كان يسخر، ويهزأ، ويستنكر وينكل بمن يدعوه إلى منهج الله؟

ألا يكون جهدا ضائعا(...) أن تقوم في مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في جزئيات وجانبيات من شؤون الحياة، تختلف عليها الموازين والقيم، وتتعارض فيها الآراء والأهواء؟!

إنه لابد من الاتفاق مبدئيا على حكم، وعلى ميزان، وعلى سلطان، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون في الآراء والأهواء.

لابد من الأمر بالمعروف الأكبر؛ وهو الاعتراف بسلطان الله، ومنهجه للحياة، والنهي عن المنكر الأكبر؛ وهو رفض ألوهية الله؛ برفض شريعته للحياة، .. وبعد إقامة الأساس، يمكن أن يقام البنيان!

فلتوفر الجهود(...) ولتحشد كلها في جبهة واحدة؛ لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان!

وإن الإنسان ليرثى أحيانا، ويعجب لأناس طيبين، ينفقون جهدهم في

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في الفروع؛ بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم، ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقطوع، فما غناء أن تنهي الناس عن أكل الحرام- مثلا- في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا، فيستحيل ماله كله حراما؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال؛ لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله، لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله؛ برفض شريعته للحياة؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن الفسق، مثلا، في مجتمع قانونه لا يعتبر الزنى جريمة- إلا في حالة الإكراه- ولا يعاقب- حتى في حالة الإكراه- بشريعة الله،.. لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله؛ برفض شريعته للحياة؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين في الطريق العام، وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد الله، لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية الله؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن سب الدين، في مجتمع لا يعترف بسلطان الله، ولا يعبد فيه الله، إنما هو يتخذ أربابا من دونه؛ منزلون له شريعته وقانونه ونظامه وأوضاعه، وقيمه وموازينه(...).

ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال؟ ما غناء النهي عن الكبائر- فضلا من أن يكون النهي عن الصغائر- والكبيرة الكبرى لا نهي عنها..كبيرة الكفر بالله؛ برفض منهجه للحياة؟!

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق مما ينفق فيه هؤلاء (الطيبون) جهدهم وطاقتهم واهتمامهم.. إنه- في هذه المرحلة- ليس أمر تتبع الفرعيات مهما تكن ضخمة، حتى ولو كانت هي حدود الله، فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه، فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة: تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع، واعتبار ربوبية الله

وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة، .. فكل جهد في الفروع ضائع (...) والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات...»(٢٣).

والرسول ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده**».

ويقول سيد قطب- رحمه الله: «حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم؛ وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع: الحاكمية فيه لله وحده، وشريعة الله وحدها هي الحاكمة فيه؛ فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولا إلى الأمر بالمعروف الأكبر، وهو تقرير ألوهية الله وحده، سبحانه، وتحقيق قيام المجتمع المسلم. والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهي عن المنكر الأكبر؛ وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله، والذين آمنوا بمحمد ﷺ هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة، فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي، ولم ينفقوا قط جهدهم، قبل قيام الدولة المسلمة، والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل.

ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يدرك وفق مقتضى الواقع، فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم»(٢٤).

جـ- نخلص من ذلك إلى أن الأمر بالمعروف: هو الدعوة إلى الإيمان، والعبادة لله وحده، والخضوع لشريعته، واتباع رسوله، والعمل بطاعته، وأنه يجب أن نبدأ بتربية العقيدة وتقرير أن العبادة لله وحده، وتقرير ربوبية الله وألوهيته، وحاكميته، وأنه- بمقتضى ذلك- يجب أن يطاع، وأن يحكم شرعه

---

(٢٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص ٩٤٩ – ٩٥١. وانظر المجلد الثالث، ص ١٢٣٠.
(٢٤) المصدر السابق، مجلد ٣، ص ١٧٢٠.

الذي أنزله على محمد ﷺ.

وأن النهي عن المنكر: هو النهي عن الكفر بجميع صوره، والشرك بجميع صوره، والنهي عن عبادة غير الله، واتخاذ غير الله ربا مشرعا، وحاكما له الأمر، النهي عن الحكم بالطاغوت، والتوجه بجميع العبادات لغير الله، وعدم اتباع شريعة الله، وعدم تحكيمها في الصغير والكبير، وعن المعاصي.

وأنه يجب أن نبدأ في النهي بما بدأ الله به.

يقول ابن تيمية: «وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله؛ وهو أن يدعو مع الله إلها آخر كالشمس والقمر والكواكب، أو كملك من الملائكة، أو نبي من الأنبياء، أو رجل من الصالحين، أو أحد من الجن، أو تماثيل هؤلاء، أو قبورهم، أو غير ذلك مما يدعى من دون الله تعالى، أو يستغاث به، أو يسجد له، مثل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرمه الله على لسان جميع رسله، ومن المنكر كل ما حرمه الله(...) وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ، وغير ذلك»[(٢٥)].

وأرى أن الأولى أن نجمع بين الأمر بالمعروف الأكبر، وباقي المعروف، وذلك في بناء الصف المسلم لإخراج المسلم المتكامل للناس، وكذلك النهي عن المنكر الأكبر، وباقي المنكر ليتخلص المسلم الذي ندعوه ونربيه، من كل ما حرم الله من منكرات، ليكون عبدًا لله، حقا، وأننا يجب أن نراعي مقتضى الواقع الذي نعيش فيه، وواقع الشخص الذي ندعوه ونربيه، ونأمره وننهاه، وأن نراعي ترتيب أولويات المعروف، وأولويات النهي عن المنكر حسبما تقرره نصوص الوحي.

رابعا: موقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين:

أ- يقول ابن تيمية: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أوجب

---

(٢٥) شيخ الإسلام ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مطبعة المدني، ص ١٨ -١٩. ونفس المعطى بألفاظه في ابن تيمية: الاستقامة، مصدر سابق، ص ٣٦١.

الأعمال وأفضلها وأحسنها»(٢٦).

ويقول القاضي عياض تحت «باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان»، يقول: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الإيمان، ودعائم الإسلام، بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولا خلاف في ذلك، إلا ممن لا يعتد بخلافه من الرافضة»(٢٧).

ويذكر النووي أن هذا الأصل «من أعظم قواعد الإسلام»(٢٨)، ويقول: «واعلم أن هذا الباب؛ أعني: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (...) هو باب عظيم، به قوام الأمر، وملاكه، وإذا كثر الخبث؛ عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله بعقابه (...).

فينبغي لطالب الآخرة، الساعي من تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم (...) ويخلص نيته، ولا يهابَنَّ من ينكر عليه؛ لارتفاع مرتبته، فإن الله- تعالى- قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]»(٢٩).

ويقول ابن رجب: «وقوله ﷺ في الذي ينكر بقلبه: «**وذلك أضعف الإيمان**»؛ يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصال الإيمان»(٣٠).

فهما لازمان من لوازم الإيمان، وخصلتان من خصاله، وواجبان من واجباته، وتركهما كبيرة من كبائر الإثم.

---

(٢٦) شيخ الإسلام ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٢٩، والحسبة، ص ٤٠، واقرأ (فصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من كتاب ابن تيمية: الاستقامة، مصدر سابق، ص٣٥٧ – وما بعدها، ففيه نفس المعطيات.

(٢٧) إكمال المعلم، ج ١، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٢٨) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢، ص ٢٦.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٣٠) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٨٧.

فهما فرق بين المؤمنين والمنافقين، ومن هجرهما خرج من المؤمنين، وترك الإنكار تعاون على الإثم..(٣١).

ب- ويقول الماوردي: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو السهم الذي بعث الله تعالى به النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل عمله، لعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، (...) وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة،وانتشر الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

إذ قد اندرس من هذا القطب علمه وعمله، (...) واستولت على القلوب مداهنته الخلق، وانمحقت عنها مراقبة الخالق، فاسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات(...) وعز على بسيط الأرض مؤمن صادق، لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافى هذه الفترة، وسد هذه الثلمة (الخرق) إما متكفلا بعملها، أو متقلدا لتنفيذها، مجردا عزيمته لهذه السنة الداثرة، ناهضا بأعبائها، ومتشمرا في إحيائها كان مستأثرا- من بين الخلق- بقربة ينال بها درجات القرب دون أجناسه»(٣٢).

ونقل الغزالي هذا النص وعدل في بعض عباراته مثل: «كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها»(٣٣).

جـ- وإنما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه المنزلة الأصيلة،

---

(٣١) انظر الكبيرة الثالثة – إلى الخامسة والتسعين بعد الثلاثمائة (ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة.. ومخالفة القول الفعل) في: ابن حجر الهيتمي: الزواجر، ج٢، ص٣٠٠ – ٣١٤.

(٣٢) الإمام على بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي: الرتبة في طلب الحسبة، دار الرسالة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٧٣، ٧٤.

(٣٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١١٨٦.

والأصلية، في الدين، لأسباب اجتماعية، ليس هنا مجال تفصيلها، فنشير إلى ذلك فنقول:

١- يقول ابن تيمية: «كل بني آدم لا تتم مصلحتهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع، فإذا اجتمعوا فلابد لهم من أمور يفعلونها، يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، والناهي عن تلك الفاسد»(٣٤).

والمجتمع يكون إسلاميا إذا قبل شرائع الإسلام، وكانت شريعته هي التي تهيمن على توجيه الأمر والنهي في المجتمع.

٢- «وكل بشر على وجه الأرض فلابد له من أمر ونهي، ولابد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده، لكان يأمر نفسه وينهاها؛ إما بمعروف وإما بمنكر، (...) فإن الأمر: هو طلب الفعل وإرادته، والنهي: طلب الترك وإرادته، ولابد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه، ويقتضي بهما فعل غيره، وإذا أمكن ذلك فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدا فلابد أن يكون بينهما ائتمار بأمر، وتناه عن أمر»(٣٥).

٣- إذن، الإنسان- فردا ومجتمعا- لابد له من شريعة، يأمر وينهى ويفعل ويترك، طبقا لها، ويكون الإنسان مسلما جيدا يأتمر ويأمر، وينتهي وينهي طبقا للإسلام، وكذلك المجتمع، فإن كان الأمر والنهي فيه للإسلام، وطبقا للإسلام، كان مجتمعا مسلما.

٤- وقد نزل الإسلام ليكون الدين كله لله، أي: الطاعة، والعبادة كلها لله،

---

(٣٤) ابن تيمية: الحسبة، ص ٤.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٥٧، ابن تيمية: الاستقامة، ص ٣٩١.

والأمر والنهي، في الفرد، والمجتمع، لله، فإذا حدث فيه ما يضاد ذلك؛ وجب الوقوف ضده، حفاظا على هوية المجتمع الإسلامي، أي: على مجموعة المقومات والخصائص العقدية والخلقية والتشريعية والتعبدية للمجتمع المسلم، والذي يقوم بهذه المحافظة هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

٥- وكل أمر ونهي يظهر في المجتمع فإنه يؤثر على الآخرين، وكل فعل جديد، وكل سلوك جديد، كذلك، فإذا قبله الآخرون، وأرادوه، وأحبوه، بدأ انتشاره في المجتمع، فإذا فعله الآخرون انتشر، وبدأ التغيير الاجتماعي يحدث، ويتجه الناس نحو هذا الأمر الجديد، هذه هي (ديناميكية) الأفكار والأخلاق، فإذا كان هناك مجتمع موحد، مسلم، وظهر فيه من يشرك أو يدعو إلى الشرك؛ كالشيوعي، أو العلماني الشامل، أو عباد القبور والقصور والطواغيت.. فإذا لم ينكر عليهم، ويوقف ضدهم، فإن الآخرين قد يقبلون ذلك، أي: يريدونه، ويتجهون لفعل هؤلاء، فينتقل إليهم الإلحاد والشرك، على المستوى القلبي والنفسي ومنظومة القيم، فإذا فعلوا الشرك فقد حدث تغيير اجتماعي نحو الكفر الشيوعي والعلماني، والقبوري، ولابد، فإذا تم الإنكار على هذا التغيير، وبغضه، وكراهيته، ومحاصرته، وإنهاؤه، استمر المجتمع إسلاميا، وإذا انتشر وازداد وجوده، حتى هيمن، وحكم، وغلب، تحول المجتمع وتغير إلى مجتمع غير إسلامي.

فالذي يحمي هوية المجتمع الإسلامي، ويعمل على استمراره إسلاميا، هم القائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طبقا لفقه أولويات الإسلام، ومقتضيات الواقع المعاش.

٦- فالمجتمع- من ناحية التأثر الاجتماعي الثقافي، الخلقي- وحدة متفاعلة، فيها تأثر وتأثير، متبادلان، ولابد، فهذه طبيعة من طبائع العمران

البشري، وقد أشار إليها النبي ﷺ بوضوح.

أخرج البخاري عن النعمان بن بشير- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»**(٣٦).

ورواه البخاري، عنه، بلفظ: «**مثل المدهن** (المحابي، المرائي، المضيع الحقوق، ولا يغير المنكر) **في حدود الله والواقع فيها، مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذين في أسفلها يمرون بالماء في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأسا، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه، فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولابد من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم**»(٣٧).

فهنا مرتكب المنكر، وهو الذي أراد أخرق السفينة، وهذا هو الواقع في حدود الله أو الراتع فيها، أي: محرماته، وهنا: المدهن: وهو الساكت عن إنكار المنكر، وهنا: الـمُنْكِر، وهو الذي يأخذ على يد مرتكب المنكر.. وهو القائم على حدود الله، أي: الثابت على التمسك بما أمره الله، به، واجتناب ما نهاه الله عنه(٣٨).

وفي هذا الحديث استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف، وفيه بيان لطبيعة المجتمع، ومسئولية الإنسان عن إنكار المنكر الذي يفعله الآخرون،

---

(٣٦) فتح الباري، ج ٥، رقم ٢٤٩٣، ص ١٣٢ – والقائم على حدود الله هو الناهي عن المنكر، والمستمسك بالحق، والواقع فيها هو المرتكب لما حرم الله، واستهموا: اقترعوا.

(٣٧) المصدر السابق، ج ٥، رقم ٢٦٨٦، ص ٢٩٢ – ٢٩٣.

(٣٨) الطبري: جامع البيان، مجلد ٣، ج ٤، ص ٦٦.

حتى يظل المجتمع سليما.

ورواه أحمد بروايات، منها: عن النعمان بن بشير قال: قال رسـول الله ﷺ: **«مثل القائم على حدود الله تعالى والمدهن فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أسفلها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء، فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: فإننا ننقبها من أسفلها، فنستسقي» قال: «فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعا، وإن تركوهم غرقوا جميعا»**(٣٩).

ورواه عنه بلفظ: **«مثل القائم على حدود الله- تعالى- والراتع فيها، والمدهن فيها.. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا»**(٤٠).

وهذا الحديث مهم جدا: إنه يبين أن المجتمع الإنساني وحدة متفاعلة، يؤثر بعضها في بعض، وأن فعل المنكر يؤدي إلى إهلاك المجتمع إذا لم يتم تغييره؛ فالبحر هو الحياة، والسفينة هي المجتمع، والناس يعيشون فيها، والذين في أسفلها هم العصاة، ومرتكبو الحرام، الذين يفعلون المنكر، والذين في أعلاها هم المطيعون لشريعة الله، ويمثل الالتزام بها وطاعتها دفة السفينة التي توجهها إلى الأمان، والسلامة، فإذا سكت المطيعون عن المنكر الذي يفعله العصاة، فهم مُدْهِنون، ساكتون عن الحق، وسينهار المجتمع بفعل هؤلاء المنحرفين عن الهداية الربانية، سينهار المجتمع على المطيعين والعصاة جميعا، ويغرقون جميعا، كما لو أن الذين في أسفل السفينة خرقوا خرقا،

---

(٣٩) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٧٧، ص١٥٠، وانظر رقم ١٨٢٨٦، ص١٥٣، ورواه الترمذي مثل رواية أحمد الأولى، وقال: حسن صحيح، سننه، ج٤، رقم ٢١٨٠، ص٧١- ٧٢.

(٤٠) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٩٢، ص ١٥٦.

وتركهم الآخرون، فإن الماء سيتدفق من البحر إلى السفينة، وتغرق بالصالح والمفسد.

فالإنسان الصالح مسؤول عن تغيير المنكر لتأمين سلامة المجتمع الذي يعيش فيه.. وليس كون الآخرين لهم حق في المجتمع يعني أن لهم الحرية في الإفساد، والإضرار بالمجتمع.

فالنهي عن المنكر، وتغييره، هو أساس النجاة الاجتماعية من الانهيار، والتفسخ، وهو أساس تجديد المجتمع، والمحافظة على هويته الإسلامية، وأساس تغييره نحو الأحسن، وأساس المجاهدة الثقافية ضد الغزو الثقافي، وأساس حصر الفساد في أضيق نطاق ممكن، إن لم يمكن إنهاؤه، وأساس توجيه الحكام والناس للعمل بشرائع الإسلام.

ويبين الشيخ حسن البنا- رحمه الله- خطورة «أن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتترك الأمة التواصي بالحق والصبر، وتهمل التناصح فيما بينها، والاسترشاد، فلا يقيم مستقيمها مائلها، ولا يرشد عالمها جاهلها ويترك حبل كل إنسان فيها على غاربه، يلهو ويعبث،.. ولا رقيب ولا حسيب، يعم فيها الشر، وتفشو بين أبنائها فاشية السوء، ويفسد العرف العام.. وما قيمة الفضيلة في أمة فسد تقديرها، واختل معيارها واضطربت موازين الحسن والقبح فيها»[٤١].

ثم يقول[٤٢]: «الشر إذا سرى، والداء إذا استشرى، صارت المعصية عادة مألوفة عند الناظرين إليها، والسامعين بها، فلم ينكروها، ولم يتأثروا بمرآها، (...) ذلك إلى ما يورثه انتشار المعاصي من قسوة القلب، وفساد المزاج، وغلظ الروح، مما يؤدي إلى استسهال أمر المعصية، والاستهانة بشأنها، مع أن

---

(٤١) حسن البنا: نظرات في السنة، ص ١٩٧.

(٤٢) المرجع السابق، ص ١٩٧ – ١٩٩.

الصغيرة مهلكة، والكبيرة موبقة، ومحقرات الذنوب يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه(...).

وأما أن هذه الخصلة إذا وجدت في أمة كانت سر دمارها، وتزيد انهدامها، فلأن الداء إذا حسم بالدواء زال أثره، وظل الجسم صحيحا معافى، فإذا ترك وأهمل؛ سرى وانتشر حتى يودي بالحياة، ويهدم البنية تهديما.

فإذا تناصحت الأمة، وتواصت بالحق والصبر، وضربت على يد أهل المنكر، وأطرتهم (قصرتهم) على الحق أطرا؛ ثابوا إلى رشدهم، فسلمت حياة الأمة من شرورهم، فإذا تركوهم وشأنهم، ونفضوا من إصلاحهم أيديهم، سرى الداء منهم إلى غيرهم حتى يعم الأمة جميعا، ويكون مثلهم في ذلك كمثل الذين استهموا في السفينة (...) فلو تركهم أهل الأعلى لغرقوا جميعا؛ لأن الضرر محيط بهم، وواجبهم حينئذ أن يضربوا على أيديهم، ويمنعوهم من فعلتهم، ولا يستقيم لهم حينئذ أن يحتجوا بأن ذلك نصيبهم، وهم أحرار فيما يفعلونه.

أرأيت يا عزيزي القارئ كيف يودى ترك العاصي يتمادى في غيه بحياة الأمة جميعا؟

وأرأيت كذلك فساد الاحتجاج بالحرية الشخصية في خرق سياق الآداب العامة.. وقوانين الفضيلة، ..؟

والله تبارك وتعالى بالمرصاد لأولئك الذين يهملون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن المعروف حماه، ولكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، والله أغير على حماه أن يستباح وعلى حرماته أن تنتهك، وقد قص علينا أن اللعنة والخزي والعار والدمار حلت على قوم، بأنهم كانوا إذا عصي فيهم الرجل تركوه، وقالوا: ما لنا وله؟ فذلك قوله- تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ

﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وإنما تعلو الأمم وتهبط في ميزان الرضوان الإلهي، والفضل الرباني بهذا المقياس: أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، ولأمر ما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

د- ولهذا كان الأمر بالمعروف (الدعوة إلى الإيمان والتوحيد والعبادة لله، وعمل الطاعات، والمستحبات) والنهي عن المنكر، من أعظم قواعد الإسلام، وكان الاتصاف به خاصة مميزة للنبي محمد ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فالنبي يأمر بكل معروف، وينهى عن كل منكر.

وكان الاتصاف به خاصة مميزة للأمة، وشرطا لخيريتها، فقال- تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، في الطبري: «أن عمر بن الخطاب قال: يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها. وعن مجاهد: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ على هذا الشرط، أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتؤمنوا بالله، يقول: لمن أنتم بين ظهرانيه»(٤٣). يعني: في الوسط الاجتماعي الذي تعيشون فيه.

يقول ابن كثير: «فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح(...) ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]»(٤٤).

وكذلك وصف الله المؤمنين بأعيانهم فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] يقول الغزالي: «نعت

(٤٣) الطبري: جامع البيان، مجلد ٣، ج ٤، ص ٥٥.
(٤٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٩٦.

المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية»(٤٥).

ويقول في وصف الممكن لهم في الأرض من المسلمين: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[الحج: ٤١]، فقرنه بالصلاة والزكاة، وجعله سمة فارقة للمؤمن من غير المؤمن.

وقد علل الله استحقاق كفار بني إسرائيل للعنة بتركهم النهي عن المنكر، فترك النهي عن المنكر سمة اليهود، وسمة المنافقين، وهذا تحذير شديد للمؤمنين بالله.

من ذلك كله، يتبين لنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصية مميزة للمؤمن، المسلم، والمسلمة، وجعله الله لازما من لوازم الإيمان، من تركه جحودا فهو مرتد غير مسلم، ومن تركه، وهو يستطيع أن يقوم به، فقد ارتكب كبيرة من الكبائر؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزائم الأحكام.

هـ- وفي محاضرة مهمة للشيخ حسن البنا- رحمه الله- يبين مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأسسه النفسية والاجتماعية، وموضعه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأهميته وضرورته، يقول: «أيها الإخوان.. المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمران لا يتم الإيمان إلا بهما:

- شعور في النفس
- وعمل في الخارج.

فأما الشعور النفساني: فهو حسن إدراك للأمور.. يجعلك تستطيع أن تشعر بالحسن فتسر وتفرح بحسنه، وتأمر الناس بأن يفعلوه، وأن تشعر بقبح

---

(٤٥) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١١٨٧.

القبيح فتشمئز له نفسك، وتتقزز منه مشاعرك، وتمتعض لنظره ولرؤيته، وتجد فيه أذى وإيلاما، فيدفعك هذا إلى أن تعبر عن شعورك هذا، وأن تنهى الناس عنه..، فهو شعور في القلب؛ هو أن تشعر بحسن الحسن وقبح القبيح.

معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن تعمل على أن تحمل الناس على الحسن، وتنزعهم عن القبيح، والإسلام كدين فردي واجتماعي معا، يفرض عليك أن تصلح نفسك، وأن تدعو غيرك إلى الإصلاح.

والمسوغات التي تجعل الإنسان يتدخل في عمل غيره كثيرة:

أولا: التضامن الاجتماعي بين الناس: لأن المجتمع كبناء، إذا ظهر السوس في جزء منه أثر ذلك في البناء كله، وبحكم أنك ستضر بسوء تصرفه، فإن لك الحق في منعه، ويؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها**.. الحديث».

فإذا ظهر الفساد في المجتمع فإنه سوف يستشري ويشيع، وحينئذ ستتأثر أنت، كما سيتأثر، هو، فكل حرية شخصية محدودة بحدود الغير، فحق هذا المتصرف في عمله الشخصي: محدود بأنه لا يؤذي غيره، وبما أن شرب الخمر - مثلا - يجعل منه قدوة وتشيع الفاحشة؛ فإن الحاكم وغيره من الناس مطالب بأنه يتدخل للمنع؛ بحق التضامن الاجتماعي.

ثانيا: المسوغ الإنساني البحت.. الأخوة الإنسانية التي تجعلك أخي وأنا أخوك، هو أخي وأنا أخوه، أتألم لألمه، وأهتم لهمه، وأغتم لغمه، وأسر لسروره، وأجد من الحزن حين يحزن، بحكم أننا جميعا إخوان مسلمون، فهو حين يحتسي الخمر؛ ينفق ماله، ويحرق دمه، ويذهب عقله، ويجني على بيته، وكلها نكبات، فأنا سأحمل بعضها بحكم أخوتي له، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ، فبحكم الرابطة الإنسانية أنا لي الحق في أن أتدخل في حريته، فآمره بالخير، وأنهاه عن الشر.

ثالثا: مسوغ الحق: فالحق في ذاته له حقوق على الناس، فإن الحق هو الميزان الذي تقوم عليه السموات والأرض، ومن هذا كانت المبادئ السليمة تشترى بالدماء.. ويضحى في سبيلها: لأنها حق، ولأن للحق جندا وأنصارا، وبما أن هذا العمل حق؛ فأنا جنديه، وبما أن الباطل ليس بحق؛ فأنا خصمه؛ أهدمه وأحطمه، (...).

فهذه كلها- أيها الإخوان- مسوغات، وما أجمل أن تشير الآية الكريمة إلى حق التضامن الاجتماعي ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٠- ٣٢](...) إنه من عمل الخير فقد ساقه إلى المجتمع كله ومن عمل الشر فقد ساقه إلى المجتمع كله.

وفي الحديث الصحيح: «**ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سَنَّ القتل**».

وفي الحديث الشريف: «**من دعا إلى هدى، فله أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا**».

فالتضامن الاجتماعي هو الذي يفرض على الإنسان أن يتدخل، هو الذي يفرض عليك أن تتدخل لفعل الخير ورد الشر.

ومن هذا الأصل الاجتماعي تستمد النيابة العمومية حقها العمومي في إقامة الدعوى العمومية، لأن النيابة نائبة عن المجتمع، في الحق الذي سيعود عليه من الخير أو الشر، فكان هذا هو الأصل الذي قام عليه حق النيابة العمومية في رفع الدعوى، وأنت كذلك نائب عام بحكم وصفك الإسلامي،

كمسلم: تعلم أن خير المجتمع في اتباع أحكام الإسلام، وتعلم أن شر المجتمع في ترك أحكام الإسلام، وهذا يخول لك أن تقيم من نفسك مدعيا عموميا تضرب على أيدي المعتدي، لنزعه عن شره، حتى لا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

وإذا اتضح هذا- يا أخي- علمنا أن هناك مسوغات قوية لقيامك بهذا الدور؛ منها جمال الحق، ورابطة الأخوة التي بيننا، فكل هذا يفرض علينا أن نتدخل لرد الشر، وأن نأمر بفعل الخير، فإذا أقدم فرد على شر، فبحكم هذه الأخوة، وبحكم أنه أخوك، وسيقع في مكروه، فأنت ملزم بأن ترده عن هذا المكروه.

وقانون التضامن الاجتماعي الذي يربط المجتمع برابطة الأخوة وإشاعة الحق: كل ذلك يلغي فكرة الحرية الشخصية ويجعلها لا تقوم إلى جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: شعور يعتمل في النفس، فيدفع إلى الأمر بفعل الخير، ومقاومة القبح والنهي عنه، وما جاء به الإسلام: أمره بإصلاح الفرد والمجتمع، فهو دين فردي واجتماعي، فعليك أن تصلح نفسك بالعمل الصالح، وتدعو إليه غيرك(...).

وتعالوا الآن ننظر إلى قيمة هذا العمل في كتاب الله- تبارك وتعالى، فنجد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد كرره في كثير من السور» (ثم ساق آيات: آل عمران: ١٠٤، آل عمران: ١١٠، ١١٣- ١١٥، المائدة: ٧٨، ٧٩، المائدة: ٦٣، التوبة: ٧١، الحج: ٤١) ثم قال:

«ألست ترى- يا أخي- أن الله -تبارك وتعالى- إنما وزن الأمم بميزان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فحين رفع أمة إلى أعلى عليين قال فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم علل هذه الخيرية بقوله:

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وحين نزل بأمة إلى أسفل سافلين قال فيها: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فكان إضرابهم عن التناهي عن المنكر سببا في نزول درجتهم، واستحقوا اللعنة؛ لإصرارهم على المنكر والعصيان.

بهذا الخلق، وبهذا السلوك وحده، أيها الإخوان، تتميز الرجولة الكاملة من الرجولة الفاشلة؛ لأن الرجل- كل الرجل- هو الذي يستطيع أن يقول الحق، وإن كان مرا، وإنما تتميز أقدار الرجال بأن يقولوا للمحسن: أحسنت، وللمسيء: أسأت.

ومن هنا كانت الأمة المحمدية خير الأمم التي أخرجت للناس، لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، (...) وكانت الأمم الأخرى في كفة الميزان الهابط النازل(...) وإلى هذا أقام الحديث الشريف: «**إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُوُدِّعَ منها**»(...).

ومن ذلك قول الله- تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فإن الآية الكريمة تحض على أن يكون من الأمة جماعة: مهمتهم الدعوة إلى الخير، فتقديم الدعوة الكلية، فيه ترغيب وتشويق، ثم في مفرداتها أمر بمعروف ونهي عن منكر، ثم يعقب بعد ذلك بالنتيجة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وفي الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠] نجد هذا المعنى الدقيق؛ فمع أن الإيمان بالله أساس وأصل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فرع، فقد قدم الفرع على الأصل؛ لأن الإيمان بالله عمل خاص يعود أثره على صاحبه، أما

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو عمل عام يعود أثره على الإنسانية جميعا، ولأنه حق المجتمع كله، فجاءت الآية الكريمة لإثبات أن الأمة المحمدية خير لنفسها وخير للناس.

ثم نجد هذا المعنى في قول الله- تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]، فلا تتحقق الأخوة إلا إذا أمرتك بالمعروف ونهيتك عن المنكر(...).

ولهذا- أيها الإخوان الكرام- فرض القرآنُ الكريمُ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فرضه فرضا لازما لكل قادر عليهما؛ ففي حديث جرير عن عبد الله يقول: بايعت رسول الله ﷺ على الإيمان بالله، والنصح لكل مسلم، وفي الحديث الشريف: «**الدين النصيحة**» (...).

وإذا كانت هذه هي منزلة النصيحة في ديننا، فعلى كل إنسان يعلم حكما من أحكام الدين، فهو مطالب أن يذيع هذا الحكم، وأن يعمل على إذاعته(...).. إلخ»[٤٦]، وهذه الفرضية نبينها في الفقرة الآتية:

خامسا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة ملزمة لمجموع الأمة:

أ- قلنا: إنه واجب من واجبات الإيمان، ويقول النووي: «وأما قوله ﷺ: «**فليغيره**» فهو أمر إيجاب، بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، وهو أيضا من النصيحة التي هي الدين(...) وإذا كان كذلك فمما كلف به: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله، ولم يمتثل المخاطب، فلا عتب بعد ذلك على الفاعل؛ لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي، لا القبول، والله أعلم»[٤٧]. ويقول: «ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا

---

(٤٦) حسن البنا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في حديث الثلاثاء: سجلها وأعدها لنشر أحمد عيسى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ص ١١٩ - ١٢٨.

(٤٧) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢، ص ٢٢، ٢٣.

قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثم إنه قد يتعين، كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده(...) على منكر، أو تقصير في المعروف، قال العلماء رضي الله عنهم: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه: الأمر والنهي، لا القبول(...) قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين..»(٤٨).

فتغيير المنكر فرض كفاية، وقد يتعين.

ب- ويقول ابن تيمية: «والله تعالى، كما أخبر بأنها (يعني: الأمة المسلمة) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقد أوجب ذلك على الكفاية منها، بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] (...) وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية، كما دل عليه القرآن، ولما كان الجهاد من تمام ذلك؛ كان الجهاد أيضا كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه، أثم كل قادر بحسب قدرته، إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته، كما قال النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره...**»(٤٩).

ويقول: «وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره(...) فإن مناط (علة) الوجوب هو القدرة، فيجب على كل إنسان بحسب قدرته، قال- تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]»(٥٠).

---

(٤٨) المصدر السابق، ص ٢٣.

(٤٩) ابن تيمية: الحسبة، ص ٣٦، وابن تيمية: كتاب الاستقامة، مصدر سابق، ص ٣٦٠.

(٥٠) المصدر السابق، ص ٦.

أي: أن تغيير المنكر واجب على كل مسلم بحسب قدرته، وهذا يعني أنه لازم على كل مسلم، بحسب ذلك، وقد وصف الله أعيان المؤمنين والمؤمنات بأنهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ [التوبة: ٧١].

جـ- ويفصل الغزالي الأدلة على فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في الباب الأول من كتاب الأمر بالمعروف، وهو «في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضيلته، والمذمة في إهماله وإضاعته».

ويورد أولا: الآيات القرآنية الموجبة لذلك، ومنها قوله- تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، قال: «ففي هذه الآية بيان الإيجاب، فإن قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن﴾: أمر، وظاهر الأمر: الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، (أي: مربوط، متعلق بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)؛ إذ حصر، وقال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فيها بيان أنه فرض كفاية، لا فرض عين، وأنه إن قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين(...) واختص الفلاح بالقائمين به، المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون؛ عم الحرج كافة القادرين، لا محالة»(٥١).

ويقول الشوكاني: «وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد في أركانها، وبه يكمل نظامها، ويرتفع سنامها». (فتح القدير، ج ١، ص ٦٠٥).

ومن الآيات التي استدل بها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله- تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] قال: «وهو أمر جزم، ومعنى التعاون: الحث عليه، وتسهيل طرق

---

(٥١) الغزالي: الإحياء، ج ٢، ص ١١٨٧.

الخير، وسد سبل الشر والعدوان، بحسب الإمكان»[٥٢].

د- أقول: فرض الكفاية: هو الفرض الذي تلزم به الأمة، كلها، في مجموعها، بحيث يلزم أن يكون في عدد (كاف) مؤهل بهذا الفرض حتى يتحقق تغيير المنكر، وتبليغ المعروف، وبحيث (يتعاون) كل عضو فيها على (إيجاد هذا العدد الكافي) و(إمداد كل منهم بما يعينه على تحقيق هذا الفرض) ليتمكنوا من القيام بأدائه، فإذا قام به أمة من المسلمين في كل مجتمع، أي: أدوا هذا الفرض بشكل سليم، وكاف، وناجح، سقط الإثم والحرج عن باقي المسلمين، الذين يجب أن يتعاونوا منهم، ويساندوهم، وإذا لم يقم به عدد كافٍ، فيه الكفاية، ويكفي للقيام بهذا الفرض اللازم، أثم كل فرد في الأمة، من المكلفين القادرين عليه.

فالأمة المسلمة كلها، بجميع أفرادها مخاطبة بهذا الأصل، تغيير المنكر، والأمر بالمعروف، والدعوة إلى الخير، وهي تنقسم قسمان: قسم يقوم بهذا الفرض، والباقي يعاونه، ويساعده، ويمده، وإلا أثم الجميع ووقعوا في الوعيد.

ففرض الكفاية أمكن وأقوى، وألزم من فرض العين؛ لأن فرض العين يخص الفرد نفسه، أما فرض الكفاية فيشمل مداه كل فرد في الأمة، كل الأمة.

إذن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية؛ بمعنى: أن كل أفراد الأمة مخاطبون ككل، وملزمون به ككل، ويجب عليهم أن يتعاونوا لإيجاد العدد الكافي منهم، للقيام بهذا الفرض بشكل كافٍ، وناجع، وأن يكون كل واحد مستعدا لتغيير المنكر إذا رآه، أو إذا استعان به مسلم آخر، في تغيير منكر، ويصبح هذا الفرض متعينا على المؤهل له، والقادر عليه، ولا يسعه غير

(٥٢) المصدر السابق، ج ٢، ص١١٨٨.

القيام به، بشروطه، فكل مسلم ومسلمة ملزم بتغيير المنكر حتى يتم القيام به، سواء قام به هو، أو قام به غيره، بشكل ناجع، وهو يسنده ويتعاون معه، ويشد أزره.

ولذلك كان ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- للقادر عليه- كبيرةً من كبائر الإثم[٥٣].

هـ- أما الأحاديث النبوية التي توجب وتفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي كثيرة، قدمنا منها في صدد هذا الفصل أربعة أحاديث مهمة جدا، ونذكر هنا ما يلي:

١ - أخرج الإمام أحمد والترمذي، وابن ماجه وأبو داود عن حذيفة بن اليمان؛ أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم**»[٥٤]. ورواه الترمذي بلفظ: «.. **أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا منه فتدعون فلا يستجيب لكم**» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[٥٥].

فهذا وعيد شديد لمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدل هذا على وجوب الأمر والنهي.

٢ - وأخرج ابن ماجه عن عائشة؛ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم**»[٥٦].

---

(٥٣) تدرس الكبائر رقم ٣٩٣ - ٣٩٥، في كتاب ابن حجر الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج٢، ص ٣٠٥ - ٣١٦.

(٥٤) الإمام أحمد: المسند، ج ١٦، رقم ٢٣١٩٤، ص ٥٨٤ قال محققه: إسناده صحيح، وقال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج٢، رقم ٧٠٧٠، ص ١١٨٩، وأخرجه في المشكاة برقم ٥١٤٠.

(٥٥) سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢١٧٦، ص ٦٩، وهو كما قال: وانظر: ابن كثير: تفسير..ج ١، ص ٣٩٠، و ج٢، ص ٨٣.

(٥٦) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٥١، ص ٣١٢.

٣- أخرج الإمام أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان في صحيحه، وغيرهم، من طرق كثيرة، وهذه ألفاظ أحمد، عن قيس قال: قام أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾[المائدة: ١٠٥]، وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه**»(٥٧).

ورواه ابن ماجه مثله، بلفظ: «**لا يغيرونه..**»(٥٨).

وأخرجه أحمد بلفظ: «.. **وإنكم تضعونها على غير موضعها**»، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروه، أوشك الله أن يعمهم بعقابه**... الحديث»(٥٩).

ورواه أحمد بلفظ: .. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه**»(٦٠).

ورواه الترمذي مثل هذا بلفظ: «.. **إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**» قال أبو عيسى: وفي الباب عن عائشة، وأم سلمة، والنعمان بن بشر، وعبد الله بن عمر، وحذيفة، وهذا حديث صحيح(٦١). وفي لفظ له: «**إن الناس إذا رأوا ظالما..**»(٦٢).

ورواه أبو داود وفيه: وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم**

---

(٥٧) قال شاكر: إسناده صحيح، قيس: هو ابن أبي حازم، المسند، ج ١، حديث رقم ١، ص ١٦٥.

(٥٨) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٥٢، ص ٣١٢.

(٥٩) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ١، رقم ١٦، ص ١٧٥.

(٦٠) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ١، رقم ٣٠، ص ١٨٠ – ١٨١، وهو برقم ٢٩ كذلك.

(٦١) سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢١٧٥، ص ٦٩، والحديث رواه أبو داود، سنن، ج ٤، رقم ٤٣٣٨، ص ١٠٧.

(٦٢) قال الترمذي: حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٥، رقم ٣٠٦٨، ص ٤١.

الله منه بعقاب»(٦٣).

وأخرجه الطبري بروايات منها: «**إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه، والظالم فلم يأخذوا على يديه، فيوشك أن يعمهم الله منه بعقاب**»(٦٤).

وقوله تعالى في الآية: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]، يقول ابن عباس: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته من الحلال والحرام، فلا يضره من ضل بعد، إذا عمل بما أمرته به.

قال الطبري: «وأصح التأويلات عندنا(...) ما روي عن أبي بكر الصديق فيها، وهو: «﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾: الزموا العمل بطاعة الله، وبما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه، ﴿**لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ**﴾» يقول: فإنه لا يضركم ضلال من ضل إذا أنتم رمتم العمل بطاعة الله، وأديتم- فيمن ضل من الناس- ما ألزمكم الله به فيه من فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رام ظلما لمسلم، أو معاهد، ومنعه منه، فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تماديه في غيه وضلاله، إذا أنتم اهتديتم وأديتم حق الله- تعالى- فيه.

وإنما قلنا: ذلك أولى التأويلات في ذلك بالصواب؛ لأن الله تعالى أمر المؤمنين أن يقوموا بالقسط ويتعاونوا على البر والتقوى، ومن القيام بالقسط: الأخذ على يد الظالم، ومن التعاون على البر والتقوى: الأمر بالمعروف، وهذا مع ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمره: بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ ولو كان للناس ترك ذلك لم يكن للأمر به معنى، إلا في الحال التي رخص فيه رسول الله ﷺ ترك ذلك، وهي حال العجز من القيام

(٦٣) سنن أبي داود، السابق، ص ١٠٧، والحديث رواه ابن حبان بإسناده صحيح كما قال الشيخ شعيب (٣٠٤)، وانظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ٢، رقم ١٣٧٥، ص ١٧٩، وتفسير ابن كثير ج٢، ص ١٠٩.

(٦٤) الطبري: جامع البيان، مجلد ٥، ج ٧، رقم ١٠٠٣٢، ص ١٢٢.

به بالجوارح الظاهرة، فيكون مرخصا له تركه؛ إذا قام حينئذ بأداء فرض الله عليه في ذلك – بقلبه»(٦٥).

ويقول الشوكاني في هذه الآية: «والمعنى: لا يضركم من ضل من الناس؛ إذا اهتديتم للحق، أنتم، في أنفسكم، وليس في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من تركه- مع كونه من أعظم الفروض الدينية- فليس بمهتد، وقد قال الله- سبحانه: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجوبا مضيقا متحتما..»(٦٦).

ويقول سيد قطب في نص جدير بالتأمل: «إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادئ أساسية في طبيعة الأمة المسلمة، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى.

إن الأمة المسلمة هي حزب الله، ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان، ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن؛ لأنه لا اشتراك في عقيدة، ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة، ولا اشتراك في تبعة أو جزاء، وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها، وأن تتناصح وتتواصى، وأن تهتدي بهدي الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها، ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئا أن يضل الناس حولها، ما دامت هي قائمة على الهدى.

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى، والهدى هو دينها هي وشريعتها، ونظامها، فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة، وأن تحاول هدايتهم، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة؛ لتقيم العدل بينهم، ولتحول بينهم

---

(٦٥) المصدر السابق، ص ١٢٣ – ١٢٤ وقول ابن عباس السابق، هو برقم ١٠٠٢٣، ص ١٢٠.
(٦٦) الشوكاني: فتح القدير، ج ٢، ص ١١٩.

وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم.

إن كون الأمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت؛ لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولا، ثم في الأرض جميعا، وأول المعروف: الإسلام لله، وتحكيم شريعته، وأول المنكر: الجاهلية، والاعتداء على سلطان الله وشريعته، وحكم الجاهلية: هو حكم الطاغوت، والطاغوت: هو كل سلطان غير سلطان الله، وحكمه،.. والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولا، وعلى البشرية كلها أخيرا.

وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية- كما فهم بعضهم قديما- وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثا، أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا اهتدى هو بذاته، ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة بإقامة شريعة الله في الأرض، إذا اهتدت هي بذاتها، وضل الناس من حولها.

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد، ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر، ومقاومة الضلال، ومحاربة الطغيان، وأطغى الطغيان: الاعتداء على ألوهية الله، واغتصاب سلطانه، وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر، الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة، أن تهتدي وهذا المنكر قائم (ثم ساق حديث أبي بكر السابق، وقال:) وهكذا صحح الخليفة الأول- رضوان الله عليه- ما ترامى إلى وَهْمِ بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة.

ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح: لأن القيام بتكاليف التغير للمنكر قد صارت أشق، فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه.

وكلا، والله، إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح، ولابد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، ولإخراج

الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولتقرير ألوهية الله في الأرض، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان، ولإقامة شريعة الله في حياة الناس، وإقامة الناس عليها، لابد من جهد؛ بالحسنى: حين يكون الضالون أفرادا ضالين: يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة، وبالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى، وتعطل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم وبعد ذلك- لا قبله- تسقط التبعة عن الذين آمنوا، وينال الضالون جزاءهم من الله، حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه»(٦٧).

٤- أخرج ابن ماجه عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي- هم أعز منهم وأمنع- لا يغيرون، إلا عمهم الله بعقاب**»(٦٨).

٥- وقد ذكرت في فصل سابق حديث «**إن الله لا يقدس أمة لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم**»، وفي رواية: «**لا يأخذ فيها الضعيف حقه غير متعتع..**» وخرجناه برواياته، وهذا عقاب من الله للأمة إذا تركت تغيير المنكر.

٦- أخرج الإمام أحمد وابن حبان والترمذي عن ابن عباس يرفعه إلى النبي ﷺ: «**قال: ليس منا من لم يوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر**»(٦٩).

وقوله: «**ليس منا**»: ليس مثلنا، أو ليس من أخلاقنا، وليس من سنتنا.

فهذه الأحاديث مع الأربعة الأولى، توجب على المسلمين أن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، ويأخذوا على يد الظالم، والمعتدي والمسيء، وإذا

---

(٦٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٩٩٢ – ٩٩٣.

(٦٨) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٥٤، ص ٣١٣.

(٦٩) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٣، رقم ٢٣٢٩، ص ٦٥، وقال الشيخ شعيب: حديث صحيح (ابن حبان/ ٤٥٨)، وانظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ٢، رقم ١٣٨١، ص ١٥١.

لم يفعلوا ذلك عمهم الله بعقاب.

و- فإذا لم يقم المسلم بإنكار المنكر وتغييره باليد إن استطاع، وباللسان إن استطاع، وبالقلب، وهذا هو الحد الأدنى، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، إذا لم يقم بذلك؛ فإنه ميت القلب، قلبه منكوس، (لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه، كما فصلنا في فصل سابق).

ويقول علي بن أبي طالب ﷺ: «فإذا لم يعرف القلب المعروف، ولم ينكر المنكر؛ نكس، فجعل أعلاه أسفله»(٧٠).

ز- ويقول الغزالي بعد أن أورد الأدلة، الآيات والأحاديث السابقة وغيرها: «فقد ظهر بهذه الأدلة؛ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة، إلا بقيام قائم به»(٧١).

يعني: لا يسقط الفرض إلا إذا قام به قائمون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ح- إن المسلم إذا آمن بفرضية وواجبية وإلزامية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له، وأن الله هو الذي أوجبه، وأنه جهاد في سبيل الله، وأن تركه كبيرة من كبائر الإثم، فإنه سيتوق بقلبه إلى ممارسته، فيدرسه ليمارسه، ويعيه ليسعى فيه.. فيتصف بصفة المؤمنين، ويؤدي شرط الله في خيرية الأمة.

فإذا ضم إلى هذا إيمانه بأهمية وموقع النهي عن المنكر في الحفاظ على هوية الأمة المسلمة، وإنقاذ سفينتها من الغرق بما فيها ومن فيها، وأنه شرط للتمكين في الأرض، وأنه طريق للدعوة إلى أصول الإسلام وفروعه، والنهي عن الكفر والشرك والمعاصي.. إذا ضم الإيمان بهذا كله، إلى النقطة السابقة، فإنه ينزع بضميره وقلبه إلى الممارسة الفعلية للأمر بالمعروف والنهي عن

---

(٧٠) الغزالي: الإحياء، ج ٢، ص ١١٩٥.

(٧١) المصدر السابق، ص ١١٩٦.

المنكر.

إنه لابد من الإيمان والحب والرغبة لممارسة هذه القاعدة الإيمانية: تغيير المنكر.. وإنما ينشأ ذلك في القلب بدراسة هذه المعطيات السابقة، مما يربي داعية العمل بالأمر والنهي، أي: الحب، وإرادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بكل طاقاته، وقدراته وبحسب الذي يعلمه الله، ويحاسبه عليه، وبأن يعرف: أن النبي ﷺ قال: «**وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة**» رواه مسلم عن أبي ذر.

سادسا: التغيير باليد والتغيير باللسان: الاستطاعة، وشروط الاستيعاب:

أ- الاستطاعة، وعدم الخوف المتحقق، من الإيذاء الشديد:

١- في حديث الفصل الحالي؛ يقول النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».

أي: يتعين على كل منكم- يا معشر المسلمين- أنه من رأى بعينه- غير متجسس، ولا متصنت- منكرا، أي؛ فعلا أو شيئا، أو سلوكا، تنكره الشريعة، وهو كل أمر محرم في الشرع، كبيرا أو صغيرا، يثبت بالدليل أنه محرم، فإن عليه أن يغيره، أي: أن يزيل هذا المنكر، بيده، إن استطاع، ذلك، أي: إن كان قادرا على التغيير باليد، وذلك إذا كان ذا سلطان على من فعل المنكر، أو كان يقدر على تغيير وإزالة المنكر، من غير أن يخاف خوفا متحققا على نفسه؛ بالقتل، أو بالسجن، أو الضرب القاسي المؤلم، أو أن يخاف الضرر الشديد في ماله، أو في وظيفة أو في أحد من أسرته.

فإن كان غير قادر ولا مستطيع- بحق- أو خاف الأذى السابق، خوفا متحققا، وليس مظنونا، فيبقى الإنكار باليد، والتغيير باليد، مستحبا، ومفضلا أن يأتي به، لكن يلزمه ويتعين عليه أن ينتقل إلى الإنكار والتغيير باللسان، والجهاد

باللسان، ببيان أن هذا منكر، حرمته الشريعة، وأن الحق كذا.. وأن من فعل هـذا المنكر إما مشرك، وإما فاسق.. بحسب نوع المنكر.. فيبين أحسن البيان، إن كـان قادرا ومستطيعا: بالفم، أو بالكتابة، أو عـلى شاشـة (الإنترنـت)..أو بالاتـصال الهاتفي، وبكل ما يستطيعه، من الوسائل المستحدثة، ما لم يحل بينـه وبـين ذلـك، ويستمر حتى يتحقق الخوف الفعلي، من الضرر المشار إليه، فإن عجـز- بعـد أن بذل استطاعته، واستفرغ وسعه الذي يعلمه الله- بقي الإنكار باللسان، والتغيير باللسان، والجهاد باللسان مستحبا، في حقه، وتعين عليه الإنكار بالقلب.

وهذا فرض عين عليه، وعلى غيره مـن المـسلمين، ولا يـسقط بحـال مـن الأحوال، إلا إذا انتفى الإيمان من القلب، وسيأتي بيان لهذا الجهـاد القلبـي في فقرة تالية.

٢- يقول القاضي عياض: «الحديث: أصل تغيير المنكر، وعَلَم على العلـم في عمله، فمن حق المغير أولا (يعني: من واجبه) أن يكـون عالمـا بـما يغـيره، عارفا بالمنكر من غيره، فقيها بصفة التغيير ودرجاته، فيغيره بكل وجه أمكنـه زواله به، وغلبت على ظنه منفعة تغييره، بمنزعه ذلـك: مـن فعـل أو قـول،.. (...) فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرا أشد منه؛ من قتله أو قتل غيره بسببه، كف يده، واقتصر على القول باللسان، والوعظ والتخويف، فـإن خاف- أيضا- أن يسبب قوله مثل ذلك؛ غير بقلبه، وكان في سعة، وهذا هـو المراد بالحديث إن شاء الله، وإن وجد من يستعين به على ذلـك اسـتعان، مـا لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلـك إلى مـن لـه الأمـر، إن كـان المنكر من غيره، أو يقتصر على تغييره بقلبه، هـذا هـو فقـه المـسألة، وصـواب العمل فيها عند العلماء والمحققين»[٧٢].

٣- وإذا كان الأمر كذلك، وإنه لكـذلك، فـإن مجـرد (الهيبـة) والخـوف، لا

---

(٧٢) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، ص ٢٩٠.

تسقط فرض الإنكار باليد واللسان، بل الذي يحول هذا الفرض إلى مستحب مفضل عند الله، هو الخوف الشديد الغالب على الظن، المتحقق من وقوع الضرر البالغ، الذي أشرنا إليه سابقا؛ ولهذا جاء عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيبا، فكان فيما قال: «**ألا لا يمنعن رجلا هيبةُ الناس، أن يقول بحق إذا علمه**» قال: فبكى أبو سعيد، وقال: قد والله رأينا أشياء فَهِبْنا(٧٣).

ورواه أحمد بأسانيد؛ وفي بعضها: «**لا يمنعن أحدَكم هيبةُ الناس أن يقول في حق إذا رآه أو شهده أو سمعه**».

قال: وقال أبو سعيد: وددت أني لم أسمعه(٧٤).

ومنها: «**لا يمنعن رجلا منكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه، أو علمه**»(٧٥). ورواه الحسن عن أبي سعيد الخدري، وفيه: «**ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق، أن يقول بحق أو يذكر بعظيم**»(٧٦).

وهذا الحديث يدل على أن مجرد الهيبة أو المخافة أو الرهبة لا يسقط فرض الأمر والنهي، ولكن الذي يسقطه هو الخوف المتحقق من القتل أو السجن أو التعذيب الشديد.. إلخ ما ذكرنا سابقا.

وفي جامع العلوم: «قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: آمر السلطان بالمعروف وأنهاه عن المنكر؟ قال: إن خفت أن يقتلك، فلا، ثم عدت، فقال لي مثل ذلك، ثم عدت، فقال لي مثل ذلك، وقال: إن كنت لابد فاعلا ففيما بينك وبينه»، ثم قال ابن رجب: «نعم، إن خشي في الإقدام على الإنكار على الملوك أن يؤذي أهله، أو جيرانه، لم ينبغ له التعرض لهم حينئذ، لما فيه من تعدي

---

(٧٣) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٥٣، ص ٣١٣.
(٧٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١٠٩٥٩، ص ١٧.
(٧٥) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٣٤١، ص ١٤١.
(٧٦) حسن، المسند، ج ١٠، رقم ١١٤١٣، ص ١٥٩. وانظر رقم ١١٧٦٣، ١١٧٧٠.

الأذى إلى غيره، (...) ومع هذا، فمتى خاف منهم على نفسه السيف أو السوط، أو الحبس، أو القيد، أو النفي، أو أخذ المال، أو نحو ذلك، سقط أمرهم ونهيهم (يعني: من حيث هو فرض، ويتحول إلى مستحب)(...).

وقال ابن شبرمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالجهاد، يجب على الواحد أن يصابر فيه الاثنين، ويحرم عليه الفرار منهما، ولا يجب عليهم مصابرة أكثر من ذلك (يعني: هو مستحب أو مباح)، فإن خاف السب أو سماع الكلام السيئ لم يسقط عنه الإنكار بذلك، نص عليه الإمام أحمد، وإن احتمل الأذى وقوي عليه، فهو أفضل، نص عليه أحمد أيضا»(٧٧).

٤- وأخرج الخلال أن إسحاق بن إبراهيم قال لأبي عبد الله (الإمام أحمد بن محمد بن حنبل): متى يجب عليّ الأمر؟ قال: إذا لم تخف سَيْفَه ولا عصاه(٧٨).

وروي عن إسماعيل بن سعيد قال: سألت أحمد عمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند من لا يخاف سيفه ولا سوطه؟ قال: إذا استطاع فليغير، فلا يسعه غيره(٧٩).

وروي عن إسحاق بن إبراهيم أن أبا عبد الله سئل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على المسلم؟ قال: نعم، قال: فإن خشي؟ قال: هو واجب عليه حتى يخاف، فإذا خشي على نفسه فلا يفعل(٨٠).

وأخرج عن شعيب بن حرب قال: «لولا السيف والسوط، وأشباه هذا؛ لأمرنا ونهينا، فإن قويت فأمر وانه»(٨١). فالخوف المتحقق هو الذي يحول

---

(٧٧) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٨٤، ٣٨٥.

(٧٨) أبو بكر أحمد بن من محمد بن هارون الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دراسة وتعليق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، رقم ٤، ص ٦٦.

(٧٩) المصدر السابق، رقم ٥، ص ٦٦.

(٨٠) المصدر السابق، رقم ٨، ص ٦٧.

(٨١) المصدر السابق، رقم ٨، ص ٦٧.

الفرض إلى مستحب، وهذا في الإنكار باليد واللسان على ذوي السلطان، وليس مجرد الهيبة، أو الرهبة، أو المخافة.

وأخرج الخلال عن الفضيل؛ قال: سمعت أبا عبد الله- وقال له رجل: لي جار يشرب ويعتدي، ترى لي أن أنهاه عن ذلك؟ قال: ما أحسن ما تفعل، وقال له الرجل: فإن لم أفعل؟ قال: تخافه؟ قال: نعم، قال: أنكر بقلبك، وليعلم الله ذلك منك، روي ذلك عن عبد الله بن مسعود(٨٢).

قلت: هذا إذا لم يتعين الإنكار على الشخص، مثل: إذا كان عالما به، وليس هناك من يقوم به سواه، يقول أحمد: «إذا سكت العالم، والجاهل يجهل، فمتى يظهر الحق؟».

ب- العلم:

١- يشترط في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون على علم وثقة بالأمر الذي يأمر به، والمنكر الذي ينهي عنه، عارفا بالمنكر عن غيره، فقيها بصفة التغيير ودرجاته، كما نقلنا عن عياض، وأن يكون على علم وفقه بحال من يأمره وينهاه، يقول ابن تيمية: «فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون هكذا في حق نفسه (أي: خالصا لله، وصوابا على السنة المحمدية)، ولا يكون عمله صالحا إن لم يكن بعلم وفقه، كما قال عمر بن عبد العزيز: «من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»(...) وهذا ظاهر؛ فإن القصد والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا، واتباعا للهوى، (...) وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام، فلابد من العلم بالمعروف والمنكر، والتمييز بينهما، ولابد من العلم بحال المأمور والمنهي»(٨٣).

وأخرج الخلال عن سفيان قال: إنما أهلكنا أنا نحن سقمى، ونسمى

(٨٢) المصدر السابق، رقم ١٢، ص ٦٩.

(٨٣) ابن تيمية: الحسبة، ص ٤١ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٣١.

أطباء، ثم قال: لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى(٨٤).

ويقول النووي: «إنما يأمر وينهي: من كان عالما بما يأمر به، وينهي عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة، والمحرمات المشهورة؛ كالصلاة، والصيام، والزنى والخمر، ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره..»(٨٥).

ويقول الماوردي في شروط المحتسب، وهو الآمر بالمعروف إذا ظهر تركه، الناهي عن المنكر إذا ظهر فعله، المصلح بين الناس، قال: «وأن يكون(...) عارفا بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وينهي عنه، فإن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع(...) ولا مدخل للعقول في معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عز وجل، وسنة نبيه محمد ﷺ، ورب جاهل يستحسن بعقله ما قبحه الشرع، فيرتكب المحظور وهو غير ملم بالعلم به، ولهذا المعنى كان طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٨٦).

جـ- التمييز بين المنكر الذي يجب تغييره، والإنكار على فاعله، وبين ما لا يصح فيه الإنكار:

١ - اتفق أهل السنة على أن الذي ينكر عليه ويلزم تغييره، هو «المنكر» أي: الذي ثبت بالدليل الشرعي أنه مخالف للشريعة، وتنكره الشريعة، وتحظره، فلابد أن يكون منكرا حظرته الشريعة، ومجمع على أنه منكر، يقول

---

(٨٤) الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٣٢، ص ٧٩ – ٨٠.

(٨٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢، ص ٢٣.

(٨٦) الماوردي: الرتبة في طلب الحسبة، ص ٦٥ والحديث المشار إليه، إسناده صحيح بطرقه. الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٣٩١٣، ورقم ٣٩١٤، ص ٧٢٧.

عياض: «لا ينبغي للآمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يحمل الناس على اجتهاده ومذهبه، وإنما يغير منه ما اجتمع على إنكاره، وإحداثه»(٨٧).

ويقول النووي: «ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه»(٨٨).

وقال ابن حجر الهيتمي: «ولا ينكر العالم إلا مجمعا على إنكاره، أو ما يرى الفاعل تحريمه دون ما عدا ذلك، نعم، يندب له أن يندبه على وجه النصيحة إلى الخروج من الخلاف إن لم يقع في خلاف آخر، وترك سنة ثابتة، لاتفاق العلماء على استحباب الخروج من الخلاف حينئذ»(٨٩).

ويحدد الغزالي ذلك بأن يكون منكرا محظورا الوقوع في الشرع، موجودا في الحال، ظاهرا بغير تجسس، معلوما بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه، أي: لا إنكار فيه(٩٠).

فالإنكار واجب على كل من فعل شركا كالذبح لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والدعوة للتحاكم إلى العلمانية والشيوعية، والدعوة لموالاة الأمريكان والكفار، وعلى كل من ترك الحكم بشرع الله، وحكم بغيره، وعلى كل من فعل بدعة ضلالة، كتشييد قبة أو مقام على ميت، والإنكار واجب على كل من شرب خمرا، أو حشيشا، أو دعا لتبرج المرأة، وإظهار ما أمر الله بستره.. وهكذا.

أما المختلف فيه بين العلماء فلا يجب، ولا يصح فيه الإنكار والتغيير كإظهار الوجه والكفين للمرأة، أو سترهما عند الخروج من بيتها، فهناك من العلماء والأئمة من جعل الوجه والكفين ليس بعورة، وأجاز كشفهما مثل

---

(٨٧) إكمال المعلم، ج ١، ص ٢٨٩.
(٨٨) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢، ص ٢٣.
(٨٩) ابن حجر الهيتمي: الزواجر، ج ٢، ص ٣١٤.
(٩٠) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٢١٧ – ١٢٢٢ ملخصا.

عائشة وابن عباس في روايات كثيرة صحيحة عنه، ومثل عكرمة وسعيد بن جبير، والحسن البصري، والإمام مالك، وأحمد في روايات صحيحة عنه، والبيهقي، وابن بطال والقاضي عياض، والإمام الطبري في تفسير سورة النور من جامع البيان، والألباني في جلباب المرأة المسلمة.

وهناك من العلماء- وهم عدد قليل بالنسبة إلى الأولين- من رأى وجوب ستر الوجه والكفين، مثل ابن تيمية وغيره، فمثل هذا الموقف لا يصح لأحد الفريقين إطلاقا أن ينكر على الثاني، ومن أنكر فإننا يجب أن ننكر عليه هو، أو هي، لأنه فعل محظورا شرعيا، وهو أنه ينكر على شيء لا ينبغي فيه الإنكار، لأنه محل اجتهاد أهل العلم.

إذن، كما يقول الماوردي: «ليس له حمل الناس على اعتقاده، ولا يقودهم إلى مذهبه، ولا يأخذهم في الدين برأيه مع تسويغ الاجتهاد فيه»(٩١).

ويقول ابن رجب: «والمنكر الذي يجب إنكاره: ما كان مجمعا عليه، فأما المختلف فيه: فمن أصحابنا (يعني: الحنابلة) من قال: لا يجب إنكاره على من فعله مجتهدا فيه، أو مقلدا لمجتهد تقليدا سائغا، واستثنى القاضي في الأحكام السلطانية، ما ضعف فيه الخلاف، وكان ذريعة إلى محظور متفق عليه»(٩٢).

د- مراعاة نتائج النهي عن المنكر وتغييره- باليد أو اللسان:

١- يجب على من يتعرض للأمر والنهي أن يتفكر في نتائج أمره ونهيه، وأن يدرس الموقف، ويقدر النتائج المحتملة، مقدما، فإن رأى النتيجة خيرا ومصلحة، ومنفعة، ترجح على مضرة المنكر، أقدم على التغيير باليد أو اللسان، وإلا سكت، وكف، وتدبر في أسلوب أحسن وأنجح.

---

(٩١) الماوردي: الرتبة في طلب الحسبة، ص ٨٩، وانظر ص ٩٦ - ٩٧.

(٩٢) ابن رجب: جامع العلوم، ص ٣٨٧.

وهذه قاعدة عامة من قواعد الشريعة، فمراعاة واعتبار مآلات الأفعال واجب في كل فعل على الإطلاق، كما قرر الشاطبي- بحق- في الموافقات، فلا يقدم على فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا من يحكم هذه القاعدة، ويحسن تطبيقها.. وهي تحتاج إلى تربية عقلية وقلبية وإلى تأمل في الموقف، وطرح أسئلة وبحث عن إجابات، ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض ملزم لمجموع الأمة؛ فقد وجب تعلم هذه القاعدة، على كل مسلم ومسلمة، حتى إذا تعرض أي منهم لموقف أمر بمعروف، أو تغيير للمنكر، أحسن التصرف في هذا الموقف.

٢- ولعل أفضل من قرر هذه القاعدة هو رباني الأمة أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي، يقول:

وإذا كان هو (يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من أعظم الواجبات والمستحبات؛ فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعث الرسل، ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح.

وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع؛ فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان في ترك واجب وفعل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده، وليس عليه هداهم، وهذا معنى قول الله- تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات، لم يضره ضلال الضال(...).

وهنا يغلط فريقان من الناس: فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي؛ تأويلا

لهذه الآية كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: إنكم تقرؤون هذه الآية(...) وإنكم تضعونها في غير موضعها(...) والفريق الثاني: من يريد أن يأمر وينهي، إما بلسانه، وإما بيده مطلقا، من غير فقه، وعلم، وصبر، ونظر فيما يصلح من ذلك، وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر(...) فيأتي بالأمر والنهي معتقدا أنه مطيع في ذلك لله ورسوله، وهو معتد في حدوده(...).

وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات، أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها، فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي، وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له: فإن كان الذي يفوت من المصالح، أو يحصل من المفاسد أكثر؛ لم يكن مأمورا به، بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكبر من مصلحته.

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشياء والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر، بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعا، أو يتركوهما جميعا، لم يجز أن يؤمروا بمعروف، ولا أن ينهوا عن منكر، بل ينظر: بأن كان المعروف أكثر: أمر به وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله، والسعي في زوال طاعته، وطاعة رسوله ﷺ، وزوال فعل الحسنات.

وإن كان المنكر أغلب؛ نهى عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من

المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه: أمرا بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله.

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما، ولم ينه عنهما؛ فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح أمر ولا نهي، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين.

وذلك في الأمور المعينة الواقعة.

وأما من جهة النوع: فيؤمر بالمعروف مطلقا، وينهى عن المنكر مطلقا.

وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة: يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها، ويذم مذمومها: بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه، أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه، أو فوات معروف أرجح منه.

وإذا اشتبه الأمر: استبان المؤمن، حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية، وإذا تركها كان عاصيا، فترك الواجب معصية، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية.

وهذا باب واسع، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٩٣].

وهذه القاعدة المهمة التي تدخل في فقه الموازنات، والأولويات.. تتطلب قراءتها مرارا، والتفكر فيها، وتحليلها، ومعرفة صور تطبيقها ولهذا نضيف هذا النص المهم بها، يقول ابن القيم:

«إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة؛ بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وفتنة إلى

---

(٩٣) ابن تيمية: الحسبة، ص ٣٦ – ٣٨، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ١٩ – ٢٤.

آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: «**لا، ما أقاموا الصلاة**»، وقال: «**من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر، ولا ينزعن يدا من طاعته**»، ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار، رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات، ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك- مع قدرته عليه- خشية وقوع ما هو أعظم منه؛ من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه، (...) فإنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل، وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان: مشروعتان، والثالثة: موضع اجتهاد، والرابعة: محرمة.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج: كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة؛ إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله؛ كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك.

وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيرا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلا لهم عن ذلك، وكما إذا

كان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها، وخفت من نقله عنها انتقال إلى كتب البدع والضلال والسحرة، فدعه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه ونور ضريحه، يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار، بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي؛ فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية، وأخذ الأموال، فدعهم»(٩٤).

تأمل النص السابق، وخصوصا موقف شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم اشرع في دراسة فقه الأولويات، وفقه الموازنات، وهناك نص مهم آخر لابن تيمية في هذا الأصل: يقول: «وليس هذا إباحة للخمر والسكر، ولكنه دفع لشر الشرين بأدناهما.

ولهذا كنت آمر أصحابنا ألا يمنعوا الخمر عن أعداء المسلمين من التتار والكرج ونحوهم، وأقول: إذا شربوا لم يصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة، بل عن الكفر والفساد في الأرض، ثم إنه يوقع بينهم العداوة والبغضاء، وذلك مصلحة للمسلمين، فصحوهم شر من سكرهم، فلا خير في إعانتهم على الصحو، بل قد يستحب- أو يجب- دفع شر هؤلاء بما يمكن من سكر، وغيره.

فهذا في حق الكفار، ومن الفساق الظلمة من إذا صحا كان في صحوه من ترك الواجبات وإعطاء الناس حقوقهم، ومن فعل المحرمات والاعتداء في النفوس والأموال ما هو أعظم من سكره، فإنه: إذا كان يترك ذكر الله والصلاة في حال سكره، ويفعل ما ذكرته في حال صحوه؛ لم يكن سكره شرا

---

(٩٤) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، المجلد الثاني، ج ٣، دار الحديث، القاهرة، ص٢، ٣.

من صحوه، وإذا كان في صحوه يفعل حروبا وفتنا، لم يكن في شربه ما هو أكثر من ذلك، ثم إذا كان في سكره يمتنع عن ظلم الخلق في النفوس والأموال والحريم، ويسمح ببذل أموال تؤخذ على وجه فيه نوع من التحريم، ينتفع بها الناس، كان ذلك أقل عذابا ممن يصحو فيعتدي على الناس؛ في النفوس والأموال والحريم، ويمنع الناس الحقوق التي يجب أداؤها.

فالحاصل: أنه تجب الموازنة بين الحسنات والسيئات التي تجتمع في هذا الباب وأمثاله، وجودا وعدما، كما قررت مثل ذلك في قاعدة تعارض السيئات والحسنات(...).

فعليك بالموازنة في هذه الأحوال والأعمال الباطنة والظاهرة، حتى يظهر لك التماثل والتفاضل(...) لا سيما في هذه الأزمان المتأخرة التي غلب فيها خلط الأعمال الصالحة بالسيئة، في جميع الأصناف، لنرجح- عند الازدحام والتمانع- خير الخيرين، وندفع، عند الاجتماع، شر الشرين، ونقدم- عند التلازم- تلازم الحسنات والسيئات ما ترجح منهما، فإن غالب رؤوس المتأخرين وغالب الأمة، من الملوك والأمراء والمتكلمين والعلماء والعباد وأهل الأموال: يقع غالبا فيهم ذلك.

وأما الماشون على طريق الخلفاء الراشدين، فليسوا أكثر الأمة، ولكن على هؤلاء.. أن يعاملوا الناس بما أمر الله به ورسوله: من العدل بينهم، وإعطاء كل ذي حق حقه.. إذ الواجب هو الأمر بالمعروف وفعله، والنهي عن المنكر وتركه، بحسب الإمكان، فإذا عجز أتباع الخلفاء الراشدين عن ذلك، قدموا خير الخيرين حصولا، وشر الشرين دفعا، والحمد لله رب العالمين»[٩٥].

---

(٩٥) ابن تيمية: الاستقامة، مصدر سابق، ص ٣٤٢ – ٣٤٤. وانظر تفصيل قواعد الموازنة بين المصالح والمفاسد، في: العز بن عبد السلام: الفوائد في اختصار المقاصد، أو: القواعد الصغرى، تحقيق إياد خالد الطباع، ط ٢، دار الفكر، دمشق – سوريا، ١٩٩٩م، ص ٣٢ – ١٤٤.

٣- ويقول النووي: «فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرا أشد منه(...) كف يده، واقتصر على القول باللسان، والوعظ والتخويف، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك؛ غيره بقلبه، وكان في سعة»[٩٦].

٤- والمبدأ الحاسم في ذلك هو أن تغيير المنكر باليد واللسان فرض إذا لم يؤد التغيير إلى مفسدة أعظم منه، وهذا ينطبق على كل منكر مهما كان.

هـ - إدراك حدود التغيير باليد:

أخرج الخلال عن سليمان بن الأشعث قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام أحمد) يقول: نحن نرجو إن أنكر بقلبه فقد سلم، وإن أنكر بيده فهو أفضل.

وأخرج عن أبي بكر المروزي قال: قلت لأبي عبد الله: كيف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

قال: باليد واللسان وبالقلب، وهو أضعف الإيمان، قلت: كف باليد؟ قال: تفرق بينهم (أي: بين المنكر وفاعله، أو بين المتشاجرين.. إلخ).

قال الخلال: وحفظت على أبي بكر المروزي أنه قال: كنت مع أبي عبد الله في الطريق، فرأى صبيانا يقتتلون، فعدل إليهم، ففرق بينهم.

وأخرج عن صالح أن أبان قال: التغيير باليد؛ ليس بالسيف والسلاح.

وأخرج عن مهنا قال: سئل أبو عبد الله عن الرجل يأمر بالمعروف بيده؟ فقال: إن قوي على ذلك فلا بأس به.

وأخرج عنه قال: سألت أحمد عن الأمر بالمعروف: يستقيم باليد؟ يكون ضرب باليد إذا أمر بالمعروف؟ قال: الرفق[٩٧].

ففي حالة مجتمع إسلامي يحكم بالإسلام.. تكون هذه هي حدود التغيير باليد؛ دون استخدام سلاح، أو ضرب باليد، وفي حالة تعين القتال على

---

(٩٦) صحيح مسلم بشرح النووي: ج ٢، ص ٢٥.

(٩٧) الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أرقام ٢٥ -٣٠، ص ٧٦ - ٧٨.

المسلم- بشروطه الشرعية، كوجود احتلال الكفار لأرض المسلمين- فإنه يتعين القتال بالسلاح وباليد ضد هؤلاء المحتلين الكفار.

و- الاستيعاب الخلقي: الرفق، الحلم، الصبر، ترك الانتصار للنفس، والشجاعة، والرحمة، والسماحة:

١- بمعنى أن يكون الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر بيده، ولسانه، متخلقا بمحاسن الأخلاق، باطنا وظاهرا، ليتمكن من اللطف والرفق، وليقدر على ضبط نفسه، وليصبر على ما أصابه، في دين الله، وليعمل لله، لا لأجل الانتصار لنفسه؛ وليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب(٩٨).

٢- ويوضح ابن تيمية فيقول: ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي على الصراط المستقيم، والصراط المستقيم أقرب الطرق، وهو الموصل إلى حصول القصد.

ولابد في ذلك من الرفق، كما قال النبي ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه**» (رواه مسلم)، وقال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف**» (رواه البخاري ومسلم).

ولابد أيضا أن يكون حليما، صبورا على الأذى؛ فإنه لابد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر يفسد أكثر مما يصلح، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، ولهذا أمر الله الرسل- وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- بالصبر(...) فلابد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر، والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان من الثلاثة لابد أن يكون مستصحبا في هذه الأحوال.

---

(٩٨) انظر: النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص٢٤، الغزالي: الإحياء، ج ٧، ص١٢٣٤.

وهكذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف، ورووه مرفوعا، ذكره القاضي أبو يعلى في (المعتمد) : «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به، فقيها فيما ينهي عنه، رفيقا فيما يأمر به، رفيقا فيما ينهي عنه، حليما فيما يأمر به، حليما فيما ينهي عنه»(٩٩).

ثم يقول: «وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سببا لعلو الدرجة وعظيم الثواب، كما سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة**».

وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره، وذلك هو سبب الإمامة في الدين، كما قال- تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به، وعلى ترك المحظور المنهي عنه، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى، وعلى ما يقال، والصبر على ما يصيبه من المكاره، (...) وغير ذلك من أنواع الصبر.

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به، ويتنعم به، ويتغذى به؛ وهو اليقين(...).

وكذلك إذا أمر غيره بحسن، أو أحب موافقته له على ذلك، أو نهى غيره عن شيء فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده؛ من حصول المحبوب واندفاع المكروه؛ فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو، لا يمكن غير ذلك.

---

(٩٩) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٣١ – ٣٣ ، وابن تيمية: الاستقامة، ص٣٦٨-٣٦٩.

ولهذا أمر الله بتأليف القلوب(...).

فلابد أن يصبر ويرحم، وهذا هو الشجاعة والكرم(...).

ولابد من الثلاثة: الصلاة والزكاة والصبر، لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك؛ في صلاح نفوسهم، وإصلاح غيرهم، لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة، فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد»(١٠٠).

«والشجاعة ليست هي قوة البدن..وإنما هي قوة القلب وثباته(...) والمحمود منها ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود المذموم، ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب، حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح(...).

وقد تقدم أن جماع ذلك هو الصبر، فإنه لابد منه.

والصبر: صبران: صبر عند الغضب، وصبر عند المصيبة، كما قال الحسن رحمه الله: «ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب وجرعة صبر عند المصيبة».

وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم.

والشجاع الشديد هو الذي يصبر على المؤلم»(١٠١).

هذا النص يجب دراسته وتحليله، والعمل بما فيه، فكم قيمة للداعية المسلم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر هنا؟

(الرفق، الصبر، الشجاعة، اليقين، الرحمة، الإحسان للمأمور والمدعو، الكرم، الحفاظ على الصلاة، الزكاة، الحلم، السماحة).

---

(١٠٠) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٥١، ٥٢ وانظر: الحسبة له، ص ٤١، ٤٢، والاستقامة، له، ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(١٠١) المصدر السابق، ص ٥٨، ٥٩، والاستقامة، ص ٣٨٤، ويدرس كتاب (الاستيعاب) لفتحي يكن، فهو مهم هنا، وهو نافع إن شاء الله، وكتاب الاستقامة، ص ٣٦٨ – ٣٨٧.

ويختم ابن تيمية هذا النص بقوله: «من يعمل لله بشجاعة وبسماحة، فهؤلاء هم المؤمنون المستحقون للجنة(...) فهذه الأخلاق(...) يحتاج إليها المؤمن عموما، وخصوصا في أوقات المحن والفتن الشديدة، فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم، ودفع الذنوب عن نفوسهم، عند المقتضي للفتنة عندهم، ويحتاجون أيضا إلى أمر غيرهم ونهيه، بحسب قدرتهم، وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه، وإن كان يسيرا على من يسره الله عليه»(١٠٢).

٣- وأخرج الخلال عن حنبل أنه سمع أبا عبد الله يقول: الناس يحتاجون إلى مداراة، ورفق في الأمر بالمعروف، بلا غلظة، إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق والردى، فيجب عليه نهيه وإعلانه؛ لأنه يقال: ليس لفاسق حرمة، فهذا لا حرمة له.

وأخرج الخلال أن أبا عبد الله سئل عن الأمر، فقال: كان أصحاب عبد الله (ابن مسعود) يقولون: مهلا، رحمكم الله، مهلا، وفي رواية مهنا، قال أحمد ابن حنبل: كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون، يقولون: مهلا رحمكم الله(١٠٣).

٤- **لنتأمل في الموقف التالي**: أخبرنا ثابت البناني أن صلة بن أشيم وأصحابه مر بهم فتى يجر ذيله، فهمَّ أصحاب صلة أن يأخذوه بألسنتهم أخذا شديدا، فقال صلة: دعوه، أكفكم أمره، فقال له: يا بن أخ، لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قال: أحب أن ترفع في إزارك، قال: نعم، ونعمة عين، قال: فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: كان هذا أمثل مما أردتم، لو شتمتموه وآذيتموه شتمكم(١٠٤).

---

(١٠٢) ابن تيمية: الاستقامة، مصدر سابق، ص ٣٨٨، ٣٨٩.
(١٠٣) الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٣٣-٣٥، ص ٨٠، ٨١.
(١٠٤) ابن سعد: طبقات ابن سعد، ج ٥، ص ١٩٤.

هذا موقف نموذجي في الرفق، والرحمة، واللطف في (تغيير المنكر).

٥- ولندرس جيدا النصوص الآتية[١٠٥]:

- أخرج الخلال عن أحمد بن حنبل: حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يقول: ما أغضبتَ رجلا فَقَبِل منك.

- عن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل يقول: ما أحب الرجل- إذا كان يأمر وينهي- أن يقوم في مسجد من المساجد، أو في سوق من الأسواق، فيبكت الناس، ويؤنبهم من غير أن يرى منكرا، وما أحب له، إذا رأى منكرا، أن يسكت، إلا أن يخاف.

(يعني: الخوف المتحقق من وقوع قتل أو سجن،.. إلى آخر ما ذكرناه، فينتقل الفرض إلى مستحب، أي: يستحب له أن ينكر ويغير، رجاء ثواب الله).

- وأخرج الخلال عن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز: قال لأبيه: يا أبت، ما يمنعك أن تمضي لما تريده من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك، قال: يا بني، إني إنما أروض الناس رياضة الصعب، إني أريد أن أحيي الأمر من العدل، فأدخر ذلك حتى أُخْرِج معه طمعا من طمع الدنيا، فينفروا من هذه، ويسكنوا لهذه.

- وأخرج عن مهنا قال: سألت أبا عبد الله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كيف ينبغي أن يأمر؟ قال: «يأمر بالرفق والخضوع»، ثم قال: «إن أسمعوه ما يكره، لا يغضب، فيكون يريد أن ينتصر لنفسه».

- وأخرج عن سليمان بن الأشعث قال: قلت لأبي عبد الله: مثل زماننا هذا نرجو ألا يلزم رجلا القيام بالأمر والنهي، إن خاف أن ينال فيه؟ قال: يحتمل، قلت: في الصلاة لا يراهم يحسنون؟ قال: يعلمهم، قلت: يشتم؟ قال:

---

(١٠٥) الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أرقام ٣٨-٤٠، ٤٦-٤٩، ص ٨١ – ٨٦.

يحتمل؛ من يريد أن يأمر وينهي: لا يريد أن ينتصر بعد ذلك.

- وقال الخلال: أخبرني زكريا بن يحيى الناقد أن أبا طالب حدثهم أنه قال لأبي عبد الله: إذا أمرته بالمعروف، فلم ينته، أدعه؟ لا أقول له شيئا؟ قال: الأمر بالمعروف، وصرت تنتصر لنفسك، فتخرج إلى الإثم؟! فإذا أمرت بالمعروف؛ فإن قبل منك، وإلا فدعه.

- وأخرج عن أرطاة بن المنذر؛ قال: المؤمن لا ينتصر لنفسه، يمنعه من ذلك القرآن والسنة، فهو ملجم.

- ويقول الشيخ حسن البنا- رحمه الله: «واعلموا أن النصيحة إذا ساءت انقلبت إلى فضيحة، ومن واجبنا أن نجعل النصيحة خالصة لوجه الله، ومهذبة، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى أحد في مجلسه شيئا منافيا يقول: «**ما بال أقوام كذا، ويفعلون كذا**».

فيجب- يا أخي- أن ترفق في النصيحة، وتعين أخاك على قبولها، وتظهر الشفقة والحنان، والمحبة واللين.

وإذا كان الحق- تبارك وتعالى- أمر موسى وهارون أن يلينا مع فرعون ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].. فنحن أيها المسلمون الموصوفون بقوله- تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] أجدر بنا أن نلين، ونرفق في النصيحة.

واحرصوا- أيها الإخوان- على دوام النصيحة لإخوانكم المسلمين.

ولا تيأسوا، حتى ولو صدمتم مرة ومرات، فأعيدوا الكرة مرة ومرات:

اطلب ولا تضجرن من مطلب ... فمن آفة الطالب أن يضجرا

أما ترى الحبل بتكراره ... في الصخرة الصماء قد أثرا(١٠٦)

---

(١٠٦) حسن البنا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في حديث الثلاثاء، ص ١٢٧ - ١٢٨.

ز- تصحيح وتعظيم النية:

أي: أن يصفي نيته، ومقصده، وأن يخلص دعوته، وأمره بالمعروف، وتغييره للمنكر لله وحده، فلا يطلب شيئا إلا رضا الله تعالى، وابتغاء وجهه، فيجرد قصده لله تعالى في تغيير المنكر، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فمما بايع الصحابة عليه رسول الله ﷺ ما أخرجه البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت ﷺ، قال: بايعنا رسول الله ﷺ، على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم(١٠٧).

قال أحمد: «إن صحت نيتك لم تبال»(١٠٨).

فينوي إرضاء الله، وينوي شد ظهر المؤمنين، لله، وينوي إغاظة المنافقين في الله، وينوي النيل من العلمانيين والشيوعيين والإباحيين، لوجه الله، يقول سفيان: «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق»(١٠٩).

فالمؤمن المعاصر بقيامه بتغيير المنكر الأكبر والكبير، بشروطه، إنما يطأ موطئا يغيظ الكفار، ويغيظ العلمانيين المحادين لله، وللرسول محمد ﷺ فيكتب الله له به عملا صالحا.

فيصحح نيته، ويخلصها لله، فإنها عبادة عظيمة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

يقول الماوردي: «ويجب(...) أن يقصد بقوله وفعله وجه الله- تعالى- وطلب مرضاته، خالص النية، لا يشوبه في طويته رياء، ولا مراء،

---

(١٠٧) البخاري: صحيحه، رقم ٧١٩٩، مسلم: صحيحه، رقم ١٧٠٩.

(١٠٨) الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مصدر سابق، رقم ٦٤، ص ٩٤.

(١٠٩) السابق، رقم ٦٧، ص ٩٦.

ويتجنب(...) منافسة الخلق، ومفاخرة أبناء الجنس، لينشر الله عليه رداء قبول، وعَلَم التوفيق، ويقذف له في القلوب مهابة وجلالة، ومبادرة إلى قبول قوله بالسمع والطاعة،(...) وينبغي أن يكون مواظبا على سنة رسول الله ﷺ.. ونظافة الثياب وتقصيرها والتعطر وجميع سنن الشرع ومستحباته.. مع القيام على الفرائض والسنن الراتبة..»(١١٠).

وبعد أن ذكر وقائع طيبة عن إخلاص العلماء وشجاعتهم قال: «فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة الملوك، لكنهم اتكلوا على فضل الله، وأن الله يحرسهم، ورضوا بحكم الله أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية، وأزال قساوتها.. إلخ»(١١١).

ح- العمل بالمعروف الذي يأمر به، وترك المنكر الذي ينهي عنه:

هذا أمر مهم، ثم هو بديهي من مسلم يريد الدعوة إلى الله، وتغيير المنكرات بأصنافها، يقول الطبري: «عن ابن جريج في قوله- تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ [البقرة: ٤٤]، قال: فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة»(١١٢).

ويقول الماوردي: «أول ما يجب على المحتسب: أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفا لفعله، فقد قال الله في ذم علماء بني إسرائيل: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾[البقرة:٤٤]، وروي أن النبي ﷺ قال: «**رأيت ليلة أسري بي إلى السماء رجالا تقرض شفاههم بالمقاريض، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟**

---

(١١٠) الماوردي: الرتبة في طلب الحسبة، ص ٧٠ – ٧١.

(١١١) المرجع السابق، ص ٨٤، ويدرس باب الإخلاص في المنتقى من الترغيب والترهيب، ورياض الصالحين.

(١١٢) الطبري: جامع البيان، ج ١، ص ٣٣٦، ويدرس كتاب: اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، تحقيق وتخريج محمد ناصر الدين الألباني، فإنه مهم جدا هنا.

فقال: خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم»(١١٣).

وقد قال شعيب – لما نهى قومه عن غش الموازين، ونقص المكاييل: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ولا يكون كما قال أبو همام السلولي:

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكن حسن القول خالفه الفعل

وذَمُّوا لنا الدنيا وهم يَرضَعونها ... أفَاوِيقَ حتى ما يَدِرُّ لها ثُعل

وقال آخر (أبو الأسود الدؤلي):

لا تنه عن خلق، وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم(١١٤)

إن مسارعة الداعية في المعروف الذي يدعو إليه، هو قوة دافعة للآخرين ليقتدوا به، واجتناب الداعية للمنكر الذي يغيره، اجتنابه، هو وأهل بيته، ومن له ولاية عليه – هو أساس قوي لتغيير المنكر في الواقع الاجتماعي. إن أعين الناس مفتوحة على الدعاة.. فلا يصح أن يروا ما ينفرهم منه، وما يجعلون يؤمنون أنه (رجل كلام وخلاص!).

وليتأمل المسلم في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ويدرس هذا الحديث، ويقف عنده طويلا: أخرج مسلم في باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهي عن المنكر ويفعله؛ من حديث عن أسامة

---

(١١٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت عن أنس، رقم ٥٠٩، ص ٢٥٣، ورقم ٥٧٠، ص ٢٦٨، وابن حبان في صحيحه، وقال الشيخ شعيب: حديث صحيح، (الإحسان، رقم ٥٣)، وانظر: المنتقى من الترغيب، ج٢، رقم ١٣٨٢ ص ١٥٢، والسلسلة الصحيحة للألباني، رقم ٢٩١، ورواه البيهقي، وأحمد في المسند.

(١١٤) الماوردي: الرتبة في طلب الحسبة، ص ٦٩، ٧٠. والأفاويق: جمع للجمع: أفواق، ومفردها: فُواق: وهو ما بين الحلبتين من وقت. والثُعْل: زيادة حلمة في ضرع الشاة.

ابن زيد (...) سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق (تخرج) أقتاب (أمعاء) بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه**»[١١٥] ورواه البخاري بلفظ: «**يجاء بالرجل (...) فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي: فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**».

ط- فقه أصل التغيير:

ليست القضية المهمة أن ننهي عن المنكر أيا كان، وكيفما كان، فقط، بل أن نغيره، تأمل في قول النبي ﷺ: «**فليغيره**»؛ فنحن مأمورون بالتغيير، تغيير الكفر إلى الإيمان، والشرك إلى توحيد، وعبادة غير الله إلى عبادة الله، التغيير: تحويل الشيء، إزالة المنكر وإحلال الخير، والمعروف محله، إزالة حكم الطاغوت، وإحلال حكم الله محله.. وهكذا يتحدد المنهج، تغيير ما بالأنفس، أولا؛ ولهذا: اشترط الإسلام في المغير للمنكر الشروط السابقة؛ لأننا طلائع عملية التغيير الشاملة، تغيير جميع المنكرات، وإحلال مقومات العبادة، وشعب الإيمان محلها.. وهذا يتطلب شخصيات مؤمنة، متصفة بمكارم الأخلاق، والفقه، والتعقل، ولإدراك أننا أسباب للتغيير، والله هو الذي يغير القلوب والأخلاق والأعمال، إذا مارسنا نحن أسباب التغيير، وطبقنا مناهجه وشروطه.

تأمل في قول الحسن: عن أبي مالك قال: كان الحسن، إذا قيل له: ألا تخرج

---

(١١٥) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٩٨٩، ص ٥٣٨ – ٥٣٩. ورواه البخاري أيضا، فوقه، فتح الباري، ٦، رقم ٣٢٦٧، ص ٣٣١، ورواه أيضا برقم ٧٠٩٨.

فتغير؟ قال: يقول: «إن الله إنما يغير بالتوبة، ولا يغير بالسيف»[(١١٦)].

فنحن نريد أن يتوب الناس إلى الله، فيغيرهم الله، نريد أن يهدي الله بنا..فنتوجه إلى الله بالدعاء أن يقبل بقلوبهم حتى تعرفه حسنا، وحتى تعبده حسنا، وحتى ترعى عهده حسنا، نريد أن يقبل منا الناس أمر الله، ويعملوا به، ويلتزموه، ويتركوا المنكر الأكبر، والكبير، والصغير، وهذا يقتضي كياسة، ورشدا عقليا، وتفكر في أحسن أساليب التغيير، وممارستها ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، أي: ادفع المنكر بالطريقة التي هي أحسن إثمارا للمطلوب، فالله لا يمحو السيئ بالسيئ، إنما يمحو السيئ بالحسن.

ولهذا نبدأ بعمل علاقة حسنة مع من يفعل المنكر، ونبدأ بتربية الإيمان بالله، وحب الله، وخوف الله في قلبه، وتربية الخوف من الحساب، يوم الدين، وتربية حب الجنة، وحب الرسول ﷺ، ونعمل على إزالة قسوة قلبه، والران الذي عليه، ونعمل على فتح قفل قلبه أولا، حتى يدخل فيه نور الإيمان والعلم، والخشية من الله، والرغبة في ثوابه، والخوف من عقابه، ونعمل على أن نشعره بعظمة الله، ليعظمه، ويخضع له، وينقاد لحكمه.. إلخ.

فإذا انفتح القلب بالتوحيد، والإيمان بكلمة الله، ورق لأمر الله، أعلمناه بأنه إذا أراد أن يحبه الله، وأن ينال رضا الله، وأن يدخله الجنة، لينعم فيها برؤية الله سبحانه وتعالى، وينجيه من النار، ومن الحجاب، ويفوز بمصاحبة الحبيب محمد ﷺ في جنة الخلد، .. فإن عليه أن يترك المنكر الفلاني،..إلخ، إذا سرنا على منهج النبي ﷺ في التغيير كان منهجا ناجحا بإذن الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

«إنما الأعمال كالوعاء، فإذا طاب أسفله طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه».

---

(١١٦) ابن سعد: الطبقات، ج ٥، ص ٢٢٢.

«إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

«..فتعلمنا الإيمان مثل القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا»(١١٧).

وتأمل في حديث عائشة- رضي الله عنها- الذي أخرجه البخاري عن يوسف بن ماهك، من حديث قالت فيه: «إنما نزل أول ما نزل منه: سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام (أي: رجع الناس إلى الخضوع والإذعان والانقياد والاستسلام لله) نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنى أبدا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب؛ ﴿ **بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴾ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، ..»(١١٨).

والحديث واضح الدلالة في أن نبدأ التغيير من (تحت) (من الجذر) (من الأسفل) من القلب، إن الأمانة (أي: الإيمان وشعبه) نزلت في جذر قلوب الرجال (يعني: والنساء) ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن ثم علموا من السنة.. كما فصلنا سابقا.

فمن هنا نبدأ التغيير بالتعليم، وبالصحبة، وبالدعوة..إلخ.

يقول ابن حجر: «أشارت (يعني: السيدة عائشة- رضي الله عنها) إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن: الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك، أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «لو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندعها» وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة،

---

(١١٧) خرجنا كل هذا فيما سبق من فصول.

(١١٨) فتح الباري، كتاب فضائل القرآن، رقم ٤٣٩٣، ج ٩، ص ٣٨، ٣٩.

من ترك المألوف»(١١٩).

وكتابنا هذا (تربية القلب..) إنما ألف أساسا للقيام بهذه المهمة؛ فكل ما فيه: قصد به أن نغير أنفسنا وأن نغير معنا من حولنا، على أسس صحيحة.

والذي أقصده تحديدا، وبدقة: هو أن نراعي كل القواعد السابقة: من إدراك مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإدراك أهميته، وموقفه، وشروطه، وأخلاق الاستيعاب.. المذكورة في الفقرة السابقة، وألا يكون هو مجرد (الفرقعة)، وإحداث ضجة، أو تبكيت العاصي المجاهر، بل يكون هدفنا هو (تغيير) (المنكر)، لا بمنكر يساويه، ولا بمنكر أكبر منه، بل بالطريقة التي هي أحسن طريقة، وبما يؤدي إلى (تغيير) نحو الأحسن، وهذا (التغيير) لا يتحقق إلا إذا (تغير القلب) أولا، وقبل هدى الله، ولا يتغير القلب إلا بتحديد الإيمان، والتوحيد، ومحبة الله، والخوف من غضبه، ومن النار، وبالمحبة لله ولرسوله، وللمؤمنين، وللجنة..وبالرغبة في الخير..إلخ

فلنراع هذا الأصل حتى لا نفسد أكثر مما نصلح.

سابعا: التغيير بالقلب:

«ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه، فغيره بقلبه فقد برئ».

«ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن».

«فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم..».

«جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم..».

أ- المعنى:

١- يقول سيد قطب: «وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم، ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم؛ فيبقى أضعف الإيمان؛ وهو تغييره بقلوبهم، وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه، إن

---

(١١٩) المصدر السابق، ص ٤٠.

هم كانوا حقا على الإسلام.

وليس هذا موقفا سلبيا من المنكر، كما يلوح في بادئ الأمر، وتعبير الرسول ﷺ بأنه تغيير، دليل على أنه عمل إيجابي في طبيعته؛ فإنكار المنكر بالقلب: معناه: احتفاظ هذا القلب بإيجابيته، تجاه المنكر،.. إنه ينكره، ويكرهه، ولا يستسلم له، ولا يعتبره الوضع الشرعي الذي يخضع له، ويعترف به.

وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع.. قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر، ولإقامة الوضع المعروف في أول فرصة تسنح، وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة.. وهذا كله عمل إيجابي في التغيير.

وهو على كل حال أضعف الإيمان، فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان، أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع؛ ولأن له ضغطا، قد يكون ماحقا، فهو الخروج من آخر حلقة، والتخلي حتى عن أضعف الإيمان..»(١٢٠).

وهذا كلام حق، يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب، فتأمله، وادرس ما يأتي:

٢- إن التغيير بالقلب هو مقاومة جوانبه للمنكر.. إن بذل الجهد لدفع المنكر من أن يدخل القلب، إنه بُغْضٌ له، إذا عرضت عليه، فالمنكر فتنة، تعرض على القلب، فينكرها، يأباها، يعلو عليها، يذكر الله، فيستبصر، فينكت فيه نكتة بيضاء، إنه قلب مجاهد، مقاوم، يبغض في الله، ولله، ويتحصن بالحق، ويستمسك به، ويحرص على فض الباطل والمنكر، إنه ينكر المنكر، ويستعد لتغييره في الواقع، حين تتاح الفرصة لذلك، باليد واللسان.

فالتغيير بالقلب: هو جهاد، كما جاء في الحديث الثاني، والرابع، إنه بذل الوسع والجهد في نفي المنكر عن القلب، وطرده، وإزالته، عن هذا القلب،

---

(١٢٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٩٥١.

وذلك ببغضه، ورفضه، واستنكاره، والاشمئزاز منه، ومن أصحابه، وعدم الرضا به، وعدم المشاركة مع أهله، بعد وعظهم، وإقامة الحجة عليهم بأحسن طريقة ممكنة، ولهذا جاء في حديث أم سلمة: «**فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم**»، قال مسلم: أي: من كره بقلبه، وأنكر بقلبه»[١٢١]، «**ولكن من رضي وتابع**».

قال المازري: «... «**من كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم**» أي: من معاقبة الله له على الإقرار على المنكر، وبرئ بكراهيته، من الرضا والمتابعة، وفيه حجة على لزوم قول الحق وإنكار المنكر.

وقوله: «**ولكن من رضي وتابع**»: دليل على أن المعاقبة على السكوت على المنكر إنما هو لمن رضيه؛ وأعان فيه بقول أو فعل أو متابعة، أو كان يقدر على تغييره، فتركه، فأما مع عدم القدرة؛ فبالقلب، وبعدم الرضا به»[١٢٢].

٣- والتغيير بالقلب: لازم من لوازم الحب، والبغض، في القلب، فحب الله يلزم صفة حب طاعته، وبغض معصيته، وهذا الحب والبغض في الله، ولله، يجب أن يكون كاملا، تاما، جازما، ولا موجب لنقصه، إلا نقص الإيمان بالله، ومعرفته، ولا موجب لانتفائه إلا انتفاء الإيمان من القلب.

ولذلك قال النبي ﷺ: «**فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» وقال: «**ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**» أي: من لم يبغض، ويرفض، ويطرد المعصية والمنكر، ويجاهدها بقلبه، بغضا، وكراهية، وإنكارا، ورفضا، ومقاومة، فقد انعدم الإيمان في قلبه، وهذا هو القلب المنكوس: كالكوز مجخيا (مقلوبا) لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه.

---

(١٢١) وهذا تفسير قتادة، انظر: الألباني: ظلال الجنة في تخريج السنة، مع كتاب السنة لابن أبي عاصم، تحت رقم ١٠٨٣، ص ٥٠٨.

(١٢٢) إكمال المعلم، ج ٦، ص ٢٦٤.

والهوى: هو الحب والبغض الذي في النفس، وتغيير المنكر بالقلب يستلزم أن يكون حبنا لله ولدينه ولنبيه، وللمسلمين، وبغضنا للكفر والطاغوت وعبادة غير الله، ولجميع المنكرات، وللعاملين بذلك، فنحب المعروف، ونبغض المنكر، موافقة لحب الله وبغض ما يبغضه، ونفعل المحبوب، وندفع المكروه بحسب قدرتنا، فنكره المنكر كراهة كاملة، تامة لوجه الله، وحبا لله ورسوله، ونتذوق ذلك، ونتبع فيه أمر الله ورسوله.

فهذا مما يجعلنا نجد حلاوة الإيمان، ونذوق طعمه.

ويقول ابن تيمية: «فأما القلب فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن(...).

وأصل هذا: أن تكون محبة الإنسان للمعروف، وبغضه للمنكر، وإرادته لهذا، وكراهته لهذا: موافقة لحب الله وبغضه، وإرادته وكراهته الشرعيتين، وأن يكون فعله للمحبوب، ودفعه للمكروه، بحسب قوته وقدرته؛ فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها(...).

فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته فينبغي أن تكون جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان(...) ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة، وفعل العبد معها بحسب قدرته؛ فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل..»(١٢٣).

٤- ويقول ابن رجب: «فدلت هذه الأحاديث كلها على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وأن إنكاره بالقلب: لابد منه، فمن لم ينكر قلبه المنكر دل على ذهاب الإيمان من قلبه، وقد روي عن أبي جحيفة قال: قال علي:(...) فمن لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر؛ نكس، فجعل أعلاه أسفله.

وسمع ابن مسعود رجلا يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن

---

(١٢٣) ابن تيمية: الاستقامة، مصدر سابق، ص ٣٦٢، ٣٦٥.

المنكر، فقال ابن مسعود: «بل هلك من لم يعرف قلبه المعروف، وينكر قلبه المنكر»(١٢٤) يشير إلى أن معرفة المعروف (وإنكار) المنكر بالقلب، فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرف هلك(١٢٥).

٥- **أقول**: الجهاد المفروض على القلب، والذي بدونه ينتفي الإيمان من القلب، ليس فقط مجرد معرفة المعروف ومعرفة المنكر، بل هو - بعد المعرفة - بغض المنكر، وبراءة القلب منه، وإزالته عنه، وإنكاره، والعزم على تغييره في الواقع عند الاستطاعة، وعدم المشاركة فيه، وعدم الاسترسال مع فاعليه، هذا هو جهاد القلب، بل أضيف: ومنه الدعاء أن يزيله الله، وأن يطهر الأرض منه، وأن يعلم الله من القلب أنك تكرهه، وأنك بريء منه، ويدخل في هذا المعنى ما رواه أبو داود عن العُرْس بن عميرة الكندي، عن النبي ﷺ قال: «**إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها**- وقال مرة: أنكرها- **كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها، كان كمن شهدها**»(١٢٦).

هذا هو جهاد القلب الذي لا يسع المسلم غيره.

وفي جامع العلوم: «وقال ابن مسعود: يوشك من عاش منكم أن يرى منكرا لا يستطيع له غير أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره، وفي سنن أبي داود (الحديث المذكور هنا..) فمن شهد الخطيئة فكرهها بقلبه كان كمن لم يشهدها، إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومن غاب عنها فرضيها، كان كمن شهدها، وقدر على إنكارها، ولم ينكرها؛ لأن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات، ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب؛ وهو فرض على كل مسلم، لا

---

(١٢٤) أثبت النص كما في الطبراني: المعجم الكبير، ج ٩، رقم ٨٥٦٤، ص ١٠٧، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٥): ورجاله رجال الصحيح.

(١٢٥) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٨٣.

(١٢٦) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٣٤٥، ٤٣٤٦، ص ١٠٩، وقال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ٦٨٩، ص ١٧٩، وخرجه في المشكاة (رقم ٥١٤١).

يسقط عن أحد في حال من الأحوال(...) فتبين بهذا أن الإنكار بالقلب فرض على كل مسلم في كل حال»[١٢٧].

٦- وجهاد القلب يقتضي - مع ذلك - التعاون مع الصالحين، من أجل تغيير المنكر، في الواقع، بأحسن أسلوب، كما يقتضي عدم المشاركة مع فاعلي المنكر حين قيامهم بالمنكر، وعدم إبطان المودة لهم، لكن يلزم حسن الخلق، والمداراة من أجل دعوتهم إلى الخير، وبهذه النية فقط.

٧- وقد عقد الخلال بابا بعنوان «من رأى منكرا فلم يستطع له تغييرا أن يعلم الله من قلبه أنه كاره له» قال فيه:

«أخبرني أبو بكر المروزي أن أبا بكر الأثرم قال: قيل لأبي عبد الله: رجل رأى منكرا؛ أيجب عليه تغييره؟ قال: إذا غير بقلبه فأرجو، ثم قال: إن منهم من يخاف منه، فإذن يغير بقلبه.

وأخبرني محمد بن أبي هارون أن إسحاق بن إبراهيم حدثهم أنه سأل أبا عبد الله، قال: قلت: رجل تكلم بكلام سوء يجب عليَّ فيه أن أغيره، في ذلك الوقت، فلا أقدر على تغييره، وليس لي أعوان يعينونني عليه؟ قال: إذا علم الله من قلبك أنك منكر لذلك فأرجو ألا يكون عليك شيء.

وقال الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي أنه شكا إلى أحمد بن حنبل جارا لهم يؤذيهم بالمنكر، فقال: مره، بينك وبينه، قلت: تقدمت إليه مرارا، فكأنه يضحك.

قال: وأي شيء عليك إنما هو يضحك على نفسه، أنكر بقلبك، ودعه.

فقلت لأبي عبد الله: فمن كان له جار يسمع منه المنكر؟ قال: يغيره مرة، ومرتين، وثلاثة، فإن قبل، وإلا ترك.

---

(١٢٧) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٨٣.

قلت: فإن كان سمعه؟ قال: وأي شيء تقدر أن تصنع؟ أنكر بقلبك، ودعه»(١٢٨).

٨- وتأمل في موقف سفيان في الإنكار بقلبه.. على منكر.. قال ابن أبي الدنيا في كتاب الورع: «كان سفيان الثوري قاعدا بالبصرة فقيل له: هذا مساور بن سواد يمر، وكان على شرطة محمد بن سليمان، فوثب، فدخل داره، وقال: أكره أن أرى من يعصي الله، ولا أستطيع أن أغير عليه».

وقال الفضيل بن عياض عن الظلمة: «لا تنظروا إلى مراكبهم، فإن النظر إليها يطفئ نور الإنكار عليهم»(١٢٩).

٩- التغيير بالقلب: المقاومة السلبية:

نلخص هنا ما قرره العلامة محمد دراز، وهو يتناول تربية الشعور بالمسؤولية الخلقية، في عدة كتب له، حيث قرر أن الإنسان مسؤول عن أعمال غيره، إذا كان سكوته عنها يزيد شرها، أو يؤدي إلى استمرار السيئ منها.

ومن هنا تحدث الشيخ دراز عن مفهوم تغيير المنكر بالقلب، مرارا، فيقول: إن ظن «أن التغيير بالقلب معناه مجرد الكراهية الباطنية» وهو خطأ يقوم على تحريف مزدوج؛ تحريف في اللغة العربية، وتحريف لمقاصد الشريعة الإسلامية، لأن الإنكار القلبي المجرد لا يسمى تغييرا للمنكر، وإنما هو إقرار سكوتي، ولأن استبطان الكراهية مع إظهار الرضا هو صريح النفاق، وليس من الإيمان في قليل ولا كثير، وإن أدنى موقف يقبله الإسلام عند عجز اليد واللسان هو- كما نسميه- بالمقارنة السلبية، وهو كما بينه الله- تعالى- في كتابه: مقاطعة أصحاب الجريمة، وهجران مجالسهم ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي

---

(١٢٨) الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أرقام ١٣، ١٥، ٢١، ص ٦٩ - ٧٣.

(١٢٩) ابن أبي الدنيا: كتاب الورع، رقم ٧٤، ص ٣٢، وإسناده حسن، ورقم ٧٥، ص ٣٢ وإسناده صحيح.

﴿حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]»(١٣٠).

ويقول مبينا ومنورا: «الحق أن المقصود من التغيير بالقلب (...) هو ما نسميه بالمقاومة السلبية الأدبية، عند العجز عن التغيير بالوسائل الإيجابية؛ باليد أو اللسان.

هذه المقاومة السلبية ليس معناها الشتم أو الإهانة، أو استعمال العنف الذي يحظره الأدب أو القانون، ولكنها موقف متحفظ يشعر فيه المسيء والمجرم بأنه كمية مهملة، وأنه محروم من التكريم والتعظيم الذي كان قد تعوده، يشعر باستياء الآخرين من سلوكه، ويشعر أخيرا بأنه في وحشة وعزلة؛ بسبب هجران الآخرين له، ومقاطعتهم إياه، ثم هو موقف نشعر فيه نحن بأننا بدلنا موقفنا المائع الفاتر المتراخي، موقف المجاملة الكاذبة لكل أحد، ولو على حساب الحق والفضيلة، واتخذنا موقفا آخر من الجد والغيرة، والشعور بمسؤوليتنا، ومسؤولية كل منا عن الحقوق والآداب العامة.

هذا الموقف لا يتطلب منا أكثر من العزم والتصميم، والشجاعة الأدبية في سبيل كرامة أمتنا وكرامة أنفسنا، .. هو راحة بدن، وراحة ضمير، وتخلص من تكاليف المدنية السطحية في القيام للبر والفاجر، والابتسام في وجه الصالح والطالح، والتعاون مع المحسن والمسيء.

مع أنه لا يكفي أن يقوم بهذه المهمة فرد أو بضعة أفراد، بل لابد من التعاون في كل بيئة، وفي كل حي، وفي كل قرية، على مجانبة المفسدين ومقاطعتهم، هذا هو الفلاح الناجع الحاسم، فإذا لم نقف هذا الموقف الحر الصريح، وتركنا الأمور تسير على هذا التهاون – الذي نحن عليه الآن – فنحن كلنا آثمون(...).

---

(١٣٠) محمد عبد الله دراز: حصاد قلم، ط١، دار القلم، ٢٠٠٤م، ص ٢٩٠.

فإذا كنا نريد حقا أن نبني مجتمعا صالحا قويا، يجب أن تكون لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وأن نطبق هذا الدرس الاجتماعي العظيم.

نعم، يجب أن نبعث هذه الدعوة في كل الأوساط التي نخالطها لكي يؤلفوا فيما بينهم جبهات تبدأ صغيرة، ثم تكبر، هدفها حمل راية التناصح، والمصارحة بالحق، فيما بينهم، ثم مقاطعة من لا تنفع فيه النصيحة، ويصر على الإثم والعدوان(...).

إن مسؤوليتنا ليست قاصرة على أعمالنا المباشرة وحدها، بل تمتد آثارها وتوابعها التي تسببنا فيها بقصد أو بغير قصد، حتى أعمال الآخرين التي لم نتسبب في حدوثها ووقوعها، ولكن يكون سكوتنا عنها سبباً في تكرارها واستمرارها..»(١٣١).

وفي مقال مهم بعنوان: «الحلقة المفقودة في أنظمتنا الاجتماعية» يتحدث عن علة خطيرة للفساد والانحراف والنقائص الاجتماعية، هذه العلة للخطر الذي يهدد كياننا الاجتماعي هي أننا نفهم الحرية الفردية فهما سيئا، ونفهم المسؤولية الاجتماعية فهما ناقصا محرفا، فتركنا كل فرد منا يسير غير شاعر بمسؤوليته عن سلوك الآخرين، ولا حاسب حسابا لموقف الآخرين من سلوكه، فأصبحنا عقدا منفرطا لا يهيمن عليه روح واحدة، «أتدرون ما هذا الروح الواحد الذي يجب أن يسود ويهيمن على المجتمع؟ إنه الوعي العام الغيور المتيقظ، الحارس للقيمة المعنوية في الجماعة».

---

(١٣١) محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية، ط ٥، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٣م، ص ١٥٠- ١٥٢ ثم يستدل العلامة دراز بآيات مثل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] ومثل: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] نفس المرجع، ص١٥٢ – ١٥٣.

وما سوى ذلك من دعوة وإرشاد، وكتابة، وإذاعة ليس إلا تلطيفا، قليل الأثر.. ثم يقول: «نحن إذن في حاجة ملحة إلى إيقاظ هذا الضمير الاجتماعي في الأمة، لا عن طريق الدعوة، والموعظة فحسب، بل عن طريق عملي جدي، نحن بحاجة إلى تكوين رأي عام أخلاقي، له نفوذه واحترامه في نفوس كل الأفراد، بحيث يشعر كل امرئ أن إساءته، دقت أو جلت، ستلاقي جوابا سريعا علنيا في سلوك المجموع بإزائه.

نعم، إننا نريد أن يشعر كل باغ على حق غيره، وكل خائن لأمانته، وكل مضيع لواجبه، وكل خارج على الآداب، في صورة من الصور- نريد أن يشعر بأنه قبل أن يؤاخذه القضاء، وقبل أن يواجه التحقيق(...) ستصوب نحوه- جهارا- سهام النقد والذم، وسيذوب وجهه خجلا تحت نظرات السخط والمقت، وسيحرم عطف المجتمع ومعونته، وأنه لن يبتسم في وجهه أحد، ولن يبادله التحية أحد، وأنه سيعيش مهجورا منبوذا، حتى يراجع نفسه ويعدل عن سيرته». ثم يذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك، وكيف أمر النبي ﷺ بهجرتهم، ومقاطعتهم، حتى ضاقت عليهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم، ثم تاب الله عليهم بعد أن انصهرت قلوبهم بهذه المقاطعة الشاملة التي كانت أنكى فيهم من حد السيف.

هذا هو طراز التربية الناجحة الذي نريد أن نقتفي منهاجه، وتلك هي الحلقة المفقودة التي لو وضعناها في مكانها من جهاز حياتنا العامة؛ لاستراح الحاكم والمحكوم، وما كاد يبقى بيننا ظالم ولا مظلوم(...).

ها أنذا أدعوكم في هذه اللحظة أن يعاهد كل منكم ربه، وأن يبايع كل منكم أهله وعشيرته، وأصدقاءه وأصفياءه، أن تكونوا يدا واحدة في الصراحة والحق، تبدؤون ببذل النصيحة بالحسنى لكل من زلت قدمه، فتذكرونه كلما نسي، وتنبهونه كلما غفل، حتى إذا عاود وعاند، وأصر، وأبى، ولج في

الفساد، وجاهر بالإثم.. أشعرتموه إعراضكم، وحرمتموه بشاشة وجوهكم، ومنعتموه مظاهر ترحيبكم وتكريمكم، وأحطتموه بجو من العزلة والوحشة والهجران، حتى يفيء إلى أمر الله.

إن هذه المقاومة السلبية الأدبية التي أدعوكم إليها، هي معنى تغيير المنكر بالقلب، لمن عجز عن تغييره باليد واللسان، وهي التي صدر فيها النطق النبوي الحكيم بأنها هي أضعف الإيمان..»(١٣٢).

ب- قاعدة في أن منبع إنكار المنكر من القلب:

سأكتفي بنص واحد، فلنتأمل: يقول ابن رجب: «واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: تارة: يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة: خوف العقاب في تركه، وتارة: الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة: النصيحة للمؤمنين، والرحمة لهم، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وتارة: يحمل عليه إجلال الله وإعظامه، ومحبته، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأن يفتدى من انتهاك محارمه بالأنفس والأموال.

ومن لحظ هذا المقام.. هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله- تعالى- وربما دعا لمن آذاه، .. رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون..»(١٣٣).

فالإنسان المسلم يندفع لتغيير المنكر بدوافع من داخل قلبه؛ رجاء ثواب الله، خوف العقاب في تركه، الغضب لله، النصح للمسلمين، الرحمة لهم، الإشفاق عليهم من غضب الله وعقوبته، إجلال الله، وتعظيمه، البغض في الله، بغض الطواغيت، حب استمرارية الهوية الإسلامية في المجتمع.

---

(١٣٢) محمد عبد الله دراز: زاد المسلم للدين والحياة، جمع وإعداد الشيخ / أحمد مصطفى فضلية، تقديم أ.د. يوسف القرضاوي، ط ١، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٤م، ص ٢٣١- ٢٣٤.

(١٣٣) ابن رجب: جامع العلوم، ص ٣٨٨.

إن هذا كله أعمال قلبية تتطلب تربيتها في القلب، وهو ما قصدنا إليه بتأليف هذا الكتاب.

فرجع الأمر كله إلى : تربية القلب تربية صحيحة متكاملة.

ثامنا: خلاصة واستنتاجات تربوية:

١- يحث النبي ﷺ كل مسلم ومسلمة على أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وأن يغيروا بقدر استطاعتهم، وجعل ذلك صدقة، وجعل الله ذلك واجبا إيمانيا، وفريضة لازمة على مجموع المسلمين، وبين أن تغيير المنكر بالقلب هو أضعف الإيمان، أي: الحد الأدنى للمؤمن في موقفه من المنكر.

وبين، أن هذه الفريضة أساس لنجاة المجتمع من الفساد والانهيار ونجاة المسلم في الدنيا والآخرة.

فهو قاعدة من قواعد الإسلام.

وبهذا يصبح المسلم إنسانا إيجابيا فاعلا في مجتمعه، محافظا على هويته الإسلامية، واقفا بالمرصاد ضد أي انحراف عن منهج الإسلام.

٢- إن المعروف منه أكبر ومنه كبير ومنه أصغر، والمنكر كذلك.. والواجب أن نبدأ في الأمر والنهي بالأكبر ثم الكبير.

٣- إن تغيير المنكر له ثلاث درجات: باليد لمن استطاع، فإذا خاف الخوف المتحقق تحول إلى مستحب وأصبح واجبا عليه أن ينكر باللسان، حتى يخاف خوفا متحققا، فيصبح مستحبا في حقه، وينتقل إلى التغيير بالقلب، وهذا أضعف الإيمان، وليس وراءه حبة خردل من إيمان.

٤- إن التغيير باليد واللسان له شروط علمية، وخلقية، وعقلية يجب التخلق بها أولا، وهي إدراك المفهومات والعلم والصبر، والسماحة، والرفق، وإدراك الأولويات، واعتبار مآلات الأفعال، والإخلاص وتعظيم النية..إلخ.

٥- إن التغيير باليد له حدود، فهو ليس حملا للسلاح ضد سلطة مسلمة

فعلت منكرا ما.

٦- إن التغيير بالقلب يعني: البغض، والكراهية، والإنكار، والرفض للمنكر، وعدم المشاركة فيه، وعدم إبطان المودة لمن فعله، وهذا هو جهاد القلب.

٧- إن إدراك أصل التغيير هو أمر مهم، فالتغيير يبدأ بالقلب، وما وبالأنفس.. وليس من الخارج.

٨- إن تربية الإيمان في القلب، وتربية المحبة لله ولعبادته في القلب هي أساس تربية القلب المجاهد المغير للمنكر، المقاوم للفتن والمعاصي.. لأن الله يبغضها.

٩- إن تربية القلب المجاهد تشكل جانبا مهما في تربية القلب، جانبا ملزما.. فهدف إكساب المسلم قيمة الجهاد القلبي، ليغير بقلبه، وليحث نفسه على التغيير باليد، وباللسان، هو هدف رئيسي ملزم لكل مرب مسلم، ولكل من يريد أن يتربى إسلاميا.

١٠- واكتساب هذا الهدف، لممارسة هذه القيمة الخلقية القلبية الملزمة، يتطلب:

أ- أن نؤمن بأن الله فرض علينا هذه الفريضة، وذلك بتجديد التصديق اليقيني في كل آية، وفي كل حديث صحيح، عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ذكرناه في هذا الفصل، وما لم نذكره، وبالحب للعمل بهذه الآيات والأحاديث، وبالنزوع للخضوع لها، والإذعان، والانقياد والاستسلام لما تدل عليه من فرضية تغيير المنكر بمستوياته.

ب- التصور الصحيح لمفاهيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره، بدرجاته، وشروط كل درجة، والأخلاق الضرورية لها.

وهذا- وما سبق- يتحقق للمسلم بالمدارسة والممارسة، وبتحصيل الوعي

من أجل السعي، وبالعلم من أجل العمل.. فيلزم دراسة معطيات هذا الفصل، والرجوع لمراجعه، ومصادره، إن أمكن، بحب، وتأثر، وتفاعل، نفس، وإيمان.. إما عبر برنامج فردي، أو عبر برنامج مدارسة جماعية، أو من خلال دورة لمدة ثلاثة أيام: تقرأ فيها آيات الأمر والنهي.. في الصلاة، وفي التفسير، ويدرس فيها الأحاديث الصحيحة..ويلخص كل مفهوم في هذا الفصل، تمهيدا لدراسته تفصيلا..وهكذا.

جـ- يمكن في المجتمع المحيط، عمل يوم في الأسبوع يسمى يوم النصيحة، أو يوم التغيير، بعد رصد عدة منكرات في المجتمع المحيط، ليتجه المتدربون إلى محاربة هذه المنكرات وعمل علاقات (ودية) معهم، من أجل نصحهم وتغيير المنكر عليهم، مع الالتزام التام بشروط الاستيعاب الخلقي المحددة هنا.

إن هذا يربي المسلم المغير، ويعوده على ممارسة هذه القيمة.

د- يلزم أن يشتاق القلب لممارسة التغيير، وأن يحبه بعمق، وهذا هو الذي ينشئ داعية العمل بالأمر بالمعروف وتغيير المنكر.. ويمثل الدافع الجواني لهذه الممارسة.

ويمكن اكتساب هذا الحب، والشوق بمعرفة ثواب التغيير، وفضله، وفرضيته، وأهميته في المجتمع، وبتعميق الحب لله، وفي الله، والبغض في الله..وحب الرسول، وحب دينه ﷺ، والإشفاق على عباد الله المسلمين أن يعمهم الله بعقاب، وأن يرد دعاءهم عليهم.

وتعميق إحساس المسلم أن الله سيسأله يوم القيامة عن عدم تغيير المنكر، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله عبدا حجته، قال: يا رب، رجوتك، وفرقت (خِفْتُ) من الناس**»(١٣٤).

---

(١٣٤) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٦٠، ص ٣١٥.

فيا ترى ماذا تكون حجتنا؟

١١- وهذا التوجه التربوي لبناء شخصية المسلم المجاهد بقلبه ولسانه، وماله، ونفسه، ويده، يعطينا تصورا صحيحا لوجهة التربية الإسلامية، إنها ليست انسحابية، سلبية، بل إيجابية مقاومة.. فاعلة في المجتمع.. تنتج، وتصنع بشرا ربانيين، إيجابيين، مجاهدين بقلوبهم وألسنتهم وأنفسهم في سبيل الله، يجاهدون المنكر ويجاهرون الطواغيت والظالمين، والمشركين.

ليقدس الله أمتهم لأنهم يأخذون للضعيف من القوي، ليأخذ الضعيف حقه غير متعتع.

تاسعا: أسئلة وأنشطة لتعميق الفهم وتسهيل الممارسة:

١- حدد مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومفهوم تغيير المنكر.

٢- ما معنى فرض الكفاية، وكيف يكون تغيير المنكر فرض كفاية؟

٣- ما موقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شعب الإيمان، وفي حماية استمرارية الأمة المسلمة؟

٤- كم عقوبة ثبتت على ترك تغيير المنكر في هذا الفصل؟ حددها بالتفصيل، وبين موقفك النفسي؟

٥- ما الشروط التي حددها الإسلام لتغيير المنكر باليد واللسان؟

٦- هل مجرد الخوف ورهبة الناس يحول الفرض المفروض في تغيير المنكر باليد إلى مستحب، أو إلى جائز؟ وما دليلك؟

٧- ما شروط انتقال التغيير باليد إلى اللسان؟ والتغيير باللسان إلى التغيير بالقلب؟

٨- اقرأ النص الآتي: ثم حدد مفهوم (تخلف من بعدهم خلوف..) «تخلف من بعدهم: أي: تحدث، وتظهر، من بعد الأنبياء (خلوف)؛ وهو

المخالف بشر، أي: الذي يفعل الظلم، أو المنكر».

٩- حدد مفهوم جهاد القلب والتغيير بالقلب؟ وما حدوده؟

١٠- بين علاقة هذا الجهاد القلبي بحديث «**كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا..**» الذي فصلناه في فصل سابق.

١١- ما دلالة قول النبي ﷺ: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»؟

١٢- هل تشعر الآن أنك ملزم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ولماذا؟

١٣- هل أعددت نفسك للقيام بهذه الفريضة التي تغيظ الأمريكان وعملاءهم من العلمانيين والمنعزلين، والشيوعيين والإباحيين؟

١٤- قم بإعداد قائمة مفصلة بشروط وأخلاق الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وقس نفسك عليها.

١٥- ما علاقة هذا الفصل بقوله- تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]؟

١٦- كلفت بعمل برنامج لدورة تربوية لاكتساب قيمة القلب المجاهد المغير: حدد أهداف الدورة، وأنشطتها التدريسية، والتعبدية والتدريبية، والاجتماعية، والدراسية الجماعية، وجدول المحاسبة، ثم قم بتنفيذها مع بعض إخوانك المحبين.

١٧- هل عزمت على التعاون مع صالحي من حولك للقيام بهذه الفريضة الملزمة لمجموع الأمة؟

١٨- من يقوم بهذا إذا لم تقم به أنت؟

تذكر أن: النية: هي نهوض القلب لله- عز وجل.



الفصل التاسع والعشرون

تربية القلب المستقيم

تربية القلب المستقيم

أولا: نص الحديث النبوي:

قال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: أخبرني على بن مسعدة الباهلي، قال: ثنا قتادة، عن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»(١). وأخرجه ابن أبي الدنيا عن طريق على بن مسعدة، وفيه: «**ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه**»(٢).

ثانيا: تمهيد:

يبين هذا الحديث أن الإيمان لا يستقيم، أي: لا يصح، ولا يوصل إلى رضا الله، ولا يكمل، ولا يثبت على الطريق الموصل إلى الجنة، إلا إذا استقام القلب، فاستقامة القلب شرط لاستقامة الإيمان، وأن استقامة القلب، لا تتحقق إلا باستقامة اللسان، فهنا ثلاث قيم أساسية، **الأولى**: استقامة الإيمان، **والثانية**: استقامة القلب، **والثالثة**: استقامة اللسان.

وبدون هذه الثلاثة لا يتحقق إيمان الإنسان، ويفسد الضمير، والسلوك، والمجتمع، وسنبين في هذا الفصل - بعون الله - مفهوم الاستقامة، وأهميتها، ومضمون استقامة القلب، وآثارها، وكيف نتحقق بها؟ وكيف نربيها؟

---

(١) قال محققه حمزة أحمد الزين: إسناده حسن، لأجل على بن مسعدة الباهلي، المسند، ج ١١، رقم ١٢٩٨٢، ص ٧٦ ، ٧٧، وقال شعيب الأرناؤوط وزملاؤه: حديث صحيح، وهذا إسناد قوي، المسند، رقم ١٣٠٤٧، ط الرسالة.

(٢) ابن أبي الدنيا (الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد..) ، الصمت وحفظ اللسان، تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور، ط١، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، رقم ٩، ص ٣٨، وعلي بن مسعدة: وثقه ابن حبان والطيالسي، وأبو حاتم وابن معين، وضعفه آخرون، وقال الحافظ في التقريب: صدوق له أوهام، انظر: القرضاوي: المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب، ج٢، رقم ١٧٢٦، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ - مع الهامش.

وهذا الحديث يدلنا على أن الإنسان وحدة مندمجة، يؤثر قلبه في سلوكه، ويؤثر لسانه في قلبه، وأن التربية الإيمانية تبدأ من القلب، وأن تربية القلب شرط لتربية الإيمان الصحيح، وللتربية الخلقية المثمرة.

ثالثا: مفهوم الاستقامة كما جاء في القرآن والحديث الصحيح:

أ- الاستقامة جاءت من الفعل قام، يقوم، أي: ثبت، ولزم، ومن أقام، إقامة، أي: ثبت، ومن أقام الشيء: أي: وَفَّاه حقه، والتزم شروطه، قال: الراغب: «واستقامة الإنسان: لزومه المنهج المستقيم.. والإقامة في المكان: الثبات، وإقامة الشيء: توفية حقه، ..»[٣].

وما جاء في لسان العرب يبين أن الاستقامة هي الثبات على الشيء، والتمسك به، والمداومة والمواظبة على ممارسته بشروطه، ولزومه، وملازمته، والاتزان، والاعتدال والاستواء في ذلك، والاستمرار على الإقامة على ذلك، بلا زيغ، ولا ميل[٤].

فالألف والسين والتاء في قوله: استقام، هي للتوكيد، أي: توكيد القيام بالشيء، والثبات عليه.. وتوفية شروطه.

ب- فاستقامة الإيمان: هي أن يكون إيمانا صحيحا مستوفيا للشروط، والأركان، وأن يكون المؤمن ملازما له، قائما به، مطيعا لأوامره، مجتنبا لنواهيه، مؤديا لحقوقه.

واستقامة القلب سنفصلها بعد قليل، واستقامة اللسان هي أن يلتزم الحق، والصواب، في الكلام والصمت، وسأشير لهذه الحقائق في هذا الفصل.

جـ- وبيان الاستقامة، وأهميتها في دين الله، تظهر من خلال بيان آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ.

---

(٣) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص ٤١٨.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ط دار المعارف، القاهرة، ص ٣٧٨١ - ٣٧٨٧.

١ - فالله- تعالى- أمر رسوله محمدا أن يستقيم كما أمره الله- تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾[هود: ١١٢]، قال الطبري: «يقول- تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فاستقم أنت يا محمد على أمر ربك، والدين الذي ابتعثك به، والدعاء إليه كما أمرك ربك، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ يقول: ومن رجع معك إلى طاعة الله والعمل بما أمره به ربه من بعد كفره، ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، يقول: ولا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه..»(٥).

وقال الشوكاني: «ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له، سبحانه – فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، أي: كما أمرك الله، فيدخل في ذلك جميع ما أمره به، وجميع ما نهاه عنه، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله، وأمته أسوته في ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، (...) أي: وليستقم من تاب معك.

وما أعظم موقع هذه الآية، وأشد أمرها؛ فإن الاستقامة – كما أمر الله – لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة، والذوات المقدسة، ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «شيبتني هود..» ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزة الحد. لما أمر الله- سبحانه- بالاستقامة المذكورة بَيَّنَ أن الغلو في العبادة، والإفراط في الطاعة، على وجه تخرج به عن الحد الذي حَدَّ، والمقدار الذي قدره، ممنوع منه، منهي عنه(...) عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ يقول: لا تظلموا(...) عن ابن زيد قال: الطغيان: خلاف أمره وارتكاب معصيته»(٦).

وقال ابن القيم: «فبين أن الاستقامة ضد الطغيان: وهو مجاوزة الحدود في كل شيء»(٧).

---

(٥) الطبري: جامع البيان: ج ١٢، ج٧، ص ١٤٦، ١٤٧.

(٦) الشوكاني: فتح القدير: ج ٢، ص ٧٣٥، ٧٣٩.

(٧) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج ٢، دار الحديث، القاهرة، ص ٨٧.

ويقول سيد قطب: «هذا الأمر للرسول ﷺ ومن تاب معه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.. أحس- عليه الصلاة والسلام- برهبته، وقوته، حتى روي عنه أنه قال- مشيرا إليه: «**شيبتني هود..**»[٨]، فالاستقامة: الاعتدال والمضي على المنهج، دون انحراف، وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة والتدبر الدائم، والتحري الدائم لحدود الطريق، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه، قليلا أو كثيرا، .. ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة.

وإنه لمما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة، لم يكن نهيا عن القصور والتقصير – إنما كان نهيا عن الطغيان والمجاوزة.. وذلك أن الأمر بالاستقامة، وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرك، قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير، وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة؛ لإمساك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود: ١١٢].

فاستقم – أيها الرسول – كما أمرت، ومن تاب معك.. ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

---

(٨) أخرج الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت، قال: «**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.. سنن الترمذي، ج ٥، رقم ٣٠٣٠٨، ص ١٩٣ وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي، (٢/ ٣٣١٤)، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ٣٧٢٣، ص ٦٩٢ وفي الصحيحة برقم ٩٥٥.

وأورد الألباني هذه الأحاديث: «**شيبتني هود وأخواتها**» صحيح، رقم ٣٧٢٠ (صحيح الجامع) ورواه الطبراني عن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة، وحديث: «**شيبتني هود وأخواتها قبل المشيب**» رقم ٣٧٢١، صحيح الجامع، وحديث: «**شيبتني هود وأخواتها من المفصل**» رقم ٣٧٢٢، من صحيح الجامع الصغير، ص ٦٩٢.

لا تستندوا، ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا؛ إلى الجبارين الطغاة الظالمين، أصحاب القوة.. الذين يقهرون العباد بقوتهم، ويعبدونهم لغير الله من العبيد، لا تركنوا إليهم، فإن ركونكم إليهم يعني إقراركم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير..»(٩).

فهذا الأمر الإلهي الأول للرسول ولأمته التي آمنت به، يلازم بين الاستقامة، وعدم الطغيان، وعدم الركون للظلمة.

أما الأمر الثاني للرسول ﷺ نفس قوله- تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [الشورى: ١٥]، فالاستقامة تتلازم مع مفاصلة أهواء المشركين ومذاهبهم الوضيعة، والتبرؤ منها: اعتقادا، وشعورا، ومواقف، وسلوكيات، إن الاستقامة تحرر، وتخلص من كل منهج ومذهب مخالف لما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ بهذا يستقيم الإيمان، ويستقيم القلب.

٢- وقد أمر الله رسوله أن يقول للناس إنه بشر، يوحى إليه بحقائق: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت : ٦] أي: اثبتوا على التوحيد، وأخلصوا له العبادة، على منوال ما أمركم به، واستغفروه لذنوبكم وتقصيركم.

٣- وقد بين الله- تعالى- ثواب الاستقامة، ونتائجها وآثارها في الدنيا والآخرة، فقال- تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

---

(٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ١٩٣١ ، ١٩٣٢.

قال ابن كثير: «أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى، على ما شرع الله لهم(...) عن سعيد بن عمران قال: قرأت عند أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- هذه الآية.. قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئا، (...) استقاموا، فلم يلتفتوا إلى إله غيره، .. وقال الزهري: تلا عمر- رضي الله عنه- هذه الآية على المنبر ثم قال: استقاموا والله، لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: أخلصوا له الدين والعمل[١٠]. وفي فتح القدير: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: وحده لا شريك له ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على التوحيد، ولم يلتفتوا إلى إله غير الله(...). وقال الحسن: استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا»[١١].

وما قالوه هو: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، يقول سيد قطب: «وقوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ .. ليست كلمة تقال، بل إنها ليست مجرد عقيدة في الضمير، إنما هي منهج كامل في الحياة، يشمل كل نشاط فيها، وكل اتجاه، وكل حركة، وكل خالجة، ويقيم ميزانا للتفكير والشعور، وللناس والأشياء، وللأعمال والأحداث، وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود.

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ فله العبادة، وإليه الاتجاه، ومنه الخشية، وعليه الاعتماد.

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه، ولا خوف ولا تطلع لمن عداه.

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ فكل نشاط، وكل تفكير وكل تقدير متجه إليه، منظور فيه إلى رضاه.

---

(١٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٩٨، ٩٩.

(١١) الشوكاني: فتح القدير، ج٤، ص ٦٧٤.

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ فلا احتكام إلا إليه ولا سلطان إلا لشريعته، ولا اهتداء إلا بهداه.

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ فكل من في الوجود، وكل ما في الوجود، مرتبط به، ونحن نلتقي به بمعنى صلتنا بالله.

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ منهج كامل على هذا النحو، لا كلمة تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾؛ وهذه أخرى، فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج: استقامة النفس وطمأنينة القلب، استقامة المشاعر والخوالج؛ فلا تتأرجح ولا تضطرب، ولا تشك، ولا ترتاب؛ فبفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات، وهي عنيفة ومتنوعة وكثيرة؛ واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار، وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات، وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك.

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ - منهج، والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره.

والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة، وهؤلاء: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] وفيم الخوف، وفيم الحزن.. والمنهج واصل والاستقامة عليه ضمان الوصول؟

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] وتوضح كلمة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ معنى: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، ومعنى الاستقامة على هذا المنهج في الحياة، فهي تشير إلى أن هناك عملا كان الخلود في الجنة جزاءه، عملا منبعثا من ذلك المنهج: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، ومن الاستقامة عليه والاطراد والثبات(...).

إن لا إله إلا الله، أو ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾..منهج حياة، هذا ما ينبغي أن يستقر في الضمائر والأخلاد، كما تبحث عن المنهج الكامل الذي تشير إليه مثل هذه العبارة، وتتحراه»(١٢).

(١٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٦، ص ٣٢٥٩، ٣٢٦٠.

وإذا كانت الاستقامة ذات آثار في القلب والأخلاق والمشاعر والسلوكيات، فإن لها آثارا في الواقع الاقتصادي الاجتماعي، فالاستقامة التزام بتطبيق منهج الله كله، في واقع الفرد والمجتمع والدولة، فهي أساس للإصلاح الخلقي والاجتماعي، ولهذا قال- تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

«يقول الله- سبحانه: إنه كان من مقالة الجن عَنَّا ، ما فحواه: أن الناس لو استقاموا على الطريقة، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء، ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾، ونبتليهم: أيشكرون أم يكفرون(...).

وهذه اللفتة تحتوي جملة حقائق تدخل في تكوين عقيدة المؤمن وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها.

والحقيقة الأولى: هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله، وبين إغداق الرخاء وأسبابه؛ وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه(...)، وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة، وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف حتى استقاموا على الطريقة، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء، فتتدفق فيها الأرزاق، ثم حادوا عن الطريقة؛ فاستلبت منهم خيراتها استلابا، وما يزالون في نكد (...) حتى يفيئوا إلى الطريقة، فيتحقق فيهم وعد الله.

وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على طريقة الله، ثم تنال الوفر والغني، فإنها تعذب بآفات أخرى: في إنسانيتها، أو أمنها، أو قيمة الإنسان وكرامته فيها؛ تسلب عن ذلك الغني والوفر معنى الرخاء، وتحيل الحياة فيها لعنة

مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته»(١٣).

فالاستقامة حسب معطيات القرآن هي: تحقيق الإيمان والتوحيد، واتباع القرآن والسنة، والتبرؤ من كل ما خالف شرع الله، والمداومة على ذلك، والاستمرار عليه حتى نهاية عمر الإنسان، فهي اتباع صراط الله المستقيم، وعدم اتباع أي سبيل مخالف له، وهذه وصية الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أخرج أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حط رسول الله ﷺ خطا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيما» قال: ثم خط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل، وليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾(١٤). وأخرجه أيضا عنه بلفظ: خط لنا رسول الله ﷺ خطا، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل» قال يزيد: «متفرقة» «على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١٥).

٤- وقد أمر النبي ﷺ الصحابة والمؤمنين بالاستقامة: أخرج مسلم وأحمد والترمذي وغيرهم، عن سفيان بن عبد الله الثقفي؛ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك- وفي حديث أبي أسامة: غيرك- قال: «قل: آمنت بالله، فاستقم» هذا لفظ مسلم.

(١٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٦، ص ٣٧٣٤.
(١٤) انظر: المسند، ط الرسالة بتحقيق الأرنؤوط وإشرافه، حديث رقم ٤٤٣٧، وقال شاكر: إسناده صحيح، المسند ج ٤، رقم ٤٤٣٧، ص ٢٥٧.
(١٥) قال شاكر: إسناده صحيح، وانظر تخريجه هناك، المسند، ج ٤، حديث رقم ٤١٤٢، ص وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ١٩٠ – ١٩١ وأحمد محمد شاكر: عمدة ا ج١، ص ٧٣٨، وهامش المحقق.

وفي رواية أحمد: «**قال: قل آمنت بالله، ثم استقم**»(١٦).

وأخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي وابن أبي الدنيا وغيرهم عن سفيان ابن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، قال: قل: ربي الله، ثم استقم، قال: قلت: يا رسول الله ما أكبر ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه، قم قال: «هذا.. »، هذا لفظ أحمد، وفي رواية لأحمد والترمذي: قال: قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: فأخذ بلسانه نفسه، ثم قال: «**هذا**» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي رواية ابن ماجه: قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخافه علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسانه نفسه، ثم قال: «**هذا**» قال الألباني: صحيح(١٧).

وفي رواية لأحمد: «**قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم**» قال: يا رسول الله، فأي شيء أتقي؟ قال: فأشار بيده إلى لسانه(١٨).

قال في إكمال المعلم: «هذا من جوامع كلمه - عليه السلام - وهو مطابق لقوله- تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [الأحقاف: ١٣] أي: وحدوا الله، وآمنوا به، ثم استقاموا، فلم يحيدوا عن توحيدهم، ولا أشركوا به غيره، والتزموا طاعته، إلى أن توفوا على ذلك، وعلى ما قلناه أكثر المفسرين من الصحابة، فمن بعدهم، وهو معنى الحديث، إن شاء الله تعالى، قال عمر بن الخطاب، استقاموا، والله، على طاعة الله، ولم يراوغوا روغان الثعالب»(١٩).

---

(١٦) إكمال المعلم، ج ١، حديث رقم ٦٢، ص ٢٧٥ - مسند أحمد، ج ١٢، حديث رقم ١٥٣٥٤، ص ١٦٦ وإسناده صحيح.

(١٧) انظر: المسند، ج ١٢، حديث رقم ١٥٣٥٦، ١٥٣٥٧، ص ١٦٦ ، ١٦٧ بأسانيد صحيحة. سنن الترمذي: ج ٤، كتاب الزهد، حديث رقم ٢٤١٨، ص ١٨٤، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٢٣، ص ٣٠١، ابن أبي الدنيا: كتاب الصمت، وحفظ اللسان، حديث رقم ٧، ص ٣٧ ، ٣٨.

(١٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٣٥٥، ص ١٦٦ وروى مثله ابن أبي الدنيا: المصدر السابق، رقم ١، ص ٣٥.

(١٩) إكمال المعلم، ج ١، ص ٢٧٥.

٥- وأخرج الإمام أحمد عن ثوبان: «قال: قال رسـول الله ﷺ: «**استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»، وفي رواية له: «**استقيموا تفلحوا، وخير أعمالكم الصلاة..**». وفي رواية له: «**سددوا وقاربوا، واعملوا(...) واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة..**»[٢٠].

قال ابن رجب: «وفي قوله - عز وجل: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] إشارة إلى أنه لابد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة..وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يطيقوا حق الاستقامة، كما خرجه الإمام أحمد (الحديث السابق برواياته) وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا**» فالسداد: هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال، والأعمال، والمقاصد، (...) والمقاربة: أن يصيب ما قرب من الغرض، إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصمما على قصد السداد وإصابة الغرض،.. والمعنى: اقصدوا التسديد، والإصابة والاستقامة، فإنهم لو سددوا في العمل كله، لكانوا قد فعلوا ما أمروا به كله»[٢١].

وفي مدارج السالكين: «والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل منها فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم عن حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: قال: «**سددوا وقاربوا..**». فأمر بالاستقامة، وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال، وأخبر في حديث ثوبان أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة

---

(٢٠) أسانيدها صحيحة، المسند، ج ١٦، أرقام ٢٢٢٧٨، ص ٢٩٠، ٢٢٣١١، ص ٣٠٠، ٢٢٣٣٢، ص ٣٠٥، ٢٢٣٣٥، ص ٣٠٥، ٣٠٦، وقال الأرناؤوط وزملاؤه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجالة ثقات رجال الصحيح، حديث رقم ٢٢٣٨٧، ط الرسالة.

(٢١) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٢٤٦.

بحسب طاقتهم..»(٢٢).

ويقول القرضاوي: «وليس معنى الاستقامة: العصمة من الذنوب، لا يوجد إنسان معصوم، النبي ﷺ يقول: «**استقيموا ولن تحصوا**».. أي: لن تقدروا على الكمال، سددوا وقاربوا.. إنكم لابد أن تصدر منكم هفوات وخطايا، فإن الإنسان ليس معصومًا، والإنسان خلق من طين، والطين لا يخلو من الكدر، فإذا حدث منك شيء فراجع نفسك، وعد إلى الله تائبًا مستغفرًا»(٢٣).

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما - قال: إن معاذ بن جبل أراد سفرا، فقال: يا رسول الله، أوصني، قال: «**اعبد الله، ولا تشرك به شيئا**»، قال: يا رسول الله، زدني، قال: «**إذا أسأت فأحسن**» قال: يا رسول الله، زدني، قال: «**استقم، ولتحسن خلقك**»(٢٤).

ونختم هذه الفقرة بقول سفيان الثوري والحسن البصري وسعيد بن حبيب والأوزاعي: «لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»(٢٥) أي: طريق النبي ﷺ.

هذا هو حديث القرآن والسنة عن الاستقامة: فهي فلاح، وفوز، ولها آثارها في النفس والحياة، وفي الدنيا والآخرة.

رابعا: أبعاد الاستقامة وعلاقتها باستقامة القلب:

أ- في منزلة الاستقامة يقول ابن القيم، بعد نقول عن السلف: «وسمعت

---

(٢٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٨٨ والذي حكاه عن بعض العارفين: هو في الرسالة القشيرية بنصه عن قول أبي الجوزجاني؛ وقوله: هي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق، هو من كلام القشيري حرفيا، انظر: القشيري: الرسالة، ص ١٠٣ .

(٢٣) القرضاوي: خطب الشيخ القرضاوي، إعداد: د. خالد خليفة السعد، ج٦، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥م، ص ٧٧، ٧٨ .

(٢٤) صحيح، رواه الحاكم، (٤/ ٢٤٤) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في الصحيحة (١٢٢٨) .

(٢٥) انظر: تخريج هذا الأثر في: ابن الجوزي، تلبيس إبليس، النسخة المحققة، ص١٦ مع هامش رقم

شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه - يقول: استقاموا على محبته، وعبوديته، فلم يلتفتوا منه يمنة ولا يسرة»(...).

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله، على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة؛ فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله- تعالى- روحه- يقول: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»[٢٦].

فالاستقامة هي الطريق الموصل إلى الله.

ب- وفي شرح حديث الصحابي سفيان بن عبد الله، السابق، يقول ابن رجب: «قول سفيان بن عبد الله للنبي ﷺ: «قل لي في الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك»: طلب منه أن يعلمه كلاما جامعا لأمر الإسلام، كافيا، حتى لا يحتاج بعده إلى غيره، فقال له النبي ﷺ: **«قل: آمنت بالله، ثم استقم»**، وفي الرواية الأخرى: **«قل ربي الله، ثم استقم»** (...).

وقال أبو بكر الصديق في تفسيره ثم استقاموا؛ قال: لم يشركوا بالله شيئا، وعنه قال: لم يلتفتوا إلى إله غيره، وعنه قال: ثم استقاموا على أن الله ربهم(...) وعن قتادة قال: استقاموا على طاعة الله، وكان الحسن- إذا قرأ هذه الآية- قال: اللهم أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.

ولعل من قال: إن المراد الاستقامة على التوحيد؛ إنما أراد التوحيد الكامل؛

---

(٢٦) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٨٨ .

الذي يحرم صاحبه على النار، وهو تحقيق معنى لا إله إلا الله؛ فإن الإله هو الذي يطاع فلا يعصى؛ خشية وإجلالا، ومهابة ومحبة، ورجاء وتوكلا، ودعاء، والمعاصي كلها قادحة في هذا التوحيد؛ لأنها إجابة لداعي الهوى وهو الشيطان، قال الله- عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] قال الحسن وغيره: هو الذي لا يهوى شيئا إلا ركبه، فهذا ينافي الاستقامة على التوحيد.

وأما على رواية..«**قل آمنت بالله**»؛ فالمعنى أظهر، لأن الإيمان يدخل فيه الأعمال الصالحة، عند السلف ومن تابعهم من أهل الحديث، وقال الله- عز وجل: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، فأمره أن يستقيم هو ومن تاب معه، وألاَّ يجاوزا ما أمروا به.. وهو الطغيان، وأخبر أنه بصير بأعمالهم، مطلع عليها(...) وعن الحسن؛ قال: لما نزلت هذه الآية: شمر رسول الله ﷺ(...).

وقد أمر الله تعالى بإقامة الدين عموما..وأمر بإقام الصلاة..كما أمر بالاستقامة على التوحيد.

والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم، من غير تعريج عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، ويشمل ذلك: فعل الطاعات كلها: الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها، كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها(...).

فأصل الاستقامة: استقامة القلب على التوحيد، (...) فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه؛ استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك، استقامت جنوده ورعاياه(...).

وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان؛ فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه، ولهذا لما أمر النبي ﷺ بالاستقامة؛ وصاه بعد ذلك بحفظ لسانه، وفي مسند الإمام أحمد عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»(٢٧).

ويذكر الجمل في الفتوحات الإلهية أن الاستقامة: «تشمل العقائد والأعمال والأخلاق، فإنها في العقائد اجتناب التشبيه والتعطيل، وفي الأعمال: الاحتراز عن الزيادة والنقصان، والتغيير والتبديل، وفي الأخلاق: التباعد عن طرفي الإفراط والتفريط(...) وفي أبي السعود: أمر رسول الله ﷺ بالاستقامة، كما أمر في العقائد والأعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين(...) وبالجملة: فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية، والكمالات النظرية والعملية..»(٢٨).

وفي الرسالة القشيرية: «ويقال: الاستقامة في الأقوال: بترك الغيبة، وفي الأفعال: بنفي البدعة، وفي الأعمال: بنفي الفترة، وفي الأحوال: بنفي الحجبة»(٢٩).

جـ- فالاستقامة منهاج إيماني، للقلب، وللسان، وللجوارح..وقد بين ذلك القرضاوي في خطبة مهمة له.

ومما قال: «الاستقامة تعني: أن تثبت على الحق، وأن تقف عند حدود الله، وأن تبتعد عما حرم الله، وأن تسير في الطريق إلى الأمام، لا ترجع القهقرى، رجوع القهقرى ليس استقامة، ولا تتوقف، فإن المتوقف لا يسمى مستقيما، ولا تنحرف يمينًا ولا يسارًا، فالاستقامة ضد الانحراف، (...).

---

(٢٧) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٢٤٤ - ٢٤٧. وانظر للزيادة: محمد عبد الله دراز: المختار من كنوز السنة النبوية، ص ٤١٨ - ٤٢٣ .

(٢٨) سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، ج٣، ص ٤٩٨ .

(٢٩) القشيري: الرسالة، ص ١٠٣

الاستقامة هي السير إلى الأمام في خط مستقيم، هو الصراط الذي رسمه الله تعالى لعباده.

الاستقامة هي استقامة القلب- أولا- على حقيقة التوحيد؛ فلا ترجو إلا الله، ولا تخش إلا الله، ولا تعتمد إلا على الله، ولا تثق إلا بالله، ولا تحب ولا تكره إلا في الله، ولا تعطي ولا تمنع إلا لله، كل شيء عندك لله، موصول بالله؛ «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**» (رواه أبو داود: ٤٦٨١).

هذه هي استقامة العقيدة؛ أن تستقيم على التوحيد؛ فلا تتخذ غير الله ربا، ولا تتخذ غير الله وليا، ولا تبتغي غير الله حكما.

فاستقامة القلب- أولا- فإن القلب هو ملك الأعضاء، والأعضاء جنود، وكما جاء في الحديث الصحيح، «..**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٣٠).

ثم بعد ذلك: استقامة اللسان، كما روى الإمام أحمد (حديث هذا الفصل).

استقامة اللسان دليل على استقامة القلب، وفي حديث آخر «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان** (أي: تخضع له) **فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»(٣١).

ثم بعد ذلك استقامة الجوارح كلها على طاعة الله، تستقيم يدك، وتستقيم رجلك، ويستقيم بصرك، ويستقيم سمعك، وتستقيم كل جوارحك، على طاعة الله، فلا ترتكب الحرام، ولا تتعدى حدود الله، هذه هي الاستقامة.

---

(٣٠) البخاري: صحيحه، ج١، رقم ٥٢، ص٥٦، ومسلم: صحيحه، ج٣، رقم ١٥٩٩، ص١٢١٩.
(٣١) الترمذي في الزهد (٢٤٠٩)، والألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٥١، ج١، بإسناد حسن.

ومن مكملات الاستقامة ما ذكره الله- تعالى- في سورة (هود) ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣].

الطغيان: أن تتجاوز الحد، إما في حقوق الناس، أو في حدود الله، أن تتجاوز الحلال إلى الحرام، أن تتجاوز العدل إلى الظلم(...) والله- تعالى- يعلمنا الاستقامة وعدم الطغيان، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩] هذه هي الوسطية؛ لا طغيان ولا إخسار.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يعلم كل أعمالكم، ويبصرها، ويطلع عليها، جليها وخفيها، ويجازيكم عليها.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾: لا تطغى ولا تظلم، ولا تركن إلى طاغية، أو ظالم، لا تكن عونا لظالم، لا تكن سوطا في يد ظالم، لا تسخر نفسك خادما لظالم، فإنك بذلك تكون شريكه، تكون معه من حطب جهنم، أعوان الظلمة كلاب النار، (...) الركون إلى الظلمة: الاستناد إليهم، والاعتماد عليهم، بحيث تسير في ركابهم.. وتكون معهم في الخير والشر، والعدل والظلم، والحسن والقبيح، والمعروف والمنكر، (...) الإسلام يريد من المسلم أن يكون مع الحق والعدل، لا مع الباطل والظلم، (...) لا تكن طاغية، لا تطغى، ولا تركن إلى ظالم، ولا تكن عونا لظالم.

هذه هي حقيقة الاستقامة»(٣٢).

ويذكر الشيخ دراز أن الاستقامة: «هي جميع الفضائل كلها، وأنه ليس هناك فضيلة عملية، ولا فضيلة خلقية، ولا فضيلة نظرية، إلا انطوت عليها هذه الكلمة الجامعة.

---

(٣٢) يوسف القرضاوي: خطب الشيخ القرضاوي، ج ٦، ص ٧٢ - ٧٥ .

فالاستقامة؟..سلوك الطريق القويم الذي لا عوج فيه ولا انحراف، وهو ما ليس بإفراط ولا تفريط، أليس هذا التوسط والاعتدال هو العنصر الفعال في الفضائل كلها؟... إلخ»(٣٣).

د- إذن، الاستقامة: لها أبعاد:

١- استقامة الإيمان والعقيدة، بتحقيق حد الإيمان، وإخلاص التوحيد والعبادة لله، والبراءة من الشرك، وقد فصلنا ذلك في فصلين سابقين (تربية الإيمان في جذر قلوب الرجال - تجديد الإيمان في القلب).

٢- استقامة القلب؛ بأن يوحد الله، ويؤمن، به، ويعبده، ويخشاه، ويحبه.. إلى آخر ما فصلناه في هذا الكتاب.

٣- استقامة اللسان؛ بأن يحفظ الإنسان لسانه، ويلتزم الحق، والخير، والطيب من القول، فيصدق، ويعلم الخير، ويتكلم بالصواب، ولا يغتاب، ولا ينم، ولا يكذب، ولا يفحش، ولا يروج الكذب، ولا يسخر... إلخ(٣٤).

واستقامة اللسان شرط لاستقامة القلب.

٤- استقامة الجوارح والأعمال والمواقف، بأن يتحرى الحلال، ويتجنب الحرام، ويلزم حدود الله، ويداوم على ذلك.

ومن ذلك: استقامة الأخلاق مع الكل..فيبر والديه، ويحسن إلى جاره، ويعود المريض، ويتبع الجنازة، ويعزي المصاب، ويغيث الملهوف، ويعاون المحتاج، ويبذل السلام،... إلخ.

---

(٣٣) انظر كلامه كله مفصلا في محمد عبد الله دراز: حصاد قلم، ط١، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٤م، ص ٢٥٩ - ٢٦٢ .

(٣٤) ادرس كتاب ابن أبي الدنيا: الصمت وحفظ اللسان، وكتاب: ذم الغيبة والنميمة، وما ورد عن ذلك في: المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب، وما ورد في الفصل السابع والعشرين من كتابنا هذا، وابن رجب جامع العلوم والحكم، ط: الرسالة، ص ٣٢٨، ٣٢٩ .

وأصل ذلك: استقامة القلب، التي بها يتكون (الضمير المؤمن المستقيم) فيكون واعظا في القلب، يدعوه للخير، ويرشده، ويلزمه بالصراط المستقيم، كما فصلنا في (تربية واعظ الله في القلب).

خامسا: أهمية الاستقامة وحاجتنا إليها والتربية عليها:

أ- يتبين من العرض التحليلي السابق أن الاستقامة هي جماع الالتزام بالإسلام، والتمسك به، ولزومه، طوال الحياة، ويمكن أن نسمي أخلاق الإسلام بأنها أخلاق الاستقامة على الإيمان والتوحيد والعمل الصالح.

ب- فالاستقامة هي قيمة القيم الإسلامية، وبدونها لا توجد شخصية إسلامية، ولا حياة إسلامية، فهي أساس الشخصية الإسلامية والمجتمع المسلم.

جـ- ويدل على أهمية الاستقامة، بالمفهوم والأبعاد السابقة، أن الله أمر بها نبيه مرتين، وأمر بها المسلمين، وأن الرسول جعلها القول الجامع الشامل للإسلام.

د- فالاستقامة قيمة القيم الملزمة، وإذا التزم بها المسلم أثمر ذلك الالتزام: طمأنينة القلب، وصلاح البال، وتنزل الملائكة عليه، تبشره بالأمان الروحي والبدني، وأنه لا خوف عليه ولا حزن، وأنه مبشر بالجنة، وداخلها بما كان يعمل، برحمة الله وفضله، كما جاء في آيات القرآن التي ذكرناها، وأن المستقيم مفلح، في الدنيا والآخرة.

هـ- وإذا استقام المسلمون حقا، أسقاهم الله ماء غدقا، وحقق لهم الرخاء المادي والمعنوي، وطرد عنهم الشقاء، وحقق لهم السعادة- لأن الاستقامة: صلاح القلب والضمير، وصلاح العقل والتفكير، وصلاح اللسان والتعبير، وصلاح المعاملات والأخلاق، والعادات، والقرارات، والمواقف.. في كل جوانب الحياة..، فلا شك أن الرخاء والرفاه هو نتاج هذه الصلاحات كلها.

و- وقد بين القرضاوي أهمية الاستقامة بكل أبعادها، وأثرها في حياة المسلم في خطبة مهمة، بسبب ما سمعه وما قرأه عن الاختلاسات والسرقات..قال:

«ولو كان الاختلاس من موظف عادي لقلنا: يمكن أن يعقل. أما أن يكون الاختلاس والسرقة من المدير فهذا ما ينطبق عليه المثل القائل: حاميها حراميها!

وكما قال الشاعر قديما:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها   فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟!

الراعي يحمي الغنم من الذئب، فكيف إذا كان الذئب هو الراعي؟! هذه هي المصيبة التي نراها في كثير من المؤسسات العامة والمؤسسات الحكومية.

علام يدل هذا؟

يدل هذا على موت الضمائر، على فساد الأخلاق، على أن الناس لم يعودوا يؤمنون بالله إيمانا حقيقيا، ولا بالآخرة، لم يعودوا يرجون الله، ويخافونه، فغلبوا حب الدنيا على الآخرة(...) غلبوا حب المال على حب الله عز وجل، فلم يبالوا ما أخذوا: أمن حلال أمن حرام؟ بل خططوا لكسب الحرام(...) هذه هي المصيبة؛ مصيبة فساد الأخلاق، وفساد الأخلاق من ضعف الإيمان واليقين، وإذا فسدت أخلاق أمة فقد أصبحت مهددة بالانهيار أو بالزوال، كما قال أمير الشعراء شوقي:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم   فأقم عليهم مأتمًا وعويلا

وقال:

وليس بعامر بنيان قوم   إذا أخلاقهم كانت خرابا

الإنسان إذا خربت أخلاقه ومات ضميره؛ يبيع نفسه، يبيع عائلته، يبيع شرفه، يبيع وطنه لأعدائه (...).

نحن في حاجة، إذن، إلى استقامة؛ استقامة أخلاقية، الحياة لا تستقيم ولا ترتقي إلا بأهل الاستقامة، ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠] .. (وبعد أن بين مفهوم الاستقامة وأبعادها قال): نحن في حاجة إلى أمة تستقيم على أمر الله، إنما نجح المسلمون في العصور الأولى، إنما انتصروا على الدول الكبرى.. على كسرى وقيصر - على الفرس والروم- وأقاموا دولة العدل والإحسان، وأنشأوا حضارة العلم والإيمان، إنما فعلوا ذلك يوم كانوا أهل استقامة على أمر الله.

استطاع رسول الله ﷺ أن ينشئ من عرب الجاهلية عرب الإسلام، وأن يحول عمر الجاهلية إلى عمر الإسلام، وخنساء الجاهلية إلى خنساء الإسلام.

بهؤلاء انتصر الإسلام في العالم، وقامت دولة الإسلام الكبرى، وانتشر الإسلام في العالمين.

ربى النبي ﷺ الصحابة، والصحابة ربوا التابعين، والتابعون ربوا أتباعهم، وهكذا انتشرت التربية النبوية المحمدية إلى العالم.

التربية على الاستقامة: أن تقول: ربي الله، ثم تستقيم على هذا الأمر، وتثبت عليه، وتدفع ضريبته مهما كانت(...).

«قل ربي الله ثم استقم»: ليستقيم سلوكك، ويستقيم عملك، كما استقامت عقيدتك، وكما استقام إيمانك، واثبت على ذلك، حتى يكون لك الجنة، وحتى تتنزل عليك الملائكة، عند الموت، وعند البعث(...).

فهكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان.

لا تصلح الحياة إلا بالاستقامة، لا تنهض المجتمعات إلا بالاستقامة، لا تستقيم المؤسسات إلا بالاستقامة(...).

ما أحوج أمتنا إلى الاستقامة، ما أحوجنا أفرادا وجماعات إلى الاستقامة.

بالاستقامة تطمئن نفوسنا، تسعد قلوبنا بالسكينة، بدل القلق الذي أتعب الناس، وعذب الناس.

الاستقامة بالإيمان، والاستقامة بالسلوك، تجعل الإنسان يعيش مرتاح الضمير..لم يسرق، ولم يخلس»(٣٥).

ففساد الضمير، وفساد الأخلاق، وفساد المعاملات، وفساد المؤسسات يعود إلى فقدان تربية الاستقامة: تربية استقامة الإيمان، واستقامة القلب، واستقامة اللسان، واستقامة الأخلاق- السلوكيات والمعاملات- والقرارات، والممارسات.

فتربية القلب المستقيم: إنقاذ للأمة، من الفساد والفقر، وإنقاذ للفرد المسلم من فساد الشخصية وانحلالها.. باطنًا وظاهرًا.

سادسا: مبادئ تربية القلب المستقيم:

أشرت إلى أن تربية القلب المستقيم ضرورية لإنقاذ الأمة من حالة الانحراف والفساد الخلقي والإداري والسياسي والاقتصادي، عند كثيرين، وهذا الكتاب كله هو في تربية القلب المستقيم؛ لأن استقامة القلب جامعة للالتزام بكل قيم القلب المفصلة في هذا الكتاب، فإنجاز التربية القلبية هي إنجاز للاستقامة بكل مقوماتها أو أبعادها. ولهذا كان هذا الفصل خاتمة الفصول، ولكني أشير هنا إلى مبادئ تربية الاستقامة القلبية.

أ- مبدأ الإدراك والتعقل:

إن ممارسة أية قيمة، صحيحة، والاتصاف بها، لا يتحقق بدون تصور هذه القيمة وإدراك مضمونها، والوعي بخدودها وأبعادها، وأهميتها، وآثارها..

---

(٣٥) يوسف القرضاوي: خطب الشيخ القرضاوي، ج ٦، ص ٦٩ - ٧٨ .

فتحصيل عالم أفكار وتصورات صحيحة عن الاستقامة. هو الذي يولد الداعي للتخلق بها، والاتصاف بها، وينشئ الرغبة والشوق لممارستها، وتحمل الجهد والتعب في دراستها، وممارستها.. والالتزام بها، والثبات عليها إلى نهاية العمر، وذلك إذا كانت الدراسة بالتفكر، والتأمل، والتأثر، وتفهم الأدلة، والآثار الناتجة عن الاستقامة: في القلب والضمير، والشعور، والأخلاق، والجوارح.

وتحقيق هذا المبدأ هو بدراسة هذا الفصل: ذاتيا، وجماعيا، وتبليغ معطياته للمسلمين- في المساجد بالخطب والدروس، كما فعل القرضاوي في خطبته، وبالكتاب كما فعل ابن رجب، وكما فعلنا في هذا الفصل، وكما فعل ابن القيم في منزلة الاستقامة من المدارج.. دراسة هذا كله، والتفكر فيه.. والاستماع لمن يعلم ذلك،.. وعمل الحلقات والدورات، والخواطر، والحوارات، والليالي الربانية من أجل تحصيل هذا الإدراك الصحيح الواضح للاستقامة.

ب- مبدأ الإيمان وتزويد الاستقامة:

بأن يستشعر المسلم ما أدركه، يشعره قلبه، ويحس به، ويدخله في قلبه، ويتأثر به، ويقارن حالته بما يدرسه، وما يستمع إليه، ويراجع ذاته، ويعرف موقفه من الاستقامة، ويتيقن فيما قاله الله في القرآن وما قاله النبي في السنة، عن الاستقامة، ويصدق ذلك، ويجزم به في قلبه، ويخضع له، ويستسلم، ويعزم على ممارسته، ويطلب العون من الله.

وتحقيق هذا المبدأ يكون بالتأثر..وإدماج ما ندرسه في قلوبنا ومشاعرنا، في أثناء تلاوتنا لآيات الله عن الاستقامة، ولأحاديث النبي عنها، وبالمقارنة بين حالة قلوبنا، وحقيقة الاستقامة، ومراجعة ذواتنا، ومحاسبتها، ووزنها بميزان الاستقامة.. وبالتصديق القلبي بأن الاستقامة هي قيمة القيم الملزمة..فاستقامة القلب هي أساس استقامة الإيمان، وأعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

فهذا المبدأ يتطلب (وقفة) مع قلوبنا، ومع القرآن، ومع الحديث، ومع هذا الفصل، هل نحن (مستقيمون) على الحق المبين؟ هل نريد الفلاح؟ هل نريد الرخاء وأن يسقينا الله ماء غدقا؟ هل نريد الأمن يوم المخافة؟ إذن..أين الاستقامة؟ هل نريد صلاح الأمة وإصلاحها في كل جوانبها؟ فأين تربية الاستقامة؟ إذن: (أصلح نفسك، وادع غيرك).

إننا نريد تزويد الاستقامة؛ بالإيمان بها، بأن تكون جزءا من ضميرنا..من شعورنا، بالتصديق بما تعلمناه، وأدركناه عنها، باليقين فيه، بالشعور والتأثر به، بصبغها بأحاسيسنا، بالخضوع له، والاستسلام والانقياد له، بمراجعة أنفسنا، ومحاسبتها بمعيار الاستقامة.

من هنا تنشأ الرغبة والمحبة والإرادة الجازمة والعزيمة، لممارستها بكل جوانبها.

ويجب أن نركز على هذا المبدأ في حلقاتنا الدراسية، وفي دوراتنا التربوية، وفي كل ما ندرسه ونقرؤه في الاستقامة مما أشرت إليه، فهذا أساس تربية الاستقامة في القلب- فعلًا.

جـ- مبدأ التشوق والاشتهاء:

أكدنا مرارًا أن تربية القيمة لا يمكن أن تتحقق بدون أن يريد القلب التخلق بها، بدون أن يرغب فيها، ويشتهيها، ويحبها، فالمحبة هي أساس إرادة القيمة، والنهوض لممارستها.. وفعلها.

فالتخلق بالاستقامة يستلزم إرادة الاستقامة، واشتهاءها.. من الأعماق، وذلك: بالاقتناع بها والإيمان بأهميتها، فيركز المسلم، والدعاة والمربون، على تأمل آثار الاستقامة، وأهميتها، وضرورتها، والتركيز على إلزاميتها. فإذا بنينا الرغبة والحب في الاستقامة.. نهض المؤمن من تلقاء نفسه، وبوازع داخلي..ليدرس الاستقامة، ويمارس أعمال الاستقامة، الأول، فالأول.

ولنترك آيات القرآن، وأحاديث الرسول في الاستقامة، تحدث القلوب، وتحركها.. وتصوغها.

د- مبدأ البيئة الثقافية المربية، والصحبة المربية:

وقد تناولنا ذلك مرات كثيرة، وهنا نقول: إن تربية الاستقامة في الإيمان والقلب، والجوارح، واللسان، وفي الأخلاق كلها، أمر طويل، ومتشعب، ومستمر، يحتاج إلى تشجيع، ذاتي، وجماعي، وإلى معونة، وتعاون من الذين يريدون الاستقامة، معونة من الدعاة، والوعاظ، ومن المربين في الحركات الإسلامية- بتكوين بيئة صالحة لذلك، من خلال حلقات ودروس، ولقاءات، ومدارسات، ومصادقة ومصاحبة.. في الخير.. إلخ.

تربية الاستقامة تتطلب صحبة متعاونة على الاستقامة، وسكنا مستقيما، ومربين مستقيمين وحلقات تربوية في الاستقامة..، وخطباء يخطبون في الاستقامة، وآباء وأمهات يعون الاستقامة، ومقدمين للبرامج في كل وسائل الاتصال عن الاستقامة... إلخ.

وتكوين بيئة ثقافية، تشجع الاستقامة، وتكوين رأي عام يستهجن الانحراف... إلخ، فينشأ الناشئ متشربا لثقافة هذا الوسط المربي الفاعل.

هـ- مبدأ التعود والممارسة المربية:

إن أية قيمة لا تتحقق في عالم السلوك الواقعي إلا بممارستها..والتدرب عليها، والتعود عليها، بفعلها، فهذا هو الذي يكسبها للنفس فعلا، ويثبتها في القلب، نحن نتعلم الكتابة بالكتابة، نحن نتعلم الاستقامة بأفعال الاستقامة، بأن نحقق التوحيد، ونتخلص من الشرك، بأن نحقق الإيمان، بأن أحقق عبادتي وعبوديتي لله، بأن أحب الله، بأن أخشاه، وأخشع له، وأنيب إليه، بأن أصلي، وأصوم، وأحسن الجوار، وأكف لساني إلا من خير، أو إصلاح بين الناس،... إلخ.

أي: البدء الفوري في ممارسة أعمال الاستقامة.. فالإيمان يزيد، أي: يكبر، وينمو، بالطاعات.. فكل طاعة لله، نمارسها هي تربية للاستقامة.

و- مبدأ البدء بالأهم في سلم الاستقامة، حسب خطط مبرمجة:

فلنبدأ بتربية الإيمان والتوحيد، ثم تربية التقوى والنقاء، ثم تربية الخشوع، ثم تربية الرقة، وتربية الرحمة.. إلخ، وقد فصلنا ذلك في فصول هذا الكتاب.

ومن هنا نرى ضرورة وضع خطة لمدة ثلاث سنوات- مثلًا- لتربية القلب المستقيم، تقسم إلى دورات حسب فصول هذا الكتاب.. كل دورة تهدف فيها إلى إكساب من نربيهم جملة من قيم الاستقامة.

فنحدد القيم، والفصول المطلوب دراستها، وممارستها، وجداول المحاسبة... إلخ.

ز- إن تربية القلب المستقيم لا تتحقق بدون تربية اللسان المستقيم، وهذا موضوع دراستنا المقبلة إن شاء الله، (تربية اللسان في الإسلام)، والله المعين.

سابعا: خاتمة واستنتاجات:

أردت بهذا الفصل أن يكون خاتمة الكتاب كله، وقد أردت تأكيد الحقائق الآتية:

١- إن استقامة القلب هي أساس استقامة الإيمان، وأن استقامة اللسان، والأخلاق الاجتماعية هي أساس استقامة القلب، واستقامة الإيمان، وهكذا فإن تربية القلب المستقيم هي أساس وحدة الشخصية المسلمة، وصلاحها.

٢- إن الاستقامة هي قيمة القيم الإسلامية كلها، فيصح تسمية أخلاق الإسلام بأنها: أخلاق الاستقامة في الإيمان والتوحيد والعمل الصالح.

وأن الاستقامة تعني: لزوم شرع الله في ذلك كله، والثبات عليه، باعتدال، ودون طغيان أو انحراف.

والاستمرار في ذلك حتى نهاية العمر، وممارسة ذلك في الأحوال والنيات والأقوال والأعمال، وسائر الأخلاق، أي: أن تربية الاستقامة هي: أساس تربية القلب المسلم والخلق المسلم.

وإن الاستقامة ذات أبعاد: استقامة الإيمان، والعقيدة، استقامة القلب والضمير، واستقامة اللسان والجوارح، واستقامة الأخلاق الاجتماعية والمعاملات.

٣- إن الأمة الآن تحتاج فعلا لتربية الاستقامة بأبعادها السابقة في المسلمين.

٤- إن تربية الاستقامة هي أن نطبق ما ورد في هذا الكتاب، ولهذا فهي تتطلب (استراتيجية تربوية ملزمة).

٥- بناء على هذا كله يمكن أن نبدأ في التفكير النقدي لتربيتنا: في أنفسنا، في بيوتنا، في مساجدنا، في مدارسنا وجامعاتنا، في الحركات الإسلامية.. هل هي تربية مستقيمة تخرج شخصيات مستقيمة؟ ماذا يجب أن نعمل؟

٦- من المهم أن ندرك وجهة التربية الإسلامية: إنها تبدأ من تربية القلب المستقيم: المؤمن، الموحد، التقي، الرقيق، الرحيم، المجاهد، المحب لله، الخاشع له، التائب إليه، المصقول، المخموم النظيف، السليم، النقي، اللين، الحر، المتحرر من الحسد، والشرك، واتباع الهوى، والقسوة، والغل، والغدر... إلخ.

هذه هي تربية القلب المسلم. ومن هنا نبدأ.

ثامنًا: أسئلة وأنشطة لتسهيل الفهم وتسريع الممارسة:

١- بين مفهوم الاستقامة، عامة في الدلالة اللغوية، ثم بين مفهوم استقامة الإيمان، واستقامة القلب.

٢- وضح كيف أن الاستقامة أساس للإسلام كله؟

٣- ما أهمية الاستقامة؟ وما الأدلة الشرعية على ما تقول؟

٤- بين لماذا تحتاج الأمة المسلمة اليوم إلى تربية الاستقامة في الفرد المسلم؟

٥- ما أسس تربية استقامة القلب؟ هل تقوم بتنفيذها؟

٦- وضح علاقة تربية القلب المستقيم بكل فصل من فصول هذا الكتاب، بعد أن تدرسه.

٧- قم بعمل منظومة قيم الاستقامة، ثم حدد موقعك من التمسك بها في نفسك.

٨- كلفت بعمل خطة لدورة تربوية عن تربية القلب المستقيم: مفهومها وأبعادها، وأهميتها وأسسها.

٩- حدد: أهداف الدورة، وأنشطتها الفكرية الدراسية، وخواطرها، وآياتها، وأحاديثها، والمدعوين لها، والمحاضرين، وأنشطتها التعبدية، وجدول المحاسبة الخاص بها، وزمانها، ومكانها، واشرع في التنفيذ.

١٠- ما دور إمام المسجد الذي تصلي فيه نحو هذه القيمة؟ هل فاتحته في تناول هذا الموضوع؟ لماذا لا تبدأ؟

١١- قم بتحليل ونقد التربية التي تمارسها في بيتك، في ضوء هذه القيمة، وكذلك في تربية المدرسة، والكتاب، والمسجد، والحركة الإسلامية التي تعرفها. قدم اقتراحاتك.

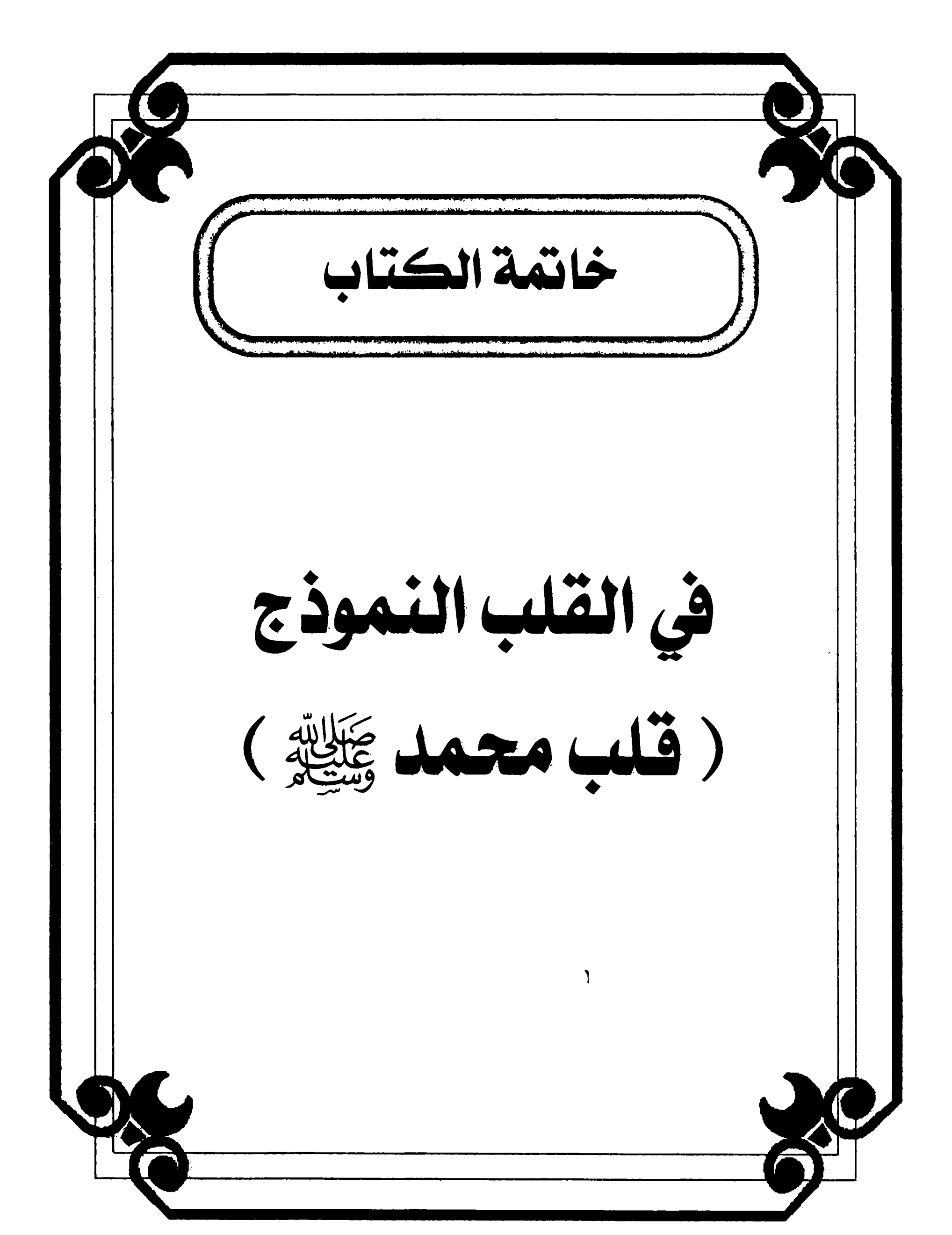
١٢- ما مفهوم تربية القلب المستقيم؟ هذه إشارة لذلك؛ فتأملها، هل هذا مفهوم صحيح؟

هي إكساب القلب.. والعقل.. تَصَوُّرًا، وإدراكا صحيحا واضحا، عن الاستقامة، ومضمونها، وأبعادها، وآثارها في الدنيا والآخرة، بحيث يتصورها تصورا صحيحا مؤثرا مقنعا، فيكتسب القلب إيمانا حيا فاعلا بقيم

الاستقامة، فيصدق ويتيقن فيما تعلمه عنها، ويتأثر به، ويستشعره، ويعتقده، ويخضع له، ويعزم على فعله، وتطبيقه، ويريد الاتصاف بذلك، ويرغب فيه ويتجه بقلبه إليه، وينهض بوازع داخلي قوي، لكي يدرس مضمونها وصورها العملية، ويمارس كل ما تعلمه عنها، فورا، ويتدرب، ويتعود، ويفرح بتلك المدارسة والممارسة،.. ويداوم على ذلك، ويثبت عليه طوال عمره.

هي الجهود الذاتية والجماعية التي نبذلها لكي نتصف بقيم الاستقامة: جهد دراسي تثقيفي: ذاتي وجماعي، جهد في المجاهدة النفسية، وإدماج المعرفة الخاصة بها في القلب، جهد إرادي للتعود، والممارسة، جهد في محاسبة النفس حسب منظومة الاستقامة.. إلخ.

وذلك من خلال ما نخططه ونطبقه في الأسرة، والمسجد، والحركة الإسلامية... إلخ.



خاتمة الكتاب

في القلب النموذج

(قلب محمد ﷺ)

خاتمة الكتاب

في القلب النموذج (قلب محمد ﷺ)

المستقرئ للأحوال القلبية للرسول محمد ﷺ، يتبين له، بجلاء وتميز، أن قلبه كان خير قلب، وأصلح قلب، وأجمل قلب، وأنه قد طبق، ونفذ، بشكل تام وكامل، كل القيم الإيمانية والقلبية التي درسناها في هذا الكتاب، ولذلك كان هو القدوة الكاملة، والأسوة الحسنة، لكل من يريد ممارسة قيم وأخلاق القلب المؤمن، والالتزام الصحيح بها.

وهذا هو أعظم شمائله وأخلاقه الحسنة التي يجب أن يتأسى بها المسلمون، المتبعون لهديه، ويحاكوه فيها.

والله سبحانه شهد له بكونه النموذج الكامل في أخلاق القلب والسلوك، فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولهذا كان، ولا يزال، من مهمته التربوية أن يعلم المؤمنين الحكمة، وأن يزكيهم، أي: أن يربيهم في الخير، وينمي قلوبهم ونفوسهم.. إلخ ما ذكرناه في الفصل الأول، وجعل الله ذلك منة منه لعباده: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فالرسول يربي قلوب المؤمنين في الخير.. يربيها بأخلاقه القلبية، التي هي أخلاق القرآن، فقلب محمد ﷺ هو القلب الذي التزم تماما وكمالا بأخلاق

القرآن، «كان خلقه القرآن»[(١)]، كما شهدت حبيبته عائشة - رضي الله عنها.

وكما يقول أنس- الذي خدمه عشر سنين- عن خلقه: «كان أحسن الناس خلقا»[(٢)] ويقول: «كان أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس»[(٣)]، ويقول: «كان أحسن الناس وجها، وأحسنهم خلقا»[(٤)].

وهذا الكتاب الذي نختمه هو بيان عن قلب محمد ﷺ، فالأحاديث التي بنينا عليها الكتاب كله، هي أحاديث محمد رسول الله، فهو الذي قالها، وربى بها أصحابه، ويربى بها كل مؤمن به إلى آخر الزمان، وهو الذي فعل وطبق كل ما دعا إليه، فالكتاب كله برهان على العظمة القلبية لمحمد رسول الله، إنه كتاب عن أقواله وأفعاله القلبية.

فهو بيان عن سيرته القلبية، وتحديد لهوية القلب المحمدي.

ويمكن أن نستخرج معالم القلب المحمدي في عبارات موجزة، شرحنا كلا منها في هذا الكتاب، فيما يلي:

١- كان قلب محمد ﷺ أعلم القلوب بالله، وأسمائه وصفاته، وحقه على خلقه، وأعرفهم به، وأكمل القلوب إذعانا له، وتوقيرا وتعظيما، عن عائشة - رضي الله عنها- في حديث عن النبي ﷺ قال: «**إني لأعلمكم بالله- عز وجل، وأتقاكم له قلبا**»[(٥)]، ويقول: «**أنا أتقاكم لله، وأعلمكم بحدود الله**»[(٦)].

٢- كان قلب محمد ﷺ أشد القلوب حبا لله، وألينها لكلامه.. وذكره.

---

(١) إسناده صحيح، المسند، ج٦، ص٩١.
(٢) إسناده صحيح، المسند، ج٢، ص٣٩٢.
(٣) ابن ماجه، السنن، رقم ٢٧٧٢، وقال الألباني: صحيح.
(٤) البخاري: صحيحه، رقم ٣٥٤٩.
(٥) إسناده صحيح، المسند، ج٦، ص٦١.
(٦) إسناده صحيح، المسند، ج٥، ص٤٣٤.

٣- كان قلب محمد ﷺ أشد القلوب خشية؛ ففي الصحيحين والمسند، عن عائشة، من حديث؛ «**فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»(٧)، فكان قلبه أخوف القلوب من الله، وأتقى القلوب، له، فالتقوى ضميره، فهو أتقى قلب، وأبر قلب، فالتقوى في صدره، وكان يشير إليه، ويقول. «**التقوى ها هنا، التقوى، ها هنا**» يقول: أي: في القلب(٨).

وفي مصحف دانيال النبي، من قول الله- عز وجل- عن نبيه محمد: «أعلمه الأسماء، وأزينه بالتقوى، وأجعل البر شعاره، والتقوى ضميره..».

٤- وكان قلبه ﷺ أكثر القلوب وأكملها إيمانًا بإلهية الله وربوبيته، وحاكمتيه، وإخباتا، وخشوعا، وعبودية له، وعبادة، وتضرعا إليه (اقرأ الآيات ١٤- ١٩ من سورة الأنعام، والآيات ١٦٠، ١٦٤ من سورة الأنعام، والآيات ١٨٨، ١٩٦، ٢٠٥ من سورة الأعراف، والآيات ١٥، ٩٤، ١٠٤، ١٠٩ من سورة يونس، والآيات ٢١٧- ٢١٩ من سورة الشعراء، والآيات ١١- ١٤، ٦٤- ٦٦ من سورة الزمر، والآيات ٦٥، ٦٦ من سورة غافر).

٥- وكان قلبه أرحم القلوب بالمؤمنين، وبالصبيان، وبالخلق كلهم، بالطيور، والبهائم، وحتى الحشرات.. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ويقول: «**إنما أنا رحمة مهداة**»(٩)،

---

(٧) البخاري: صحيحه، رقم ٦١٠١.

(٨) إسناده جيد، المسند ج٢، ص ٢٧٧.

(٩) الهيثمي: مجمع الزوائد، ج ٨، ص٢٠٤، وقال: رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح.

ويقول: «**بعثت رحمة**»(١٠)، ويقول: «**خاب عبد وخسر من لم يجعل الله تعالى في قلبه رحمة للبشر**»(١١)، وقال أنس عنه: «كان أرحم الناس بالصبيان والعيال»(١٢). ويقول أنس: «كان رحيما بالعيال»(١٣).. إلخ.

٦- وكان قلبه أرق القلوب وألينها، وأبعدها عن القسوة والغلظة والجفاء، وأمية المشاعر.. كان قلبا رقيقا، حساسا، وكان يستجير بالله من القسوة؛ «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم، والقسوة، والغفلة..**»(١٤).

٧- وكان قلبه أعمق القلوب استغفارا لله، وتوبة وإنابة إليه، فهو القلب المنيب، الراجع إلى الله، وكان أصفى قلب من الذنوب، وأنقى قلب من الخطايا، وباطن الإثم وظاهره، وكان يدعو الله: «**ونقِّ قلبي من الخطايا، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس**»(١٥)، وكان يدعو: «**رب اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطْواعًا، إليك مخبتًا، لك أوَّاهًا منيبًا**، رب تقبل **توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حُجَّتي، واهد قلبي، وسدِّد لساني، واسلُل سخيمة قلبي**»(١٦)، وكان يدعو الله: «**اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ..ومن شر قلبي، ومن شر منيِّي**»(١٧).

٨- وكان قلبه أشد القلوب بغضا لمعصية الله، وللإثم، وللفتن، والشرك،

---

(١٠) مسلم: صحيحه، رقم ٢٥٩٩.

(١١) السيوطي: جامع الأحاديث، ج١٢، ص٢٤٢، وعزاه لابن عساكر، والمتقى الهندي: كنز العمال، رقم ٥٩٦٨، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، ج١، ص٧٤٠.

(١٢) المتقى الهندي: كنز العمال، رقم ١٨٤٩٠، وعزاه لابن عساكر عن أنس، وقال الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم ٤٧٩٧: صحيح.

(١٣) الألباني: صحيح الجامع، رقم ٤٨١٤، وعزاه للطيالسي عن أنس، وقال: صحيح.

(١٤، ١٥) البخاري: صحيحه، رقم ٢١٦٨.

(١٦) الترمذي: سننه، رقم ٣٥٥١، وقال الألباني: صحيح.

(١٧) أبو داود: رقم ١٥٥٣، وقال الألباني: صحيح.

والطواغيت؛ وكان أكثر القلوب جهادا للمنكر، وتغييرا له، بقلبه ويده، ولسانه، وتحريضا على ذلك.

٩- وكان قلبه أصفى القلوب إيمانًا، وتوحيدًا، ويقينًا، في الله، وفي كلامه، وفي نصره، وفي البعث والجزاء، وفي الدعاء، وأكثر القلوب وأقواها وأكملها اطمئنانًا بذكر الله، وركونًا إلى الله.

١٠- وكان قلبه أبيض قلب، وأزهره، وأملأ القلوب بنور الله، وكان يدعو الله: «**اللهم اجعل في قلبي نورا**»(١٨) ، وأنزل الله على قلبه القرآن الذي هو نور: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٧٤]، بل هو السراج المنير، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، فهو القلب المنير، المستنير، فيه سراج يزهر، ينير.

١١- وكان قلبه أخشع القلوب لله، ويستعيذ بالله قائلا: «**وأعوذ بك من قلب لا يخشع**»(١٩).

١٢- وكان قلبه أقوم قلب، وأكملها استقامة: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢] على منهج الله، وأكثرها ثباتًا فيه.

١٣- وكان قلب محمد خير القلوب، كما قال ابن مسعود: «إن الله نظر في قلوب العباد؛ فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد؛ فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه؛ فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ»(٢٠)، فهو أكثر القلوب إيمانًا بالخير، وإرادة له، وعملًا به.

---

(١٨) البخاري: صحيحه، رقم ٥٩٥٧.

(١٩) الترمذي: سننه، رقم ٣٤٨٢، وقال الألباني: صحيح.

(٢٠) إسناده حسن، المسند، ج٦، ص٨٤.

١٤- وكان قلبه أوعى قلب، وأيقظ قلب، وأصحى قلب، وأرشد قلب، وأعقل قلب، وأكثر القلوب بصيرة، وبصرا، وانتباها، ويقظة.

ففي المسند عن ابن عباس، من أسئلة بعض اليهود للنبي ﷺ: قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «**تنام عيناه، ولا ينام قلبه**»[٢١]، وقال: «**إنا معشر الأنبياء: تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا**»[٢٢]، وقال: «**تنام عيني ولا ينام قلبي**»، «**إن عيني تنام، ولا ينام قلبي**»[٢٣]، «**يا عائشة، إن عيني تنامان، ولا ينام قلبي**»[٢٤]، «**إن عيني تنامان، وقلبي لا ينام**»[٢٥].

وأخرج البخاري: عن جابر بن عبد الله، يقول: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ، وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا، قال: فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان..»[٢٦] الحديث.

قال ابن حجر: قال الرامهرمزي: «هذا تمثيل يراد به حياة القلب، وصحة خواطره، يقال: رجل يقظ؛ إذا كان ذكي القلب، وفي حديث ابن مسعود: قالوا بينهم: ما رأينا عبدا قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي، إن عينيه تنامان، وقلبه يقظان، اضربوا له مثلا- وفي رواية سعيد بن أبي هلال: فقال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا- فقال: اسمع سمع أذنك، وأعقل عقل قلبك»[٢٧].

---

(٢١) الإمام أحمد: المسند، ج٤، ص٢٨٥، وقال الأرناؤوط: حديث حسن.

(٢٢) عزاه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم ٤٠٥١، لابن سعد في الطبقات مرسلا عن عطاء، وقال: صحيح.

(٢٣- ٢٥) ابن حبان: صحيحه، رقم ٦٣٨٥، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢٦) البخاري: صحيحه، رقم ٦٨٥٢.

(٢٧) فتح الباري، لابن حجر، رقم ١٣، ٢٥٥، طبعة دار المعرفة، تحت حديث رقم ٦٨٥٢.

وفي رواية: «**إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا، فقال: اسمع سمع أذنك، وأعقل عقل قلبك..**»(٢٨).

وفي رواية في المسند: «**فقال بعضهم لبعض: لقد أعطي هذا العبد خيرًا، أو كما قالوا : إن عينيه نائمتان، (...) وقلبه يقظان..**»(٢٩).

واليقظة هنا يقظة حيوية حقيقية، وليست تمثيلًا كما قال الرامهرمزي، فهي يقظة الحياة والتفكير، والضبط والوعي، والانتباه..ويقظة الضمير، والشعور، والإحساس، والذوق..والتأثر، والحياء... إلخ.

فقلب محمد لا ينام، لا يغفل، بل هو دائما يقظ صاح حي.. حي الفكر، وحي الشعور، وحي العاطفة والذوق. وحي الانتباه.. وحي العقل والفهم.. وشفاف الإحساس، والعاطفة، أخرج البخاري عن كعب بن مالك: «**وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه**»(٣٠).

وأخرج عن أبي سعيد الخدري: قال: كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها(٣١).

وأخرج عن أبي هريرة ﷺ قال: «**ما عاب النبي ﷺ طعاما قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه..**» إلخ(٣٢).

فكان قلبه أحيا قلب، وأعقل قلب، وأيقظ قلب، وأكثر القلوب وأعمقها وأخصبها بالشعور الإنساني، والتعاطف، والذوق، والتأثر الوجداني بالجمال، والقبح.

---

(٢٨) الترمذي: سننه، رقم ٢٨٦٠، وقال هذا حديث مرسل، وقال الألباني: ضعيف الإسناد.

(٢٩) الإمام أحمد: المسند، ج٦، ص٣٣٣، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

(٣٠) البخاري: صحيحه، رقم ٣٣٦٣.

(٣١) البخاري: صحيحه، رقم ٣٣٦٩.

(٣٢) البخاري: صحيحه، رقم ٣٣٧٠.

١٥- وكان قلبه أطهر قلب، وأنقى وأنظف قلب، وأبعد قلب عن الشيطان، وخلق الشيطان، إنه أنظف القلوب من الحقد، والغل، والحسد، وإرادة الدنيا، وحب المعصية، ومن كل ذنب وعيب ونقص.

لقد شرح الله له صدره، وأنزل ملائكة غسلت قلبه، مرتين، مرة وهو مسترضع في بني سعد بن بكر، ومرة قبيل الإسراء والمعراج.

ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه(...). قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره..»(٣٣)، وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه.. الحديث»(٣٤).

وفي حديث لابن إسحاق: «**واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا في بُهْمٍ لنا؛ أتاني رجلان، عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب(...) فأضجعاني، فشقًّا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني(...) حتى إذا أنقياه ردَّاه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، (...) قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بألف، فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنهم**»، قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي(٣٥).

(٣٣، ٣٤) مسلم: صحيحه، رقم ١٦٢.

(٣٥) الألباني: صحيح السيرة النبوية، ج١، ص١٦.

فقلب محمد قلب غسلته الملائكة، وأنقته، فأصبح معصوما من الشيطان، لا يسلط عليه، لا في علمه، ولا يقينه، ولا فكره، وبواعث عمله، ولا في شيء من أمره، حتى أن الله أعانه على الشيطان، فلا يأمره إلا بخير.. فيسلم منه النبي ﷺ، أو إن الشيطان ذاته، الذي هو قرين النبي ﷺ قد أسلم لله.

وكان استخراج العلقة، سببا لحياة قلبه، وقوة روحه، وكمال أمره.

ويحتمل أن تكون هذه العلقة التي استخرجت من قلبه هي أحد أجزاء القلب، المختص بها حب الدنيا والنزوع للشهوات التي منها يأتي الشيطان، أو ما يختص بها عوارض السهو والغفلة، كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم، وهي الأبواب التي يأتي منها الشيطان، فطرحت عنه، فلا يجد الشيطان إليه سبيلا، كما طرح عن يحيى شهوة النساء.

أو تكون تلك العلقة - إذا كانت في القلب- هي القابلة لوسواس الشيطان والمحركة للنفس، بما ركب الله فيها من القوى.. فأزيحت عنه ﷺ ليسلم من دواعيه الخبيثة، ونقي القلب، وغسل منها، حتى لا يبقى لها أثر القلب، جملة(٣٦).

هذا هو قلب محمد.. نقي مغسول، أخرج الله منه حظ الشيطان.. فلا تتنزل عليه إلا الملائكة.

لقد حدث هذا حقيقة مع سيدنا رسول الله ﷺ، ونحن المسلمين، يمكننا أن نتأسى- في المعنى- بأن نجاهد الشيطان، ونغسل قلوبنا بالاستغفار، وبقراءة القرآن.. وبالتضرع بين يدي الله أن يغسل قلوبنا، وأن ينقيها من الذنوب والخطايا.. آمين.

هذه هي المرة الأولى لغسل قلبه وإنقائه.. وهو مسترضع في بني سعد.

---

(٣٦) إكمال المعلم، ج١، رقم ٧٤، ص٣٣١.

أما المرة الثانية فكانت ليلة الإسراء والمعراج، لنتأمل:

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**فرج سقف بيتي، وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغها من صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء...**»(٣٧).

وأخرج عن أنس بن مالك- لعله قال: عن مالك بن صعصعة(...)- قال: قال نبي الله ﷺ: «**بينما أنا عند البيت**» - وساق الحديث، وفيه: «**فأتيت، فانطلق بي، فأتيت بطست من ذهب، فيها من ماء زمزم، فشرح صدري- إلى كذا وكذا**»- قال قتادة: «**فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه. فاستخرج قلبي، فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيمانا وحكمة، ثم أتيت بدابة بيضاء يقال له: البراق..**» الحديث(٣٨).

وأخرجه عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ قال... فذكر نحوه، وزاد فيه: «**فأتيت بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيمانا، فشق من النحر إلى مراق (أسفل) البطن، فغسل بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيمانا**»(٣٩).

وفي المسند: «**ثم جاء بطست من ذهب مملوء حكمة وإيمانا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه..**»(٤٠).

وفي المسند عن أنس بن مالك: كان أبي بن كعب يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**فرج سقف بيتي، وأنا بمكة، فنزل جبريل- عليه السلام- ففرج صدري،**

---

(٣٧) مسلم: صحيحه، رقم ١٦٣.

(٣٨) مسلم: صحيحه، رقم ١٦٤.

(٣٩) المصدر السابق نفسه.

(٤٠) الإمام أحمد، المسند، ج٤، ص٢٠٧، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي، فعرج بي إلى السماء»(٤١).

وفي رواية للطبراني من حديث أنس: «**أتاني آت، فشق من النحر إلى مراق البطن، فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب، فغسل بماء زمزم، وملئ حكمة وإيمانا... إلخ**»(٤٢).

فقلب محمد غسل، وملئ بالحكمة والإيمان، أي: بالفهم والعلم والمعرفة، والإقبال على الخير، والاجتهاد فيه، وباليقين، والتصديق، والخضوع والإذعان لوحي الله.

فقلبه أحكم قلب، وأملأ قلب بالحكمة، وبالمعرفة الخيرة، وبذكر الله، وحبه، والرضا عنه... إلخ.

ويمكن للمتبعين لمحمد رسول الله، أن يجعلوا قلوبهم محلا، ووعاء للحكمة والإيمان، فيحلوا، ويدخلوا في قلوبهم من الحكمة والإيمان ما استطاعوا.

١٦- وكان قلب محمد أشد حبا لكلام الله، القرآن، ..من أي قلب، فكان يرتله، ويتذوقه، ويحب أن يسمعه من غيره، ويتأثر به، ويرق له، وكان يقول في دعائه: «**اجعل القرآن ربيع قلبي..**»(٤٣)؛ الماء الذي يروي الزرع، ويزيل عطش القلب..ويقول الله له في حديثه القدسي: «**وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظان..**»(٤٤)، فكان أكثر القلوب حبا لقراءة

---

(٤١) الإمام أحمد: المسند، ج٥، ص١٤٣، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج١٤، ص١٧٤، وقال الهيثمي في المجمع، ج١، ص٧٥: رجاله رجال الصحيح.

(٤٣) الإمام أحمد: المسند، ج٦، ص٢٤٧، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، ولكنه صححه، وابن حبان: صحيحه، ج٣، ص٢٥٣، وقال الألباني: إسناده صحيح.

(٤٤) مسلم: صحيحه، رقم ٢٨٦٥.

القرآن، وتفكرا فيه، وتعقلا له، وفهما، وتأملا، وعملا به، فهو روح القلب، ونوره.. أنزله الله على قلبه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥] ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

١٧- وكان قلب محمد أشد القلوب وأعمقها محبة وموالاة، ونصرة لله، ولرسل الله، جميعا، وللمؤمنين، وللخير، ولمكارم الأخلاق، يوالي قلبه لله، وفي الله، ويعادي في الله، يوالي بالمحبة والنصرة كل المؤمنين، ويحبهم في الله، ويلين لهم قلبه، ويعطف عليهم، ويود لو رآهم.. ويشتاق لهم.

١٨- وكان قلب محمد لا يخشى في الله لومة لائم، كان أشجع القلوب، وأجرأها في الحق، قواما لله، يشتد غضبه إذا انتهكت محارم الله، لا يهاب الموت، ولا أسباب المنايا.. صادقا الصدق كله في طلب الشهادة في سبيل الله، كان يطلب الموت الشريف، مظانه.. فكان يود أن يقتل في سبيل الله، ثم يحيا، ثم يقتل.. عشر مرات.. وكان كما يقول خادمه أنس: «أشجع الناس»(٤٥).

١٩- وكان قلبه أكثر القلوب حرية وتحررا من كل قيد داخلي، أو خارجي، كان قلبه متحررا مبغضا للطغيان والاستبداد، وأكثر الناس تحريضا على ذلك.. وكان يقول: «**لا يقدس الله أمة لا يأخذ فيها الضعيف حق غير متعتع..**»(٤٦).

٢٠- وكان قلب محمد أشد القلوب صلابة في دين الله، وثباتا عليه، وتمسكا به، وعقدا عليه.. لم يتنازل أبدا عن شيء من دينه، ولم يساوم عليه، تقول عائشة: «ما خير رسول ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما،

---

(٤٥) سبق تخريجه.

(٤٦) البزار: مسنده، ج١٨، ص٢١٩، وقال الهيثمي في المجمع، ج٥، ص٢٥١: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه المثنى بن الصباح وهو متروك.

فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها»(٤٧) رواه البخاري.

وظل ثابتا على دينه مجاهدا عليه حتى رفع إلى الرفيق الأعلى.

٢١- وكان أكثر القلوب وجلا وخوفا من تقليب الله للقلوب، وتصريفه لها، فكان أحرص قلب إنساني، على الثبات في الدين، فكان- كما تقول عائشة: يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك وطاعتك**»(٤٨)، وعن أم سلمة أن النبي ﷺ كان أكثر دعائه: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك..**» (٤٩).

ويسأله- تعالى- أن يصرف قلبه على طاعته، وألا يزيغ قلبه..عن هداه.

٢٢- وكان قلب محمد أكثر القلوب شعورا بنظر الله للقلوب والأعمال «..**ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم..**»(٥٠). ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢١٩].

وكان قلبه أكثر القلوب مراقبة لله، وشهودا لمعاني أسمائه وصفاته الحسنى، وأعمق القلوب المؤمنة تعبدا لله بها، وإحصاء لها، وذكرا لله بها، في كل أحواله.

٢٣- وكان قلب محمد أعمق القلوب وأكملها توكلا على الله، واعتمادا عليه، وثقة فيه.

٢٤- وكان قلب محمد أكثر القلوب هجرة إلى الله، وإلى الدار الآخرة، وحبا لما عند الله، وللرفيق الأعلى، وأعمقها غربة عن الدنايا والدنيا.. ويقول:

---

(٤٧) البخاري: صحيحه، رقم ٣٣٦٧.

(٤٨) الإمام أحمد: المسند، ج٦، ص٢٥٠، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٤٩) الترمذي: سننه، رقم ٣٥٢٢، وقال الألباني: صحيح.

(٥٠) مسلم: صحيحه، رقم ٢٥٦٤.

«**ما لي وللدنيا..**»[٥١].

٢٥- وكان قلبه أخشع القلوب لله، وأكثرها تواضعا لله، في خلقه.

٢٦- وكان قلبه أتم القلوب إسلاما لله، واستسلاما له، فهو أول المسلمين لله.

٢٧- وكان قلبه أسلم القلوب من كل شهوة حرام، ومن كل شبهة، ومن كل حقد، وحسد، وإثم، وغل، وشرك، وكان يدعو الله: «**وأسألك قلبا سليما..**»[٥٢]، ويقول لأصحابه: «**لا يخبرني أحد عن أحد من أصحابي شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[٥٣].

فكان أكثر القلوب نقاء، واتقاء للفحش والتفحش، والقبح، والشرك، وأنزه قلب عن كل ما يشين الإنسان.

٢٨- وكان أكثر القلوب طهارة، ونهوضا لله، وأملأها بنية الخير، إخلاصا لله.

٢٩- وكان قلبه أغنى قلب بالله، وأفقر قلب إلى الله، وأثرى القلوب مشاعر إنسانية، وأحاسيس راقية، فكان أكمل القلوب استغناء، واعتزازا بالله.

٣٠- وكان أورع قلب، وأترك قلب للحرام والشبهات، وكان يقول: «**كن ورعا تكن أعبد الناس**»[٥٤]، ويقول: «**من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه..**»[٥٥].

٣١- وكان أزهد قلب في كل ما سوى الله، وفي كل ما لا يحبه الله، فكان أكثر القلوب زهدا في الدنيا، والمال والجاه، وكان «يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»[٥٦].

---

(٥١) البخاري: صحيحه، رقم ٢٤٧.

(٥٢) الإمام أحمد: المسند، ج٤، ص١٢٣، وقال الأرناؤوط: حسن بطرقه.

(٥٣) أبو داود: سننه، ج٢، رقم ٤٨٦٠، ص٦٨١.

(٥٤) ابن ماجه: سننه، رقم ٤٢١٧، وقال الألباني: صحيح.

(٥٥) البخاري: صحيحه، رقم ٥٢.

(٥٦) مسلم: صحيحه، رقم ٢٣١٢.

٣٢- وكان قلب محمد أكثر القلوب ذكرا للمصير إلى الله، وفكرا فيما بعد الموت، واستحضارا للجزاء يوم القيامة.

٣٣- وكان قلبه أصلح القلوب، وأكثرها حبا للصلاح، والإصلاح في الخلق وللعمران البشري والطبيعي، وأشدها بغضا للفساد والإفساد في الأرض.

٣٤- وكان قلبه أكثر القلوب استبشارا، وأملا في الله، وفي نصره، ورجاء فيه، وفي حسن ثوابه، يقول بريدة رضي الله عنه: «كان لا يتطير، ولكن يتفاءل»(٥٧)، ويقول ابن عباس: «كان يتفاءل ولا يتطير..»(٥٨)، وكان أحسن القلوب ظنا في الله، ورجاء فيه، ويقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن في الله**»(٥٩)، وكان أكمل قلب يشعر بمعية الله: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: ٤٠].

٣٥- وكان أصدق القلوب، وأعمقها شعورا بالمسؤولية، ويقول: «**إن الله سائل كل راع عما استرعاه..**»(٦٠)، ويقول: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته..**»(٦١).

٣٦- وكان أكثر القلوب ذكرا لله.. تقول عائشة: «كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه»(٦٢)، ويقول أبو سعيد: «**كان يكثر الذكر، ويقل اللغو..**»(٦٣)،

---

(٥٧) الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، رقم ٥٤٥٠.

(٥٨) الإمام أحمد: المسند، ج٤، ص١٦٩، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٥٩) مسلم: صحيحه، رقم ٢٨٧٧.

(٦٠) الترمذي: سننه، رقم ١٧٠٥، وقال الألباني: صحيح.

(٦١) البخاري: صحيحه، رقم ٨٥٣.

(٦٢) مسلم: صحيحه، رقم ٣٧٣.

(٦٣) ابن حبان: صحيحه، رقم ٦٤٢٤، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، الألباني: صحيح وضعيف سنن النسائي، ج٤، ص٥٨.

ويقول: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة**»(٦٤).

٣٧- وكان قلب محمد أدوم القلوب شكرا لله على نعمه، وحمدا له، وثناء عليه، فهو الحامد، وأمته الحامدون.

٣٨- وكان قلب محمد - دائما - قلبا جديدا، وكان يقول لأصحابه: «**اسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم..**»(٦٥).

٣٩- وكان قلب محمد أكثر القلوب خوفا من الله، ووجلا منه، وبكاء من خشيته.. والوقوف بين يديه.. وكان يسجد لله فيطيل السجود، مستجيرا بالله، مستعيذا به، ودموعه تبل الأرض، خشية ووجلا ورقة، ويقول: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(٦٦).

٤٠- وكان أكثر القلوب حبا لتعظيم الله، والسجود بين يديه، وتفتحا لعطاءاته.. وتذوقا لذكره، وتفكرا في قيامه وركوعه وسجوده، ويقول: «**أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد..**»(٦٧)، فقام لله، في الساجدين، تقربا، من رب العالمين: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، فسجد، لله، واقترب من الله في السحر.. في التهجد.. «**فكان أقرب الخلق إلى الله.. حتى قال الله له: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفتح: ٨] وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يرد بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر.. ويكون رحيما**»(٦٨).

---

(٦٤) مسلم: صحيحه، رقم ٢٧٠٢.

(٦٥) الحاكم: المستدرك، ج١، ص٤٥، وقال: هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات، ووافقه الذهبي، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ج١، ص٥٨، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن.

(٦٦) مسلم: صحيحه، رقم ٤٨٦.

(٦٧) مسلم: صحيحه، رقم ٤٨٢.

(٦٨) البخاري: صحيحه، رقم ٢٠١٨.

وفي نبوة أشعياء: «عبدي الذي سرت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، (...) ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، والآذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطي أحدا، يحمد الله حمدا جديدا، يأتي من أقصى الأرض، وتفرح البرية وسكانها، يهللون الله على كل شرف، ولا يميل إلى الهوى، (...) ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة، بل يقوي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفى، أثر سلطانه على كتفيه»(٦٩).

هذه هي معالم قلب محمد رسول الله ﷺ.. هذا هو قلب نبينا وأسوتنا.. النموذج الكامل.. ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

تم الكتاب
والحمد لله رب العالمين

---

(٦٩) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، مصدر سابق، ج١، ص٥١٤.

فهرس الجزء الثالث

الموضوع — الصفحة

الفصل السابع عشر
تربية تخلص القلب من الوهن

الفصل الثامن عشر
تربية القلب الغني

الفصل التاسع عشر
تربية القلب الغني وجعل غناه في قلبه

الفصل العشرون
تربية الكَرْم والحرية في قلب المؤمن

الفصل الحادي والعشرون
تربية القلب الخاشع لله ـ عز وجل

الفصل الثاني والعشرون
تربية القلب الشاكر

الفصل الثالث والعشرون
تربية القلب المتواضع المتحرر من الكِبر

الفصل الرابع والعشرون
تربية الإيمان والخير في القلب
خروج من النار

الفصل الخامس والعشرون
تربية القلوب المتآلفة

الفصل السادس والعشرون
تربية القلب المعلق بالمساجد

الفصل السابع والعشرون
تربية القلب المؤمن الموجه لمكارم الأخلاق الاجتماعية

الفصل الثامن والعشرون
تربية القلب المجاهد المغيِّر للمنكر

الفصل التاسع والعشرون
تربية القلب المستقيم

خاتمة الكتاب